

استراتيجية الاستعمار والتحرير

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت، ص ٨٠٤ - هاتف: ٢١٥٨٨٩ - ٢١٥١٠١ - برن، كاتدرية - تلكن، SHOROK 20175 LE
القاهرة، ١٦ شارع بنواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - بروكنا، شروق - تلكن، 83001 SHOROK UN

د. جمال حمدان

استراتيجيَّة الإستعمار والتحرير

دار الشروق

الفهرس

الصفحة

٧	مقدمة
		الباب الأول - من العصور القديمة إلى الحديثة
١٣	الفصل الأول - في العصور القديمة ..
٢٤	الفصل الثاني - العصور الوسطى .
٤٩	الفصل الثالث - عصر الكشوف الجغرافية ..
٦٤	الفصل الرابع - الاستعمار البحري ..
٨٤	الفصل الخامس - القوى البرية والاستعمار ..
		الباب الثاني - قرن الاستعمار
١٠٣	الفصل السادس - الانقلاب الصناعي والاستعمار ..
١٢١	الفصل السابع - نماذج من الاستعمار للدارى ..
١٤٢	الفصل الثامن - صراع القوى في العصر الصناعي ..
١٦٧	الفصل التاسع - امتداد صراع القوى ..
١٩٢	الفصل العاشر - النظرية العامة في الاستراتيجية العالمية ..
		الباب الثالث - عالمنا المعاصر
٢١٨	الفصل الحادى عشر - ثورة التحرير .
٢٥٢	الفصل الثانى عشر - الانقلاب النووى ..
٢٩٨	الفصل الثالث عشر - من الحرب الباردة إلى الوفاق ..
٣٣٢	الفصل الرابع عشر - استراتيجية عدم الانحياز ..
٣٧٤	الفصل الخامس عشر - ما بعد الوفاق وعدم الانحياز ..

مقدمة

الصراع الذى يعيشه عالم اليوم ، هذا الذى يتمزق بين كتل العقائديات المتناقضة ، وقوى التحرير الفوارة ، ورواجع الماضى المتربصة ، ما نمطه الإقليمى - إن كان ثمة نمط - وما أصوله التاريخية ؟ وهذه التطورات العميقة التى يشهدها توزيع القوى والأوزان السياسية بين الدول والكتل والقارات ، وهذه الانقلابات الكاملة فى الاستراتيجية الكوكبية فى ظل العصر النووى ، هل هى تحولات أو تحويرات للماضى بدرجة ما ، أم هى ظفرات بكر تماما فى تاريخ البشرية ؟ إلى أين يتجه نمط توزيع القوى السياسية والاستراتيجية فى مستقبل سيخلو من الإمبراطورية واحتكار القوة والعلم وقد تنتشر فيه الأسلحة النووية انتشار الحضارة والتكنولوجيا الحديثة ذاتها ؟ وما احتمالات المستقبل بالنسبة لسياسة وليدة كعدم الانحياز ، ولقوة جديدة كالعالم الثالث ؟

قد لا يكون من الصعب أن نرى نمط القوة العالمية المعاصر يتنضد - قاعديا - فى هيكل ثلاثى يبدأ من كتلة قديمة غربية رأسمالية استعمارية ، يمر بكتلة أحدث شرقية اشتراكية تقدمية ، حتى ينتهى بقوة - وليس بكتلة - أشد حداثة وأميل إلى الاشتراكية بقدر أو بآخر ، ولكنها تمتاز أساسا بأنها متخلفة اقتصاديا ، حديثة الاستقلال والتحرر سياسيا . ولكن ألم تكن الصورة تقتصر ، حتى الحرب العالمية الثانية فقط ، على قطبي القوتين الأوليين وحدهما ؟ بل أليست قوة المعسكر الشرقى ذاتها ، بالقياس إلى القوة الغربية المحضرة ، طارئا حديثا نسبيا لا يتعدى الحرب العالمية الأولى بصرامة ؟

النمط إذن حديث ، أو هكذا يبدو على السطح ، وهو على كل حال متطور سريع التغير . ولكن - تحت الجلد - هل هو منفصل حقا عما سبقه من تاريخ ؟ إن الذى يستقرئ مراحل التاريخ السياسى والاستراتيجى المتعاقبة يجبهه - وهو جدير أيضا بأن يروعه - دائما أو غالبا نمط ثلاثى متواتر لصراع القوى قد يختلف عن النمط المعاصر فى التفاصيل والظلال

والأبعاد : ولكن لعله لا يختلف عنه كثيرا في أساسياته وجوهره . وإذا كان لنا أن نستبق نتائج مثل هذه الدراسة ، فحسبنا أن نشير هنا إلى نظرية مفكر جغرافي كبير مثل ماكيندر . فقد اختزل تاريخ الصراع الاستراتيجي في العالم في أنه في جوهره صراع بين قوة البروقوة البحريترك بينها قوة بينية برمائية في المنزللة بين المنزلتين - ثلاثية استراتيجية أخرى تستبق ثلاثية اليوم وإن لم تكررهما تماما بالطبع !

ومثل هذا عن الاستعمار يقال . فالاستعمار - هذا الذي يبدو بعامة حديث العهد ويرتبط لأمر ما في الكتابات الدارجة بالقرن التاسع عشر بوجه خاص - هو الآخر ظاهرة قديمة لها أصول تاريخية بعيدة بدرجة أو بأخرى . فالاستعمار الحديث الذي يحتضر اليوم إنما استوى على سوقه في القرن التاسع عشر فقط ، أما جذوره فتضرب في أعماق عصر الكشوف الجغرافية منذ القرن السادس عشر وما بعده ، بل لعلك واجد بذوره الأولى قبل ذلك جميعا . وأنت لن تستطيع أن تفهم نمو الاستعمار العالمي ولا تطور صراع القوى الدولية إذا قصرت بؤرتك على المنظور المعاصر . أكثر مما يمكنك أن ترى ناطحة سحاب إذا نظرت إليها من سطحها .

والذي نود أن نؤكد به هذا هو أهمية البعد التاريخي مدخلا إلى أية دراسة علمية جادة وعميقة لواقعنا السياسي والاستراتيجي المعاصر . وبغير هذا تبدو الحقائق مقتلعة ، والتعميمات - ربما - مبتسرة مفتعلة ، وتخرج الصورة كلها ولها مسطح ولكن ليس لها عمق . ولهذا فنحن بحاجة حقيقية وملحة إلى دراسة كاملة متكاملة ، أصولية منظمة ، لتاريخ الاستعمار في العالم من ناحية ، ولتاريخ الصراع الاستراتيجي من ناحية أخرى . وبغير هذا فلن نخرج بقوانين علمية أو أشباه قوانين ، ولن نختزل التاريخ في معادلات إقليمية موجزة مركزة ذات مغزى مثلا هي خفيفة الحمل في الذهن .

والحقيقة أن التاريخ هو معمل الجغرافي كما قيل ، وهو كذلك مخزن الاستراتيجي الذي لا ينضب ، وكل منها يستمد منه خامته ويجري عليها تجاربه . وبالنسبة للجغرافي بالذات ، فإن التاريخ إذا كثر نفسه - وهو قد يفعل - فهذا التكرار هو الجغرافيا : أعني أن الجغرافيا بهذا هي الجذر الجبري للتاريخ ، وعملية استقطاب له وتركيز . أكثر من هذا ، ليس التاريخ كما عبر البعض إلا جغرافية متحركة ، بينا أن الجغرافيا تاريخ توقف ، وهما معا أشبه شيء بقرص الطيف : إذا سكن على عجلته تعددت ألوانه ، فإن هو دار وتحرك استحال لونا جديدا واحدا .

وعلى هذا الأساس يقوم البحث الحالي . فهو دراسة في الجغرافيا السياسية بجانيها التاريخي والمعاصر ، تحاول أن تتبع مورفولوجية التاريخ داخل إطار أو أطر واضحة التحديد من مورفولوجية الجغرافيا ، وتسعى إلى أن تصب حركة التاريخ وتقلتها في خطوط اقليمية غير باهتة أو متميعة على الأقل . وعلى ذلك فالدراسة تتبع أولا حركات بناء الإمبراطوريات والتوسع الاستعماري عبر العصور ، عصرا بعد عصر ، مجالين دوافعها ومحركاتها ، أنماطها الجغرافية وصراعات القوى فيها أو من حولها ، نقاط قوتها أو ضعفها الاستراتيجي ، كما نحاول أن نستشف ونستنتج منها دروسها الجيوستراتيجية الأكثر خلودا وبقاء .

كل أولئك دون أن نفرض على الحقيقة التاريخية الموضوعية الغفل ذاتها « نظرية عاملة » بعينها أو قانونا مبتسرا أو شبه قانون . إلى أن نصل إلى الفترة المعاصرة ، فبعدها يكون قد تجمعت لدينا من ناحية كل روافد التاريخ وتياراته ، وتراكمت دروسه ، وتواتر تكراره ، بحيث يتجسد منطقته تلقائيا ويمكننا أن نضع أيدينا على نبضه . ومن ناحية أخرى نكون في حل علميا من أن نحاول إخضاع هذا الركام الضخم من الحقيقة التاريخية لنظرية أو أخرى تستقطبها أو تحتزها لتكون تلخيصا أو تقينا للتاريخ أولا ومفتاحا للتنبؤ بالمستقبل ثانيا .

وفي هذه الدراسة ينبغي لنا أن ننبه إلى تداخل بعدين أو عنصرين ، لا انفصام لها في الواقع ، وهما الاستعمار كحركة توسع وتسلط ، وصراع القوى الاستراتيجية كعملية بقاء أو تضخم . وليس كل صراع بين القوى هو من أجل الاستعمار ، ولكن كل استعمار هو صراع من أجل القوة . بيد أنه يبقى في النهاية أن كلا منها يؤثر في الآخر ويتأثر به ، إن لم يكونا في الحقيقة جانبيين لنفس الشيء .

ولقد يمكن أن نكتفي في تتبع أصول الاستعمار الحديث بالبده بعصر الكشوف الجغرافية ، ولكن لكي نفهم استراتيجية القوى العالمية لابد أن نogl إلى أبعد أعماق التاريخ ، لأنه بالدور التاريخي الكامل وحده تبرز الشخصية الاستراتيجية الكامنة لأي إقليم . وهكذا تعود الدراسة الأصولية التاريخية الكاملة فتؤكد أهميتها وضرورتها ، وصولا إلى كليات ودخائل الموقف السياسي المعاصر . وإنما لرحلة طويلة شاقة بالتأكيد ، ولكنها شيقة طموح بنفس الدرجة ، وأكثر منها واعدة ومجزية إلى أقصى حد .

البَابُ الْأَوَّلُ

من العصور القديمة إلى العصور الحديثة

الفصل الأول

فى العصور القديمة

قد نعد الاستعمار قديما قدم الإنسان . فمن الممكن أن ننظر إلى التاريخ القديم على أنه فصول متلاحقة أو متداخلة من الهجرات والغزوات . ولكن مثل هذه كانت أقرب إلى التحركات غير الهادفة ، بل البدائية أو « الغريزية » ، منها إلى الحركات المقتنة المخططة الواعية ^(١) . فقد كانت البشرية لا تزال فى حالة هلامية رجراجة ، أو هى كانت غللافا زئبقيا بعيدا عن الاستقرار والتوطن والارتباط الوثيق المحدد بأرض محددة . ونحن أقرب إلى الصواب إذا اعتبرناها أدخل فى عداد ما يسميه والتر باجهوت بفترة تكوين الأجناس race-making period منها فى فترة تكوين الأمم nation-making ، ومن ثم أقرب إلى الأنثروبولوجيا منها إلى السياسة .

ومع تطور المجتمع والحضارة وزيادة الارتباط الايكولوجى عضويا ومجتمعيا بين الجماعات والأقاليم ، ومع اطراد نمو الدولة كشكل سياسى ، تأخذ الحركات البشرية بالتدرج انجهاها أوضح نحو الاستعمار ، الاستعمار بمعنى سيطرة منظمة لجماعة على جماعة أخرى . ويمكننا عبر تلسكوب التاريخ أن نرى العالم القديم فى فجره المكتوب يتألف من سلاسل مرصعة كالموزايكو من الصراعات المحلية الصغيرة أو الضيقة فى مداها وحدودها الجغرافية ، وأغلبها أو أخطرها لا يخرج عن معادلة بعينها محددة هى « الصراع بين الرعاة والزراع » .

من معادلات الصراع

وعادة ما تتشكل هذه المعادلة بشكل بيئتها الجغرافية فتأخذ لونا محليا خاصا . فهو إما الصراع بين « الرمل والطين » ، وإما بين « الاستبس والغابة » ، أو بين « الجبل

G.H.T. Kimble, World's open spaces, Lond., 1947, p. 9-10.

(١)

والسهل . « وقد تتداخل هذه الصراعات كلها أو بعضها في حالات أو تتعاقب في حالات أخرى . وكلها في النهاية صراع بين قوى بر وبر ، بين فلاحين ورعاة - بمعنى آخر صراع أشباه أكثر منه صراع أضداد .

فأما معادلة الرمل والطين فهي تلخص عند برستد تاريخ الشرق القديم ، حيث نجد هجرات الرعاة وغزواتهم - ابتداء من الآراميين إلى الكنعانيين والفلسطينيين والعبرانيين والفينيقيين .. الخ - تتواتر خارجة من قلب الجزيرة العربية خاصة إلى كل المناطق الزراعية المجاورة في الهلال الخصيب ووادي النيل ، ومثلها إلى حد كبير هجرات المور من الصحراء الكبرى الغربية على إقليم المغرب .

أما معادلة الصراع بين السهل والجبل فهي بحكم طبيعتها محلية أساسا ، ولذا تنتشر في تضاعيف العالم القديم كدوامات موضعية . وهي تختلف عن أنماط الصراع الأخرى في أنها رأسية لا أفقية ، كما أنها أكثرها قارية بطبيعتها . فنرى رعاة الجبال المحاربين يهبطون على السهول وينقضون عليها من حائق كالهيار الجليدي غزاة أو محربين : من جبال أرمينيا وكردستان إلى سهول الرافدين التي هبط عليها من قبل الكاسيون Kassites في الشمال والهيلاميون في الجنوب ، ومن بعد الآشوريون الذين سيطروا عليها جميعا . كذلك من مرتفعات الأناضول توالى هجوم ونزول الميتاني والميديين والحيثيين على الهلال الخصيب شرقا وغربا^(١) . وفي أوروبا من قلاع البلقان إلى أحواضها ، ومن كتلة الألب إلى سهول البو ولومبارديا .

أما الصراع بين الاستبس والغابة ، فلعله أبعد أنماط الصراع القديم مدى وتراميا ، ولو أنه لم يكن استعمارا بقدر ما كان تحريبا ، ولم ينشئ دولا أو إمبراطوريات مثلما حطم دولا وإمبراطوريات . فهد فجر التاريخ والاستبس الأسيوي العظيم يمثل ضد إعصار بشري يلفظ بالموجات البشرية المتتابة لتظهر كالطفح على طول القوس الهائل من الأراضي الزراعية الغنية التي تحف به شرقا وجنوبا وغربا .

وتحت تأثير طرد البيئة الرعوية الفقيرة وما قد يعثرها من نوبات من الجفاف ، مع إغراء المناطق الغنية الرخية ، كانت جحافل الرعاة تخرج كالطوفان لتنتشر كالمروحة . ومع الانتخاب الطبيعي القاسي الذي تفرضه البيئة وقسوة الهط البشرى الناتج ، وبفضل حركة

James Fairgrieve, Geography & world power, Lond., 1941, p. 38 et seq.

(١)

الخيل الكاسحة ، كانت هذه الموجات تزحف آلاف الأميال لتهدى عاتية كالمطرقة على مناطق الاستقرار المحيطة .

ورغم قلة عدد سكان الاستبس كثيرا بالنسبة لسكان النطاقات الزراعية ، فقد كان لرعاة الاستبس دائما التفوق العددي في النقطة المحددة التي يختارونها لضرباتهم تلك . فإذا أضفنا إلى هذا مرونة حركة الخيالة ، سواء بالحصان أو بالعربة وهي اختراع استبسي أصلا ، والتي تتمثل في « الكروالفر » كتكتيك استبسي أصيل به يحدد وحده مكان وزمان المعركة ، أدركنا ميزة الاستبس على المزرع استراتيجيا^(١) . ومن هذا جميعا نفهم كيف أمكن « لتراب الرعاة » المخلخل هذا - كما يسميه برون^(٢) - أن يسيطر ويتغلب على « الارسابات البشرية » الكثيفة المستقرة في تضاعيف الغابة أو أودية الأنهار .

ولكن نقطة ضعف الاستبس الأصلية والتي تصم دوره التاريخي بالعقم والسلبية في النهاية هي أنه - بحكم حركته وسيولته تلك بالذات - عجز عن أن يقيم إمبراطوريات دائمة أو أن يستقر في دول ثابتة راسخة . فقد كانت موجاته تأتي كالزوبعة ، وكالدوامة تختفي . فإما أن تعود وترتد بعد السلب والنهب ، وإما أن تتلاشى وتذوى في دويلات حاضرة على حدود المزرع ولحسابه - بوليس إمبراطوري أو حرس حدود بمعنى آخر . ولهذا فإن مكان الاستبس في الاستعمار أقرب شيء إلى الاستعمار السلبي ، ودوره التاريخي أشبه بالنيازك والشهب بين النجوم : ضجيج وبريق رهيب سناه ، لا يلبث أن يستهلك نفسه ويحترق بنفسه .

موجات الاستبس

فإذا ما تتبعنا موجات الاستبس في التاريخ القديم^(٣) وجدناها تتجه إلى الصين أكثر منها إلى الهند ، أولا لأن على باب الصين تقع منشوريا وهي محيط استبسي ومحطة احتشاد وانطلاق للاستبسين ، وثانيا لأن الصين لا تملك حائط الهملايا ، ذلك « السور الطبيعي العظيم » الذي حمى الهند بقدر الامكان من ضغوط الاستبس . أما الصين بأنهارها وسهوها فكانت مفتوحة لهذا التيفون - (والكلمة مأخوذة عن الطوفان العربية)^(٤) -

(١) Owen Lattimore, Inner Asian frontiers, in New compass of the world, N.Y., 1949, p. 269.

(٢) Jean Brunhes, La Géographie humaine, Paris, 1925, t.II, p. 802.

(٣) Edmond Demolins, Comment la route crée le type social, Paris, t.I.

(٤) Thomas Quayle, "Geography & language", Geog. teacher, 1917-8, p. 81.

البشرى ، فكان عليها أن تبني سورها الصناعى العظيم فى وجههم - دون جدوى .
ويسجل التاريخ موجتين هامتين فى تلك الفترة ، غزوة كبرى فى القرن الثالث ق . م كان
من جرائها مباشرة بناء ذلك السور ، ثم موجة أخرى فى القرن الثانى الميلادى .

غربا

أما غربا ، فقد اتخذ الاستبس طريقين ووجهتين ، أولا طريق الاستبس المرتفع على
طول هضاب ومرتفعات وسط وجنوب غرب آسيا ابتداء من منغوليا حتى إيران . والوجهة
هى الشرق الأوسط الخصيب . فهؤلاء هم الذين أسقطوا آشور ، ومنهم جاء الهكسوس
إلى مصر . ولعل موجة الهكسوس هى الموجة الوحيدة فى التاريخ القديم التى استطاعت أن
تضرب من قلب الاستبس بعيدا إلى حد الوصول إلى مصر . ولكن الهكسوس لم يخضعوا
مصر جميعا بل شالها فقط ، ولم يلبثوا فيه طويلا عند ذلك .

أما الطريق الثانية فهى الاستبس المنخفض على طول السهول العظمى فى قلب آسيا
وشرق أوروبا ابتداء من طوران حتى البحر . وكان هذا فى الحقيقة أخطر طريق طرقه
الاستبسيون وارتبطوا به وارتبط بهم . ولهم معه ميكانيكية خاصة فريدة فى بابها وخطيرة فى
نتائجها . فكمر سهلى قارى متصل Durchgangsland تتجاوب أجزاءه كما لوبقانون الأوانى
المستطرفة ، كانت كل حركة تبدأ من القلب - قلب الاستبس فى آسيا - تدفع بالجماعات
الرعيية الواقعة غربها ، فتدفع هذه بما بعدها غربا ، وهكذا حتى تدفع الأخيرة الزراع فى
شرق أوروبا ووسطها (١) .

وبهذا التأثير والدفع غير المباشر لعب الاستبس الأسيوى دورا خطيرا فى تشكيل تاريخ
وتكوين أوروبا ، حتى أصبح تاريخها منذ ذلك الحين لا يفهم إلا كجزء فى الحقيقة من
تاريخ أوراسيا ككل (٢) . ولما كان الجيران المباشرين للإمبراطورية الرومانية هم برابرة
التيوتون والجرمان الذين جمعوا بين الرعى والزراعة ، فكثيرا ما كانت حركات البرابرة
الأسيويين تنتهى بتحريك البرابرة الأوربيين ليغيروا على الإمبراطورية .

فى أوائل العصر المسيحى ، وخاصة فى القرنين الثالث والرابع ، اشتدت غارات
القبائل الجرمانية من الألمانى Allemanni والقوط والوندال والفرانك « الفرنجه » ، على

(١) جمال حمدان ، أنماط من البيئات ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٩ .

(٢) Halford J. Mackinder, The geog. pivot of history. Lond., 1951, p. 31.

الأرجح نتيجة لضغط برابرة آسيا عليهم من الخلف^(١) . وأدى تغلغل هذه الغزوات في جسم الإمبراطورية إلى تكوين إمارات داخلها حتى انتهت بانهيار الإمبراطورية . وفي القرن الخامس وصل الآسيويون بأنفسهم إلى حدود الإمبراطورية في شكل الألان Alans والهون تحت قيادة أتيل الهون المشهور .

وقد كانت موجة الهون من أعنى ما تعرضت له روما وأكثرها تخريبا وتدميرا . وقد اتخذوا من استبس المجر - حوض ألفولد Alföld الكبير أو البوشتا Puszta - نقطة ارتكاز للهجوم على الإمبراطورية التي كانت بالنسبة للبوشتا في موقع كموقع الصين بالنسبة لاستبس منشوريا . فاندفع أتيل من البوشتا غربا حتى فرنسا ، لكنه صد أخيرا عند شالون . وقد يكون في هذه الهزيمة مغزى هام ، لأن معناها أن رعاة الاستبس لم يفشلوا إلا حين خرجوا عن نطاق بيئتهم الطبيعية^(٢) .

ومع ذلك فقد كان أثر الهون في تشكيل أوروبا بعيد المدى . فرمما كنتيجة لضغوطهم قفز الأنجلز والسكسون من غرب القارة إلى الجزر البريطانية ليؤسسوا إنجلترا ، بمثل ما هرب سكان أكويليا وبادوا في إيطاليا بعد تخريبها المباشر إلى الجزر الساحلية المواجهة ليؤسسوا البندقيه . وعدا هذا ، فكرد فعل للخطر الهوني تحالف الفرانك والقوط والرومان لأول مرة في شالون ونما بينهم وعى قومي جنيني ، وبهذا كان الهون في الحقيقة يصنعون فرنسا الجديدة بوحدها وقوميتها^(٣) .

على أن الهون ككل سرعان ما تفتتوا بعد وفاة أتيل نفسه وتجاربوا وارتدوا شرقا إلى مصدرهم الأصلي ، ولو أن قلة منهم استقرت نسبيا في الزراعة وحاولت الإمبراطورية تثبيتهم بكل الوسائل كمنعهم من العودة أو إغرائهم بإمارات وولايات حدية خاضعة لها . على أن خطر الهون لم يرتفع إلا ليلتوه خطر الأفار Avars في القرن السادس ، وكان لا يقل عن سابقه في التخريب والتدمير . وقد اتخذوا من سهل المجر الاستبسي مركزا لحكهم عدة قرون . وكتيجة مباشرة لضغط الأفار ، طردت قبائل اللونجوبارد Longobards المتبربرة وقذف بهم من تخوم الإمبراطورية حتى استقرت في سهل لمبارديا - ومن هنا

Fairgrieve, p. 106-8.

(١)

Demolins, loc. cit.

(٢)

Mackinder, op. cit., p. 31, 35.

(٣)

الاسم . وبالمثل يعود إنشاء شارلمان لمملكة النمسا إلى خطر الأفار ، فقد أسسها لتكون دولة حاجزية وكموقع أمامى للدفاع عن الإمبراطورية^(١) .

أخيرا ، وفي مؤخرة الأفار ، أتى البولجار (البلغار) Bolgar من منطقة الفولجا - لاحظ وحدة اشتقاق الاسمين^(٢) - ليدوبوا في النهاية في وسط السكان الأصليين من السلاف في المنطقة التي تستمد اليوم اسمها منهم (بلغاريا) . وكانت هذه آخر ما أرسل الاستبس في صراعه مع الغابة قبل أن تبدأ العصور الوسطى .

بين البر والبحر

تلك قصة الصراعات التاريخية المختلفة في العالم القديم بين قوى بر وبر . ولكن على الماء ينبغي أن نضيف صيغة أخرى أصيلة هي « الصراع بين البر والبحر » ، بين الفلاحين والملاحين . وبينما تشتعل الصراعات السابقة من أجل « الموضع » أساسا أى من أجل الثروة المحلية الزراعية الغنية ، فإن صراع البر والبحريذ كيه الفوز بالموضع والموقع معا . فكثيرة هي جدا حركات الاستعمار القديم التي قامت بها جماعات بحرية من سكان الجزر والسواحل قاصدة جزرا وسواحل أخرى أو مناطق برية داخلية تماما .

ولقد كان البحر المتوسط هو المسرح الرئيسى لمثل هذه النشاطات التعميرية أو الاستعمارية . فكشتمل مبكر ممتاز للبيئات البحرية والفنون الملاحية : نجد موجات الاستعمار البحرى تقطع البحر في كل اتجاه : من فينيقيا إلى قرطاجنه : من أثينا إلى أسيا الصغرى وإيطاليا ، ومن قرطاجنه إلى أيبيريا .. الخ . ومما ساعد لا شك على دفع هذه الحركات عوامل الطرد الطبيعية ، فثمة حلقة جبلية تطوق البحر في معظمه ولا تترك إلا عقدا متقطعا ودقيقا من السهول الساحلية لا تكفى سكانها ، فتلفظهم إلى البحر .

وسنرى بسهولة أن كل هذه الاستعمارات كانت تتم في وسط بيئى وجغرافى واحد هو حوض البحر المتوسط ببيئته الطبيعية المعروفة ، فلم تكن لذلك تستدعى تغييرا كبيرا في نمط الحياة أو تثير مشكلة التأقلم في وجه المستعمر النازح^(٣) . كما سنرى أن المحيط الجغرافى الذى تمور داخله هذه الحركات هو - كبحر داخلى mare internum - مجال محدود إقليميا

Ibid.

(١)

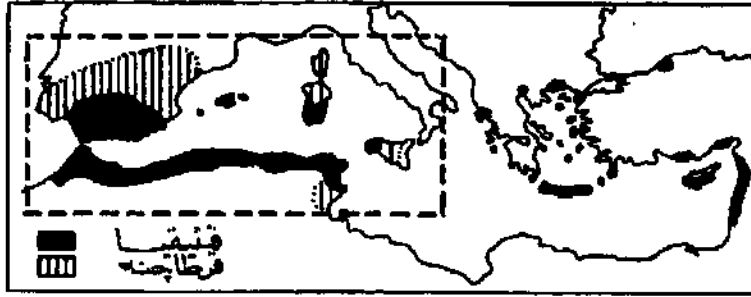
W. Gordon East, An historical geog. of europe, Lond., 1950, p. 217.

(٢)

Kimble, p. 17.

(٣)

ولا يزيد في أبعاده كثيرا عن أبعاد الصراعات البرية المحضة السابقة إن لم يقل . ولكن الحقيقة أن كل هذه الحركات هي أقرب في جوهرها إلى أن تكون صراعا بين قوى بحر وبحر أكثر منها إلى الصراع بين قوى البحر والبر بمعنى الكلمة . وحين نصل إلى هذا اللون الكامل من الصراع تأخذ الصورة أبعادا جغرافية جديدة تماما .



شكل (١) فجر الاستعمار البحري فينيقيا وقرطاجنة

وقد تطلعت قوة البحر أول ما تطلعت إلى التوسع الإقليمي في الأراضي المقابلة أو المجاورة أو المحيطة على اليابس . وبدأ بهذا خلق الإمبراطوريات البحرية المترامية الشهيرة في التاريخ thalassocracies والتي ستكون بمثابة نمط أولى بدائي prototype للإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية في عصرنا الحديث .

أثينا وروما

فكانت اليونان أول مثل من هذا النوع حين توسعت عن دائرة العالم الإيجي لتشمل غرب آسيا الصغرى وأجزاء من إيطاليا Magna Graecia وأيبيريا وشمال أفريقيا وليبيا ومصر والشام والعراق . ورغم أن الاستعمار الاغريقي كان ساحليا في جوهره ، وحتى على السواحل كان يتألف غالبا من « جزر » عميرية متقطعة - « كالمثل والصفادح حول بركة » كما عبر أفلاطون^(١) - فإنه بدأ ما أصبح يعرف فيما بعد بنظرية « وحدة البحر المتوسط » حيث جمع بين سواحله جميعا في ظل نظام سياسي إمبراطوري واحد^(٢) .

وبعد اليونان نجحت روما في خلق إمبراطورية ارتكزت على البحر ولكنها لم تلبث أن تغلغت في البرحتى أصبحت « الطرق الرومانية » أخطر أثرا في هيكل شبكة الإمبراطورية

Gordon East, p. 3.

(١)

G.F. Hourani, Arab seafaring in the Indian ocean, Princeton, 1951, p. 170.

(٢)

من الخطوط البحرية ، والفيالق المشهورة legions أبعد مدى من الزوارق الرومانية المعروفة galleons . وقد ابتلعت روما الإمبراطورية الاغريقية كاملة في الشرق الأوسط والأدنى القديم . وتمددت بعدها لتشمل كل أوروبا جنوب الدانوب وغرب الراين ، بالإضافة إلى أنها قفزت للمانش لتضم إنجلترا السهلية . وفي هذا المجال المترامي فرضت روما « السلام الروماني Pax Romana » بقوتها عدة قرون (١) .

وواضح أن هذه الأبعاد الإمبراطورية طفرة جديدة في سجل الاستعمار العسكري لم يسبق لها مثيل في التاريخ . وصلت « بوحدة البحر المتوسط » إلى منتهاها وجعلت من ذلك البحر بحيرة رومانية - « بحرنا Mare Nostrum » كما كانوا يفاخرون - وبحرا مغلقا mare clausum أشبه بنواة للإمبراطورية ، هذا بينما ترامت حدودها إلى تخومها الشهيرة limes التي تتراوح بين النهر في وسط أوروبا ، والناية في غربها ، والجبل في إنجلترا ، والصحراء في إفريقيا . والتي تقف سدا حاميا ضد القبائل المتبربرة . ويلخص توينبي الإمبراطورية الرومانية في أنها المثال النموذجي لما يسميه - في حدود العالم المسيحي - « بالدولة العالمية universal state » (٢) .



شكل (٢) الامبراطورية الرومانية

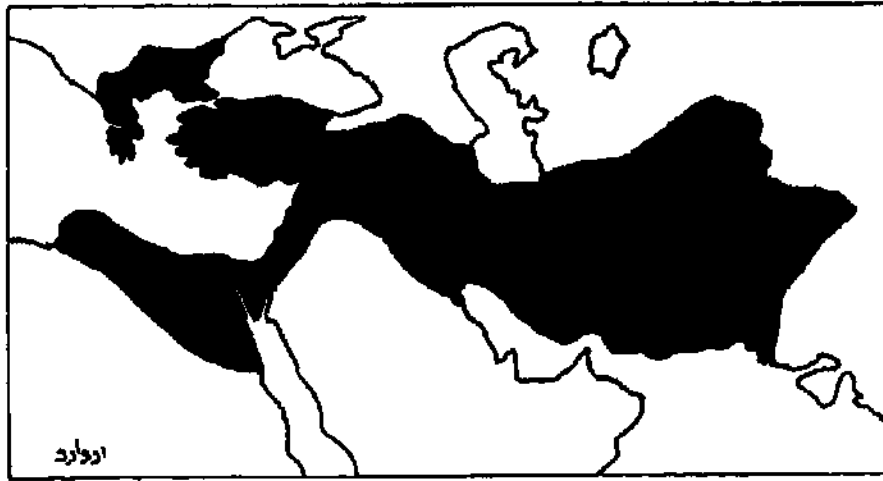
East, p. 3-4; Fairgrieve, p. 90-92.

(١)

C.B. Fawcett, Geography & empire, in: Geog. in the 20th century, Lond., 1951, p. 419.

(٢)

ويأخذ الصراع بين البر والبحر بعد ذلك أبعاداً أكبر ويتمدد إلى آفاق اقليمية مترامية حقا حين يصل التوسع الإقليمي على اليابس بالقوى البحرية إلى الاحتكاك والتصادم بقوى برية ضخمة متعمقة القاعدة . فهنا تبدأ تلك المبارزة الاستراتيجية وذلك الصراع التاريخي المرير المطوط الذي سيصبح فيما بعد النغمة الرئيسية السائدة في صراع القوى الحديثة .



شكل (٣) امبراطورية الإسكندر

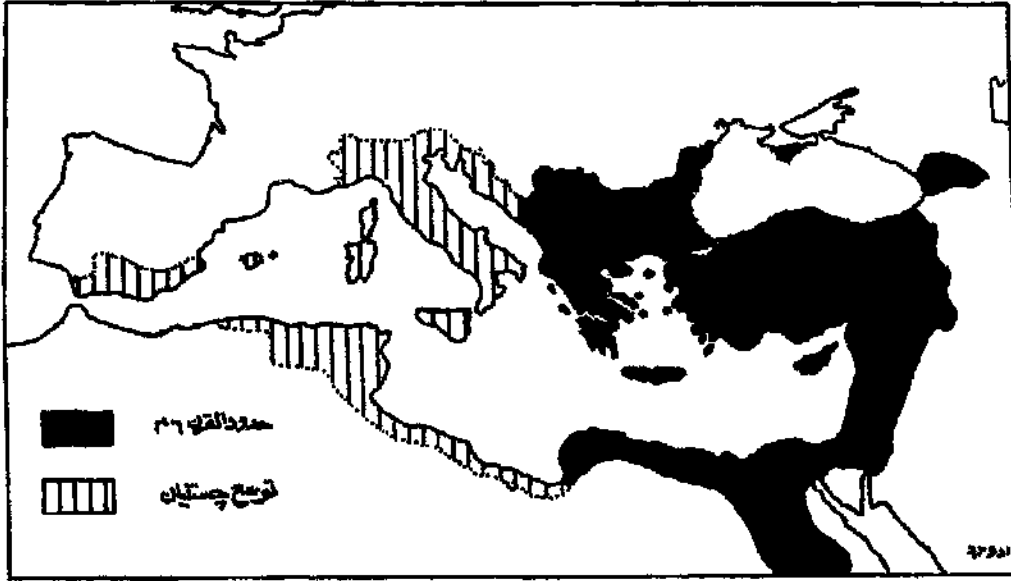
اليونان والفرس

وتبدأ هذه القصة بأثينا وفارس ، فقد كانت هاتان في العصور الكلاسيكية هما كل القوى الكبرى في المعمور القديم ، وظل الصراع بينهما سجالاتا في حروب طرواده قرونا طويلة . وكما وصلت جيوش كزر كسيس Xerxes برا حتى ثرموبيل الشهيرة بعد لفة كاسحة عبر النهرين وآسيا الصغرى ومقدونيا إلى أن هزمت بحرا في معركة سلاميس الحاسمة ، كانت اكتساحة الاسكندر الخاطفة التي سجلت قمتها في معركة أربلا (أربيل) والتي وصلت إلى الهند شرقا ، أول امبراطورية من هذا المقياس شبه القارى في التاريخ . وإذا كان النصر من نصيب قوة البحر ، ففي كلتا الحالتين استولى كل من الطرفين على المنطقة البينية في الشرق الأوسط بالضرورة^(١) .

W. B. Fisher, The Middle East, Lond., 1950, p. 127-133.

(١)

ثم تتكرر نفس المعادلة في الصراع بين روما وريثة أثينا والبارثيين وريثة فارس - وكلمة فارس تحريف لكلمة بارثيا (ومعنى كلمتي روما وفارس وحده يعكس مدى قوتها : Hroma = الجبارة ، Persae = المخربين) . وفي هذا الصراع تحاول كل من قوة البر والبحر الاستيلاء على المنطقة البينية في الشرق الأوسط ، إلا أنه نظرا لبعدها مراكزها المتطوح يقع شرقه لبارثيا (العراق) وغربه لروما (الشام ومصر) ، بينما ظلت صحراء العرب بينهما منطقة حاجزية . ومرة ثالثة حين انكشبت قوة البحر من الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) وورثت الدولة الساسانية قوة البر البارثية ، تحققت نفس المعادلة في أطرافها الأساسية وبفلس النتائج بالنسبة للمنطقة البينية (١) .



شكّل (٤) الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) .

والنتيجة الهامة التي يمكن أن نخرج بها من هذه الصورة المتواترة في الصراع بين قوى البر والبحر هي أنها ، وقد تضخمت وتطاولت أذرعها إلى أبعاد شبه قارية ، قد أصبحت حساسة بالنسبة للمواقع البينية التي تفصل بينها وواعية باستراتيجية الموقع . فقد شعرت قوى

(١) جمال حمدان ، دراسات في العالم العربي ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٤ .

البر الداخلية ، بحكم أنها شبه حبيسة في قاربتها ، بأنها مغلولة اليد في صراعها مع قوى البحر التي تمتاز بمرونة الحركة وسهولة الانطلاق على الماء ، ولا بد لها في مواجهتها من السيطرة على المناطق الفاصلة التي تناخمها من ناحية وتطل على البحر من الناحية الأخرى . وبالمثل وجدت القوى البحرية نفسها محتاجة إلى اجتياح هذه المناطق لتطويق القوى البرية والوصول إليها .

وبهذا وذلك أصبحت هذه المناطق البيئية ، الأمفية بطبيعتها ، منطقة صراع وأرض معركة بين الطرفين القطبيين . أصبحت محصورة بين شق الرحي تتنازعها هذه مرة وتلك أخرى ، واتضح حساسية موقعها الاستراتيجي في هذا الإطار . ولا تمثل هذه الخاصية كما تمثل في منطقة الشرق الأوسط بحكم وقوعها بين فارس ووسط آسيا في جانب وروما في جانب آخر . وقد يبدو في هذا المنطق - مؤقتا - أن المنطقة بحكم الطبيعة وبأمر الجغرافيا ضحية موقعها الجغرافي الأوسط ، ولا أمل لها في السيادة ولا مفر لها من التبعية لقوى البر أو البحر . ولكن هل هكذا درس التاريخ اللاحق ؟

الفصل الثاني

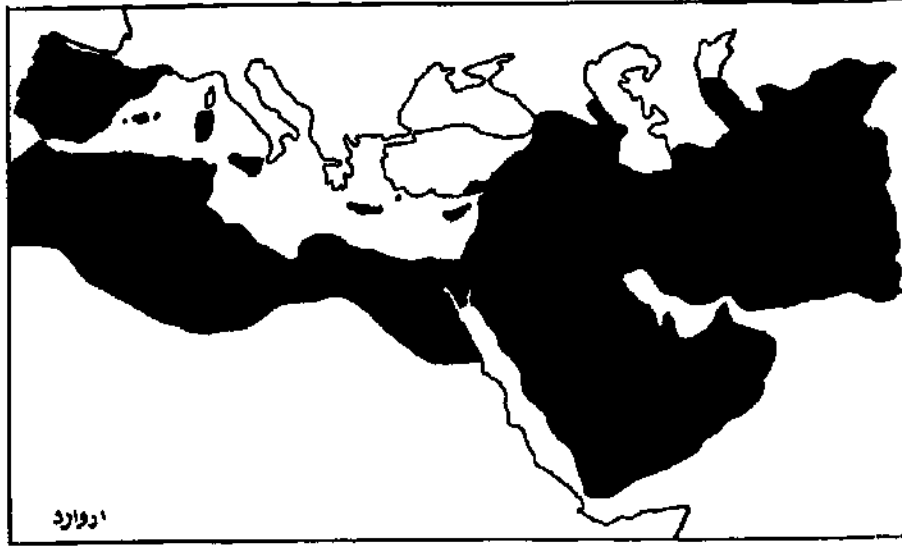
العصور الوسطى الدولة الإسلامية العربية

ونحن نتقدم خطوة أخرى نحو فهم استراتيجية الصراع التاريخي حين نتقل إلى العصور الوسطى التي تفتتحها الموجة العربية الكاسحة بانقلاب جذري في تلك الاستراتيجية . فقد خرج عرب الاسلام من قلب الجزيرة ليينوا دولة لم تسبقها من قبل دولة في الامتداد والرقعة ولم تلحقها من بعد إلا إمبراطوريات العصر الحديث وحدها . بل هي في نظر ماكيندر الإمبراطورية العالمية world empire الأولى في التاريخ « تقلد الاسكندر وتستيق نابليون »⁽¹⁾ .

أبعاد الإمبراطورية

فن أطراف الصين الى أبواب فرنسا . ضمت دولة العرب والإسلام شمال الهند ووسط آسيا وكل هضبة إيران - سجستان وخراسان وفارس - إلى جانب العالم العربي بتحديدته الحديث ، مضافا إلى ذلك جميعا شبه الجزيرة الأيبيرية إلا قليلا أو المغرب الأوربي أو المغرب الثاني كما كان يسمى . بل لقد طغت هذه الموجة المدية على شطر كبير من شرق هضبة الأناضول - أرض الروم - حيث كانت التخوم الشهيرة (الثغور والعواصم) بين الخلافة وبيزنطه ، وكادت تنتزع القسطنطينية لولا أنها ارتدت في ٧١٨ ، كما أرسلت في الغرب السنة متقدمة إلى فرنسا وسويسرا ولو أنها ارتدت في النهاية في معركة تور ٧٣٢ . وفيما بين الهامشين انقلب ميزان القوى في البحر المتوسط رأسا على عقب ، فبعد أن كان الساحل الجنوبي الأفريقي - الأسيوي يخضع كلية للساحل الشمالي ، أصبحت السيطرة للساحل الجنوبي على نقط كثيرة من الساحل الشمالي ، كما في جنوب إيطاليا وبروفانس ،

(1) H.J. Mackinder, Democratic ideals & reality. Pelican books. 1944, p. 74; Geog. pivot, p. 39.



شكل (٥) الدولة العربية الإسلامية : قوة برمائية أخضعت قوى البر والبحر

وآلت كل جزر البحر ابتداء من « قبرس وإقريطش » حتى صقلية بل « الصقليتين » والبيار إلى النفوذ العربي^(١) ، وهكذا لم تنحطم نظرية وحدة البحر المتوسط بمفهومها اللاتيني الاستعماري فحسب ، بل تحول البحر جميعا إلى بحيرة عربية شبه خالصة . ولو أن العرب سموه بحر العرب بدلا من بحر الروم لما تعسفوا الحقيقة التاريخية أو الجغرافية في شيء .

أما في الجنوب فقد انطلقت الموجة العربية لتتحلق حول المحيط الهندي بسواحله الأفريقية والهندية ، ساحل الزنج وساحل الملبار . ثم توغلت حتى الملايو وجزر الهند الشرقية حيث تغلغل النفوذ العربي الحضاري في الدرجة الأولى والسياسي في المحل الثاني . وبهذا تحول المحيط الهندي - هذا « النصف محيط » الذي يأخذ إلى حد كبير شكل جمل ذي سنمين قد برك مادا رقبتة ورأسه إلى بحار الهند الشرقية^(٢) - تحول إلى بحيرة عربية لا يشارك فيها مشارك .

والمحصلة النهائية لهذا إمبراطورية تترامي على القارات القديمة الثلاث وتطل أو تشرف على المحيطات الثلاثة الأطلسي والهندي والهادي أو على الأقل تناس معها . وهي في نفس الوقت ترتكز على محور قاطع يمتد من ملقا الملايو Malacca في الشرق إلى ملقا الأندلس

East, p. 186-9.

(١)

G.T. Renner, Global geog.

(٢)

Malaga (مالمقه) في الغرب - وكلا الاسمين عربي يستمد أصله بالفعل من أنه « ملقى » ... أو هو كان يمتد من جبل طارق الأطلسي إلى جبل طارق الهادي (سنغافوره) . كذلك كانت الإمبراطورية تتركز على قاطع آخريبدأ - كما كان يقول مؤرخو الإسلام - من فرغانه وينتهي بغانه . هذا بالعرض ؛ أما طوليا فيصل هذا المجال في أقصاه من بحر الخزر (قزوين) إلى مدغشقر (واسمها تحريف بالصدفة لمقديشو)^(١) . وفي تضاعيف هذه الرقعة تستقر « بحيرتان » عربيتان هما المتوسط والهندي ؛ كما تتوسطها « أرض البحار الخمسة » : قزوين - الأسود - « الفارسي » - الأحمر - المتوسط . فلو قلنا إن هذا المحيط يحدد الجزء الأكبر من المعمور (الإكيومين) العالمي الذي يهيم حيثئذ لما تعدينا الحقيقة .

إمبراطورية تحريرية

ويجادل كثير من الكتاب الغربيين - في لجاج مفهوم - بأن هذه الدولة كانت « إمبراطورية استعمارية » ؛ لم تخرج عن أن تكون غزوا وإخضاعا وتبعية أجنبية^(٢) . والحقيقة أن الدولة العربية كانت « إمبراطورية تحريرية » بكل معنى الكلمة كما قد نقول ، فهي التي حررت كل هذه المناطق من ربة الاستعمار الروماني أو الفارسي المتداعي واضطهاده الوثني وابتزازه للمادى . وبعدها لم تعرف الدولة الجديدة عنصرية أو حاجزا لونيا بل كانت وحدة مفتوحة من الاختلاط والتزاوج الحر ، وما عرفت قط شعوية أو حاجزا حضاريا حيث كانت وسطا حضاريا متجانسا مشاعا للجميع . لا ولم تخلق نواة متروبولية سائدة تتميز على سائر المقاطعات والأقاليم في شيء .

بل إن نواة جغرافية ما لم تحتكر السلطة السياسية قط . على العكس كانت السلطة « دولة بين الجميع » بلا استثناء إن صح التعبير . فقد هاجر مركز الحكم السياسي بانتظام ؛ فلم يلبث بعد قليل أن ترك « النواة النووية » في جزيرة العرب التي أصبحت في النهاية وهي جزيرة الإسلام بقدر ما أصبحت دار الإسلام دار العرب الكبرى Greater Arabia . فانتقل ذلك المركز إلى الشام الأموية ثم غادرها بدورها إلى العراق العباسي حتى تركه في وقت ما إلى مصر الفاطمية . وكان المغرب مركزا آخر للقوة ؛ ومثله كانت الأندلس .

Statesman's year book, 1961.

(١)

Nevill Barbour, A Survey of North West Africa (The Maghrib), Lond., 1959, P. 16.

(٢)

واضح إذن أن أخوة الدين كان يقابلها أخوة الأقاليم ، وسواسية الناس كانت تترجم سياسيا إلى سواسية الولايات والمقاطعات . والحقيقة أن الدولة العربية الإسلامية كانت شركة مساهمة بين كل أعضائها وأطرافها ، ولعلنا لا ندفع بالتشبيه إلى أبعد من حدوده السليمة إذا قلنا إنها كانت أول « كومونولث » في التاريخ بالمعنى الحديث ، مع هذا الفارق الهام جدا وهي أنها لم تمر بالمرحلة الاستعمارية المشينة التي مر بها كومونولث اليوم . والحقيقية - أخيرا - أن دولة العرب الإسلامية هي فصل - أول فصل - في جغرافية التحرير ، وأبعد شيء عن جغرافية الاستعمار ، وعلى هذا الأساس ننظر إليها ونعالجها .

قواعد الإمبراطورية

كيف أمكن أن تقوم هذه الدولة « اللاموث » التي - بالمقياس الجغرافي والاحصائي وحده - تسبق زمانها وعصرها بقرون ؟ أكانت حقا فلتة شيطانية أو نموا طفيليا كما يصور بعض أعدائها ؟ كيف انبثقت من « قلب ميت » في صحراء الجزيرة ، وكيف جمعت بين أقاليم البر وأقاليم البحر ؟ لا شك أن مما يدعو إلى الحيرة والتساؤل حقا أن تستطيع قوى الصحراء الطاردة - قاعدة أرضية شبه خاوية وموارد طبيعية شحيحة وإنتاج اقتصادي متواضع وكثافة سكانية هزيلة شفاقة - أن تقهر وتخضع قوى البر والبحر التقليدية العتيدة فارس شرقا وروما غربا ، وفي مدى زمني يحسب بالسنين أكثر مما يحسب بالعقود . معادلة صعبة !

إن علينا ابتداءً أن نسلم - موضوعيا - بأن هناك حوافز وقوى « ميتافيزيقية » ، لا تستمد من الواقع المادى بل تتخطاه ، تكن خلف هذه الدينامية المتفجرة والحيوية الدافقة . ولا شك أن جذوة الحماس الديني المتقدمة هي التي ألهبت خيال « المؤمنين » ، حتى تحولت بهم إلى شعلة ملتهبة وتحولوا هم بها إلى مشعل مضى . ولكن علينا بعد هذا أن نبحث عن أسباب صلبة مادية .

الحلقة السعيدة

ولعل « الحلقة السعيدة » التي تحف بقلب الجزيرة الميت هي البداية السعيدة . فحول مهد العرب دائرة متصلة أو شبه ذلك من الأراضي الزراعية الخصبة الغنية تجعلها « كخرقة بالية حواشيها من الذهب » : الهلال الخصيب في الشمال بقطاعيه العراق والشام ، وهلال خصيب آخر أقل غنى نوعا في الجنوب يجمع الحسا وعمان وحضرموت واليمن والحجاز ، ثم

يفلق الدائرة وادى النيل في مصر^(١) . فما أن يضع القلب الميت يده على هذه الحلقة المحدقة إلا وقد ضمن لنفسه قاعدة أرضية عريضة واحتياطيا عمرانيا مكثفا يكفل له كل عناصر القوة . فكان انتزاع الشام أولا من الرومان ثم العراق من الفرس ثم مصر الرومانية كفيلا بأن يمنح العرب عناصر القوة لمزيد من المواجهة مع تلك الإمبراطوريات .

وهنا يأتي دور الموقع . فلا شك أن موقع الجزيرة العربية المتوسط بين قارات اليابس وكتل المعمور وقوى البر والبحر كان منطلقا استراتيجيا خطيرا ، جعل من السهل على العرب أن تمد ذراعها بسهولة يمينا ويسارا إلى أبعد مدى . والحقيقة التي ينبغى أن نعيها بعمق وإدراك في هذا الصدد أن كتلة الجزيرة العربية بموقعها وطبيعتها الجغرافية ليست قوة بر فقط كما يظن البعض في غير دقة ، ولا هي قوة بحر مطلقة بالتأكيد ، وإنما هي تجمع بين قوة البر والبحر ، قوة أمفيبية تضع قدما في الماء وقدما على اليابس ، بمثل ما تقع بين قوى البحر في جنوب أوربا غربا وقوى البر وسط آسيا شرقا .

حقا ، لا شك أن الدولة العربية بدأت قوة بر ، وتوسعت برها ، وتمثل في جوهرها كتلة أرضية متصلة لا يقطعها ماء إلا في جبل طارق ، بينما تأخرت سيطرتها على جزر البحر المتوسط نسبيا^(٢) . ولكن العرب لم يلبثوا بحكم موقعهم وتحدياته أن نزلوا إلى البحر المتوسط ولم يعودوا فيه « كدود على عود » ، بل رادوه حتى تسيدوه ، وكان ذلك بفضل وجود قطاعات بحرية ملائمة في الدولة تتمم القطاعات البرية المناسبة للتوسع البري .

فبفضل قطاعاتها البرية العريضة المتناظرة في مصر والعراق ، استطاعت أن تنطلق برا وتنشر جناحها الأرضي . فكانت أرض الرافدين الفسيحة الخصبة هي « رأس الحربة » في توسع العالم العربي في آسيا بحكم موقعها المتقدم شرقا . ولعل هذا الدور هو الذي يفسر استقطاب السلطة والحكم مبكرا وطويلا في بغداد العباسية ويفسر معها حضارة دار السلام الرائعة القمية .

وبالمثل كانت مصر هي « رأس الجسر » في التوسع الأفريقي غربا وجنوبا . ولعل ارتباط الدولة العربية الإسلامية في البداية بتجارة الصين والموسميات أكثر منها بالعالم الأوربي البيزنطي - أي غلبة التوجيه الآسيوي على الأوربي - أن يفسر أسبقية دور العراق في المحيط

(١) جمال حمدان ، دراسات في العالم العربي ، ص ١٤ .

(٢)

العربي على مصر ، بينما قد يفسر انتقال المركز والقطب إلى مصر في مرحلة تالية ما أصاب الجناح الشرقي من الدولة العربية من طرقات المغول والتتار ، وبروز العالم الأوربي بالتدريج في ميدان الانتاج والحضارة ، أي غلبة التوجيه الأوربي على الآسيوي .

أما القطاعات البحرية الحاسمة في الكتلة العربية ، والتي تتناظر هي أيضا في الشام والجنوب العربي ، فقد قدمت الترسانات الملاحية اللازمة للخروج إلى البحر . فالشام - مهد الفينيقيين ومدرسة البحرية التاريخية - كان خشبة القفز التي انقض منها العرب على فلول البحرية الرومانية والبيزنطية وعلى جزر البحر المتوسط إلى أن ناجزوا ساحله الشمالي . ودور الشام الأموي كقوة بحر أشهر من أن نشير إليه ، وتلخصه معركة واحدة : ذات الصواري ، فهي سلاميس الإسلام أو أكتيوم العرب كما قد نقول .

وفي الطرف المقابل كان الجنوب العربي في مجموعه هو دائما « بلاد العرب البحرية » ، يرعى البحر مثلما يرعى الجبل ، ويستعمر البحر كما يعمر الصحراء ، ويرمز له ببلاغة السندباد البحري كمسرح ودراما . ومنذ البداية والعثمانيون والحضارمة هم « اغريق المحيط الهندي وبنادقته » . وإذا كان دور التوسع العربي هنا حضاريا وتجاريا أساسا ولم يأخذ الصبغة العسكرية الحربية التي أخذها في البحر المتوسط ، فما ذلك إلا لأن هذا الجانب خلا من الإمبراطوريات الاستعمارية القائمة والمركزة في الشمال . ومع ذلك فقد عرف بعض مناجزات هامة مع أساطيل الفرس والرومان .

وكما أعطت البحرية العربية المتوسطية قاموسها للملاحى كاملا أو شبه كامل للغات الأوربية ، كانت البحرية العربية في الهند هي وحدها التي تملك أسرارها ومفاتيحه الملاحية ، فلكنيا وهواثيا ، نجومه وموسميته ، وهي التي أعطتها فيما بعد للقوى البحرية الأوربية (أحمد بن ماجد) .

والخلاصة أن القوة العربية الصاعدة مع الإسلام وإن بدأت قوة صحراء ورعاة تملك حركة mobility الخيالة والأباله ، فإنها سرعان ما تحولت إلى قوة بر وبحر تجمع بين موارد الفلاحين ومرونة الملاحين - باختصار قوة برمائية تتوسط قلب العالم القديم وسرته . لقد خرجت عن وصاية الصحراء لتضع قوى العالم الكبرى البرية والبحرية تحت وصايتها^(١) .

Mackinder, Democratic ideals, p. 70-4.

(١)

والمغزى الاستراتيجى لهذه الظفرة مفعم بالدلالات والظلال . فهى تناقض مباشرة دلالة الفترات السابقة حين كانت منطقة الشرق الأوسط والأدنى قوة مغلوبة على أمرها بين قوى البر والبحر ، تتبع إحداهما أو كليهما ، بغير ما كيان ذاتى صلب . فهذه التجربة التاريخية الفذة أثبتت أن المنطقة ليست منطقة ضعف كامن بالطبع ولا بالضرورة ، وأنها قادرة على أن تحقق سيادتها بل وأكثر منها أن تخضع القوى الضخمة الواقعة على ضلوعها . هذه التجربة تآتى إذن كمصحح ومكمل لمغزى الكيان الاستراتيجى الكامن للمنطقة فى العصور السابقة - واللاحقة كما سنرى .

عوامل الانحدار

والسؤال الآن : لماذا انهارت هذه الدولة العظمى بعد أن ظلت قائمة فى صورة أو أخرى بضعة قرون ؟ هناك مجموعتان من العوامل ، داخلية وخارجية . فداخليا ، لا جدال فى أن ضخامة الدولة وفرط تراميها فى حد ذاته عامل ضعف وتفكك فى النهاية . فمن الصعب جدا أن تمسك بمثل هذا الجسم العملاق فى قبضتك طويلا دون أن ينشط وتتساقط منه أجزاء وأعضاء وبخاصة أطراف متطوِّحة . لا سيما أن جزءا كبيرا جدا من الرقعة كان صحارى وأشباه صحارى واستبس أو أشباه الاستبس : شبه فراغ يعوق الحركة والاتصال ويضعف الارتباط ، فى وقت لم تعد فيه وسيلة الترابط حركة الخيل والإبل التى إن اتسع نفسها فى الحرب والغزو الخاطف فهو ينقطع ويتخلخل فى علاقات السلم المنتظمة الرتيبة المتكررة .

وللملاحظ بعد هذا أن الدولة العربية كانت تبتعد إلى الإفراط فى الاستطالة من الشرق إلى الغرب وإلى التصريف نسبيا فى العمق من الشمال إلى الجنوب مما عرضها - من الناحية الميكانيكية البحتة على الأقل - إلى التقصف والتمزق^(١) . أضف إلى هذا تنافر التركيب الجنسى فى الدولة وتعدد الأقليات والعناصر فى نسيجها السياسى . فرغم أن الدولة كانت وحيدة اللغة عمليا ، فإنها لم تكن بالتصنيف الجيوبوليتيكي الحديث « دولة كثيفة intensive » بل كانت تتراوح بين « الدولة الواسعة والمختلطة extensive, mixed » ، كما كانت جغرافيا دولة عديدة النوايا polynuclear^(٢) .

East, p. 187; Fairgrieve, p. 123.

(١)

Yves M. Goblet, Political geog. & the world map. Long., 1955, p. 185 ff.

(٢)

من هنا تعرضت الدولة لسلسلة متصلة من الحركات الانفصالية والتفكك : فتعددت الخلاقات واستقلت الولايات وانكش نفوذ الدولة المركزية . وقد أتى على الدولة العربية حين من الدهر تقاسمتها ثلاث أو أربع خلاقات : العباسية في العراق ، والفاطمية في مصر ، والأندلس في إسبانيا .. الخ ، وكل منها - سيلاحظ - يتخذ لنفسه كنواة منطقة زراعية غنية لتكون قاعدة أرضية كافية ، بينما كانت الفراغات الصحراوية هي التخوم الفاصلة بينها .

وفوق هذا وذاك جميعا ، هناك نقطة ضعف أصيلة في كيان الدولة . فبحكم بيئتها الصحراوية وشبه الصحراوية ، كان عدد السكان فيها ، على الاطلاق وبالنسبة إلى مساحتها ، محدودا في النهاية . ويضغط ماكيندر على ضعف القوة البشرية man-power وقوة الرجال كعامل جوهرى في تفتت وانهيار الدولة العربية في آخر الأمر⁽¹⁾ . بل منذ البداية الباكرة اضطرت الدولة الناشئة إلى أن تترك مهدها في صحراء الجزيرة وأن تبني لنفسها قاعدة إيكومينية حقيقية في الهلال الخصيب - أساسا لهذا العامل الحاسم ، ضعف القوة البشرية وعدم كفايتها لأعباء الدولة الجديدة .

أما العوامل الخارجية التي عملت على تعرية الدولة وتحللها فتعود بنا مرة أخرى إلى موقعها الاستراتيجى البينى بين قوى البر والبحر . فبعد قليل من قيامها واستقرارها بدأت القوى الغربية في جنوب وغرب أوروبا تتجمع ضدها لتتال منها ، وفي نفس الوقت تواترت هجمات القوى البرية من وسط آسيا لتتقضى عليها . ولكن هذه وتلك فصل طويل كامل في ذاته يحسن أن يعالج على حدة . وإنما يعيننا هنا أن نضع خطا تحت هذه الاستراتيجية العريضة - استراتيجية الكماشة أو الرحى - كعامل خطير في تضعف ثم سقوط الدولة الإسلامية الكبرى .

الاستعمار الصليبي

استعمار مقنع بلا قناع

قد تكون الصليبيات بدرجة أو بأخرى اسما على غير مسمى ، لأنها وإن كان الدين شعارها المعلن ، فإن من المسلم به اليوم غربا وشرقا أن محرقاتها ودوافعها الخبيثة كانت

Democratic ideals, p. 74.

(1)

أساسا علمانية : مادية : اقتصادية . فقد كانت الدولة العربية الإسلامية في الشرق الأوسط والأدنى بحكم موقعها البؤري تسيطر سيطرة شبه احتكارية على مجمع أعصاب التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وكانت هذه تصب فيها دخلا ضخما يمثل حصيلة استثمارات الموقع الجغرافي ويمنح السراقته ، Saracens كما كان الغرب يسمى عرب المشرق (ولعلها تحريف للشرقيين أو السوريين) ، يمنحهم قوة مادية وحضارية وحربية لا تقدر .



شكّل (٦) الصليبيات في الشام : أقصى التوسع

فبدأت مدن أوروبا التجارية النامية تتطلع إلى هذا الفيض الدافق في غبطة أو حسد ، تريد إما أن تشارك فيه وإما أن تنقض عليه . وضاعف من هذه الغيرة الملتهبة الفارق الحضارى والاجتماعى والمعيشى الشاسع بين الشرق العربى والغرب المسيحى . فبينما كان الأول في أوج عصره الذهبى ، كان الثانى في حضيض عصوره المظلمة ، وبينما كان الأول يتمتع باقتصاد زراعى مستقر ، كان الثانى يعانى من اقتصاد زراعى متخلف يكبله رق الاقطاع الفاحش .

ولا أدل على أن الحروب الصليبية كانت حروبا اقتصادية من أنها بدأت وهى تتغذى بمساعدة كبار تجار وأوليجاركية البندقية وجنوا وبيزا وانتهت أقرب شىء إلى حرب القراصنة التى تستهدف النهب والسلب وحدهما . أما دعوى الدفاع عن المسيحيين فى الأراضى

المقدسة وحماية الحجاج من اضطهاد السلجوقية الحاكمة حينذاك فهو بإجماع الآراء حجة ملفقة ومنطق تبرير لا أكثر^(١) .

ولهذا فالصليبيات ، في رأى السواد الأعظم من المؤرخين ، كانت حربا استعمارية : استعمارا سياسيا واقتصاديا لا شبيهة فيه إلا شبهة قناع الدين ، بل بعدها بعض كتاب الغرب أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوربي في العصور الوسطى . ولعلها في الحقيقة حلقة الوصل ومرحلة الانتقال بين الاستعمار الجزئى القديم الذى باشرته أئينا وروما وبين الاستعمار الحديث الذى ستخرج إليه أوروبا بأسرها في المستقبل . وهى فى الحالين ليست - استراتيجيا - إلا مظهرا من مظاهر الصراع بين القوى البحرية الغربية وبين المناطق البينية فى العالم القديم ، وعلى هذا الأساس ننظر إليها .

وليس معنى هذا بطبيعة الحال أن أوروبا الغربية تحولت فى تلك الفترة إلى وحدة متماسكة تحلو من المتناقضات الداخلية ، فقد ظلت الصراعات المحلية وصراع الأشباه جنبا إلى جنب مع صراع الأضداد . فكانت الممالك والإمارات والقبائل مستمرة فى حروبها وغاراتها ، وعلى طول السواحل الغربية وحتى الجنوبية زحف خطر قراصنة البحر من الفيكينج الذين نزلوا من بحار سكندينايفيا ليغيروا من البحر على كل النطاق الساحلى ، إلا أن تأثيرهم كان محدودا بالمياه الملحة وقليل ما بمصببات الأنهار ونهاياتها^(٢) .

ولعل أبرز ما يميز الصليبيات عن موجات الاستعمار البحرى السابقة أنها لم تقتصر على قوة أو دولة واحدة بل خرجت من أغلب دول غرب أوروبا وجنوبها ووسطها . ولذا نجد أنها تأخذ طريقين أساسيين : الطريق البرية عبر قلب أوروبا فالبلقان فالأناضول البيزنطية ، وطريق البحر المتوسط . وإذا كان هدفها الدينى هو الأراضي المقدسة ، فإن الهدف الاستراتيجى اتسع ليشمل إلى جانب الشام كله العراق والحجاز ومصر ، أى النصف الشمالى من دائرة المشرق العربى .

الموجات الصليبية

وتكاد الحملات الصليبية فى الشام تغطى قرنين بالضبط ، الثانى عشر والثالث عشر . ويعترف المؤرخون خلالها على ثمانى موجات رئيسية - آخرون يقولون تسعا - ولكن الحقيقة

Fisher, Middle East, p. 136; Mackinder, Pivot, p. 38.

(١)

Pivot, p. 36.

(٢)

أن هذه هي قم الموجات . أما التيار نفسه فظل متصلا كالسيال الكهربائي . ومن ثم فهي شكلا وموضوعا إلى صورة أرجال الجراد المنتشر أقرب منها إلى صورة أسراب الطيور المهاجرة إن صح التشبيه . كذلك لم تكن تلك الغزوات من صنع جيوش نظامية بل انتظمت كثيرا من ميليشيا البروليتارية والعبودية الاقطاعية . وهذا يعطى الصليبيات مسحة بربرية تذكر بدرجة ما بغارات المتبريرين في أوروبا على الإمبراطورية نفسها^(١) .

صليبيات المشرق

ولقد بدأت الصليبيات برا عن طريق بوابة قيليقيا البيزنطية وبحرا عن طريق قبرص ، مما يوضح خطورة الأناضول كمدخل برى إلى الشام وخطورة قبرص كمفتاح بحرى وخشبة للقفز على اللقائن ومصر . والواقع أن كلا منها كان أول ما احتله الصليبيون وآخر ما غادروه . ثم استطاعت الصليبيات أن تحتل - في أقصى توسعها - النطاق الساحلى من الشام حتى قم السلسلة الجبلية الغربية دون أن تتعدها غالبا ، ورسمت زاوية قائمة بتوغلها إلى أعلى الفرات فى الرها . وأقامت فى هذا النطاق سلسلة مفككة من الإمارات وممالك المدن الاقطاعية على غرار تنظيمها السياسى الاقطاعى فى أوروبا . وقد كان ترتيب التوسع وإقامة هذه الممالك ، سواء زمنيا أو مكانيا ، هو من الشمال إلى الجنوب : أنطاكية فطرابلس ثم عكا . وهذه الثلاثية نفسها كانت أعظم معاقلهم بالمنطقة بالفعل .

أما لماذا نجحت الحملة الصليبية على هذا النحو ، فذلك لسبب أساسى هو عدم وحدة الشام العربى تقليديا وتمزقه إلى كوكبة متنافسة من دول المدن والولايات « والأتابكيات » الضئيلة الحجم والوزن غالبا . ومع ذلك فإن توحيد الشام العربى بعد ذلك ومساندة ظهره إلى الشرق لم تكف لرد العدوان ، وكان تحرير الأراضى المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر البشرية مع قوة الشام . والغريب فى هذا التحرير أنه ، رغم المصدر الجنوبي ، بدأ من الشمال إلى الجنوب وليس العكس ، أى على نفس ترتيب التوسع الصليبي نفسه أصلا ، إذ تم تحرير أنطاكية أولا ثم طرابلس ثم أخيرا عكا . وعلى أية حال ، فحين تحقق هذا التحرير ، كانت حطين صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر هى « أرماجدون » الصليبيات وبداية نهايتها . وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية .

Phillip Hitti, The Arabs, Lond. 1948.

(١)

ولكن ما بين بداية النهاية ونهايتها تحولت الصليبيات إلى مصر حيث قد أدركت بالتجربة المريرة أنها قطب المنطقة بشريا واستراتيجيا ، أو كما وصفتها هي حرفيا « رأس الأفعى ومستودع الامدادات » . وإلى مصر من ثم اتجهت ، وعن طريق قبرص أيضا مثلما كانت الحال مع الشام . ففي النصف الأول من القرن الثالث عشر نالت مصر موجتان أبيتنا بالضربة القاضية في برارى وسهول الدلتا بعد أن أغرقتا في بيثتها الاسفنجية المشبعة . فعاد صراع التصفية إلى الشام ثانية حيث دفنت الصليبيات في البحر نهائيا .

صليبيات المغرب

إلا أن ذبول الصراع ظلّت في البحر المتوسط بعد ذلك طويلا وهي تتراجع بالتدريج غربا . فقد لجأت القوى الصليبية ، بعد أن تكسرت سيوفها على قلعة اللقانت ، إلى لون من « الحصار القارى » للعالم العربى لخلق تجارته مع أوروبا ، وإلى « مبارزة بحرية » عبر « كباريه المتحركة » - جزره ومضايقه - تمثلت في سلسلة من غارات القرصنة على سواحل أفريقيا العربية وفي حملتين من الغزو على تونس في النصف الأخير من كل من القرنين الثالث عشر والرابع عشر . على أن ذلك فشل جميعا . وهنا سنلاحظ أن الصليبيات تحركت في خط سيرها التاريخى حركة محددة مع عقارب الساعة ، فقد بدأت من الشام ثم انتقلت إلى مصر فتونس .

على أن مصير الصراع اختلف تماما في إسبانيا . فإذا اعتبرنا - مع جمهرة المؤرخين - أن الاسترداد Reconquista هو آخر فصل في الصليبيات ، فإن القرون الثلاثة الثالث والرابع والخامس عشر ترسم في هيكلها وبانتظام خريطة تقدم للمسيحية وتفقهق للعرب نحو الجنوب حتى كان الخروج النهائى في ١٤٩٢ . ويمكن أن نلخص محاور هذه الخريطة ونرمز إلى مراحلها بخطوط « الثغور » العسكرية الثلاثة المتعاقبة التي عرفها وحددها العرب : الثغر الأدنى ، الثغر الأوسط ، الثغر الأقصى . وقد كانت قلاع الشمال الجبلية هي معقل المقاومة ونواة الزحف ، كما كان اطراد اتحاد الإمارات المسيحية مع اطراد انقسام الإمارات العربية هي ضوابط الصراع المصيرى . ومع طرد الموريسكيين - بضعة ملايين - إلى المغرب العربى ، انتهى المغرب الأوروبى ، وأصبحت الأندلس « فردوس العرب المفقود » .

التصفية

ولقد كانت الصليبيات درسا حضاريا قبل كل شيء لأوروبا . فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف . وستنعطف أوروبا على نفسها بعدها قليلا أو

كثيراً ، وستترك البحر المتوسط في حالة رهو وترقب إلا من مناوشات القراصنة ، خاصة في حوضه الغربي ، وذلك لتعكف على تنمية وتطوير ما تعلمته من الشرق العربي حتى تخرج به في النهاية أقوى من هذا الشرق وتقلب موازين الصراع من جديد كما سنرى . كذلك فقد كانت الصليبيات أول ما وحد أوروبا ومنحها شعوراً بالقومية حتى ليعدها البعض بداية التاريخ الحديث (١) .

أما من ناحية العرب ، فلاشك أن درس الصليبيات هو درس استراتيجي أساسا . فهي تؤكد لنا مرة أخرى خطورة موقعها البيئي الذي يجعلها مطمع أنظار الهامشيين ، وتعلمنا أن قوته رهن بوحدته في وجه هذا التحدي الموقعي ، وأن بها - وربما بها وحدها - يمكن أن تأمل في أن تصدى للقوى الغربية البحرية مجتمعة وتصدها في النهاية .

الاستبس الآسيوي

التتار ، المغول ، الأتراك

لم تتوقف غارات الاستبس خلال العصور الوسطى بل ربما زادت عنفاً وتخريباً ، ولو أنها تختلف في تواترها من جانب إلى آخر . فلعلنا لا نخطئ كثيراً إذا عممنا فقلنا إن مركز ثقل الموجات الاستبسية انتقل إلى حد ما من الطريق الشمالي السهلي إلى الطريق الجنوبي المضيبي ، أو من أوروبا إلى الشرق الأوسط (٢) .

ففي الشرق تعرضت الصين لغزوات عديدة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر . إلا أن موجة جنكيز خان ثم كوبلاي خان في القرن الثالث عشر كانت أضخم حدث في تلك المرحلة . فهي التي أعطت الرعاة حكم الصين عدة قرون ، إلى أن كانت آخر موجة في القرن السابع عشر على يد مغول المانشو - أبناء استبس منشوريا - فأعطت الصين أسرتها الحاكمة حتى الحرب العالمية الأولى في القرن العشرين .

أما الهند فقد نالتها في القرن الحادي عشر موجة التتار الغزنويين التي أخضعت شهاها . فلما كان القرن الرابع عشر أخضعتها جميعاً موجة تيمور لنگ التي طغت على رقعة كبيرة من آسيا وحكمتها . وفي القرن السادس عشر استطاع أحد خلفاء تيمور لنگ وهو محمد أكبر

Mackinder, Pivot, p. 38.

(١)

(٢) في هذه الموجات راجع ديمولان ، سبق ذكره .

Akbar أن يؤسس بالهند إمبراطورية المغول الأكبر التي استمرت حتى الاحتلال البريطاني في منتصف القرن الثامن عشر.

وإذا التفتنا غربا ، فعلى الطريق السهلى الشمالى يظل الاستبس كما كان مصدرا مزمننا للغارات والغزوات ، إلا أنها فيما يبدو أقل عددا منها فى العصور الكلاسيكية . ولعل هذا يرجع إلى أن جزءا كبيرا من وسط أوروبا كان قد بدأ برابته ورعاته تستقر وتجمد ، وإن ظل شرق القارة متميعا فى تركيبة ومسرحا لقلقلات وتحركات الرعاة . فى القرن التاسع وصل الجيبار إلى البحر - التى أعطوها اسمهم - نتيجة لضغط الباتزيناك Patzinaks بمنطقة الفولجا ، والذين تحركوا بدورهم نتيجة لضغط الخزر إلى الشرق بمنطقة بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) .

المغول والغرب

حتى إذا كان القرن الثالث عشر نجد جنكيز خان - هو الذى بدأ بالصين - بطرق أبواب شرق أوروبا ووسطها ! والواقع أن طوفان جنكيز خان - القائد الكبير وسيد القبيل الذهبى Golden Horde - عملية تفوق فتوح الاسكندر الأكبر وتتفوق على نابليون فى المدى الجغرافى وإن اختلف المجال . فقد اكتسح نفسه الطويل محيط أوراسيا - أكثر من ٣٠٠٠ ميل - ابتداء من الصين حتى وسط أوروبا ، موحدا بذلك كل السهلى الاستبسى الأوراسى العظيم تحت قيادة رجل واحد ، ولعل هذه كانت أكبر إمبراطورية شهدتها كل التاريخ قديمه والحديث من حيث للمساحة والامتداد (١) . وفيما عدا الأتراك ، كانت هذه الموجة آخر موجة استبسية عظيمة تصل إلى أوروبا الوسيطة .

وبسبب تلك الموجات سنجد أن هناك فارقا سياسيا بدأ ينمو بين شرق وغرب أوروبا . فإذا كانت غرب أوروبا قد قفزت إلى مبدأ القومية مبكرا بفضل خطر الاستبس ، فإن القوام السياسى فى شرق أوروبا ظل متميعا أبعد ما يكون عن التبلىور حتى وقت متأخر جدا ، وما زال بعيدا عن النضج السياسى حتى الآن ، وكل ذلك نتيجة للخلط الجنسى والاجتماعى والتخلف الحضارى الذى صحب الاستبس .

أما إذا انتقلنا إلى الطريق الجنوبى ، فكان أحفل فى هذه الفترة بطرقات المغول والتتار

John Moge, The study of geog, H.U.L., 1950, p. 134.

(١)

والأتراك . والحقيقة أن تاريخ الدولة العربية الإسلامية في الشرق الأوسط والأدنى لا يمكن أن يفصل عن تاريخ هذه الموجات التي أصبحت بعدا أوليا وأساسيا من أبعاده . بل الواقع أننا ينبغي أن ننظر إلى هذه العناصر باعتبارها برابرة الدولة الإسلامية بمثل ما كان التيوتون والجرمان والوندال .. الخ برابرة الإمبراطورية الرومانية .

فكما كانت هذه تقتطع من جسم الإمبراطورية دولاها ، فكذلك فعل أولئك بالدولة الإسلامية . وكما كانت الأولى تتصارع فيما بينها ويزيغ بعضها البعض إلى جانب صراعها العام مع الإمبراطورية ، فكذلك نجد برابرة الدولة الإسلامية العربية تتصارع فيما بينها صراع الأشباه ويرث بعضها البعض وذلك في إطار صراعها العام صراع الأضداد مع الخلافة . وكما كانت روما تحاول تحييد برابرتها بتثبيتهم في ممالك حدية وتحويلهم إلى المسيحية ، فكذلك كانت الخلافة تفعل مع برابرة المغول والتتار والأتراك حيث تكاثرت على تخومها دولهم الحدية وحيث كثيرا ما كسبتهم في صفها بإدخالهم في الإسلام ، ولو أن هذا لم يمنع أن تكون نهاية الدولة على أيديهم ، تماما كما حدث في الإمبراطورية الرومانية . بل أبعد من هذا ، كما أن البرابرة الأوربيين أعادوا الإمبراطورية الرومانية المقدسة كاستمرار بشكل ما للإمبراطورية التي حطموها ، فكذلك ستنقل الخلافة الإسلامية إلى أيدي من حطموها وسيحتفظون بها في صورة ما عدة قرون .

الشرق الإسلامى والعربى

أول ما وصل المنطقة من برابرة العالم الإسلامى الموجة الغزنوية في القرن الحادى عشر ، وانتزعت فارس وماجاورها . وفي منتصف القرن نفسه أيضا بدأت قوة الأتراك السلاجقة الوافدة من وسط آسيا تتسلل وتظهر في الدولة العباسية المفككة حتى استطاعوا أن يقتطعوا منها أجزاء كثيرة في غرب آسيا . فأقاموا قاعدتهم في كرمان وهمدان ثم في آسيا الصغرى ، ثم قلبوا الحكم العربى في بغداد ودمشق واكتسحوا أغلب منطقة البحار الخمسة حتى امتد سلطانهم إلى الشام والأراضى المقدسة ، حيث كان اضطهادهم المزعوم للحجاج المسيحيين حجة من حجج الصليبية . ولكن قوة السلاجقة لم تلبث أن تضعضعت تحت طرقات المغول في القرن الثالث عشر على يد جنكيزخان .

فقد جاء جنكيز خان في ثلاثينات القرن ليكسر شوكة السلاجقة ، وقدر لإيران ومدنها أن تتلقى أكبر جرعة من التخريب والتدمير الرهيب . وبعد عقود ثلاثة عاد المغول – الوثنيون – تحت زعامة هولوكو حيث وصلوا إلى العراق ، فكانت فاجعة بغداد التاريخية

١٢٥٨ ونهاية الخلافة العباسية^(١) . وبعدها تقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر في النهاية في وقت كانت الصليبيات قد عبرت خط الزوال ودخلت مرحلة الشفق ولكنها لاتزال تستوعب قوة مصر والشام المشتركة .

وهنا نصل إلى حالة فريدة في تاريخ الشرق العربي وهي أن تواجه المنطقة قوى البر والبحر في آن واحد - أي أن تواجه استراتيجية الكماشة . وبالفعل نجد أن الغرب الصليبي يحاول أن يحصر الشرق العربي بين شقي الرحي ، فحاول أن يتحالف مع المغول ليضع الإسلام العربي الأمفيبي بين حلف المسيحية الأوربية البحرية والوثنية المغولية البرية ، أو أن يحصر السراسنة بين قراصنة البحر وقراصنة السهوب بلغة كارل هاوسهوفر^(٢) أو بين ذئاب البحر وذئاب البر بلغة ماكيندر^(٣) !

ولعل وضعا في تاريخ المنطقة العربية لا يمثل خطورة موقعها الاستراتيجي البيني كما تمثله هذه التجربة ، التي بدورها لا يمثل إمكانات المنطقة وقوتها الكامنه كما تمثلها هي . فرغم أن مصر والشام حاولت سياسة التحييد إزاء هؤلاء مرة وهؤلاء مرة أخرى حتى لا تخارب في جبهتين في وقت واحد ، فقد أثبتت المنطقة قدرتها على مواجهة الخطرين معا وفي آن واحد . فبينما ظل الصراع الصليبي مستمرا ، تقدمت مصر المملوكية بقيادة قطز لتعطى المغول أول وآخر انكسار لهم في عين جالوت التاريخية (١٢٦٠) .

ولكن المطرقة المغولية عادت ثانية بعد قرن مع تيمورلنك - الذي اتخذ عاصمته في سمرقند^(٤) - ليكسح فارس والعراق ثم شمال سوريا حتى دمشق ، ولكنه عجز دون جنوبها أمام المقاومة المصرية . وهنا نرى كيف أن أغلب غارات الاستبس تصل دائما إلى العراق الذي يكاد يتأخم قلب الاستبس ، وقد تصل أحيانا إلى الشام ، ولكنها لا تصل إطلاقا أو بالكاد إلى مصر - ربما بحكم المسافة المتزايدة ، فإن مصر بعكس العراق أبعد المشرق العربي عن الاستبس الآسيوي ، ولكن أيضا كرد فعل لقوة المقاومة .

وهنا يتضح لنا دور العراق الجديد في هذه المرحلة ، فقد تحول من « رأس حربة » للعالم العربي إلى « درع » له وقاعدة أمامية ، ولذا تلقى أغلب الضربات التي جاءت من

(١) W. B. Fisher, p. 89.

(٢) فايفيلد وبيرسى ، الجيوبولتيكا ، مترجم ، القاهرة ، ص ٥٤ .

(٣) On the scope & methods of geography, Lond., 1951, p. 28.

(٤) W. Fitzgerald. The new Europe, Lond., 1946, p. 171.

الشرق حتى تحطم للأسف ، ولكنه في هذا قد افتدى العالم العربي كله فكان هذا فضله الكبير جغرافيا وتاريخيا .

ولقد انجبه تيمورلنك بعد ذلك إلى الأناضول حيث كانت قوة الأتراك العثمانيين ، التي بدأت كتابع في خدمة السلجوقية ضد المغول ، قد أخذت تظهر وتنمو حتى انتزعت لنفسها من الخلافة دولة صغيرة في شمال غرب الأناضول ، ولم يختم القرن الرابع عشر حتى كانوا قد سيطروا على كل الأناضول بالإضافة إلى رقعة كبيرة في البلقان .

وقد اصطدم تيمورلنك بالعثمانيين منتصرا في معركة أنقرة ١٤٠٢ ، ومع ذلك فقد أوقف هذا اللقاء المد المغولي إلى الأبد ، ولكنه لم يوقف التوسع العثماني الذي قدر له أن يرث الدولة العربية الإسلامية وأن يضيف إليها إمبراطورية أوربية برمتها . وكانت العثمانية بذلك آخر ما أرسل الاستبس من غزوات وأول ما نجح منها سياسيا في تحقيق دولة دائمة مستقرة .

المغوليات والصلبييات

ولكن قبل أن نتساءل كيف ولماذا هذا النجاح ، دعنا نقف وقفة مقارنة وتقييم لكل من الخطر التتاري المغولي والخطر الصليبي . فابتداء إذا قلنا الصليبيات والمغوليات فقد قلنا جغرافيا زحف أوروبا وآسيا ، وحضاريا خروج الزراع للمستقرين والرعاة الرحل ، واستراتيجيا قوى البحر والبر مباشرة ، وإيديولوجيا الاستعمار الديني والوثنى على الترتيب . وإذا كان طوفان المغوليات المدمر يمثل حل الرعاة التقليدي لمشكلة ضغط السكان ، فكذلك كان الخروج الصليبي على الأرجح هو الحل الأوربي لمشكلة الانفجار السكاني بها في ظل الاقطاع والدين . وكما كان الأول مدفوعا على الأرجح بموجات الجفاف المناخي في قلب آسيا الميت ، كان الثاني مدفوعا بالجفاف الحضارى الذي أصاب النظام الاقطاعي . وكشف عقمه حين بدأ خطر جرثومة البورجوازية البازغة في المدن الجديدة يهدده بعد نحو ألف سنة من الاستقرار الزراعي الجامد^(١) .

كذلك فإن كلا اللذين لم يخرج في موجة واحدة بل في عدة أو عديد من الموجات الكاسحة المتلاحقة ، لانتكسر إحداها إلا لتعلوها غيرها ، كما خرجا على حد سواء بجيوش

(١) لويس عوض ، الملحة الأخيرة ، الأهرام ، ١٩٧٧/١٢/٣٠ ، ص ١٥ .
Philip Hitti, The Arabs, Lond., 1948.

كثيفة جدا بمقياس العصر وفي أعداد لايسعها حصر . المؤرخون الغربيون أنفسهم شبهوا الموجات الصليبية « بغزارة رمال البحر ونجوم السماء » . بينما نعتوا جمحافل المغول والتتار بأنهم كأرجال الجراد المنتشر والهيارات الجليدية المنقضة . وبعض الحملات الصليبية تجاوزت المليون محارب . ولم تقل عادة عن نصف المليون . ذلك عدا شرنقة أكثف وأضخم من المتطوعة والأتباع^(١) . وبالمثل لم تكن جيوش الفرسان المغول والتتار لتقل عن مئات الآلاف .

أخيرا . وانهاء . فلعلنا لانبعد عن الحقيقة كثيرا إذا قلنا إن الخطر التتري المغولي كان صراعا بدائيا أو بدويا نوعا . أى صراعا فطريا بيولوجيا تقريبا . أما الصليبي فكان أكثر تطورا وتحضرا . إذ كان إيديولوجيا دينيا . الخطر التتري المغولي كان « استخرابا » . حيث كان الصليبي استمارا . استمارا كاملا بمعنى الكلمة . واستمارا استيطانيا بالتحديد عند ذلك . ذلك أن الغزو المغولي التتري كان غزوا ذكريا أساسا من الجيوش والشبان . أما الصليبي فكان مجتمعا منقولا مزروعا بالكامل من الذكور والإناث والكبار والصغار . في كلمة واحدة . كان الأول غزوا والثاني هجرة .

من هنا أيضا كان الأول أشد خطرا وهولا وتخريبا . أقرب إلى الحرب الخاطفة . قصير الأمد على الجملة فلم يظل عن قرن واحد على الأكثر . وإذا هزم في النهاية - كما حدث بالفعل - انفض نهائيا . أما الخطر الصليبي فكان أشمل وأوسع جغرافيا . وأطول تاريخيا حيث تكرر مرارا على مدى بضعة قرون . وإذا هزم عاد وعاود الكرة من جديد إلى أن يستنفد آخر قواه وأغراضه .

الأترك

نحو الغرب

إذا عدنا الآن نستأنف زحف العثمانية الناجح . فسنجد أنه في الربع الأول من القرن الثالث عشر قد تجمعت قوة الأتراك العثمانيين^(٢) في شمال غرب الأناضول . فاتجه توسعهم غربا - وليس شرقا كما قد نتصور - وذلك في البلقان ودون أن يستولوا في البداية على

(١) وحيدة ، ص ٧٦ .

W. B. Fisher, p. 138-142.

(٢)

القسطنطينية . ولم ينتصف القرن حتى كانوا يملكون على وجه التقريب ما يسمى الآن « تركيا في أوروبا » . وكانت القوة الكبرى التي تقف في وجههم هي دولة الصرب ، ولكنهم تغلبوا عليها واجتاحوا بلغاريا ثم الصرب ، مستفيدين في ذلك من فتحة المارتيزا - الفاردار الحاسمة ، وواصلين بذلك إلى الدانوب ، والقرن الرابع عشر لما يلفظ أنفاسه بعد تماما . وبذلك صاروا سادة البلقان بلا منازع .

ولكن هذا الخطر حرك الصليبية في أوروبا مرة ثانية ، فخرجت حملة صليبية من كل أجزاء غرب القارة ووسطها ، تراجعت أمامها العسكرية العثمانية على الدانوب قليلا أول الأمر ، حتى سحقتها في النهاية ما بين أول القرن الخامس عشر ومنتصفه . وإذا تم هذا الاقرار pacification ، كان دور القسطنطينية - التي أصبحت من قبل إسفينا ضئيلا محاصرا في وسط الكتلة العثمانية الضخمة - كان دورها قد أوف ، فسقطت سقطتها التاريخية الشهيرة في ١٤٥٣ ، وبهذا ختم على مصير الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) إلى الأبد بعد أن ظلت تحتضر قرونا .

وفي نهاية هذا القرن الخامس عشر كانت حدود الإمبراطورية العثمانية في أوروبا قد وصلت من كرواتيا إلى الدون الأسفل . وفي خلال القرن السادس عشر سقطت المجر وظلت تحت العثمانية حتى نهاية القرن التالي ، وأصبحت المسا بذلك مهددة ، ونحولت في الحقيقة إلى دولة تخوم - كما أراد لها شارلمان حين أنشأها لأول مرة في وجه الآفار منذ أكثر من ألف سنة - دولة حدية تفصل بين تركيا وأوروبا . وفي هذا المعنى قال مترنيخ قولته المشهورة : « عند فينا ، آسيا تبدأ : Am der Landstrasse beginnt Asia » . وفي هذا الصدد أيضا لم يكن غريبا أن وقر في ذهن أوروبا أن الترك لا يغلبون ، تماما مثلما وقر في ذهن آسيا من قبل عن التتار والمغول .

ثم الآن بضع حقائق هامة تبرز من استعراض هذا الزحف . فأولا يمتاز التوسع العثماني بظاهرة القفز الضفدعية leap-frogging ، بمعنى أنه لم يكن متصلا بدأ من نقطة ثم استمر في اتجاه وخط متتابع بصرامة ، بل هو قد يترك منطقة في طريقه ويتخطاها إلى ما بعدها ثم يعود إلى تلك الأولى . فمثلا قفز إلى البلقان ولم يكن قد سيطر على الأناضول جميعا ، بل لقد ظلت بها أجزاء وقطاعات لم يسيطر عليها إلا بعد أن كان قد وصل إلى الدانوب ! كذلك ظل يقيم في البلقان بل يملكه قرنا كاملا وبعض قرن قبل أن يستولى على القسطنطينية !



شكل (٧) الامبراطورية العثمانية

ثانياً ، سيلاحظ أن العثمانية توسعت في أوروبا قبل أن تتوسع في آسيا وإفريقيا ، وأسقطت الدولة البيزنطية قبل أن تسقط الدولة العربية الإسلامية . وقد أعطتها هذا قاعدة أرضية ضخمة لقوة سياسية ومادية وعسكرية كبرى قبل أن تبدأ الاتجاه جنوباً نحو الشرق الأوسط العربي . وهذا يفسر ، من جانب ، السرعة والبراعة التي كسحت بها العالم العربي . فهي لم تكن حينئذ مجرد قوة رعاة وفرسان بدائية ولكن قوة دولة وحضارة بدرجة أو بأخرى .

ثالثاً ، سنرى أن هذه أول موجة استبسية تأتي من الطريق الجنوبي الهضبي وتصل إلى أوروبا . فبينما ولجت الموجات الاستبسية السابقة قلب أوروبا مراراً وتكراراً عن طريق السهل الشمالي ، لم يستطع أحد قبل الأتراك أن يطرُق أبواب أوروبا عن الطريق الجنوبي . ولعل هذا كان من حسن حظ الأتراك ، فقد أدخلهم إلى أوروبا من أضعف - وإن لم يكن من أوسع - أبوابها حيث كانت البلقان أشدها تأخراً وأضعفها نصراً وأقربها إلى حضارة الرعي والترحل حينذاك .

نحو الشرق

بعد البلقان ، اتجهت العثمانية إلى الشرق العربي وذلك ابتداء من العقد الثاني من القرن السادس عشر ، أي بعد نحو ثلاثة قرون من ظهورهم كقوة لأول مرة في الأناضول . وقد اتجه الزحف إلى مصر رأساً عن طريق سوريا التي كانت تابعة لمصر المملوكية . وهذا الاتجاه

المحدد يؤكد ماسبق أن أوضحته الصليبيات من أن مصر هي مفتاح المنطقة العربية ، لاسيما أن كل نقل الدولة العربية الإسلامية كان قد انتقل كاملا ونهائيا إلى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول .

ومن الناحية الأخرى فقد سارعت مصر لملاقاة الزحف العثماني على ضلوع الأناضول نفسها ، كأنما كانوا يدركون منذ ذلك الوقت المبكر أن خط الدفاع الأول عن مصر لا يقل عمقا عن تخوم الشام . ولكن تمزقت المقاومة المصرية في مرج دابق حلب ، وتقهقرت إلى خط دفاعها الثاني في قلب مصر بعد سقوط الشام . إلا أنها مرة ثانية وأخيرة انهارت في ريدانية القاهرة ، وسقطت مصر في ١٥١٧ . وكانت تلك أول مرة منذ الهكسوس والفرس تقع فيها مصر لقوة استبسية .

وفي ذلك الوقت كانت الضغوط المسيحية من حرية وبحرية وقرصنة على المغرب قد اشتدت ووصلت إلى النقطة الحرجة التي استدعت الاستغاثة بقوى الإسلام أنى وجدت . ولما كانت تركيا هي كبرها الآن ، فقد تدخلت بحريا (عروج بربروس وأخوه خير الدين) لحماية المغرب الأوسط ، ولم تلبث أن احتلته في ١٥٢٩ ، ثم أردفته بتونس في ١٥٣٤ ، إلى أن توسعت مؤخرا في طرابلس في ١٥٦٥ .

وعند هذه النقطة يبدو غريبا بعض الشيء أن تنجح تركيا الآن حيث فشلت مصر ، أو على أية حال لم تغامر ، للأسف من قبل . فصر المملوكية ، بعد انتصاراتها الحاسمة الداوية على كل من التتار والصليبيين ، لم تستطع أو تشأ أن تساعد المغرب العربي ضد الصليبيات الغربية رغم استنجاد تونس والجزائر بها مرارا وبالحاح . أما الذي نجح في هذا الانقاذ فكان الأتراك العثمانيون من الأناضول فيما بعد . وبهذا كان الصراع ضد الصليبية في البحر المتوسط وخاصة حوضه الغربي دور تركيا أكثر منه دور مصر ، الذي يظل بذلك محليا نسبيا للأسف . ورغم أن كلا من مصر وتركيا قوة أمفيبية أساسا أي برمائية ، فلعل هذا يرجع إلى أن البعد البحري في الأخيرة أكبر منه في الأولى نوعا .

ومها يكن ، فإذا ما عدنا إلى مسيرة الأتراك في الشرق ، فقد تأخر التوسع العثماني في العراق وذلك في وجه المقاومة الفارسية ، ولكنه سقط في النهاية في ١٥٥٢ . ولم تستطع تركيا أن تتوغل بعده شرقا لأن قوة فارس استطاعت أن تصمد لها ، بل وستصبح ندا عينيدا لها في المستقبل طويلا . وظلت هناك منطقة متنازع عليها بينهما يتجادبها دون أن يتمكن

أحدهما من انتزاعها نهائيا ، فبقيت بعد ذلك حتى النهاية منطقة تخوم قلقة . تلك هي الرقعة الجبلية التي تشمل أرمينيا الشرقية والقوقاز وزاجروس (١) .

استراتيجية الإمبراطورية العثمانية

ومرة أخرى تبرز من هذا العرض عدة ملامح واضحة . فأولا ، تتكرر ظاهرة القفز الصفدي التي سبقت في البلقان . فبينما استولت تركيا على الشام ومصر ، ظل العراق فترة غير خاضع لها . كذلك سبق الاستيلاء على الجزائر الاستيلاء على تونس ، وهذا سبق الاستيلاء على طرابلس . بل يمكن أن نعتبر زحف العثمانية في المغرب بمثابة تيار عكسي راجع ، وأن هناك أكثر من نواة منفصلة متباعدة بدأ منها الزحف في العالم العربي . ولهذا فإن الفكرة الوهلية التي قد تتصور زحفا قوسيا متصلا من الأناضول حتى الجزائر لا مكان لها من الحقيقة .

ثانيا ، سقط أغلب العالم العربي وورثت تركيا معظم الدولة الإسلامية العربية في نحو نصف قرن تقريبا من القرن السادس عشر . وقد تأخر الاستيلاء على أجزاء في الجزيرة العربية وكذلك السودان إلى مراحل تالية بعيدة . ولكن هناك جزأين لم يخضعا مطلقا للأتراك لتطرفهما ، وهما المغرب الأقصى (مراكش) والجنوب العربي حتى عمان .

ثالثا ، وقع العالم العربي في يد الأتراك بسرعة وسهولة نسبية لأسباب عدة . أولها ما استمدوه من قوة مادية وسياسية بعد أن ملكوا البلقان وموارده نحو قرنين . سبب ثان الضعف والتفكك والعجز الشديد الذي وصلت إليه الدول العربية في تلك الفترة ، وهي التي – منذ قرنين فقط – صعدت المد الصليبي والموجة المغولية معا . ولم يتكتمل من العرب في وجه الأتراك إلا مصر وسوريا .

رابعا ، لا مفر من أن نلاحظ التناقض الكامن – وإن يكن مألوفا – في تفوق قوة رعاة بلا حضارة عميقة مها كان على منطقة حضارية زراعية راقية ذات أصول عريقة . وإذا كان الاستعمار هو في التحليل الأخير سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة ، فإن الاستعمار التركي للعالم العربي يبدو في هذا المعنى استعمارا عكسيا أو مقلوبا كما قد نقول ، ولهذا سيأتي عقبا في نتائجه وإنجازاته . وفي هذا الصدد يشبه البعض الإمبراطورية الإسلامية

Fisher, p. 139.

(١)

العربية بالإمبراطورية الاغريقية ، والإمبراطورية العثمانية بالرومانية : تلك خلقت تراثا وحضارة ، وهذه قامت على القوة العسكرية المحض .

خامسا ، جاء الأتراك في مسوح الدين الإسلامي وتحت قناعه ، وكان هذا في عصر الدين لا القومية ، وفي وهج ذكريات الصليبيات ، مما سهل عليهم الفتح بلا ريب . بل لقد رأينا أن الجزائر هي التي استنجدت بالأتراك واستدعتهم لحمايتها . ولكن هذا لا ينفى الحقيقة المقررة من أن الوجود التركي هنا يعد نوعا خاصا - ومحيرا ربما - من الاستعمار هو « الاستعمار الديني » ، ولولا القناع الديني لعد مماثلا للغزو المغولي الوثني الذي سبقه ولووجه على هذا الأساس بكل تأكيد (١) .

وكل مظاهر الاستعمار الاستغلالي الابتزازي لانتقص العثمانية : فقد كانت تركيا هي « المتروبول » وبقية الإيالات والولايات مستعمرات تابعة تعتمر كل مواردها وخيراتها بلا مواربة لتحشد حشدا في المتروبول . بل لقد قيل إن الأتراك طبقوا في حكمهم السياسي طريقتهم الاستبسية في معاملة الحيوان ، فهم ما انتقلوا من رعى قطعان الحيوان إلا إلى رعى قطعان الانسان : كما يفصل الراعي بين أنواع القطعان ، فصل الأتراك بين الأمم والأجناس المختلفة عملا بمبدأ فرق تسد (نظام الملة) ، وكما يسوس الراعي قطيعه بالكلاب ، كانت الانكشارية كلاب صيد الدولة العثمانية ، وكما يجلب الراعي ماشيته كانت الإمبراطورية بقره كبرى عند الأتراك للحلب فقط (٢) .

سادسا ، وأخيرا ، ينبغي أن نسجل بعناية أن الدولة العربية إنما انتهت على يد الغزو التركي وليس على يد الغزو الصليبي ، أي على يد قوة البروليس على يد قوة البحر . وإذا كانت المنطقة قد نجحت في صد القوتين معا من قبل ، فإن سقوطها في النهاية على يد قوة البر أكبر دليل على أن هذه القوة لا يستهان بها ولها مقومات يجب أن يحسب لها حساب . وإذا كان هذا تحصيل حاصل بالنسبة لتلك الفترة ، فهو أكثر منه نذير وإنذار واضح للمستقبل بوجه خاص كما سنرى بعد حين .

تلك إذن قصة الموجة التركية وقيام الإمبراطورية العثمانية بجنوحها الأوربي والعربي . فإذا نحن حاولنا أن ننظر إليها ككل ، فسنجد عدة حقائق بالغة الأهمية . فلعلها ، أولا ،

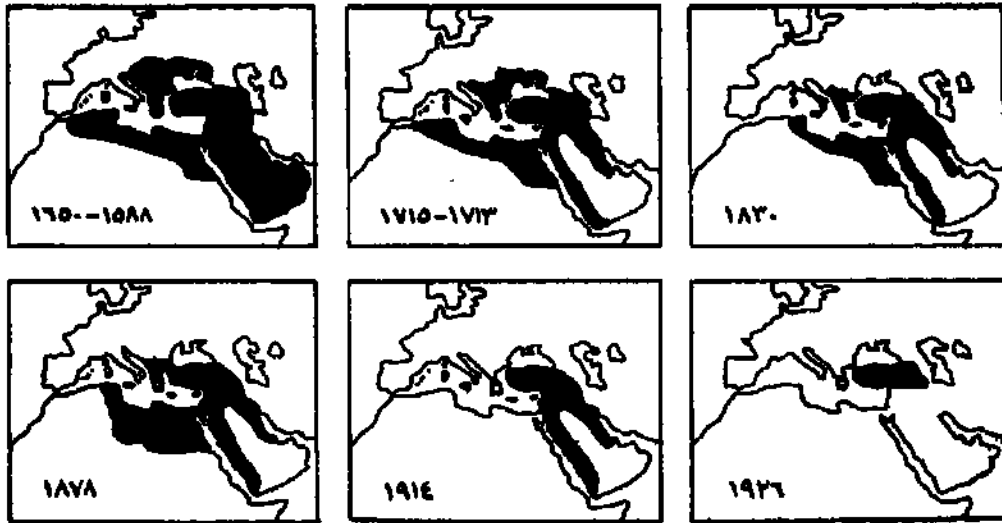
(١) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٣ وما بعدها .

(٢) Fisher, p. 139-141.

غطت مساحة أكبر مما عرفت أى إمبراطورية سابقة عليها باستثناء إمبراطورية جنكيزخان القصيرة العمر . فقد امتدت في أقصاها من مشارف سهوب روسيا والدانوب إلى سفانا السودان والنيل ، ومن القوقاز حتى أطلس . وفي تضاعيف ذلك سيطرت على البحر المتوسط وساحله ، هذا بالإضافة إلى البحر الأحمر وبحر العرب ، وبالتالي أصبحت سيدة البرزخ (السويس) والمضيق (البسفور) . وبصورة عامة : تغطي الإمبراطورية رقعة واحدة متصله لا انقطاع فيها سوى المضيق .

ثانياً : الإمبراطورية العثمانية هي أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت في إقامة دولة مستقرة طويلة الأمد . فقد تحولت من رعاة رحل إلى حضارة استقرار وتوطن وقطعت كل جذورها بالاستبس ، واتخذت لها وطناً وقاعدة أرضية ثابتة ولو بالتبني (الأناضول) ... وهي كذلك أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت في إقامة دولة تجمع بين أجزاء من أوروبا وآسيا وأفريقيا معا . وقد سبقها من الاستبسيين من أنشأ دولا في أوروبا أو في آسيا وحدها ، ولكن لم تمتد قط في الاثنتين معا .

وفضلا عن هذا فقد كانت أول اندفاع من الاستبس تنساح في أفريقيا وتبتلع نطاقا كاملا منها . والواقع أن جزءا من السبب في نجاح الأتراك في الوصول غربا إلى آفاق أبعد جدا مما عرفت موجات الاستبس السابقة سواء في أوروبا أو في آسيا وأفريقيا هو أنها لم تبدأ تاريخها الفعال من قلب الاستبس مباشرة كقاعدة ، وإنما بدأت من مركز متطرف نحو



شكل (٨) مراحل انكماش الاستعمار العثماني

الغرب كثيرا ، أى من قاعدة متقدمة هى الأناضول مما أطال ومد نفسها فى ذلك الاتجاه بسهولة نسبية .

ثالثا ، وأخيرا ، بدأ الأتراك قوة بر مطلقه ن القرن ت القاعدة الأرضية البرية والجهة الساحلية البحرية . أى أصبحت قوة بر مائية فى المنطقة البيئية النموذجية بين معقل القوى البرية شرقا والبحرية غربا ، سواء ذلك فى البلقان وشرق أوروبا أو فى المشرق العربى . وهذه حقيقة بالغة الخطورة والمغزى ، لا لأن الأتراك فقط أول من فعلها من بين الاستبسيين ، وإنما أيضا لأنها ستفسر أساسا مصير الإمبراطورية واستراتيجيتها السياسية وأنواع الضغوط والصراعات التى ستعرض لها . وهذا ماينقلنا فى نفس الوقت إلى تطور الاستعمار خارج هذه المنطقة ، وإلى مرحلة جديدة من تاريخ الاستراتيجية العالمية .

الفصل الثالث

عصر الكشوف الجغرافية

يمكن أن نقسم تاريخ الاستعمار في العصور الحديثة إلى موجتين أساسيتين ، أولاهما تغطي القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واتجهت أساسا وإن لم يكن كلية إلى العروض المعتدلة والبلاد الجديدة ، ولهذا اتسمت بالاستعمار السكنى الاستيطاني إلى حد بعيد ، أما الثانية فتحتل القرن التاسع عشر وتنصرف في جوهرها إلى العروض المدارية والبلاد القديمة ، ومن ثم سادها طابع الاستعمار الاستغلالي^(١) . والمرحلة كلها ترتبط بعدة تطورات طفرية في الفنون والحضارة البشرية كانت شرطا لازما لتحقيقها . تلك هي الثورات الكبرى الثلاث : الانقلاب التجارى والانقلاب الميكانيكى ، والانقلاب الصناعى . وكل منها يرتبط وثيقا بالآخر ارتباط السبب بالنتيجة ، ولهذا تنداعى منطقيا وتاريخيا .

فالانقلاب الأول - التجارى - لا انفصال له عن الكشوف الجغرافية كسبب ولا عن الموجة الأولى للاستعمار في القرنين السادس عشر والسابع عشر كنتيجة . هذا بينما يرتبط الانقلاب الأخير - الصناعى - مباشرة وحميا ، بل دراميا ، بالموجة الثانية للاستعمار في القرن التاسع عشر . أما الانقلاب الميكانيكى فانتقالى تمخض عن الانقلاب الأول ومهد للأخير . وسنبدا هنا بالمرحلة الأولى مرحلة الكشوف الجغرافية واستعمار المعتدلات الجديدة .

الكشوف الجغرافية والاستعمار

مع الكشوف الجغرافية نتعامل مع جذور ، أو على الأقل بذور ، الاستعمار المعاصر مباشرة . فقد ولد الاستعمار الحديث في حجر الكشوف الجغرافية ولانقول في رحمتها . ففى

R.J. Harrison Church, Modern colonisation, Lond., 1951, p. 18-22. 106.

(١)

تلك الفترة خرجت أوروبا تضرب في المجهول ، فعادت تحمل إلى العالم عالما جديدا بل عوالم جديدة . ومن الصعب علينا في القرن العشرين أن نقدر حقا مدى ضخامة ووقع الهزة التي أحدثها هذا الكشف في وقت كانت رقعة المعمور المعروف محدودة ثابتة لاتكاد تتغير ، ثم فجأة وفي عالم متمدن بأقصى سرعة تضاعف العالم عدة مرات . وربما لا يعدل تلك الطفرة في عالم الإنسان شيء من قبل إلا كشف الزراعة ، ولامن بعد إلا غزو الفضاء .

بل وكما نشهد اليوم انقلابا في الاستراتيجية العالمية مع عصر الفضاء ، قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها . فأولا ، مع اتساع أبعاد العالم اتسعت أبعاد الصراع بين القوى وخرج الاستعمار لأول مرة عن دائرة التقليدية المغلقة حول حوض البحر المتوسط وتحومه وانتقل من عروضه المألوفة إلى عروض مختلفة كل الاختلاف تحمل معها بيئات مغايرة جدا . ومن الناحية العملية قفز الاستعمار من عالم متناه إلى عالم لامتناه ، وبعد أن كان محليا أو إقليميا أساسا أصبح عالميا كوكبيا تماما .

ثانيا ، بعد أن كانت السياسة والاستراتيجية تتحرك في عالم مسطح أفقي أو « إقليدي » بكل معنى الكلمة ، أصبحت تتفاعل في وسط « ريماني » Riemannian لا إقليدي ، وسط كروي مجسم . ولم يعد للمكان يمين وشمال فحسب ، بل وخلف وقدام أيضا . ولاشك أن أعظم حقيقة تمخضت عنها الكشوف هي وحدة المحيط . فقبلها كان العالم المعروف يتألف من يابس واحد ومحيطين اثنين ، أما بعدها فقد أصبح العالم يتألف من محيط واحد ويابس متعدد⁽¹⁾ . ولم يكن بد من أن يرجع هذا كل قيم المواقع الجغرافية الاستاتيكية الموروثة حتى النخاع ، وأن يبرز العلائق المكانية التقليدية والنسب الجيوماتيكية geomatic بين القارات والأقاليم والدول ، فما كان منها بالأمس بؤريا مركزيا قد صار اليوم هامشيا متطرفا - والعكس .

ثالثا ، كان أخطر مظاهر هذا الانقلاب الجيوماتيكي بروز أهمية المحيط إلى الصدارة . فقد خرج العالم القديم إلى المحيط واتسع نفس الحركة البشرية بعد أن كانت محدودة بالمرحلة البحرية thalassic . فضاغت أهمية البحار الداخلية المغلقة وبرزت أهمية البحار المحيطية epi-continental . فإذا بالبحر المتوسط والبلطيق ، ولكن الأول خاصة ، يفقد كل منها أهميته التاريخية ، ليصبح الأول زقاقا مغلقا والثاني بركة صيد آسنة herring pond ،

(1)

بينما يتحول المحيط الأطلسي إلى « البحر المتوسط » الجديد . ومع هذا الانقلاب انقلب التوجيه الجغرافي للقارات والأقاليم ، فقلبت القارات بطننا لظهر تطلعا إلى المحيط ، وانحدرت قيمة دول وموانئ البحر المتوسط لتنتقل الزعامة إلى دول وموانئ غرب أوروبا (١) .

رابعا ، ومن الناحية السياسية ، أصبح الوقوع على البحار - البحر المحيط - ميزة كبرى تتمتع بها الدول الساحلية وتجنح حصادها الثرى الفياض ، فبدأ عصر الإمبراطوريات البحرية العظمى ، بينما أخذت الدول الداخلية القارية تتجاذب إلى مغناطيسية البحر كما لو بقدرية ميكانيكية قاهرة . وبمعنى آخر اشتد مغزى الصراع بين قوى البر والبحر كما وكيفا ، أبعادا وأعماقا . ولهذا فن الآن فصاعدا وإلى أبعد حد ، ستريخ معادلة الصراع بين البر والبحر كل معادلات الصراع الأخرى كالاستبس والغابة ، والسهل والجبل ، والرمل والطين ، التي كانت تشاركها تفسير التاريخ البشرى ، لتصبح هي وحدها قطب الرحي في الاستراتيجية العالمية . بل سنجد الصراع بين الاستبس والغابة بالذات يتحول نهائيا ليأخذ شكل الصراع بين البر والبحر .

دور أوروبا الغربية

ذلك جميعا هو مغزى الكشوف الجغرافية ، ولكن السؤال المنطقي قبل أن نتتبع خطى الكشوف هو : لماذا خرجت أوروبا - وأوروبا الغربية - بالذات في ذلك التاريخ بعينه ؟ لقد تحرك قطب الحضارة البشرية ومركز الثقل في القوة السياسية العالمية حركة تاريخية محددة ، وثيدة ولكنها أكيدة ، عبر العصور القديمة والوسطى ، حتى اتضحت بجلاء على أبواب عصر الكشوف إلى أن تبلورت تماما مع الانقلاب الصناعي . فالحضارة نشأت في دائرة الشرق الأوسط القديم ، مصر والعراق وفينيقيا ، ثم انتقلت إلى كريت فالليونان فروما ، وعشية الكشوف جاء دور غرب أوروبا ، جنوبه أولا ثم شماله .

هناك إذن سهم حركي واضح يبدأ من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، ومن عروض دون مدارية إلى عروض معتدلة باردة . هذا ما يعرف في مجموعه بنظرية هجرة الحضارة نحو الشمال ، بعيدا عن خط الاستواء ، وتجاه القطب (٢) . والمسلم به علميا

(١) Derwent Whittlesey, Earth & state, Wash., 1944, p. 56-59.

(٢) E. Huntington, Civilisation & climate, 1924, p. 396-7; Mainsprings of civilisation, N.Y., 1945.

وتاريخياً أن هذه الحركة ارتبطت تماماً بالاحتكاك والاقتباس الحضارى ، بمعنى أن كل مركز لاحق استمد حضارته أصلاً من مركز سابق ثم نماها إلى مستويات أعلى ربما . والكشوف الجغرافية في الحقيقة لا تخرج كثيراً عن هذه القاعدة .

غير أن كثيراً من الكتاب الغربيين يخلوهم أن يردوها إلى حيوية وتطلع غير عادى في شعوب غرب أوروبا ، وإلى حب استطلاع ومغامرة وتفوق طبيعى في الجنس . هم بمعنى آخريثيون تفسيرا عنصريا . إلا أن الحقيقة أن أوروبا الغربية خرجت إلى الكشوف بسبب عدة ضوابط وضوابط أهمها ماجاء من الخارج وأقلها ما صدر عن الداخل . وبتحليل هذه العوامل لن نعدم أن ترى أثر مراكز الحضارة والقوة الأسبق من عرب واستبس وغيره ، ويمكن أن نحدد تلك العوامل في ثلاثة : حضارى ، سياسى ، وجغرافى .

العوامل الحضارية والسياسية

فحضاريا لا جدال في أن الكشوف نتيجة من نتائج النهضة الأوروبية . وهذه بدورها وبالقطع نتيجة من نتائج الاحتكاك الحضارى بالعرب . فمن مركز الحضارة العالمية في العصر الوسيط - العالم العربى - تسربت عناصر الحضارة المادية وغير المادية إلى أوروبا عبر البحر الأبيض المتوسط مع التجارة والانتقالات ، ولكن بصورة درامية حاسمة في الحروب الصليبية التي أيقظت أوروبا من سباتها وتخلفها . ويكفى كمجرد مثال أن إسبانيا ما عرفت البارود والأسلحة النارية التي ستبنى بها إمبراطوريتها إلا نقلا عن العرب أثناء صراعها معهم . وقد انعطفت أوروبا بعد ذلك على ذلك الدرس الحضارى وتمثلته ثم طورته ماشاء لها التطوير . وبفضل ذلك التراث - وبما فيه من فنون البحر بالذات - استطاعت أن تخرج إلى المحيط .

أما سياسيا فقد كانت أوروبا الوسيطة تعيش في عالم انقطاعى ممزق ، عالم الفرسان والأقنان ، والأمراء وعبيد الأرض . وبذلك كانت تتألف سياسيا من موزايكو لانهائية له من الوحدات المحلية والإقليمية الضيقة ، سواء من دوقيات وبارونيات الاقطاع أو دول المدن ونقابات الأوليجاركية guilds ، الكل قد مزقته الحروب والصراعات الصغيرة . ولم يكن من الممكن مثلها أن تخرج إلى استعمار الكشوف بهذا الهيكل السياسى البدالى القزمى . بل هى لم تخرج إلا بعد أن بدأت فيها جرائم القومية الأولى والشعور والوعى بالذات الوطنية وانجهدت نحو لم جزئياتها السياسية في وحدات وطنية أكبر في طريقها إلى الدولة الوطنية الحديثة nation state .

الضغوط الخارجية

وهنا نقرر مباشرة أن الذي دفعها إلى هذه الطريق إنما هي ضغوط القوى الخارجية المعادية . فكما يعترف ماكيندر ، إن الذي خلق الشعور القومي مبكرا في أوروبا هي الضغوط الثلاثة التي أحدثت بها من جهاتها الثلاث : خطر الفيكينج من الشمال ، والاستبس من الشرق ، والسراسنة (العرب) من الجنوب . وقد رأينا من قبل يعترف بأن الآسيويين في موقعة شالون كانوا يصنعون فرنسا الحديثة دون وعي . كما رأينا أن الصليبيات كانت أول حركة وحدت أوروبا وهي وإن تكن إطارا دينيا فإنها تدريجيا نمت إلى منتهائها الطبيعي وهو الاطار القومي . ويكفي أن الوحدة السياسية ثم الكشوف الجغرافية بدأت مباشرة في إسبانيا والبرتغال بعد طرد المور والعرب وكرد فعل للصراع معهم . إن القومية المبكرة والوحدة الوطنية الباكورة التي عرفتها أوروبا : ومكنت لها من الخروج إلى الكشوف والاستعمار ، هي في التحليل الأخير هدية غير مقصودة من العرب والشرق .

أكثر من هذا ، إن الضغوط الشرقية والآسيوية هي - جزئيا على الأقل - التي قذفت بأوروبا الغربية إلى ماعبر المحيط ! لقد سبق أن رأينا أن غزوات الاستبس وموجاته هي التي دفعت القبائل المتبربرة غربا حتى قفزت من القارة إلى جزيرة بريطانيا هنا وإلى جزيرة البتندقية هناك . وبالمثل ، ولكن في إطار مختلف ، قد يمكن أن نقول إن مما دفع بأوروبا الغربية لتقفز قفزة أوسع عبر المحيط إلى العالم الجديد ضغط العالم العثماني من الشرق حين أخلق طرق التجارة البرية مع الشرق الأقصى حتى اضطرت أوروبا قسرا إلى البحث عن الطريق الدائري البديل . وفي الماعة موحية وثاقبة ، يؤكد فيرجريف هذا الرأي حيث يقول : « ... ليس من المستكثران نقول إن القبائل الغازية (الآسيوية) ، بتوسيعها لأفق النظرة ، كان لها تأثير واضح جدا في إحداث سلسلة الظروف التي أدت إلى كشوف كولمبس ومن تلاه » (١) .

العوامل الجغرافية

يبقى أخيرا من العوامل التي أهلت أوروبا الغربية للكشوف ، العامل الجغرافي موضعا وموقعا . فمن الواضح أن البيئة الطبيعية هنا بيئة بحرية مثالية . القارة كلها ليست إلا « شبه

A.E. Moodie, Geog. behind politics, Lond., 1947, p. 86.

جزيرة من أشباه الجزر»^(١) ، سواحل مترامية متعرجة « مسننة » بالخلجان والفيوردات والرياس rias ، ومحمية بالجزر والأرخبيلات ، خلفها أنهار وأحواض أنهار غنية ، تدعمها غابات أخشاب جيدة وآجام القنب والكتان ، وثلاثها خامة بناء السفن ، هذا إن لم تقع وراء تلك السواحل أو الأنهار تربات جرداء وأقاليم برمتها « متجلدة glaciated » تطرد السكان طردا إلى البحر ، والبحر بدورة غنى بثروته السمكية الكثيفة .

وإذن فكل عوامل الجذب في البحر مكفولة ، وعلى اليابس إما عوامل طرد وإما قواعد أرضية متواتية لغزو البحر . كذلك لن ننسى أن هذه البيئة البحرية الفريدة كانت من عوامل سرعة تبلور القومية في غرب أوروبا . فيفضل تداخل المحيط في اليابس وتقطيعه له بالبحار الداخلية والخلجان الكبيرة ، انقسم اليابس إلى وحدات جغرافية طبيعية معقولة الأحجام ، متميزة الحدود ، واضحة الشخصيات ، مما سهل تبلورها القومي ونشأة الدولة الوطنية الحديثة في كل منها .

ثم هناك أخيرا الموقع المواجه للعالم الجديد المجهول . ولعل مما ينبغي أن نلاحظه هنا أن ما خرج إلى الكشوف والاستعمار البحري بعد ذلك من أوروبا إنما هو غربها الساحلي البحري فقط ، ابتداء من النرويج والدنمرك حتى إسبانيا والبرتغال ، بينما أن الدول الأبعد عن نفوذ وعالم المحيط كالسويد وألمانيا ثم شرقها لم تدخل في مرحلة ما حلبة الاستعمار البحري ، ولا يستثنى منها إلا بعض مقاطعاتها الساحلية كبراندنبرج في ألمانيا ، وعلى مقياس متواضع عند ذلك .

الاستعمار البرتغالي

نحو الشرق

بدأت الكشوف في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر من البرتغال وبها . وكان هذا أمرا طبيعيا إلى حد بعيد ، وامتدادا للحروب الصليبية إلى حد ما . فبعد - بل حتى قبل - طرد المور من أيبيريا ، استأنف البرتغال والإسبان صراعهم الصليبي بمده ونقله إلى المغرب العربي نفسه . فنذ غارات القرصنة الإسبانية على المغرب وقبل الاسترداد النهائي انتزع الإسبان سبتة ومليلة على الساحل المقابل^(٢) ، بينما بعده بقليل بدأ البرتغال في

Whittlesey, p. 87.

(١)

Nevill Barbour, loc. cit.

(٢)

إقامة مستعمرة على الساحل الأفريقي للمغرب هي « الغرب عبر البحر » : مقابلة لمقاطعهم هم المعروفة الغرب Algarve (١). وهكذا كانت البرتغال بموقعها من أفريقيا وفي أفريقيا في موضع يسمح لها بالمخاطرة جنوبا في « بحر الظلمات » .

ثم كانت هناك الرغبة العارمة في انتزاع تجارة الشرق الثمينة من العرب والوصول إلى جزر التوابل بالدوران حول اليباس الأفريقي أى بطريق بحرى بديل . وثمة فوق هذا الرغبة الصليبية الكامنة في الانتقام من الإسلام بتطويقه والالتفاف حوله ، وهى الرغبة التى أعطت الاستعمار البرتغالى من بدايته نزعة كاثوليكية ومسحة صليبية لاشك فيها . فالاستعمار البرتغالى - والإسباني من بعده - خرج أولا « كاستعمار كاثوليكي » وظل كذلك طويلا فيما بعد . يؤكد هذا أن البابوية باركت أكثر من مرة امتلاك الإسبان والبرتغال لكل ما قد يكتشفونه « خارج العالم المسيحي » ، كما أنها هى التى قسمت العالم بعد قليل ما بين القوتين الجديدتين .

هكذا في مدى عقد واحد من الاسترداد (١٤٩٧ - ١٤٩٩) كان البرتغال قد داروا حول الكيب (دياز) ووصلوا إلى الهند (داجاما) . وهم إذا كانوا قد أفادوا من التجاريات الشمالية الشرقية في بداية الرحلة ، فقد أفادوا في نهايتها من الموسميات الجنوبية الغربية التى أعطاها العرب (أحمد بن ماجد) سرها - ليكونوا لهم عدوا وحزنا ... فقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الكشف عملية « أسر » كامل للعرب : فالطريق البحري الجديد كان « أسرا نقليا » للطريق البرى التقليدى بحيث « سرقوا » الموقع الجغرافى البؤرى للعرب ، ومعه سرقوا تجارة الشرق ، ومع هذا وذلك سرقوا قوتهم السياسية بالكامل .

وينبغى أن نضغط جيدا على حقيقة هامة وهى أن توسع البرتغال إنما قام على حساب العرب أساسا سواء تجاريا أو استراتيجيا ، وهم في الواقع الذين ورثوا دورها السلمى وبدأوا انهيارها العسكرى . وإذا كانت المدن الإيطالية قد شاركت العرب في هذا المصير ، فهذا باعتبارها المكمل الأوربي الثانوى فقط في سلسلة تجارة الشرق القديمة . ففي خلال العقد الأول من عودة داجاما من الهند كانت سفن العرب من الاسكندرية وبيروت تدخل البندقية فارغة لأول مرة . لقد غاض الدم وجف من الشريان والوريد معا ، فتوقف قلب الاقتصاد العربى الإسلامى .

Fairgrieve, p. 137.

(١)

وفي خلال العقد نفسه كان غزو البرتغال لجزر الهند (الشرقية) قد اكتمل ، وهزم العرب في بحر العرب وفي ملقا ، واستقرت قوة البرتغال على كل سواحل الهند والمحيط الهندي^(١) . فبدأوا بمطاردة دول المدن العربية على طول ساحل شرق أفريقيا ، وفي العقد الأول من القرن السادس عشر استولوا على جزر البحرين وأقاموا فيها الحصون والمواقع factories ، وظلوا بها نحو قرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم . وفي العقد الثاني من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى ، وكذلك فعلوا بمسقط حيث نجحوا في البقاء نحو نصف قرن^(٢) .

صراع الأضداد

وفي هذا الصراع العربي - البرتغالي في الهند تحالف البرتغال مع الحبشة المسيحية التي قدمت لهم مساعدات كثيرة ضد مصر خاصة . وكان التعاون بينها قد بدأ في الواقع قبل الكشف بقرن كامل إبان الصليبيات ، وكان بينها مشروع خيالي لتحويل مجرى النيل الأزرق في الحبشة إلى البحر الأحمر لتجف مصر وتنقرض جوعا . . . وقد حاول ألبوكيرك بعد الكشف تنفيذ هذا الحلم « الفاوستي » المريد ، ولكن الجغرافيا سخرت منه وبددته تبديدا . وعموما فقد كانت استراتيجية البرتغال أن تكسح العرب من الباب الخلفي بعد إذ عجزت من الباب الأمامي ، وحاولت أن تطوقهم بكماشة فكأها في المغرب وبحر العرب . ولقد كان هذا جميعا إيذانا بنهاية الدولة العربية ، فبدأت الانحدار الرهيب الذي سيجعلها بعد قليل فريسة سهلة للعثمانية . وهذه بدورها ستأتي لتخفق - بسياستها الجمركية الابتزازية الغبية - البقية الباقية من تجارة المرور وتضاعف من الانهيار الخفيف . وقد حاول الأتراك فيما بعد ملاقاتة البرتغال في المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر ، ولكنهم هزموا في النهاية في موقعة ديو البحرية .

على أن الإمبراطورية البرتغالية في الشرق لم تزد في الحقيقة على نقط ومواقع عسكرية منتشرة على السواحل ، ولم تمتد أبدا على مساحات واسعة من اليابس ، وكانت في نمطها أقرب ما تكون إلى نوع الاستعمار الاغريقي مع هذا الفارق أنه لم يعرف استعمار السكني والتوطن . فن ناحية ظلت أفريقيا بالنسبة للبرتغال مجرد عقبة لا عتبة إلى الهند ، وكل

Fairgrieve, p. 140.

(١)

Royal institute of international affairs. The Middle East, Lond., 1958. p. 103, 132, 143.

(٢)

قيمتها لها أنها موطن قدم ونقط مراحل على الطريق ، ولهذا لم يزد استعمارها فيها عن نقط وأشرطة ساحلية ومواقع حربية أهمها في ساحل غرب أفريقيا (ساحل الذهب) وشرق أفريقيا . وفي المراحل التالية أصبحت المواقع البرتغالية على ساحل غرب أفريقيا محطات لحشد وتصدير الرقيق . وفي الهند لم يتعد البرتغال نقطة قاليقوت على جنوب الساحل الغربي في البداية ، ولا رقعة جوا على شماله في النهاية ، ولعل مما ساعد على حصرهم على الشقة الساحلية حائط جبال الغات المنيع (١) .

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى البرتغال ، بعددهم المحدود ، القوة البشرية الكافية للاستعمار السكنى الاستيطاني حتى لو أرادت . بل إن أمر هذه القوة البشرية ليشير الدهشة حقا ، ففي عصرها البطولي هذا لم تكن البرتغال تزيد على المليون نسمة سكانا (٢) فالغربة إذن ليست في سقوط الاستعمار البرتغالي في النهاية ، وإنما هي في الدرجة الأولى في قيامه أصلا . ولهذا وبالأحرى كان الاستعمار السكنى الاستيطاني سؤالا غير وارد على الإطلاق ، وظل الاستعمار البرتغالي في جزر الهند الشرقية « استعمار البهار » أساسا وبامتياز . ومن ثم يمكن أن نلخص محاور الاستعمار البرتغالي في ثلاثية : الكتلكة : التجارة : الغزو .

تحلل الإمبراطورية

وسيلحظ أن البرتغال - التي هي أول بناء الإمبراطوريات - قد حققت استعمارها في عقود قليلة بسرعة غير عادية ، وملكتم مناطق أضعاف أضعاف مساحتها هي وتترامي في إطار جغرافي لا يقل عن نصف محيط الأرض ! .. ومع ذلك ، ورغم أن القرن السادس عشر كان بلا نزاع قرن سيطرة وتسيد البرتغال وإسبانيا ، فإن الإمبراطورية البرتغالية لم تعمر في الواقع أكثر من جيل بالكاد . ولم تلبث بعد ذلك أن أخذت في التقلص والانكماش . فما أن ظهرت قوى بحرية جديدة حتى انهارت البرتغال بلا مقاومة تقريبا (٣) . ففي الوطن ضمت إسبانيا إليها البرتغال بمستعمراتها في نهاية القرن السادس عشر . ورغم أن البرتغال استعادت كيانه بعد ذلك ، فقد كانت تلك هي الضربة القاضية . وإذا كان لها مغزى فهو أن موقع البرتغال الممتاز وتجارتها القائدة لم تجد شيئا أمام ضخامة إسبانيا : لقد كان لا بد للموضع الضخم أن يتغلب على الموقع مهما كان ممتازا .

Mackinder, scope & methods etc., p. 28.

(١)

Whittlesey, p. 403.

(٢)

Fawcett, p. 422.

(٣)

ومن ناحية أخرى اهتمت هولندا كقوة بحرية صاعدة فرصة تحطيم البرتغال على يد إسبانيا لترث دورها وتجارها بل ومستعمراتها ، وكانت تلك بداية دخولها دائرة الإمبراطورية . فلم تزل « تختطف » من البرتغال مواقعها ومستعمراتها في الهند والهند الشرقية واحدا بعد الآخر ، حتى تقلصت الأخيرة إلى جيوب قزمية متخلفة - دامان وجوا في الهند وتيمور في الهند الشرقية - وحتى يمكن القول إنها فقدت إمبراطوريتها في العالم القديم . وهنا لم يتبق لها إلا مستعمرتها القارية الضخمة البرازيل في العالم الجديد .

وإذا كان الغزو البرتغالي في العالم الجديد قد جاء سريعا ، فقد جاء الاستقرار بطيئا . فقد ظلت البرازيل في البدء مجرد نقطة تموين في الطريق إلى الهند لا أكثر ، وكان أغلب المهاجرين الأوائل إليها من المحرمين والمطرودين . لكن ضياع الإمبراطورية في الشرق نقل اهتمام البرتغال إلى البرازيل في أواخر القرن السادس عشر بعد ذلك الإهمال الطويل . فبدأ الاستثمار الزراعي المدارى بالأبعاديات والعمل الوطنى والسخرة . غير أنه لما لم يصلح الهنود لذلك ، بدأ جلب الرقيق الأفريقي بأعداد ضخمة منذ ذلك الوقت حتى تضاعف بجانبهم عدد البرتغاليين كثيرا ، وكان البرتغال بذلك مؤسس مدرسة الرق في العصر الحديث . وفي وقت ما من القرن السابع عشر كانت نسبة الزنوج إلى البيض في باهيا - على سبيل المثال - نحو ٢٠ - ١٠ (١) ورغم أن القرن الثامن عشر شهد بعض موجات للذهب والماس في البرازيل ، فقد ظلت الزراعة المدارية هي أساس الاستعمار البرتغالي هناك .

الاستعمار الإسباني (٢)

كان لنجاح البرتغال في الوصول إلى الهند شرقا نتيجتان مباشرتان ، أولا : أنه ما دامت كروية الأرض حقيقة فمن الممكن الوصول إلى الهند غربا ، وثانيا : أن عدوى الكشف انتقلت بالمنافسة إلى الجارة المباشرة إسبانيا . ولكن إسبانيا وإن تكن بسواحلها وموقعها دولة بحرية ، فهي لم تكن أمة بحرية بقدر ما كانت أمة رعاة وفرسان المزيثا . ولعل مما له مغزاه أن كشف إسبانيا قام بها اثنان من غير الإسبان ، كولمبس الجنوى ، وماجلان البرتغالي . والحقيقة أن وضع إسبانيا سواء في الوطن أو في الاستعمار عبر البحار يشبه بالنسبة

Kimble, p. 21-22.

(١)

(٢) في هذا الموضوع راجع :

Whittlesey, p. 403-470; Fairgrieve, p. 128-145; East, p. 350; 354; Fawcett, p. 422-5.

للبرتغال وضع الرومان بالنسبة لليونان : حججا وقوة ، توجيها بحريا ، ترتيبا زمنيا ، نوع استعمار ، ثم علاقة مصير .

نحو الغرب

وقد خرجت إسبانيا إلى الكشف بعد التوحيد مباشرة مغربة في الأطلسي . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا عكس اتجاه البرتغال في الكشوف ، وكلا عكس مواقعها النسبية في الوطن . وليس من المؤكد أن إسبانيا أول من غامر في الأطلسي ، فهناك أدلة على محاولات أسبق . فالنورس Norse وصلوا من سكندنافيا إلى جرينلند وأقصى أصقاع أمريكا الشمالية في العصور المظلمة ، كما أن هناك رواية « الفتية المغربين » من عرب الأندلس الذين يقال إنهم خرجوا من البرتغال إلى شمال أمريكا الجنوبية . هذا عدا النظرية الصينية الحديثة التي تجادل بأن الصينيين سبقوا كولمبس إلى العالم الجديد عن طريق الهادي .



شكل (٩) الاستعمار في العالم الجديد ١٧٦٣

إلا أن كشف النورس جاء موهودا من البداية لأنه انتهى إلى نهاية اللامعمور ، أما الفتية فلم يعودوا ، والكشف الصينى إن صح لا أثر تاريخى له . وهكذا قدر لإسبانيا أن تكشف أمريكا ، وقدر للأطلسى أن يخترق لا من حيث يضيق إلى أدناه فى الشمال ولكن من حيث يتسع إلى أقصاه فى الوسط . وقد لعبت الرياح دورا هاما فى توجيه وتوقيع الكشوف الإسبانية والاستعمار الإيبانى بعدها . فقد اتخذت رحلة الذهاب مسارا متعمقا نحو الجنوب حتى تحملها الرياح التجارية الشمالية الشرقية الدائمة ، مما انتهى بكولمبس إلى جزر الهند « الغربية » وأمريكا الوسطى . هذا بينما كانت رحلة العودة تأخذ مسارا أكثر شمالية بكثير لتفيد من الرياح العكسية الغربية .

ورغم أن كولمبس لم يعرف قط أن هناك « أمريكا شمالية » ، فالهمم أن جزر الهند الغربية كانت أول ما وطئ الإيبان ، فكانت لصغرها وتفتتها فريسة سهلة لهم ومن ثم ، شأن كل الجزر الساحلية المائلة ، خشبة قفز مثالية على القارة - وستكون بالمثل آخر ما يغادرون من العالم الجديد . ومن أمريكا الوسطى توسع الإيبان بعد ذلك شمالا عبر هضبة المكسيك ، وفيما بعد وصلوا إلى فلوريدا وكاليفورنيا . ومن أمريكا الوسطى أيضا عبروا برزخ بنا إلى الهادى وتمددوا على طول ساحل أمريكا الجنوبية الغربى ومنه دلفوا إلى نطاق مرتفعاتها الغربية ، إلا أنهم أهملوا شرق أمريكا الجنوبية المنخفض كما لم يهتموا إلا متأخرا بالأرجنتين . وبهذا يرسم تقدمهم فى أمريكا الجنوبية قوسا هلاليا عكس عقارب الساعة ، يبدأ من جزر الهند ثم يتبع المرتفعات الغربية إلى أن ينتهى فى سهول الأرجنتين .

وقد تم ذلك جميعا أو تقريبا قبل أن يتتصف القرن السادس عشر ، بل الواقع أن الهيكل الأساسى لكل الإمبراطورية الإسبانية فى أمريكا اللاتينية تم وضعه فى ربع قرن فقط . وهو معدل مذهل ، لا سيما إذا عرفنا أن إسبانيا حينئذ لم تكن تتعدى ٦ ملايين نسمة ، مقابل ١٢ مليون من الهنود الحمر . وفى أوج الاستعمار الإيبانى لم تقل المساحى دى خضعت له صف العالم الجديد مرهلم تزحف نحو الثلثين ، وذلك يعادل مساحة الوطن عشرات المرات |

كيف نفسر هذا ؟ - بالفارق الحضارى والحربى بين الغزاة والوطنيين أولا ، أى بين البارود والمدفعية والفروسية وبين أسلحة المشاة البدائية . ولكن هناك أيضا العامل الجغرافى ، فإن هناك تشابها طبيعيا ومناخيا كبيرا بين هضاب أمريكا وهضبة المزيثا فى الوطن ، وكان هذا مما سهل عملية الانتشار وسرعة التمدد . ونفس هذا العامل الطبيعى

هو الذى يفسر لماذا لم يتوغل الإسبان كثيرا فى أمريكا الشمالية ، فهناك يبدأ وسط بيثى ومناخى مختلف كثيرا عما ألف الغزاة المتوسطيون ، وهناك بالتالى وضعت الطبيعة الحد السياسى للاستعمار الإيبانى . وإذا كان هذا قد وصل إلى أعماق مذكورة فى أمريكا الشمالية ، فقد جاء ذلك متأخرا وانحسر مبكرا .

ومع كشف العالم الجديد كان لابد من تنسيق السيادة بين إسبانيا والبرتغال . فنالت إسبانيا - فى تحكيم البابوية فى معاهدة تورديسيلاس - كل ما يكشف فى نصف الكرة الغربى ، والبرتغال كل ما يكشف فى نصفها الشرقى . . . وقد جعل خط هذه المعاهدة شرق أمريكا الجنوبية (البرازيل) من نصيب البرتغال ، بينما أصبح بقية جسم أمريكا الجنوبية والوسطى إمبراطورية قارية إسبانية ضخمة ، ولو أن البرتغال تخطت الخط كثيرا نحو الغرب بعد ذلك .

وفى نفس الوقت كان ماجلان يتجه إلى مضيق ماجلان ليعبر الهادى ويكشف الفلبين (التى أعطيت اسم الملك الإيبانى) ويصل إلى جزر الهند الشرقية . وبهذا دار حول الكرة دورة كاملة ، وكانت رحلته تعادل رحلتى دياز وكولبس معا ، وعلى نطاق أضخم بكثير أيضا . ومع ذلك فسيأتى هذا الطريق فاشلا تجاريا لأنه أطول جدا من طريق البرتغال ، على أنه منذ ذلك الحين دخلت الفلبين فلك الإمبراطورية الإسبانية .

وهكذا خرجت إسبانيا والبرتغال من الوطن وقد أعطى كل منهما ظهره للآخر ليجدا نفسيهما فى النهاية يلتقيان وجها لوجه فى الشرق الأقصى : إسبانيا فى الفلبين شرقا إزاء البرتغال فى جزر الهند الشرقية غربا : أى على غرار مواقعها فى أيبيريا وعلى عكس ترتيب المواجهة بينهما فى أمريكا الجنوبية . وبهذا أغلقت الدائرة الاستعمارية حول محيط الكرة الأرضية ، وأصبحت إمبراطورية البرتغال تمتد من الأنديز فى الغرب إلى جزر الهند الشرقية فى الشرق ، وإمبراطورية إسبانيا تمتد من الأنديز وجزر الهند الغربية فى الشرق إلى الفلبين فى الغرب |

الاستعمار الأيبيرى : مقارنة

ولئن كان الاستعمار الإيبانى يشترك مع البرتغالى فى المثل التبشيرية ، فإنه يختلف عنه فى أنه لم يستهدف التجارة أصلا ، وعلى كل حال فإن المناطق التى دخلها لم يكن بها بهار أو تجارة لتستغل . أما « بهار » الإسبان فكان المعادن النفيسة ، الذهب والفضة . ولهذا اندفعوا فى أمريكا الجنوبية مباشرة إلى المرتفعات الغربية الغنية جيولوجيا بهذه الثروات فى

المكسيك وبيرو ، في حين أن جزر الهند الغربية وشرق القارة لم تكن بها ثروة إلا الزراعة المدارية التي تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة وأبعاديات واسعة ولهذا تأخر استثمارها فترة ما . وفي المرتفعات وجد الإسبان مجالاً لهدف أساسي من أهدافهم وهو الغزو ، فحطموا ممالك الأزتلك والإنكا وغيرها من الدول الهندية ، وفي هذا برز دور الغزاة الفاتحين conquistadores كورتيز وبيزارو .

وأخيراً فإن الاستعمار الإسباني يختلف عن البرتغالي في أن الأخير دخل مناطق مأهولة بالسكان كثيفة ومدارية ، فلم يكن ثمة مجال لاستعمار سكني ، ولم يكن للبرتغال على أية حال القوة البشرية لمثله . أما الاستعمار الإسباني فقد حدث في مناطق مخلخلة قليلة السكان يصلح كثير منها بحكم ارتفاعه لتوطن البيض . ولهذا ، ولوفرة القوة البشرية في إسبانيا نسبياً ، اتخذ نمطاً سكنياً استيطانياً سيشتد فيما بعد ويتحول إلى خلط جنسي لا مثيل له في أى قارة أخرى . والحقيقة أن الهجرة الإسبانية ظلت ذكرية أساساً لفترة طويلة – دليل آخر على طابعها العسكري – مما فتح الباب أمام التزاوج من الوطنيين ، ثم فيما بعد مع الزوج المحليين .

ويمكننا أن نلخص الموقف كله في أنه إذا كانت أركان الاستعمار البرتغالي هي التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجي الساحلي ، فإن أركان الاستعمار الإسباني هي التبشير والمعادن النفيسة والغزو والاستعمار الاستيطاني أو السكني . وبهذا يبدو الاستعمار البرتغالي ، كما ألمحنا عابرين من قبل ، أقرب في طبيعته ومجاله إلى الاستعمار الإغريقي القديم بمركبه التجاري – البحري – النقطي ، بينما يقترب الإسباني كثيراً من الاستعمار الروماني القديم العسكري – الأرضي – القاري .

وإذا كانت إسبانيا والبرتغال قد تقاسمتا السيادة والقوة العالمية في القرن السادس عشر ، فقد كانت اليد العليا لإسبانيا بكل تأكيد بحكم جرمها وضخامتها ، بل لقد رأينا كيف ضمت البرتغال في نهاية القرن وحطمت قوتها . وقد احتكرت إسبانيا التجارة طويلاً وحرمت القوى الأخرى من التجارة في إمبراطوريتها Spanish Main كذلك . إلا أن إسبانيا لم تكن تملك شيئاً في العالم القديم سوى الفلبين .

ولكن إذا لم يكن لإسبانيا إمبراطورية في الشرق أو العالم القديم كالبرتغال ، فقد عوضت عنها بإمبراطورية كبرى في أوروبا نفسها : فكان لها أملاك واسعة في إيطاليا ، وآلت إليها الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) بالوراثة ، وحاولت أن تعيد

الإمبراطورية الرومانية « المقدسة » ، وتطلعت إلى السيطرة على أوروبا جميعا . ولذلك دخلت حروبا طويلة في غرب القارة ووسطها ، هذا عدا الحرب مع الأتراك ، مما امتص طاقتها في النهاية وأنهكها .

مرحلة السقوط

ولقد كان المنافس والعدو الأكبر لإسبانيا على القارة هو فرنسا . وحاولت الأولى - وهي التي كانت تطوق أملاكها فرنسا من الجنوب ومن الشمال في الأراضي المنخفضة ومن الشرق في إيطاليا والراين - حاولت غزوها ولكنها فشلت . كذلك ستنجح هولندا في انتزاع استقلالها من إسبانيا وشيكا . ثم حاولت إسبانيا غزو إنجلترا في نهاية القرن بالأرمادا « التي لا تقهر the invincible Armada » (Armada armata arms) ، فكانت الهزيمة الشهيرة في سنة ١٥٨٨ التي وضعت حدا لإسبانيا كقوة بحر . وإذا كان هذا قد ترك بريطانيا آمنة في جزيرتها ، فقد ثبت أيضا استقلال هولندا ، وأكد وقفة فرنسا في وجه إسبانيا ، وأنهى أطاع السيادة الإسبانية .

هكذا ضاعت إمبراطوريتها الأوربية مثلما ضاعت إمبراطورية البرتغال في الشرق ، ولم يتبق لها - مثلها - إلا إمبراطوريتها في العالم الجديد . وحتى هذه لم تلبث القوى الجديدة فرنسا وهولندا وبريطانيا أن بدأت تتخاطفها بالقوة في جزر الهند الغربية خاصة . فانتزعت بريطانيا جميعا وبعض جزر الأنتيل الصغرى في القرنين السابع والثامن عشر ، وابتلعت فرنسا جواديبوب والمارتنيك ، كما اقتسمت الاثنتان هايتي ، بينما خرجت كل من هولندا والدنمرك ببعض الجزر الصغرى ، إلى أن تظهر الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر لتم تصفية التركة . وبذلك بدأ دور إسبانيا العسكري يؤول إلى فرنسا ، مثلما آل دور البرتغال التجاري إلى هولندا ، وهاتان هما القوتان اللتان سينقل إليهما الصراع على السيادة العالمية في القرن التالي .

الفصل الرابع

الاستعمار البحري

الثلاثة الكبار

الاستعمار الهولندي^(١)

القرن السابع عشر هو بلا ريب قرن هولندا^(٢). فقد طفرت فيه إلى المقدمة كقوة بحرية تجارية استعمارية، ودخلت الاستعمار من أوسع أبوابه. وقد كانت الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا) خاضعة لإسبانيا، وشاركت بهذه الصفة في التجارة البحرية الجديدة بدرجة ما في وجه الاحتكار التجاري البرتغالي. ولكن الحقيقة أن موقع البرتغال - أيريا عامة - وإن أعطاها الأسبقية إلى الشرق، لم يكن الأمثل بالنسبة لتجارة الشرق مع أوروبا، لأن أيريا تنحزل عن القارة ومواصلاتها البرية بالحائط الجبلي والبعد الجغرافي. ومنذ أن انتهى دور المدن الإيطالية، أصبح المدخل الطبيعي لتجارة أوروبا مع الشرق هو الأراضي المنخفضة باعتبارها نهاية الشارع الرئيسي للحركة في قلب القارة، ونعني به الراين الذي - وحده من بين أنهار غرب القارة - يتوغل حتى قلبها.

ولم تتوان هولندا عن توظيف هذا الموقع للمدخل الجديد. فتجحت أولا في انتزاع استقلالها من إسبانيا في حروب الإصلاح الديني في العقد التاسع من القرن السادس عشر، وذلك بفضل تحصنها في دلتاها الاسفنجية وإغراقها لأراضيها الواطئة في وجه العدو، بالإضافة إلى مزاياها كأمة ملاحية في بيئة بحرية مثالية. هذا بينما ظلت بلجيكا إسبانية ولم تستطع أن تخرج إلى البحر والاستعمار فيما بعد، إلا في موجة القرن التاسع عشر. ومنذ ذلك الحين، بدأت تجارة البهار والشرق تنصب انصبابا في هولندا، التي ورثت دور البرتغال بمثل ما ورثت أنتورب دور لشبونه، فصارت أكبر مركز تجاري في أوروبا. أو

Fairgrieve, p. 146-160, East, p. 354-8, Fawcett. p. 425.

(١)

Harrison Church, p. 21.

(٢)

قد نقول بطريق غير مباشر : ورثت هولندا دور إيطاليا ، بل دور العرب . وسنحت الفرصة الكبرى لهولندا لتأكيد مكانتها حين حطمت إسبانيا قوة البرتغال . ثم حين تحطمت قوة الأرمادا .

قرن هولندا

فبدأت هولندا تنفض على المستعمرات البرتغالية (الإسبانية في وقت ما) . وقبل أن يمضي نصف قرن على الاستقلال كانت هولندا في كل بحار العالم ، وبعدها بقليل وصلت إلى أوج قوتها وانتزعت السيادة من البرتغال في جزر الهند الشرقية التي ظلت - باستثناء تيمور - هولندية بعد ذلك باستمرار . وهي بذلك قد ورثت إمبراطورية البرتغال كما ورثت موقعها الجغرافي ودورها التجاري . وفي الطريق إلى الهند أقاموا مستعمرات ساحلية في ساحل غانه ، وكانوا أول من نزل في الكاب بموقعه الحيوى بعد إذ أخطأها البرتغاليون بصورة محيرة وغير مفهومة .

ثم بعدها امتلكوا جزيرة موريشس (التي أعطوها اسم أميرهم موريس) ، وأخيرا احتلوا جزيرة سيلون حيث سيكون لهم دور طويل فيها . أكثر من هذا غامر الهولنديون من جزر الهند الشرقية جنوبا حتى كشفوا ساحل شمال أستراليا لأول مرة في بداية القرن السابع عشر وحتى سميت حين ما بهولندا الجديدة . كذلك كشف تازمان تازمانيا ونيوزيلند (نسبة إلى زيلند بهولندا) في النصف الأول من نفس القرن . إلا أن هذه الكشوف لم تؤد إلى دور استعماري ما .

لا . ولم تقتصر الإمبراطورية الهولندية على العالم القديم . بل أسسوا مستعمرات في البرازيل وجيانا . وكانوا هم الذين اكتشفوا لأول مرة رأس هورن الذي يحمل اسم إحدى قراهم . فضلا عن ذلك امتلكوا مفتاح مدخل أمريكا الشمالية في نيو أمستردام (نيويورك فيما بعد) . وعدا هذا فقد نسيّدوا تجارة البحار والمحيطات بالنقل البحري لكل أوروبا ، حتى سموا أنفسهم « نقلة البحر Wagoners of the sea rouliers des mers » . كما سماهم غيرهم « بقالة أوروبا » .

وسيالاحظ عند هذا الحد أن الإمبراطورية الهولندية صورة محرفة للإمبراطورية البرتغالية : ففي أوروبا نفسها لم يكن ثمة مجال لتوسع أى منها ابتداء . أما عبر البحار فكل منها إمبراطورية بحرية ساحلية تتألف من رقع متناثرة . كذلك فقد بدأت تجارة لا توطننا ، وذلك بحكم كثافة السكان في مستعمرات العالم القديم . ومع ذلك فقد تحولت هناك

بالتدرج من الاستعمار الاستغلالي إلى درجة ما من الاستعمار السكنى ومن التجارة إلى الأعباديات ، بينا في العالم الجديد ساد هذا الطابع الأخير مبكرا .

وكالبرتغال ، لم يكن لتوهج هولندا ولعانها كقوة بحرية أن يبقى طويلا . فهي مثلها تعاني أساسا من قاعدة أرضية محدودة الرقعة ، فقيرة في تربتها وإنتاجها الزراعى ، لا تعرف الكفاية الذاتية حتى في الغذاء . فاقدة حتى للموارد الغاية والمعدنية اللازمة لبناء السفن . والواقع أنه كان على هولندا أن تستورد كل مقومات حياتها اليومية والغذائية والبحرية شأنها في ذلك شأن بريطانيا فيما بعد ، حتى لقد قبل إن كل رأس مالها لم يكن سوى موقعها الجغرافى وكل خامها لم يكن إلا النقل . ومن ثم كان مقتلها يكن - كالبرتغال - في حرمانها من تجارتها ...

ثم هي كانت كالبرتغال أيضا تعاني من قوة بشرية محدودة الحجم ، ولها مثلها حدود برية مشتركة مع قوة ضخمة - فرنسا - على يديها سيكون تحطيم قوتها كما خبرت البرتغال على يد إسبانيا . وتاما كما اغتنمت هولندا الفرصة لترث البرتغال ، فستغتم قوة بحرية أخرى - بريطانيا - الفرصة لترث هولندا ! بل كانت هولندا في وضع أسوأ من البرتغال ، لأنها وقعت بين شقى رحى فرنسا على القارة وبريطانيا في البحر .

دور الانحدار

فى القرن السابع عشر بدأت كل من فرنسا وإنجلترا تتطلع وتخرج إلى البحر وتنافس هولندا على التجارة العالمية والقوة البحرية . ولكن خطر فرنسا كان الأسبق ، ظهر فى القرن السابع عشر ، غير أن هولندا استطاعت أن تحتفظ بقوتها إزاءها طوال هذا القرن ، فى حين كان موقف إنجلترا أقرب إلى السلام الاسمى ، ولم يتخذ شكلا حربيا إلا فى القرن الثامن عشر . وعموما فلم يكن عداء بريطانيا لهولندا أو خطرها عليها يصل إلى عداء فرنسا وخطرها . ويتراوح تاريخ الصراع إما بين حروب منفصلة بين هولندا وفرنسا أو بين هولندا وإنجلترا ، وإما بين حروب أحلاف بين هولندا وفرنسا ضد إنجلترا أو بين هولندا وإنجلترا ضد فرنسا .

وفى كل هذه الحالات وأيا كانت النتائج المباشرة للحروب ، كان هذا عبئا خطيرا على موارد هولندا المحدودة وامتصاصا لطاقتها . وقد كان دور فرنسا فى تحطيم قوة هولندا أكبر من دور بريطانيا ، لأن هولندا كانت أضعف على البر منها على البحر كثيرا ، فكان يمكن أن

تواجه بريطانيا بدرجة أو بأخرى ، أما مع فرنسا فلم يكن ظل لندية ما . ومع ذلك فقد كان صراع هولندا مع الإنجليز في البحر مريرا بل وحشيا ، واستأثروا في وجههم لأنهم هم مباشرة الطامعون في تجارة المحيط ، حياة هولندا أو موتها .

ولا يبدأ القرن الثامن عشر إلا وكانت هولندا قد فقدت معظم تجارتها وخسرت كل قوتها البحرية ، وخرجت تماما من دائرة صراع القوة ، وأصبحت بمثابة برتغال الشمال . حتى مستعمراتها أخذت تتقلص فيما بعد ، كما في أعقاب الحروب النابليونية حين انتزعت بريطانيا منها مستعمرة الكاب ، هذا عدا أنها هي نفسها سقطت لفرنسا نابليون . وكما انقضت هولندا من قبل على المستعمرات البرتغالية في الشرق الأقصى ، انقضت إنجلترا على مستعمرات هولندا هناك . ومن الغريب أن هولندا بعد ذلك مالت - تماما كالبرتغال - إلى أن تصبح حليفا تقليديا بل وعالة على الحماية البريطانية سواء في القارة أو في البحر أو في المستعمرات . وباختصار فقد ورثت بريطانيا بالذات دور هولندا مثلا ورثت فرنسا دور إسبانيا .

الاستعمار الفرنسي

مع نهاية القرن الخامس عشر كانت فرنسا قد استكملت وحدتها القومية حول باريس . غير أنها في وصولها وتدعيمها لحدودها الشرقية البرية غير الواضحة دخلت في صراع برى مع القوى المجاورة استغرقها مدى النصف الأول من القرن السادس عشر ، كما أنفقت نصفه الآخر في حروب الإصلاح الديني . كذلك كان عليها أن تقاوم أطباع إسبانيا في السيطرة عليها طوال ذلك القرن . فلم تكن لذلك كله مستعدة للخروج إلى العالم الخارجي سواء في القارة أو عبر البحار إلا مع مطلع القرن السابع عشر .

ولكن إذا كانت قوة إسبانيا قد تدهورت حينذاك ، فقد كانت هولندا في طريقها إلى السيطرة البحرية . ولهذا أصبحت السياسة الفرنسية منذ ذلك الوقت موزعة بين هدفين محوريين : التوسع القارى شرقا وصولا إلى « الحدود الطبيعية les limites naturelles » ، عقدة فرنسا منذ البداية وإلى اليوم ، وبناء قوة بحرية عظمى للتوسع عبر البحار . وقد قام على تلك السياسة كل من ريشيليو وكولبير في القرن السابع عشر . وسيصبح هذان الهدفان والتمزق العضوى بينهما ملمحا أساسيا مزمننا في كل كيان فرنسا المقبل^(١) .

Fairgrieve, p. 146-160.

(١)

ولا شك أن فرنسا خلال العصور الحديثة وحتى الانقلاب الصناعي كانت أوسع وأرسخ وأقوى قاعدة أرضية في غرب أوروبا : فهي تكاد تمثل أقصى رقعة للدولة الوطنية الموحدة قبل عصر السكك الحديدية^(١) . وهي ضعف بريطانيا مساحة : وكانت إلى ما قبل الانقلاب ضعفها سكانا . ثم هي أغنى القوى بالموارد الطبيعية وأقربها إلى التوازن الحرفي والاكتفاء الذاتي . وقد كان من الممكن لها أن تبنى أعظم قوة بحرفي ذلك الوقت ، بل بنتها بالفعل في بعض مراحل القرنين السابع والثامن عشر ، وكان من الممكن لها أن تكون إمبراطورية استعمارية كبرى ، ونجحت في ذلك فعلا .

إلا أن توزيع اهتمامها بين البحر والقارة ، وحروبها المتصلة في القارة ، كان يمتص مواردها وطاقتها بإزمان ، ويسلب أكثر مشاريعها البحرية كثيرا من إمكانياتها . فضلا عن هذا فإن فرنسا ، بغناها الزراعي الداخلي واقترابها التقليدي من الكفاية الذاتية ، لم تكن تشعر بقوة طرد طبيعي على اليابس أو قوة جذب على البحر . كذلك فإنها - كإسبانيا - دولة بحرين مما يعوق وحدة أسطولها البحري^(٢) . وفي هذا كله تكرر فرنسا دور إسبانيا وتوسعاتها إلى حد بعيد وإن يكن على نطاق أكبر . والحقيقة أنها ورثت إسبانيا استراتيجيا مثلما ورثت هولندا البرتغال ، وكما كان على إسبانيا إن تواجه البرتغال كان على فرنسا أن تتصدى لقوة هولندا الطافرة .

في أوروبا

وقد بدأت فرنسا بانتزاع الأراضي المنخفضة (بلجيكا) من إسبانيا المتداعية في منتصف القرن السابع عشر . وبدأت حروبها ضد هولندا مستفيدة من تحالف إنجلترا معها ضدها في بعض الحالات حتى تداعت قوة هولندا على يدها في نهاية القرن . ولكن فرنسا رغم ما تراكم لديها من قوة بحرية ضخمة لم تكن تسيطر على التجارة المريحة إلا إلى حد ضئيل ، وظلت - بحريا - قوة عسكرية أكثر منها تجارية . ولذلك فقد كانت إنجلترا هي التي ورثت دور هولندا التجاري رغم أن فرنسا هي التي حطمت قوتها عسكريا - تماما كما كانت إسبانيا هي التي حطمت البرتغال ولكن التي ورثتها هي هولندا !

Mogey. p. 125.

(١)

Ibid. p. 124.

(٢)

ولذلك أيضا كانت هذه القوة البحرية كاستهلاك لا يقابله إنتاج عبثا على مواردها . وقد كان أمام فرنسا إمكانية بناء إمبراطورية تجارية في البحر المتوسط والشرق العربي تزرى بهولندا وتمعز إنجلترا ، إلا أن ترددتها بين الاهتمامات القارية البرية والتوسع البحري بدم مشاريع كولبير وضع نصيحة الفيلسوف ليبنتز المعروفة في هذا الصدد .

ورغم أن قوة بريطانيا البحرية حربيا وتجاريا كانت تطفر في القرن الثامن عشر باستفحال ، ورغم أنه كان على فرنسا أن تتصدى لها بحيث تحول هذا القرن إلى صراع ثنائي خطير بينهما ، فإن من الممكن أن نعد القرن الثامن عشر قرن فرنسا كأكبر قوة في أوروبا ، فقد كانت تفوق بريطانيا على القارة برا ، ولا تقل عنها بحرا . وقد جمعت فرنسا قواها مع إسبانيا خلال القرن عدة مرات في حروب مطولة ضد بريطانيا بسبب توسع تجارة هذه توسعا خطيرا . ولكن ظلت صراعات فرنسا القارية خاصة مع النمسا تستنزف طاقتها .

وفي أواخر القرن كان الفارق في القوة بين فرنسا وإنجلترا يزداد ضيقا ، إلى أن كانت انتفاضة فرنسا نابليون بعد الثورة وفيها وصلت السيادة الفرنسية في أوروبا إلى قمتها - ولكن أيضا إلى نهايتها . فقد انتهى لمعان القوة الفرنسية ويريقها الشديد كالشهب إلى احتراق أخير ، لتعطي فرنسا مكان الصدارة لبريطانيا .

تفصيل ذلك أن نابليون حاول أولا أن يؤسس إمبراطورية في المشرق في مصر والشام تكون مواقع الخطى إلى الهند كي يضرب بريطانيا فيها ، أو لتكون مصر لؤلؤة الإمبراطورية الفرنسية في مقابل الهند لؤلؤة الإمبراطورية البريطانية كما قيل . وفي مرحلة تالية حاول أن يغزو بريطانيا في جزيرتها ، لكن قصور فرنسا البحرية التقليدي وصل إلى قفته في هذه المحاولة التي انتهت بالطرف الأغر . وكانت المرحلة الأخيرة هي « الحصار القاري » لبريطانيا لحرمانها من كل تجارة أوروبا . وفي هذا السبيل أخضع أوروبا جميعها عدا السويد والنطاق العثماني ، كما انتهى به إلى حملة روسيا القاتلة . ولعل هذه كانت أعظم إمبراطورية أوربية شهدت العصور الحديثة إن لم يكن التاريخ جميعا . لكن تلك كانت نقطة الضعف النهائية : فقد اتسعت الجبهة إلى مدى غير عملي ، فجاءت النهاية نتيجة للاستنزاف المطلق لقوة وموارد فرنسا (1) .

Fairgrieve, loc. cit.

(1)

عبر البحار

تلك التوجيهات وهذه الصراعات تنعكس بوضوح على الاستعمار الفرنسي عبر البحار . ففي النصف الأول من القرن السادس عشر وصلت فرنسا في العالم الجديد إلى سنت لورنس (جاك كارتييه) ، وأسست في النصف الأول من القرن التالي مستعمرتها الكبرى في كيبيك (كويبك) كنواة لكندا الفرنسية أو « فرنسا الجديدة » (شامبلين) . وقد بدأت هذه حقول صيد للفراء ثم حقول توطن وزراعة ، ولكنها ارتبطت بصرامة بالنهر حيث كانت الكتلة اللورنسية الغاية الجرداء إلى الشمال توضع حدا للتوسع (١) . وحتى على النهر ، ارتبط التوسع بآخر حد للملاحة المحيطية الممكنة حينذاك (٢) .

ومن البحيرات اقتيدت فرنسا تلقائيا إلى قلب القارة ، فهبطت في النصف الثاني من القرن السابع عشر مع المسيحي حتى وصلت إلى الخليج (لاسال) . وعلى محور نهري - مرة أخرى - أسست مستعمرة لويزيانا المترامية التي تشمل القطاع الأكبر من سهول وسط القارة (٣) . والحقيقة أن فرنسا كانت خير من أفاد من الأنهار في التوسع السياسي واتخذت منها هيكلًا لإمبراطوريتها في العالم الجديد (٤) . وفي الخالين سيرى الطابع القاري أو البري واضحا في الارتباط بنهر ، بل في الارتباط بقلب القارة .

على أن ضخامة المستعمرات الفرنسية في أمريكا الشمالية جاءت في النهاية نقطة ضعف لا قوة . فبعكس بريطانيا في الولايات الثلاث عشرة التي تحصرها الأبلاش واللجيني ، كان من سوء حظ فرنسا بعد توغلها في سنت لورنس أنها لم تجد عقبة طبيعية كبرى توقف توسعها حتى توطلد أقدامها وتعمق وجودها فيما ملكته . ولهذا أدى تقدمها الكاسح السريع إلى لويزيانا إلى أن أصبح وجودها كله مساحة لا كثافة ، قوة بشرية ضئيلة في رقعة قارية هائلة ، ولهذا لم تستطع أن تحتفظ بها طويلا (٥) .

وفيما عدا هذا اتجهت فرنسا في العالم الجديد إلى جزر الهند الغربية ، حيث نجحت في أن تنتزع عددا من جزرها الصغرى من إسبانيا أهمها جواديلوب والمارتنيك . كما قفزت منها

Th. Pickles, North America, 1954, p. 2. (١)

Church, p. 21. (٢)

E.C. Semple, Influences of geog. environment, 1911. (٣)

Mogey, p. 128. (٤)

L. Rodwell Jones, W.P. Bryan, North America; Fairgrieve, p. 309. (٥)

إلى الساحل المقابل في أمريكا الجنوبية لتتخذ لها موطئ قدم في جيانا الفرنسية . وحتى ذلك الوقت كانت التجارة أسهل وأريح من التعمير ، ولذلك كانت جزر الهند الغربية تدر على فرنسا عائدا أكبر من لويزيانا وكندا . والحقيقة أن هذا يرجع أيضا إلى قيمة الحاصلات المدارية والحاجة إليها في أوروبا بالنسبة إلى محاصيل أمريكا الشمالية التي كانت على أحسن تقدير تكرر إنتاج أوروبا .

أما في العالم القديم فقد اتجهت فرنسا إلى الهند الشرقية ولكن الهند خاصة . فأنشأت مجموعة من القواعد التجارية على سواحل الهند شرقا وغربا وتوغلت منها إلى الداخل قليلا أو كثيرا (ديبليه Duplex وشركة الهند الشرقية الفرنسية) . وقد نشطت تجارة فرنسا مع هذه المستعمرات نشاطا كبيرا في القرن السابع عشر . ولكن المنافسة والصراع مع بريطانيا سلب فرنسا كثيرا من تلك التجارة أولا ، ثم كثيرا من تلك المستعمرات نفسها ثانيا . فبعد أن أسرت المنافسة البريطانية كثيرا من تجارة فرنسا في الهند ، بدأ الغزو والفتح ، وخسرت فرنسا الحرب بسبب قصورها البحري ، فضاعت منها الهند بعد حرب السنوات السبع التي انتهت في ١٧٦٣ ، ولم يبق لها إلا بعض جيوب ساحلية رمزية بحثة تتوزع في شاندراناغور ويانون وبونديشيري وكريكال وماهي !

وفي نفس الوقت ، تكرر نفس المصير في العالم الجديد . فقد انتقل صراع فرنسا - بريطانيا إلى كندا ، ونجحت الأخيرة بفضل قوتها البحرية وقصور فرنسا البحرية في انتزاعها بعد حرب السنوات السبع وتحويلها إلى دومينيون بريطاني . ومرة أخرى لم يبق لفرنسا إلا بقايا تذكارية شكلية في جزيرتي سان بيير وميكلون تجاه ساحل نيوفاوندلند ! وإذا كانت فرنسا قد عادت بعد قليل في حرب الاستقلال الأمريكية لمساعدة أمريكا وحاربت مع إسبانيا ضد بريطانيا إلى أن طردت هذه في النهاية ، إلا أن فرنسا بدورها سرعان ما فقدت لويزيانا في صفقة البيع السياسية التي قام بها نابليون . والحقيقة أنها لم يكن من الممكن الاحتفاظ بها بعد أن اضطرت قوة بحرية أكبر إلى الخروج من القارة^(١) .

وهكذا يمكن أن نخلص إلى أن أغلب مساحة الإمبراطورية الفرنسية التي تكونت في الموجة الأولى للاستعمار في القرنين السادس والسابع عشر ، سواء في العالم الجديد أو القديم ، سواء في العروض المعتدلة أو المدارية ، قد ضاعت قبل أن تبدأ الموجة الثانية في

(١) فايغيلد وبيرس ، ج ٢ ، ص ٧ ص ١٧١ - ١٧٢

القرن التاسع عشر. وهي قد ضاعت أساسا على يد بريطانيا. بل أكثر من هذا يمكن أن نقرر أن فرنسا خرجت من تلك الموجة الأولى بإمبراطورية متواضعة - بقايا إمبراطورية - أقل اتساعا وغنى مما خرجت به أى من البرتغال أو إسبانيا أو هولندا - عدا بريطانيا بالطبع. ولعل فرنسا وحدها هي التي تنفرد بهذه الحقيقة الغربية في تاريخ الاستعمار. ومعنى هذا أيضا أن إمبراطورية فرنسا، كما كانت في عصر ما قبل التحرير المعاصر، ترجع أصولها في معظمها إلى موجة الاستعمار الثانية في القرن التاسع عشر.

الاستعمار البريطاني^(١)

الحقيقة الكبرى والضابط الحاسم في تاريخ بريطانيا السياسي والاستعماري هي أنها بصدفة جيولوجية جزيرة قارية: من القارة وليست فيها. فرة قد تفرض عليها جزيرتها التخلف، فإذا بها مرة أخرى ترعى نموها، ومرة ثالثة تضمن تقدمها. تفسير ذلك أن بريطانيا مرت بثلاث مراحل واضحة في تطورها: المرحلة الاستعمارية، والقارية، فالجزرية. الاستعمارية حين خضعت لغزوات وموجات القارة أيام الأنجلز والسكسون، والقارية حين حكمت أجزاء من فرنسا في العصور الوسطى، والجزرية حين انعزلت عن القارة قبيل عصر الكشوف^(٢).

المرحلة الجزرية

ولكن جزيرة بريطانيا ليست وحدها كل شيء، إذ لا يقل عن ذلك أهمية أنها جزيرة كبيرة فسيحة، يعنى أنها تقدم قاعدة أرضية عريضة متعددة الموارد يمكن أن تقيم دولة كبيرة. ولولا هذا لما زادت عن مجرد تابع أو ذيل لقوة مقابلة على القارة، أشبه شيء بصقلية مثلا ولكن دون تاريخها المفعم. ولئن كانت بريطانيا لا تزيد مساحة عن نصف فرنسا، فإن السهل الإنجليزي - نواتها النووية سياسيا واقتصاديا - لا يقل كثيرا عن مساحة السهل الفرنسي. ومع هذا فإن قوة الطرد على اليابس والجذب إلى البحر أقوى بلا شك منها في حالة فرنسا. ولهذا فبريطانيا هي البهينة البحرية الكاملة التي حملت قوة بشرية كبيرة أولا، وخلقت أمة ملاحية من الدرجة الأولى بعد ذلك، ومنحتها في نفس الوقت عنصر

(١) Fairgrieve, p. 161-196. Fawcett, p. 421-428; Whittlesey, p. 96-128;

فايفيلد ويرمي، ج ٢، ص ١٠٨ - ١٦٠

(٢) Democratic Ideals, p. 56.

الحماية وحفظتها من اضطرابات وقلقالات القارة .

ومنذ الكشوف تطور موقع بريطانيا تطورا جذريا . فقبلها كانت على نهاية العالم ، ولا تؤدي إلى شيء . كانت بالضبط « أستراليا العصور الوسطى » كما قيل - بل وفي أكثر من معنى ذلك : فلقد كانت كل ثروتها الصوف الذي تصدره إلى القارة ، خاصة إلى هولندا وإيطاليا . ولكن الكشوف الجغرافية حولت هذا القطب السالب المعزول المتطوح إلى قطب موجب في قلب المعمور المتمدن ما بين العالم القديم والجديد . وفي هذا المعنى يمكن أن نقول إن إسبانيا والبرتغال بكشوفهما هما - بلا قصد - اللتان أعطتا بريطانيا حياة جديدة ومكانة جديدة في العالم .

ولقد أنفقت بريطانيا العصور الوسطى في الحروب الاقطاعية ثم الاقليمية لتنسج وحدتها السياسية دون ما خطر من الحروب الخارجية التي يمكن أن تؤخر تلك الوحدة . وبفضل هذه « العزلة الرائعة splendid isolation » كانت أولى دول أوربا إلى تحقيق الوحدة القومية في العصور الحديثة . وقد حررها هذا لتنزل إلى البحر الذي جعلته العروض الشمالية العاصفة والبيئة المدية المتلاطمة مدرسة بحرية قاسية ولكنها ممتازة ، تتطلب المرونة قبل الضخامة والمناورة قبل الحجم :

ومع ذلك فلم تكن بريطانيا مهياة لتخرج إلى البحار حين الكشوف أو بعدها ، حيث كانت السيادة للبرتغال وإسبانيا ثم هولندا وفرنسا ، وظلت هي في منطقة الظل أو شبه الظل . ولكنها في حدود هذا الظل كانت تحاول - خلال القرن السادس عشر - أن تلتقط أي مكسب أو فئات من التجارة المحيطية إما بعيدا عن النفوذ الإسباني أو مغافلة له . بعيدا عنه - بالاتجاه إلى العالم الجديد من طريق شمالي متطوح ، فكان أول خروج لها نحو الشمال الغربي حيث اكتشفت في آخر القرن الخامس عشر نيو فونلند ولبرادور (جون كابوت) ، وهي دائرة محدودة القيمة التجارية .

أما مغافلة له - فبالتمسك إلى المستعمرات الإسبانية الاحتكارية S. main للتجارة معها سرا . فبدأت بين الجانبين « حروب عصابات بحرية » بكل معنى الكلمة ، فكان هذا عصر القرصان المشهور بكل مغامراته وإثاراته وملاحمه التي دارت على البحار العليا والبحار الدافئة وتمركزت خاصة في الكاريبي ، والتي تولف « ساجا » بحرية أسطورية تكاد تكون « ألف ليلة » الغرب أو العصور الحديثة إلا أنها دموية عدوانية . وفي هذه القرصنة الدامية ستكون نواة البحرية والاستعمار البريطانيين .

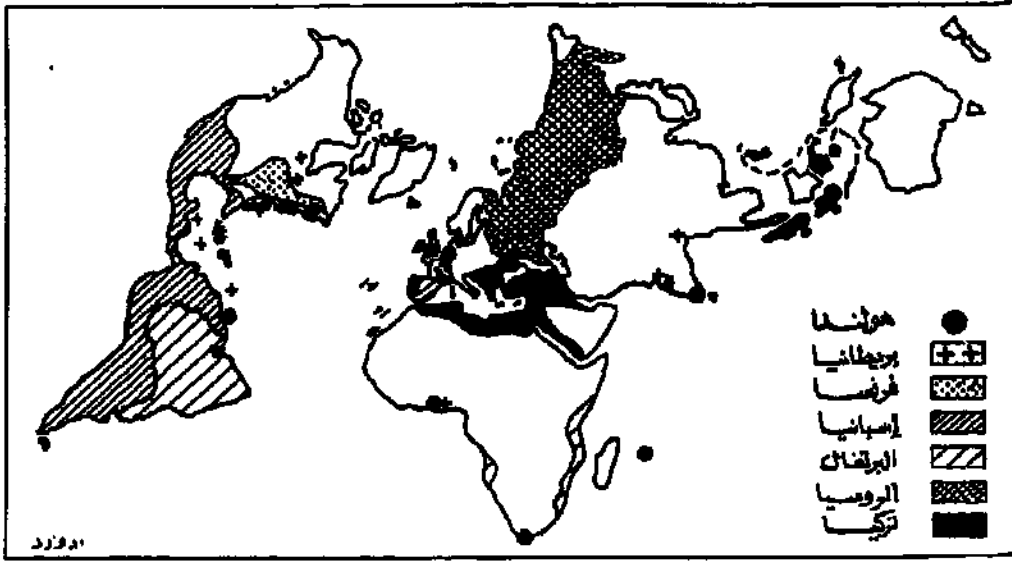
الإمبراطورية البحرية

وفي هذه الفترة كان كل ما تطمح إليه بريطانيا في وجه أطماع القوى السائدة هو أن تحافظ بحذر على استقلالها ، وذلك بمضاربتها بعضها ببعض - إسبانيا بفرنسا خاصة . إلى أن حاولت إسبانيا غزوها بالأرمادا في ١٥٨٨ : فكانت المعركة بين الضخامة والمرونة ، وانتصرت المرونة لأن سفن الأرمادا كقلاع عائمة حقيقية كانت ثقيلة بطيئة ، بينما سفن القرصنة البريطانية (دريك) خفيفة سريعة . لقد تغلبت بحرية العروش العكسية الشمالية العاصفة القاسية على بحرية العروش التجارية المعتدلة الهادئة ... نتيجة منطقية !

مع أن هزيمة الأرمادا لم تضع مباشرة حدا لقوة وإمبراطورية إسبانيا ، فإنها فتحت الباب على مصراعية أمام بريطانيا لتدخل الميدان البحري والتجاري الجديد مع افتتاح القرن السابع عشر . ففي غضون عقدين كانت قد أسست بنجاح أول مستعمرة في جيمزتون « والدومنيون القديم » في فرجينيا في ١٦٠٧ على يد رالي . وقبلها بقليل أنشأت شركة الهند الشرقية ووصلت سفنها إلى الهند وشاركت في تجارتها . وفي نفس الجيل استقر « الآباء للمهاجرون Pilgrim fathers » في نيوانجلند .

ولكن في هذا القرن - السابع عشر - كان على بريطانيا أن تواجه قوة هولندا التجارية وقوة فرنسا الحربية . ورغم أن قوة فرنسا كانت الأكبر والأخطر ، فقد كان الذي يعنى بريطانيا مباشرة هو هولندا لأنها هي المحتكر الحقيقي للتجارة المحيطية التي تتطلع إليها . ولذلك ورغم أن بريطانيا وقفت في عدة حروب مع هولندا ضد فرنسا حتى لا تتعاظم قوة الأخيرة إلى درجة تهدد الجميع : فالأغلب أن بريطانيا كانت إما تترك هولندا تواجه فرنسا وحدها وإما تنضم إلى فرنسا في صراعها لتحطيم هولندا .

وفي خلال هذا جميعا كانت كل خسائر هولندا وفرنسا تتحول إلى حساب بريطانيا مكاسب وأرباحا . فكانت التجارة عبر البحار تنتقل إليها بالتدريج ، حتى إذا ما حطمت فرنسا قوة هولندا نهائيا في أواخر القرن كانت بريطانيا قد ورثت بالفعل معظم دورها التجاري . وورثت لندن وريستول أنتورب وأمستردام ، باختصار ورثت بريطانيا موقع ودور هولندا . وإذا قلنا إن بريطانيا ورثت موقع ودور هولندا ، فقد قلنا في الحقيقة وإن يكن بطريق غير مباشر إنها ورثت موقع ودور البرتغال ، وبطريق غير مباشر أكثر موقع ودور العرب القديم ، وبالتحديد مصر .



شكل (١٠) الاستعمار العالمي في سنة ١٧٠٠

نعم مصر ا فلقد أصبحت بريطانيا في عصرها التجاري الجديد في العالم بنصفه في موقع ووظيفة أشبه ما يكون بموقع مصر ووظيفتها في العالم القديم أثناء العصور الوسطى : هي همزة الوصل بين العالم القديم والجديد بمثل ما كانت مصر همزة الوصل بين آسيا وأوروبا ، وهي تقع في ركن المحيط الأطلسي أو البحر المتوسط الجديد بمثل ما تقع مصر على أرض الزاوية من البحر المتوسط القديم .

ولم يكن غريبا بعد ذلك كله أن تصبح التجارة بعدا أساسيا في حياة بريطانيا بعد أن كانت دولة زراعة ورعي وصيد ، وأن تصبح بحق « أمة من أصحاب الحوانيت a nation of shopkeepers » على حد تعبير نابليون فيما بعد ، وأن يصبح « بنك إنجلترا » رمزا عتيدا للمركنتليه العارمة . فضلا عن احتكار التجارة ، فقد نجحت بريطانيا في صلح أوترخت في أن تنتزع جبل طارق وبورت ماهون في البحر المتوسط ، وتأكد امتلاكها لنيوفوندلند ونوفاسكوشيا .

وهنا لابد أن نلاحظ كيف يكرر الموقف المواقف الصراعية السابقة : فرنسا الضخمة الأكثر قارية محطم هولندا الأصغر حجما الأكثر بحرية ، فترتها دولة بحرية أكبر إلى الشمال هي بريطانيا ، مثلما حطمت إسبانيا الكبيرة شبه القارية من قبل البرتغال الصغيرة البحرية فوررتها هولندا البحرية الشمالية .

وهنا أيضا لا بد أن نلاحظ سياسة بريطانيا الجزرية : فقد كان محورها دائما أن تترك القوى الأخرى على القارة تتصارع ، وأن تغذى هذا الصراع حتى تضعف جميعا . فنتقدم هي لترثها وهي بمنأى في جزيرتها عن خطر الصراع نفسه . وفي نفس الوقت كان توازن القوى على القارة هدفها الآخر . فكانت تعمل على ألا تسود قوة واحدة كبرى في القارة . ولهذا كانت الحليف التقليدي للقوى الصغيرة التي سبق أن عادت لها وساهمت في انحدارها . وذلك ضد القوى الكبرى الجديدة . هكذا وقفت مع البرتغال ضد إسبانيا ، ثم مع هولندا ضد فرنسا . ثم كما سنرى فيما بعد مع فرنسا ضد ألمانيا . فهي عدوة القوى الذي قد يهددها ، وحليفة الضعيف الذي لا يهددها . ولعل هذا هو ما أكسبها التسمية غير الأثيرة « بالبيون الغادر perfidious Albion » .

الصراع البريطاني - الفرنسي

هكذا إذن لم يبق إلا فرنسا والقرن الثامن عشر . ورغم سيطرة فرنسا الواضحة في القارة فإنها لم تستطع أن تمنع بريطانيا من الانطلاق نحو السيادة على البحار واحتكار التجارة المحيطية والتوسع الاستعماري . وقد بدأت بريطانيا بتحالفها مع عدوها السابق المهزوم هولندا ضد القوة السائدة الجديدة فرنسا . ثم أصبح القرن قرن الصراع بين بريطانيا وفرنسا . وكان الفارق الرئيسي أن فرنسا مرتبطة في صراعاتها بالقارة ولها جبهتان برية وبحرية ، بينما لبريطانيا جبهة واحدة بحرية .

من هنا كانت الأولى مضطرة إلى الاحتفاظ بجيش برى ضخم ، وتهمل الأسطول عمدا وبالضرورة ، بينما كان جيش بريطانيا البرى دائما رمزيا ولم تحاول قط أن تنافس فرنسا على البر ، والقوة كلها للأسطول . ولذا فما دامت بريطانيا قادرة على منع غزوها بحرا ، فلا قيمة لضخامة جيوش فرنسا ضدها . بينما على العكس : مادامت فرنسا أضعف في البحر فأمام بريطانيا الفرصة لضربها في مستعمراتها عبر البحار وانتزاعها منها . أي وجود حدود برية لفرنسا كان جديرا في النهاية بأن يكلفها ضياع إمبراطوريتها الاستعمارية . بينما كان تحرر بريطانيا من الحدود البرية كفيلا بأن يمنحها إمبراطورية استعمارية كاملة . وهكذا بالفعل كان .

فمن ناحية لم تستطع فرنسا أن تضرب بريطانيا في جزيرتها . والواقع أن أحدا لم يستطع أن يغزوها منذ الفتح النورماندي حتى يومنا هذا . فقد كان الأسطول كفيلا بقطع الطريق على أية محاولة كهذه . ولقد تحدت فرنسا - ومعها إسبانيا - قوة بريطانيا البحرية مرات

عديدة في القرن الثامن عشر في حروب مملوطة مطولة . ولكن هذه كانت تخرج في كل مرة أقوى ، بينما غالبا ما كانت فرنسا تخسر شيئا من مستعمراتها . فقدت أولا كندا حين عزلتها بريطانيا بحرا في كويك وعجزت البحرية الفرنسية عن معاومتها وبذلك سقطت كدومينيون لبريطانيا في ١٧٦٣ ، كما ارتفع الضغط الفرنسي بذلك عن ضلوع بريطانيا في نيوانجلند .

ثم فقدت فرنسا بعد ذلك الهند التي غزتها بريطانيا بقليل من قواتها ولكن بكثير من القوات الهندية (١) وضممتها في ١٧٦٣ « كإمبراطورية الثانية » بعد ضياع الولايات المتحدة . وخرجت فرنسا إلا من جيوب وأسافين لا وزن لها . وما يلاحظ أن بريطانيا اقتربت أولا كالبرتغال من الهند من الغرب ، من بومباي بالذات . ولكنها مثلها لم تستطع أن تمرق إلى الداخل من تلك الجهة الجبلية المغلقة ، فعادت ودارت حول شبه الجزيرة لتتحمها من بوابتها البحرية الوحيدة والصحيحة وهي بوابة الكنجج (الهوجلج سيد) . وما أن وضعت قدمها على المدخل الطبيعي وانفتح الطريق أمامها إلى قلب شبه القارة حتى أخضعتها جميعا وحطمت إمبراطورية « المغول الأكبر » ليبدأ « الراج Raj » البريطاني في الهند (١) . هذا ، وإذا كانت بريطانيا قد وضعت قدمها في « حذاء » الهند بدل فرنسا في منتصف القرن الثامن عشر ، فقد استغرقت قرنا كاملا أي حتى منتصف القرن التاسع عشر لتبسط نفوذها على جميع أجزائها .

على أن بريطانيا خسرت في تلك الفترة « إمبراطوريتها الأولى » في الولايات الثلاث عشرة في أمريكا . فقد ثارت الولايات في حرب الاستقلال في مرحلة ضعف لقوة بريطانيا البحرية ، وانتصرت لبعده المسافة وضعف الارتباط ، ولكن أيضا لمساعدة فرنسا وإسبانيا للانفصال (١٧٨٣) . على أن ضياع الولايات الثلاث عشرة أدى إلى خروج كثير من المعمرين (الموالين لبريطانيا Loyalists) وهجرتهم إلى كندا من ناحية وإلى أستراليا من ناحية أخرى ، أي إلى تحويل تيار الهجرة والتعمير إلى مناطق الدومينيون التي كانت مهملة والمساعدة في تدعيم الإمبراطورية الثانية . وهذا يذكرنا بما حدث من تحويل اهتمام البرتغال إلى البرازيل المهمة حين ضاعت إمبراطوريتها في الشرق والعالم القديم .

وقد عاد الصراع بين بريطانيا وفرنسا على أعقبي مستوى مع نابليون الذي كان أعظم تحد واختبار لقوة البحر . وقد فشلت كل مشاريعه البحرية ضد بريطانيا سواء في مصر أو في غزو

Mackinder, Scope & methods, Raj etc., p. 28.

(١)

بريطانيا . فقد خسر أسطوله في أبو قير في الأولى وفي الطرف الأغر في الثانية . وبهذا عجز عن الوصول إلى بريطانيا أو مستعمراتها بسبب تفوق قوة البحر البريطانية أساسا . ومنذ البداية أدرك نابليون أن العقبة الوحيدة في طريقه إلى السيادة العالمية هي قوة البحر البريطانية . وحين سيطر على أوروبا جميعا كانت هذه وحدها هي العقبة التي تحطم عليها في النهاية . ولهذا تعد الطرف الأغر بداية السيطرة العالمية المطلقة لقوة البحر البريطانية التي ستظل أكثر من قرن دون تحد ، بل سيصبح القرن التاسع عشر بلا منافسة قرن السيطرة البريطانية العالمية .. .

ولا شك أنه لما يدعو إلى التساؤل كيف استطاعت بريطانيا أن تقف بمفردها إزاء نابليون ومعه أو تحت سيطرته كل أوروبا . ولكن الحقيقة أن بريطانيا كانت تقف ووراءها كل موارد الإمبراطورية والاستعمار عبر البحار ، وأهم من ذلك أنها كانت تقف وأمامها ذلك « الشريط الذهبي golden streak » الحامى العتيدي كما يسمى الإنجليز قنال المانش . والواقع أنه - في ضوء هذا العرض الاستراتيجي التاريخي - قد لا يوجد في العالم عشرون ميلا ونيف من الماء لعبت دورا في التاريخ كما لعب المانش .

هذا وقد خرجت بريطانيا من الملحمة النابليونية بمزيد من المستعمرات . فقد انتزعت الكاب من هولندا ، وحصلت على سنغافوره بالشراء البخرس في ١٨١٩ ، كما كانت قد ضمت مالطه أثناء الصراع . وسيلاحظ في هذه جميعا صفة المواقع البحرية الاستراتيجية التي تعد مفاتيح حيوية في إمبراطورية بحرية مترامية ، وهي الصفة التي ستتلور بصورة حاسمة فيها بعد في تركيب هذه الإمبراطورية .

الاستعمار البحري :

خطوط عامة

تلك إذن قصة الاستعمار وصراع القوى الاستعمارية الجديدة في الموجة الأولى للإمبريالية في العصور الحديثة . بماذا يمكن أن نخرج منها ؟ - بعدة حقائق عامة بعيدة المغزى .

الخروج البحري

فأولا ، بعد أن كانت أوروبا حبيسة في شبه جزيرتها في موقف دفاعي ، محاصرة بين قوى مختلفة من كل الجهات في العصور الوسطى ، انقلب الوضع وأخذت جانب المحجوم

على عوالم جديدة برمتها ، وفرضت حصارها على القوى القديمة من خلف أو من قدام . وكان هذا بداية سيادة أوروبا على العالم . على أن الخروج الاستعماري قد ارتبط بدول غرب أوروبا البحرية الساحلية وحدها ، بينما كانت بقيتها الداخلية بعيدة عنه . كذلك لم تشارك الدول البحرية الساحلية الضئيلة أو الصغرى . فرغم بعض محاولات ثانوية للغاية لأمثال الدنمرك والنرويج وبراندنبرج ، فإنها تخلفت عن السباق تماما . وباختصار فقد ارتبط الاستعمار الحديث أشد الارتباط بالمحيط ونداء البحر والموقع الساحلي .

ويلاحظ في هذا الخروج البحري أن اتجاه كل من البرتغال وإسبانيا إلى أمريكا الجنوبية ، وكل من فرنسا وبريطانيا إلى أمريكا الشمالية ، إنما هو توجيه طبيعي يتسق إلى حد كبير مع المنطق الجغرافي وخطوط العرض وإيحاءات الموقع ، وكذلك مع تشابه البيئة الطبيعية بين الموطن والمهجر . ومن هنا انتهى العالم الجديد إلى عالمين : لاتيني في الجنوب وأنجلو-سكسوني في الشمال ، يتناظران بصورة عامة مع ترتيب الأوطان الأم . وكما تحتل إسبانيا الرقعة الكبرى من أمريكا اللاتينية وتكمل البرتغال بدور ثانوي بالاضافة إلى شطايا هولندية وفرنسية وبريطانية ، تحتل بريطانيا مركز الصدارة في أمريكا السكسونية وتأتي فرنسا في مرتبة ثانوية مع تذييل إسباني . ولما كان خروج أيبيريا البحري قد سبق خروج شمال غرب أوروبا بنحو قرن ، فإن تاريخ أمريكا الجنوبية يسبق هو الآخر تاريخ أمريكا الشمالية بنحو هذا المدى (١) .

القومية والاستعمار

ثانيا ، كانت الوحدة القومية شرطا أساسيا سابقا مسبقا للخروج الاستعماري ، إذ لم يكن من الممكن القفز إلى العالم الخارجى قبل ترتيب البيت داخليا . فكان الخروج نتيجة للوحدة وعلامة عليها ، وترتيب توقيتته يعكس الترتيب الزمني لتحقيق تلك الوحدة . ومع الوحدة القومية أتى استعمار الكشوف ، ومع الاثنين أتى الانقلاب التجارى ، ومع الجميع أتت - أخيرا - البورجوازية الليبرالية . فقد انصبت مكاسب المراكنتليه والتجارة الاستعمارية في العواصم والمدن الكبرى والموانئ لتخلق تركيبا اجتماعيا جديدا أزاع فلول الاقطاع نهائيا وأحل محله مجتمع التجار والمهنيين ، مما « برجز » مجتمع المدن وغلب الفكر الليبرالى والأوليغاركى على الحكم المطلق .

Whittlesey, p. 504-17.

(١)

ومعنى هذا أن استعمار الكشوف خلق طبقة جديدة قوية تنافس الطبقة القديمة التقليدية التي كانت تحتكر السلطة والحكم في المجتمع . فالصراع الجديد هو في الحقيقة صراع بين أصحاب الموارد المحلية في الوطن ، وأصحاب الموارد المتدفقة من عبر البحار . ولقد كانت الثورة الفرنسية هي نقطة الانكسار العنيفة في هذا التطور حيث التحمت البورجوازية المتعاظمة - على فيض مكاسب مستعمرات ما وراء البحار - التحاما نهائيا مع بقايا الاقطاع الزراعي المتحفرة وختمت على مصيرها ووضعت بذلك جرثومة أو خميرة الرأسمالية الناشئة . وبمعنى آخر ، فإن الكشوف قد ثورت الكيان السياسي والاقتصادي والاجتماعي لدول أوروبا البحرية ثوريا ، وكانت بذلك الأساس لهيكل النظام الجديد .

ومن المحتمل أنه لو لم تحدث الكشوف الجغرافية لتأخر الانتقال من الحقب الاقطاعي إلى الحقب البورجوازي كثيرا أو قليلا . ولعلنا كذلك لا نسرف في التصور إذا قلنا إن هذا التطور من الاقطاع نحو البورجوازية كان يمكن أن يكون أصلا وأساسا من نصيب الشرق العربي عامة ومصر والشام خاصة لو لم يكن قد حدث هذا الأسر التجاري الكامل . ولعل هذا أيضا أن يفسر لماذا تجمد المجتمع العربي الوسيط على النمط الاقطاعي حتى خضرم فيه إلى صميم القرن التاسع عشر بل والعشرين حين قفز مرة واحدة من الاقطاع إلى الرأسمالية دون أن يمر بمرحلة البورجوازية بمعناها الكامل . لقد ورث غرب أوروبا الجديد دور الشرق العربي القديم ليس موقعا ووظيفة فحسب ، ولكن ورث قدره السياسي والاجتماعي كذلك .

ميكانيزم الصراع

ثالثا ، يرتبط صراع القوى السياسية ارتباطا وثيقا جدا بالصراع الاستعماري . فمن أجل الصراعات الداخلية بين القوى الأوروبية في القارة خرجت للحصول على المستعمرات لتعود أقوى وأقدر على تلك الصراعات ، ومن أجل الحصول على المستعمرات كانت القوى الأوروبية تتصارع فيما بينها على القارة ^(١) . من ثم كان النشاط الاستعماري ظاهرة « معدية » . وقد تحرك مركز الثقل في النشاط الاستعماري وفي صراع القوة حركة قاطعة من الجنوب إلى الشمال بصرامة ما بين البرتغال جنوبا حتى بريطانيا شمالا . ولعل هذا جزء واضح المعالم من نظرية هجرة الحضارة والقوة نحو العروض الشمالية . وإذا فهم البعض

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

هذا على أنه يعنى انتقال التفوق إلى البلاد الشمالية ، فلا ينبغي أن ينسوا أنه يعنى كذلك تخلفها في البداية .

والمهم أنه في هذه الحركة تأخذ ميكانيكية الصراع بين القوى البحرية - الذى هو صراع أشباه أساسا من أجل التصفية النهائية للقوة العالمية - تأخذ نمطا محددًا ومتواترا بصورة مثيرة . فهي تبدأ بدولة رائدة صغيرة بحرية جدا بحكم الموقع والطبيعة ، تلحقها دولة متاخمة أكبر حجما وأقل بحرية ، لا تلبث بحكم جرمها أن تحطم قوتها ، ولكنها تعجز عن أن ترث دورها ، وإنما تلتقطه ببراعة دولة أخرى صغيرة بحرية جدا إلى الشمال . هكذا ظهرت البرتغال أولا وتلتها إسبانيا لتحطمها بعد قليل ، فترثها هولندا ، ثم تلى هولندا على المسرح فرنسا لتحطم هولندا وشيكا ، فترثها بريطانيا . وسنرى فيما بعد إلى أى حد تستمر أو تنتهى هذه الميكانيكية الفذة في بقية مراحل الاستعمار الحديث .

الموقع والموضع

رابعا ، في هذا الصراع لم يكن البقاء لمن يملك القوة البحرية وحدها ، بل والقوة البرية إلى جانبها . فقد كانت القاعدة الأرضية القومية العريضة هي الضمان الأخير لبقاء تلك القوة البحرية . فإذا كانت الدول المحرومة من القوة البحرية لم تخرج إطلاقا إلى الاستعمار مها ملكت من قوة برية ، فإن الدول التي تملك القوة البحرية دون قاعدة برية متكافئة تسندها وتدعمها ، قد تخرج إلى عالم الاستعمار قليلا أو كثيرا ولكنها لا تلبث أن تنقرض في النهاية . أما النجاح الأكبر فللدول البحرية القوية ذات القاعدة البرية الضخمة^(١) . وبمعنى آخر ، فإن « الموقع » البحري الأمثل وحده لا يكفي وإن أعطى أحيانا ميزة سبق ، وفي المدى الطويل يلعب « الموضع » دورا تحديديا أخطر وأكثر بقاء . كما كان السمك الكبير - يعنى - يأكل السمك الصغير في المستعمرات . كان السمك الأكبر بين القوى الاستعمارية البحرية يأكل السمك الأصغر .

استعمار ساحلى

خامسا ، إذا كان الاستعمار قد قرع أبواب أغلب القارات في تلك المرحلة ، فقد ظل في جوهره ساحليا أو شبه ساحلى بدرجة أو بأخرى . ولو أنه كان أعمق توغلا في قارات

Church, p. 22.

(١)

العالم الجديد منه في قارات العالم القديم . وفي أفريقيا بالذات كان الاستعمار ساحليا بحتا وبصرامة . وسواء على الساحل أو في الداخل ، فقد كانت تلك المرحلة مرحلة الاستعمار « الواسع » لا « الكثيف » . وبوجه عام انعكست هذه الطبيعة الساحلية على نظرة الاستعمار إلى القارات الجديدة ، فقد كانت نظرة ملاح أساسا : أعنى أنه لم يكن يتعرف على كتل قارية بقدر ما كان يعرف أشرطة ساحلية . ومن تراث هذه الفترة وتلك النظرة الأسماء العديدة التي مازلنا نطلقها : ساحل غانه ، ساحل الذهب ، ساحل العبيد . ساحل العاج ، ساحل الغلال ، ساحل الزنج ، ساحل البنات أو القرصان ، ساحل ملبار . ساحل كرومندل ، ساحل كارناتيك Carnatic ، ساحل مورمان Murman ، ساحل جولكوندا ... إلخ (١) .

الاستعمار الديموغرافي

سادسا . تعويضا لعجزه عن التوغل الداخلي وعن « الاستعمار الجغرافي » ، أخذ الاستعمار في أفريقيا بالذات نمطا خاصا جدا في هذه المرحلة هو « الاستعمار الديموغرافي » - أعنى تجارة الرقيق . وذلك إذن كان عصر النخاسة الذي لم يعرف العالم له مثيلا من قبل ولا من بعد . وتلك كانت بالتالي أسود نقطة وأبشع وصمة في تاريخ الاستعمار العالمي . فقد كان الرقيق أغلى سلعة في التجارة الاستعمارية ، وبخار آلة المركاتيليه إن لم يكن وقودها الأسود . وعليه بنت القوى البحرية اقتصادها ورخاءها . وكان للبرتغال أولا ثم الإنجليز بعدهم الدور الأكبر في هذه التجارة الآثمة . ولو أن الهولنديين والفرنسيين شاركوا بقدر . ولهذا فإذا كان الهولنديون يقولون إن أمستردام قد بنيت على « عظام الرنجة » (٢) ، فن الصحيح كل الصحة أن نقول إن لشبونه وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودماه . وقد شهد المحيط الأطلسي مثلثا دمويا يدور مع عقارب الساعة - التجارة المثلثة كما تسمى - تبدأ فيه السفن بنقل بضائع ومصنوعات بريطانيا إلى غرب أفريقيا حيث تستبدل بها شحنات آدمية . ثم تنطلق عبر المحيط لتفرغها في أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية ، ومنها تعود محملة بمحاصيل المداريات من سكر وروم وقطن وتبغ .. إلخ (٣) .

Democratic ideals, p. 60.

(١)

(٢) سمبل ، ص ٣٥٦ .

L. Dudley Stamp. Africa, N.Y. 1953; W. Fitzgerald, Africa, Lond. 1950.

(٣)

وتختلف تقديرات تجارة الرقيق من أفريقيا ، ولكن البعض يضعها حوالى المائة مليون على أساس أن من مات أثناء « الصيد » والرحلة ثلاثة أو أربعة أمثال ما وصل بالفعل إلى العالم الجديد (١) . وكان هذا الاستعمار أو بالأحرى الاستخراب الديموغرافى نزيفا بشريا رهيبا أصاب القارة بفقر الدم والضمور . ولئن صح هذا الرقم - الذى لا يمكن الحكم له أو عليه هنا - فلا شك أن هذه أعظم موجة فى حركات السكان *Völkerwanderung* فى التاريخ البشرى جميعا . وإذا كانت أوروبا تتهم العرب اليوم - نهويلا وتضليلا - بدور « الجلاب » ، فالذى لا جدال فيه ولا لجاح أنها هى قد لعبت دور « الجلاب والجلاد » معا .

Jacqueline Beaujeu — Garnier, Géog. de la population, Paris, 1958, t. II, p. 39.

(١)

الفصل الخامس

القوى البرية والاستعمار

الروسيا (١)

هناك تشابه مثير يدعو إلى كثير من التأمل بين ظهور وتوسع الروسيا الحديثة في الشرق . وبين توسع دول أوربا البحرية في الغرب . سواء في ذلك الأصول السياسية أو الضغوط الخارجية أو توقيت التوسع . ففي العصور الوسطى خضعت الروسيا لضغوط مزدوجة من الشمال والشمال الغربي ومن الجنوب والجنوب الشرقي . فمن الشمال الغربي أتى من سكندينافيا وعبر البلطيق الغزاة النورس . الذين يعرفون أيضا باسم الفارانجيين Varangians أو الروس Rus (= رجال الزوارق) . وإذا كانت غاراتهم تخريرية مدمرة في البداية ، فقد تحولوا بعد حين إلى التجارة واستقروا في مدن السلاف وحكموها سياسيا . أما الجنوب الاستبسي فقد كان ممرا أساسيا لرعاة الاستبس ومنه أتت غاراتهم بلا انقطاع على وسط الروسيا .

وبين أخطار هذه الكاشة . رجال الزوارق ورجال الخيل . تبدأ الروسيا سياسيا في القرن التاسع في إطار نطاق الغابات بعدد من الإمارات الصغيرة المستقلة محمية في تضاعيف الغابة ومسطحات المستنقعات . إما على تخومها مع الاستبس وإما على جبهة الالتحام بين النفضيات والصنوبريات . وكانت كل مدينة من هذه المدن النهرية أساسا نواة لتوسع سياسي بعيد المدى في الغابة سواء نحو الشمال الجليدي أو الجنوب السهوي ، حتى

(١) المصادر الأساسية هي :

فاينيلد وبيرسي ، ج ٢ ص ١٠٨ - ٨١ .

East, p. 212-225; Fairgrieve, p. 193-199; Fawcett, p. 429-430; G.B. Cressey, Asia's lands and peoples. Mc Graw Hill, 1951, p. 243-248;

Mackinder, Pivot: Democratic ideals, p. 59-88; Cole, p. 227-30.

إذا تلاقت جميعا وسيطرت إحداها في النهاية كانت تلك بداية التوحيد السياسي للروسيا الحديثة . وبهذا أيضا أصبح خط الغابة - الاستبس خطا سياسيا بالغ الأهمية .

ولقد كانت كييف - « أم المدن جميعا » - هي أولى تلك الإمارات . حيث ظهرت في القرن التاسع . وبعدها ظهرت كوكبة من مدن الغابة التجارية أهمها : نوفجورود . ولكن طرق رعاة الاستبس لم تنقطع ، وكثيرا ما دفعت تلك المدن الجزية لهم وخضعت لسيطرتهم ، حتى سقطت كييف في القرن الثالث عشر للمغول (جنكيزخان) . الذين اتخذوا عاصمتهم على الفولجا الأدنى . وقد ساعد على سقوط كييف وقوعها على تخوم الاستبس ، هذا بينما نجت نوفجورود لتوغلها في الغابة . ولذا انتقلت إليها الأهمية . إلى أن بدأت إمارة موسكو (مسكفا) تظهر في موقع أكثر ملاءمة وتوسطا بين الفولجا ورافده الأوكا أو ما يسمى أحيانا « ما بين النهرين الروسية Mesopotamia Russian » ، فأخذت تسيطر منذ أواخر القرن الثالث عشر .

وقد استمر حكم المغول والتتار لجزء كبير من روسيا نحو ٢٥٠ سنة . حين استطاع إيفان الأكبر من قاعدة دوقية موسكو أن يضع نهاية له في أواخر القرن ١٥ (١٤٨٠) . ولكن حتى بعد هذا فإن روسيا لم تنج من موجات التتار المتكررة وغاراتها المخربة التي كانت تستهدف السلب والنهب والأسر واختطاف العبيد . ولمقاومة هذا الخطر الداهم اللانهاجم دخلت روسيا لفترة طويلة في حرب شاملة شبه مستمرة طوال العصور الحديثة تقريبا ، وهكذا كان الخطر المغولي التتري - خطر الاستبس - هو أول وأطول خطر خارجي شكل تاريخ وتكوين روسيا الحديثة .

على الجانب الآخر ، ما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت موسكو وخلال قرنين من التوسع المستمر قد أخضعت جميع الإمارات الأخرى بعد أن ربطت بينها الأخطار الخارجية . وقد استطاع إيفان الأكبر وحده أن يوسع رقعة السيطرة المسكوفية إلى ثلاثة أمثالها حتى امتدت من البلطيق إلى الأورال . وبهذه الوحدة ، وبفضل فرسان القوزاق ، خرجت الدولة من قوقعة الغابة لتزحف جنوبا حتى تخضع استبس جنوب روسيا - استبس الكيبيشاك Kipshak - في مدى ٥٠ عاما ، كما دخلت في صراعات متصلة مع بولندا حول أوكرانيا . وقد كان بطرس الأكبر - أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر - هو الموحد الحقيقي للروسيا . ومما لاشك فيه أن دور الاستبس قد أخرج الوحدة القومية في روسيا عنها في أوروبا لفترة ما . ولكن بعد إخضاعه وضمه بدأ زحف سكاني روسي ضخم نحو الجنوب وصل إلى أقصاه في القرن التاسع عشر حين أصبح حركة عارمة تاريخية حقا .

وعند هذا الحد سنلاحظ أنه إذا كانت فجوات الغابة هي القوقعة التي تبرعت فيها إمارات روسيا ، فإن الأنهار كانت الشرايين التي ربطت بينها أولا ثم توسعت على طولها ثانيا . والواقع أن نمط الأنهار في روسيا الأوربية ، الذي يتشعب من الوسط من نقطة مركزية في جميع الاتجاهات . يجعل التوسع سهلا تلقائيا^(١) حتى ليعتبر إيست أن تاريخ روسيا السياسي تاريخ نهري أساسا . ولاننسى كذلك طبيعة الاقليم كسهل متجانس مترام . يدعو بطبيعته إلى الوحدة السياسية وضخامة الدولة . ومن مجموع هذا وذاك نخرج بدولة من حجم وصفات قارية لاشك فيها .

كذلك لا بد أن يستوقفنا في ظهور روسيا إخضاع الغابة للاستبس . فلقد طالما أخضع الاستبس الغابة أو على الأقل حصرها حبيسة في قوقعتها . ولكن منذ اختراع البارود انقلب الميزان الاستراتيجي من أساسه رأسا على عقب انقلابا تاريخيا بالغ الخطورة والدلالة . فقد ضاعت معه ميزة حركة الفرسان وسرعة انقضاضهم ، وضاع إلى الأبد تفوق الرعاة الغزاة على الزراع المستقرين . وأخذت الصورة تنعكس ، فإذا بجيوش الزراع ومدفيعتهم هي التي تغزو الآن فرسان الاستبس وتخضعهم لأول مرة^(٢) . بل لقد اتخذت الغابة من فرسان الاستبس القوزاق « بوليسا » يحرس الاستبس من الجماعات الرعوية الأخرى . أو كما عبر البعض . لقد تغلب « الدب » على « الحصان » بعد أن ظل هذا يحاصره طويلا ويغلقه في قلب الغابة .

ولهذا فقد كان ظهور روسيا الحديثة إيذانا بإغلاق ممر الاستبس الأوراسي وانتهاء طوفاناتهم إلى الأبد . وبعد أن كانت الخريطة السياسية لروسيا ما بين القرن العاشر والخامس عشر تتألف من مجموعتين أساسيتين من الإمارات والدويلات : كوكبة روسية سلافية شمال الخط ، خط الغابة - الاستبس ، وكوكبة سريعة التغير من الولايات الرعوية الاستبسية جنوبيه . ابتداء من الخزر إلى البلغار حتى المغول والتتار ، نقول بعد هذا اندمجت روسيا جميعا في دولة مركزية واحدة موحدة .

غير أن دور الاستبس أو الحكم المغولي التتري لم ينته إلا بعد أن ترك بصمته بعمق ليس فقط على تاريخ وتطور روسيا الحديثة ولكن أيضا على كيانها وشخصيتها المعاصرة ربما .

Semple, op. cit.

(١)

Owen Lattimore, Inner Asian Frontiers, op. cit., p. 186-8.

(٢)

فكثيرا ما كان الحكم المغولي والتتري مرادفا للنهب والتخريب وحرق المدن الكبرى ومضاربتها ببعضها البعض ، مما ردة حضارة المدن الروسية المتطورة إلى دور البربرية والهمج أحيانا . ولكنه أساسا فرض عليها العبودية والرق والذل باستمرار . وإلى هذا النظام ، بل وإلى ضرورات مراحل الكفاح والحرب ضده فيما بعد ، يرجع الكثيرون أصول الاستبداد الروسى القيصرى الحديث ، بل ويتبع استمراره فى النظام الشمولى الشيوعى المعاصر ، على أساس أن « الرفاق الجدد هم القياصرة الجدد » وبمعنى أن « الدولة البوليسية السوفيتية إنما يرجع أثرها وأصلها إلى حكم التتار » ، وبمقولة أن الحكم فى روسيا لم يكن يوما طوال تاريخها إلا حكما استبداديا ديكتاتوريا ، وبالتالي بدعوى أن الاستبداد والطغيان تقليد طبيعى فى تاريخ روسيا وأنه لا تقاليد للحرية بها داخلها^(١) .

ومها يكن رأى ، فيكفي أن يلخص لنا كارل ماركس نفسه القصة بأسلوبه وبألفاظه . فكما يقول ، إن « المستنقع الدموى للاستبداد المغولى هو مهد روسيا القديمة . وليست روسيا الحديثة إلا شكلا جديدا للروسيا القديمة [...] لقد نشأت روسيا ونمت فى مدرسة الرق المغولى الرهيبة ، ثم ازدادت قوة بأن أصبحت أمهر من عرف صناعة الاستبداد والرق . وحتى بعد أن تحررت فإنها واصلت أداء دورها التقليدى للعبد الذى أصبح سيذا »^(٢) .

التوسع القيصرى

هذه وحدة روسيا القومية تتم إذن فى توقيت لا يختلف كثيرا ، وإن تخلف قليلا ، عما حدث فى الدولة الوطنية الحديثة فى غرب أوروبا . وكما خرجت هذه إلى التوسع والاستعمار عبر البحار غربا وجنوبا ، سجدت روسيا تخرج بدورها وفى توقيت معاصر تقريبا للتوسع والاستعمار ، ولكن برا ، شرقا وجنوبا . هنا نداء البحر وهنا نداء السهول ، وكل يغرى بالتوسع ويدعو إلى بناء الإمبراطورية .

وكما فى غرب أوروبا ، يمكن أن نميز بين موجتين رئيسيتين من التوسع الروسى : الأولى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر واتجهت كمثلتها فى غرب أوروبا إلى عروض شمالية باردة ومناطق شبة خالية من السكان ، وكانت أقرب إلى التعمير البشرى منها إلى الاستعمار

Richard Nixon, The real war. N.Y., 1981.

(١)

Id.

(٢)

السياسي . أما الموجة الثانية فاتجهت - أيضا كمثلتها في غرب أوروبا - إلى عروض جنوبية أوداً ومناطق مأهولة بدرجة أو بأخرى . فكانت من ثم إلى الاستعمار السياسي أقرب .

وقبل أن نعرض بالتحليل لهذا التوسع القيصري ينبغي أن نذكر أنه - في نظر أغلب الكتاب لاسيما منهم الغربيون - يعد « استعماراً إمبريالياً » كاملاً بكل معنى الكلمة . بنفس المعنى الذي يقصد به الاستعمار الغربي عبر البحار^(١) - الإمبريالية الروسية كما يسمونها . ولعلهم يقصدون بذلك أن هذه المناطق التي ضمتها روسيا إليها واعتبرتها بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من الوطن الأب ليست إلا مستعمرات أجنبية عنها وإن لم يفصلها عن روسيا الأوربية فاصل بحري أو بري . ومنطقهم في هذا أن سكان هذه المناطق التي ضمت يختلفون تماماً عن سكان روسيا الأوربية . فهم سواء في سيبيريا أو التركستان من العناصر المغولية والتركية والتتارية والطورانية - بينما الروس من السلاف أساساً وإن اختلطوا بنسب ثانوية من العناصر الفنية في الشمال المتجمد والتتارية في الجنوب الاستبسي . وقد كانت التبيصرة تنظر إليهم على أنهم أجناب منحطون - وظيفتهم أن يقدموا العمل الرخيص للمتروبول الصناعية المتقدمة . وأقاليمهم ليست إلا موارد خامات لها . بينما كانت هي تعتمد في إخضاعهم على مضاربة شعوبهم المختلفة بعضها ببعض وبأعنف وسائل الكبت والقهر^(٢) .

والنقاد أصحاب هذا الرأي يعترفون بأن مسافة الخلف الجنسية والإثنولوجية بين تلك الشعوب الآسيوية وبين الروس السلاف أقل بدرجة أو بأخرى منها بين الدول الأوربية الاستعمارية وبين أبناء المستعمرات عبر البحار الذين لا يربطهم بهم بالقطع أدنى رابطة جنسية أو تاريخية . ولكنهم في نفس الوقت يحتجون بأن هذا لا ينفى صفة الاستعمار عن توسع روسيا القيصرية في آسيا . ومن تساهل منهم عد هذه « الإمبريالية الروسية » أشبه شيء « باستعمار » الأنجلوسكسون لأمریکا الهنود الحمر . وعلى أية حال فإن الثورة الشيوعية تشارك في هذه النظرة . فقد أعلن لينين نفسه أن الإمبراطورية القيصرية لم تكن إلا « سجن أمم » من مقياس رهيب^(٣) .

Goblet p. 200.

(١)

James Gregory, Land of the Soviets, Pelican, 1946, p. 47-8.

(٢)

نحو الشرق

ومها يكن من أمر . فإذا مانحن عدنا إلى موجات التوسع الروسى فسنجد أن الموجة الأولى قد اتجهت شرقا إلى سيبيريا . وبدأت أقرب في الواقع إلى نوع روسى من « الكشوف الجغرافية » القارية . وانتهت في النهاية كزحف قبصرى نحو الشرق Drang nach Osten . ولم يبدأ التيار إلا في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، حين عبر المغامر القوزاقى يرمك Yermek جبال الأورال في سنة ١٥٨٠ واستولى على مدينة سيبير على الإرتش . ولم يكن هذا جزءا من خطة غزو منظم موضوعة . لا ولا يدل على أطماع استعمارية قيصرية ما . وإنما كان الدافع والهدف - كما حدث في كندا - هو التجارة أساسا . والفراء بوجه خاص : ومن تنظيم وعمل كبار التجار في الأورال . أما الجانب العسكرى فيها فلم يزد على نشاط فرسان القوزاق الذين صاحبوا القوافل التجارية : أصلا كحرس وأحيانا كمصابات نهب^(١) .

ولقد كانت سيبيريا هي جبهة الريادة للروسيا مثلما كان العالم الجديد بالنسبة للأنجلو سكسون - بل كانت بجدارة « العالم الجديد » بالنسبة للسلاف . بل إن تواريخ الزحف والتقدم تكاد تتعاصر وتتناظر في أكثر من حالة حتى يمكن مقارنتها ومقابلتها بدقة مثيرة . وكما في العالم الجديد . جاء الزحف كاسحا سريعا كالسهم المرسل . لأنه تم في مناطق مخلخلة السكان جدا إن لم تكن من الناحية العملية فراغا بشريا تقريبا . كما كان المستوى الحضارى الذى ينحصر ما بين الرعى والصيد بدائيا أو شبه بدائى على الأحسن . فلم تكن ثمة مقاومة فعليا .

وإذا كانت روسيا قد توسعت في حدودها الأوربية على طول الأنهار بالذات . فقد استمر توسعهم خارجها في سيبيريا على أساس الأنهار كذلك . وكان كل نهر يؤدى بالرواد إلى النهر الذى يليه . وهذا يسلمهم إلى مابعد . وهكذا . وتم هذا في نطاق دهليزى ضيق من الأعشاب الجيدة يقع مباشرة إلى الجنوب من « التاييجا » محصورا بينها وبين مرتفعات وسط آسيا في الجنوب . وهو نفس ذلك الدهليز الذى تتبعته فيما بعد سكة حديد سيبيريا . ولذلك فإذا كانت الأنهار هي حملة الاستعمار هنا . فقد جاءت بعدها السكك

Fitzgerald, New Europe, p. 163-8.

(١)

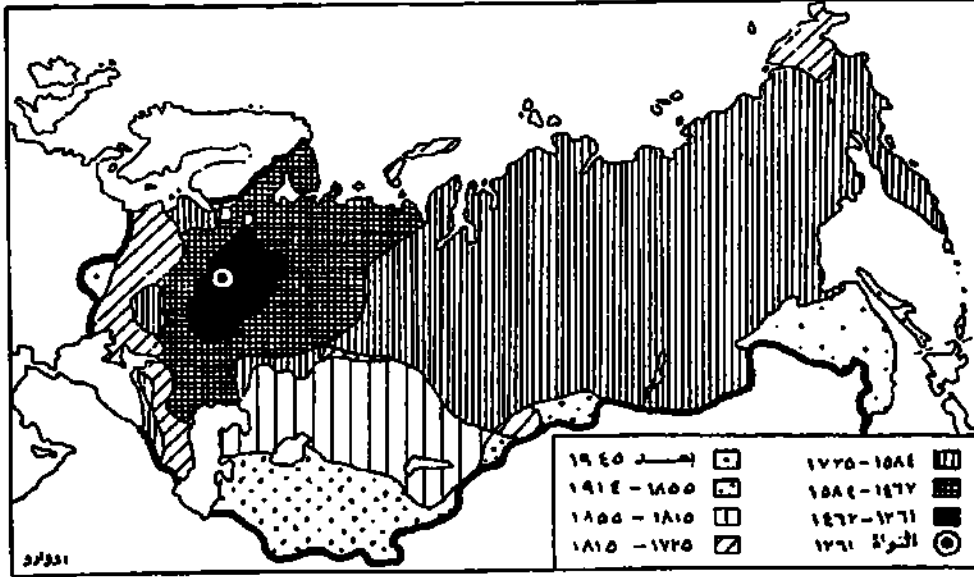
الحديدية لتصبح شريان الحركة فيها ، وذلك دون أن تمر المنطقة مطلقا بمرحلة الطرق البرية .

وعلى طول الرحلة بذر الرواد بذور المدن المحصنة Ostrogs على ملاق الأنهار : تومسك على الإرتش في ١٦٠٤ (وتقابل جيمز تاون في أمريكا ١٦٠٧) . ياكوتسك على نهر لينا ١٦٣٢ (وتقابل هارتفورد في ١٦٣٨) . وبهذا نكون قد قطعنا أكثر من ٢٥٠٠ ميل في أقل من نصف قرن !

وحين وصل الزحف إلى بيكال انشعب إلى شعبتين : الأولى إلى الشرق توا نحو الهادي إلى أوختسك . وهي التي ستؤدي بالروسيا بعد حين إلى مواجهة أمريكا الشمالية من بابها الخلفي لتنتهي « ببيرنج » إلى اكتشاف ألاسكا في ١٧٤١ وإلى استعمار روسيا لها . حيث ظلت تعرف « بأمريكا الروسية » ، ثم إلى الزحف جنوبا على طول الساحل الأمريكي حتى أصبحت روسيا على بعد ٤٠ ميلا فقط شمال سان فرنسكو في ١٨١٢ . لتجد نفسها وجها لوجه مع إسبانيا ، بعد أن بدأ أكل منها من أقصى طرفي أوروبا وأعطى ظهره للآخر في رحلة عكسية حول العالم !

وهنا نجد روسيا لأول مرة تترك اليابس لتعبر المحيط - طفرة غربية في تاريخها وتكوينها القاري البحت . وفضلا عن هذا فقد وصل بها هذا الاندفاع الصاروخي إلى نقطة تبعد عن العاصمة الوطنية بمسافة قد لا تقل عن ثلث محيط الكرة الأرضية ! ولهذا لم يكن غريبا أن تنسحب روسيا إلى أوراسيتها حين قررت - بحكمة - بيع ألاسكا للولايات المتحدة في ١٨٦٧ . ولعل هذا يذكرنا ببيع فرنسا للويزيانا وانسحابها إلى أوربيتها . أو كأنما قد أصبح قانونا من قوانين السياسة الروسية ألا تملك أراضي عبر البحار . بمثل ما أصبح من قوانين السياسة البريطانية أن تملك أراضي عبر البحار .

ذلك عن الشعبة الأولى بعد بيكال . أما الشعبة الثانية من توسع روسيا شرقا فقد انحرفت مع التضاريس نحو الجنوب الشرقي إلى هضبة فيتيم ، التي هي خط تقسيم المياه بين الأمور ولينا ، لتنتهي إلى فلاديفوستك ١٨٦٠ . وهذه الشعبة أتت بالروسيا إلى أبواب الصين ومنشوريا حيث بدأت صداقة تقليدية ستتطور في المستقبل لتصبح ذات مغزى سياسى كبير . ومع تقدم العمل في خط حديد سيبيريا إلى فلاديفوستك وبورت آرثر ازداد التعمير الروسى في شمال منشوريا . ولكن دون أن يعوق تيار الفلاحين الصينيين العرم إلى هذا الاقليم أو يصطدم به .



شكل (١١) توسع روسيا : الإمبراطورية القارية الكاملة

غير أن هذا الخط ، من الناحية الأخرى ، كان يحمل روسيا إلى أبواب اليابان التي كانت قد تطورت كثيرا وقطعت شوطا بعيدا في التحضر والقوة وبدأت تتطلع إلى التوسع والنفوذ . من هنا جاء الصدام الذي تمثل في الحرب الروسية - اليابانية عام ١٩٠٥ والذي كشف ضعف روسيا أو على الأقل سوء موقعها الاستراتيجي في هذه التخوم المتطرفة بسبب بعدها السحيق عن قلب الدولة غرب الأورال .

تلك في مجموعها هي الموجة التوسعية الأولى للروسيا الحديثة . وفيها سنلاحظ أن التعمير الروسي في سيبيريا طوال تلك المرحلة لم يكن جديا حقا ، ولا كان الاستثمار القيصري مهتما بأملأكه الحديثة في الشرق حيث كان منصرفا إلى المجال الأوربي . بل لقد ظلت سيبيريا لفترة طويلة مجرد منق للمعجزمين والمبعدين . شأنها في ذلك شأن البرازيل بالنسبة للبرتغال وأستراليا بالنسبة لبريطانيا . إلا أن الموقف تغير منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حين انعطفت القيصريّة على سيبيريا بشدة ونظرت بطموح إلى الهادي بحثا عن مخارج لها بعد أن فشلت في الوصول إلى مخارج لها في المياه الأوربية . والواقع أن التعمير الروسي لسيبيريا يقتصر تقليديا على سهم أو إسفين يبدو كرشاش متطاير خفيف مرسل من كتلة سلاف روسيا الأوربية على فرشة مخلخلة للغاية من السكان المغوليين الأصليين .

نحو الجنوب

هذه النكسة التي قابلت روسيا في سياستها الأوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر دفعت بها أيضا إلى مجال أسبوى جديد غير سيبيريا هو القوقاز والتركستان^(١). فكانت الموجة الاستعارية الثانية. أو الاتجاه نحو الجنوب Drang nach Süden التي تناظر وتعاصر الموجة الثانية المدارية للاستعمار الأوربي. وبحكم الموقع الجغرافي كان طبيعيا أن يأتي دور القوقاز أولا في النصف الأول من القرن، ثم التركستان بعد ذلك في نصفه الثاني. ولهذا تأخذ الموجة شكل كاشة فكاهها غرب بحر قزوين أو منطقة Trans-Caucasia وشرق البحر أو Trans-Caspia. وفي كلا الحالين كان لا بد أن تصطدم روسيا في نهاية توسعها بالنفوذ الفارسي الذي كان سائدا في تلك التحيز. وفي وقت كانت فارس فيه قوة ضخمة قادرة على أن تناطح تركيا.

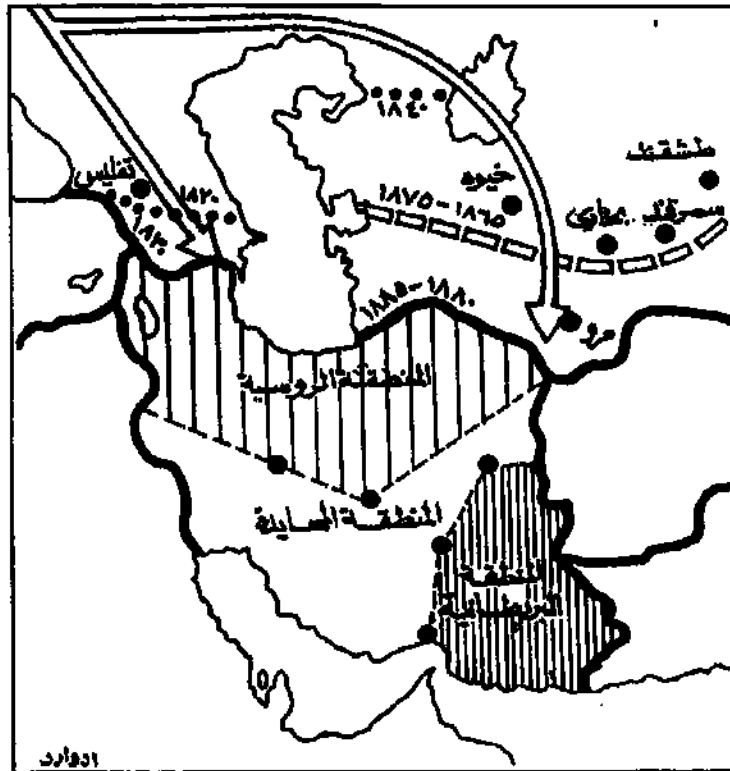
في غرب البحر. إذا بدأنا من البداية. بدأ الزحف مع بداية القرن وانتهى في ثلاثة عقود بعد حربين مع فارس. وقد سارعت قوى أوربا البحرية فرنسا ثم بريطانيا إلى مساعدة فارس والوقوف إلى جانبها منعا للتوسع الروسي. ولكن بلا جدوى: فقد فقدت فارس جورجيا وأرمينيا (أربقان ولنكوران). وبهذا انتهى الصراع إلى الحدود التي ستظل حتى يومنا هذا. ومن حينها تداعت فارس واتضعت بصورة كاسفة وانتهت كقوى كبرى في المنطقة ولم يعد لها بعدها قبل بأن تواجه روسيا على الإطلاق.

وبعد عقد واحد من اكتساح القوقاز. كانت روسيا قد استدارت في ١٨٤٠ حول بحر قزوين متجهة إلى سهل طوران لتخضع قبائل التركان والأوزبك والقرغيز وغيرها من العناصر الطورانية أو المغولية. وفي ١٨٤٦ كانت طشقند قد سقطت. وفي ١٨٦٨ تلتها سمرقند. ثم جاء دور خيوة في ١٨٧٣. ولحقها خوقند في ١٨٧٦. أي أن أهم المراكز التاريخية سقطت جميعا في عقد واحد.

هناك لم يبق إلا النطاق الجنوبي الأقصى من الحوض. حيث ضم نهائيا في العقدين الأخيرين من القرن بعد اصطدام آخر مع فارس التي انتزعت روسيا منها مرو. واصله بذلك إلى الفاصل الجبلي النهائي. وبه تحددت الحدود السياسية القائمة حتى الآن. كذلك

فقد أوصولها هذا إلى تخوم الهند البريطانية حيث بدأ التوتر يزداد بين القوتين النقيضتين ،
قوة البروقوة البحر .

في هذا التوسع الجنوبي بشقيه سيلاحظ أنه - ابتداء - قد تأخر طويلا عن التوسع
الشرقي في سيبيريا . فكانت روسيا قد شارفت الهادي حين كانت بالكاد قد بدأت التوسع
الجنوبي ، وذلك رغم القرب الجغرافي النسبي . كذلك فقد أنفقت روسيا فيه وقتا طويلا
نسبيا . والسبب في هذا وذلك هو أن التوسع شرقا في سيبيريا كان يتم كما رأينا في شبه فراغ
عمراني وحضاري ، أما التوسع الجنوبي فجاء في وسط غير منفذ بسهولة للاستعمار : كثافة
سكان أعلى ، وتجمعات أهلة مستقرة ، وشعوب ذات تاريخ حضاري طويل ، وتكوين
سياسي راق ، وتركيب ديني توحيدى (الإسلام شرق قزوين ، والمسيحية غربه) . لهذا
كان لابد من القضاء على « الخانات » الإسلامية وقع الحضارة المحلية والشعور القومي
بالإرهاب . وتاريخ قياصرة آل رومانوف في هذا دموى ومعروف بما فيه الكفاية .



شكل (١٢) توسع قياصرة رومانوف في وسط آسيا

كذلك . وبعكس سيبيريا . لم يكن هناك مجال للاستعمار الاستيطاني السكني أو لانتقائ معمرين من الروس السلاف للاستقرار في المنطقة وهي الآهله العامرة بأصحابها من قبل . ولذا نختتم أن يقتصر التوسع على الاستعمار الاستغلالي . ومما يلفت النظر أن الفارق في هذا بين التوسع شرقا والتوسع جنوبا يكرر في الوقت نفسه الفارق بين الموجة الأولى من الاستعمار الأوربي عبر البحار في العروض المعتدلة وبين موجته الثانية في العروض المدارية .

ماهو . أخيرا . وعلى أية حال : المغزى الاستراتيجي لهذا التوسع الخطير ؟ انقلاب ثوري في تاريخ العالم القديم لا يمكن - مهما حاولنا - أن نبالغ في تقديره ! فلأول مرة تظهر قوة توحد كل قلب أوراسيا في تنظيم سياسي واحد : ولأول مرة لا يكون الاستبس الأوراسي قوة رحل رعوية بل قوة زراعية مستقرة دائمة . إن الانقلاب الذي بدأت بذورة مع اختراع البارود قد استكمل الآن كل مغزاه الاستراتيجي . وخضع الاستبس الأوراسي جميعا لسيطرة حكومة مركزية قوية في قاعدة أرضية غنية متحضرة . لتصبح روسيا أول وأضخم قوة بر في التاريخ لا تعتمد على حركة الخيل وكوكبات الفرسان وإنما على حركة القطار والمدفعية المدرعة .

ثم لا ننسى بعد هذا أو قبله حقيقة التوسع نفسه كصفة أساسية أصيلة في كيان روسيا الجيوبوليتيكي وتاريخها السياسي . فالروسيا القيصرية نتاج سبعة قرون من التوسع المستمر الذي بدأ من نواة واحدة هي موسكو حتى وصل إلى قته في القرن التاسع عشر أو العشرين . وعلى سبيل المثال . فكما كتب ماركس نفسه سنة ١٨٥٣ كمراسل لصحيفة أمريكية « لقد تقدمت الحدود الروسية خلال الستين سنة الماضية ٧٠٠ ميل نحو برلين ودرسدن وفينا . ٥٠٠ ميل نحو القسطنطينية . ٦٣٣ ميلا نحو ستوكهولم . ١٠٠٠ ميل نحو طهران » . بل إن البعض يتبع هذا التوسع المزمع إلى العصر الشيوعي : فلا يرى في الاتحاد السوفيتي إلا « وحدة سياسية تتكون من ١٥ جمهورية . ١٤ منها تم غزوها بواسطة واحدة فقط هي روسيا » .

وأيا ما كان . فإن البعض يرى أن روسيا لم تكن في يوم ما طوال تاريخها إلا دولة توسعية في الخارج . مثلما لم تكن إلا دولة استبدادية في الداخل . وكما أنه لا تقاليد للحرية داخليا فلا تقاليد لعدم الاعتداء خارجيا : فضلا عن أن الظاهرتين مترابطتان كسبب ونتيجة حيث كان الخضوع للاستبداد في الداخل هو المن الحتمي الذي دفعه الشعب للدولة مقابل الغزو والتوسع في الخارج أو مقاومة الخطر الخارجي . وعلى أية حال ودون أن

تذهب بالضرورة إلى حد القول بأن « التوسع في الأرض أمر طبيعي بالنسبة للروسيا مثل صيد الفريسة بالنسبة للأسد أو أكل السمك بالنسبة للدب »^(١) . فلقد كان صاحب مقولة « من كف عن التوسع أصابه العفن » هو بعض ساسة القيصرية . كذلك يستطرد البعض فيرى أن الاتحاد السوفيتي مازال يعمل على أساس مبدأ « أوسع وأوسع وإلا انكش » ، وأنه وإن بدأ قوة دفاعية أساسا فإن الدفاع عادة يتحول إلى الحرب والحرب إلى عدوان^(٢) .

استراتيجية البر والبرد

من هذا التوسع المديد تخرج روسيا أيضا بصفة أساسية هي بلاشك « القارية » ، القارية المطلقة . فهي أولا رقعة واحدة متصلة سحيقة الأبعاد من اليابس . كبقعة زيت تمددت . بل لعل العالم لم يعرف في تاريخه دولة أو إمبراطورية برية متصلة contiguous في مثل هذا الحجم ، إلا أن تكون إمبراطورية جنكيز خان . ثم إنها تخرج وهي دولة أوراسية ذات بعدين . تضع قدما في أوربا وقدما في آسيا ، وتبدو كما لاحظ دستوفسكي أسبوية للأوروبيين وأوربية للأسيويين^(٣) ، وحين تلقى إعراضا أو انتكاسا هنا تتجه هناك - والعكس . على أنه لما كان مركز ثقل المعمور والنواة النووية هي روسيا الأوربية ، رغم أن المساحة الكبرى في آسيا ، فيمكن أن نقول إن الرأس أوربي والجسم أسيوي .

والمهم أنها الآن الدولة القارية الكاملة وقوة البر الكلاسيكية ، والنقيض المباشر لبريطانيا في القرن التاسع عشر ، النموذج التام للإمبراطورية البحرية المتناثرة في أركان الدنيا ولقوة البحر الكلاسيكية . وإذا كانت الإمبراطورية البريطانية - كما قيل - من صنع السفينة البخارية ، فإن روسيا القيصرية كالولايات المتحدة هي من صنع القطار .

وهي بعد تخرج من ذلك التوسع وهي أطول الدول حدودا ، سواء برية أو بحرية : نحو ٣٨ ألف ميل^(٤) . أي مثل محيط الكرة الأرضية مرة ونصف مرة ! ومع ذلك فلم يكن هناك دولة معزولة بالطبيعة وحييسة عن عالم المعمور كالروسيا . فهي وإن بدت ساحلية

Richard Nixon, loc. cit. (١)
"East-West Struggle", Economist, p. 41. (٢)
Dostoyevsky, Diary of a Writer. (٣)
Gregory, p. 10. (٤)

شكلا ، تعد قارية موضوعا . فشمالا ثمة المحيط المتجمد ، وجنوبا نطاق عميق من الصحارى والمرتفعات الصارمة ، وشرقا فراغ المحيط الهادى الهائل وأضخم صحراء على ظهر الأرض كما يعبر هويتلزي . إنها - نكاد نقول - رهينة المحبس ، صحراء الجليد وصحراء الرمل .

لهذا جميعا كانت تطلعاتها وسياستها الخارجية انعكاسا مباشرا وتلقائيا لتركيبها الداخلى : هنا القارية الحبيسة ، وهناك الخروج إلى البحر والبحر الدافئ بالذات . هنا الحدود الشاسعة ، وهناك الرغبة فى خلق نطاق حولها من الدول الصغرى المحيطة أو الخاضعة لنفوذها لتكون حاجزا بينها وبين القوى الساحلية البحرية . وهذان بالفعل هما المؤثران اللذان يكونان معا بوصلة السياسة الروسية أو حجر المغنطيس فى استراتيجيتها . وقد بدأ التوجيه إلى البحار الدافئة منذ بطرس الأكبر بالتحديد أو بالتفصيل ، وبعده يمكن تفسير كل السياسة الخارجية « برغبة الدب الروسى فى المياه الدافئة » أو بتعبير آخر « بجيوبوليتيكا درجة الحرارة » . وعلى الجملة يلخص البعض « وجهة نظر الدب » فى التوسع الأرضى والامتداد الهائل كرد وحيد على عقدة الحصار والتطويق الطبيعى والسياسى .

ولقد كان معنى هذا مباشرة أن تصطدم بالقوى البحرية فى أكثر من جبهة ، ومن ثم يأخذ الصراع السياسى شكل صراع سافرو بلا موارد بين قوة البروقوه البحر . ومن الغريب أن السياسة المعلنة للقوى البحرية الغربية فى القرن التاسع عشر كان يعبر عنها بالاحتواء containment والتطويق encirclement - وهى نفس الألفاظ التى تستعملها اليوم ! - حتى تظل روسيا محصورة فى قاريتها^(١) . وباختصار فلقد اتخذت القوى البحرية إزاء روسيا : سياسة الصد checkmate ، وكان ذلك كله صراع « الفيل » (قوة البر) و « الحوت » (قوة البحر) كما وصف فى حينه .

التوسع غربا

هذا وقد كانت المنافذ البحرية الممكنة أو المتاحة للروسيا هى أساسا البلطيق فى الشمال والبحر الأسود فى الجنوب ، ولو أنها بحار داخلية تتحكم دول فى محارجها كما تتحكم أخرى فى سواحلها . وفيما بعد أضيف الخليج الفارسى (العربى) كمغنطيس ثالث . أما

(١) John S. Badeau, "Middle East : Conflict in Priorities", Foreign Affairs., Jan, 1958, p. 233-7.

المهادى فنصف متجمد فضلا عن أنه متطوح مقطوع ويمثل طريقا غير اقتصادية . ولهذا فقد تركز ضغط السياسة القيصرية في الغرب على ضلوعه الأوربية . ففي البلطيق بدأ بطرس الأكبر « بنافذة روسيا على أوروبا » حين خلق سان بطرسبرج (لنتجراد) من لاشيء . ثم كانت أوكرانيا أرض صراع مزمن بين روسيا وبولندا في البداية ، فلما تغلبت روسيا أصبحت بولندا نفسها هي الهدف .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت روسيا شريكا في تقسيمات بولندا الثلاث الشهيرة وغالبا ماخرجت منها بنصيب الأسد . أما دويلات البلطيق فقد تمت السيطرة عليها في نفس الفترة ، بينما ضمت فنلندا في أيام الحروب النابليونية بعد انتزاعها من السويد . وبذلك أصبح للروسيا جهة بحرية حقيقية فسيحة على البلطيق إلى جانب نطاق أمان ضد وسط أوروبا . ويلاحظ أن روسيا كانت بهذا أوسع رقعة وأبعد حدودا ناحية الغرب من الاتحاد السوفيتي اليوم .

البحر الأسود والمضائق

غير أن البحر الأسود كان الهدف الأكبر بالطبع نظرا لموقعه ودفنه ، ولأن الجزء الأكبر من حوضه روسي مباشرة أو على الأقل سلافي بوجه عام . إلا أن مفاتيحه ليست في يدها وإنما في يد تركيا . ولهذا كان الصراع بينها هو قدرهما المشترك ، لاسيما أن تركيا كانت القوة التي تقهر أكبر عدد من السلاف في البلقان وشرق أوروبا ، بينما أن روسيا هي بطل السلافية الحامي . أقطاب جغرافية متنافرة وأقدار تاريخية متصادمة ! هذه قوة بر ، وهذه قوة بر مائية بينية .

وقد شهد القرن الثامن عشر عدة اندفاعات روسية عاصفة على عهد كاترين الثانية لتقتحم المضائق ، وذلك بعد أن كانت روسيا قد انتزعت السواحل الشمالية للبحر الأسود وشبه جزيرة القرم من الأتراك . وقد بدأ أحيانا أن هدف روسيا هو ضم المضائق ضما سياسيا كاملا ، وفي أحيان أخرى كان ضمان حقوق وامتيازات المرور الخاصة هو الهدف الوحيد . وبعامه فلقد حدثت سبع حروب على الأقل بين روسيا وتركيا للسيطرة على المضائق (١) . وفي كل هذه الحروب بلا استثناء ولا اختلاف كانت تتقدم دولة بحرية غربية - فرنسا أو إنجلترا - لتساند تركيا ضد روسيا .

Mogey. p. 132.

(١)

أحيانا كانت إنجلترا تصادق روسيا وتقف موقف برود إزاء تركيا عنادا في فرنسا التي تساعد تركيا . وأحيانا تساعد بريطانيا تركيا معارضة لفرنسا حين تتقارب هذه مع روسيا . أى أن الصراع الداخلى بين الأشباه البحرية كان ينعكس على مواقفها من صراع تركيا مع روسيا ، ولكن في كل الحالات لم تكن تركيا تعدم قوة ما منها في جانبها . ولعل حرب القرم في سنة ١٨٥٣ هي أبرز وأخطر مجابهة من بريطانيا للروسيا في تهديدها لتركيا . وقد انتهى الصراع بفشل روسيا في السيطرة على المضائق . وإذا كان قد قيل إن هذا كان أول التحام مباشر ومواجهة بين الفيل (الروسيا البرية) والحوت (بريطانيا البحرية) ، فهل نضيف من جانبنا أنه كان يدور حول التماسح (تركيا الأمفيبية) ؟

أيا ما كان ، فلقد أدركت كل من فرنسا وبريطانيا بالتدريج بعد ذلك خطأ مواقفها التكتيكية المتعارضة السابقة إزاء كل من روسيا وتركيا والتي حكمتها مناورات العداة بينها في الوطن ، وسرعان ما أيقنتا وحدة مصالحهما الاستراتيجية العميقة ضد روسيا وبالتالي مع تركيا . ومن حينها أصبحت سياستها المشتركة المتصلة هي تدعيم تركيا وحققها بكل المساعدات الحربية والسياسية لتكون درعا ضد توسع روسيا ونطاقا صحيا حولها^(١) . والمغزى الاستراتيجى واضح كل الوضوح : في صراع القوى البحرية (فرنسا وبريطانيا) ضد توسع قوة البر (الروسيا) ، كانت قوة بينية (تركيا) هي أرض المعركة الطبيعية ، ولما كانت هذه مهددة بالسقوط أمام قوة البر فقد اجتمعت قوى البحر لتسندها وتدعمها . حتى حين هدد قطاع من المنطقة البينية - مصر محمد علي - كيان تركيا وأندر بأن يرث السيطرة على تلك المنطقة ، انضحت نفس الاستراتيجية ، فقد تكلفت قوتا البحر فرنسا وبريطانيا بكبت الحركة بالقوة في سوريا . وهذه الاستراتيجية وحدها هي التي أطالت عمر رجل أوروبا المريض أكثر مما كان يمكن له ، ومنحته «سلفة» جديدة من الحياة بكل الوسائل الاصطناعية .

ومع ذلك فلم يجد هذا كثيرا . فقد اجتمعت طرقات روسيا البرية مع طرقات إمبراطورية النمسا - المجر البينية ضد تركيا البينية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في البلقان . فالنمسا - التي استطاعت بعد حصار الأتراك لفينا في القرن السابع عشر ، وبفضل موقعها الجغرافى ، أن تطردهم خطوة خطوة من المجر خلال القرن الثامن عشر وأن

Reader Bullard, Britain & the Middle East. Lond., 1952, p. 28-36.

(١)

تؤسس بذلك الإمبراطورية الثنائية النمسا - المجر - هذه النمسا عادت في القرن التاسع عشر إلى انتزاع البوسنة والمهرسك من تركيا في حرب ١٨٧٨ . وبعد ذلك أخذت تركيا تتقلص في البلقان بالتدريج حتى كانت النهاية الكاملة في الحرب الكبرى الأولى حين أصبحت قوى البحر الغربية - حاميتها القديمة - عدوة لتركيا البينية .

نحو الخليج

لا يبقى لنا الآن من مخارج روسيا إلا الخليج الفارسي ، الذي قال فيه بطرس الأكبر مقولته النبوية الشهيرة « من يسيطر على الخليج ، يسيطر على العالم » . وهذا بدأت روسيا تتطلع إليه بعد توسعها الجنوبي في القوقاز ووسط آسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وقد ازداد نفوذ روسيا في فارس ، بعد انتصاراتها عليها وبعد أن أصبحت تطوقها من ثلاث جهات ، ازديادا خطيرا حتى انتزعت كثيرا من الامتيازات الاقتصادية الهامة فيها . وفي وقت ما اعتبرت السياسة الروسية أن المنطقة الواقعة جنوب القوقاز وفي اتجاه الخليج الفارسي هي الأطماع الشرعية لها ، وأن إيران هي « قناة السويس الروسية » وأن لا بد لها من « ممر » إلى الخليج الفارسي (١) .

وفي أوائل القرن العشرين وصل تغلغل روسيا في إيران إلى حد أن بدا أن هذه قد تسقط كاملة لسيطرتها . ولكن - كما حدث مع تركيا - وقفت فرنسا أولا فترة مع إيران ، ثم جاءت بريطانيا معتمدة على قوتها البحرية في الهندي لتتذمر بأن أى محاولة روسية لبسط نفوذها في الخليج ستقاوم بالقوة . على أن هزيمة روسيا في حرب اليابان كشفت عجزا غير متظر ، فاضطرت إلى مساومة تسوية مع بريطانيا بمقتضاها قسمت إيران إلى مناطق نفوذ ثلاث ، الشمالية لروسيا ، والجنوبية لبريطانيا ، والوسطى محايدة . وهذه التسوية تلخص في نفس الوقت كل استراتيجية إيران من أجل البقاء والمحافظة على كيانها منذ ظهرت قوة روسيا على ضلوعها ، وهي استراتيجية مضاربة كل من القوى البرية والبحرية حتى تعيش هي على التناقض بينها ، باختصار سياسة المضاربة Stalemate (٢) .

وبالمثل اصطدمت روسيا مع بريطانيا على تخوم الهند الشمالية الغربية حيث كانت

(١) المرجع السابق . ص ١٧٠ .

W. B. Fisher, p. 163-4.

(٢)

الأولى بتوسعها في وسط آسيا قد بدأت تقرع باب الهند . من هنا كانت حروب الأفغان في القرن التاسع عشر التي انتهت « بتحييد » أفغانستان – التي شبيها أحد حكامها في موقعها الاستراتيجي المسحوق بين قوة البر والبحر « بشاة » بين الدب الروسي والأسد البريطاني !^(١) – لتصبح دولة حاجزية بين النفوذين البري والبحري . ومثل هذا اتفق عليه أيضا بالنسبة للثبت . وبهذا وذاك تحققت استراتيجية روسيا على حدودها البرية من خلق نطاق من الدويلات الحاجزة بينها وبين القوى البحرية . وإن كانت قد فشلت في تحقيق استراتيجية الوصول إلى المياة الدافئة .

Cressey, p. 409.

(١)

البَابُ الثَّانِي

قَرْنُ الاسْتِعْمَارِ

الفصل السادس

الانقلاب الصناعي والاستعمار عالم جديد

إن يكن الانقلاب التجاري قد كشف عالما جديدا ، فقد خلق الانقلاب الصناعي عالما جديدا - وفرق بين الكشف والخلق كبير . ومهما حاولنا فلا يمكننا المبالغة في خطورة ونتائج الانقلاب الصناعي ، ويكفي أن تاريخ البشرية كله قبل الصناعة وحدة واحدة ، وبعده وحدة أخرى بذاتها^(١) . فالانقلاب إذن أخطر نقطة انقطاع في تاريخ الإنسانية ، ولعله كذلك في تاريخ الاستعمار وسياسة القوة .

وإذا كان الانقلاب الميكانيكي في القرن الثامن عشر هو الذي يمهّد مباشرة للانقلاب الصناعي ، فإن له أيضا جرائم في الانقلاب التجاري الذي سبق الاثنين في القرن الخامس عشر . فإن مكاسب المستعمرات واقتصاديات المركاتليه الجديدة خلقت بالتدريج في أوروبا البيئة والظروف التي ساعدت على تفريخ الانقلاب الصناعي . وهكذا يبدأ الانقلاب في بريطانيا حوالى ١٨٢٠ ليتقل إلى فرنسا في العقد التالي ١٨٣٠ ، ثم لبتتشر بعد ذلك شرقا عبر القارة خلال القرن .

والانقلاب مركب حضارى كامل برمته ، لم يخلق علما وفنا وتكنولوجيا جديدة فحسب ، ولا اقتصادا جديدا وكفى ، بل ومجتمعا جديدا وجيوبوليتيك جديدا تماما . وإذا كان هيكل الانقلاب يتلخص في أنه عصر الفحم والحديد ، والبخار والقطار ، فهو بنفس القوة والأهمية عصر السفينة البخارية والمواصلات السلكية واللاسلكية ، أى المواصلات المكانية واللامكانية ، كما انتهى إلى أن يكون عصر الطائرة في الجو والغواصة في الأعماق . وقد ترتب على هذا كله ثورة جذرية في النقل والمواصلات ، فتقلص العالم

V. Gordon Childe, Man Makes Himself. N.Y., 1951, p. 17-19.

(١)

واختزلت المسافة . وأصبحنا نعيش في « عالم صغير » منكمش باطراد جغرافيا - كما هو جيولوجيا - حتى وإن تمدد ظاهريا ببعض كشوف من المجاهيل ا

ولما كان القطار قد حقق وحدة اليابس . فإنه لم تعد هناك قارات متعددة بل « قارة عالمية World Island » كما سمي ماكيندر العالم القديم^(١) . وقارة صخرى هي العالم الجديد . ولأن السفينة البخارية قد حققت وحدة المحيط . فإنه لم يعد هناك عمليا محيطات متعددة . وإنما محيط واحد يغلف عالما واحدا متماسكا مترابطا كما لم يكن قبل في التاريخ . وأنت المواصلات اللامكانية والجوية لتؤكد هذه الوحدة كل التوكيد .

وفي الجانب السياسي . كانت النتيجة المباشرة لهذه الانقلابات هي سهولة ضبط وربط الدولة من الداخل عمقا واتساعا . فبعد أن كان من المتعذر على الدول أن تتعدى حجبا أو مساحة معينة في العادة . أمكن للدول الكبيرة الحجم أن تظهر . وبعد أن كانت الدولة الكبيرة الرقعة نوعا تتعرض . على بعد مئات قليلة من الأميال من العاصمة ، لحركات الانفصال والتمرد . أصبحت الوحدة القومية مضمونة حتى أبعد الحدود وهوامش الأطراف من الدولة^(٢) . ولهذا فإن العصر هو عصر استكمال ما لم يكن قد تم من وحدات في القارة أو خارجها ، وتوسيع وتوطيد ما كان منها قد بدأ .

من ثم فإن الوحدات التي ولدت في عصر الانقلاب الصناعي تميل إلى أن تكون من الدول الضخمة المساحة والحجم . كألمانيا وكندا والولايات المتحدة وأستراليا ، وبالتالي سيكون لها مكان خاص في ميزان القوة السياسية^(٣) . ولولا أن أتى الانقلاب الصناعي بكل أدواته ووسائله - لاسيما منها وسائل النقل - في الوقت المناسب ، أو لو تأخر عقودا ، لما استطاعت بعض هذه الوحدات الضخمة - ربما - أن تظهر ، ولظهر بدلا من كل منها عدد أكبر من وحدات أصغر . فلولا القطار وخط سكة حديد الباسفيك لما دخلت كولومبيا البريطانية - وربما مقاطعات الوسط أيضا - اتحاد كندا . ومثل هذا وأكثر منه يقال عن الولايات المتحدة . بل لو أن الانقلاب الصناعي تقدم قليلا في مجيئه فلربما لم تستقل ، أو لم تستطع أن تنفصل . الولايات المتحدة عن بريطانيا . ولولا سكة حديد الجنوب لكانت

Democratic Ideals, p. 52.

(١)

Fawcett, op. cit., p. 428.

(٢)

Mogey, p. 125.

(٣)

أستراليا الغربية ، وهي التي لاتزال تعاني من اتجاهات انفصالية ، دولة منفصلة عن الاتحاد الأسترالى (١) .

هذا داخل الدولة الواحدة ، أما خارج الدولة الوطنية فإن انقلاب المواصلات والصناعة سيمكن للإمبراطوريات الماموث والجبارة من الظهور مها تباعدت أطرافها في أركان المعمورة . لاسيما أن الانقلاب الصناعى نفسه خلق مستويات جديدة تماما من القوة المادية والعسكرية لاتقارن البتة بكل ماسبقها . ويكفى على ذلك دليلا أن أول حرب حديثة في العصر الصناعى ، وهي الحرب الأهلية الأمريكية ، تفوق في حجمها وجيوشها وأهوالها آخر وأضخم حرب في عصر ما قبل الصناعة والتي تحتل مكانة خاصة في كل التاريخ وهي الحروب النابليونية - حقيقة مذهلة ! (٢)

ولذا فإذا كان الاستعمار في العصور القديمة والوسطى هو صراع بين الزراع والرعاة ، فإنه الآن سيكون صراعا بين صناع ورعاة ، بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية ، بل بين العصر الصناعى والعصر الحجري أحيانا ، وبين المدفعية المدرعة والقوس والسهم بالتالى . ومن ثم فقد كان الفارق رهيبا والنتيجة محتومة . وبهذا وذاك جميعا تستمر الحركة التاريخية الصاعدة المنظمة من اتجاه الإمبراطوريات وصراع القوى إلى أن يأخذ أبعاد وآفاقا أكبر باطراد .

الصناعة ، الرأسمالية . والاستعمار

ولم يكن مفركذلك ولذلك من أن يصبح العصر الصناعى مرادفا للعصر الاستجارى ، وأن يكون الاستعمار « وباء » القرن التاسع عشر . فإذا كان الانقلاب التجارى هو الجذ الأعلى للاستعمار الحديث ، فإن الانقلاب الصناعى هو أبوه المباشر . تفسير ذلك أن الانقلاب الصناعى خلق اقتصادا مفتوح الشهية . بل حاد الشهوة ، ينتج بالجملة ليستهلك بشراهة ، وهو في النهاية أبعد ما يكون عن الكفاية الذاتية ، ولا يمكن لأى دولة أو مجتمع أن يجد عناصر وأركان صناعته داخل حدوده ، بل حتى داخل اقليمه الجغرافى الطبيعى الرئيسى . وإنما هى تعتمد أساسا على عملية « استقطاب » تركيزية عنيفة لكل موارد وخامات وقوى الأقاليم المتباينة والعروض المتفاوتة والبيئات المتنافرة . إنها ببساطة

Harrison Church, Modern Colonisation, p. 86.

(١)

Oswald Spengler, Decline of the West. trans., N.Y., 1946, vol. 2, p. 421.

(٢)

محاولة لاختزال الكرة الأرضية - اقتصاديا - في نقطة . وكما يتفق ، فإن أخطر طرفين في هذه العملية هما العروض المعتدلة والمدارية .

والصناعة بعد هذا لا تخرج من حمى البحث عن الخامات وموارد الخامات ، إلا لتدخل في حمى البحث عن الأسواق لتصريف ما قد أنتجت . ولذا فالصناعة محمولة أبدا بتركيبها الذاتي ، وترباقها كما تصورت وكما لازالت تتصور هو الاستعمار ، والاستعمار المدارى بالذات . من هنا انطلقت القوى الاستعمارية الصناعية إلى استعمار المداريات الجديدة ، أو تعميق استعمارها للمداريات القديمة . فإذا كان استعمار الكشوف والعصر التجارى كما رأينا « اندفاعا نحو الشرق Drang nach Osten » (وإن كان بعض هذا « الشرق » غربا في الحقيقة) ، فإن استعمار الانقلاب الصناعى هو أساسا « اندفاع نحو الجنوب Drang nach Süden » . الأول استعمار خطوط الطول ، والثانى استعمار خطوط عرض كما قد نقول .

ليس هذا فحسب ، وإنما خلقت الصناعة أيضا المجتمع الذى يحض على ، ويؤدى إلى ، الاستعمار كواقع وكمثال . فلقد ولد الانقلاب الصناعى في إرهاصات تغيير اجتماعى من الاقطاع إلى البورجوازية ترمز له الثورة الفرنسية ، وجاء هو بعدها بعقدين ليقفز بهذا التغيير إلى ثورة اجتماعية سياسية كاملة وجذرية . فالانقلاب الصناعى تمخض عن الرأسمالية وخلق المجتمع البورجوازى الرأسمالى الذى هو في صميمه مجتمع تنافسى تملكى وتوسعى .

ولهذا فلم يكن منتهاه وقصاره خلق طبقات اجتماعية متعارضة متصارعة داخل الدولة ممن يملكون وممن لا يملكون Haves & Have nots . من البورجوازية والبرولتارية ، وإنما خلق معها طبقات سياسية متنافرة بين الدول المختلفة ممن يملكون وممن يملكون Haves & Hads . أى من المستعمرين والمستعمرين . فالاستعمار فعلا أعلى مراحل الرأسمالية ، وهو امتداد خارج الحدود للطبقية داخل الحدود . والمستعمرات ليست إلا « برولتارية السياسة الدولية » . لذلك جميعا فقد كان الانقلاب الصناعى إشارة البدء بسباق محموم معربد نحو الاستعمار . وعاملا حاسما في الصراع الدولى . وكان القرن التاسع عشر هو بالضرورة والامتياز قرن الاستعمار .

كذلك لعب الانقلاب الصناعى دورا خطيرا ومباشرا في التكوين للاستعمار والتعمير ، فقد قدم معا وفي وقت واحد « جسم » التعمير وضواغط التهجير وأداة الحركة وظروف

التوطن . فن ناحية حرك الانقلاب « ثورة ديموغرافية » عارمة لم تعرف البشرية لها مثيلا من قبل . ففي القرن التاسع عشر ارتفع سكان أوروبا من ١٨٧ مليوناً في ١٨٠٠ إلى ٤٠١ مليون في ١٩٠٠^(١) ، وأصبحت أوروبا متخمة بفائض سكاني تحول بالهجرة إلى طفق بشرى خرج من القارة كالطوفان ليتوطن نهائيا في المستعمرات والأقطار الجديدة .

ومن ناحية أخرى كانت النظم الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التي خلقها الانقلاب الصناعى من أهم الضواغط التي دفعت إلى الهجرة من أوروبا . فالصراعات الطبقيّة والاضطرابات السياسيّة والثورات العديدة والضغط الماديّة والانسانية على البرولتاريّة الكثيفة المسحوقة كانت عوامل طرد مباشرة ومحققة . وليس من الصدفة أن موجات الهجرة من أوروبا تتعاصر زمنا مع تواريخ الثورات الكبرى التي تنقط مجرى القرن الصناعى ابتداء من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨ إلى ١٨٧٠^(٢) .

الصناعة والقوة

ومع ذلك فلولا ما أحدث الانقلاب الصناعى من ثورة في وسائل النقل البرى والبحرى بالجملة ومن تسهيلات الحركة التي لم تعرف قط من قبل ، لما استطاع هذا التيار الكاسح أن يتحقق . وبعد هذا فإنه الانقلاب الصناعى وحده ، بما أنتج من علوم وفنون وطب ووسائل صحيحة ومخترعات تدفئة صناعية وتكييف .. الخ ، هو الذى خلق الظروف البيئية المعقولة والملائمة للسكنى والتوطن في « جبهات الريادة » القارية تلك . باختصار إذن . لقد جعل الانقلاب الصناعى من الاستعمار حاجة وإمكانية في نفس الوقت .

يبقى أخيرا أن الانقلاب نفسه كان عاملا حاسما في تحديد مصابى الصراع الاستعمارى وصدامات القوى . فقد كان نمط القوة السياسيّة وتوزيع مواطنها الطبيعيّة *natural seats of power* يتحدد في العصر التجارى ببعدين أساسيين ، هما موارد الزراعة المحلية وموارد الموقع التجارى . ولكن جاءت الصناعة لتضيف بعدا ثالثا وفيصلا ، أعاد تقييم الأوزان الجغرافية للأقاليم والدول المختلفة . وأحدث انتخابا جغرافيا جديدا للقوى السياسيّة ، فاستبعد البعض من الصدارة ودفح البعض إلى المقدمة وخلق البعض جديدا أو من جديد .

J.M. Houston, A Social Geog. of Europe, Lond., 1953, p. 152; A. Landry. Traité de (١)
Démographie, Paris, 1949, p. 66.

E. E. Bergel, Urban Sociology, Mc Graw-Hill, 1955, p. 251-5. (٢)

وتفسير ذلك أن مركب الفحم والحديد - وهو « صدفة جيولوجية » إما لك وإما عليك - قد أصبح أساس القوة الجديدة . ولهذا جاء الانقلاب الصناعي لينهى إلى الأبد الصراع على السيادة العالمية بين فرنسا وبريطانيا . ذلك الذى كان أبرز طابع فى القرن الثامن عشر . وليضع بريطانيا فى الصدارة المطلقة طوال القرن التاسع عشر . لكنه خلق لها - بالمقابل - منافسها المقبل - ألمانيا - ليصبح النصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع العالمى بين بريطانيا وألمانيا . ثم ليختزله بسرعة ليضعنا مع بداية النصف الثانى من القرن فى مواجهة صراع جديد من قدر أضخم وأعظم هو هذا الذى نعيشه بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

تلك إذن هى الخطوط العريضة فى الانقلاب الصناعى كمحرك وضابط للاستعمار والصراع الدولى . وعلينا الآن أن نتقدم أولاً إلى دراسة الاستعمار فى هذا القرن المفعم خارج القارة فنبداً بالتعمير ثم نردفه بالاستعمار . ثم نعود ثانياً إلى القارة لنحلل محاور صراع القوى داخلها ثم خارجها : فتسبب حركة انتقال مركز القوة العالمية وتتابع ظهور القوى الجديدة واحدة بعد الأخرى - بريطانيا ثم الولايات المتحدة ثم اليابان فألمانيا - حتى نصل إلى قمة الصراع فى العصر الصناعى وهى الحروب العالمية فى القرن العشرين .

تعمير المعتدلات : الاستعمار الاستيطانى

ينبغى لنا أن نميز بين ظاهرتين بارزتين فى القرن التاسع عشر : الأولى هى التعمير ، أى خروج أوربا إلى القارات والأقطار الجديدة بقصد السكنى والاقامة الدائمة فيها واستبدالها لوطن بوطن آخر . أى بقصد الاستعمار الاستيطانى أو السكنى . والثانية هى الاستعمار بمعنى الغزو والتملك السياسى بقصد استغلالها لا التوطن الدائم فيها ، أى بقصد الاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى .

ولعلنا نذكر أن أغلب القارات الجديدة قد استعمر بالغزو فى ظل الانقلاب التجارى : ولكن تيار الهجرة طوال قرون أربعة لم يزد عن بضعة ملايين معدودة . مثلاً لم يكن عدد المعمرين البريطانيين فى أمريكا الشمالية حتى سنة ١٧٠٠ ليزيد عن ٣٠٠ ألف ، ولم يكن عدد البيض فى مستعمرات إسبانيا فى أمريكا حتى سنة ١٨٢٠ ليزيد عن ٣,٢٥ مليون أغلبهم نتيجة للتزايد الطبيعى^(١) . أما التعمير الحقيقى فلم يحدث إلا فى ظل الانقلاب

Cole, Geog, of World Affairs, p. 40.

(١)

الصناعى فى القرن التاسع عشر. أى أن التعمير السكانى قد تخلف طويلا عن الاستعمار السياسى. وعلى العكس من هذا نجد أن ما تم من استعمار سياسى فى ظل الانقلاب الصناعى لم يصحبه أو يتبعه تعمير سكانى حقيقى يذكر. وتفسير هذا بطبيعة الحال أنه ارتبط بالمداريات الكثيفة السكان أو المأهولة التى لا تشجع طبيعيا على الاستعمار الاستيطانى أو لا تسمح به بشريا.

الأوربة

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان الوجود الأوروبى فى القارات الجديدة سواء تعميرا أو استعمارا هو وجود ساحلى بحت لا يزيد فى أعماق جبهاته عن شقة ساحلية مضغوطة ، بعدها لا يزيد عن وجود رمزى. أما فى القرن التاسع عشر وبفضل ثورة المواصلات الجديدة فقد غزا هذا الوجود داخل القارات استعمارا وتعميرا ، ولا ينتهى القرن حتى يكون كل شبر منها قد احتل. فالاستعمار العالمى من الوجهة الفعالة هو ابن الانقلاب الصناعى وأخو القرن التاسع عشر.

وقد لفظ القرن التاسع عشر وحده من أوربا نحو من ٦٠ مليون نسمة - ولو أن نسبة كبيرة عادت إلى أوربا بعد ذلك^(١) - توزعت على القارات الملائمة مناخيا للسكنى الأوربية ، ابتداء من أمريكا الشمالية إلى أمريكا الجنوبية ومن أستراليا إلى نيوزيلند. تلك إذن أضخم وأطول رحلة فى التاريخ عبر القارات والمحيط ، تتضاءل بجانبها كل حركات رعاة الاستبس الرجراج فى العصور الوسطى ، ولا يفوقها إلا تيار تهجير الرقيق. هذا إذن ، وليست فترة هجرات الشعوب فى التاريخ القديم ، هو « عصر الهجرة Völkerwanderung الحقيقى فى تاريخ البشرية .

وهو خروج أبيض أولا وقبل كل شىء . فقد صدرت أوربا وحدها هذا السيل لتحقيق عالمية الجنس الأبيض Universalisation ، أو أوربية العالم Europeanisation ، ولتزرع خلايا بشرية انشطارية تخلقت منها أوربات صغرى Little Europes تدين لأوربا الأم ، أوربا الكبرى ، بالولاء والتبعية بدرجة أو بأخرى . ومن الملاحظ أن هذه الشظايا التى انفصلت عن النواة تتحلل حولها من غرب وجنوب وشرق ، تحف بها كأقمار تابعة تدور فى فلك

Carr-Saunders, We Europeans, p. 201 ff.

(١)

شمس كبرى . وتحديق في نفس الوقت بالأجناس البشرية الأخرى غير البيضاء وتطويقها كحلقة خارجية متصلة بدرجة أو بأخرى . أما عالمية الجنس الأبيض المترتبة فتنعكس في أنه أصبح وحده يملك ٤ قارات ، بينما يملك كل من الجنسين الآخرين قارة واحدة .

وإذن فلقد جعل الاستعمار أوروبا قلب العالم ورأسه جغرافيا وسياسيا ، وجعل العالم يتمركز حول قبة أوروبا Euro-centric ، وفي نفس الوقت جعل الرجل الأبيض يحاصر الأجناس من خلف ومن قدام ومن خلاف . بل قد يمكننا أن نتحدث عن « أورو قراطية » حقيقية - حكم أوروبا Eurocracy - بمعنى الكلمة ، وعن عصر الأورو قراطية العالمية ، عصر لعبت فيه هذه القارة دور أرسقراطية العالم ، وتصرفت فيه كما لو كان الجنس الأبيض وحده دون الجنس البشرى كله خليفة الله في الأرض ، واتخذت فيه في مجال السياسة والحضارة عقلية وفلسفة أشبه ما تكون بعقلية العصور الوسطى في الفلك والكوزمولوجيا حين كانت تحسب الأرض مركز الكون ومحور المجموعة الشمسية ! .. وإذا كان لهذا التشبيه مغزى ، فهو أن أوروبا كانت تحتقر الجغرافيا وتحتكر التاريخ ، أي كانت ضد الطبيعة ، ومن هنا ستكون سقطتها وانهارها فيما بعد .

وأنت تطالع اقسمظهر لأوربة العالم في أسماء البلاد الجديدة ، فكثير منها أو أغلبها على مختلف المستويات ، من الأقطار إلى المدن ، ليس إلا سميا homonym لأماكن وبقاع من القارة « الأم » . ابتداء من نيوزيلند ونوفاسكوشيا (اسكتلندا الجديدة) ومن قبلها فرنسا الجديدة وإسبانيا الجديدة ، إلى نيوزيلند ونيوسوث ويلز ونيويريتن ونيو أورليانز ومن فتزويلا إلى هسبنيولا .. الخ .. هذا بينما تحمل إفريقيا - أو كانت - أسماء أجنبية أوربية صرفة في كل جنباتها كأنما هي بصمات أصابع اللص يتركها على جسم جريمته .

صراع الأجناس

وقبل أن نحلل تيار الخروج الأبيض العرم هذا إلى روافده وفروعه ، ينبغي ألا نغفل عن حقيقة هامة وخطيرة تعد - ربما أكثر من تجارة الرقيق - نقطة سوداء فاجرة في صفحة الاستعمار الأوربي استيطانيا وغير استيطاني . فهذا التعمير ، هذا الاستعمار الاستيطاني السكنى ، ما قام إلا على أشلاء وأنقاض السكان الأصليين في قارات المهجر ، فقد سحب الهجرة الأوربية وتبعها عملية إبادة رهيبة ، عامدة أو عفوية ، للأهالي الوطنيين ، وصلت بهم في بعض الحالات إلى حد الانقراض . فقد كان على الاستعمار الاستيطاني السكنى لينجح أن ينتزع الأرض الجديدة والحيدة ، ومن ثم أن يطرد منها

أصحابها إلى الأطراف غير الصالحة للسكنى أو للزراعة ، وذلك إما بالحرب والافناء وإما بالمطاردة حتى الانزواء .

يضاف إلى هذا أن دخول الرجل الأبيض إلى وسط بيولوجى مختلف وبمركب باثوجينى مختلف ، حمل معه في حد ذاته عديدا من الأمراض التى لم تكن معروفة في المهجر ولم يكن لأهلها ضدها مناعة ، ولذلك أحدثت الأمراض الوافدة أوبئة رهيبة أفنت مئات الآلاف من الوطنيين . ولا ننسى كذلك دخول الأسلحة النارية والكحوليات والسخرة الأوربية . وكلها من عوامل الموت للوطنيين . وبهذا تكون الهجرة الأوربية قد أتت للوطنيين بعوامل الموت المباشرة وغير المباشرة . من هنا نجد التعدادات تسجل زيادة مطردة في عدد المهاجرين وتناقصا خطيرا في عدد الأهالى ، خطوة بخطوة . وبمعنى آخر فقد أتى التعمير الأوربى عملية دموية إبادية ، وانتهت من احتلال سياسى إلى إحلال جنسى^(١) .

ففي أستراليا وصلت عملية إبادة الجنس إلى حد « صيد رؤوس head-hunting » على منظم - أحيانا كنوع من الرياضة ا . . بينما في تزمانيا انقرض الجنس التزمانى تماما من عالم الوجود . وفي أمريكا الشمالية - تذكر الشعار الأمريكى الخالد « الهندى الطيب هو وحده الهندى الميت »^(٢) - تحول الهندى الأحمر إلى شبح وأسطورة أو على الأكثر إلى عينات متحفية لأجناس بائدة لا يأبه لها أو يحتفل بها إلا الأنثروبولوجيون وهواة الحفريات البشرية وصناعة الأفلام ا . . وقد كان مصير هذه الأجناس مقدورا منذ البداية ، لأن أعدادها الأصلية كانت ضعيفة جدا بالنسبة لتيار المهاجرين ، كما كان مستوهم الحضارى بدائيا إلى حد لا قبل له بمواجهتهم^(٣) .

والحالات الوحيدة التى نجت من هذا المصير الأسود على يد الجنس الأبيض هم ماورى نيوزيلند (٩٠ ألفا) الذين بدأوا أخيرا يتزايدون بعد تناقص ، والأستراليون الذين تقلصوا كثيرا (١٥٠ ألفا) . ثم هناك ممن أفلتوا من الاحتراق بنار الاحتكاك الحضارى وارتطام الأجناس هنود أمريكا الجنوبية والوسطى - اللاتينية بعامة . فنظرا لضخامة عددهم نسبيا (١٢ مليونا) ، مع صلاحية القارة في معظمها للسكنى البيضاء إما بسبب خطوط العرض أو خطوط الكنتور ، فقد حل هنا محل الاحلال الجنسى الخلط الجنسى

Carr-Saunders, World Population, op. cit.

(١)

Whittlesey, Earth & State, p. 508.

(٢)

G. H. Pitt-Rivers, Clash of Cultures & Contact of Races. Long., 1927.

(٣)

الذى لا مثيل له في العالم كله . فهنا يزيد عدد العناصر الخلاسية على العناصر النقية من أى جنس . ولا يمثل البيض الخالص إلا نحو الثلث (١) .

ولهذا السبب فإن أمريكا الجنوبية بوتقة أجناس melting-pot بدرجة أكبر في مداها وعناصرها الجنسية من أمريكا الشمالية . فهي تجمع بين ثلاثة أجناس هي : البيض ، والهنود ، والزنج . بينما أن أمريكا الشمالية بوتقة انصهار للجنس الأبيض وحده أساسا . ومع ذلك فإن العالم الجديد ككل يختلف - كنتيجة لسيادة الاستعمار السكنى الاستيطاني - عن القديم في أنه بوتقة جنسية إلى أبعد مدى .

والخلاصة العامة هي أن استعمار المعتدلات السكنى الاستيطاني في القرن التاسع عشر أخذ صورة صراع أجناس أساسا ، أى كان حركة عنصرية ضخمة . انتهت بإبادة أجناس برمتها وابتزاز قارات بأسرها . وهو بهذا يعود بالبشرية إلى أحط مراحل البربرية والممجية الأولى حين كان صراع الجاعات ينتهى بإبادة المغلوب . ولن يجدى في هذا تحلل الاستعمار أو اعتذاره بأنه لم يكن من المعقول أن تترك تلك القارات البكر بإمكانياتها الهائلة لحضارات قليلة من البدائيين الذين عجزوا عن استعمارها . فليس هذا إلا منطق القوة الغاشمة .

ولكم يبدو غريبا شاذا بعد هذا منطق الاستعمار : بدأ بإبادة الهنود الحمر في العالم الجديد . فلما افتقد اليد العاملة نقل إليه زنج إفريقيا بالجملة . وحين دخل أفريقيا بدأ يهجر إليها الهنود والآسيويين لملأ الفجوة الناجمة - حركة تفرغ ونقل من الشرق إلى الغرب باطراد تشمل وتغطي الكرة الجنوبي من أقصاه إلى أقصاه .

وهذه الحركة القسرية أو التحريك القهرى يكاد بذلك يناظر - بالمناسبة - حركة الجاعات والسكان والأجناس المستمرة عبر التاريخ في نصف الكرة الشمالى في الاتجاه نفسه من قلب آسيا إلى غربها ومن غربها إلى شرق أوروبا ومنها إلى غربها ثم أخيرا من أوروبا كلها إلى أمريكا والعالم الجديد . والحركتان معا - سيلاحظ - تجمعان معا كل ديناميات السكان أو الجنس البشرى تقريبا طوال التاريخ في تيار محورى هائل يدور حول الأرض بأسرها وينصفها من الشرق إلى الغرب باطراد واستمرار ، قل مع حركة الشمس الظاهرية أو عكس حركة الأرض نفسها حول نفسها .

We Europeans, loc. cit.

(١)

على أنه إذا كان لهذا كله من مغزى . فهو الاستعمار السكنى الاستيطاني قد أعاد توزيع البشرية ديموغرافيا وأنثروبولوجيا على ظهر الأرض . وغير الأوزان والألوان التقليدية للقارات . ولم يكد جنس يفلت من هذه العملية . ولكنها في جميع الحالات كانت بفعل الاستعمار الأبيض وحساب الجنس الأبيض .

أما إذا انتقلنا إلى جزئيات الهجرة البيضاء وروافد تيارها . فقد وصلت الهجرة من أوروبا في بعض السنوات إلى نحو مليون نسمة ، وكان السبق الزمني لبريطانيا حتى منتصف القرن . وبعدها وحتى أواخره أصبح السبق لشمال غرب أوروبا عامة . ثم تحولت بؤرة التصدير إلى جنوب أوروبا وشرقها . وقد صدرت بريطانيا خلال القرن نحو ٢٠ مليون نسمة . وإيطاليا نحو ١٠ ملايين . وتأتى بعدهما ألمانيا^(١) .

أما عن الاستيراد . فقد كانت الولايات المتحدة هي أعظم مستقبل (٣٦ مليونا أو ٦٠٪) . كما كان العالم الجديد كله هو المصب الأكبر للتيار (٩٠٪) . وتلى الولايات المتحدة كندا (٧ ملايين) ثم الأرجنتين (٦ ملايين) ثم البرازيل (٤,٥ مليون) ثم أستراليا (٣ ملايين) فنيزويلا (١,٥ مليون) . وأخيرا جنوب إفريقيا (١,٥ مليون)^(٢) .

ومن المهم أن ندرك المغزى السياسى لهذه الهجرة . لقد أضافت إلى هبة أوروبا السياسية وقوتها الاستراتيجية والاقتصادية الشيء الكثير ما في ذلك شك . وبفضلها أصبحت أوروبا سيدة القارات ومحور ارتكاز العالم . ولكن هذه البلاد الأبناء daughter countries لن تلبث أن تستقل إما تماما وإما كدومنيون في حالة بريطانيا . ولذا فهى في النهاية مخصومة من حساب أوروبا وعامل ضعف لها هي ذاتيا . ولقد كانت أكثر الدول الخاسرة هي بريطانيا بعكس ألمانيا مثلا . وكان لهذا بالفعل انعكاسه المباشر على القوة البشرية لكل منها وصراع القوة داخل القارة وخارجها^(٣) .

الاستعمار المدارى

المجال الجديد للاستعمار في القرن التاسع عشر . والذي يرمز « لأصالة » الانقلاب الصناعى بالذات . هو الاستعمار المدارى . فهنا يضرب الاستعمار أرضا جديدة وقف

Maurice Davie. World Immigration; We Europeans, p. 201.

(١)

Kimble. World's Open Spaces, p. 25-6.

(٢)

Fitzgerald. The New Europe, p. 222-3.

(٣)

عاجزا عن ولوجها ثلاثة قرون من قبل . وينقسم هذا المجال إلى دوائر ثلاث واضحة هي :
أفريقيا المدارية - والعالم العربي دون المدارى ، والشرق الأقصى المسمى . ففي هذا القرن
انطلقت أوروبا في موجة مدية عاتية لتبتلع هذه المناطق ، وتم لها ذلك في وقت قصير
نسبيا . وأكثر من هذا في مراحل متعاصرة إلى حد بعيد .

القطاعات الاقليمية

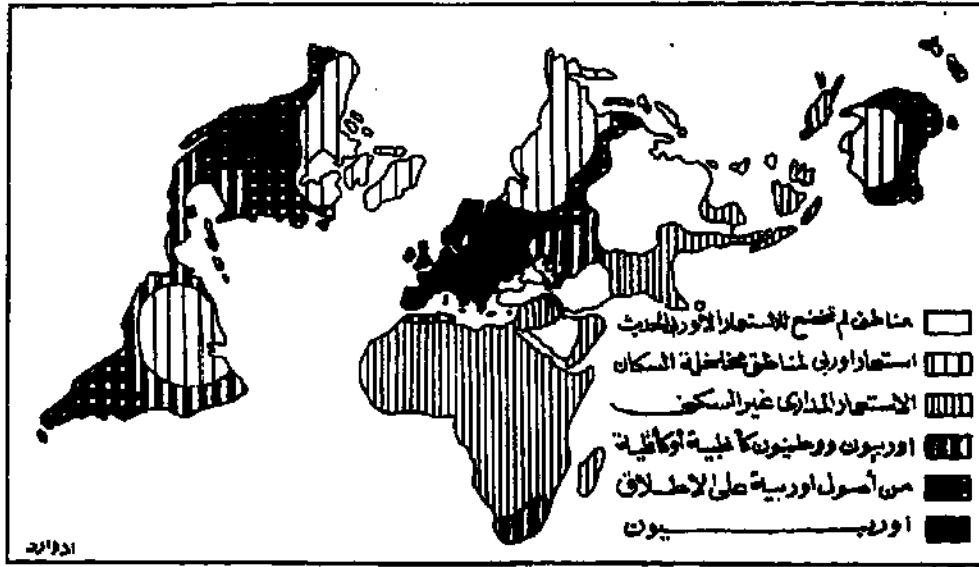
والسؤال المدخل الذى يفرض نفسه منطقيا هو : لماذا تأخر استثمار المداريات إلى هذا
المدى . ولماذا حدث - حين حدث - بتلك السرعة المثيرة . وأخيرا لماذا تعاصرت قطاعاته
في سقوطها له ؟ الذى لاشك فيه أن الاستثمار قد طرق سواحل أو بعض سواحل هذه
المناطق من قبل ، ولكنه ظل يتأرجح معلقا أمامها طويلا مكثفيا « بالاستثمار الديموغرافى »
في أفريقيا ، أو القرصنة شبه الصليبية على العالم العربى ، أو بالتجارة الابتزازية مع الشرق
الأقصى . ذلك لأن حضارة الانقلاب التجارى - وسائل نقله خاصة - لم تكن لتستطيع
أن تمرق به إلى داخل القارات .

ففي أفريقيا المدارية كانت الطبيعة تغلف القارة السوداء بساحل خطى صقيل غير
مضيف تقل فيه المرافئ الجيدة وتتكاثر عليه الأمواج الضاربة Surf ، بينما في أعماق القارة
بأبعادها السحيقة والساحقة معا تسود إما صحراوات قاحلة موحشة وإما غطاءات نباتية
تتكاثف كالأسلاك الشائكة . وحتى أنهار القارة العظيمة هي الأخرى طرق مسدودة أو
شرايين مقطوعة ، وذلك بحكم تركيب القارة ككتلة هضبية ، فقرب مصابها تهوى من
حالتق في شلالات تدفع « تشل » الملاحة والحركة دخولها أو خروجها^(١) .

أفريقيا المدارية إذن كانت للاستثمار صندوقا مغلقا رهيبا ، يدور حوله جيئة وذهابا
ولكنه لا يملك مفاتيحة ولا يملك أن ينفذ إليه . ولهذا ظلت تستمد كل أهميتها طوال العصر
التجارى من أنها عتبة لا عتبة إلى الهند . وبعض هذا ، مضافا إليه البعد الجغرافى
الشديد . يقال عن الشرق الأقصى المسمى . ولكن الانقلاب الصناعى قلب هذا
الوضع . فقد مد أوروبا بالفتاح الحضارى اللازم لقهز هذه البيئات الطبيعية الصعبة . أى
أن الاستثمار عجز عن دخول المداريات بحضارة الانقلاب التجارى ولكنه نجح بحضارة
الانقلاب الصناعى .

Dudley L. Stamp. Africa. N.Y., 1953; W. Fitzgerald. Africa. Lond., 1950.

(١)



شكل (١٣) العالم اليوم كما شكله الاستعمار ووحده « الأوربة ». لاحظ عالمية الجنس الأبيض أو أوربة العالم

أما العالم العربي فله في هذا التحليل وضع خاص . فهو لم يكن بعيد عن موطن الاستعمار الأوربي ، بل هو الجار المواجه مباشرة . ولا هو كذلك بالبيئة الطبيعية المغلقة أو الطاردة . ولكن الذي أعجز الاستعمار دونه إنما هو العامل الحضارى . فرغم كل شيء ، كان للشرق العربي حضارة قديمة عريقة وقوة أكبر من هينة . ومن هنا ظل صامدا للضغوط الأوربية المتزايدة التي تهاوت أمامها - مثلا - حضارة آسيا الموسمية في الهند وجزر الهند . إلى أن كانت طفرة الغرب الحضارية الحاسمة في الانقلاب الصناعى ، فكان هذا إيذانا بعدم جدوى المقاومة . فرة أخرى ، وكما في أفريقيا وإن يكن لأسباب حضارية لا طبيعية ، عجزت أوروبا عن التغلب على العالم العربي بحضارة الانقلاب التجارى ولكنها نجحت بحضارة الانقلاب الصناعى (١) .

ولعل هذا الذى قلناه أن يكون ردا ضمينا على سؤالنا عن سبب تعاصر توقيت الاستعمار المدارى في قطاعاته الثلاثة : فهو قد تأخر في العالم العربي رغم الموقع القريب والبيئة المفتوحة ، أساسا بسبب تماسك وصمود المستوى الحضارى ، أى أساسا بسبب الجغرافيا الحضارية . وهو قد تأخر بنفس الدرجة في أفريقيا المدارية رغم المستوى الحضارى البدالى

(١) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربى ، ص ٢٢ - ٢٣ .

والعجز المادى المحقق . أساسا بسبب البعد الجغرافى والبيئة المغلقة المصمتة ، أى أساسا بسبب الجغرافيا الطبيعية . وفى المنزلة بين المتزلتين يأتي الشرق الأقصى .

أغراض الاستعمار

السؤال الآن : فما أغراض الاستعمار المدارى وأهدافه ؟ وهذه حسمتها الطبيعة مرة واحدة وإلى الأبد . فلم يكن فى هذه العروض المدارية بمناخها المضاد للرجل الأبيض (anticlimes) مجال للاستعمار الاستيطانى السكنى أو التوطن . ولهذا كانت الصبغة السائدة بالضرورة هى الاستعمار الاستغلالي أو الاستراتيجى . وثمة عامل يعمل فى نفس الاتجاه ويجب كل فرصة للاستيطان وللإستعمار السكنى . ونعنى به العامل السكانى .

فهذه كلها مناطق قديمة العمران . كثيفة السكان ، وبعضها عريق الحضارة ، فليس فيها طاقة أو كوة لدخيل يستوطن . وحتى فى أديانها حضارة لم يكن هناك أى احتمال لإبادة الجنس والاحلال الجنسى كما عرفت المعتدلات الجديدة أو مداريات العالم الجديد . ففى أفريقيا كانت حيوية الجنس الزنجى ، وهى التى هزمت تجارة الرقيق والاستعمار الديموغرافى من قبل ، كقيلة بأن تهزم أى مشروع للاستعمار السكنى الاستيطانى .

ومع ذلك فثمة جيوب من أفريقيا المدارية وخارج المدارية معا لم تنجح من الاستعمار السكنى الاستيطانى : فى أفريقيا المدارية جزر الكنوتور المرتفع التى تصحح المناخ للأبيض (alticlimes) ، وأفريقيا خارج المدارية فى قطاعات المناخ دون المدارى أو المناخ المشابه لجنوب أوروبا (homoclimes) . فالأولى تتحدد فى نطاق المرتفعات الهضبية الممتدة بتقطع من كتلة الحبشة حتى (ما كان وديسيتين ، حيث حوله الاستعمار إلى « المرتفعات البيضاء » وحاول أن يتوطن فيها ببضع مئات من الآلاف موزعة هنا وهناك لاسيما فى كينيا وروديسيا الجنوبية . أما الثانية فتتحدد فى الشمال بشبه جزيرة المغرب الكبير ابتداء من ليبيا حتى المغرب ولكن الجزائر بالذات . وهنا وصل الإستعمار الاستيطانى السكنى فى مجموعته إلى المليونين تقريبا . ثم هناك جنوب أفريقيا فى طرف القارة حيث زرع الاستعمار ثلاثة أو أربعة ملايين من المستوطنين .

وفى عدا هذا الشلوذ الذى يؤكد القاعدة ، فقد كانت حوافز الاستعمار المدارى أساسا هى الاستغلال أو الاستراتيجية أو كليهما معا . وبصورة عامة يمكن أن نغلب الاستعمار الاستراتيجى على الاستغلالي فى العالم العربى ، وإن لم يبلغه مطلقا . والعكس

صحيح في أفريقيا المدارية والشرق الأقصى ، فهناك يأتي الاستغلال في الدرجة الأولى وتراجع الاستراتيجية إلى الصف الثاني .

وتغليب الأهداف الاستراتيجية في العالم العربي ، لاسيما منه المشرق ، إنما يرجع بطبيعة الحال إلى موقعه الجغرافي البؤري الحاسم الذي أصبح مركز ثقل العالم القديم بلا منازع بعد شق قناة السويس في أواسط القرن . فقد أصبح العالم العربي هو عتق الزجاجة في طريق الاستعمار إلى الشرق الأقصى جميعا وبوابة الإمبراطورية - أي إمبراطورية - و « خط الحياة » للإمبريالية .

الاستعمار الاستغلالي

في ضوء هذا التحديد والتوجيه ، أصبح حجر المغناطيس في الاستعمار المداري في العصر الصناعي هو موارده الخام الثمينة الرخيصة معا ، زراعية ومعدنية ، غابية أو سكانية . وبعدها تأتي السوق المحتكرة المضمونة لتصريف منتجاته وخاصة سلعه الرخيصة الرديئة . وسوق المستعمرات وإن كانت فقيرة في قدرتها الشرائية فهي تعوض بضخامة حجمها .

وتجربة الاستثمار الاستعماري لم تخرج يوما ، وباعتراف كتابه ، عن اقتصاد هدمي ابتزازي سافر Raubwirtschaft ، لم يكتف بأن يسرق السكان بل والطبيعة أيضا . فقانونه هو امتصاص زبد الاقليم skim the cream حتى يتركه زبدا وغشاء أحوى . حتى الزراعة الاستعمارية ، الأبعاديات التي هي مشروع صناعي بقدر ما هي عملية زراعية ، وصفت بأنها زراعة تعدينية . mining agric. أي تخريبية هدمية ببساطة (١) . ميكانيكية الاستعمار باختصار أنه مضخة ماصة في المستعمرات ، كابسة في المتروبول ، ورياضياته عملية طرح هنا وجمع هناك .

الاستغلال إذن هو بوصلة الاستعمار المداري وقلته . وإذا كان هذا الاستعمار قد وجد محركه في الانقلاب الصناعي ، فإنه سرعان ما أصبح وقوده وبخار آله الضخمة . فن المحقق أنه لولا موارد المستعمرات ومكاسبها القلكية التي ذهبت لتنصب في تراكم رأس المال الأوربي ، لما وصل التطور الصناعي - بكل ما يعنيه من تطور حضارى ومعيشى ونمو

(١) Karl J. Pelzer, Geog. & the Tropics, in : Geog. in 20th Century, Lond., 1951, p. 321.

في القوة .. الخ - إلى ما وصل إليه . فبقدر ما كان الاستعمار تزييفا اقتصاديا رهيبا أصاب المداريات بالشلل الزاحف . كان يضح في الاقتصاد الأوربي ما لا يمكن حصره بل تخيله من آلاف المليارات من الجنيهات .

وقد كان طبيعيا لذلك أن ينتهي الاستعمار إلى تقسيم عمل يحتكر فيه الحرف الثانية (الصناعة) والثالثة (التجارة) وهي التي تدر أعلى الدخول ، ويفرض على المستعمرات الحرف الأولية (الزراعة والتعدين) التي لا تكاد ترد من الدخل إلا الفتات . وبهذه القسمة غير السلمانية الضيزى احتكرت أوروبا لنفسها دور مصنع العالم وأبقت على المستعمرات كمزرعة له ، وبه أيضا أصبحت هي مدينة العالم والمستعمرات ريفه . وهذا هو التكامل الاقتصادي الذي زعمه الاستعمار . والحقيقة أن الاستعمار كان ينظر إلى المداريات على أنها « أقاليم تكيلية Ergaenzungsraeume » كما سماها الجغرافيون الألمان^(١) ، تكمل عروضه المعتدلة ، ومن ثم مجال حيوي لأوروبا Lebensraum . وفي أفريقيا مثلا كان الاستعمار يتشدد بأنه شركة تعاونية بين « العقل الأبيض والعصل الأسود White brain & black brawn »^(٢) . وعلى هذه الدعاوى رتب أنه « زواج سياسي » بين المتروبول ، أي الدولة الأم ، وبين المستعمرة التابعة !

ولكن الحقيقة الموضوعية المحايدة هي أن المداريات لم تكن أكثر من سندرلا أوروبا ، وأن الاستعمار لم يكن إلا شركة ابتزازية غير مقدسة ، أما العلاقة السياسية المفروضة فليست إلا اغتصابا سياسيا داعرا . وإذا صح أن المداريات كانت المجال الحيوي لأوروبا ، فإنها في معنى حقيقي جدا مجال الموت Todesraum لأبنائها هي^(٣) . ولئن صح كذلك أن الاستعمار خلق كأمر واقع « أورافريقيا » وغير أورافريقيا ، فإنها لم تكن في الحقيقة إلا نوعا من « أوروبا العظمى » ، لم تكن فيه أفريقيا وغيرها إلا ظلا أسود للقارة البيضاء . أو ضاحية ضخمة للمتروبول وشرنقة استعمارية منتفخة حول نواته الكثيفة .

العنصرية

وهنا نجد أن الاستعمار قد « ارتقى » في هذه المرحلة عما كان عليه في مرحلة الموجة الأولى ، فاستبدل بالإبادة الاسترقاق ، ثم استبدل بهذا الاستعمار السياسي ، ثم سنجده

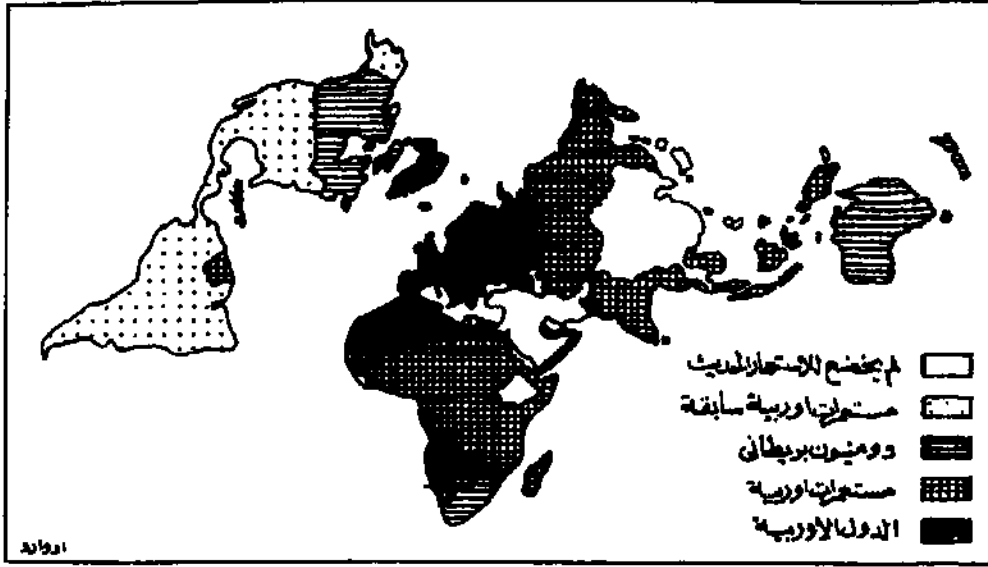
Ibid.. p. 314.

(١)

D. Westermann. The African Today & Tomorrow. Lond., 1939. p. 3.

(٢)

(٣) فايفيلد وبيرسى ، الجيوبولتيكا ، ج ١ ص ١٥٧ .



شكل (١٤) الاستعمار العالمي في ذروته ١٩١٤ . مناطق ثلاث فقط نجحت من الاستعمار : اليابان ، الصين ، وجزء من الشرق الأوسط

مع الاستعمار الجديد يستبدل بالاستعمار السياسي الاستعمار الاقتصادي . ولكن يظل الجميع على خط النسب المباشر الذي ينحدر من صراع الإبادة ، ويظل الاستعمار في صميمه صراع أجناس Rassenkampf وحركة عنصرية من الناب والظفر برهانها الوحيد .

ومن الحقائق الجديرة بالتأمل والتي تؤكد هذا الذي نقول عن عنصرية الاستعمار وصراع الأجناس ، أن الاستعمار كله ما تم إلا على يد أوروبا وما تم إلا خارجها . فلم يحدث في التاريخ الحديث أن استعمر جزء من أوروبا باستثناء نقط من الاستعمار الاستراتيجي في جبل طارق ومالطة وقبرص . وفيما عدا هذا ، فقد تشتعل الحروب الدامية داخل أوروبا ، ولكنه احتلال عسكري مؤقت أو تسوية حدود داخل إطارات القوميات ، ذلك الذي يحدث . أما أن تستعمر دولة أو شعوب دولة أو شعبا أوريبيا آخر فهذا قط لم يحدث . لقد كان الاستعمار - بوضوح - صناعة أوريبية مسجلة ولكنها للتصدير إلى خارج أوروبا فقط وغير قابلة للاستهلاك المحلي بحال .

ولقد كان الاستعمار في أوج بطشه يبرر نفسه - متبجحا - بنظريات القهر والتفوق العنصري ، حتى إذا استشعر نهايته وطارده عقدة الذنب بحث - منافقا - عن التبرير في نظريات الإنسانية والأخوة ! وبين النقيضين خرج من النظريات ما يندى له اليوم جبين العلم والحقيقة خجلا . فن نظريات القهر والتفوق بدأ بتقسيم حضارى للأجناس أو تقسيم

جنسى للحضارات . فزعم مرة أن « الرجل الأصفر يعيش في الماضي ، والأسود في الحاضر ، أما الأبيض فيعيش في المستقبل »^(١) . ومرة أخرى وضع نظرية « الأجناس الأطفال » . وأخيرا انتهى الاستعمار مع العنصرية النازية إلى تصنيف بيولوجي للأجناس يميز بين الأجناس السادة Herrenvolk وهم البيض ، والأجناس الفعلة Hilfenolk وهم « الملونون » . وكلا جعل مراتب ودرجات !^(٢) .

وإذا كانت عنصرية الاستعمار في عنفوانه سافرة بلا حياء ولا خجل ، فهي لم تفعل في شيخوختها إلا أن تقنعت بنقاب الرياء والزيغ دون أن تغير جلدها ، فكانت النظريات « الإنسانية والأبوية Paternalism » في الاستعمار (كذا) مثل « عبء الرجل الأبيض Whiteman's burden » ورسالة الحضارة « والأب الأبيض White Father » أو « الأخ الأكبر Elder Brother » ... الخ^(٣) . ولكن هذا جميعا منطوق تبرير فجع لا يبرر أكثر مما يبرئ ، ويظل الاستعمار وصمة في جبين المستعمر أكثر منه في جبين المستعمرات وعار أوروبا أكثر منه عار المداريات ، ويظل في النهاية ظاهرة عنصرية جنسية بحتة . ويكفي أن يتحدث بعض الكتاب الأوربيين أنفسهم عن « السجل المأساوي القدر لعملية الأوربة » وعن « قصة الأوربة التعسة »^(٤) .

G. Montandon, Traité d'Ethnologie, Paris.

(١)

(٢) فايفيلد وبيري . ج ١ ، ص ١٧٨ .

N. Sithole, African Nationalism, Cape Town 1959, p. 122.

(٣)

Cole. p. 47, 49.

(٤)

الفصل السابع

نماذج من الاستعمار المدارى

أفريقيا

التكالب

لنتنقل الآن بشيء من تفصيل إلى تحليل حركة الاستعمار فى كل قطاع من المداريات على حدة . ولنبدأ بأفريقيا المدارية . كان مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ ، الذى أجمعت فيه القوى الأوربية على أن الادعاءات الاستعمارية فى أفريقيا لا تكون إلا بالاحتلال الفعلى الواقع ، إشارة البدء بسباق جنونى مسعور على القارة . هذا هو « التكالب » المشهور Scamble for Africa . وجاء الزحف كاسحا بصورة لم تعرف بالقطع فى التاريخ ، حتى فى العالم الجديد . فى مدى عقد واحد كان قد تمحدد كل شيء .

فى سنة ١٨٩٣ ، أى بعد عقد واحد من مؤتمر برلين ، كانت كل القارة قد اقتسمت بين القوى الأوربية وانخفضت نسبة المساحة المستقلة فيها من ٩٥٪ فى سنة ١٨٨٥ إلى ٨٪ فى سنة ١٩١٠ (١) هذا بينما فى آسيا لم يصل الاستعمار إلى منتهى رقعته إلا على مدى فترة طويلة ، كما أنه لم يتعد فيها فى حده الأقصى إلا قطاعا معينا من القارة . أما أفريقيا فإنها تنفرد بين القارات الجنوبية بأنها الوحيدة التى خضع أغلبها ، وفى وقت ما لم يكن دولة مستقلة - ولكن شكليا - إلا لبيريا . وبهذا كانت أفريقيا هى القارة المستعمرة أو المستعمرة القارة بالضرورة ، كانت أكبر مستعمرة منفردة فى العالم وأضخم معمل للتجارب الاستعمارية فى التاريخ .

والذى شارك فى هذا التكالب هو دول أوروبا البحرية بالذات ، لكن مع تخلف واستبعاد بعض القوى القديمة كهولندا والدنمرك ودخول بعض القوى الجديدة كألمانيا

وإيطاليا وبلجيكا . وقد كان الصراع في أفريقيا انعكاسا للصراع في أوروبا ، وتحددت نتائجه بأقدار وأوزان تلك القوى في قارتها ، كما أن هذه النتائج بدورها أكدت تلك الأقدار والأوزان والهيبة فإما ضاعفتها وإما أضعفتها . ففازت القوى الكبرى بنصيب الأسد ، وخرجت القوى الصغرى بفئات المائدة .

ولقد كان الحد الأقصى من التوسع هو الهدف المباشر للجميع ، يضاف إليه الوصول بقدر الامكان إلى الأنهار الرئيسية ، وإن أمكن كذلك تحقيق الاتصال الأرضي بين مستعمرات كل قوة . وفي هذا التوجيه ، بدأ الهجوم على القارة من جميع الجهات تقريبا . وعدا القوة المباشرة ، كان للمقايضات الإقليمية والمساومات ، والمبادلات والتفاهات ، دورها مثلما كان للعداوات والتحديات ، والمخالفات والمصادمات .

وبوجه عام كانت الصدامات الأكثر خطرا هي تلك التي دارت بين القوى الكبرى كبريطانيا وفرنسا وألمانيا ، بينما كانت القوى الصغرى تعتمد إما على نوع من الرعاية أو حتى الحماية الصامتة من بعض القوى الكبرى (مثل البرتغال بالنسبة إلى بريطانيا) ، وإما على « تحييد » القوى الكبرى لبعضها البعض (مثل بلجيكا بين بريطانيا وألمانيا) . وبصفة عامة يمكن أن نقول إن كل الصراع الاستعماري في أفريقيا لم يصل أبدا إلى حد الحرب وإن أشرف أحيانا على المبارزة^(١) . والمغزى هام وخطير : فللاستعمار حتى يعيش « وحدته » ، وعلى التناقضات أن تتراجع في النهاية أمام وحدة المتآمرين !

صراع القوى

ولقد بدأ التوغل ببريطانيا ، وبدأت بريطانيا التوغل من قواعدها الساحلية في غرب أفريقيا حيث حققت توسعا « بحريا » يتمثل في عدة مستعمرات متوسطة الأحجام ولا تتعمق كثيرا في الداخل فضلا عن أنها منفصلة عن بعضها البعض^(٢) . كذلك دخلت ألمانيا بإسفينين منفصلين في توجو والكامرون . أما فرنسا فقد دخلت من الكوة أو البوابة الحقيقية لغرب أفريقيا وهي ذلك الشريط السفاني المحصور بين الصحراء شمالا والغابة جنوبا . وقد قادها هذا إلى الشارع الرئيسي للحركة في غرب أفريقيا وهو نطاق

Whittlesey, p. 331-341.

(١)

R.W. Steel, Some Problems of Population in British West Africa, in Geog. Essays on British Tropical Lands, Lond., 1956, p. 27 et seq.

(٢)

السودان^(١) . فاندفعت فيه شرقا واندفعت منه جنوبا لتدخل إقليم غانه من الباب الخلفي ولتلا الفجوات الأرضية الواسعة بين الأسافين البريطانية والألمانية .

وبهذا أصبح النمط السياسي متداخلا على التوالي : مستعمرة فرنسية فبريطانية .
ففرنسية فألمانية ، ففرنسية فبريطانية ، وهكذا . وهنا أيضا نرى « قارية » التوسع الفرنسي واضحة كل الوضوح . لا سيما أن خلف ذلك جميعا كانت تترامى لفرنسا إمبراطورية عسكرية قارية صحراوية بدأتها من الجزائر من قبل . وكما دخلت فرنسا من شمال غرب أفريقيا ، دخلتها بريطانيا من شمالها الشرقي في مصر حيث اتخذتها قاعدة للتوسع في السودان النيل .

وفي شرق أفريقيا بدأت بريطانيا بمستعمرة في كينيا وأوغندا ، لم تلبث أن اتصلت بمستعمراتها النيلية في الشمال . ولم تلبث أن ناظرتها ألمانيا بمستعمرة واسعة في تنجانيقا ، بينما أغلقت بلجيكا جذع القارة من الغرب بمستعمرتها الضخمة في الكونجو . وإلى الجنوب من هذا كانت البرتغال تتوسع من شريطها الساحليين القديمين لتكون موزمبيق وأنجولا . وفي نفس الوقت كانت بريطانيا ، بعد أن انتزعت الكاب من هولندا في الحروب النابليونية ، قد اتخذت منها رأس حربة للاندفاع إلى قلب القارة شمالا على طول العمود الفقري للمرتفعات والهضاب السافانية . بينما ملأت ألمانيا الفراغ على الساحل الغربي بين الكاب وأنجولا بجنوب غرب أفريقيا .

وهنا حاولت كل من ألمانيا والبرتغال أن تصل ما بين أراضيها شرقا وغربا لتخلق الطريق على التوسع البريطاني : ألمانيا ما بين تنجانيقا وجنوب غرب أفريقيا ، والبرتغال ما بين موزمبيق وأنجولا . ولكن كانت اليد العليا لبريطانيا ، فنجحت في أن تتمدد شمالا عبر الروديسييتين . إلا أن هذا كان معناه - في الحقيقة وللغرابة - « إمبراطورية داخلية » لبريطانيا القوة البحرية أساسا وبالضرورة ، وصاحبة الاستعمار الساحلي بامتياز^(٢) على أنها لم تر بأسا أن تعتمد على المستعمرات البرتغالية كمخرج ، وذلك لصدقتها التقليدية بل حمايتها الحقيقية للبرتغال . وبعد هذا بدأت بريطانيا تتطلع إلى حلم ضخم هو طريق الكاب - القاهرة في محاولة عظمى لربط مستعمراتها في أقصى شمال وجنوب القارة على محور طولى هضبي في الجنوب نيلي في الشمال .

Fairgrieve, op. cit., p. 278-9.

(١)

G. Hamdan, "Political Map of the New Africa", Geog. Review, Oct. 1963, p. 425-6.

(٢)

وقد اصطدم هذا المشروع مع مشروع مماثل - ولكنه عرضي - لفرنسا للتوسع على طول محور الساقانا عبر السودان الأوسط حتى يصل عبر السودان النيل إلى جيبها الصغير في الصومال الفرنسي على البحر الأحمر. وكان اللقاء بين الأسد والعمر في سفانا فاشودة : فكانت « الحادثة » المشهورة التي حسمها في الحقيقة توازن الأساطيل الحربية في الأطلسي أكثر منه توازن الكتائب المتوغلة في أفريقيا^(١). فتراجعت فرنسا وتمحط المحور العرضي الفرنسي ، ليسود المحور الطولي البريطاني ، إلا من حلقة في شرق أفريقيا لم تلبث أن استكملت في الحرب الكبرى الأولى حين آلت تنجانيا إلى بريطانيا التي تقاسمت مع فرنسا مستعمرات ألمانيا المنهزمة .

التكالب الثاني

لم يبق بعد ذلك إلا القرن الإفريقي الذي تتوسطه وتسوده الحبشة التي استطاعت بنوع من المضاربة Stalemate أن تحتفظ باستقلالها الحرج نتيجة للصراع المثلث بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا هناك . وقد حدث هنا في الواقع تكالب صغير يعرف محليا « بالتكالب الثاني Second Scramble »^(٢) تقاسمت فيه القوى الثلاث الصومالات الثلاثة وإرتريا . وحاولت إيطاليا غزو الحبشة ولكنها هزمت في معركة عدوه ، حتى عادت في ثلاثينات القرن العشرين ، فسقط آخر معقل مستقل في أفريقيا . إلا أن هزيمة إيطاليا الأولى لم تنس قط وكانت صفة لادعاءاتها الإمبراطورية وهيبتها في ميدان القوة ، إذ أنها كانت أول قوة أوربية تهزم في العصر الحديث على يد غير أوربية وتسبق في هذا هزيمة روسيا على يد اليابان .

طبقات الاستعمار

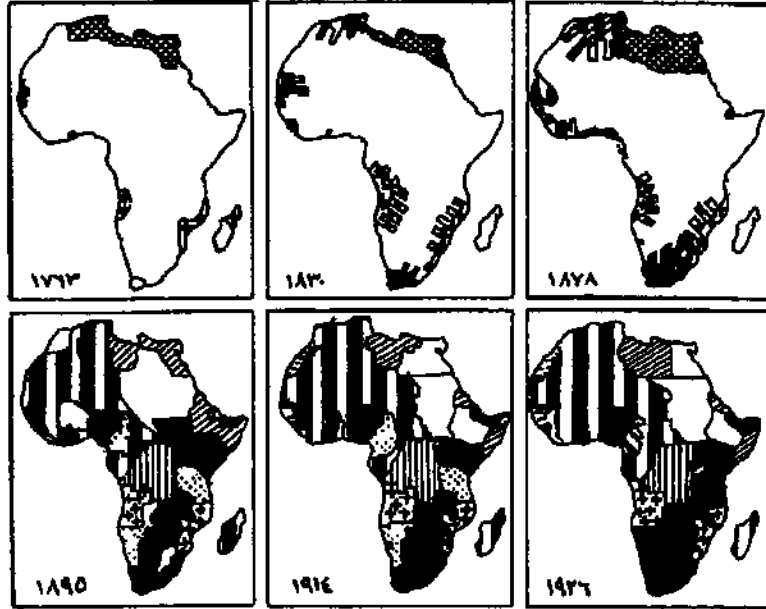
وإذا نحن الآن حللنا المحصلة النهائية للصراع كما أخذت شكلها النهائي بعد الحرب الكبرى الأولى ، فسنجد أن بريطانيا هي التي خرجت بنصيب الأسد مسيطرة على نحو ٤٥٪ من سكان القارة وموزعة في وحدات كلها من أغنى مناطق أفريقيا طبيعيا واقتصاديا . إنها « الإمبراطورية الثالثة » لبريطانيا بعد أمريكا سابقا والهند لاحقا . ثم تلى

Fairgrieve, p. 279.

(١)

J. Drysdale. The Somali Dispute, Lond., 1964, p. 25.

(٢)



شكل (١٥) زحف الاستعمار على أفريقيا : مرحلة طويلة من الاستعمار الساحلي والديموغرافي بصمها «الرق» ، ثم مرحلة خاطفة من الاستعمار الداخلي والجغرافي بلخصها «التكالب»

فرنسا بنحو ٢١٪ من السكان^(١) في مساحة مترامية ، لكن رقعة ضخمة جدا منها صحارى وأشباه صحارى . هذان إذن هما : « الاستعمار الكبير » ، ينتشر في كل أركان القارة وفي أغلب أقاليمها الطبيعية ، في النصف الشمالى والجنوبى ، شرقا وغربا على السواء .

أما « الاستعمار الصغير » - وهو محلى التوزيع كقاعدة - فتمثله إيطاليا التي خرجت « بصندوق من الرمال » في الأعم الأغلب ، داخل بقدر ما هو ساحلى ، ويطل على البحرين المتوسط والأحمر ، ويتألف من أربع وحدات تلتئم في كتلتين منفصلتين . وتأتى البرتغال بوحديتين كبيرتين وإسفينين قزميين . ولكن إذا كان الاستعمار الإيطالى هو أحدث استعمار فى القارة ، فالبرتغال أقدمه إطلاقا (خمسة قرون) . وإذا كانت مستعمرات إيطاليا لفقرها أعجز من أن تتلقى الاستعمار ، فإن البرتغال على العكس قوة أعجز من أن

United Nations, Review of Econ. Conditions in Africa. 1951.

(١)

انظر أيضا : جمال حمدان ، أفريقيا الجديدة ، دراسة فى الجغرافيا السياسية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

تتحمل أو تستثمر مستعمراتها . ومن الناحية الأخرى فإن إمبراطورية إسبانيا في أفريقيا لا تخرج عن إمبراطورية جيوب وأسافين هزيلة فقيرة مشتتة ما بين المغرب وخليج يافرا . هي إمبراطورية رمزية بحتة ، وميكروسكوبية عند ذلك .

لا يبقى إلا دول المستعمرة الواحدة . ثمة منها بلجيكا التي لا تملك في العالم إلا الكونجو . لكن الكونجو قد يكون أغنى مستعمرة في أفريقيا اقتصاديا (١) ، كما يبلغ ٥٠ مرة مساحة بلجيكا على أن هنا حالة أخرى لقوة صغرى تستعمر ولكنها وحدها أعجز عن أن تستعمر . ثم هناك الولايات المتحدة في ليبيريا ، وكالمألوف مع الولايات ، ليس هذا استعمارا رسميا بل علاقة مثل عليا وفروسية سياسية ، ترجع إلى محاولة توطين الرقيق الأمريكي المحرر العائد ، وترجم في الواقع إلى استعمار غير رسمي كما يعترف الكتاب الأمريكيون أنفسهم (٢) !

الشرق الأقصى

شهد القرن التاسع عشر مسرحا جديدا للصراع الاستعماري في الشرق الأقصى في ثلاث دوائر : الهند الصينية بما فيها الملايو ، والصين لا سيما سواحلها ، وجزر الأوقيانوسية المتناثرة . فأما الهند الصينية فهي - ابتداء - لم تخضع لأي قوة خارجية من جهة القارة طوال التاريخ فيما عدا بعض فترات من السيطرة الصينية . والفضل في ذلك يرجع إلى طبيعتها الجبلية الغابية المنزلة . إلى أن جاء الاستعمار البحري : فأخذ يحوم حول المنطقة منذ القرن السابع عشر حين بدأ يعمل في شبه القارة الهندية ، إلا أنه لم يتدعم إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وكانت القوى الاستعمارية هنا هي بريطانيا وفرنسا ، وقد بدأ ضراعها المتبادل في الهند حتى إذا انتهى فيها انتقل إلى الهند الصينية ليصبح هو النغمة السائدة في كيانها السياسي .

الهند الصينية

فقد انجذبت فرنسا إلى الهند الصينية نتيجة لطردها من الهند وتعويضها عنه ، واستطاعت منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى أواخره أن تكون لنفسها مستعمرة الهند الصينية

Church, Modern Colonisation, p. 4.

(١)

G.T. Renner, Africa: A Study in Colonialism, in: World Political Geog., ed, Percy & Filiekl.

(٢)

N.Y. 1951, p. 411.

الفرنسية بأقسامها المختلفة . أما بريطانيا فقد تبعتها امتدادا لوجودها في الهند ، فن هناك انساحت تلقائيا إلى بورما حيث كونت مستعمرة ضمتها إلى الهند حتى فصلتها في أخريات أيامها بها . كذلك توسعت بريطانيا من الجنوب من سنغافوره التي اشترتها في ١٨١٩ بأجنس ثمن والتي أصبحت قاعدة ونواة لإخضاع الملايو حتى أصبحت مستعمرة بريطانية خلال القرن ، لكن دون أن تتصل أرضيا ببورما^(١) .

وهكذا بقي بين شقي الرحي نواة شبه جزيرة الهند الصينية - سيام . فأصبحت هدفا لضغوط توسعية عنيفة من الشرق والغرب ، حتى انفقت القوتان للثناستان على « تحييدها » في آخر القرن التاسع عشر (١٨٩٦) لتكون دولة جاجزة تحفظ التوازن بينهما وتمنع الاصطدام . وبهذا أصبحت سيام - التي لم تستعمر قط من قبل في التاريخ - الوحدة الوحيدة في جنوب شرق آسيا التي نجت من الاستعمار الأوربي الحديث . ومن هنا غيرت اسمها إلى تايلاند أي أرض الأحرار . ولكن دور الدولة الحاجزية هو تقليديا دور المضاربة stalemate بين القطبين المتناخمين وذلك حتى تحفظ استقلالها^(٢) . وهكذا كان . فقد ظلت تايلاند مسرحا للمؤامرات الاستعمارية والدسائس المزمنة ، فكانت بمثابة « أفغان موسمية » .

الصين

ولا بد أن نشير هنا إلى الصين في مجال النشاط الاستعماري الأوربي في الشرق الأقصى ، فاستعمار هذا العملاق - ناعما أو غير ناعم - لم يكن قط مجال تفكير الاستعمار الأوربي ، وهو في الواقع أحد منطقتين اثنتين في العالم كله (ثانيتهما هي شرق الشرق الأوسط) أفلتتا من الاستعمار بشكله المطلق^(٣) . غير أن توغل النفوذ الأجنبي كان ممكنا على السواحل . وبالفعل أرغمت القوى الأوربية الصين على فتح أبوابها وموانئها للنفوذ والامتيازات الأجنبية ، وذلك بعد حرب الأفيون في أربعينات القرن التاسع عشر . وكنتيجة لهذا انتزعت بريطانيا هونج كونج ، وظهرت مناطق الامتيازات المعروفة Extra-territorialities . ومنذ ذلك الحين كانت سياسة القوى الأوربية هي الإبقاء على الصين كمجال مفتوح لنفوذها جميعا ، وهي ما تعرف « بسياسة الباب المفتوح open-door policy »^(٤) .

Cressey, Asia's Lands & Peoples, p. 494 ff. (١)

Ibid., p. 509. (٢)

Cole, p. (٣)

Dorothy Woodman, A.B.C. of the Pacific, Penguin Books, 1943, p. 34-5. (٤)

الأوقيانوسية

أما في الأوقيانوسية - هذا الأرخييل السديمي المتراعى كنهج حجرة في غرب الهادي - فقد كان مجالاً سهلاً للسيطرة البحرية الأوربية في القرن التاسع عشر. فحوالي منتصف القرن كانت فرنسا قد استولت على مجموعة من الجزر أهمها نيوكاليدونيا ، بينما تأخرت نيوهبرديز إلى العقد الأول من القرن الحالى حين اقتسمتها فرنسا مع بريطانيا . وإلى الشمال كانت إسبانيا قد وضعت يدها على جزر كارولين وماريانا في العقد السابع من القرن ، بينما استولت ألمانيا على جزر مارشال في العقد التالى . ولكن بعد الحرب الإسبانية - الأمريكية في نهاية القرن باعت إسبانيا جزرها لألمانيا فيما عدا جوام التي آلت إلى الولايات المتحدة . ثم فقدت ألمانيا بدورها تلك الجزر لليابان بعد هزيمتها في الحرب الأولى ، إلى أن فقدتها اليابان بدورها للولايات المتحدة بعد هزيمتها في الحرب الأخيرة^(١) .

العالم العربى^(٢)

وضع خاص

عود على بدء

للاستعمار الحديث في العالم العربى ، كما للعالم العربى بدوره في الاستعمار الحديث ، وضع خاص شبه متفرد . فهو ، أولاً ، عودة أكثر مما هو بدء ، عود على بدء يعنى . ذلك أن للاستعمار الأوربى مع العالم العربى جولة وربما جولات دامية ودرامية سابقة ولقاءات عاصفة هوجاء ومريرة ليس فقط في العصور الوسطى والحروب الصليبية ولكن أيضاً قبلها في العصور القديمة ذاتها أيام الكلاسيكية والاستعمار اليونانى والرومانى . وبالتالي فإن الاستعمار الأوربى الحديث هنا في القرن ١٩ إنما يلتقط طرف الخيط الذى ألقى به لآخر مرة مع نهاية وانحسار الصليبيات .

وهذا الوضع كله يختلف بالطبع جذرياً عن سائر مناطق المداريات أو أكثرها حيث كان الاستعمار الأوربى طارئاً وافداً لأول مرة في القرن ١٩ أو على الأكثر في العصور

(١) الجيوبوتيك ، ج ٢ ، ص ٢٠ ، ١٧٦ .

(٢) جيان حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربى ، ص ٢٦ - ٣١ .

الحديثة . فالاستعمار الأوربي في العالم العربي « وباء راجع » ، فيما هو في المداريات « وباء وافد » كما يمكن أن نشبهه أو نستعير . أما لماذا ، فلا لشيء بالطبع سوى أن هذه المناطق الأخيرة كانت من الجاهل ولم تعرف إلا بعد الكشوف الجغرافية .

النذ الوحيد

ثانيا ، العالم العربي ، ربما بمعناه الموسع الذي يضم قطاعا من العالم الإسلامي كتركيا ... الخ ، هو المنطقة الوحيدة في العالم خارج أوروبا التي تعد ندا كفتا لها ومنافسا خطيرا ليس فقط تاريخيا وحضاريا ولكن أيضا سياسيا وحربيا ومن حيث القوة . ولقد كانت الصليبيات بالتحديد هي آخر مظاهر ومراحل هذه الندية والتكافؤ ، حيث ردت المنطقة الغزوة الأوربية الكاسحة على أعقابها مدحورة مكسورة . بل إن العالم العربي هو المنطقة الوحيدة قبل وخارج أوروبا التي كانت في وقت ما القوة العظمى الأولى في العالم ، وأحرزت لنفسها السيادة العالمية قرونا وأجيالا ، وأخضعت مناطق شاسعة خارجها بما في ذلك أجزاء من أوروبا نفسها . وفي كل الأحوال ، فإن العالم العربي وحده ، جنبا إلى جنب ، مع أوروبا هما فقط المنطقتان الوحيدتان في العالم اللتان تنازعتا أو تناوبتا أو شاركتا في السيادة العالمية عبر التاريخ وفي تأسيس الإمبراطوريات والفتح والتوسع السياسي ، فضلا عن خلق الحضارة الراقية بالمعنى المفهوم .

لهذا فقد كان حتما أن يكون للقاء الجديد أو المجدد في العصر الحديث حسابا خاصا جدا فائق الخطر لأنه كان جزئيا تصفية حسابات قديمة مؤجلة ومتراكمة ومعقدة . ولهذا كان اختراق العالم العربي بالذات هو التحدي الأكبر للاستعمار ، بدونه لا تكتمل له السيادة العالمية حقا ، وبه وحده يتحقق التوزيع القمّي لرحفه . وبالمقابل ، فلم يكن صدفة أن تبدأ نهايته في المنطقة وأن يكون مقتله على يدها .

المسحة الصليبية

ثالثا ، وأخيرا ، فليس من سبيل إلى الشك في ، أو التهرب من ، أن جزءا من هذه التصفية وهذه الهجابه اتخذ بالضرورة مسحة دينية معينة بقدر أو بآخر . فكقلب العالم الإسلامي ورأسه وطلبعته ، وكما حدث في العالم الإسلامي ككل ولكن من باب أولى

بالطبع ، أخذت موجة الاستعمار الأوربي الحديث في المنطقة من جديد شكل مواجهة بين الإسلام والمسيحية . كانت ، يعنى ، ذات ظلال وإشعاعات صليبية بالضرورة . وفى هذا المعنى فلعل قولة الجنرال الفرنسى جورو فى دمشق « ها قد عدنا بإصلاح الدين » ، والجنرال أللنبى البريطانى فى القدس « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، أن تكون رازمة ومؤثرة بما فيه الكفاية . ومن الغرب المثير - المثير للملاحظة كما للأسف ، أن هذه المسحة الدينية عادت مرة أخرى وأخيرة لتكرر وتؤكد نفسها مع آخر وأدنى موجة من موجات الاستعمار الأوربي الحديث فى المنطقة وهى الاستعمار الصهيونى القمى .

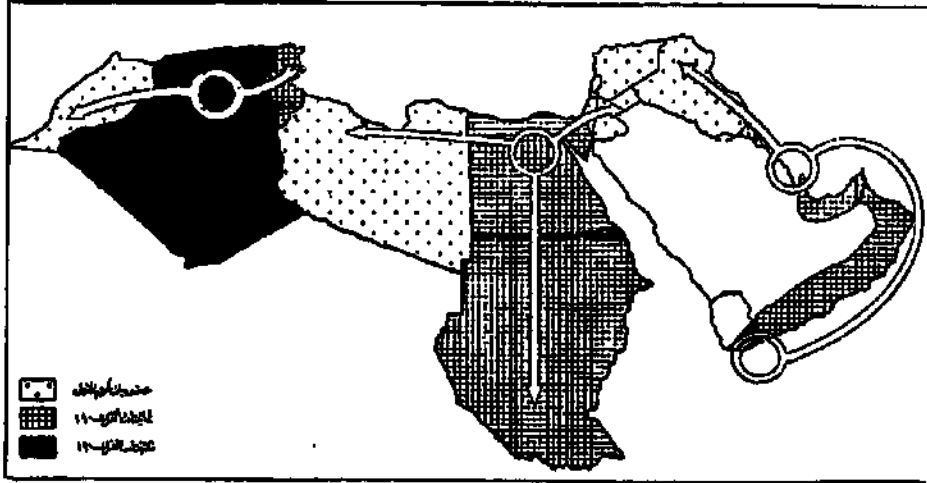
ولعل هذا أيضا أن يفسر فارقا آخر بقدر أو بآخر بين لون ونظرة ونوعية الاستعمار الأوربي الحديث فى المداريات من جهة والعالم العربى أو العربى - الإسلامى من الجهة الأخرى . فلأن الجانبين أساسا من الجنس القوقازى الأبيض بدرجة أو بأخرى ، كان الفارق الأبرز والألحظ بين الغرب الاستعمارى والعالم العربى هو الدين لا اللون . أما فى العالم المدارى فلم يكن الفارق الدين - لم يكن ثمة دين أصلا فى أغلب الحالات - وإنما الفارق كل الفارق وإلى الحد الصارم أحيانا هو اللون أساسا .

من هنا كان عداء أوربا الاستعمارى مختلف التوجيه والتوكيد والتعبير . فهو مع العالم العربى والإسلامى يحمل روح الصليبية أو الطائفية فى الدرجة الأولى ، بينما يحمل مع سائر أفريقيا وآسيا طابع العنصرية والعرقية وضد الملونين فى المحل الأول . ومن المؤشرات الدالة فى هذا الصدد أن الاستعمار الأوربي فى العالم العربى لم يجرؤ حتى فى عز سطوته أن يقيم « الحاجز اللونى » ولا أن يمارس التفرقة العنصرية أو العزل العرقى ، فى حين كان هذا هو الأمر اليومى والنظام المقرر السائد فى سائر المداريات حيث اتخذ الوضع أحيانا شكل صراع الأجناس بالمعنى العاشم والاستفزاز اللفظى الفج .

الزحف الاستعمارى

قبل الاستعمار الحديث ، وكحلقة وصل وإن كانت واهية للغاية بينه وبين الاستعمار الصليبي الوسيط ، دعنا أولا نذكر حالة خاصة وشاذة مثلما هى مجهرية لم تزل تعشش فى النسيج السياسى للعالم العربى حتى اليوم . تلك أعنى جيوب الاستعمار الإسرائيلى فى سبته

ومليلة التي اقتطعها في أخريات القرن الخامس عشر ، بل وبالتحديد قبيل خروج العرب من الأندلس ذاتها ! فهذا على شدة ضآلته أقدم استعمار أوروبي في العالم العربي إطلاقاً حيث يبلغ الآن خمسة قرون ويعاصر بذلك أقدم استعمار برتغالي في أفريقيا المدارية . وهنا وجه الخطورة ، فقد تحولت أغلبية السكان في هذين الإسفينين القزميين إلى إسبان مسيحيين ، تدعى إسبانيا لذلك أنها جزء لا يتجزأ من التراب والتراث الإسباني ! أما عن الاستعمار الحديث ، فإن الزحف الاستعماري في العالم العربي لم يأت دفعة واحدة ، بل يمكننا بالقياس إلى منطقة شاسعة مثل أفريقيا المدارية ، أن نقول إن زحف الاستعمار في العالم العربي كان بطيئاً متسكماً . فلم تتحقق له السيطرة على المنطقة إلا في مدى ٩٠ عاماً من ١٨٣٠ إلى ١٩٢٠ . وقد تم هذا الزحف في ثلاث موجات رئيسية واضحة التحديد . أيضاً لم تنته كل موجة في تاريخها تماماً بل لها ما بعدها من توسيع وتعميق ، بحيث تؤدي نهايات كل موجة إلى طلائع التالية . وبوجه عام كانت كل موجة لاحقة أوسع انتشاراً ونطاقاً من سابقتها .



شكل (١٦) موجات الاستعمار في الوطن العربي. لاحظ نقط الارتكاز كـيؤرات للتوسع والتشعب

موجات الزحف

فاما الموجة الأولى ففي ثلاثينات القرن التاسع عشر ، وفيها وقعت الجزائر في يد الاستعمار الفرنسي في ١٨٣٠ ، و عدن في يد الاستعمار البريطاني في ١٨٣٩ . ومنذ ذلك

الوقت أخذ الاستعمار البريطاني يزحف بانتظام واطراد من عدن على طول الساحل الجنوبي والشرق للجزيرة العربية حتى سيطر عليها جميعا حتى الكويت شمالا قبل نهاية القرن .

وجاءت الموجة الثانية في الثمانينات حين مدت فرنسا نفوذها من الجزائر إلى تونس في ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر في ١٨٨٢ . وفي العقدين التاليين استطاعت بريطانيا أن تتخذ من مصر قاعدة للتوسع في السودان تحت ستار التبعية التركية ، وعند دورة القرن كان قد استقر به تماما .

الموجة الثالثة والأخيرة في العقد الثاني من القرن الحالى قبل وفي أثناء الحرب الكبرى الأولى . وقد بدأت بانقضاخ إيطاليا على ليبيا واقتطاعها من « الدولة العلية » العاجزة في ١٩١١ - ١٩١٢ . وفي نفس الوقت بدأت فرنسا تتوسع من الجزائر غربا في مراكش لتنفرد بها من بين مناورات القوى المختلفة ، وتم لها هذا خلال الحرب حتى ١٩١٤ . أما في المشرق العربي فقد كانت هذه الموجة أخطر فترة في تاريخه ، فقد سقط أغلبه - الهلال الخصيب - للاستعمار دفعة واحدة وذلك كجزء من مساومات الصلح . فاستولت فرنسا على سوريا ولبنان ، وبريطانيا على فلسطين والأردن والعراق .

خريطة الاستعمار

من هذه الصورة نرى أن الاستعمار بدأ في كل موجة ساحليا ثم توسع تدريجيا نحو الداخل . فتلك طبيعة الاستعمار البحرى والضبط الساحلى . ثم في كل موجة اتخذ الاستعمار من أول مستعمرة نقطة ارتكاز يتوسع منها دائريا أو خطيا : دائريا كما حدث من مصر إلى السودان وفلسطين والأردن ثم فيما بعد إلى ليبيا ، وخطيا كما حدث من الجزائر إلى تونس فمراكش حيث - كما قيل - أفطرت فرنسا بالجزائر وتغدت بتونس وتعشت بمراكش ا

كذلك نرى تناظرا وسمتية نادرة بين الزحف في المشرق العربى والمغرب . ففي كل موجة يسقط عضو أو أكثر في كل من القطاعتين معا بحيث يصبح لدينا هذه الثنائيات أو

الأزواج المتناظرة على الترتيب الزمني : الجزائر - عدن والجنوب العربي ، تونس - مصر والسودان ، مراکش وليبيا - الهلال الخصيب .

وعدا هذا فسرى أن العالم العربي الأفريقي كان أسبق وقوعا في مجموعه في يد الاستعمار من العالم العربي الآسيوي . والجزء الأكبر منه وقع بالفعل في القرن الماضي ، بينما لم يسقط نظيره الآسيوي إلا في القرن الحالي . هذا ولم يفلت من الاستعمار في العالم العربي كله إلا قطاع ضئيل في الجانب الآسيوي هو قلب الجزيرة العربية وقلعة اليمن ، وكل منطقة فقيرة في ذاتها صحراوية أو جبلية ، وداخلية بعيدة عن مجال واهتمامات الاستعمار البحري .

وأخيرا نرى أن الاستعمار اللاتيني في المغرب أخذ ترتيبا مناظرا ومقابلا للأوطان « الأم » على الساحل الشمالي للبحر . فالاستعمار الإسباني في مراکش الخليفية أو الريف يواجه إسبانيا ، والإيطالي في ليبيا يواجه شبه الجزيرة ، بينما في الوسط يقابل النطاق الفرنسي فرنسا في القارة .

أما إذا وضعنا قوى الاستعمار في العالم العربي في الميزان ، فإن الجدول الآتي يعطي النسب التي اقتسم بها المنطقة كما كانت حوالي منتصف القرن الحالي قبيل التحرير .

الاستعمار	المساحة بالكم ٢	%	السكان بالمليون	%
البريطاني	٤,٦٥٤,٧٠٠	٤١,٦	٣٨	٤٨
الفرنسي	٢,٩٣٣,٠٠٠	٢٦,٢	٢٧	٣٤
الإيطالي	١,٧٥٩,٥٠٠	١٥,٧	١	١,٢
الإسباني	٥٠,٠٠٠	٠,٤	١,٧	١,٤
الوحدات المستقلة	١,٧٩٥,٠٠٠	١٥,٥	١١,٥	١٥,٤

وسيبدو أن نحو سبعة أثمان الوطن والشعب العربي (٨٥٪) قد سقطت ضحية للاستعمار ، وبالأخص للاستعمار البريطاني والفرنسي - الاستعمار الكبير - فكأننا نعا

يسيطران على ثلثي مساحة العالم العربي (٦٧,٨ ٪) وأكثر من ثلاثة أرباع الأمة العربية (٨٢ ٪) . وكانت بريطانيا بالذات هي القوة الاستعمارية السائدة : نصف السكان وخمسا المساحة . وبذلك تعادل الاستعمار اللاتيني جميعا من حيث المساحة تقريبا ولكن تفوقه بكثير من حيث السكان .

أما الاستعمار الصغير ففيه يتقارب الإسباني والإيطالي سكانا ، ولكن يختلفان جدا في المساحة . فالأول شريط كثيف نسبيا . أما الثاني فبه أعلى نسبة من المساحة إلى السكان . وفيما عدا هذا فيلاحظ أن الاستعمار كان يملك في العالم العربي مساحة تزيد على مساحة أوروبا بأسرها : وفيما عدا إسبانيا فقد كانت كل قوة استعمارية تملك مساحة تبلغ أضعاف مساحتها هي نفسها عدة مرات !

الاستعمار الصهيوني

هذه صورة عامة للاستعمار الغربي في الوطن العربي كما مارسته القوى الأوربية . ولكنها بطبيعة الحال لا تكتمل إلا بالحديث عن حالة خاصة وأخيرة من الاستعمار مكنت له وخلقت فقط تلك القوى ، أما الذي مارسته فطائفة عالمية معينة ، ونعني بذلك الاستعمار الصهيوني في فلسطين المحتلة باسم إسرائيل . وليس ها هنا من مجال إلا لتحديد الهيكل الأساسي لطبيعة إسرائيل وموقعها بين أنماط الاستعمار . ففي إيجاز شديد ، ماذا تعني إسرائيل - علميا وموضوعيا - بالنسبة إلى طالب الجغرافيا السياسية ؟

المراحل الاستعمارية

تتعاصر بدايات الحركة الصهيونية مع آخر موجة كبرى من موجات الاستعمار الأوربي الحديث وهي الموجة المدارية وخاصة منها التكالب على أفريقيا ، ولكن تحققها يتعاصر مع نهايات عصر الاستعمار بوجه عام . فلقد تعلق الصهيونية بأذيال الموجة المدارية لتركيها ولتستثمر المناخ السياسي الاستعماري العام وصولا إلى تحقيق أهدافها الخاصة في إنشاء « الدولة اليهودية » . والصهيونية من بدايتها حركة سياسية في الحقيقة (الصهيونية السياسية) ؛ ولكنها تقنعت منذ اللحظة الأولى بالدين (الصهيونية العاطفية) ، لتخلق من « رؤيا العودة إلى أرض الميعاد » إيديولوجية تاريخية ودينية تجمع يهود الشتات حولها . وكذلك قناعا وشعارا تخفي به حقيقة أهدافها عن العالم الخارجي . ولهذا رفضت عدة اقتراحات لوطن قومي في غير فلسطين .

ولقد كان من المستحيل منذ البداية أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى
السيادة العالمية ، ومن هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق
واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة
وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار ، وذلك ثمنا لخلقهم إياه وضمانه لبقائه . وعلى
طريق هذه المصلحة الاستعمارية المشتركة تحرك ارتباط الصهيونية بالإمبريالية بحسب تحرك
مركز الثقل في زعامة الإمبريالية ، فكانت بريطانيا هي التي خلقت الوطن القومى منذ
الحرب العالمية الأولى ، بينما خلقت الولايات المتحدة الدولة اليهودية منذ الحرب الثانية .

وقد مرتكوبين إسرائيل بمرحلتين : التغلغل ثم الغزو . فبعد عدة موجات من التسلل
والتسرب المبعثر حتى ما قبل الحرب الأولى ، فتح الانتداب الباب للهجرة إلى الوطن
القومى ليبدأ تغلغل حقيقى خلق جسما خطيرا من أقلية يهودية كبيرة وانترج موطن قدم
بسياسة شراء الأراضي المخططة من قبل . وبهذا وذاك تكونت نواة « اليشوف » أى
المجتمع اليهودى فى فلسطين ، ونجح فى خلق دولة داخل الدولة . وقد اتسمت هذه
المرحلة بالدموية فى شكل حرب عصابات يهودية شجعها الانتداب بالسلاح ، فى وجه
مقاومة عربية ثورية قاومها الانتداب بالقوة .

أما مرحلة الغزو فتم فيها الاغتصاب الشامل بعد انسحاب الانتداب - متواطئا - فى
١٩٤٨ ، وعن طريق حرب ضد العرب يسميها اليهود بحرب الاستقلال (عن الاستعمار
البريطانى) أو حرب التحرير (من « الاستعمار العربى » ، كذا ا) . وفى هذه الحرب ،
التي حدد مصيرها سياسة التسليح ومناورات السياسة من جانب الدول الاستعمارية ،
طرد نحو مليون من العرب الأصليين خارج الأرض المحتلة ، بينما تدفقت الهجرة الكبرى
لتتجمع فى النهاية نحو المليونين أو الثلاثة من الصهيونيين يمثلون حوالى ١٣٪ من اليهودية
العالمية .

وقد اعتبرت إسرائيل نفسها منذ ذلك الوقت « إسرائيل الصغرى » فقط ، على
أساس أن هدفها المعلن هو « إسرائيل الكبرى » من النيل إلى الفرات . وفى سبيل تحقيق
هذه الخطة ، قامت بحربين عدوانيتين أخريين أو ثلاث ضد الدول العربية فى ١٩٥٦ ،
١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، عملت فيها جميعا بالتواطؤ مع دول الاستعمار الغربى ، ولكنها
فشلت فى التوسع فى الأولى ، ونجحت فى الثانية غير أنها رغم الثالثة نجد للمواجهة قائمة
ما تزال ، ذلك دون أن نضيف آخر جرائمها سنة ١٩٨٢ فى لبنان .

الخصائص الاستعمارية

تلك هي الحقائق الأولية البحتة في قيام ووجود إسرائيل ، منها يمكن للجغرافى السياسى أن يحدد فى إطار موضوعية العلم المطلقة التشخيصات والنتائج الآتية :

فأولا ، إسرائيل - كدولة - ظاهرة استعمارية صرف . فهى قد قامت على اغتصاب غزاة أجناب لأرض لا علاقة لهم بها دينيا أو تاريخيا أو جنسيا ، وإن زعموا عكس ذلك تماما ودواما . دينيا ، لأن رؤيا العودة الخرافية والوعد الأسطورى المزعوم لا أساس لها أو سند من الدين وإلا لجازت نفس العودة لبقية الأديان ، فضلا عن أنه ليس على أصحاب دين أى التزام بدعاوى أصحاب دين آخر . وتاريخيا ، لأن علاقة اليهود بفلسطين انقطعت تماما منذ نحو ٢٠ قرنا . وجنسيا ، لأن هناك « يهودين » فى التاريخ ، قدامى ومحدثين ، ليس بينها أى صلة أنثروبولوجية مذكورة . ذلك أن يهود فلسطين التوراة بعد الخروج تعرضوا لظاهرتين أساسيتين طوال ٢٠ قرنا من الشتات فى المهجر : خروج أعداد ضخمة منهم بالتحول إلى غير اليهودية ، ودخول أفواج لا تقل ضخامة فى اليهودية من كل أجناس المهجر . واقترن هذا بتزاوج واختلاط دموى بعيد المدى ، انتهى بالجسم الأساسى من اليهود المحدثين إلى أن يكونوا شيئا مختلفا كلية عن اليهود القدامى ، ولم يعد اليهود اليوم من نسل بنى إسرائيل التوراة بأى نسبة ذات بال (١) .

وبهذا فإن عودة اليهود إلى فلسطين بالاغتصاب هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى ، أى استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . وإسرائيل بالتالى تمثل جسما غربيا ودخिला مفروضا على الوجود العربى ، أبدا غير قابل للامتصاص ، ولكنه حتى الآن غير ممكن اللفظ ، وبين هذا وذاك يبنى عنصر اضطراب وتهيج ومضاعفات سياسية . وبتعبير آخر يبنى بؤرة حرب كامنة ومفجر صدام استعمارى - تحريرى مسلح .

ثانيا ، إسرائيل استعمار طائفى بحت ، والدولة دولة دينية صرفة . فهى تقوم على تجميع اليهود ، واليهود فقط ، فى جيتو سياسى واحد ، ومن ثم فأساسها التعصب الدينى ابتداء . وإذا كان من الواضح أنها بذلك تمثل شذوذا رجعيا فى الفلسفة السياسية للقرن العشرين الذى لا يعرف أو يعترف بالدول الدينية ، فإنها فى الواقع تعيد إلى الحياة حضريات العصور الوسطى بل القديمة ، ومنطلق العصور القبلية المتحجرة . وهى كذلك

(١) جمال حمدان ، اليهود أنثروبولوجيا ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١١٥ وما بعدها .

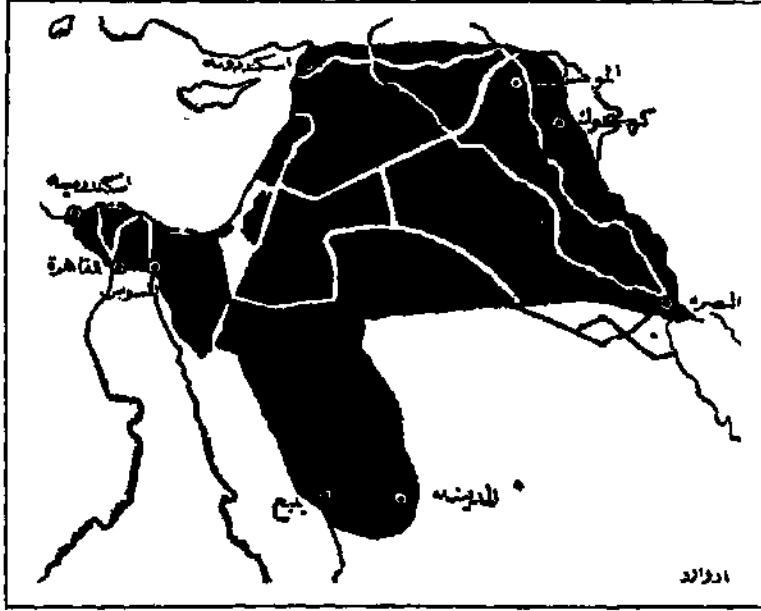
تفرض من طرف واحد حربا دينية ليس الطرف الآخر مستولا عنها بل هو يرفضها ، وإسرائيل تبعث بذلك شبة صليبيات جديدة في منطقة لا تعرف إلا التسامح الديني تقليديا . إن الحروب الصهيونية Zianades هي الحروب الصليبية الجديدة Neo-Crusades .

ثالثا ، إسرائيل استثمار عنصري مطلق . فرغم أن اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية بأى مفهوم سياسى سليم كما يعرف كل عالم سياسى ، ورغم أن اليهود ليسوا عنصرا جنسيا فى أى معنى بل جاع ومتحف حى لكل أخلاط الأجناس فى العالم كما يدرك أى أنثروبولوجى ، فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة مدعية فى دولة مصطنعة مقطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساسا ، وذلك بكل معنى العنصرية من استعلاء وتعصب واضطهاد ودموية .

وتأخذ هذه العنصرية - كما تحب إسرائيل أن تراها ، سواء صبح ذلك أم لم يصب - صورة مليونين أو ثلاثة من « البيض » وسط بحر من « الملونين » العرب . فهذه - مباشرة - عنصرية بيضاء . ولكنها أيضا عنصرية بيضاء نازية بالدقة ، فهي تعد نفسها « الشعب المختار » على غرار « ألمانيا فوق الجميع » أيام هتلرية . وبالفعل ، وباعتراف الكثير من المهاجرين ، يبدى وجود إسرائيل منذ نشأتها كل ملامح العنصرية النازية Zionazism . وهنا تتجسد سخرية المفارقات الاستعمارية : فقد تلقت إسرائيل اضطهاد العنصرية النازية فى أوروبا بكل مرارة التجربة ، ولكنها إنما تعلمت الدرس لتنتقله وتعكسه مضاعفا على العرب فى فلسطين ، وهنا تتضاعف المفارقة سخرية ، لأن العرب - وحدهم من بين كل المجتمعات - هم الذين لم يضطهدوا اليهود عبر التاريخ .

رابعا ، إسرائيل قطعة من الاستثمار الأوربي عبر البحار . فمع أن إسرائيل منصفة عدديا بين اليهود الغربيين الأشكناز واليهود الشرقيين السفارديم ، فإن القيادة والسيطرة المطلقة للنصف الأول ، وهى تعتبر نفسها دولة غربية لا شرقية . ولو حققت إسرائيل أهدافها فى تهجير يهود الشتات جميعا ، لأصبحت وجودا غربيا أساسا بحسب الجنس والحضارة وبحسب التطلعات والعلاقات . إنها جزيرة أوربية على ضلوع آسيا ، ومستعمرة غربية فى قلب الوطن العربى ، وذلك جنسيا وحضاريا على السواء . وككل دعاوى الاستثمار الأوربي عبر البحار ، وتبريرا لاغتصابها ، لم تتورع إسرائيل عن أن تدعى رسالة الحضارة والتطور ، فزعمت نفسها واحة التقدم فى صحراء الرجعية العربية وجزيرة الصناعة فى بحر التخلف الشرقى .. الخ .

خامسا ، إسرائيل استعمار استيطاني في الدرجة الأولى . فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المداري في القرن التاسع عشر ، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذي ساد في القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم في بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ . ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخيا ، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكني الاستيطاني في العالم كله .



شكل (١٧) الخطر الصهيوني : حلم إسرائيل الكبرى : إمبراطورية صهيون : ملكوت إسرائيل الثالث

وإذا صح أن نميز في الاستعمار السكني للمعتدلات بين النمط اللاتيني الذي يضيف المستعمرين إلى الأهالي الأصليين بلا إبادة عامة كما في أمريكا اللاتينية أو الجزائر ، وبين النمط السكسوني الذي يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالي الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما في أستراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة ، فإن إسرائيل تقع بالتأكيد في النمط السكسوني .

ومع ذلك فهي تتميز عنه بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار الاستيطاني ، فهي تجمع بين أسوأ ما في هذه النماذج ، ثم تضيف إليه الأسوأ منه . هي كاستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدرا محققا من إبادة الجنس ، وهي كجنوب إفريقيا تعرف قدرا محققا من العزل الجنسي ، ولكنها تختلف عن الجميع من

حيث إنها طردت كل السكان الأصليين خارجها تماما ليتحولوا إلى لاجئين مقتلين معتلين على حدودها . وإسرائيل بهذا كله أعلى - أم نقول أدنى ؟ - مراحل الاستعمار الاستيطاني .

سادسا ، إسرائيل رغم ذلك تجسم للاستعمار المتعدد الأغراض ، فهي تمثل استعمارا مثلث الأبعاد . فعدا الجانب الاستيطاني ، فإنها تمثل أيضا استعمارا استراتيجيا واستعمارا اقتصاديا . فوجودها غير الشرعي رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة ، فما قامت ولن تبقى - وهذا تدركه جيدا - إلا بالدم والحديد والنار . ولهذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها وحياتها ، و « أمن إسرائيل » هو مشكلتها المحورية ، أما حلها فقد تحدد في أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها ، وهو ما يعبر عنه « بعسكرة » إسرائيل .

أما أنها استعمار اقتصادي ، فهذا أساسي في كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات ، فالاستعمار الإسرائيلي عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره . وهي من هذه الزاوية استعمار طفيلي ابتزازي ابتلاعي بحت بطبيعة الحال . ومن بين تلك الصفة العسكرية وهذه الجذور الطفيلية ، تخرج الصفة الفاشية الواضحة في كيان إسرائيل كنتيجة منطقية للغاية .

سابعا ، إسرائيل استعمار توسعي أساسا . وأطاعها الاقليمية معلنة بلا مواربة ، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة ، ومن « النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل Erets Israel » هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة . وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم في نهاية المطاف ، ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها ، إما بالطرد وإما بالابادة . وبطبيعة الحال ، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة . ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطاني في آن واحد ، إزاء عدوان آتى واقع وعدوان سيقع في أي آن .

وهنا نجد أن الصهيونية تكرر في الواقع قصة النازية بجدافيرها . فكما كانت ألمانيا تطالب « بمجال حيوي » ، تتكلم إسرائيل عن إسرائيل الكبرى . وكما كانت ألمانيا تدعى أنها « شعب بلا مجال » ، لا تخفى إسرائيل منذ وحسب هرتزل أنها ترى في المنطقة العربية « مجالا بلا شعب » . وكما كانت ألمانيا تبحث على زيادة النسل كمبرر لادعاءاتها الاقليمية ، تبحث إسرائيل يهود العالم على الهجرة إليها . وتكتيك الفتعال ضغط سكاني

متوره متفجر تبريرا للتوسع الاقليمي ، هو تكتيك الأمر الواقع Realpolitik كما سمي في ألمانيا . fait accompli كما عرف عن إسرائيل . وفي النهاية وفي النتيجة ، فقد تعين في حالة إسرائيل كما كانت حالة ألمانيا ، أن تصبح حدودها هي جيوشها ، وجيوشها هي حدودها . وإذا كان لهذا من معنى - أي معنى - فهو على الفور أن الشرق العربي لا يمكن أن يتسع للعرب ولإسرائيل معا ، فوجود أحدهما نفي لوجود الآخر ، ولكي يبقى أحدهما لا بد أن يذهب الآخر . أما من يبقى ومن يذهب فأوضح - علميا - من أن يذكر .

ثامنا . وأخيرا . فإن إسرائيل من البداية إلى النهاية استعمار من الدرجة الأولى والثانية معا . استعمار بالأصالة والوكالة في نفس الوقت . ونقصد بذلك أن إسرائيل قامت وأقيمت بفعل ولحساب نفسها والصهيونية العالمية ، وكذلك قامت وأقيمت بفعل ولحساب الاستعمار العالمي . فبالنسبة إلى الصهيونية العالمية ، فإن الدولة اليهودية ملجأ من الشتات وأخطاره المحتملة أو الموهومة - بوليصة تأمين كما وصفت - ووثيقة لاستثاراتها المالية الاحتكارية . ولكن تحقيقها في البداية وبقائها بعد ذلك لم يكن ممكنا بغير المشاركة الكاملة للاستعمار العالمي الذي تطابقت إلى حد التماثل خططه ومصالحه .

فهى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريا ، ورأس جسر ثابت استراتيجيا ، ووكيل عام اقتصاديا . أو عميل خاص احتكاري . وهى في كل أولئك تمثل فاصلا أرضيا يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها ، واسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ، وتزيفا مزمن في مواردها ، وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير . وإسرائيل بهذا المعنى دولة مرتزقة لا شك ، تعمل مأجورة في خدمة الاستعمار العالمي ، بمثل ما هى صنعه وصنيعته ورييسته .

هذا الالتقاء والتداخل العميق بين مصالح الصهيونية والإمبريالية العالميتين هو مفتاح الوجود - والمصير - الإسرائيلي برمته . وهو الذى يفسر كثيرا من مظاهر الغرابة والتفرد فيه . فالاستعمار العالمي هو الذى خلق إسرائيل بالسياسة والحرب ، وهو الذى يمد لها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال ، ثم هو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا . ولذلك فإنها تكاد تكون الحالة الوحيدة في العالم تقريبا التى تجسدت فيها آخر مراحل الاستعمار القديم وأولى طلائع الاستعمار الجديد . فهى كجسم استعماري واقع تمثل استعمارا قديما ، ولكنها بدور الاستعمار العالمي في كيانها وأمنها تمثل أداة وقاعدة للاستعمار الجديد . كذلك فإنها - إسرائيل - تكاد تكون الأرض المشتركة الوحيدة تاريخيا ولقاء ،

مصالح ومصاير ، التي التقي عليها الاستعمار القديم والجديد بغير صراع أو تنافر . فقد كانت بريطانيا (الاستعمار القديم) هي التي خلقتها ، ولكنها سلمتها بعد ذلك طواعية لوصاية أمريكا (الاستعمار الجديد) . فكانت الأولى بمثابة الأب البيولوجي . والثانية بمثابة الأب الاجتماعي .

وإذا كانت إسرائيل ملتحمة كلية في الوقت الحالي بالولايات المتحدة . فإنه ليس من الواضح تماما من الذي يستعمر من : فإسرائيل تكاد تبدو اليوم وكأنها أمريكا في الشرق الأوسط . أو الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة كما قيل . أو على الأقل قاعدة أمريكية - أكبر قاعدة أمريكية - عبر البحار ، إلا أنها قاعدة بدرجة دولة وإلا أن كل طاقتها من اليهود . وفي نفس الوقت تمارس الصهيونية العالمية لحساب إسرائيل نفوذا وضغطا غير متناسب على الولايات المتحدة . وأيا ما كان ، فلا شك أن إسرائيل هي أخطر تحديات الاستعمار في التاريخ العربي . ولعلها أعلى مراحل في الوطن العربي ، بمثل ما أن الصهيونية العالمية هي أعلى مراحل الإمبريالية العالمية .

الفصل الثامن

صراع القوى في العصر الصناعي بريطانيا

ودع القرن التاسع عشر فترة مراهقته ، وقد اجتمع انقلابان خطيران : أولهما انتقال السيادة العالمية نهائيا إلى بريطانيا بعد أن أزاحت فرنسا إلى الابد عن الصدارة ، وثانيهما بدء الانقلاب الصناعي في بريطانيا الأمر الذي أكد زعامتها في العالم بلا منازع حقيقي . ومنذ ذلك ولمدة قرن تقريبا ظلت القوة السياسية والمادية في العالم احتكارا لبريطانيا . وكان القرن التاسع عشر بحق قرن السيادة البريطانية - قرن بريطانيا .

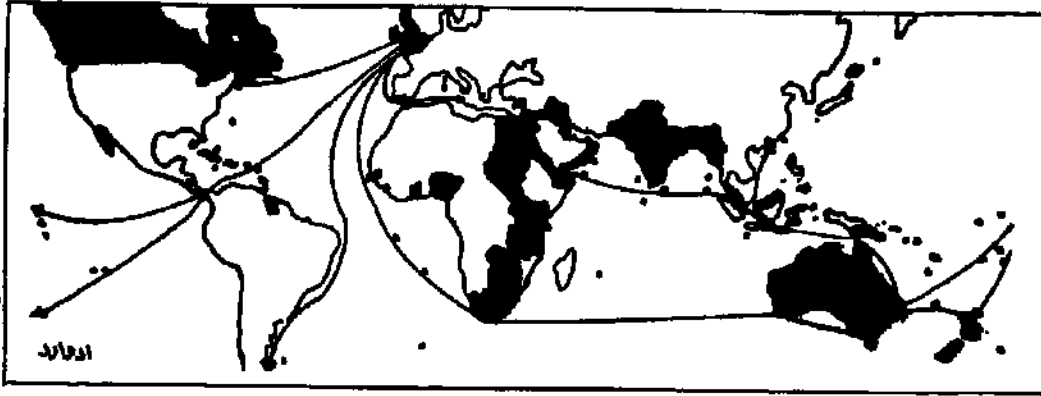
ورغم أن فرنسا ظلت تناوئها وتتصدى لها ، فلم يكن هذا إلا من موضع اليد السفلى ، إلى أن اضطرت بعد قرن كامل أن تعترف بالأمر الواقع لتسوى خلافاتها معها في الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ ، ولتتحول في النهاية إلى شريك ثان لها وحليف . أو بالأحرى إلى صديق لدود ، لاسيا منذ بدأ منافس خطير يهدد الاثنين ، ولكن فرنسا بصفة مباشرة ، ونعني به ألمانيا .

أعظم الإمبراطوريات

هنالك انطلقت بريطانيا تنفجر وتواثب ، بل وتعيد ، حول العالم لتستكمل أضخم وأوسع إمبراطورية بحرية عرفها التاريخ . ففي قمة توسعها وصلت الإمبراطورية إلى أن تغطي ربع مساحة اليابس ، وأن تحكم ثلث سكانه ، أو نحو أكثر من ١٤ مليون ميل مربع ، ١٠٠٠ مليون نسمة على الترتيب . وأبرز حقيقة في هذه الإمبراطورية الماموث ، هي بلاشك تبعثرها في كل أركان العالم في « جزر » سياسية منفصلة متقطعة تفصلها

آلاف الأميال من البحار والمحيطات ، ولا يكاد يحيطها بقل - عمليا - عن محيط الكرة الأرضية .

ومن هنا فقد كانت إمبراطورية عالمية بكل معنى الكلمة : لها أعضاء تمثلها في كل قارة بما في ذلك أوروبا نفسها ، وتكاد تترامى عبر كل خطوط الطول والعرض في العالم (٣٢٠ درجة طولية × ١٣٠ درجة عرضية ١) (١) ، وتمتد بلا استثناء في كل المناطق المناخية والأنواع النباتية والبيئات الطبيعية والأقاليم والأنماط الجغرافية ، كما انتظمت تقريبا كل الأجناس الرئيسية والديانات وإلى حد ما اللغات (٢) . باختصار كانت متحفنا منثورا لعينات من الكرة الأرضية والعائلة البشرية « لا تغيب عنه الشمس » .



شكل (١٨) الإمبراطورية البريطانية في أوجها . النموذج المثالي للاستعمار البحري : ربع مساحة العالم : ألف مليون نسمة : انتشار مطلق حول الكرة الأرضية : خمسة أحزمة بحرية تربط شتاته .

ومثل هذه الإمبراطورية الدائرية المترامية كانت بطبيعة الحال - ولم يكن لها بد من أن تكون - إمبراطورية قوة بحر في الدرجة الأولى . بل الحقيقة أنها كانت بالضرورة نتج السفينة البخارية وإمبراطورية عصر البخار ، بغيرها ما كان يمكن أن تقوم ، وإذا قامت فبغيرها ما كان يمكن أن تستمر . ولهذا كانت خطوط الملاحة هي شرايين الإمبراطورية وخطوط الحياة بالنسبة لها . وكان الهيكل الذي يمسك بهذه المستعمرات المبتوتة يتألف من خمسة خطوط تسمى أحزمة الإمبراطورية Girders of Empire . أهمها بلا شك طريق

Whittlesey, p. 111.

(١)

(٢) الجيوبولتيكا ، ج ٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

السويس البحرية الداخلى الذى يشق قلب الإمبراطورية الفعال ، ثم طريق الرأس الدائرى البديل . وإلى الغرب تنبعث الخطوط الثلاثة الأخرى . وأولها خط كندا والولايات المتحدة ولم يكن يقل أهمية عن طريق السويس . وهو اليوم أهم ما تبقى لبريطانيا . والطريق التالى هو طريق بنما - هاواى - أستراليا ونيوزيلند . أما الطريق الأخير فطريق جزر فوكلند بخذاء شرق أمريكا الجنوبية .

وعلى هذه الشبكة الأخطبوطية ترتكز الإمبراطورية على مجموعة من القواعد العسكرية البحرية التى تمثل نقط أو عقد القوة الاستراتيجية فيها ، والتى تعتمد أساسا على انضبط والاستعمار الساحلى marginal control . ومع مقدم عصر الطيران ازدوجت هذه الشبكة فى الواقع بشبكة جوية مركبة فوقها . كما تكملها فى بعض حلقاتها شبكة طرق وسكك حديدية على القارات (١) .

السلام البريطانى

فى هذا الاطار اكتملت سيادة بريطانيا البحرية إلى درجة الاحتكار المطلق للقوة البحرية فى العالم . وأصبحت عملية مراقبة البحار العليا والاشراف عليها وظيفه بريطانية بحتة . وتحققت بهذا وحدة المحيط العالمى كأكمل وأقوى ما يكون ، ولا نقول أصبح المحيط العالمى بحيرة بريطانية ! ولقرن برمه لم تستطع قوة ما أن تتحداها . غير أن هذا كان فى الواقع دورا « بوليسيا » لاشك فيه (٢) . وفى هذا المعنى وحده ينبغى أن نفهم « السلام البريطانى Pax Britannica » الذى فرضته طوال ذلك القرن وظلت تفخر به طويلا - وتضليلا .

وفى ظل هذه الاستراتيجية البحرية المدرعة استطاعت بريطانيا أن تصبح تاجر العالم الأول مثلا جعلها الانقلاب الصناعى مصنعه الأكبر . فى اقتصاديات آسيا وأفريقيا كان لها الدور الاحتكارى المطلق ، بينما كانت هى وحدها المسيطر الرئيسى على الاستثمارات والعمويل فى أمريكا الجنوبية . وفى النتيجة أصبحت بريطانيا تستمد من هذا الدور الجزء الأكبر من قوتها وراثتها المادى . بدرجة تنضال بجانبها كثيرا مواردها وإمكاناتها الذاتية والبحثة .

L.M. Alexander, World Political Patterns, Chicago, 1957.

(١)

(٢) الجيوبوليتيكا . ج ٢ .

ولم يكن غربيا لذلك أن تضاعف سكانها أربع مرات في ذلك القرن رغم الملايين التي أرسلت إلى ما وراء البحار خاصة أمريكا^(١) . وفي حمى هذه القوة العسكرية المطلقة والرخاء الاقتصادي النادر ، لم يكن غربيا - أليس كذلك ؟ - أن يصل الصلف والغرور الإنجليزي إلى منتهاه . وأن يظن الاستعمار البريطاني أن الأرض قد دانت له . وأن يتصور نفسه مركز الكون . بل لقد تساءل بعضهم أيامها بالفعل - كذا - عما إذا كان « الله بريطانيا ؟ Is God British » . لقد وصل غرور القوة وعبادة الذات ، ودعك من واجهة التهكم ، إلى حد الكفران !

يبد أن المهم أن بريطانيا إنما بنت دورها هذا على أساس نظريات ومدارس اقتصادية معينة تبنتها أو خلقتها هي حرية التجارة أولا وتخصيص الانتاج ثانيا - ولو أن المبدئين جانبا في الحقيقة لشيء واحد . على أن الذي لم يعد فيه شك الآن حتى عند عتاة الإمبرياليين البريطانيين هو أن تلك المبادئ أبعد شيء عن الحقيقة . بل قلب صارخ هي للحقيقة . فحرية التجارة دعوة تتخفى وراء أعنى أنواع الاحتكار القائم على القوة العسكرية ، وهي كما قال بسارك « سياسة الأقوى » . أما التخصيص فكان وسيلة لحرمان المستعمرات من التطور وللإبقاء على تخلفها إلى الأبد بحجة الجغرافيا الطبيعية .

والنتيجة أن اقتصاد « عصر بريطانيا » كان في جوهره اقتصاد حرب واقتصاد قوة . وبغير الأسطول وديبلوماسية الزوارق المسلحة كان مستحيلا أن تظهر « مدرسة مانشستر في التجارة الحرة » ، وكان السلام البريطاني المزعوم سلام قوة . يقوم على الظلم والقهر ويعتمد على التهديد بالحرب^(٢) . ومن هذه الحقيقة بالذات ستنبعث جرثومة الحرب العالمية الأولى ، وهي النقطة التي تعين أوج القوة البريطانية على الأرجح والتي بعدها بدأ الانحدار التدريجي الذي استكمل في الحرب الثانية فكان بداية نهاية بريطانيا كالقوة العظمى الأولى في العالم .

دورة حياة الإمبراطورية

وما دمتنا قد وصلنا إلى هذه النقطة ، فلعل من المفيد كما هو من الضروري أن ننظر نظرة كلية شاملة إلى تاريخ وتطور القوة البريطانية كدورة حياة من النشأة إلى الصعود

(١) فوست ، ص ٤٢٧ .

Democratic ideals, p. 107.

(٢)

فالانحدار . ولهذا الغرض ، فلعل تكنيك تطور مراحل الدولة الجيوبوليتيكي كما وضعه الجغرافي السياسي فان فالكنبرج هو أنسب منظور متاح . فكما يصنف هذا العالم ، تقع الدولة أو تمر في مراحل تطور أربع لكل منها ملامح سلوكية قاطعة وخصائص سياسية محددة : الطفولة أو النشأة ، الشباب أو التوسع ، النضج أو الاستقرار ، وأخيرا الشيخوخة أو الانحدار . فأما مرحلة الطفولة أو النشأة ففيها تنفق الدولة الجديدة كل اهتمامها ونشاطها في ترتيب البيت من الداخل ، أي في لم شمل أقاليمها وتدعيم وحدتها الداخلية وتأكيد وتأمين حدودها والدفاع عنها ، مع تحاشي الحروب الخارجية ما أمكن . أما مرحلة الشباب فهي مرحلة التوسع بالضرورة ، تنطلق فيها بعد أن اشتد عودها داخليا إلى توسيع رقعتها ونفوذها في الخارج ، فتنقل بذلك من الدفاع إلى الهجوم وقد تدخل عصر الإمبراطورية وتعرف تطلعات الاستعمار وطموحات الفتوحات . ومع تحقيق هذه الأهداف وتلك الرقعة تتسع مسئوليات الدولة وتزداد مشاكلها . من تعقيدات الضبط والربط والتعاسك والمواصلات إلى أقليات مضمومة وثورات تحررية إلى منافسات إمبراطورية مضادة ... الخ . فهنا تصبح الخاصية الأساسية للدولة هي محاولة المحافظة على الوضع الراهن Status-quo ومقاومة قوى التفكك وعوامل التحلل في الإمبراطورية ، ولا تعود تجدد لنفسها مصلحة في الحروب الكثيرة إلا الدفاعية منها لتفرض بها « سلامها » . هذه الملامح تعني أن الدولة قد بلغت مرحلة النضج أو الاستقرار التي كل هدفها السلامة والأمن والأمان . إلا أن مرحلة الشيخوخة أو الانحدار أو ربما حتى الانهيار تحمل بالضرورة حين تعجز الدولة عن المحافظة على توسعاتها . فتأخذ المستعمرات تنسلخ عنها بالحرب واحدة بعد أخرى ، إلى أن تنتهي الدولة إلى الانعطاف على نفسها في قوقعتها الوطنية الأولى من حيث بدأت ، فتم بذلك دورة جيوبوليتيكية كاملة في تاريخ حياتها^(١) .

المنحنى البريطاني

الآن ، فإن هذه الدورة لا تكاد تنطبق كما تنطبق على تاريخ حياة الإمبراطورية البريطانية ، بل إنها لتعد النموذج الكلاسيكي لها والبرهان المثالي عليها . فكجزيرة إزاء

(١) S. Van Valkenburg, Elements of political geography, N. Y., 1939, p. 14 et seq.

القارة ، منها وليست فيها ، نجحت بريطانيا في ظل عزلتها وراء المانش في تكوين وحدتها الداخلية مبكرا حوالى القرنين ١٤ ، ١٥ ، أى معاصرة تقريبا لوحدة فرنسا وسابقة زهاء أربعة قرون لوحدة ألمانيا أو إيطاليا (دور النشأة) .

وبفضل جزيرتها وبيئتها الملاحية انطلقت عبر البحار لتكون إمبراطوريتها العالمية وخاضت حروبها الاستعمارية وصراعات القوى حتى وصلت إلى نقطة سمت عقب الحروب النابليونية حين انفردت باحتكار القوة العالمية وبدأ « قرن بريطانيا » (دور الشباب والتوسع) . ومنذ حوالى منتصف القرن ١٩ دخلت مرحلة التضجج . حيث نشرت « السلام البريطانى » بديبلوماسية البوارج المسلحة . وكان كل همها المحافظة على الوضع الراهن وتجميده لأنه يعطيها كل شيء دون أن تخسر أى شيء .

وهنا بالدقة برزت استراتيجيتها السياسية التقليدية والأثيرة ، سياسة توازن القوى . لتحل محل سياسة القوة والمجابهة . فلا تنغمس ما استطاعت في حروب القوى الصاعدة على القارة ، وإنما تضاربها ببعضها البعض لتظل جميعا ضعيفة دائما لا تهدد مكانتها ، ولا تتدخل هي إلا مضطرة حين يهدد أحد هذه المكائنة ، كما فعلت من قبل ضد فرنسا أكثر من مرة وفيها بعد ضد ألمانيا مرتين . وتلك كانت السياسة الانتهازية التي أكسبتها مرارة وتشكك القارة .

وفي تلك الاستراتيجية كان للصراع الأوربي نمط جغرافى محدد تحتل فيه بريطانيا موقعا محددًا كذلك . فلقد كان هذا الصراع يستقطب أساسا في ثلاثة مراكز تؤلف « مثلث القوة » الشهير في أوربا : بريطانيا - فرنسا - ألمانيا . وفي هذا المثلث كانت بريطانيا هي الرأس والقوة السائدة ، بينما داخل رؤوسه كانت الدول الصغرى مثل بلجيكا وهولندا تمثل منطقة الخمود أو التحييد التي تتقابل حتى تتحايد أو تصادم عندها الضغوط . من هنا كانت سياسة بريطانيا التقليدية من ضمان حياد بلجيكا ، التي شبهتها شكلا وموضوعا بمسدس مصوب إليها . ومن هنا أيضا كانت بلجيكا وهولندا هي « أرض المعركة في أوربا battlefield of Europe » في كل مجابهات الأقطاب الثلاثة ، وهي المجابهات التي نجحت بريطانيا في الانتصار فيها على القطبين المنافسين واحدا بعد الآخر .

على أن الحروب العديدة العنيفة التي خاضتها بريطانيا على القارة وفي المستعمرات عبر البحار كانت تستنزف طاقتها بانتظام وتمتص حيويتها بالتدريج ، وبخاصة الحربان

العالميتان اللتان خرجت منها مضعضة رغم النصر ، لتفقد في النهاية معظم الإمبراطورية ثم كلها ، وليكتمل تقلص حجمها ووزنها النسبي وكذلك ظلها ونفوذها الدولي ، لتزلق وشيكاً إلى « برتغال كبرى » أو « أمريكا صغرى » أو إلى « رجل أوروبا المريض » الجديد . وتلك بكل أعراضها وأمراضها هي مرحلة الشيخوخة والانحدار لا جدال . وهي المرحلة التي تفسر عودتها صاغرة إلى القارة الأم في وحدة السوق المشتركة والوحدة الأوربية لتقف في الصف مع القاريين بعد طول ابتعاد واستعلاء^(١) .

الولايات المتحدة

يبدأ تاريخ الولايات المتحدة كدولة منذ حرب الاستقلال في عام ١٧٨٣ أي في أواخر القرن الثامن عشر . وقبل الثورة الفرنسية . فقد خرجت من هذه الثورة على الاستعمار البريطاني برقعة محدودة بالولايات الثلاث عشرة ومحددة بجبال ألبيجني ثم في مرحلة تالية بالمسيبي . ويقوة بشرية لا تزيد على الأربعة ملايين نسمة . فكانت تلك هي النواة النووية التي لم تلبث أن انفجرت في نمو عارم لتصل في النهاية إلى أن تصبح أعظم قوة في العالم . وفي هذا النمو والتاريخ تشبه الولايات المتحدة بعض خطوط عريضة من توسع روسيا من ناحية ومن تاريخ بريطانيا من ناحية أخرى .

فكما بدأت روسيا من النواة الأوربية غرب الأورال ثم انطلقت شرقاً على حساب العناصر المغولية حتى الهادي ، انطلقت الولايات المتحدة من نواتها شرق ألبيجني والأبلاش والتي ظلت قابعة فيها أكثر من قرنين . انطلقت بسرعة مماثلة ولكن في اتجاه عكسي كصورة المرآة enantiomorph صوب الغرب حتى الهادي . وعلى حساب السكان الأصليين من الهنود الحمر Amerinds . ولهذا فلو عد أحدهما « استعماراً » لوجب أن يعد الآخر كذلك . وكلاهما إذن حقق أبعادا قارية هائلة وتوسع توسعاً قارياً بكل وضوح ، إلا أن روسيا بعد هذا لم تتعد قاريتها ، بينما قفزت الولايات المتحدة إلى البحار والمحيطات المجاورة .

أما مع بريطانيا ، فتاريخ الولايات المتحدة القصير يشبه في مراحل توجيهه الجغرافي تاريخ بريطانيا الأكثر طولاً . فقد مرت الولايات المتحدة - كبريطانيا - أولاً بالمرحلة

(١) جمال حمدان ، بين أوروبا وآسيا ، دراسة في النظائر الجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٥ - ٢٦٦ .

الاستعمارية حتى حرب الاستقلال . ثم بالمرحلة القارية في أيام لنكولن . وأخيرا بالمرحلة الجزرية حين توحدت تماما وأدركت وضعها بالنسبة للعالم القديم^(١) .

مراحل التوسع مرحلة القارة

ويمكن أن نتعرف في توسع الولايات المتحدة^(٢) إلى حدودها الحالية على ثلاث مراحل واضحة : مرحلة القارة ، مرحلة الهادي ، مرحلة الكاريبي . فالمرحلة القارية ١٧٨٣ - ١٨٥٠ ، حوالى النصف الأول من القرن التاسع عشر تقريبا ، بدأت بشراء لويزيانا ١٨٠٣ من فرنسا نابليون ، ثم بالاستيلاء على فلوريدا من إسبانيا في ١٨١٩ ، ثم بضم تكساس (جمهورية النجم الأوحيد) في ١٨٤٥ من المكسيك (إسبانيا سابقا) . وبهذا وبذلك وصلت الجمهورية الممتدة من المسبى إلى الروكى ومن البحيرات إلى خليج المكسيك . وبعد ذلك مباشرة سوت حدودها مع كندا البريطانية بعد صراع طويل حول أوريجون ١٨٤٦ ، ثم بنفس السرعة انتزعت كاليفورنيا من المكسيك في ١٨٤٨ ، واستكلت آخر حدودها مع المكسيك بشراء رقعة صغيرة هي جيب جاسدن في ١٨٥٣ .

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة ظلت متفوقة تشرنق على نفسها في حدود نواتها الأطلسية الضئيلة زهاء قرنين ، بينما اكتسحت بقية القارة في نصف قرن فقط ، بل بالأحرى في عقد واحد مفعم منذ ضم تكساس في ١٨٤٥ ! كأنما كانت سرعة الانقباض وظيفة لطول مدة الكمون والاختار . ومعناه أيضا أن الولايات المتحدة في حدودها الحالية على القارة لايزيد عمرها اليوم عن قرن لا أكثر .

والمهم أنها بذلك وصلت إلى الهادي لتصبح دولة محيطين شاسعة الامتداد والرقعة - دولة قارة تقريبا . وكان أغلب هذا التوسع أشبه مايكون في فراغ ، وكانت طلائع التعمير الفعلى والهجرة (« اذهب غربا أيها الشاب ، اذهب غربا Go west, young man, go west ») غالبا ما تسبق الضم السياسى الرسمى . كذلك سيلاحظ أن أكبر صراع

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) جويليه ، ص ٤٤ - ٥٢ . الجيوبولتيكا ج ١ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ، ٢٢٥ - ٢٢٧ .

في هذا التوسع كان مع المكسيك التي تضاءلت وانكشيت رقعتهما كثيرا بالتالي ، ولهذا ستظل علاقتها مع الولايات متوترة حتى العقود الأولى من القرن العشرين .

ولاشك أن تحقيق الوحدة أو الدولة الواحدة على مثل هذا المقياس الضخم هو طفرة كبرى في تاريخ التوسعات السياسية . فقد كان من الممكن أن تنتهي إلى أن تنقسمها أكثر من دولة واحدة كما حدث في أمريكا الجنوبية . بل لقد بدأت الدولة اتحادا كونفدراليا قبل أن تتحول إلى اتحاد فيدرالي . ومن قبل ذلك شك الكثيرون في إمكان قيام دولة واحدة على هذا المقياس المديد بل المريد . ولكن بساطة التركيب الجغرافي نسيا ، وانفساح الوحدات الطبيعية كثيرا بالمقارنة بأمريكا الجنوبية ، مع اتفاق فترة التكوين السياسي مع عصر القطار ، هي من العوامل التي تفسر هذه الوحدة القارية النادرة .

وفي هذا المعنى ، يصح أن نقرر أن الولايات المتحدة هي من صنع القطار ، وبنيت عصر البخار . وليس من الصدفة أن الخطوط الحديدية عبر القارية بدأت تظهر ثم تتضاعف في الولايات خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولو قد سبق تكوين وتبلور الولايات سياسيا عصر السكة الحديدية كما حدث في دول أمريكا الجنوبية ، أو لو قد تأخر هذا العصر عما حدث بالفعل ، فلربما كانت الولايات المتحدة اليوم عدة دول لادولة واحدة . ولكن الواقع أن مساحة الولايات التي بدت أكثر مما ينبغي في البداية ، يتضح اليوم أنها جاءت من المقياس الأمثل بالنسبة لنظم النقل والمواصلات الحديثة^(١) .

مرحلة الهادي

هذا عن مرحلة القارة . أما عن مرحلة الهادي ، فقد اقتيدت الولايات المتحدة تلقائيا إلى أضخم محيط بعد أن أصبحت أضخم دولة تطل عليه . وتحتل المرحلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر . فبعد الحرب الأهلية بدأت الولايات بشراء ألاسكا وجزر ألوشيان من روسيا في صفقة بخسة عدت في ذلك الحين حماقة سميت - باسم مهندسها - « حماقة سيوارد Seward Folly » ، وذلك على أساس أنها ليست إلا « صندوقا من الجليد » . وسنرى فيما بعد مفارقة مثيرة حين يتحول هذا الصندوق من الجليد إلى صندوق من الذهب حقيقة ومجازا ، معدنيا واستراتيجيا !

(١) هويتزى ، ص ١١-١٢ .

ثم بدأت الولايات تتوسع على طول الجزر الباسيفيكية على طريق الشرق الأقصى ، وذلك على حساب إسبانيا غالبا . فن قبل استولت على جزر هاولاند وبيكر في ١٨٥٧ ، ثم على ميدواى في ٥٩ - ١٨٦٧ ، ثم على جوام وويك وبعض جزر من مجموعة فينكس في التسعينات . وفي نهاية القرن ضمت هاواى ملتقى طرق الهادى ثم جزر ساموا . إلى أن وصلت في خاتمة القرن والمطاف إلى الفلبين فانترعتها بعد حربها مع إسبانيا وضممتها في عام ١٨٩٩ ، لتنتقلها فجأة من العصور الوسطى إلى القرن العشرين^(١) . ومستظل الولايات تستعمر الفلبين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حين منحتها - بمحض إرادتها وكمثال على « فروسية » السياسة الأمريكية كما تلح دائما - استقلالها في ١٩٤٦ .

مرحلة الكاريبي

أما المرحلة الثالثة مرحلة الكاريبي فتبدأ مع القرن العشرين لتمتد في عقوده الأولى . ففي نهاية حربها مع إسبانيا ، استولت الولايات على كل من بورتوريكو وكوبا في ١٨٩٨ ، ولكنها منحت كوبا استقلالها مباشرة بعد أن احتفظت لنفسها فيها بقاعدة بحرية في جوانتانامو في ١٩٠٣ . أما بورتوريكو فقد ظلت تابعة لها منذ ذلك كمستعمرة محمية إلى أن أصبحت كومونولث في ١٩٥٢^(٢) . ثم حصلت الولايات على منطقة القنال في بنا ١٩٠٣ لتشق فيها بعد ذلك القنال الذى أصبح من أخطر النقاط الاستراتيجية في تركيبها كقوة عالمية . وقد استدعت القناة تأمين ضلوعها الشرقية في جزر الكاريبي ، فكان شراء جزر فرجين « جبل طارق أمريكا »^(٣) من الدنمرك ، ومن بقايا الاستعمار البحرى الصغير القديم . في ١٩١٧ . هذا عدا ضم بعض جزر صغيرة في الأرشيبيل واستئجار البعض الآخر من نيكاراغوا .

قوة بر وبحر

وسنرى من هذا التوسع البحرى الشاسع أن الولايات قد خرجت من الدور القارى إلى الدور البحرى المحيطى بصورة حاسمة ، ولم تعد قوة بر بل وقوة بحر أيضا حتى كأد

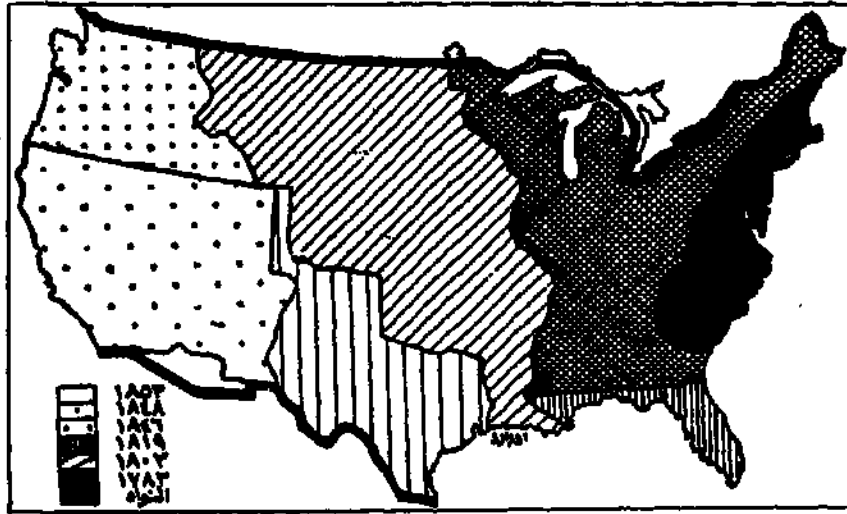
(١) جويليه ، ص ٥١ .

(٢) كول ، ص ٢٥٩ .

(٣) بيكلز ، ص ٢٤٦ .

الهادي - الشرقى على الأقل - أن يكون بحيرة أمريكية ، بينما تقاسمت السيطرة على الأطلسي مع بريطانيا . وستصبح منطقة الدفاع الغربى عن الولايات تتألف من مثلث رؤوسه هاواى - ألاسكا - بنيا ، بينما سيصبح الكاريبي برتمه خط الدفاع الأمامى عن بنيا نفسها .

كذلك سنلاحظ أن هذا التوسع البحرى هو استعمار لاشك فيه ، واستعمار استراتيجى بالتحديد فى الهادى ، واستراتيجى اقتصادى فى الكاريبي ، هدفه أن يضمن نقطا وقواعد بحرية لتكون خطوط الدفاع الأمامية عن الدولة . هذا وتبلغ مساحة ممتلكات الولايات المتحدة خارج كتلتها القارية نحو ربع مساحتها الكلية .



شكل (١٩) نحو الولايات المتحدة على القارة . الموجة المدية ، في نصف قرن فقط ، حملت الدولة الجديدة من المسيسيبي إلى الهادى ، بعد أن أنفقت قرنين في نواتها النووية

ولاشك أن هذا التوسع البحرى - الهائل بأبعاده وإن لم يكن بمساحته - هو نتج عصر السفينة البخارية . ولو أن نشأة الولايات المتحدة السياسية قد سبقت بقرون ، فليس من المحتم أنها كانت بمستطية أن تتوسع مثل هذا التوسع - تماما كما رأينا بالنسبة لرقعتها القارية ذاتها . والمغزى الجغرافى والاستراتيجى لهذا التوسع وذاك هو أن أمريكا جزيرة عظمى معزولة بين أعظم محيطين على الكرة الأرضية ، مجموع اتساعها نحو ٨٠٠٠ ميل أى أقل قليلا من ثلث محيط الأرض ... وأى تهديد لها إنما يأتى من البحر سواء شرقا أو غربا ، ولهذا فالدفاع عنها لا يكون إلا بالقوة البحرية .

وفي نفس الوقت فإن مثل هذا الاطار المحيطي السحيق ما كان يمكن لأي قوة أن تسيطر عليه إلا أن تكون قوة كبرى ذات قاعدة أرضية هائلة حتى نستطيع أن نجد من الموارد والفائض الحربى ما يمكنها من ذلك . ولو أن أمريكا كانت جزيرة صغيرة المساحة لما زاد دورها كثيرا عن دور هاواى أو غيرها من جزر الهادى الضائعة فى خصمه الشاسع . وتلك جيوبولتيكيا آفة الجزر الصغيرة فى وسط محيطات ضخمة^(١) . وإتة لمنطقى جدا أن يكون عرض الدولة التى تولد فى رحم بحرى عرضه ٨٠٠٠ ميل . فى حدود لا تقل عن ٣٠٠٠ ميل .

وفى النتيجة فإن الولايات المتحدة تخرج بكيان سياسى أدنى إلى أن يكون وسطا بين طبيعة الاستعمار البحرى البريطانى والتوسع القارى الروسى ، أو قل هو يجمع بين طبيعتها معا . فبكتلتها القارية المندجة المتناسكة وبما تمتاز به من دفاع بالعمق ، تشبه الولايات المتحدة الروسيا من حيث إنها تستطيع أن تنسحب بأى عدو غاز إلى نواتها الداخلية غرب الأبالاش أو شرق الروكى حتى تشتري الزمان بالمكان . هذا بينا نجعلها مستعمراتها البحرية الجزرية المترامية قريبة من تركيب الإمبراطورية البريطانية المفتتة المشتتة عبر البحار .

كذلك لا بد أن يسترعى انتباهنا فى توسع الولايات المتحدة سواء فى بيتها القارى أو فى مستعمراتها البحرية ظاهرة فريدة قل أن نجد لها مثيلا فى الدول والقوى الأخرى . تلك أعنى ظاهرة « الشراء والاستتجار » الاقليمى . فجزء كبير جدا من رقعة الولايات المتحدة اكتسب بالشراء أو بالاستتجار - شراء ألاسكا وألوشيان ، لويزيانا ، جاسدن ، جزر فيرجين ، واستتجار جوانتانامو . وجزر نيكارااجوا فى الكاريبي . وحديثا استتجار قواعد عديدة فى الأطلسى . ولعل هذه الظاهرة الغربية مرتبطة بطبيعة العالم الجديد كجبهة ريادة سياسية ضخمة وكإقليم جيوبولتيكى جديد يعمر ويستقر دوليا لأول مرة .

النمو المادى

إذا كانت هذه هى السرعة المذهلة التى تم بها توسع الولايات المتحدة الكاسح أرضيا واقليميا ، فإن نموها المادى والاقتصادى لم يأت بأقل سرعة أو اندفاعا . فقد

(١) جون نوجى ، ص ١٢٤ .

بدأت باقتصاد زراعى واسع ، وبمجتمع ريفى بحت مغلغل ، وظلت طوال القرن التاسع عشر دولة زراعية أساسا تصدر الخامات وتستورد المصنوعات من العالم القديم ، حقل أوروبا باختصار . وتمثل حضارة ريفية غير مدنية . ولكن فى النصف الثانى من القرن كانت الصناعة والمدنية تثر التركيب الاقتصادى والحضارى^(١) .

حتى إذا ما كان القرن العشرون نجدنا بإزاء أعظم وأغنى دولة صناعية وأضخم قوة حضارية حديثة . وهى فى الوقت الحالى تقود العالم بسهولة فى كل مجالات الانتاج وتحكر الأولوية والصدارة فى أغلب قطاعاته ، كما تجاوزت أخيرا علامة المائتى مليون فى السكان . وبذلك تكون قد تضاعفت ، فى ١٧٠ سنة منذ ثمانينات القرن الثامن عشر ، أكثر من ٥٠ مرة^(٢) .

والولايات بحكم رقعتها وامتداداتها تمتاز بالتنوع الثرى والغنى فى أقاليمها الجغرافية الطبيعية ومن ثم الاقتصادية الانتاجية ، فتكاد تبلغ حد الكفاية الذاتية فى أغلب جوانب الانتاج إلا أقلها - المداى فى الزراعة ، والبتول فى المعادن . ومع ذلك فالكاربى يعوضها فى الناحيتين إلى حد أو آخر . وكنسجة لهذه الكفاية الذاتية كثيرا مانجدها فى عديد من خطوط الانتاج أعظم منتج ، ولكنها أيضا أعظم مستهلك ، ومن ثم نسبة تجارتها الخارجية محدودة بالقياس إلى إنتاجها . ومن المدهش أن نعلم أن حجم تجارتها الداخلية يعادل حجم مجموع التجارة الخارجية للعالم أجمع ثلاث مرات ونصف المرة !^(٣) ومع ذلك فتلك النسبة من التجارة الخارجية كفيلا وحدها بأن تجعلها مع كثير من الدول أعظم مصدر عالمى أو مستورد !

والضوابط الكامنة خلف هذه الانقلابات الجذرية فى قوة الولايات المتحدة واضحة بما فيه الكفاية . فهى ، أولا ، قد بدأت حضاريا من حيث انتهت أوروبا ، أى أنها أخذت عنها نقاط قوتها وتخلصت من مواطن ضعفها . وفى بيئة بكر ، كان هذا جديرا بأن يغلق الحضارة الحديثة .

وثانيا ، ولدت الولايات الحديثة فى ظل الانقلاب الصناعى ، فهى لم تعرف عصرا إقطاعيا بمعوقاته وأثقاله الاجتماعية والاقتصادية ووقر التقاليد وعدم المرونة الطبقية ، بل

A.P. Brigham. The United States of America, L.U.P., 1927.

(١)

(٢) كول . ص ٢٦٠ .

E.G. Bowen, "The Geog. of Nations". Geog., Jan. 1963, p. 10.

(٣)

تحررت من ثقل الماضي كله واستبدلت بالاقطاع والعبودية الريادة « والفردية العازمة rugged individualism » والليبرالية . باختصار ، « ولدت وفي فيها ملعقة بورجوازية » كما عبر البعض .

ثالثا ، وأخيرا ، ليست الولايات دولة بالمعنى الأوربي . بل هي دولة قارة تفوق أوروبا مساحة وموارد وإن لم يكن سكانا . ومحصلة هذا جميعا أن أمريكا بدأت ابنة أوروبا ، بدأت وهي « أوروبا الصغرى Little Europe » ، فإذا بها تنتهي اليوم إلى أن تتفوق على أمها قامة وقوة وتطورا ، وأن تتحول في الواقع إلى « أوروبا الكبرى Greater Europe » .

مجالات النفوذ

وفي ضوء هذا الكيان العملاق كان لا بد أن تتحول الولايات إلى قطب غلاب من الاشعاع السياسي والنفوذ الاقتصادي ، يرسم حوله دائرة كهربية عظمى تدور في فلكها كثير من الدول وتقع في مجاها المغنطيسي جيوبوليتيكي واقتصاديا . وفي إطار التركيب « الجيوديزي » للقارات ، لم يكن مفر من أن يكون العالم الجديد هو ذلك المجال . فنذ وقت مبكر نجد الولايات نفسها كتلة عملاقة وسط مجموعة من الدول الأقزام - كجليفر في بلاد الأقزام سياسيا ، أو كسمكة القرش وسط السردين كما قيل . فهي تمثل خير تمثيل نظرف « الانحدار الجيوبوليتيكي geopolitical gradient » في العالم الجديد .

خذ مثلا جارتها الشمالية والجنوبية : إما دولة صغيرة أو متخلفة . لا تزيد أي منها في حقيقتها عن أن تكون دولة حدية حاجزة أو خطوط دفاع أمامية يمكن أن تكون بمثابة ماصة للصدمات shock-absorber وعمقا استراتيجيا في الحروب ومجالات نفوذ في السلم . ولذا فإن الحدود معها حدود غير مخفورة « Our unguarded frontier » - مثل نادر ! - والحواجز الجمركية عبرها أقل ما يمكن .

وليست كندا إلا امتدادا شماليا شريحا بحتا للولايات سواء جغرافيا أو بشريا . وهي إذا كانت تعاني من الصراع بين القصور التاريخي والجاذبية الجغرافية ، فيشدها التاريخ إلى بريطانيا وتشدها الجغرافيا إلى الولايات ، فإن المستقبل للجغرافيا . وكندا تنزلق بالتدريج إلى فلك الولايات . وأما المكسيك فبعد علاقات متوترة في القرن التاسع عشر أصبحت اليوم - اقتصاديا - كوكبا يدور بهدوء واستكانة في فلك الشمس الأمريكية .

أمريكا اللاتينية

تبقى أمريكا اللاتينية التي فتت ذريا في أمريكا الوسطى ومزقتها الجغرافية المعقدة والتاريخ الإسباني - البرتغالي المزدوج في أمريكا الجنوبية على محور طويل بعكس أمريكا الشمالية التي قسمت عرضيا . هنا - سياسيا - الإمبراطورية الأمريكية بحق وإن يكن دون الاسم ، وهنا - اقتصاديا - المجال الحيوى للولايات ولو رفض التشبيه !

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر حين أعلن مبدأ مونرو في ١٨٢٣ ليستبعد دول أوروبا أو العالم القديم من التدخل في شئون العالم الجديد ، كان هذا بمثابة إعلان بأن هذا الأخير هو منطقة نفوذ الولايات المتحدة . وحين قامت دول أمريكا اللاتينية بالثورة وحرب الاستقلال - على غرار النمط والمثل الذي قدمته الولايات نفسها من قبل - وأرادت القوى الأوروبية الاستعمارية أن تجتمع في « حلف مقدس » لتعيدها إلى حظيرتها ، أصدرت الولايات المبدأ وأعلنت أنها ستمنع المحاولة بالقوة .

ومنذ ذلك الحين انفصلت اللاتينية سياسيا عن الدائرة الكهربية للعالم القديم لتكون مع الولايات دائرة أخرى جديدة ، أو بالأحرى لتقع في دائرة الولايات . استبدال لوصاية الأم بوصاية الأخت الكبرى يعني ! ومنذ ذلك الحين تراوح مبدأ مونرو - تطبيقا - بين سياسة « العصا والغليلة » ، وحسن الجوار . ولطالما تدخلت الولايات عسكريا في كل هذه الوحدات بصورة لا تختلف عما تفعل الدول الاستعمارية التقليدية في مستعمراتها . ولم تكف تفلت وحدة في أمريكا اللاتينية من هذا التدخل سواء دبلوماسيا أو عسكريا عدة مرات على الأقل .

ولقد شددت الولايات قبضتها على اللاتينية منذ وبفضل قناة بنما . وأصبحت الاستثمارات والاحتكارات الأمريكية في دولها هي - دون أرقام - أساس اقتصادياتها المتخلفة ، وابتلعتها منطقة الدولار ، وانتزعتها بذلك من احتكارات الرأسمالية البريطانية التي كانت تلعب الدور الاقتصادي الرئيسي فيها خلال القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الوقت ودور اللاتينية دور مزرعة أو منجم للولايات يمثل ما أن الولايات مصنع لها ، نفس العلاقة - يعني - بين أوروبا مثلا وبين أفريقيا .

وفي الوقت الحالي لاتزيد اللاتينية - موضوعيا - عن أن تكون تدييلا أو ذنبا اقتصاديا للولايات^(١) ، تتألف من مجموعة من « جمهوريات الموز والانقلابات » - كما

(١) هويتزى ، ص ٨٣ .

ينعتونها ، وتؤلف ما وصف جديا بإمبراطورية الدولار . وتهاكما باستعمار الكوكاكولا
Coca-Colonisation⁽¹⁾ ، وما تسميه أمريكا اللاتينية بإمبريالية اليانكي
Yanqui imperialismo . أما الوضع السياسي فلعله ليس أفضل بكثير . لاسيا في ظل
منظمة اتحاد الدول الأمريكية Pan-American Association .

وفي كل الأحوال فإن الولايات نجب أن تنظر إلى أمريكا اللاتينية على أنها « حديقتها
الخلفية » الخاصة أو « فناؤها الداخلي » المغلق back-yard . وإن من الكتاب والعلماء
الأمريكيين أنفسهم من يعترف صراحة بأن دول أمريكا اللاتينية عامة ، والكاريبى
خاصة ، مستعمرات اقتصادية أمريكية وإن كانت مستقلة سياسيا . بل هناك منهم من
يذهب إلى أن تبعية دول الكاريبي بالذات ، والقائمة بصفة فعلية وإن لم يكن بصفة
اسمية ، إنما هي حتم جغرافي لا مفر منه . بحسبانها أقراما تعتمد اعتمادا مطلقا على
العملاق المتاخم ، وأن الاستقلال لا يمكن أن يزيد يوما عن خرافة قانونية بحتة⁽²⁾ !

لهذا فلعلنا لانبالغ أو نتطرف إذا شخصنا علاقة التبعية الاقتصادية والارتباط
السياسي بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة بأنها نوع مبكر وخاص من « الاستعمار
الاقتصادي » أو « الاستعمار الجديد » بمعناه الحديث . ومن هنا فالاستعمار الجديد ليس
جديدا تماما كما قد نتصوره ، فالنسخة الأمريكية منه قد لاتقل اليوم عن القرن سنا .
وإذا كانت الولايات لا تعترف ولا تسمح دستوريا بامتلاك « مستعمرات » ، فقد نكون
أقرب إلى الحقيقة إذا قلنا إنها في اللاتينية تمارس الإمبريالية دون الاستعمار .

تلك في خطوطها العريضة صورة الولايات المتحدة كقوة عالمية حين خرجت من
عزلتها لتظهر على مسرح العالم القديم في العقود الأولى من القرن العشرين ، لتبدأ في
الحقيقة ما يمكن أن يعد في تاريخها مرحلة توسع رابعة ، وإن تكن سياسيا لا إقليميا ،
وإمبرياليا وليس كاستعمار بالمعنى الفني .

وفي هذه العلاقة يبرز للولايات دائما وبصفة خاصة بعدان محوريان يتعامدان في
زاوية قائمة كبرى تمثل هي رأسها . فهناك المحور العرضي ويمتد نحو الشرق عبر الأطلسي
في أوربا بعامة وأوربا الغربية بخاصة . ثم هناك المحور الطولي ويترامي نحو الجنوب عبر

L. Dudley Stamp. Applied Geog., Pelican, 1960, p. 188.

(1)

(2) هوبنزي ، ص ٤٧٩ - ٥٨٤ .

الكاريبى فى أمريكا اللاتينية . والأول محور معتدل بارد . والثانى أغلبه مدارى حار .
الأول هو محور التاريخ ، والثانى محور الجغرافيا . الأول الجذور ، والثانى الفروع .
الأول هو العرق الأبيض النقى الأب ، والثانى العرق الأبيض المخلط ولكن مع بقاء
القربة العائلية العامة . والملاحظ بالفعل أن الزاوية بصلعها تكاد تشمل معظم كتلة العالم
الأبيض باستثناء النوبات المحدودة المتطوِّحة . كذلك فإذا كانت أطراف المثلث الثلاثة قد
تبادلت السيطرة والتبعية أو الوصاية والقوامة عبر قرونها القليلة ولكن المفعمة ، فقد آلت
الوصاية أو الزعامة تقريبا على الطرفين الآخرين إلى الولايات وإن كانت بدرجات
متفاوتة للغاية بالطبع .

والطريف ، بعد ، هو أن المحورين قد يشدان أحيانا أو مؤقتا كل فى اتجاه مختلف ،
دلالة على وجود بعض التعارض الكامن بينهما . فإثناء حروب الاستقلال فى الأمريكتين
على حد سواء والصراع من أجل استقلال العالم الجديد عن القديم ، كانت الولايات
تغلب المحور الرأسى أى مصالح أمريكا اللاتينية على المحور العرضى أو مصالح أوروبا . أما
الآن فى ظل حلف الأطلسى مثلا وفى الصراع الكتل من أجل القوة العالمية ، فإن الغلبة
والأولوية هى لامفر للمحور العرضى : مثلا اتضح فى أزمة جزر فوكلند حيث لم تستطع
أن تظل طويلا على الحياد بين بريطانيا والأرجنتين فأخذت صف الأولى دون أو ضد
الأخيرة .

اليابان (١)

بريطانيا الشرق الأقصى

« بريطانيا الشرق الأقصى » هى : وفى أكثر من معنى ذلك . فهى مثلها أكبر
أرخبيل جزرى على رصيف قارة لا يفصله عنها إلا مضيق ضيق ، وهى مثلها لاتزيد
كثيرا عن المائة ألف ميل مربع (١٤٣ ألفا) . وإذا كانت اليابان تترامى عبر قطاع أكثر
امتدادا من بريطانيا وأكثر قربا من المدار ، فإنها تشتركان جزئيا فى بعض خطوط
العرض . وكل منها بيئة جزرية بحرية مثالية كاملة ، يفتحها تيار دافئ ، وتحيط بها
الأسماك من كل الجهات . ولأن القاعدة الأرضية الزراعية فى اليابان أشد ضآلة منها فى

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ٢ . ص ٩ - ٨٠ ، كريسى ، ص ١٦٦ - ١٧٩ .

بريطانيا ، بينما أن المد السكاني فيها أشد علوا ، فهي تلفظ أبناءها إلى البحر بدرجة ملحوظة .

كذلك فإن كلا منها تلقى تعميره وحضارته أصلا من القارة ، ثم عرف فترة من السيطرة على أجزاء من القارة . فقد غزت اليابان كوريا في القرن السادس عشر ، بمثل ماملك الإنجليز غرب فرنسا في العصور الوسطى . ثم دخلت كل منهما فترة عزلة ، ففي مقابل « العزلة الرائعة » التي عرفتتها بريطانيا حينما فرض الاقطاع الياباني الحاكم على اليابان « فترة العزلة Seclusion Period » الشهيرة التي - حياية لنفسه - حرم فيها على اليابانيين الاتصال بالعالم الخارجي لنحو قرنين تسبق بداية عصرها الحديث .

أكثر من هذا ، كان الذي كسر هذه العزلة وتلك عامل لا يتخلو من تشابه : غزو الأرمادا هناك ، واقتحام الكومودور بيرى هنا . بل أكثر من هذا أيضا ، إذا كانت كشوف إسبانيا للعالم الجديد هي التي أعطت بريطانيا موقعها الجغرافي البؤري الجديد ، فإن ظهور أمريكا على الجانب الآخر من الهادى هو الذى أعطى اليابان موقعها الحاسم الجديد بعد أن كانت مثلها من قبل في نهاية العالم وعلى هامش العمورة . وفضلا عن هذا فقد وفر الموقع الجزرى الحماية الطبيعية لكل منها . فكما لم يستطع أحد أن يغزو بريطانيا منذ الغزو النورماندى ، لم يطأ أحد أرض اليابان منذ محاولة للغول الفاشلة بقيادة كوبلاى خان في القرن الثالث عشر إلا في الحرب العالمية الأخيرة .

لا ، ولا ينتهى التناظر عند هذا الحد . فكما كانت بريطانيا أسبق دول أوروبا إلى التصنيع وأولاها تمدينا ، فكذلك كانت اليابان أولى دول آسيا إلى الأخذ الكامل بالحضارة الحديثة والصناعة المتطورة وبالتالي أدوات القوة الجديدة . وبدأ هذا بعد أن فتح بيرى موانئها للغرب في ١٨٥٣ ، وسرعان ما دخلت عصر الانقلاب الصناعى ، ربما قبل بعض دول من أوروبا نفسها . وفي هذا المعنى صح أن يقال إن اليابان هي أكثر آسيا أوربية بمثل ما أن روسيا أكثر أوروبا أسوية .

كذلك تشترك اليابان مع بريطانيا في أن كلا منهما بصورة عامة أكثف أو من أكثف وحدات قارته سكانا ، إلا أن اليابان الآن ضعف بريطانيا سكانا . وليس غريبا بعد ذلك أن كلا منهما يعتمد في اقتصاده الجديد اعتمادا كليا على الاستيراد والتصدير ، استيراد الحام الزراعى والمعدنى على السواء ، وتصدير الصناعات بكل مراحلها وأنواعها . ومن ثم فكل منها أبعد مايكون عن الكفاية الذاتية ، ويتوقف مصيره على

التجارة عبر البحار . بل إن هذا لأوضح في اليابان منه في بريطانيا ، لأن الأولى أفقر كثيرا في مواردها الزراعية وكثيرا جدا في مواردها المعدنية خاصة الفحم والحديد .

ومن الطبيعي بعد ذلك جميعا أن تفرج اليابان كقوة بحرية مثالية كاملة إلى الاستعمار ، وأن تتطلع في وقت ما إلى السيادة العالمية أو شبه العالمية . وفي هذا تقف اليابان كالقوة الآسيوية الوحيدة التي - دعك من أن تخضع للاستعمار الأوربي - مارست الاستعمار على قدم المساواة معه . بل وستزعمه أكثر من مرة لحين أو لآخر ، وبهذا كانت أول قوة غير أوربية تهزم قوى أوربية في التاريخ الحديث هزيمة حقيقية .

ولكن اليابان تختلف بعد هذا عن نظيرتها في نواح عدة . فالإبان ، لأمر ما ، لم تعرف الهجرة بالجملة إلى ما وراء البحار . ولذلك سيطر كل استعمارها محصورا في دائرة - على سعتها المائلة - محلية أساسا لا تخرج عن حوض الهادي الغربي ، بعكس الاستعمار البريطاني الذي لف الكرة الأرضية لفا . وربما كان جزءا من السبب في هذا أن اليابان خرجت إلى الاستعمار بعد أن كانت أوسع أبوابه قد أغلقت ولم يبق إلا فتات المائدة .

التوسع القارى والمحيطى

وأخيرا فإن التوسع الاستعماري الياباني ظل منذ بدايته موزعا بين هدفين أساسيين يتجاذبان فيما بينهما من وقت لآخر ولكنه جمع بينهما في النهاية : الأول هو التوسع على القارة ، أى توسع برى ، والثانى هو التوسع في المحيط ، أى توسع بحرى . وهذا على عكس بريطانيا التي كان جوهر استراتيجيتها السياسية العزلة عن القارة وعدم التدخل أو التورط في صراعاتها . وقد كان على اليابان أن تصطدم في توسعها هذا المزدوج مع عدد من القوى برا وبحرا .

فعلى البركان الصدام لا مفر منه مع الصين والروسيا ، ولهذا لم يكن غريبا أن تعرف منطقة الالتحام بينها وبينها في كوريا الشمالية ومنشوريا بحلبة صراع العالم Cockpit of the World ، أو أن توصف بأنها مهد الصراع Cradle of Conflict^(١) ، في حين تعدها اليابان بمثابة بلجيكا وهولندا بالنسبة لبريطانيا ، أى بمثابة مسدس مصوب إليها . وسندكر هنا - بين قوسين - أن هذا هو نفس تشبيه بريطانيا للأراضي المنخفضة .

H. Weigert.. V. Stefansson, R. Harrison, New Compass of the World. N.Y., 1949. (١)

وكما عملت هذه على ضمان حيادها وتجميدها ، ستعمل اليابان على تجميد أو تجميد كوريا ومنشوريا أولا ثم ابتلاعها بعد ذلك .

أما في البحر فقد كان الصدام أساسا وبالضرورة مع بريطانيا والولايات المتحدة . فالخوض الجنوبي الشرقي من الهادى منطقة نفوذ بريطانية تضم مستعمراتها في الأوقيانوسية وأستراليا والبحار الجنوبية وجنوب شرق آسيا ، ومفتاحها الاستراتيجى فى سنغافوره . أما شرق الهادى فهو نطاق الأمان للولايات المتحدة وقد جعلت منه بفضل مثلثها الاستراتيجى بنا - ألاسكا - هواى بحيرة أمريكية إلى حد بعيد ، كما كانت القلبين وبعض جزر الأوقيانوسية بمثابة مواقع أمريكية متقدمة تهدد اليابان البحرية كما تهددها هذه . وبالفعل سيكون مسرح الصراع اليابانى فى الحرب العالمية الثانية هو هذه الجبهة الشاسعة ابتداء من كوريا حتى الأوقيانوسية ، وستكون المعركة برية فى الشمال وبحرية بصورة مطلقة فى الجنوب .

أسرع الإمبراطوريات قياما وسقوطا

السؤال الآن : كيف توسعت اليابان ؟ إذا اعتبرنا أن اليابان الأصلية هى الجزر الأربع ، فإن التوسع لم يبدأ إلا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر بعد أن بدأ تحول اليابان إلى دولة صناعية حديثة ، ولو أن قليلا من التوسع المحلى المحدود على أطراف هذا الوطن الأب حدث قبل ذلك . ويمكن أن نميز ثلاث مراحل للتوسع : المرحلة القوسية فى القرن التاسع عشر ، والمرحلة القارية - الجزرية مع بداية القرن العشرين حتى الحرب الثانية ، والمرحلة شبه الجزرية - المحيطية فى أثناء الحرب الثانية . ويمكن بصفة عامة أن نعد المرحلتين الأوليين من استعمار المعتدلات ، والثالثة من الاستعمار المدارى ، وبذلك تتكرر هنا الثنائية الأساسية التى رأيناها فى زحف الاستعمار البحرى الأوروبى أو الروسى القيصرى .

مرحلة الجزر المحلية

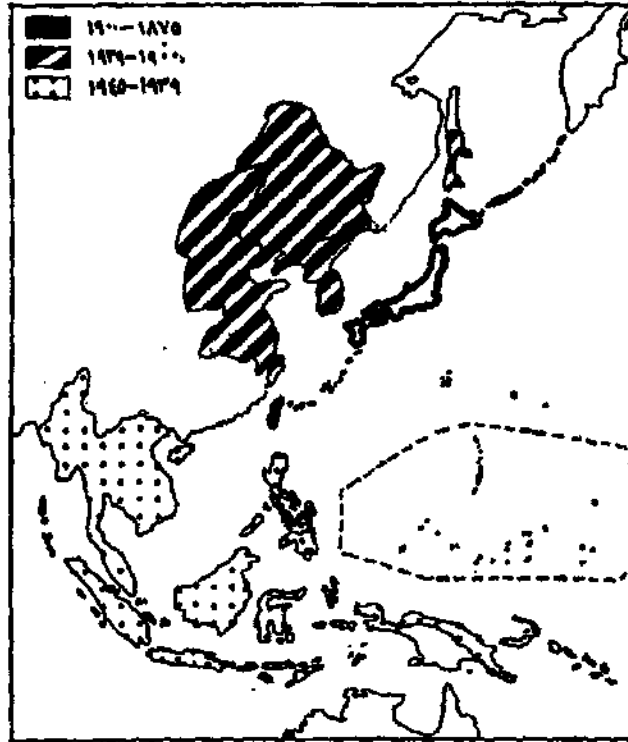
فالمرحلة الأولى ، ١٨٧٥ - ١٩٠٧ ، ارتبطت بقوس الجزر « الفستونية » للمتمد ما بين كمتشكا وفورموزا . فقد بدأت اليابان بضم جزر كوريل (تشيشيا) بالاتفاق مع روسيا فى ١٨٧٥ . وبعدها مباشرة استكملوا ضم جزر ريوكيو ، وهو الذى كانوا قد بدأوه فى مطلع القرن السابع عشر . وفى العقد الأخير من القرن التاسع عشر دخلت اليابان مع الصين فى حرب ١٨٩٥ التى انتهت بأن انتزعت لنفسها فورموزا وجزر

بسكادور ؛ وكادت أن تنتزع لياو تونج لولا تدخل القوى الغربية في صف الصين ، كما فرضت عليها استقلال كوريا تمهيدا لضمها لنفسها فيما بعد .

المرحلة القارية والجزرية

أما المرحلة الثانية . ١٩٠٠ - ١٩٣٩ ، فقد كان مسرحها أرض القارة بصفة أساسية والجزر بصفة ثانوية . فقد بدأت بالحرب اليابانية الروسية ١٩٠٥ ، وهي التي نشبت منعا لتوغل روسيا في منشوريا ونحو الهادي حيث كانت قد توغلت في لياو تونج ، ذلك المجال الذي كانت تطمع اليابان فيه من قبل في أثناء حربها مع الصين . بمعنى آخر نشبت الحرب تطويقا لسياسة روسيا من الوصول إلى البحار في هذا الجانب ، وكانت بذلك صراعا مباشرا بين قوة بحر وقوة بر .

وفي هذه الحرب ، التي كانت أول مرة تهزم فيها قوة أوربية أمام قوة غير أوربية في



شكل (٢٠) توسع الإمبراطورية اليابانية

القرون الأربعة الأخيرة ، استولت اليابان على النصف الجنوبي من سخالين (كارافوتو) وبعض موانئ ومصالح في لياوتونج ، وفرضت على روسيا تحييد منشوريا . أيضا تمهيدا لضمها فيما بعد . وفي ١٩١٠ لم تلبث اليابان أن ضمت كوريا إلى إمبراطوريتها .

حتى إذا كانت الحرب الأولى ووقفت اليابان إلى جانب الحلفاء ، انتهزت فرصة سقوط روسيا وقيام الثورة الشيوعية فيها لتعود إلى تطويقها وعزلها عن البحر ، فشاركت بالقسط الأكبر في حملة سيبيريا حتى بيكال واحتلت شمال سخالين ، إلا أنها عادت فأجبرت على الانسحاب هنا وهناك . على أنها في الصلح نالت من ألمانيا كياتشاو ميناءها في لياوتونج ، وأوشكت أن تترث نفوذها في شانتونج لولا ضغط الحلفاء . ولكن كانت جزر الهادي الألمانية هي الجائزة الحقيقية التي فازت بها اليابان - كانداب - في هذه الحرب : مجموعات ماريانا ، كارولين ، مارشال ، وهي تترامي شرقا بغرب على مدى ٢٥٠٠ ميل وعلى نصف ذلك شمالا بجنوب ، وتمثل استراتيجيا مواقع بحرية أمامية للقفز والسيطرة المحيطية .

وفي الفترة ما بين الحربين كانت بؤرة الأطماع اليابانية مركزة على القارة ابتداء من منشوريا حتى شمال الصين . وقد حاولت التوغل بنفوذها فيها ، حتى إذا كانت « حادثة موكدن » غزت منشوريا وأقامت فيها حكومة منشوكو الصينية التابعة . وكانت منشوريا بذلك أكبر توسع برى لليابان حتى ذلك الوقت ، وقدمت مجالا للاستعمار الاقتصادي ولكن ليس للاستعمار السكاني الاستيطاني . ومن منشوريا بدأ الاحتكاك مع الصين وبدأت حرب ممطوطة متقطعة ستستمر حتى بداية الحرب الثانية .

هذه هي الحرب التي تمثل « الحرب الجالسة Sitzkrieg » خير تمثيل ، والتي كانت همزة الوصل بين المرحلتين التوسعيتين الثانية والثالثة . وحتى بداية الحرب الثانية كانت اليابان قد استولت فيها على نحو الثلث الشمالي من الصين جميعا بما في ذلك الجزء الأكبر من ساحلها . ولعلنا نذكر أنه منذ القرن الماضي وسياسة الباب المفتوح ، والدول الغربية تقف في وجه أطماع اليابان الخاصة في الصين وتقف إلى جانب هذه منعا لتغلغل اليابان . ويمكن أن يشبه هذا الوضع بوقوف دول الغرب البحرية إلى جانب تركيا العثمانية في وجه أخطار التوسع الروسي من قبل . واستمرارا لنفس السياسة وقفت القوى الغربية مع الصين ضد الزحف الياباني في الثلاثينات وساعدت حكومة الصين الحرة في الجنوب لتكون نواة المقاومة حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

المرحلة شبه الجزرية والمحيطية

مع هذه الحرب تبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة في توسع اليابان ، وهي المرحلة شبه الجزرية والمحيطية . وفيها خرجت بلاد الشمس المشرقة في محاولة عظيمة لتجعد لنفسها مكانا تحت الشمس . وقبل هذه الحرب كانت جيوبوليتيكية اليابان تدور حول طرد الاستعمار الأوربي من آسيا تحت شعار « آسيا للأسيويين » ، ولكن ذلك كان أساسا لكي ترثه هي فيها . فدعت لهذا إلى مبدأ « مونرو لليابان » لا يستبعد النفوذ الأجنبي في شرق آسيا إلا لتفرد هي بها . وأصبحت تتطلع إلى شرق آسيا كمجال النفوذ والمجال الحيوي الطبيعي . وتبلورت هذه الجيوبوليتيكية في الصيغة المشهورة « نطاق شرق آسيا الأكبر للرشاء المشترك Greater East Asia Co-Prosperity Sphere » .

غير أن أبعاد هذا النطاق كانت غامضة مطاطة . يمكن أن تتمدد حتى تصل حدودها إلى الهند وأستراليا وكل جزر غرب الهادي . وأن تستوعب كل ماداخلها . والمهم على وجه التحقيق أن اليابان كانت تتطلع إلى إمبراطورية مدارية مترامية تكل اقتصادياتها شبه المعتدلة ، شأنها في ذلك شأن الاستعمار الأوربي المداري . وقد أصبح هذا التوسع جزءا من سياسة أوسع هي سياسة تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ كبرى بالاشتراك مع المحور .

وقد دخلت هذه الاستراتيجية مجال التطبيق حين دخلت اليابان الحرب مع المحور ضد الحلفاء . وبحكم موقعها الجزري كانت في وضع يسمح لها بأن تضرب في كل اتجاه . ولكن السهم المحوري انطلق جنوبا . فبدأت باكتساح شبه جزيرة الهند الصينية . بما فيها بورما والملايو . اكتساحا خاطفا يقدر في بعض وحداتها بالساعات (تايلاند ٥ ساعات !) . وبهذا أصبحت الهند مهددة مباشرة ، بينما تحولت حكومة الصين الجنوبية على ضخامة نطاقها إلى إسفين محصور في بحر السيطرة اليابانية .

كذلك لم تصمد هولندا في جزر الهند الشرقية إلا خمسة أيام بعدها انهار الاستعمار الصغير العتيق ! ثم قفزت اليابان إلى جزر الفلبين فالجزر المحيطية في البحار الجنوبية جميعا حتى مشارف أستراليا . وبذلك أصبح غرب الهادي برمنته بحيرة يابانية في أقل من شهور . ومن الواضح أن الصراع بين اليابان والحلفاء في هذه الحرب كان صراع قوى بحر مطلقة . أي صراع أشباه بحرية أساسا .

وفي أوجه في ١٩٤٢ . امتد التوسع الياباني نحو ٥٠٠٠ ميل طولاً وعرضاً ، ابتداء

من جزر ألوشيان إلى جزر سولون ومن جزر ويك إلى بورما ، وغطى نحو ٣,٢٥٠,٠٠٠ من الأميال المربعة تضم حوالى ٣٠٠ مليون نسمة . ولم يحدث قط أن توسعت قوة أخرى في مثل هذه الرقعة ، في مثل هذه السرعة ، في مثل هذه السهولة ، كما يقول كريسي . فلقد كان الزمن مؤقتا في صف اليابان ، وأضاف إليها التوسع عنصر الدفاع بالعمق على القارة وفي المحيط . أما اقتصاديا فقد منحها الإمبراطورية ثروة ضخمة من الموارد الاستراتيجية الحيوية ، وفي وقت ما كانت اليابان تقريبا أدنى إلى الكفاية الذاتية من الولايات المتحدة .

أسرع سقوط

ولكن بنفس السرعة التي قامت بها الإمبراطورية ، سقطت وانهارت . ولم تكن المقاومة من جانب الأهالي الوطنيين الذين ، باستثناء تاييلاند التي أفقدها الغزو الياباني استقلالها لأول مرة في التاريخ ، كانوا جميعا يخضعون للاستعمار الأوربي أو الأمريكى . بل إن الاستعمار الياباني « منح » كل هذه الوحدات استقلالها . ولعب بهذا إن عفوا أو عمدا دورا خطيرا في حركة التحرير فيما بعد .

وإنما جاءت المقاومة من القوى الاستعمارية القديمة ، وفي عكس اتجاه التوسع ، أى من الجنوب والجنوب الشرقى محيطيا والجنوب الغربى قاريا . وفي هذه المرة لم يعد الوقت في صف اليابان ، ولم تستطع أن تبيع المكان لتشتري الزمان . فبدأ التراجع باطراد شمالا إلى اليابان الأصلية حتى سقطت بدورها بعد أن عجلت القنبلة الذرية بالنهاية ، وبذلك انهارت الإمبراطورية في بضع سنين .

وإذا كانت الإمبراطورية اليابانية هي أسرع الإمبراطوريات قياما وسقوتا ، فإنها تمثل النقيض للإمبراطورية البريطانية التي ربما كانت أبطأها نشأة وانهارا . أو كما عبر البعض ، كان الاستعمار الياباني مرضا حادا حيث كان الاستعمار البريطاني مرضا مزمنًا . واليوم وقد فقدت اليابان جميع مستعمراتها وفتوحاتها ولم يعد لها إلا جزرها الأربع الأم ، فإنها تعود إلى النقطة التي بدأت منها منذ نحو قرن تقريبا في ١٨٧٠ !

لقد عادت سفينة « الداى نيبون » على أعقابها بعد رحلة دموية عاصفة طولها قرن وعرضها قارة إلى مينائها الذى بدأت منه . وأسوأ منه ، عادت لتجد نفسها محتلة وتابعة لغريميتها في الهادى الولايات المتحدة ، وقد ضاع أملها إلى الأبد في السيادة العالمية ، بل حتى في الصدارة الآسيوية ذاتها مع ظهور الصين .

ولقد بدأنا فقلنا إن اليابان هي بريطانيا الشرق الأقصى جغرافيا ، ولكن يمكننا الآن أن نختتم بأنها لعبت في آسيا دور ألمانيا في أوروبا استراتيجيا . فهي مثلها دخلت التصنيع وخرجت إلى العالم في السبعينات الماضية . وهي مثلها انحرفت في اتجاهات عسكرية فاشستية أو شبه فاشستية ولم تخل من أوهام العنصرية وتفوق الجنس . وكل منها وضع لقارته « نظاما جديدا » أدواته اليونكرز هنا والساموراي هناك . وليس صدفة تحالفها معا بعد ذلك . ولكنها أساسا توسعت مثلها توسعا كاسحا رهيبا ، ويقدر ما كان تألقها كان خبوها ، هذه كتلك .

الفصل التاسع

امتداد صراع القوى ألمانيا

الأساس الطبيعي والتاريخي

لم تحقق ألمانيا وحدتها القومية إلا في مرحلة متأخرة للغاية هي السبعينات الماضية ، ولهذا كانت آخر القوى العظمى التي ظهرت على المسرح الأوربي والعالمي . ولقد تأخرت تلك الوحدة لأسباب تاريخية معقدة غدتها من خلف أسباب جغرافية لا تقل تعقيدا . فبحكم موقعها المتوسط في وسط أوروبا تلقت تأثيرات عديدة وأحيانا متعارضة ، أو على الأقل شكلت أجزاءها المختلفة بطواع وتوجيهات مختلفة . وأكد اللاندسكيپ الطبيعي ، الذي تقطعه الجبال والهضاب والغابات والمستنقعات إلى وحدات وأحواض وجيوب منفصلة لا تخلو من عزلة . أكد تلك الطواع المحلية المختلفة .

ولعل أبسط مظاهر هذه الفروق أن الشمال السهلي ارتبط بالبروتستانتية ، بينما ظل الجنوب الهضبي كاثوليكيًا ، مما عمق الصراعات الدينية . . والسهل الشمالي نفسه كجزء من « الممر القاري الأوربي العظيم » Durchgangsland أصبح دهليزا تكسحه الموجات البشرية من هجرات وغزوات جيئة وذهابا ، ذات اليمين وذات الشمال . ومرة أخرى لعل أبسط مظاهر هذه الحركة البندولية ذلك المد والجزر التاريخي بين السلاف في الشرق والتبوتون في الغرب ، والذي وصل بالسلاف حتى منطقة برلين وبالتبوتون حتى ضفاف الفولجا . وقد كانت النتيجة تداخلا شديدا في التوزيعات الإثنولوجية ، ظهر في شكل أقليات عديدة في التخوم والأطراف تنتشر كالجزر في كل شرق أوروبا ، ووضع أساس الصراع التاريخي الرهيب بين عالم السلاف وعالم الجرمان ، وهو الصراع الذي سيلعب دورا خطيرا في استراتيجية ألمانيا بعد الوحدة الحديثة (١) .

(١) فيجريف ، ص ٢٠٠ - ٢٢٤ .

وكتيجة لهذا جميعا فقد ظلت ألمانيا بلا قلب وبلا حدود : بلا قلب ، لأنها لم تعرف عاصمة بؤرية غلاية . بل هاجرت فيها العواصم عبر التاريخ على طول الحدود عامة من الغرب إلى الشرق . وبلا حدود . لأن الانسياح والبيع البشرى جعل تخومها محتلطة السكان غير واضحة المعالم . ومثل هذا إنما هو نمط مضاد للوحدة . والواقع أن ألمانيا في هذا الصدد كانت في وضع أسوأ من إيطاليا التي وصفت بأنها لم تكن إلا تعبيرا جغرافيا . فإذا كانت إيطاليا بلا قلب سياسى واضح : فقد كان لها على الأقل حدود جغرافية حاسمة . أما ألمانيا فلم تكن تعبيرا سياسيا ولا جغرافيا .

في هذا الاطار ورثت ألمانيا الإمبراطورية الرومانية المقدسة البصورية منذ أنشأها شارلمان حتى حطمها نابليون . وقد قلنا بصورية لأنها لم تكن أكثر من تجمع متميع شكلى مفكك من مئات من الوحدات السياسية المنفصلة التي تتراوح بين وحدات ميكروسكوبية ووحدات اقليمية ضخمة : دول مدن قزمية ، مقاطعات اقطاعية ، أحلاف تجارية . أسقفيات كنسية ، ممالك أسرية .. الخ . وقد ثبتت الصراعات والوراثات الأسرية بوجه خاص هذا النمط الفسيفسالى الحفرى . وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان عدد الوحدات السياسية الألمانية يزيد على الثلاثمئة . وإذا كان هذا النسيج المهلهل قد اختزل في أوائل القرن التاسع عشر إلى نحو العشر (٣٩ وحدة) ، فقد ظل أبعد شيء عن الوحدة .

غير أنه حدث أن استطاعت بروسيا ، من نواة أولية في براندنبرج وبعد تاريخ خطر من التمدد والانكماش . أن تتوسع منذ القرن السابع عشر حتى أصبحت أقوى وأضخم وحدة في ألمانيا ، وهذا رغم أنها تعد أصلا من أراضي التخوم الشرقية الفقيرة جغرافيا Marks والتي لم تدخل المحيط الألماني وقلك الحضارة إلا متأخرة تاريخيا . فبدأت تجمع ألمانيا في اتحاد جمركى - الزولفرين الشهير Zollverein - يزيل الحوائط « الصينية » والحواجز الاقتصادية غير المعقولة التي تفتتها . وكان الزولفرين بهذا خطوة حقيقية نحو الوحدة السياسية . التي ستأتى ضد رغبة وفي وجه مقاومة ومناورات كل الدول الأوربية الكبرى القائمة (١)

(١) جوردون إيست ، ص ٢٦١ وما بعدها ، ٤٢٧ .

الوحدة الألمانية

فن البداية ، كانت طفرة بروسيا بسمارك نحو الزعامة تحديا للنمسا ذات التاريخ العريق ، فكان صدام الأقدار بينها الذي انتهى بهزيمة النمسا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الوحدة الألمانية ، التي بدأت باتحاد فيدرالى للشمال اتسع بعدها ليشمل الجنوب ولكن بغير النمسا . كذلك ظلت كتل ووحدات ألمانية كثيرة خارج دولة الوحدة ، لأنها تبلورت من قبل على تنظيم سياسى منفصل بحكم ظروفها الجغرافية أو التاريخية مثل أجزاء من سويسرا والأراضي المنخفضة . وسيكون لهذه « الأقليات » وغيرها خارج الرايخ دورها الخطير في تحديد دور ألمانيا الاستراتيجية فيما بعد .

وقد اتفق نمو الوحدة الألمانية مع عدة تطورات تكنولوجية ساعدت على ميلادها من ناحية وعلى تدعيمها بعده من ناحية أخرى . أولها دخول السكك الحديدية التي جمعت ما قد فرقت الجغرافيا والتاريخ . والحقيقة أنه كان على وحدة ألمانيا أن تنتظر قدوم السكك الحديدية ، وهى لذلك وإلى حد بعيد نتج لها . وبفضلها ولدت ألمانيا من مقياس ضخمة نسبيا ، فضلا عن أنها هى التي أعطتها قلبا جغرافيا وعقدية اصطناعية مكتسبة . أما العامل الثانى فهو الانقلاب الصناعى الذى وصلها وقد بلغ حدا كبيرا من التطور ، ولذلك ولدت ألمانيا من البداية وهى « دولة تكنولوجية » بكل معنى الكلمة - دولة الكولتور Kultur . وسيصبح هذا ملمحا أساسيا في كيانها ومن أخطر مواطن القوة في تركيبها^(١) .

والمحصلة العامة أن ألمانيا ولدت عملاقا يتمتع بقاعدة أرضية ضخمة ، لا تقل كثيرا عن فرنسا وتكاد تعادل ضعف بريطانيا ، بينما تزيد عن أكثرهما سكانا . قاعدة تجمع بين الانتاج الزراعى الكثيف والانتاج الصناعى الثقيل الذى يعتمد على ثروة معدنية متنوعة ضخمة على أى مقياس ، وتكاد تكون أقرب بالقوة وإذا لزم الأمر إلى الكفاية الذاتية Autarky من فرنسا وأقرب بالتأكيد من بريطانيا . قاعدة تحتل موقعا يتوسط قلب القارة ويتاخم عددا كبيرا من دولها ، وفى نفس الوقت يملك جبهة ساحلية كافية على البحر . ومعنى ذلك أنها بموقعها وطبيعتها دولة أمفيبية تجمع بين قوة البر وقوة البحر ، وبمواردها ومقوماتها يمكن أن تتطلع إلى الصدارة في القارة .

(١) فترزجالد ، ص ٩٥ - ١٠٩ .

الصراع القارى

لم يكن مفر لهذا من أن تصطدم الدولة الجديدة بالقوى الكبرى القائمة . فنذ اللحظة الأولى كان عليها أن تواجه فرنسا المتاخمة . إلا أن هذه كانت بريطانيا قد حطمت قوتها من قبل في صراعها من أجل السيادة العالمية ، وما ظهرت ألمانيا كقوة إلا انتهازا لهذه الفرصة التي لولاها لما سمحت فرنسا لها بذلك بالتأكيد . ولهذا لم يكن من الصعب على ألمانيا أن تجهز نهائيا على فرنسا في الحرب السبعينية لتزيحها من صراع القمة .

وكما كان على فرنسا في أثناء صراعها مع بريطانيا أن تواجه أيضا قوة برية على القارة في الشرق هي النمسا ، فكذلك كان على ألمانيا أن تواجه أيضا قوة برية أضخم بكثير هي روسيا . ورغم أن روسيا كانت مركز الثقل السياسى في شرق أوروبا حينئذ ، وأضخم دول القارة مساحة وسكانا ، وتمثل زعيمة السلاف . فقد كانت متخلفة حضاريا وماديا ، وتشكل بذلك تحديا أقل من التحدى الفرنسى . ولهذا لم يلبث مركز الثقل في شرق القارة أن انتقل من روسيا إلى ألمانيا ، من سان بطرسبرج إلى برلين . بل إن من اللئير أن ألمانيا بديناميتها وحضارتها واندفاعها الشاب استطاعت أن تتغلغل بنفوذها في روسيا القيصرية دولة وشعبا . ولعل في الشكل الألماني لاسم العاصمة الروسية وحده - سان بطرسبورج - رمزا بليغا لهذا النفوذ^(١) .

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن افتتاح الزحف الألماني من أجل القوة العالمية بالصدام مع أكبر دولتين على القارة بالذات ، وهما فرنسا وروسيا اللتان تحصران ألمانيا من شمال ويمين ، إنما يرجع إلى حقى مؤكد أن ، مجال حركة ألمانيا كان مرتبطا دائما وأساسا بصلب القارة أكثر منه بما وراء البحار . ومما له مغزاه في هذا الصدد أنه أصبح من سياسة ألمانيا التقليدية أن تشجع هاتين الدولتين على المغامرات الاستعمارية خارج القارة لتبعد أنظارهما ولتبعدهما عن القارة نفسها بقدر الامكان لتخلو لها هذه ، مجالها الطبيعى الوحيد . فعلى سبيل المثال ، كانت هي سياسة بسمارك الواعية العامدة التي وجهت فرنسا إلى تونس بعد حربها السبعينية ، وكانت هي ألمانيا التي حثت روسيا وشجعته على حربها اليابانية في بداية هذا القرن .

Mackinder, Democratic Ideals, p. 105.

(١)

هذا على القارة . غير أنه كان على ألمانيا من الناحية الأخرى أن تواجه بريطانيا مباشرة ليبدأ صراع جبابرة يكرر نفس القصة التي رأيناها مرارا من قبل في غرب أوروبا منذ البرتغال حتى بريطانيا : قوة أكثر بحرية (بريطانيا) تحطم قوة أكثر قارية (فرنسا) ، فترشها قوة أكثر وأكثر قارية (ألمانيا) . ليبدأ الصراع بين الأولى والأخيرة ... وهكذا سنجد أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع بين بريطانيا وألمانيا .

وكما كان كل صراع من الصراعات السابقة ينقلنا باستمرار إلى أبعاد ومستويات أضخم وأخطر . فسجدنا الآن على أبواب صراع عالمي يلخصه ببلاغة تسميتنا للحرب الكبرى الأولى والثانية بالحرب العالمية . فقد كان هذا أول صراع للقوى العالمية في ظل العصر الصناعي بكل فنونه التكنولوجية والعسكرية : وأول صراع بين قوى رأسمالية مكتملة وسافرة .

وقد خرجت ألمانيا من وحدتها لتجد نفسها حبيسة بحر الشمال الذي تغلقه بريطانيا تماما بموقعها وبقوتها البحرية ، وسجينة وسط أوروبا بما يطوقها من دول من كل ناحية . إنها - في معنى - كالروسيا : رهين المحبين . فأخذت لذلك تنمى - تحت عسكرية اليونكرز - قوة برية ضخمة ، جنباً إلى جنب مع أسطول بحري خطر . كانت الغواصة فيه بالذات رمزا لمحاولة الافلات من انغلاقها البحري ، ونكاد نقول نتيجة جغرافية لموقعها وبيئتها . ولو أن ألمانيا ولدت وقد ضمت المناطق الجرمانية الساحلية في الأراضي المنخفضة في دلتا الراين سواء في هولندا أو بلجيكا ، لجاء خطرها البحري ودورها الاستراتيجي مختلفا جدا بالتأكيد .

ولهذا فقد كانت بريطانيا - مقبسة نابليون - تعد هذه الأراضي المنخفضة - شكلا وموضوعا - بمثابة مسدس موجه إليها . بل لقد ذهبت أحيانا إلى حد اعتبار الراين « حدودها » الاستراتيجية^(١) ! وكان رد فعلها المباشر هو التحالف الدائم مع هولندا وبلجيكا وضمان حيادهما دوليا ووحدة أراضيها الإقليمية في وجه هذا الخطر . والواقع أن موقع هاتين الدولتين - الصغيرتين - داخل مثلث القوى الكبرى بريطانيا وفرنسا وألمانيا هو الذي حيدهما ووضعهما في نقطة الخمود السياسي والعسكري في أوروبا .

Reader Bullard. Britain & the Middle East, p. 169.

(١)

ومع ذلك فقد استطاعت ألمانيا أن تخرج إلى المحيط بأسطول حربي وتجارى انتشر حول العالم بحثا عن أسواق التجارة وعن ميادين الاستعمار . غير أنها مالبت أن وجدت . الأسواق - كل الأسواق - احتكارات بريطانية باسم حرية التجارة والأفضليات الإمبراطورية . ومن ثم رفعت سلاح التعريفة الجمركية ومبدأ الحماية لتبدأ الحرب الاقتصادية .

وبالمثل وجدت ميدان الاستعمار وقد أغلق أو كاد ولم يبق على مائدته إلا الفتات . وبالكاد ، وبصرع استعماري حاد ، استطاعت أن تنتزع بعض المستعمرات في أفريقيا وبعض جزر الهادي : فنالت في « التكالب » مستعمرات أربعا ، وفي الهادي حصلت على أرخبيلها الجزرى بالحرب والشراء ، وتمكنت من أن تجد لنفسها موطن قدم على ساحل منشوريا في كياتشاو . وتلك في مجموعها إمبراطورية استعمارية من درجة متواضعة للغاية .

من هنا بحثت ألمانيا عن التعويض في التوسع البرى على القارة ، وذلك بالتوغل الاقتصادي والنفوذ السياسى في دول شرق أوروبا المتخلفة المفككة والتي تتناثر في تضاعيفها غالبا أقليات ألمانية هامة ، ولكن هدفها الأساسى كان إمبراطورية النمسا - المجر وأكثر منها الإمبراطورية العثمانية العجوز . ورسمت بذلك محورا يندفع من قلب القارة ليصل إلى الشرق الأوسط . ذلك كان مشروع الاتجاه نحو الشرق الشهير Drang nach Osten ، الذى اتخذ بخاصة من مشاريع السكك الحديدية عمودا فقريا يرتكز إليه . ولعل مشروع خط برلين - بغداد (أو همبورج - الكويت) هو أهم تلك المشاريع .

وفي رأى البعض أن الهدف الأخير للاتجاه نحو الشرق هو أن تصل ألمانيا بين نفوذها في الشرق الأوسط وبين وجودها في الشرق الأقصى حتى كياتشاو . ولكن كان معنى المشروع أن تعود مرة أخرى فتصطدم ببريطانيا - ومعها فرنسا - التي كان لها النفوذ الأكبر في العثمانية . أخطر من ذلك ، كان معناه أن تصل ألمانيا إلى الخليج العربى لتضرب بريطانيا في العراق على طريق الهند مثلما حاولت فرنسا من قبل في مصر . ولقد تعاضم النفوذ الألمانى الاقتصادي والسياسى بالفعل في الدولة العثمانية وانتزعت من الامتيازات والمصالح ماعمق أبعاد الصراع بين القوتين الأوربيتين بل وحتم الصدام بينهما .

الحرب الأولى

وإذا نحن نظرنا إلى الصراع الاستعماري بينها عبر البحار جنباً إلى جنب مع الصراع الاقتصادي في الشرق . فيمكن - مع ماكيندر - أن نلخص الموقف جميعاً في أن « البريطانيين والألمان أخذوا مقاعد في قطارات سريعة على نفس الخط . ولكن في اتجاهين مضادين . ولعله لم يكن مفر من التصادم منذ حوالى ١٩٠٨ . وقد يمكن أن نحدد الفارق بين المسئولية البريطانية والألمانية كالتالى : السائق البريطانى بدأ أولاً . وسار بلا اكتراث . مهملاً الاشارات : بينما أن السائق الألماني قوى عن عمد قطاره وحصنه حتى يتحمل الصدمة . ثم وضعه على الخط الخطأ . وفي آخر لحظة فتح صمامات بخاره»^(١) . لقد أصل بسمارك سياسة الدم والحديد داخل حدود ألمانيا من أجل الوحدة . ولكن القيصر بعده نقلها إلى خارج الحدود من أجل التوسع .

وفي هذا الصدام الرهيب لعبت حقيقة جغرافية معينة دوراً استراتيجياً حاسماً وفاضلاً . إن ألمانيا . التى يقع جزء منها في شرق أوروبا وجزء في غربها . والتى تضع قدماً على البروقدما على البحر . هى أساساً منطقة بينة تنحصر بين قوى البر الكبرى في شرق القارة وقوى البحر الكبرى في غربها . إنها اليوم « التماسح » الأكبر بين فيل الشرق وحيثان الغرب ! ومن هذه الحقيقة نبعث كل المواقف والتجمعات والتشكيلات السياسية والاستراتيجية في الحرب العظمى الأولى .

فمنذ ما قبل الحرب الأولى كانت فرنسا قد تحالفت مع روسيا . وفي الحرب نفسها لم تجد بريطانيا صعوبة في حشد كل دول غرب أوروبا البحرية ابتداء من إيطاليا حتى هولندا ضد ألمانيا ، ثم في استكمال الكاشة من الشرق بجذب روسيا إلى المعركة . وتفسير ذلك أن دول غرب أوروبا البحرية قد شعرت بسرعة بوحدة مصالحها الكامنة . حتى - على سبيل المثال - لقد أدركت بريطانيا بالندم والأسف خطأها حين تركت فرنسا بلا مساعدة ضد ألمانيا في الحرب السبعينية . وبالمثل أدركت روسيا والغرب وحدة مصالحها المباشرة أو المؤقتة ضد القوة البيئية : فاقامت الحرب مباشرة إلا لثورة السلاف على قهر الجرمان في إمبراطورية النمسا - المجر .

Democratic Ideals, p. 110-1.

أما في الجانب الآخر ، فقد كانت استراتيجية ألمانيا هي - كما لو بالفريزة - تجميع قوى المنطقة البينية في شرق أوروبا ووسطها : النمسا - المجر ، بعض دول البلقان ، ثم الدولة العثمانية . وكلمة « دول الوسط Central Powers » التي أطلقت عليها هي تعبير جغرافي واستراتيجي دقيق بالفعل في هذا الصدد . ومن ثم يبدو النمط الجغرافي للصراع واضحا كل الوضوح وبسيطا إلى حد مثير : لقد اجتمعت قوى البر الضخمة في الشرق مع قوى البحر السائدة في الغرب لتحصرا ، بين شقي رحي ، المنطقة البينية المحصورة بينها .

بهذا حاربت ألمانيا في جبهتين ، وحققت في البداية انتصارات داوية فيها ، إلى أن انهارت القوة الشرقية الروسية وخرجت من المعركة وقد خسرت في برست ليتوفسك كل مكاسبها الإقليمية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وهي دويلات البلطيق وفنلندا وشرق بولندا . فأصبح الصراع حينئذ بين القوى البينية والقوى البحرية ، حيث سادت لفترة طويلة حرب الخنادق أي الحرب الجالسة . ولكن دخول الولايات المتحدة بثقلها في صف القوى البحرية قلب كل توازن وجعل النتيجة حتمية أو هو عجل بها . والواقع أن دخول الولايات المتحدة البحرية هو وحده الذي حدد مصير الصراع .

ومع الهزيمة فقدت ألمانيا كل مستعمراتها عبر البحار ، وقلمت رقعتها على القارة بلا هوادة . فانخفض سكانها في فرساي من نحو ٦٨ إلى ٦٠ مليونا ، ومساحتها من ٢٠٨ آلاف ميل مربع إلى ١٨١ ألفا . أما إمبراطورية النمسا - المجر فصفت إلى كوكبة كالموزايكو من دول مستقلة ملأت وجه شرق القارة كصف أوسط من القوى الصغرى يفصل بين روسيا وألمانيا . هذا بينما تضاءلت تركيا إلى قوقعة الأناضول ، وورث الحلفاء الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأوسط والعالم العربي كاستعمار بالانتداب . وبهذا ختم نهائيا على مصير دولة الرجل المريض التي عاشت أطول مما ينبغي ومما كان يمكن لها وحدها لولا مضاربات القوى العظمى .

ولكن برغم كل قيود فرساي (أم بسببها ؟) ، قفزت ألمانيا مرة أخرى في غضون ربع قرن من الهدنة المسلحة في محاولة أعنى وأشد هولا من أجل السيادة العالمية لأقل . وكان هذا الهدف أشد تمحيذا وقطعا منه في المحاولة الأولى بحكم طغيان الأيديولوجية العنصرية الآرية على النازية الحاكمة . ولاشك أن النازية كنظام فاشستي كانت - جزئيا - نتجا للتقليم وذلك الحرمان من المستعمرات الذي نال ألمانيا . فبعكس الحال

في الحرب الأولى ، دخلت ألمانيا الحرب الثانية بلا مستعمرات البتة . وبينما كان في وسع الدول الغربية أن تتباهى « بديمقراطيتها » في الداخل ، وهي التي بنتها على أساس ديكتاتوريتها في المستعمرات ، لم يكن أمام ألمانيا سوى الديكتاتورية العسكرية السافرة .

مهما يكن ، فلقد مرت مطالب ألمانيا في عدة مراحل . فأولا طالبت بوحدة كل الألمان - الألمانية Deutschtum - في دولة الرايخ ، وذلك بضم العناصر والأقليات الألمانية خارج ألمانيا ، وهم مايسمون بالألمان خارج الوو Auslandsdeutsche ، وعددهم كان يناهز العشرة ملايين . وقد نجح هتلر بالفعل في أن يضم أغلب هذه الأقليات قبيل الحرب ، فوصل بعدد سكان ألمانيا إلى ٨٨ مليونا وبمساحتها إلى ٢٥٩ ألف ميل مربع .

وكانت المرحلة الثانية هي المطالبة « بمجال حيوي Lebensraum » للألمان^(١) ، على زعم أنهم « شعب بلا مجال Volk ohne Raum » . وكان هذا المجال فكرة مطاطة لا تحدها في الواقع ، وبلغت النازية ، إلا « إرادة القوة Will zur Macht » ، فتسع أحيانا من وسط أوروبا حيث طالبوا « بمبدأ مونرو ألماني » إلى وسط أوروبا وشرقها حتى أوكرانيا والقوقاز والبلقان ! ومن أجل هذا ظهر مشروع جديد « للاتجاه نحو الشرق » ، ولكن هدفه هذه المرة كييف لا بغداد .

الحرب الثانية

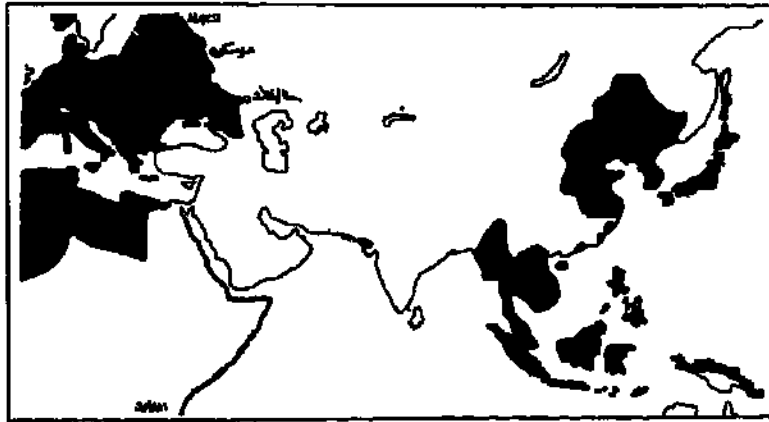
ولقد قامت الحرب في النهاية منعا لألمانيا من اطراد التوسع والانطلاق نحو السيادة العالمية ، وتحول الصراع الاستعماري إلى لون من الصّرع السياسي ... وكانت لتجمعات القوى فيها تختلف في بعض جزئياتها عنها في الحرب الكبرى الأولى ، ولكنها لا تخرج أساسا عن جوهر الصراع فيها . والتغيير الهامنكلا من إيطاليا واليابان ، بأنظمتها الفاشستية العسكرية ، وقفت مع ألمانيا رغم أنها قوى بحر . وكان هدف المحور السيطرة على العالم على أساس تقسيمه إلى مناطق نفوذ عظمى - سياسة Grossraumwirtschaft . ولكن الحقيقة أن المعركة الأوربية كانت معركة ألمانيا ، لأن اليابان كانت تعمل في مجال جغرافي منفصل تماما . أما إيطاليا فلم تكن أكثر من ذنب لألمانيا ، ودخلت الحرب

(١) S.V. Valkenburg. Rise & Decline of German Lebensraum, in New Compass of the World. op. cit., p. 209-14.

متأخرة في انتهازية واضحة . وخرجت منها بالانهيار الداخلي كما حدث للروسيا القيصرية في الحرب الأولى . ورغم كل ادعاءاتها الجوفاء ومظاهرات القوة . لم تكن إيطاليا الفاشستية قوة عظمى إطلاقاً . ولم يكن حلم « حبيسة البحر المتوسط » بإعادة الإمبراطورية الرومانية و « بحرنا » إلا محاولة لوضع عقارب الساعة إلى الوراء وضد الجغرافيا تتجاهل أن إيطاليا في العالم الروماني المحلي المحدود شيء يختلف تماما عن إيطاليا في عالم القرن العشرين بأبعاده الكوكبية^(١) . وقد جاءت الحرب لتثبت خواءها وتفاهتها بصورة ساخرة .

هذا عن جانب المحور . أما على الجانب الآخر فقد اجتمعت كل الدول البحرية في غرب أوروبا ابتداء من النرويج حتى فرنسا ، إلى أن انضمت إليهم الولايات المتحدة كالعادة ، ومتأخرة كالعادة أيضا . ثم إلى أن انضمت إلى الجميع قوة الاتحاد السوفيتي في الشرق . وهكذا عدنا إلى النمط التقليدي لاستراتيجية الحرب الأولى ، وهي اجتماع قوتي البحر والبر في أوروبا في مواجهة القوة البيئية الأمفية . أو الحوت والفيل في مواجهة التمساح .

وإذا كان ثمة فارق ، فهو أن هناك بعضا من تداخل بين تلك القوى يعقد الصورة نوعاً . فقد اجتمعت إيطاليا البحرية مع ألمانيا البيئية ، بينما في الشرق أصبحت اليابان البحرية تتصارع مع الولايات المتحدة البحرية . وفيما عدا هذا إذن يمكن أن نقول إن الحرب الثانية استمرار أو تكرار للحرب الأولى من الناحية الجيوستراتيجية بوجه عام .



شكل (٢١) زحف المحور في أوجه في الحرب الثانية . كانت خطة « النظام الجديد » أن تتصل الجبهة الأوربية بالآسيوية في النهاية .

وإذا كانت الحرب الأولى تتميز بالحرب الجالسة - فإن هذه الحرب^(١) امتازت بالحرب الخاطفة الكاسحة Blitzkrieg واستراتيجية الرعب . فكانت الدول الصغرى تسقط في أيام ، والكبرى في شهور ، والكل في أقل من سنتين ! ففي هذا المدى كانت كل أوروبا ابتداء من النرويج حتى اليونان ، ومن فرنسا حتى قلب الاتحاد السوفيتي الأوربي ، قد سقطت لألمانيا إما بالغزو أو بالضم أو بالانقلاب . وفي هذا التوسع الكاسح أوشكت حدود ألمانيا من الناحية العملية أن تكون هي جيوشها .

وسيلاحظ أن حركة الغزو ترسم دائرة عكس عقارب الساعة . فبدأت بالهسا ثم تقدمت إلى تشيكوسلوفاكيا إلى بولندا إلى النرويج إلى هولندا وبلجيكا إلى فرنسا إلى البلقان . وواضح كذلك أن هذا التوسع الصاعق يتخطى بكثير إمبراطورية نابليون امتدادا وسرعة ولم تعرف أوروبا له من قبل مثيلا . ولعل هذا هو الفارق العسكري والاستراتيجي بين آخر حرب في عصر ما قبل الصناعة وآخر حرب في عصر الصناعة . كذلك فإن الحرب العالمية الثانية أقرب في بعض النواحي إلى الحروب النابليونية منها إلى الحرب العالمية الأولى .

كيف إذن انهارت « قلعة أوروبا » الألمانية هذه وقد سيطرت على كل موارد القارة ؟ لا ، بل السؤال أولا : كيف استطاعت ألمانيا ومحورها أن يقفوا في صف ، وبقية العالم بأسره تقريبا في الصف الآخر ؟ لاشك أن ذلك في ذاته مقياس لقوة ألمانيا الذاتية الكامنة في الموارد والطاقة البشرية والاستراتيجية التي لاسيلا إلى التقليل منها . ولكن من المحقق أن سيطرتها على كل موارد القارة بعد ذلك هي وحدها التي مكنتها من أن تواجه العالم . على أن النهاية جاءت لعدة أسباب . فرغم سيطرتها الجوية الحاسمة ، فقد عجزت ألمانيا كقوة أمفيبية عن أن تعبر البحر إلى جزيرة بريطانيا ، مثلا عجز نابليون من قبل رغم سيطرته على القارة برمتها تقريبا . ومن خلف بريطانيا كانت موارد وقوى الكومونولث والإمبراطورية . ولكن أهم من ذلك ، بيقين ودون جدال ، دور الاتحاد السوفيتي البري والولايات المتحدة البحرية . فلقد كانت معركة الاتحاد - كحملة نابليون - هي بداية النهاية : استنفدت طاقة ألمانيا وامتصت قواها بأبعادها القارية الضخمة ، إلى أن تحول الجزر الدفاعي إلى مد هجومي اكتسح قلب ألمانيا . ويكفي لكي ندرك دور الاتحاد في

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ١٢١ - ١٩٩ .

مصير الصراع ارفد تسعة من كل عشرة المائين قتلوا في الحرب الثانية جميعا قتلوا على أرضه .

وقد غطى التوغل الألماني في الاتحاد في أقصاه نحو ٧٠٠ ألف ميل مربع ، وصلت إلى خط يمتد من لنتجراد إلى موسكو إلى ستالينجراد (فولجوجراد حاليا) إلى القوقاز ، أى من البلطيق حتى البحر الأسود ، أو على جبهة لا تقل عن ٢٠٠٠ ميل طولاً ، ولعلها كانت أوسع جبهة حربية في التاريخ . ولكن هذا بالذات يحدد استراتيجية الاتحاد . فعدا « الشتاء والوحل » - أصدقاؤه التقليديون - كانت استراتيجية الاتحاد هي الدفاع بالعمق وشراء الزمان بالمكان . فكان ينسحب بعذوه في « أرض محروقة » ريثا ينقل صناعاته وموارده عبر الأورال في قلب آسيا ، وحتى يستنفذ قوى العدو ويبطل خطوط مواصلاته وتعمينه .

أما الولايات المتحدة فقد نشرت قواتها الحاربة في كل أركان الكرة الأرضية وصبت مواردها وقواها في آخر معاقل القوى البحرية في أوروبا بريطانيا وأنقذتها من السقوط ، فكانت رأس الحربة أو الجسر الذي بدأ منه أو قريبا منه غزو القلعة . فأطبقت قوى الغرب البحرية على القارة من فرنسا غربا وشمال أفريقيا جنوبا ، إلى أن التقي فكا الكاشة السوفييتي والغربي في برلين .

وبهذا أثبتت الحرب أن موقع ألمانيا في وسط القارة سلاح ذو حدين . فهي بحكم هذا الموقع تشارك مع عديد من الدول في الحدود ، وبالتالي تستطيع من موضع القوة أن تضرب في كل اتجاه ، وهكذا بالتقريب كان . ولكنها لنفس السبب يمكن - في موضع الضعف - أن تضرب من كل اتجاه ، وهكذا أيضا بالفعل كان .

النهاية : ألمانيان

هكذا فشلت المحاولة الثانية العظمى والأخيرة لألمانيا من أجل انتزاع السيادة العالمية من بريطانيا . بل خرجت منها وهي محتلة مقلمة الحدود مبتورة الأطراف ، برقعة أقل مما خرجت بها من فرساي ، وأسوأ منها مقسمة ممزقة بين ألمانيا شرقية وغربية . لكنها - تلك المحاولة - كانت في نفس الوقت نهاية السيادة العالمية البريطانية ، فقد امتصت الحربان العالميتان حيوية بريطانيا ومواردها حتى النخاع . لقد حطم كل من بريطانيا وألمانيا الآخر ، فاهتبلت القوى الجديدة الصاعدة الفرصة لتقوم على أشلائها . وإذا بالصراع

من أجل السيطرة العالمية ينتقل إلى القوى الضخمة هذه - القوى الماموث - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وبهذا أيضا أو أصلا مضى إلى الأبد عصر القوى الكبيرة التي تدور أحجامها حول الخمسين والسبعين بل حتى التسعين مليونا من السكان ، وانتهت تماما كل فرصها في التطلع إلى الصدارة أو السيادة العالمية . وقصارى تطلعاتها اليوم لا يمكن أن تتعدى دول المرتبة الثانية أو الثالثة . ولئن هي كانت لاتزال تستطيع أن تشعل حربا عالمية ، فإنها لم تعد بقادرة على أن تطفئها . ذلك يصدق على ألمانيا كما يصدق على كل من بريطانيا واليابان سواء بسواء .

وهنا لن يتعذر علينا أن نرى أن انتقال مراكز الثقل إلى القوى الجديدة ليس إلا استمرارا أميننا لمنطق وحركة وميكانيزم الصراع الذي عرفته قوى غرب أوروبا طوال العصور الحديثة . فهذا الصراع الذي بدأ بالبرتغال وإسبانيا في القرن الخامس عشر ، ثم انتقل بالتدرج شمالا وفي انفراج مطرد حتى انتهى إلى بريطانيا وألمانيا في القرن العشرين ، قد تم الآن مساره فزحف شمالا وازداد انفراجا حتى استقر في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

وإذا أخذنا في الاعتبار أن الولايات المتحدة كانت بسلاحها الذرى أقوى حريا من الاتحاد السوفيتي في السنوات التي تلت الحرب مباشرة وحتى منتصف القرن ، فيمكن أن نرى أن القوة البحرية كانت الأسبق زمينا إلى وراثه الصدارة العالمية ، ولو أن المنافس البرى لحق بها بسرعة غير عادية . وبهذا يكون نفس الترتيب التقليدى في حركة مراكز الصراع عبر التاريخ الحديث قد تكرر في المرحلة المعاصرة .

والمهم في هذه الانتقالة الأخيرة أن مركز الصراع غادر غرب أوروبا نهائيا ولم يعد صراعا بين قوى بحر صرفة ، بل بعد أن أصبح صراعا بين قوى بحرية وقوة أمقبية لفترة ما في القرن العشرين ، انتهى إلى أن يكون صراعا بين قوى برية وبحرية مطلقة . وبهذا التدرج الوثيد استكملت خطوط الصراعات التاريخية نسيجها لتصل في النهاية إلى قمة التناقض الجغرافى والاستراتيجى - والإيديولوجى كذلك .

فلاول مرة في التاريخ الحديث لا يخرج صراع القوة عن نطاق غرب أوروبا فحسب ، وإنما - وقد يكون هذا أشد خطرا وأعرق مغزى - يخرج عن دائرة الصراع بين قوى رأسمالية على الجانبين ليتحول إلى صراع بين قوى رأسمالية في جانب وقوى

اشتراكية أو شيوعية في جانب آخر. لقد أصبح صراع الأضداد كاملا في كل معنى ومنحى . وهو ما ينقلنا إلى دراسة هذه القوى الماموث المتنافرة والمتناحرة .

القوى الماموث الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي أوجه التشابه

ويسميا البعض تهكما بالقوى الدينوصورية ! ورغم تلك التناقضات الجذرية في الموقع والاستراتيجية والأيديولوجية ، فإن بين الولايات والاتحاد مشابهاة عديدة . فكلاهما دولة حديثة النشأة وقوة عظمى أشد حداثة . فقد نما كل منهما بصورة غير ملحوظة بل تكاد تكون في غفلة من العالم ، ثم ظهر فجأة في مواضع الصدارة . وعرف العالم بوجودهما وعظمتها في وقت واحد تقريبا .

وإذا كان مفكر مثل دى توكفيل^(١) قد استطاع فيما يشبه نبوءة عراف ثاقبة أن يتكهن في القرن الماضي بارتقاءها معا إلى الصدارة العالمية ، فإن هذا الارتقاء جدير بأن يستثير الدهشة مع ذلك . فلقد كانت الولايات مخلوقا سياسيا - بل بشريا - صغير السن للغاية ، وظل حتى نهايات القرن التاسع عشر قوة زراعية ، أما الاتحاد فمخلوق أعرب .

الروسيا وثورة البيثة

ففي أغلب تاريخها الحديث كانت الروسيا تعيش عصورها الوسطى إلى حد بعيد ، وكانت في عزلة راکدة كاملة عن كل تحمرات أوروبا التاريخية من نهضة إلى إصلاح ، بل كان أثر حملة نابليون عليها حضاريا بمثابة احتكاك الصليبيات مع العرب على أوروبا . وحتى عشية الثورة الشيوعية ، كانت الروسيا لم تزال تعيش في رق وإقطاع وبيروقراطية كلها على مستوى بدائي أسوى أكثر منه أوريبيا ، حتى شبهت بعملاق متهدل متهالك ينزوى في استحياء على الطرف القصي من المائدة الأوربية ، وإنما بحكم ضخامتها وحدها كانت أوسع من أن يهزمها الأوربيون ولكنها أعجز وأكثر تخلفا من أن يأخذوها بمجدية .

Alexis de Tocqueville, Democracy in America, 1835.

(١)

فكيف حدثت هذه التحولات المريدة؟ فأما الولايات فقد ورثت حضارة وتكنولوجيا أوروبا الأم بغير ما فيها دون شرما فيها . ثم إنها وجدت في قارتها البكر الهائلة بيئات طبيعية ومناخية تذكر ، عموما ، بيئات أوروبا إن لم تكررنا أحيانا ، وهي على أية حال من أصلح البيئات للنشاط البشرى الكامل . أما الاتحاد فإذا كان قد ورث بيئة حضارية واجتماعية في أقصى درجات التخلف ، فإن بيئته الطبيعية ببرودتها المتجمدة القارسة البالغة القسوة لا يمكن إلا أن تكون طاردة وواحدة للنشاط البشرى . أو على الأقل فلم يكن من المتصور قط - بقوانين الحتم الجغرافى ، أوحى برغمها - أن تقدم في يوم قاعدة لإحدى أضخم قوتين عالميتين في التاريخ .

والحقيقة أن الذى يستثير الدهشة في طفرة الاتحاد ليس فقط تنوير النظام الاجتماعى بالثورة الشيوعية ، وإنما كذلك ثورة البيئة - البيئة الطبيعية بالتحديد - التى أحدثتها تلك الثورة الإيديولوجية . فالجغرافى لا يملك إلا أن يرى أن الثورة الشيوعية تحولت أساسا وفي التحليل والترجمة الأخيرين إلى ثورة بيئات خلقت بيئة جديدة - وبالذات مناخا جديدا - ألغت كل معوقات البيئة الطبيعية الغفل . ونحن نشير هنا إلى الكهرباء بالدقة ، فليس مما لا مغزى له أن كل الثورة الانتاجية والصناعية والحضارية والاقتصادية الهائلة التى خلقها الاتحاد وخلقته إنما يمكن مفتاحها في كهرة الاتحاد . وهل من الصدفة البحتة أن تكون هذه قيمة الكهرباء في بيئة مناخية متجمدة بالذات ؟ لقد غيرت بالفعل المناخ الذى تجرى فيه الحياة اليومية للمواطن ، وهى بما أضافته من طاقة اصطناعية بديلا عن طاقة الشمس كانت بمثابة تغيير بالقوة في خطوط عرض الاقليم ذاته كما قد نقول . وما نظن في هذا كثيرا من المبالغة ، ولا نعنى به بالتأكيد أن نقلل من وزن الإيديولوجيا لحساب التكنولوجيا ، ولكن حسبنا أنه هو لينين نفسه الذى قال منذ البداية إن « الشيوعية هى كهرة الاتحاد » .

والواقع أن تأخر وصول الاتحاد إلى الصدارة العالمية حتى آخر مرحلة من التاريخ الحديث ، في حين أن روسيا دولة قديمة نسبيا من الناحية البشرية ، إنما يعنى أنها كان لابد أن تنتظر وصول التكنولوجيا ووسائل قهر المناخ البارد إلى ذروتها القصوى . والأمر كله يؤكد ما رأيناه من قبل من تحرك مركز ثقل الحضارة والقوة عبر التاريخ من البلاد الدافئة إلى الباردة باطراد متصل بدرجة أو بأخرى .

تلك بعض من جوانب التشابه في بداية وصعود كل من الاتحاد والولايات كقوى

عظمى . وعدا هذا ، وبعد هذا ، فهما وحدهما اللذان يشتركان في ثلاث خصائص هي الأساس الشرطي لمقومات القوة في العصر الحديث : المساحة الضخمة المتصلة ، حجم السكان الكبير ، الموارد الطبيعية الهائلة (١) .

المساحة والموارد

فأما المساحة الضخمة ، فكلاهما أشباه قارات جبارة على أى تقدير . الاتحاد خرج من الثورة وهو أكبر دولة داخلية عرفها التاريخ على الأرجح ، وانتهى وهو يحتل سدس مساحة اليابس ويربو على ضعف مساحة أى دولة أخرى أو على أى دولتين أخريين في العالم . والولايات وإن كانت أقل كثيرا من نصف الاتحاد مساحة ، فإنها تظل الخامسة بين العالم في هذا الصدد .

أما سكانا ، فكلاهما يتجاوز الآن علامة المائتى مليون أو بالأحرى علامة ربع البليون - الاتحاد يتعدها بوضوح (٢٦٥) والولايات تقع اليوم عليها بالتقريب (٢٣٠) . ثم إن لكل منهما نواة عمرانية وحضارية واضحة تعد مركز الثقل والقوة الحقيقية فيه ، هي الربع الشمالى الشرقى في الولايات ، والقطاع الجنوى مما غرب الأورال في الاتحاد . ولقد تكون نواة الاتحاد أكبر قليلا من نواه الولايات ، كما أنها أكثر تجانسا في كثافتها وأقل تركيزا .

ولكل منهما بعد هذا درقة ضخمة كالشرنقة السميقة من الأراضى خفيفة الاستثمار والتعمير تغلف النواة وتمنحها عمقا استراتيجيا ودرعا دفاعيا في الشمال وعلى أحد الجانبين . ولعل الخلفية القطبية ودون القطبية التى تدعم نواة الولايات والتي تشمل كندا أعمق وأوسع قليلا منها في حالة الاتحاد . والواقع أنه قد يكون من الأصح أن نقارن الاتحاد مساحة وتركيبا وربما سكانا لا بالولايات المتحدة وحدها وإنما بها وبكندا معا (٢) .

والقوتان بعد هذا تتشابهان في أن تراسى رقعتيهما عبر خطوط العرض والطول منح كلا منهما غنى وتنوعا في الأقاليم الطبيعية والنباتية ، وثراء وتعددا في الانتاج الزراعى

Bowen, op. cit., p. 9.

(١)

Fawcett, Geog. & Emipre, pp. 429-30.

(٢)

والمعدنى ، اقترب بهما من الكفاية الذاتية والاستقلال الاقتصادى إلى حد بعيد ، وبالتالي جعل تجارتهما الخارجية تمثل نسبة ضئيلة من مجموع إنتاجها الضخم .

السكان

كذلك فإن السكان فى كل منها عصابة أم كاملة : الولايات بوتقة اختلطت فيها كل أجناس العالم ولكن أساسا كل قوميات أوروبا بعد أن تخلت جميعا عن أصولها طوعية وطمعا ، والاتحاد مجتمع متعدد العناصر متعدد القوميات ولكنه يؤلف بينها فى تماسك نادر وبنجاح ملحوظ بفضل سياسته الثورية فى تنمية القوميات والحضارات المحلية والمحافظة عليها بدلا من كبتها أو تمييطها ، وذلك فى إطار الاستقلال الذاتى والحكم المحلى . على أن هناك عنصرا معينا يسيطر عدديا وحضاريا فى الحالين : الإنجليز فى الولايات ، والروس فى الاتحاد . وكل منها لهذا وذاك دولة اتحادية لا وحدوية ، وإن كان حق الخروج من الاتحاد ممنوعا فى الولايات المتحدة ، وغير واضح تماما فى الاتحاد السوفييتى (١) .

العزلة

وعدا هذا فإن القوتين تتشابهان فى أنها كانتا فى عزلة طويلة اختيارية أو جبرية ، ثم خرجتا فجأة إلى العالم الخارجى . فالولايات فى ظل مبدأ مونرو نأت بنفسها عن عمد وبمحض إرادتها عن التورط فى مشاكل العالم القديم ، ولم تشارك فيها إلا راغمة حين بدت أخطاره تهددها فى الحرب الأولى . وبعدها عادت على أعقابها لتنعطف على نفسها فى عزلتها الأثيرة ، إلى أن فرضت عليها الحرب الثانية أن تخرج منها . ومهما يكن ، فإنها فى الحالين لم تدخل الحرب إلا متأخرة سنة أو سنتين نتيجة لترددتها وتأرجحها بين العزلة والخروج .

أما الاتحاد فلطالما ضربت أوروبا حوله « نطقا صحيا cordon sanitaire » أيام القيصرية ، فعاشت الدولة فى شبه عزلة . حتى إذا كانت الثورة ، وجدت نفسها مطوقة بل مغزية بجيوش أوروبا واليابان فى « حرب التدخل » : جيوش رانجل فى القرم ، جيش كولشاك فى سيبيريا ، جيش بولندا فى أوكرانيا ، جيش رومانيا ، جيش بريطانيا

East, New Europe, p. 180-1; Cole. p. 235 ff.

(١)

في أركانجل - وجيش اليابان في شرق سيبيريا - بل لقد وصلت الأخيرة إلى بحيرة بيكال !^(١) كل أولئك لوأد الثورة في مهدها ، وكل أولئك دون جدوى . إلا أن الاتحاد بعد ذلك فرضت عليه العزلة المطلقة ، وتجنبه العالم الخارجى كما يتجنب المجذوم ! وكان « الستار الحديدي » حقيقة واقعة لا منذ الحرب حين صك الاسم ولكن منذ ثورة أكتوبر .

التاريخ الاستعماري

وأخيرا - فإن كلا منها بلا تاريخ استعماري قوى أو محدد شكليا على الأقل ، أو هو بحكم التوسع الأرضي المتصل قد لا يعد استعمارا إلا في معنى خاص ومن نوع خاص . وعلى أية حال - فكل منها ادعى للثالية السياسية في البداية وتبنى مثلا عليا ضد - استعمارية ولم يسع إلى الاستعمار السياسي السافر - بل ولا يعترف أو يسمح لنفسه به نظريا . وربما كان ذلك لأنها خرجتا إلى العالم الخارجى وقد أغلق باب الاستعمار عبر البحار تقريبا .

ومع ذلك فإن كلا منها يتهم الآخر بممارسة الاستعمار بطريقة أو بأخرى . فالاتحاد السوفييتى بعد الثورة ورث إمبراطورية القيصرية كما هي ولم يتخل عن الأقاليم التي عدت استعمارا كوسط آسيا - بل أكثر من هذا ضم فيما بعد مزيدا من الأراضي . أما الولايات فقد ضمت عديدا من الجزر في الهادى والكاريبى بالغزو حينما والشرء حينما آخر . وإذا كان الاتحاد يتهم الولايات في هذا بالاستعمار الاستراتيجى كما يدمغها بالاستعمار الاقتصادى في العالم الخارجى كبديل عن الاستعمار السياسى المباشر ، فإن الولايات ترد له الاتهام « بالاستعمار المذهبي » أو الأيديولوجى الذى يخنق من السطح ليعمل تحتها هدمًا وتخريبا .

وقد خرجت الولايات والاتحاد من الحرب الأخيرة وهما أقوى قوتين على ظهر الأرض ، لا نائلة لهما . فحتى الإمبراطورية البريطانية في مجموعها لم تكن لتقارن في قوتها بأى منها ، فضلا عن تباعد وانتشار أعضائها أولاً ثم تفككها واستقلال أغلبها بعد ذلك ثانيا . فكان هذا التكافؤ أو التقارب في القوة مما أذكى الصراع وحدة التناقض بينها كفرنسى رهان .

(١) إيست - ص ١٦٤ .

التناقض الأيديولوجي والاستراتيجي

وفي مقابل هذه المشابهات ، بقيت الفروق والاختلافات الأيديولوجية والاستراتيجية محورا عميقا للصراع والتناقض . فقد أتى الاتحاد بفلسفة شيوعية شمولية ، ضد رأسمالية ، ضد طبقية . ضد قومية . وضد عنصرية ، مبشرا بها كدين جديد بدلا من الأديان المعروفة . يريد أن ينشره في العالم أو يفرضه عليه « بالثورة العالمية » التي أصبح تصديرها هو « عبء الرجل الأحمر red man's burden » . ومحور هذه الفلسفة أولا وأخيرا هو ديكتاتورية البروليتاريا . وإذا كان البعض يرجع بجذور هذه الديكتاتورية الجديدة إلى التقليد الاستبدادي الداخلي الذي رأيناه للروسيا القديمة . فإن البعض الآخر لا يرى في الأيديولوجية الشيوعية كلها إلا شعارا أو ستارا جديدا « لقوة استبدادية عدوانية توسعية » لا تقل قدما وتغلغلا في الكيان الروسي الأصيل نفسه (١) .

وعلى النقيض من هذا وقفت الولايات المتحدة كأعلى وأعتى رمز للرأسمالية الجائحة ، هرمية الطبقات ، تتعصب للقومية الذاتية مثلا تمارس التفرقة العنصرية ضد الأجناس الأخرى فيها . وفي مقابل الأيديولوجية التي تقدم بها الاتحاد السوفيتي إلى العالم كنقطة قوته ودعوة حياته ، شرعت الولايات المتحدة التكنولوجيا كنقطة تفوق نظامها ، وقدمت فلسفة مضادة ترى تطور التاريخ والمجتمع في مراحل التكنولوجيا لا في مراحل الصراع الطبقي ، وتكاد تعتقد على أية حال أن هذا العصر هو في النهاية عصر الصراع بين الأيديولوجية والتكنولوجيا ، بين الثورة الاجتماعية والثورة التكنولوجية . أقطاب متنافرة ، وتناقض حياة أو موت ، ومن ثم أقدار متصادمة ... وهكذا بالفعل كان . اعتبرت الولايات ومعها أسلافها وحلفاؤها دول الغرب الصراع ضد الشيوعية حربا صليبية وكفاحا مقدسا ، وخرجت لمحاصرته ومبارزته .

قوى بر وبحر

وأخذ هذا التناقض صورة جغرافية محددة حين أصبح الصراع الاستراتيجي هو بين قوى بر مطلقة وقوى بحر مطلقة ، يكفي لنرمز للفروق بينها أن نذكر أن روسيا أو الاتحاد كانت تاريخيا أرض معركة لحروب الكر والفر ، والانسحاب والانقضاض ، بينما أن الولايات المتحدة لم تطأها أقدام الغزاة ولا حتى طائراتهم منذ بداية القرن التاسع عشر

Z. Brzezinski, Ideology and power in Soviet policy, N.Y., 1973.

(١)

(١٨١٢) . وتبلور هذا التضاد الاستراتيجي بعد الحرب حين احتفظ كل منها بمواقفه ومكاسبه الإقليمية .

فالإتحاد من ناحيته ضم منافذ البلطيق وحول دويلاته إلى سوفييتات لا تتجزأ منه ، بالإضافة إلى قطاع ضخيم من شرق بولندا وشرجة من رومانيا . وخارج هذه الحدود الجديدة أصبحت دول شرق أوروبا حتى ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، مضافا إليها كل البلقان عدا اليونان ، أصبحت جميعا دولا شيوعية ملتزمة بالإتحاد أشد الالتحام ، مصيريا وبقائيا ، اقتصاديا وحربيا . أصبحت كتواع أو أقطار تدور في فلك شمس الإتحاد . ويلخص هذه الكتلة سياسيا حلف وارسو ، واقتصاديا منظمة الكوميكون .

ولقد كان معنى هذا أن قوة البر العظمى المرتكزة على أوسع قاعدة في أوراسيا قد تضخمت حتى اهتمت لأول مرة المنطقة الآسيوية التقليدية التي تقع في شرق أوروبا حتى وسطها ، ووصلت بذلك إلى البحار المفتوحة في البلطيق وبحر الشمال والبحر الأسود ومشارف البحر المتوسط ، ولم تعد بذلك حبيسة قاريتها . لقد اتحد الفيل والتمساح في حظيرة واحدة .

وبالإضافة إلى هذا فلم تلبث كتلة الصين الضخمة ، وقد استيقظت من بياتها الشتوى التاريخي وتجدد شبابها بالثورة ، أن انضمت إلى المعسكر الشيوعي ، لتؤكد فيه أكثر وأكثر صفة القارية والامتداد للمتصل بلا انقطاع ابتداء من بحر الشمال حتى المحيط الهادى الجنوبي ، ومن القطبيات حتى المداريات . وكنتيجة لهذه التوسعات المطردة ارتفعت نسبة الكتلة الشيوعية باطراد : فقبل الحرب كانت تضم نحو ١٠٪ من سكان العالم ، وفي ١٩٥٥ بلغت ٢٦٪ من مساحة العالم ، ٣٦٪ من سكانه ، وتسيطر على ٣٠٪ من انتاجه الصناعى . أى كانت بوجه عام تزيد عن الألف مليون نسمة^(١) .

ماذا عن الجانب المقابل ؟ هنالك التأمت كل أوروبا الغربية تحت زعامة – ولا نقول وصاية أو حماية – الولايات فى كتلة مضادة تمتد من أشباه جزر البحر المتوسط حتى أشباه جزر سكندنافيا ، بعمق فى الداخل يصل إلى ألمانيا الغربية ويستوعبها . ومعنى ذلك أن

(١) Keith Buchanan, "West Wind, East Wind", Geog., Nov. 1962 p. 334; J.P. Cole, p. 245.

قوى البحر في أوروبا جميعا ، ومن ورائها موارد مستعمراتها عبر البحار ، ومن خلف الجميع قوة البحر الكبرى أمريكا ، قد تجمعت في حلف مقدس ضد الاتحاد وكتلته .

الاستقطاب الثنائي

وعلى الفور تبدو المحصلة الاستراتيجية العامة للموقف وقد استقطب العالمان المتنافران « استقطابا ثنائيا bi-polarisation » في كتلتين رهيبتين تتقاسمان العالم كمعسكرين مسلحين كالترسانة ، وتقفان وجها لوجه بغير حاجز أرضي أو فاصل اقليمي بينهما : الكتلة الشرقية الشيوعية ، والكتلة الغربية الرأسمالية . والنقطة الحيوية أنه باختزال المنطقة البينية الفاصلة ، قد تأكد لأول مرة النمط الجيوستراتيجي الجديد للعالم : لقد أصبح العالم سياسيا « نصفى كرة » ، بعد أن ظل قرونا وهو يمثل نظاما واحدا مغلقا يتطلع الكرة الأرضية بأسرها . غير أننا لن ننسى في هذا الانقلاب أن « نصف الكرة » الماركسي ماضيا ولا يفرض نفسه إلى جوار النصف الرأسمالي إلا بفضل استفادته إلى أقصى حد من الصراعات الداخلية والتناقضات الغائرة بين قوى هذا الغرب . وفي النتيجة زال إلى الأبد احتكار القوة في يد الغرب الأوربي ، وانتقل العالم لأول مرة في التاريخ الحديث إلى مرحلة ثنائية القوة . وذلك هو المغزى العميق ، والمفعم بالنتائج ، لآخر تطورات الصراع العالمي .

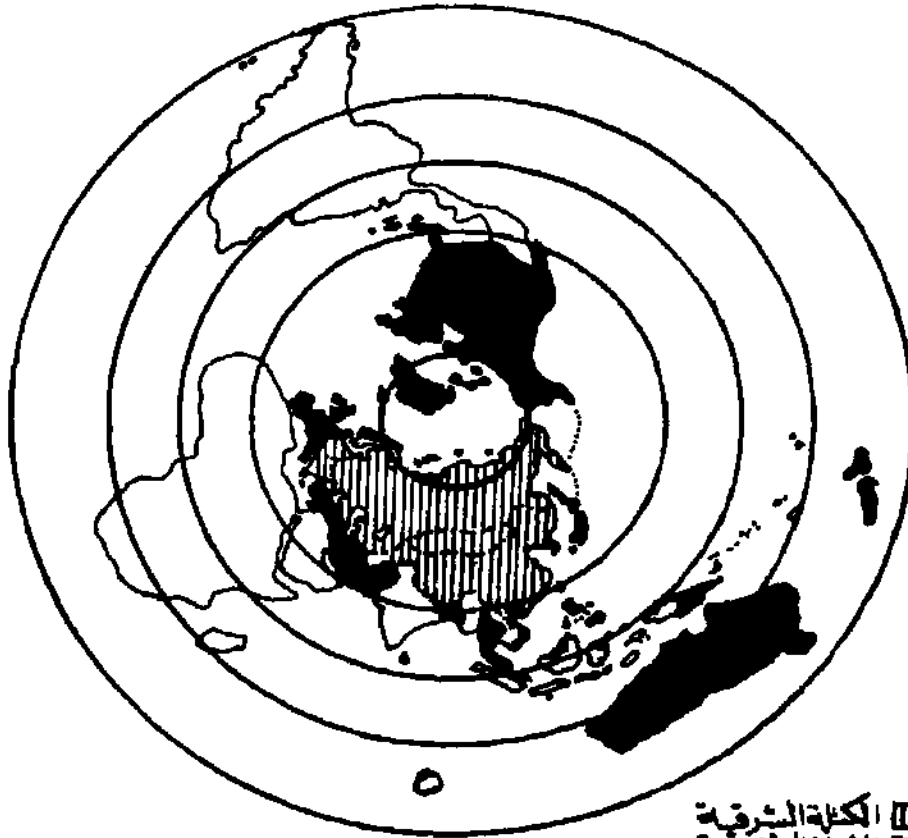
وسيلاحظ في هذا النمط الثنائي البتار ظاهرة لها مغزاها . فعلى طول جبهة الالتحام بين المعسكرين تنتثر الدول والوحدات الممزقة التي أخضعها الاستقطاب الثنائي لقسمته السليمانية - في الشرق على محور عرضي وفي الغرب على محور طولي . فثمة في الشرق كوريا الشمالية والجنوبية ، والصين الشعبية والوطنية ، ثم حتى قريب فيتنام الشمالية والجنوبية . وفي الغرب يبدأ الانشطار من مستوى الدولة حتى يصل إلى مستوى المدينة ، على الترتيب أوروبا الشرقية والغربية ، ألمانيا الشرقية والغربية ، وبرلين الشرقية والغربية ا

الاحتواء

وعند هذا الحد سيلاحظ أن الكتلة الغربية بفضل مستعمراتها المترامية حول العالم ، كانت عشية الحرب أكبر مساحة وسكانا من الكتلة الشرقية ، وأخطر من ذلك أنها كانت تطوقها من الغرب والجنوب والشرق ، بل ومن الشمال كذلك حيث تقترب أمريكا الشمالية اقترابا شديدا من شمال أوراسيا عبر المحيط المتجمد . وبمعنى آخر فقد

كانت الكتلة الشرقية تمثل جزيرة - ضخمة حقا ولكن جزيرة في النهاية - في وسط بحر الكتلة الغربية . ومن هذه الحقيقة الجغرافية نبت كل استراتيجية الغرب بعد الحرب .

الاحتواء containment أو الإحاطة encirclement هي جوهر تلك الاستراتيجية . ومعارها سلسلة متصلة الحلقات من الأحلاف العسكرية السياسية ، الدفاعية الهجومية ، تتحلق حول الاتحاد وتنقطعها نحو ١٠٠ من القواعد الحربية والبحرية والجوية . أما مهندسها فهو الولايات المتحدة التي تحتزن نصف مجموع قواتها المسلحة تقريبا في تلك القواعد . فهناك من الشمال الغربي حلف الأطلسي Nato - وما هو باسم على مسمى تماما - رأس السلسلة والركيزة الأساسية التي تترامى من الترويج حتى تركيا بلا انقطاع حول أوروبا .



شكل (٢٢) الاستقطاب الثنائي ، واستراتيجية الإحاطة والاحتواء .

ثم بلى حلف بغداد سابقا والحلف المركزي Cento بعد ذلك في الشرق الأوسط . هذا عدا حلقة أخرى - مفقودة - هي منظمة حلف دفاع الشرق الأوسط Medo حاول الغرب عبثا أن يفرضها على العالم العربي . ثم يأتي في النهاية حلف جنوب شرق آسيا Seato . وبعده تتكفل قوة الولايات المتحدة نفسها بالضلع الشرقية للمعسكر الشرقى ، لا سيما بفضل وجودها في اليابان المحتلة وكوريا الجنوبية وصين فورموزا .

لقد ضرب الغرب في مقابل « الستار الحديدي » الشيوعي نطاقا ناريا أو حلقة حديدية رأسمالية ! وبين هذا وذاك استعرت « الحرب الباردة » واشتعل السلم المسلح ! (والتعبيران التاريخيان صكهما تشرشل في خطابه الشهير بفلتون بأمرिका Fulton speech غداة الحرب والنصر مباشرة . وبهذا اعتبر الخطاب بمثابة إعلان للحرب المقدسة أو الجهاد ضد الاتحاد ، وعد تشرشل مهندس الحرب الباردة مثلا كان مهندس الحرب الساخنة من قبل) . ولن يخفى أن الكتلة الشرقية في هذا كانت عشية الحرب أقرب إلى موقف الدفاع ، بينما أن الكتلة الغربية كانت أقرب إلى الروح الهجومية .

أرض المعركة

على أنه قد كان من الواضح في ظل الاستراتيجية التقليدية أى السابقة للذرة أن الغريمين الجبارين إذا أرادا أن يشتبكا في معركة ، فإن أرضها لا يمكن إلا أن تكون في غرب أوروبا . لماذا ؟ - لأن هناك ثلاثة ميادين واتجاهات فيها يواجه كل منها الآخر مباشرة : الاتجاه القطبي في الشمال ، ودائرة الهادى على أحد الجانبين ، ونطاق غرب أوروبا على الجانب الآخر (١) .

فأما الطريق القطبي فصحيح أنه لم يعد بجرا جليديا مغلقا تماما بفضل التطورات البحرية الحديثة وخاصة جهود الروس فيها ، وأهم من ذلك أن الطيران قلب قيمته الاستراتيجية كلية فجعله أقصر طريق بين الاتحاد والولايات بل جعله في رأى البعض « البحر المتوسط » القطبي الجديد . ولكنه مع ذلك يظل غير صالح إلا للغارات الجوية المداهمة وعمليات التدمير الفجائية stunt flights وليس لحركة الجيوش .

أما جهة الهادى إزاء سيبيريا وألاسكا ، حيث يكاد يتناس العملاقان ، فطريق برى

(١) فوست ، ص ٤٣٠ .

طويل جدا ومتطوح عن القاعدة البشرية والعمرائية الكبرى في كل من الاتحاد والولايات على حد سواء . ولهذا لا يبقى إلا جهة غرب أوروبا التي أصبحت بذلك أرض تخوم بكل معنى الكلمة بين الاتحاد والولايات وخط الدفاع الأول عن الأخيرة ، حتى لقد عدّها البعض حينذاك أهم منطقة استراتيجية في العالم . من هنا تأتي أهمية حلف الأطلسي الحيوية والخرجة معا .

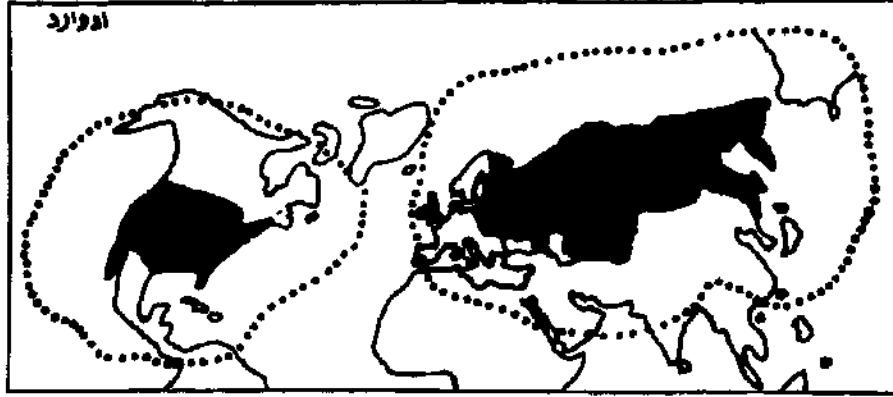
فروق جيوسراتيجية

وهناك بعد هذا بعض فروق جغرافية بين المعسكرين والقطبين تؤثر في استراتيجية كل منهما . فبين المعسكرين نجد أن المعسكر الشرق كتلة أرضية واحدة متصلة بلا انقطاع ، بينما يتألف المعسكر الغربي من جزيرتين كبيرتين هما غرب أوروبا وأمريكا الشمالية ، يفصل بينهما كالأخدود المحيط الأطلسي . ومع ذلك فلا ينبغي أن ننسى أن المعسكر الشرق رغم اتصاله الأرضي شكلا ، فهو أيضا ينقسم (أو كان) إلى جزيرتين بشريتين عظيمتين هما شرق أوروبا والاتحاد في الغرب ، وكتلة الصين وزوائدها كوريا وفيتنام في الشرق ، ويفصل بينهما « خط الاستواء الصحراوي » الهائل في العالم القديم ممثلا في صحارى ومرتفعات وسط آسيا وسبيريا .

ثم يأتي فارق جغرافي آخر بين القطبين . فبحكم الموقع ، يستقر الاتحاد في نصف الكرة « اليابس » ، بحيث يتصل مع ، أو يقترب من ، رقعة كبيرة من مسطح الأرض وعدد وفير من الدول ونسبة هامة من البشرية . وهو لهذا يستطيع أن يضرب وأن يتمدد بسهولة وفاعلية في مدى نطاق ضخم بمجهود أقل . أما الولايات المتحدة فمعزولة في نصف الكرة « المائي » عن كتلة اليابس وجمهرة الدول وأغلبية سكان العالم ، وعليها لكي تصل إليها أن تنفق مجهودا وتتكلف باهظا للانتقال إلى مسرح الصراع . ويتضح هذا إذا نحن رسمنا خطوط أبعاد متساوية isostades حول حدود كل منها وموازيه لها . فثلا خط أبعاد ١٥٠٠ ميل يضع الاتحاد في احتكاك أو اتصال بمساحة ضخمة من الأرض والناس ، ولكنه لا يكاد يضيف إلى الولايات شيئا من ذلك (١) .

تلك إذن ، في خطوطها ومحاورها العريضة وهيكلها الأساسي ، هي استراتيجية الصراع الجديد كما تشكل عشية الحرب الأخيرة ، وكيف تطورت بالتدرج الوئيد عن

(١) جون كوزل - ص ٢٧١ - ٢٧٢ .



شكل (٢٣) خط أبعاد ١٥٠٠ ميل حول الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة

وضعيات وأنماط الصراعات التاريخية السابقة . ولكن فترة ما بعد الحرب ستحمل في أحشائها بذور تغييرات انقلابية بالغة الخطورة . ولهذا يجدر بنا قبل أن نتقل إليها أن نتوقف قليلا لننظر إلى الخلف ، إلى الخلفية التاريخية بكامل طولها كشريط سينائي أو كتيار متصل ، لنرى أى درس فلسفي تعلم ، وإذا ما كان في الامكان أن نركز هذا الدرس في معادلة استراتيجية اختزالية مكثفة .

الفصل العاشر

النظرية العامة في الاستراتيجية العالمية

بمعنى آخر . إنها نظرية عامة في الاستراتيجية العالمية تلك التي آن لنا أن ننسدها بعد أن تتبعنا ، في موضوعية تقريرية بقدر الامكان ، مراحل التاريخ وأدوار الصراع . وسوف تكون مثل هذه النظرية بطبيعتها ، وبالضرورة ، محاولة شخصية تقديرية أكثر منها موضوعية تقريرية . يجوز أن تكون موضع خلاف أو محل تعديل ، ولكن هذا لن يقلل من خطرها . لأنها - بالاسقاط المستقبلي - يمكن دائما أن تخضع للتحقيق والاختبار . فإذا ما نجحت فيمكن أن تكون بوصلة للمستقبل ومؤشرا للتنبؤ الاستراتيجي . وهي بهذا جدية بأن تكتسب قيمة كبرى في التطبيق العملي عند الاستراتيجيين والساسة ، إلى جانب قيمتها الأكاديمية للجغرافي والمؤرخ وطالب العلوم السياسية .

ونبدأ على الفور فنقول إن الذي قدم مثل هذه النظرية العلوية الطموح هو الجغرافي السياسي الكبير هالفورد ماكيندر ، الذي طالما اعتمدنا في بحثنا هذا على كثير من الحقائق والتفاصيل التاريخية التي أوردتها في عرض نظريته . وما نعرف محاولة لوضع مثلها قبله إلا اقتصرنا على جزئيات ضيقة غير مكتملة ، ولا بعده إلا وكانت تعديلا له أو تعليقا عليه . فقبله تكلم الجغرافي الألماني الكبير راتزل في ١٩٠٠ كثيرا عن قوة البر إزاء قوة البحر ، وسبق ماكيندر إلى التنبؤ بأن النصر النهائي سيذهب إلى قوة البر بفضل تفوق مواردها^(١) .

وقبله كذلك تكلم الأميرال ميهان عن قوة البحر ودورها في التاريخ في كتابه *Influence of Sea Power on History* . وهو - وقد كان يكتب في عصر سيادة بريطانيا

Bowen. "Geog. of Nations", p. 4.

(١)

المطلقة على البحار- يرى أن الغلبة في الصراع من أجل السيادة العالمية مقدره للقوة البحرية بفضل مرونتها وحريتها في الحركة وإمكان اعتمادها على موارد ما وراء البحار. وعلى هذا الأساس دعا بلده الولايات المتحدة إلى بناء قوة بحرية ضخمة تنكافأ مع قاعدتها الأرضية العظيمة من ناحية ، ومحيطها الهائلين من ناحية أخرى ، وطالب بحفر قناة بنا لتتحول بها من دولة ساحلين إلى دولة ساحل واحد ، وحدد مجال نفوذ الولايات البحرى بغرب الأطلسى وشرق الهادى ، واعتبر أن الدفاع عن الولايات المتحدة لا يبدأ عند سواحلها بل عند حدود هذا المجال البحرى ، ورأى أن بريطانيا هي الحليف البحرى الطبيعى للولايات ، وتنبأ بعد هذا بأهمية جزر الهادى هاواى والفلبين كقواعد أمامية متقدمة للدفاع ، كما تنبأ بخطورة جزر الكاريبي بالنسبة لبرزخ بنا ، وأوصى بضرورة السيطرة على هذه وتلك ، أى دعا إلى الاستعمار البحرى بصراحة^(١) .

ومن الواضح أن جميع آراء وتوصيات ميهان قد نفذت بالفعل حوالى دورة القرن في إدارة تيودور روزفلت . وواضح كذلك أن دعوته متفائلة بالنسبة للقوى البحرية ، إذ يبشرها بالانتصار . على أن الأوضح أنها لا تقدم نظرية استراتيجية كاملة بمعنى الكلمة وإن فسرت جانباً من الحقيقة . بالاختصار ، لقد قدم آراءه في إطار ومجال أمريكى أولاً ، وفي ظل عصر السيادة البحرية القائمة ثانياً .

أما بعد ماكيندر فليس ثمة إلا تعديلات وتحفظات على النظرية ، تملأ ثغراتها أو توضح معالمها دون أن تهز أركانها على الأرجح . ولعل أهم هذه التعليقات ماجاء من أقلام الجغرافيين البريطانيين أيضاً ، فوست وفيرجريف وإيست ، ثم العالم السياسى الأمريكى سيبكان . فكان فوست أكثر حذراً في تفسير الحقائق الطبيعية والبشرية ، الأمر الذى دعم النظرية أكثر مما قوضها . أما فيرجريف فقد كتب كتاباً كاملاً عن « الجغرافيا والقوة العالمية » تبدو فيه بلا جدال إفادته الكبيرة من ماكيندر ، مثلما يبدو في نهايته تحديد أدق وأوضح لخطوط النظرية أثراها بالتأكيد . بل سنرى أن كتابه هذا سيقرن في الترجمات الأجنبية في الخارج بكتابات ماكيندر . أما سيبكان فقد أدخل تعديلات جوهرية على صلب النظرية قد تصل إلى حد الانتقاص عليها . وسنعرض نحن أولاً لنظرية ماكيندر ثم نردفها بتعديلاتها وتفريعاتها المختلفة هذه .

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ٢٠٧-٢٠٩ .

ماكيندر واهارتلاند

نشر ماكيندر أساسيات نظريته في ١٩٠٥ في مقال قصير وسعه إلى كتاب في ١٩١٩ ، ثم عاد في مقال أخير في أثناء الحرب الثانية ليعدل بعضا من آرائه لتتفق مع تطورات السياسة العالمية^(١) . وقد بدأ بالنظر إلى العالم ككل ، فوجده يتوسع بالتدريج عبر التاريخ نحو وحدة كوكبية . فمع تطور الحضارة ، ولاسيما منها وسائل النقل والمواصلات ، اتسع نفس الحركة البشرية ومدى الترابطات الانسانية ، إلى أن كان القرن التاسع عشر فوحدت القاطرة القارات والباخرة المحيطات ، وفي القرن العشرين أحكمت الطائرة نسج الجميع في وحدة كوكبية شاملة حتى لم يعد هناك « إقليم كامل متكامل أقل أو أكثر من سطح الأرض جميعا » .

وعلى هذا نظر ماكيندر إلى العالم القديم كقارة واحدة ضخمة ذات ثلاثة فصوص ملتحمة ، يتوسطها سما وفعلا البحر المتوسط ، وتضم ثلثي مساحة اليابس ، ودعاها « الجزيرة العالمية World Island » . وتضم الجزيرة العالمية وحدها سبعة أثمان سكان العالم ، بل ١٥ على ١٦ إذا أضفنا الجزر التي تحف بسواحلها . أما القارات الأخرى . الأمريكتان وأستراليا ، فلا تريد مساحة عن ثلث اليابس ، وسكانا عن ١ على ١٦ من البشرية . فهي إذن لا تريد عن أن تكون أقمارا صغيرة مبثوثة حول الجزيرة العالمية وتدور في فلكها . والكل يقع في محيط واحد وإن تعددت أسماؤه هو « المحيط العالمي World Ocean » .

الأقاليم الثلاثة

ثم نظر ماكيندر إلى هذه الجزيرة العالمية فوجد لها قلبا يمثل محور ارتكازها ونواة العالم القديم ، دعاها أولا منطقة الارتكاز Pivot Area ثم عدله إلى قلب الأرض Heartland . وقلب الأرض فكرة طبيعية مركبة ، هي محصلة عناصر ثلاثة : سهولة التضاريس ، الصرف الداخلي ، وسيادة الحشائش . وعلى هذا الأساس الثلاثي يمتد الهارتلاند من حوض الفولجا غربا حتى سيبيريا شرقا وقلب إيران جنوبا . وهو بهذا يضم مساحة ضخمة

(١) Geographical Pivot of History; Democratic Ideals & Reality; "The Round World & the Winning of Peace", Foreign Affairs, 1943, p. 595-605.

متصلة بلا انقطاع من أوراسيا تبلغ ٢١ مليون ميل ، وتبتلع كل الاستبس الآسيوى ،
فيبدو كما لو كان قارة داخل قارة الجزيرة العالمية .

المارتلانند

ولأن المارتلانند سهلى فى مجموعته ، عشى فى غطائه ، فهو منطقة الرعاة بالضرورة
وإقليم حركة الخيالة والفرسان بامتياز . ولأن المارتلانند منطقة صرف داخلى تضعع أنهارها
فى قلب القارة فى بحار داخلية أو تنتهى مشلولة إلى المحيط المتجمد فى الشمال ، فهى
منطقة لا يمكن للأساطيل البحرية الساحلية أن تصعد فيها ، وبالتالي لا يمكن أن تلجها .
إنها المنطقة الوحيدة على سطح الأرض التى تترامى مساحتها بما فيه الكفاية لكى تبتعد
ابتعادا سحيقا عن البحار والسواحل ، وبالتالي تمتاز بحصانة طبيعية تامة ضد الغزو
البحرى .

ومن ثم فهى يمكن أن ترسل تباعا بموجات الفرسان والرعاة على الأقاليم المجاورة ،
ولكن يستحيل على تلك الأقاليم أن تتبعها داخل المارتلانند لترد عليها . وبالفعل فإن
التاريخ يسجل عشرات الموجات والغزوات التاريخية ، ابتداء من الهون والآفار حتى
المغول والأتراك والتتار ، خرجت من المارتلانند تضرب فى كل اتجاه دون رادع حقيقى
يتعقبا فى عقر دارها . ومعنى هذا أن المارتلانند يمكن أن يهاجم لكنه لا يهاجم : إنه
قلعة دفاعية طبيعية - أعظم قلعة دفاعية - على الأرض ، وأضحخ معقل لقوة البر ،
وأمثل نموذج للدفاع بالعمق .

ولقد ظلت قوة المارتلانند محدودة مابقيت كل قاعدة اقتصادها الرعى وكل قوتها
البشرية الرعاة . ولكن الأمر اختلف تماما حين تحول إلى اقتصاديات الزراعة والصناعة
الحديثة ، واستقرت جذور السكان فى الأرض وتضخمت قوتهم البشرية عدديا . وقد
حدثت هذه الثورة الحقيقية حين وحد من مسكوفى ، وورثت روسيا إمبراطورية
المغول ، وحلت حركة القطار محل حركة الخيل . ولعل أثر القطار كان أخطر فى
المارتلانند منه فى أى منطقة أخرى فى العالم ، فقد أصبح أداة توحيدة سياسيا
واستراتيجيا .

وما الضغوط التى مارستها روسيا والاتحاد السوفيقى فى تاريخها الحديث على
دويلات البلطيق وبولندا وشرق أوروبا وتركيا والشرق الأوسط وإيران والهند والصين إلا
الترجمة الحديثة للضغوط التى سبق أن مارسها رعاة الاستبس على جميع حواف

المارتلاندى . والآن - ولأول مرة فى التاريخ - تحتل قلعة المارتلاندى حامية كافية فى دد وكفى فى العدة .

الهلال الخارجى والداخلى

وعلى الطرف النقيض من المارتلاندى تعرف ماكيندر على نطاق ساحلى محيطى بحت ضخم يغلف الجزيرة العالمية على شكل هلال متصل بدرجة أو بأخرى . ذلك هو « الهلال الخارجى أو الجزرى Outer or Insular Crescent » الذى يضم بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وجنوب أفريقيا وأستراليا واليابان . وهذا النطاق هو مهد القوى البحرية ويتمتع ، منذ الكشوف الجغرافية ، بحركة وحرية الملاحة على أوسع نطاق فى المحيط العالمى . وهو الذى وضع بالفعل هيكل الاستعمار البحرى كنظام كامل فى العصر الحديث .

وأخيرا ، وبين المارتلاندى البرى البحت والهلال الخارجى الجزرى البحت ، يضع ماكيندر نطاقا ثالثا يسميه « الهلال الداخلى Inner Crescent » يضم ألمانيا ، النمسا ، تركيا ، الهند ، والصين . والنطاق بطبيعته برى جزئيا ، محيطى جزئيا . ومن الواضح أن هذا يقابل ما وصفناه من قبل بالمنطقة الأهميية أو البيئية . ولكن لعل خير تسمية له هى ما قدم فيرجريف ، إذ دعاه « بمنطقة الارتطام أو الالتحام Crush Zone^(١) » . وهى تسمية موفقة للغاية لأنها تعبر عن طبيعته كضحية للتصادم وكأرض للمعركة بين المارتلاندى والسواحل .

درس التاريخ

وقد تعمق ماكيندر التجربة التاريخية للسواحل الهامشية فى صراعها مع القوى القارية ، فوجد أنه رغم سيادة القوى البحرية المطلقة ممثلة فى بريطانيا على البحار ، ورغم مايلدو فى القرن التاسع عشر وفى الحربين العالميتين من أن كفة القوى البحرية هى الراجحة ونجمها هو الصاعد ، إلا أن هذه نظرة جزئية وللتاريخ فى مجموعته درس آخر . فهو نذير دائم للقوى الساحلية ، البحرية ، ونحذير لها من أن تطمن تماما إلى تفوقها وسيادتها .

Geography & World Power. p. 334.

(١)

حقا إن الوحدات الساحلية البحرية تمتاز بنمو مبكر precocious بفضل ما تتمتع به من حماية طبيعية ، ولها بحكم حركتها الطلقة واتصالاتها وانفتاحها على العالم فضل المبادرة إلى التحضر والثروة سواء بالتجارة أو بالاستعمار ، وبالتالي فلها ميزة سبق إلى القوة . ولكنها في النهاية تعانى من صغر القاعدة الأرضية ، إن لم تكن ضالتها أحيانا . وفي المدى الطويل ، لا تلبث الوحدات القارية الضخمة أن تلحق بركب التطور والحضارة ، فتنتقل من قاعدة أرضية فسيحة غنية متنوعة نحو السواحل والبحار ، وعندما تسقط لها الوحدات البحرية كالنمرة الناضجة كما لو بحكم القدر .

وما أكثر الأمثلة في درس التاريخ : ما إن وحدت إيطاليا تحت روما حتى أصبحت صقلية تابعا لشبه الجزيرة . ما أن نصجت اليونان سياسيا وماديا حتى فقدت كريت لها استقلالها وقوتها ، وكانت من قبل مركز الحضارة والسيادة . ما إن ظهرت قوة مقدونيا الأكثر قارية حتى سقطت لها اليونان الأكثر بحرية . وما أن ظهرت قوة روما حتى سقطت لها اليونان (١) .



شكل (٢٤) نظرية ماكيندر في المارتلاندا . لاحظ التركيب الحلقي حول منطقة الارتكاز

هكذا قد تبدأ الغلبة والسيطرة للجزر على أشباه الجزر ، ولأشباه الجزر على الوحدات القارية ، ولكنها تعود في النهاية لتستقر في أيدي الوحدات القارية الضخمة .

Democratic Ideals, p. 50 et seq.

(١)

من هنا يرفع ماكيندر صيحة التحذير للقوى البحرية ، ويقترح نواقيس الخطر بالنسبة للمستقبل ، ويرفض أن يخدعه تفوقها الحالى أو القريب ، ولا يجد مبررا لأن يفترض أن المستقبل يمكن أن يختلف عن الماضى .

وفى هذا السياق يعود ماكيندر إلى الحاضر ، فيجد أن « رجحان كفة القوة فى صف دولة المارتلاندى جدير بأن يؤدى بها إلى توسعها على حساب الأراضى الهامشية فى أوراسيا وبالتالى يمكنها من أن تجند مواردها القارية الضخمة لبناء الأساطيل البحرية ، ومن ثم تكون الإمبراطورية العالمية على مرأى النظر . ومن الممكن أن يحدث هذا لو أن ألمانيا تحالفت مع الروسيا « (الاتحاد السوفيتى) ، أى إذا اتحد المارتلاندى بصورة أو بأخرى مع الهلال الداخلى ، سواء كانت السيطرة فى هذا الاتحاد للروسيا أو لألمانيا ، وسواء تم هذا الاتحاد بالغزو أو بالاتفاق .

المعادلة والتطبيق

وعند هذا الحد يتضح بجلاء أن شرق أوروبا هو مفتاح المارتلاندى . وبالتالى يصل ماكيندر إلى معادلته الثلاثية الشهيرة التى تلخص كل نظريته التى جاءت أحداث الحربين العالميتين مصداقا لكل فروضها :

- من يحكم شرق أوروبا يسيطر على المارتلاندى .
- من يحكم المارتلاندى يسيطر على الجزيرة العالمية .
- من يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم .

وفى هذا الضوء يرى ماكيندر أن الحرب العالمية الأولى ، وأكثر منها الثانية ، هى حرب مباشرة بين القاريين والساحليين ، بين قوى البر والبحر بلا أدنى جدال . وفى كلتا الحربين حاولت ألمانيا أن تخضع الروسيا أو الاتحاد السوفيتى لتسيطر على المارتلاندى . وإذا كان قد حدث العكس بالفعل ، وانتهت الحرب الأخيرة بسيطرة الاتحاد السوفيتى على كل شرق أوروبا بما فيه شرق ألمانيا ، فإن هذا لا يغير من النتيجة فى شيء ، وإنما يستبدل بألمانيا الاتحاد السوفيتى كالقوة التى تسيطر على المارتلاندى ومفتاحه شرق أوروبا ، ومن ثم التى يمكن أن تسيطر بعدها على الجزيرة العالمية ، فالعالم فى التحليل الأخير .

وهو بعد يرى أن الاتحاد السوفيتى قد خرج من الحرب وهو أعظم قوة برية على وجه

الأرض ، وأكثر من ذلك ، وهو في أقوى وضع دفاعي استراتيجيا ، بينما يجد أن الجزر البريطانية في المحيط المتوسط (الأطلسي) أصبحت في عالم المردة الجديد أشبه شيء بمالطه في البحر المتوسط ، وليس هناك ما يمنع لذلك من أن تقع في يد قوة قارية بالغزو ، أو على الأقل أن تزداد التحاما بالقارة في سياستها ومصيرها . وهذا الوضع برمته يعيد إلى الأذهان بقوة درس التاريخ ما بين القوى البحرية الصغيرة (ولكن السابقة) والقوى البرية اللاحقة (ولكن الضخمة) .

وعلى هذا لمستقبل العالم يتوقف في هذا المنطق على حفظ التوازن في القوى بين الأقاليم الساحلية وبين القوى الداخلية المتوسعة . وفي سبيل هذا التوازن نصح ماكيندر بخلق نطاق من الدول الصغيرة المتناسكة في شرق أوروبا - الصف الأوسط Middle Tier كما دعاه - حتى يفصل بين المارتلاندي والقوى الساحلية ويعزله عنها . وقد تحقق هذا بالفعل منذ فرساي ، إلا أن هذا الصف الأوسط نفسه أصبح جزءا من الكتلة الشرقية ، أي ارتبط الهلال الداخلي بالمارتلاندي أوثق الارتباط . ولهذا فإن التوازن المطلوب لا بد أن يأتي الآن من جانب الولايات المتحدة ، أكبر وآخر معادل القوة البحرية .

ومع ذلك فينبغي ، عابرين ، أن نلاحظ أن الولايات المتحدة بدورها يمكن نظريا أن تتحول بمنطق ماكيندر إلى شيء أشبه ببريطانيا في المحيط الأطلسي . فلو أن هارتلاندي الاتحاد السوفيتي الذي يحكم شرق أوروبا توصل يوما ما إلى السيطرة على الجزيرة العالمية ، فإن العالم الجديد سيصبح محاصرا من الشرق ومن الغرب كجزيرة أقل وزنا وقوة بين ذراعي الجزيرة العالمية . وحينئذ يكون هذا قلبا كاملا للوضع الذي كان سائدا قبل الحرب الأخيرة حين بدأ المارتلاندي كجزيرة محاصرة داخل بحر القوى البحرية ومستعمراتها . وحينئذ تكون الإمبراطورية العالمية على مرمى حجر أو على مرأى النظر .

وأخيرا ، فإن ماكيندر يرى أن الصراع بين القوى البرية والبحرية ، الذي يعبر عن حركة القطار ضد حركة السفينة ، لم يتأثر بمقدم الطائرة ، بل إنها لتؤكد به مثل ماتدعم نظريته . ففي رأيه أن الملاحة الجوية والقوة الجوية هي في الدرجة الأولى سلاح لقوة البر ، إنها بمثابة سلاح فرسان أمفيبي جديد ، في صف قوة البر أكثر مما هو في صف قوة البحر ، لأن الموقع المركزي المتوسط كهذا الذي يمتلكه المارتلاندي ميزة كبرى في الحرب الجوية . كذلك تنبأ بأن استخدام القوى البحرية لطريق كالبحر المتوسط في الملاحة لن يكون إلا بموافقة أو تحت رحمة قوى البر ، لأن هذه تستطيع من قواعد البرية أن

تغلق هذا الطريق بالحرب الجوية . وبالمثل حدد وظيفة بريطانيا منذ القوة الجوية في أنها مجرد « مطار في خندق » ، أو حاملة طائرات كما قد نقول ، أو على الجملة « مالطه كبرى » .

المخالصة

ذلك في أساسياته هو هيكل نظرية ماكيندر في الاستراتيجية العالمية . ويمكن الآن أن نحدد فضله هو وقيمتها هي في ثلاث . فأولا ، استطاع أن ينظر إلى العالم ككل في ضوء وحدة الأرض ، وعلى أساس أن العالم قد صار عالما واحدا ، ومن ثم نظاما سياسيا واحدا - « نظاما مغلقا » يعنى . وبهذا كان « أول من أمدنا بفكرة كوكبية عن العالم » ، وهو في هذا قد « جند الجغرافيا في خدمة السياسة والاستراتيجية » كما عبر السفير وينانت⁽¹⁾ . ولقد كان هدف ماكيندر الأساسى كما قال هو أن يضع « معادلة جغرافية تستطيع أن تتركب فيها أى توازن سياسى » . وبفضل نظرتة الكوكبية الشاملة استطاع أن يرى جوهر هذه المعادلة في الصراع بين قوى البر والبحر .

ثانيا ، إلى جانب النظرة الكوكبية لم يغفل النظرة الاقليمية ، ومن هنا استطاع أن يخرج بثلاثيته الأساسية : المارتلاندا ، الهلال الداخلى ، الهلال الخارجى الجزرى . وهذه لاشك هي الأقاليم السياسية الطبيعية الكبرى ، والأكثر خلودا في العالم ، وقد نجح في أن يتعرف على ملامح وتوجيهات كل منها . ومن الواضح أن الأقاليم الثلاثة هي في الحقيقة بناء حلقى concentric ، فثمة في القلب حول القطب الشمالى يقوم المارتلاندا ، ثم حوله كحلقة وسطى الهلال الداخلى ، وفي النهاية حلقة أوسع وأكبر محيطا هي الهلال الخارجى . ثم لن يخفى أن الأساس الدفين الذى يحدد هذه الأقاليم إنما هو في النهاية الموقع - الموقع الجغرافى - الموقع النسبى - الموقع ، أعنى ، قريبا أو بعدا من قلب اليابس أو ساحل البحر .

ثالثا ، وأخيرا ، لم يكتف ماكيندر بالتشخيص ولكن توصل إلى التنبؤ وإن أعلن أنه ليس هدفه . فقد استطاع من البعد التاريخى أن يضع يده على احتمالات ومصاير الصراع بين قوى البر والبحر . فلم تحدعه شهادة تجرية مرحلية ، ورأى نذر الخطر على الأفق بالنسبة للقوى البحرية ، وذلك رغم أنه - بل لأنه - شخصيا كان « استعماريا

عتيدا» ، يهمة جدا كيان الإمبراطورية البريطانية . وقد جاءت نبوءته ، بعكس ميهان ، تحذيرية متشائمة بدرجة أو بأخرى بالنسبة لمستقبل القوى البحرية . وبينما نظر ميهان إلى الماضي ليركز على الحاضر ، نظر ماكيندر إلى الماضي والحاضر ليركز على المستقبل .

والشيء الذى ينبغى أن نلاحظه أنه إذا كان ماكيندر قد صنف أقاليم الصراع الاستراتيجى على أساس «الموقع» ، فقد نظر فى الحقيقة إلى مصايرها على أساس «الموضع» أى مدى قوة القاعدة الأرضية (بمواردها الطبيعية وقوتها البشرية ودرجتها الحضرية والتكنولوجية... الخ) . فوجد أن المستقبل بعامة ليس للمواقع الممتازة ولكن للمواضع الأغنى .

نقد النظرية

السؤال الآن : كيف قوبلت نظرية ماكيندر ؟ من المفارقات التاريخية أن هذه النظرية الخطيرة أهملت فى وطنها ، بينما نالت شهرة داوية وعناية فائقة خارجه فى ألمانيا ، وألمانيا النازية بالذات ... فلقد تلقفتها مدرسة «الجيوپوليتيك» الألمانية ممثلة فى معهد الجيوپوليتيك فى ميونخ برئاسة الجنرال كارل هاوسهوفر ، وترجمتها هى وكتاب فيرجريف ووجدت فيها وثيقة استراتيجية خطيرة ، وأصبحت النظرية أساسا فى فلسفتها . وكثيرا ما اعتمد هاوسهوفر فى كتاباته على كتابات ماكيندر ، واعترف بدينه له رغم أنه «عدو بغض» ، بل لقد عدّ مقاله عن «المحور الجغرافى للتاريخ» «أعظم النظريات الجغرافية العالمية جميعا» ، وأكد أنه «لم ير قط شيئا أعظم من هذه الصفحات القليلة كرائعة جيوبوليتيكية»^(١) . وقد تلقف هاوسهوفر خشية ماكيندر من أن تحالف ألمانيا والروسيا ليقبها إلى دعوة إلى مثل هذا التحالف . والمقول أن هذا بالفعل كان المحرك خلف تحالف هتلر وستالين فى بداية الحرب . فقد ألهم هاوسهوفر رودلف هس بالكثير من أفكاره ، وألهم هذا هتلر بدوره بالكثير منها فى «كفاحى» . على أن الاتجاه الآن هو إلى أن تأثير هاوسهوفر على الحكم النازى قد بولغ فيه كثيرا . وبالتالي يكون قد بولغ فى تأثير ماكيندر على السياسة الألمانية^(٢) . وأيا ما كان فقد كانت

Zeitschrift für Geopolitik. 1925.

(١)

G.R. Crone, "A German View of Geopolitics", Geog. Journal, 1948, p. 108.

(٢)

النتيجة لهذا كله أن اتهم ماكيندر بأنه ساعد على وضع أساس العسكرية النازية ، وهو ما نفاه هو بشدة وغضب - وعلى حق - لأنه إنما وضع أسس نظريته قبل قيام النازي بثلاثين عاما .

على أن الحرب الثانية أدت إلى «إعادة اكتشاف» ماكيندر في الغرب وإعادة تقييمه . فاشتد الاهتمام به وبآرائه لا في مدارس الجغرافيا وحدها ، ولكن في الأكاديميات العسكرية والمعاهد السياسية كذلك . بل لقد أصبح ماكيندر بفضلها - سواء لحسن الحظ أو لسوءه ، كما عبر أحد الجغرافيين - أشهر الجغرافيين جميعا خارج الدوائر الجغرافية والمهنة ، كما عد كتابه واحدا من أخطر الكتب التي ظهرت في القرن ، فيه من البصيرة والنبوة أكثر مما فيه من السرد والوصف . غير أن البعض يحس أن آراء ماكيندر ربما قد قبلت بروح نقدية أقل مما ينبغي .

أسس التحديد

ويمكننا هنا أن نحصر النقد الذي وجه إلى نظرية ماكيندر في الشكل والموضوع . فن حيث الشكل ، أخذ عليه أنه عدل كثيرا في حدود الهارتلاند بصورة مربكة ، ولكنه احتج بأن تلك هي طبيعته المركبة التي تقوم على أساس ثلاثي من السطح والنبات والصرف مما لا يسمح بالتحديد الصارم . كما أن تعديله للنظرية في أثناء الحرب العالمية الثانية يعده البعض طفيفا ، ولكن لا يكاد يتعرف فيه البعض على النظرية الأصلية (١)

وأخطر من هذا تحديده للهلالين الداخلي والخارجي . فلقد ترك ماكيندر منطقة بلا تحديد بين الهلالين تشمل الأراضي المنخفضة وفرنسا وأيبيريا وإيطاليا ، ولم يضمن الهلال الخارجي في أوروبا إلا بريطانيا باعتبارها جزرية محيطية بحتة . ولكن هذه الدول الساحلية قوى بحرية بلا شك رغم أنها أقل بحرية من بريطانيا . بل إن ماكيندر عالج كثيرا من هذه الوحدات قيا بعد في كتابه على أنها قوى بحر . ولهذا ينبغي أن نأخذ مفهوم قوة البحر أو البر كمسألة نسبية بالتأكيد . من هنا عدل فيرجريف نطاق القوى البحرية ليشمل تلك الدول ، كما ضم إليها مستعمراتها البحرية على سواحل أفريقيا وآسيا .



الهارتلانداً
 منطقة الارتطام
 قوى البحر

شكل (٢٥) استراتيجية القوة وأقاليم الصراع السياسي في العالم القديم حسب فيرجيف

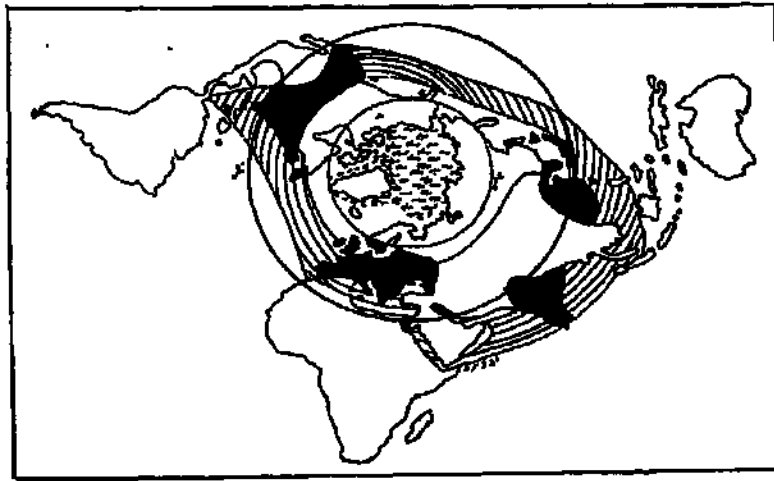
وبالمثل فإن ماكيندر لا يرسم الهلال الداخلى كاملا ، بل يترك ثغرات هي لاشك في صميمه كوحداث الدانوب والبلقان ، كما أنه يغفل الشرق الأوسط . ومرة أخرى يعدل فيرجيف هذا فيمد «منطقة ارتطامه» من البلطيق حتى الشرق الأوسط فالأقصى بلا انقطاع .

القوة البشرية

أما عن الموضوع ، فقد تساءل البعض عن مدى القوة الحقيقية - موارد وسكانا وإنتاجا - لكل من الهارتلاندا والسواحل . وتكفل فوست وإيست خاصة بالإجابة (١) . فتوزيع السكان في العالم القديم يرسم نمطا واضحا جدا في أساسياته . فهناك قاطع

(١) C.B. Fawcett, "Marginal & Interior Lands of the Old World", Geog., 1947 p. 1-12; Hans Weigert, Heartland Revisited, in : New Compass of the World, 1949, p. 80-90; W.G. East, "How Strong Is the Heartland?", Foreign Affairs, 1950, p. 78-93.

محورى كثيف يمتد من غرب أوروبا شاملا وسطها وجنوبها ، ليستمر بدرجة أو بأخرى في الشرق الأوسط ، حتى يستعيد كثافته في آسيا الموسمية . هذا هو العمود الفقري في ديموغرافية العالم كله ساحلى أو شبه ساحلى ، ويشمل الجزء الأكبر إطلاقا من البشرية . وعلى هذا النطاق يتعامد قاطع آخر من اللامعمور أو شبه اللامعمور ، يبدأ من سيبيريا وينتهى بالصحراء الكبرى ، متداخلا مع نطاق المعمور في منطقة الشرق الأوسط . ومن ثم فالهارتلاند يقع أغلبه في اللامعمور ، وأقله متوسط الكثافة . وإذا كان الهارتلاند يستمد وزنه الديموغرافى في قطاعه الأوروبى غرب الأورال ، فإنه في آسيا شرق الأورال إما قليل الوزن كما في التركستان أو فاقده كما في سيبيريا . هذا بينا أن السواحل تضم نحو ألفى مليون نسمة على الأقل . وبصورة عامة تتبع الموارد والانتاج نفس النسبة . فالحصلة النهائية إذن أن الهارتلاند قد يكون قلب اليابس طبيعيا ، ولكنه قلب ضعيف - ولا نقول قلبا ميتا - بشريا ، أما السواحل فقد تكون هامشية ، ولكنها متخمة بالحياة والحيوية .



شكل (٢٦) نطاق أو حزام العمران والحركة حول نصف الكرة الشمالي . هنا هو العمود الفقري في هيكل البشرية

ومن هنا بالدقة يلتقط العالم السياسى الأمريكى نيكولاس سبيكمان الخيط . فهو يناقش معادلة القوة عند ماكيندر ، ولا يرى أن كفة الهارتلاند ترجح في القوة البشرية أو الموارد المادية ، وينتهى إلى أن « من يحكم المناطق الساحلية يسيطر على الجزيرة العالمية » . ومعنى هذا أن سبيكمان يتعارض بصورة مباشرة مع انتهايات ماكيندر ، ويضع المستقبل في صف القوى البحرية وضد البرية .

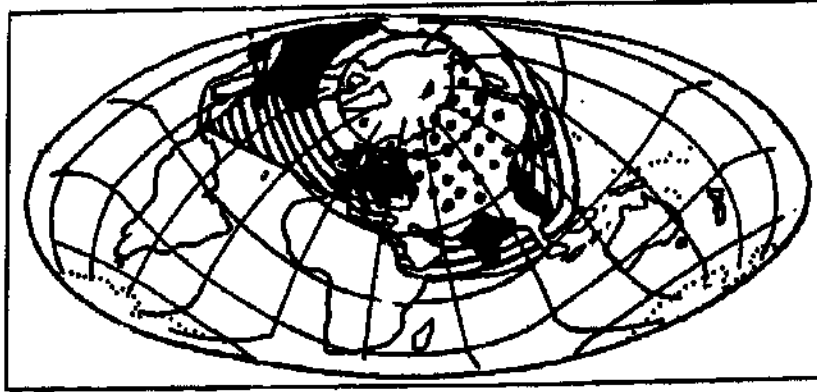
الدور الأمريكى

ثمّة بعد هذا نقد هام وجه إلى النظرية : لقد أغفل ماكيندر - أو بالدقة قلل - وزن الولايات المتحدة ودورها كثقل ضخم في كفة القوى البحرية . وحين كتب ماكيندر لأول مرة ، فلا شك أن قوة الولايات لم تكن قد اكتملت ودورها الطاغى في سياسة القوة العالمية لم يكن قد بدأ إلا بالكاد . أما بعد هذا فقد أمدت الولايات المتحدة العالم الجديد بهارتلاند منافس لهارتلاند العالم القديم ، وحددت مصير الحربين العظميين ، إلى أن انتقل قطب القوة العالمية إليها نهائياً وبصورة حاسمة ، بينما تحولت القوى التقليدية في غرب أوروبا إلى شبه تابع لها .

الحرب الجوية

وأخيراً ، فإن كثرة من النقاد ابتداء من لورد إمري إلى الميجور سفيرسكى ترى أن الحرب الجوية تقوض دعائم نظرية ماكيندر . وقد رد ماكيندر على هذا - إن صواباً وإن خطأً كما يلاحظ جلبرت - بأن الحرب الجوية تدعم قوة الهارتلاند وصحة نظريته . والاتهام يقوم على أساس أن الطيران قد كشف الهارتلاند للغزو وسلبه مناعته الطبيعية وعمقه الاستراتيجى ، أو أنه على الأقل قد حيد الموقف بين قوى البر والبحر .

ولقد كان إمري في تعقيبه على ماكيندر سنة ١٩٠٤ سباقاً في بصيرة ثاقبة إلى أن يرى أثر الحرب الجوية على النظرية . فأعلن أنه مع مقدم حركة الطيران إلى جانب حركة



شكل (٢٧) الهارتلاند «بالنقط» قلب العالم القديم ولكنه سكانياً قلب ضعيف . وكنته السكان في العالم «بالأسود» ونطاق الحركة والمواصلات حول الأرض «بالخطوط» تقع على سواحل القارات .

القطار والبحر ، فإن كثيرا من تلك التوزيعات الجغرافية التي رسمها ماكيندر سيفقد أهميته ، وستكون القوى الناجحة هي تلك التي تملك أعظم أساس صناعى وأصخم قاعدة تكنولوجية . وانتهى إلى أنه لن يهم أن تكون في وسط قارة أو على جزيرة ، وإنما أولئك الذين يملكون القوة الصناعية وقوة الاختراع والعلم سيتمكنون أن يهزموا كل من عداهم .

أما سفرسكى - من جيل الحرب الثانية - فهو أكبر دعاه القوة الجوية بحسبانها السلاح الفيصل في الحرب الحديثة^(١) . ويلخص بوين الموقف في أن القوة الجوية بمراحلها المختلفة « جعلت من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من إدراكه أن القوة في المستقبل تمكن مع الإمبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها »^(٢) . ومعنى هذا النقد جميعا في الحقيقة أن الطيران قد أفقد عامل « الموقع » الجغرافى قيمته الحيوية ، ونقل الأهمية كل الأهمية إلى عامل « الموضع » الجغرافى .

وعلى هذا يمكن أن نلخص الموقف النهائى من النظرية في أنه تضارب واختلاف : البعض يعدلها بما ينقضها أو يقلبها على رأسها قلبا كما فعل سيكمان . والبعض يقبلها معدلة أو غير معدلة كما فعل الميجور جورج فيلدنج إليوت الذى أعلن في أثناء الحرب الثانية : « أنه لا مجال للهروب من منطق ماكيندر »^(٣) . كما أن هناك من لازال يعتقد أنها قد تكون سليمة حتى اليوم ، هذا بينما يتوسط البعض فىرى أنها إن صححت في الماضى فهي لاتصح في عصر الحرب الجوية وبخاصة الحرب الصاروخية الذرية .

تعديلات جزئية

والذى نراه هنا هو أن النظرية إذا عدلت في بعض جزئياتها فيمكن أن تقدم بكل تأكيد مفتاحا عاما *passpartout* ومعادلة جغرافية سليمة تلخص كل التاريخ السياسى والاستراتيجى وتستوعب كل تفاصيله وتتفق معها حتى - وهذا هو المهم - نهاية الحرب الأخيرة ، أما بعدها فقد حدثت انقلابات هائلة من أخطر ما عرف التاريخ الحديث لا بد من تحليلها قبل أن نرى انعكاساتها على النظرية . وعلى هذا الأساس ، وكخلاصة

(١) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٢) بوين ، ص ٥ .

(٣) الجيوبوليتيكا ، ج ١ ، ص ٣٤ .

نهائية لدراستنا التاريخية السابقة ، نطرح الآن صورة معدلة للنظرية يمكن أن نركب في معادلتها كل تفاصيل تلك الدراسة وجزئياتها وتقابل في نفس الوقت النقد الذي وجه إلى النظرية .

ونقترح لذلك أن نظل الثلاثة الاستراتيجية تتألف من المارتلاندي والسواحل ومنطقة الارتباط ، لكن مع تعديل حدودها . إلا أن التعديل الأساسي الذي نقترحه هو أن نحصر هذه الثلاثة في دائرة العالم القديم وحده أكثر منها العالم ككل . أولا لأنه في هذا الإطار يمكن للنظرية أن تفسر معظم تاريخ الاستراتيجية السياسية في العالم وأن تتفق مع أغلب تفاصيله وجزئياته . وثانيا لأن القارات الجديدة بما في ذلك الولايات المتحدة لم تظهر على مسرح السياسة العالمية إلا حديثا ، وأكثر منها لم تظهر كقوة حاسمة فيصل إلا حديثا جدا .

المارتلاندي

في هذا الضوء نجد أن المارتلاندي - محدود ماكيندر - وحدة استراتيجية حقيقية في التاريخ ، وحدة توسعية بطبيعتها السهلية التي تسهل الحركة وتدعو إلى الإمبراطورية . وقد وجد المارتلاندي - بعد صراعات داخلية من نوع صراع الأشباه - أكثر من مرة في التاريخ ومن أكثر من نواة : مرة من ألتاي ، ومرة من طوران ، ومرة أخيرة وحاسمة من روسيا^(١) . وكلها - يلاحظ - مراكز هامشية على أطراف المارتلاندي . ولهذا مغزاه الكبير ، وهو أن قلب المارتلاندي نفسه هو أضعف ما فيه بشريا وحضاريا .

ومن المهم جدا أن نلاحظ أن سهولة توحيد المارتلاندي في قوة قارية الأبعاد جعلته غالبا وحدة سياسية واحدة لا تعرف التجزئة ، وهو الآن برمته يقع في دولة واحدة أو يؤولف دولة واحدة . وفي هذا فإنه يتناقض تماما مع السواحل الهامشية التي تتمزق في عدد ضخم من الدول المنفصلة ، فهناك قوة بر واحدة بالمفرد ولكن قوى البحر تأتي بصيغة منتهى الجموع ١ من هذه النقطة يستمد المارتلاندي قوة سياسية واستراتيجية هائلة .

غير أنها في نفس الوقت تجعل منه دولة خلاسية متعددة القوميات والأجناس مما يمكن أن يمثل خطرا داخليا ، ويعرضه - إن خطأ أو صوابا - للاتهام من جانب الغرب

(١) فيرجيف ، ص ٣٢٨ .

بالاستعمار الداخلى . بل لقد كانت النازية تنظر إلى الاتحاد السوفيتى كإمبراطورية أقليات ، وكان من أهدافها أن تمزقها إلى وحداتها القومية الطبيعية فى شكل مجموعة دول مستقلة تماما !

ولقد كانت ضغوط الهارتلاند المركزية الطاردة تسعى قديما إلى الوصول إلى الزراع ، وحديثا إلى الوصول إلى البحر . وبعد أن كان الصراع بين الهارتلاند وبين المناطق الهامشية يمثل صراعا بين الاستبس والغابة ، أصبح صراعا بين قوة البر وقوة البحر . وفى هذا الصراع لاشك أن الهارتلاند قلعة دفاعية مثالية وغير منفذ لجيوش الزراع قديما وغير مفتوح لأساطيل البحارة حديثا . ولكن مناعته الدفاعية هذه لاتعنى بالضرورة وباللحتم أنه القوة الهجومية المثالية .

فرغم ضخامة قوته وعظمة موارده التى لا جدال فيها ، فإن به نسبة كبيرة من الأراضي غير الصالحة للتعجير والانتاج إلا من رصيد معدنى ورصيد عمق استراتيجى . ولاشك أن من نقاط القوة فى الهارتلاند اليوم أن السلاف فى أوروبا تنمو بمعدل تزايد سكانى أعلى وأسرع بكثير من بقية أجناس أوروبا من التوتون أو اللاتين ، مما عده الغرب خطرا شديدا على المستقبل ودعاه بالخطر السلافى^(١) . ومع ذلك فإن عدد سكان الهارتلاند - قديما أيام الرعى وحديثا بعد تحوله الحضارى - يظل دائما لايقارن بمجموع سكان المناطق الساحلية الهامشية .

الهوامش البحرية

أما السواحل الهامشية - موطن قوة البحر بامتياز - فنحن نرى أن من الضرورى أن تشمل سكندينايفيا والدنمرك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، عدا الجزر البريطانية ، وأشباه جزر البحر المتوسط الثلاث ابتداء من أيبيريا حتى اليونان . وكل من هذه لعب دورا بحريا قياديا فى وقت أو آخر ، وكل تاريخ القوة البحرية يدور فى محيطها . وينبغى كذلك - مع فيرجريف - أن نصيف إلى مفهوم القوى البحرية فى غرب أوروبا الساحلية ما كان مستعمراتها عبر البحار فى أفريقيا وآسيا ، فقد أصبحت سواحل هذه وتلك امتدادات لقوى البحر .

F. W. Notestein et al., The Future Population of Europe & the Soviet Union. Geneva, 1944. (١)
p. 18 ff.

ونقاط القوة في هذه الوحدة الاستراتيجية واضحة . فهي إذ تقع في الهوامش المطيرة والخصيبة من القارة ، كانت شديدة الكثافة سكانا وطاقتها الانتاجية والبشرية عالية ، وهي في هذا ترجح الهارتلاندي على أساس وحدة المساحة بكل تأكيد . ثم هناك الموقع ، الموقع البحري الحر الذي يوفر الحركة الطليقة خلال المحيط العالمي . وقد رأينا كيف كان هذا الموقع البحري مرادفا في النهاية للاستعمار البحري .

فلقد انتهى هذا الموقع بالقوى البحرية إلى الاستعمار ، وانتهى بها الاستعمار إلى السيطرة على موارد قارات بأسرها صبت فيها موارد ومكاسب خيالية لم يعرفها سكان الهارتلاندي . ويمكن أن نلخص الاستعمار البحري جميعا في أنه كان محاولة من القوى البحرية الموجبة في غرب أوروبا للسيطرة على السواحل البحرية السالبة في أفريقيا وآسيا ، وهو بهذا في النهاية صورة على نطاق شاسع من صراع الأشباه . وبهذا تضاعف الفارق في الثروة والموارد بين القوى البحرية والبرية . وبفضل هذا الموقع وهذه الموارد قد يمكن أن نفترض أن القوى البحرية الساحلية في موضع هجومي قوى إلى حد بعيد .

ومع ذلك فللقوى الساحلية مواطن ضعف واضحة . فأولا تمثل هذه القوى قوة التفتت والتجزئة والتعدد السياسي . فهنا عشر وبضع عشر من الدول المستقلة . لماذا ؟ - لنفس الأسباب الجغرافية الطبيعية التي جعلتها دولا بحرية مثالية . فنطاق القوى البحرية هذا لم يصبح بحريا ملاحيا من الدرجة الأولى إلا لأن البحر قد قطعه بالخلجان العميقة والبحار الداخلية إلى وحدات طبيعية منفصلة - تذكر تعبير شبه جزيرة من أشباه الجزر .

ولكن نفس هذه الحقيقة انتهت به إلى قوميات ووحدات سياسية منفصلة كثيرة العدد صغيرة المساحة . وهذا يفسر أولا تلك الصراعات التاريخية الرهيبة بين هذه الوحدات بعضها البعض ، فكل التاريخ الدموي الحديث في العالم تركب فيها ، وكان الصراع الداخلي بينها صراع أشباه ، القصد منه تصفية القوى البحرية إلى قوة سائدة بينها . وقد أخذ هذا الصراع مسارا محددًا هو الذي يؤلف هجرة الحضارة والقوة من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي في داخل النطاق . وقد كان هذا من عوامل ضعف القوة البحرية الكامنة ككل وباستمرار .

هذا التفكك السياسي وهذه الضلالة المساحية في القوى البحرية تتناقض تماما مع الوحدة السياسية الطاغية للهارتلاندي وضخامته البالغة . وهذه الصراعات الداخلية بين أعضاء القوى البحرية لم يعرفها الهارتلاندي فيما بين أجزائه . وحينما كان مستوى الهارتلاندي

الحضارى وقوته العسكرية متواضعة ونفس الحركة البشرية محدودا ، لم يكن هذا التناقض يشكل تهديدا خطيرا للقوى البحرية ، فكان يكفي في القرن الثامن عشر مثلا أن تتصدى للهارتلاند دولة بحرية واحدة كفرنسا أو بريطانيا ، وفي القرن التاسع عشر كان يكفي دولتان بحريتان كفرنسا وبريطانيا معا .

ولكن حين وصل الهارتلاند إلى قمة القوة ، كما هو الحال الآن ، أصبح مجموع القوى البحرية يمثل شقة مساحية ضئيلة بالنسبة لمساحة الهارتلاند ، تفتقد ميزة الدفاع بالعمق ، وتعانى من التعدد السياسى . وهى إذا كانت يفضل موقعها البحرى فى موقف هجومى حر ، فإنها فى موقف دفاعى ضعيف . يضاعف من هذا أن غرب أوروبا كدول بحرية لا تملك جيوشا برية كبيرة ، بينما الاتحاد السوفييتى كقوة بر يملك أضخم جيش برى فى العالم .

هنا نبحث على الدول البحرية أن تتحد جميعا فى وجه الهارتلاند ، بل أن تلجأ إلى سند أقوى على الجانب الآخر من المحيط هو الولايات المتحدة ، التى هى أصلا امتداد بشرى لغرب أوروبا مثلا هى تكملة جغرافية للقوة البحرية . ومن هنا نجد أن حلفا كالأطلنطى ليس فى الحقيقة إلا جماع القوى البحرية فى غرب أوروبا بالإضافة إلى الولايات المتحدة . وما الحديث الملتب اليوم عن «وحدة أوروبا» اقتصاديا ، أو سياسيا ، أو اقتصاديا وسياسيا ، إلا رد فعل مباشر لهذا التناقض المزمع بين وحدة قوة البر فى جانب وفتت القوة البحرية فى جانب آخر .

وعدا هذا ، فإن الاستعمار إذا كان من أسباب قوة وتفوق الدول البحرية حينها فهو نقطة ضعف كامنة فيه فى النهاية . فكاسب المستعمرات المغتصبة موقوته بالضرورة ، ورهن ببقاء هذا الاستعمار . وإذا ما توقف تدفقها أو ضاعت فإن القوى البحرية ستجد الأرض وقد سحبت من تحت أقدامها وانكشفت قاعدتها الجغرافية والمادية الاقتصادية . ويكون عليها أن تنكفىء على مواردها الذاتية المباشرة التى لا تقارن بموارد الهارتلاند . وهذا ما حدث الآن بالفعل بعد ذوبان الاستعمار . فلم تعد غرب أوروبا فى مجموعها بند للاتحاد السوفييتى ، ولولا قوة الولايات المتحدة من ورائها لما صمدت فى الصراع الجديد .

المنطقة البيئية

هذا فما يختص بالهارتلاند والسواحل البحرية ، الفيل والحوت ، وتبقى أخيرا منطقة الارتطام أو التماسح ... هذه هى ما دعونا فيما مضى بالمنطقة البيئية ، وهى جغرافيا

بينية بموقعها بين قوى البر شرقا والبحر غربا ، وتمثل بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال بينهما تجمع بين الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة . وهى استراتيجية منطقة ارتظام وجبهة تصادم بين تلك القوى القطبية ومن ثم أرض المعركة الحتمية بينها ، فلا يستطيع أى منها أن يصل إلى الآخر ويضره إلا بالزور على هذا الجسر الأمفيبي .

ونحن نحدد هذه الوحدة الاستراتيجية بنطاق يشمل ألمانيا وشرق أوروبا والبلقان فيما عدا اليونان ، ثم الشرق الأوسط بما فيه تركيا وإيران والمشرق العربى ، كما نجد له امتدادات فى الشرق الأقصى بين السواحل والداخل . فهى إذن أشبه بقوس أو هلال يحيط بالهارتلاند وتحيط به القوى البحرية ، أى أنها تتوسطها . ولعل بما له مغزاه أن تكون إحدى الحلقات الهامة فى هذا النطاق « الأوسط » هى الشرق « الأوسط » . بل لعل هناك أكثر من صدفة فى أن ماكيندريطلق على شرق أوروبا والبلقان وما فى تحومه من منطقة الارتظام فى أوروبا اسم « الشرق الأوسط الأوربي »^(١) ، تأكيداً لفكرة الارتظام المتأصلة فى الموقع المتوسط .

وفى هذا الموقع المتوسط تكمن شدة خطورة المنطقة - منطقة الارتظام - ودور الجسر بالنسبة لكل من قوى البر والبحر واهتمامها بها أو بالسيطرة عليها . وفى الواقع أن كل تاريخ الصراع بين البر والبحر هو محاولة التحكم فى هذه المنطقة بالذات ، فهى تمسك زمام الموقف بين القوى القطبية ويمكن أن ترجح كفة على الأخرى ، وبالتالي فإن مصيرها فى النهاية هو الذى يحدد مصير الصراع بين الهارتلاند والسواحل .

ولاشك أن هناك قطاعات معينة من هذا النطاق تمتاز بموقعها وبطبيعتها بقيمة استراتيجية حرجة ، ولعل أهمها هو شرق أوروبا فى الشمال والشرق الأوسط فى الجنوب . وليس صدفة بالتأكيد أن معظم من حاولوا البحث عن أخطر المواقع الاستراتيجية فى العالم - أيا كانت صحة آرائهم - وضعوها فى هذا النطاق أولاً ، وفى هذه القطاعات منه بالذات ثانياً .

مثلاً كان تاليران يرى أن أخطر نقطة استراتيجية فى العالم هى مصب الدانوب^(٢) (؟) ، وكان بسمارك يضعها فى بوهيميا ، من سيطر عليها سيطر على وسط أوروبا ثم على

Democratic Ideals, p. 122.

(١)

East, Historical Geog. of Europe, p. 368.

(٢)

أوروبا^(١) ، بينما حددها نابليون بمصر ، وبعده ومثله قال أندريه زيجفريد : « قل لي من يسيطر على قناة السويس ، أقل لك من يسيطر على العالم »^(٢) . لا ، وليس صدفة كذلك أن المعارك الفاصلة للمصيرية في الحربين العالميتين الأخيرتين حدثت في شرق أوروبا وفي الشرق الأوسط ابتداء من « الجبهة الشرقية » إلى « الحملة التركية » ، ومن ستالينجراد إلى العلمين .

والمنطقة بعد هذا وفي مجموعها أقل مساحة وسكانا وقوة ، وأكثر تمزقا وتفتتا سياسيا ، من أى من القوى القطبية . وهى من ثم في موقف هجومي أو دفاعي ضعيف ، محصورة بين فكى كماشة أو بين شقى رحى . وقد يبدو من هذا لأول وهلة أن التبعية والعجز قدرها الجغرافى والتاريخى ، وأنها ضحية موقعها المتوسط ، وأن دورها الاستراتيجى لا يمكن أن يزيد عن دور الدول الحاجزة التصادمية التقليدى .

لكن الحقيقة أن نفس هذه الخصائص وذلك الموقع يمكن أن تكون عامل قوة لهذه المنطقة إذا ما جمعت قواها في تكتلات أو قطاعات اقليمية كبيرة ، فحيثذ يمكن لها أن تلعب دورا مختلفا تماما . ويمكن من هذه الزاوية أن نقسم دور هذه المنطقة عبر التاريخ إلى ثلاثة : إما خط خمود سياسى ، وإما منطقة رهو سياسى ، وإما خط استواء سياسى .

خط خمود ، حين تسقط لإحدى القوتين البرية أو البحرية . وفي الأغلب الأعم كان شرق أوروبا بحكم الموقع وطبيعته السهلية من نصيب القوى البرية ، بينما كان الشرق الأوسط من نصيب القوى البحرية . فمنذ فجر التاريخ وشرق أوروبا تكتسحه موجات الرعاة المتواترة أبدا ، ومنذ ظهرت روسيا وكل تاريخ دويلات البلطيق وبولندا وبروسيا وإلى حد ما الدانوب والبلقان لا يفصل عنها إما بالخضوع الفعلى أو التهديد الشكلى . وكل مأساة بولندا في التاريخ من تقسيم متكرر ، بل وزوال أحيانا ، لا يخرج تفسيرها عن هذا . وشرق أوروبا اليوم ملتحم التحاما عميقا مع المارتلاندا .

أما الشرق العربى فقد كان مستعمرة واحدة كبرى للاستعمار البحرى منذ القرن التاسع عشر . وكان هذا يشدد قبضته عليه بشراسة وضراوة ، خاصة بحكم حيوية وخطورة موقعه كالتاريخى الحقيقى الوحيد إلى مستعمراته الساحلية في الشرق الأقصى .

(١) الجيوبولتيكا ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٢) Siegfried, Mediterranean.

أما حين تعجز القوتان القطبيتان عن ابتلاع المنطقة تماما ، فقد تكتفیان باقتسامها وتنازعاها : القطاعات الأكثر برية للقوة البرية ، والقطاعات الأكثر بحرية للقوى البحرية . هنا تصبح منطقة الارتطام والتصادم منطقة رهو سياسى ، منطقة شد وجذب ومد وجزر بين الطرفين . هكذا كان الشرق الأوسط القديم بين فارس وورثتها ، وبين أثينا وروما ، حين تقاسم الطرفان المنطقة فى توازن حرج متوتر .

كذلك فى هذه الحالة كثيرا ما يفرض التفتيت السياسى على المنطقة - سياسة البلقنة - حتى تكون سلسلة من الدويلات الحاجزة . وهذا ما فعله الحلفاء بعد الحرب الكبرى بشرق أوروبا والبلقان والشرق الأوسط . وعادة ما تلجأ دول النطاق إلى لعبة خطيرة هى استراتيجية مضاربة الطرفين ببعضها وذلك بأمل أن تضمن بقاءها ، كما فعلت إيران طوال تاريخها الحديث . كذلك انتهت الحرب الأخيرة بتقسيم ألمانيا إلى شطرين يخضع كل منها لأحد الطرفين .

وقد يتفق الطرفان المتصارعان على تحييد جبرى يفرض على دول المنطقة حيث يتوازن نفوذهما ويتعادل ، وبذلك تصبح نوعا من الأرض الحرام أو أرضا بلا مالك no man's land . وخير ما يتمثل هذا فى أفغانستان وتايلاند ، فهما تدينان باستقلالهما القلق الباهت لا إلى قوتها الذاتية ولكن إلى تعادل قوى الشد والجذب حولها .

وأحيانا أخرى قد يؤدى الصراع - بمنطق عكسى - إلى الحفاظ على كيان بعض دول المنطقة ، والمثل الكلاسيكى النادر هو تركيا . فى وجه الخطر البرى - الروسيا - الذى هدد أكثر من مرة كيان الإمبراطورية العثمانية- فى صميمها ، تقدمت القوى البحرية - فرنسا وبريطانيا - بسرعة إلى دعمها ومساندتها حتى عاشت بالفعل أطول مما ينبغى .

ويبقى فى النهاية دور خط الاستواء السياسى ، وبه نقصد أن ترتفع قوة المنطقة إلى مستوى خطيرة موقعها لتؤكد وجودها وتفرض نفسها على التوازن العالمى بين قوى البر والبحر وترغمها معا على التزام حدودهما ، وتمنع الالتحام بينهما بل وقد تخضع إحداهما أو كليهما لسيطرتها هى . ومن المهم أن هذا دور أقل حدوثا فى التاريخ حتى ليوشك أن يكون شذوذا عابرا .

ولكن الأهم أن ذلك الدور لم يتحقق إلا بعد نوع ما من الوحدة بين أجزاء من المنطقة سواء منبثقة من الداخلى أو مفروضة من الخارج . وهناك حالات ثلاث ارتفعت

فيها منطقة الارتطام إلى هذا الدور ، وهي تتراتب تاريخيا كما تتراتب جغرافيا من الجنوب إلى الشمال .

ففي الشرق العربي قامت الدولة العربية الإسلامية في العصور الوسطى لتضع مركز القوة العالمية في قلب منطقة الارتطام على حساب كل من القوى البرية والبحرية ، كما استطاعت أن تفسد عليها خططها في التحالف ضدها . ولكن كما أنها بفضل الوحدة قامت ، فبفعل التفكك والانفصال زالت وسقطت لقوى برية المصدر .

ثم يأتي بعد هذا تاريخيا وإلى الشمال جغرافيا ، المثل التركي حيث احتلت الإمبراطورية العثمانية رقعة ارتطامية بحثة ابتداء من العالم العربي حتى البلقان ، ومع ذلك استطاعت أن تكون إلى حين قطبا من أقطاب القوة في عالم العصور الوسطى وطلائع العصور الحديثة . وأخيرا يتحرك القطب شمالا مع ظهور ألمانيا الموحدة التي رنت إلى السيطرة العالمية - لا أقل - وكادت تحققها في حربين عالميتين . ولكن ، وكما حدث في حالة الدولة العربية الإسلامية ، سقطت ألمانيا الارتطامية حين اجتمع عليها المارتلاندي والسواحل البحرية معا .

وفي الوقت الحالي يقع أغلب القطاع الشمالي من منطقة الارتطام بأوروبا في يد المارتلاندي ، وجزء محدود في يد السواحل البحرية ، بينما في الشرق الأوسط والأقصى زال الاستعمار البحري وأصبحت المنطقة مستقلة لأول مرة منذ وقت طويل . وهاهنا نجد مثلا حيا على استمرارية الخطوط العريضة في استراتيجية المنطقة . فهي لم تعد خط خمود سياسي ولا هي منطقة رهو ، ولكنها ليست بعد خط استواء سياسي غلاب . غير أنها وهي تدرك موقعها الحاسم تحاول أولا أن تحفظ كيائها بين القوى الماموث البرية والبحرية ، فكان عدم الانحياز ، وتحاول ثانيا أن تحول دون اصطدام تلك القوى في حرب جديدة . ولكن هذا كله أدخل في استراتيجية العالم المعاصر ، وهو ما ينبغي أن نتقدم الآن إلى دراسته .

البَابُ الثَّالِثُ

عَالَمُنَا الْمَعَاصِرُ

حين يكتب مؤرخو المستقبل تاريخ هذا القرن ، فأغلب الظن أنهم لن يملكوا إلا أن يعتبروا نهاية الحرب العالمية الثانية - قل بالتقريب منتصف هذا القرن - خط تقسيم جوهريا وجبهة افتراق عميقة في التاريخ الحديث جميعا ، لا تقل خطرا ولا مغزى عن فترة الكشوف الجغرافية أو الانقلاب الصناعي . ففي تلك الفترة المضغوطة زمنيا ، المفعمة تاريخيا ، اجتمع - كأنما على ميعاد - انقلابان حافلان مذهلان : ثورة التحرير ، والانقلاب النووي . الأول ثور المناخ السياسي في العالم برمته ، والثاني قلب قوانين الاستراتيجية الكوكبية رأسا على عقب . ونحن في معنى حقيقي جدا نعيش اليوم في عالم جديد - كدت أقول في كوكب جديد - خرج من رحم عالم الصناعة والاستعمار ، ولكنه بنفس الدرجة خرج عليه .

وفي الجيولوجيا والبيولوجيا ، كما في التاريخ ، أن مسار التطور يظل عادة رتيبا تقليديا كالخط المستقيم أو كالمنحنى الانسيابي ، ثم إذا به يتفجر فجأة في ثوران بركاني قصير ولكنه عنيف يغير تضاريس الوجود ومعالم الزمان ويضع ملامح العصر وتوازاناته ويحدها لأمد بعيد ، ومعها يعود إيقاع الحياة رتيبا تقليديا مستقرا ، حتى تبدأ الدورة الانفجارية من جديد ، وهكذا . تلك هي النظرية النكبائية catastrophism في العلم الطبيعي^(١) ، والنظرية الثورية في العلم الاجتماعي . وما نحن بحاجة فيما نحسب إلى سيسموجراف تاريخي أو بارومتر سياسي لنذكر أننا نركب اليوم قبة موجة عاتية من موجات التاريخ الانفجارية ، زلزلت تضاريس السياسة العالمية ، وخلقت طبوغرافية جديدة للاستراتيجية الكوكبية . ومن هنا نبدأ ...

(١) F. Zeuner. Dating the Past, Lond. 1950; Wooldridge & East, Spirit & Purpose of Geog., Lond., 1950.

الفصل الحادي عشر

ثورة التحرير

إنها لفارقة من الجغرافيا مثيرة أن يستطيع مليونان ومائتا ألف ميل مربع هي كل مساحة غرب أوروبا أن تنشر نفوذها وظلها وأن تفرض استعمارها على أكثر من سبعة وخمسين مليون ميل مربع هي مساحة العالم المعمور وغير المعمور ، وذلك في أقل من خمسمائة عام^(١) ! ولا تقل غرابة عن ذلك جزئيات الصورة : فغداة الحرب الأخيرة كانت بريطانيا تملك قدر مساحتها ١٤٢ مرة ، وفرنسا ٢٢ مرة ، أما هولندا فنحو ٥٧ مرة ، وبلجيكا ٥٠ مرة ، وإيطاليا ١٩ مرة .

ويمكن على أساس الموقع من منحني التطور الاستعماري أن نصنف القوى الاستعمارية في ذلك التاريخ إلى أربع طبقات أو فئات^(٢) . فثمة أولا « القوى العتيقة » ، بدأت الاستعمار في أوائل عصر الكشوف ، ولكنها بقدر ما تعاظمت في البداية تضاعلت في النهاية وأزاعتها القوى الأحدث ، فأصبحت إمبراطوريتها حفرة fossil empire ونوعا من الاستعمار المتخلف residual المفتت . ومن المتفق عليه أنها كانت قد أصبحت أعجز في حقيقتها من أن تملك إمبراطوريات ، وأن كياناتها الإمبريالية ليست إلا سخريات سياسية ، بل لقد عد بعضها رجل أوروبا المريض الجديد . هنا تأتي البرتغال وإسبانيا وإلى حد ما هولندا .

يلي ذلك « القوى العتيقة » ، وهي أحدث من العتيقة دخولا إلى الاستعمار ، ولكنها أقدم وأخطر دول أوروبا توحيدا وتصنيعا وقوة . ولذا كانت أكبر قوى استعمارية ظهرت في التاريخ الحديث وتمثل الاستعمار الكلاسيكي أو الراديكالي بكل ما أصبح

(١) هويتلي ، ص ٨٦ .

(٢) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، ص ٣٢ .

يعنى من استغلال ورجعية واحتكارات . والواقع أن تاريخ الاستعمار القريب يتحلل أساسا ونهايا إلى تاريخ الصراع بين هذه القوى بعضها البعض ، وبينها وبين من سبقها ومن لحقها من القوى . وتشمل هذه المجموعة دولتين فقط هما بريطانيا وفرنسا .

ثم هناك « القوى الوليدة » التي لم تصبح دولا موحدة إلا بالأمس القريب فقط ، والتي تأخر فيها بدء الانقلاب الصناعى نسبيا ، وبالتالي تأخر خروجها إلى ميدان الاستعمار فلم تجد إلا الفتات . وحتى هذا لم تنعم به طويلا في أغلب الحالات ، فقد تجمعت ضدها القوى العتيدة لتجردها منه في أثناء الحربين العالميتين . تحت هذه العائلة تندرج ألمانيا وإيطاليا ، وإلى حد ما بلجيكا ، وفي معنى خاص اليابان .

وأخيرا تأتي « القوى الجديدة » ، وهى تلك التى ظهرت متأخرة على مسرح الصراع السياسى الاستعمارى دون أن تكون دولا جديدة في ذاتها كالقوى الوليدة أو أن يكون لها نفوذ سابق كالقوى العتيدة . ولهذا فهى لم تمارس الاستعمار بشكله التقليدى بل تنكر صلتها بالاستعمار وتستنكره . ومع ذلك فهى متهمه من غيرها بأشكال خاصة من الاستعمار إما الاقتصادى وإما الأيديولوجى . وتتألف هذه المجموعة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

هذا في خطوط عريضة تصنيف طبقات الاستعمار غداة الحرب الثانية . أما عشتها فكان الاستعمار المباشر يغطى حوالى ٣٥٪ من مساحة العالم ، وكانت أوروبا ترى فيه بلما ودواء كاملا panacea لكل أمراض الحرب وجراحها . كانت تحسب تلك العلامة القياسية قة الاستعمار ، بل وكانت تخطط للبقاء في مستعمراتها قرونا عديدة^(١) وما كان يدور بخلدتها أنها النهاية .

أجل ، فإنها لمفارقة من التاريخ أشد إثارة مما سبق ، إن ما بناه الاستعمار في خمسة قرون هدمه التحرير في عقدين اثنين . فبين ١٩٤٥ ، ١٩٦٥ هوت رقعة الاستعمار من ٣٥٪ من مساحة العالم إلى ٤٪ ، أى أن معدل سرعة المد التحريرى يعادل عشرات أضعاف معدل الزحف الاستعمارى ، حتى قيل إن الاستعمار إذا كان قد أتم مشرقه في ساعات فقد عبر خط الزوال وشهد شفقه وغسقه ثم غروبه في دقائق معدودات . وبينما أتى الاستعمار في موجتين كبيرين لكل منهما بدوره ذبذباته الثانوية ، جاء التحرير في

Karl Pelzer, op. cit., p. 314-5.

(١)

موجة واحدة طاغية كاسحة . وإذا كان البعض قد تحدث في هذا الصدد - تقليلا في الحقيقة - عن « رياح التغيير » ، فأولى بنا أن نقول إعصارا أو هاريكين !

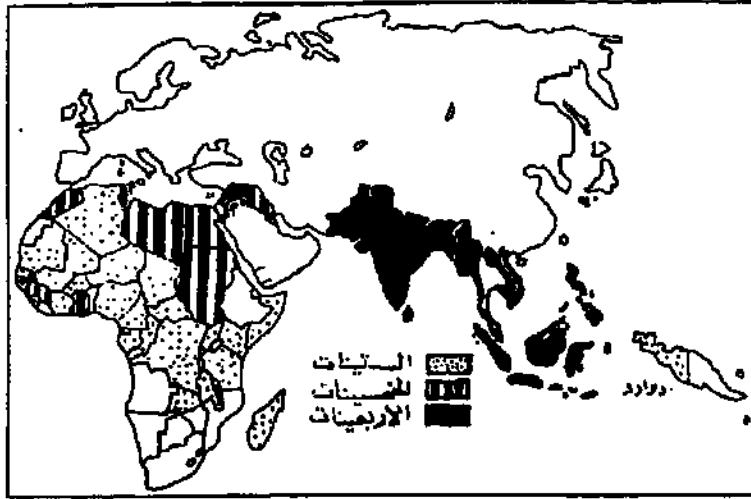
إنها بلا ريب ثورة التحرير ، وإنه عصر ذوبان الاستعمار de-colonisation ما في ذلك شك . ونهاية الإمبراطورية وأوربة العالم dis-Europeanisation . وإذا كان القرن التاسع عشر قرن الاستعمار ، فإن القرن العشرين بحق قرن التحرير . ولئن كان الأول وباء القرن الماضي ، فإن التحرير اليوم ظاهرة « معدية » كما قيل ، ولكنها عدوى صحية حين تبدأ لا تتوقف وإنما تتداعى في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال حتى تشكل موجة مديدة غلابة . إن الاستعمار الذي ولد ولادة غير طبيعية وغير شرعية يموت الآن ميتة طبيعية ، بل لعلنا نكون أقرب إلى الصواب إذا قلنا بالسكته القلبية . ومعها - هذه الميتة - ينتقل الاستعمار من الجغرافيا السياسية إلى الجغرافيا التاريخية ، ويصبح من حفريات التاريخ السياسي . لقد تمت دورة كاملة من قيام وسقوط أوربا^(١) .

غير أنه يقابل هذا التيار العام العالمي اتجاه محلي عكسي يمثل انتكاسة إلى الوراء : ففي الوقت الذي كان الاستعمار الكبير والصغير ينحسر ويتصدع عالميا ، كان استعمار جديد - ودنىء - قد بدأ في فلسطين هو الاستعمار الصهيوني حيث كرر قرصنة القرن التاسع عشر ، وجمع بين أسوأ وأسود ما في دموية النازية وعنصرية جنوب أفريقيا . غير أنه إذا كان هذا الاتجاه التعس يدل على شيء فإنما يدل على أن الاستعمار الصهيوني القميء يأتي ضد كل تيار التاريخ - حتى التاريخ الرجعي ، حتى تاريخ الاستعمار نفسه - وأنه من ثم محكوم عليه قبلا وبجتمية التاريخ بأنه قد ولد ليموت .

جغرافية التحرير

ولنتبع الآن جغرافية التحرير في خطوطها العريضة قبل أن نعرض لدوافعها وضوابطها . ومن الصعب أحيانا أن نحدد تاريخ ومسار التحرير الحقيقي ، تمييزا له عن الاستقلال الشكلي . ولكن أول تحرير حقيقي بدأ في أثناء الحرب في لبنان (١٩٤١) وسوريا (١٩٤٣) . وذلك كنتيجة لتصادم بريطانيا وفرنسا معا في اللقائات . فقد حاولت فرنسا الحرة أن تعود ، في وجه الثورة الوطنية ، إلى السيطرة في الشام ، ولكن بريطانيا تذرعت بظروف الحرب لتطرد فرنسا من المنطقة - منطقتها التقليدية - وترثها

(١) جون كول ، ص ٢٩٧ - ٢٩٩ .



شكل (٢٨) زحف موجة التحرير : في عقود ثلاثة ، هدم التحرير ما بناه الاستعمار في خمسة قرون . لاحظ الموجات الثلاثة : الآسيوية في الأربعينات ، العربية في الخمسينات ، والأفريقية في الستينات .

فيها ، فأرغمتها على التسليم للنضال الوطني بالاستقلال . ولكن الشام بداية منعزلة وإرهاصة محدودة ، أشبه بنذير النفير . أما العاصفة الحقيقية فلم تجمع قواها إلا بعد الحرب ، ومن بعدها يمكن أن نميز بين ثلاث موجات زمنية - إقليمية واضحة بما فيه الكفاية .

الموجة الآسيوية

الأولى هي الموجة الآسيوية في الأربعينات المتأخرة ، ومركزها الشرق الأقصى . ففي ١٩٤٦ « منحت » الولايات المتحدة الفلبين استقلالها - طواعية كما تلح هي دائما وتؤكد . وفي ١٩٤٧ استقلت مع التقسيم كل من الهند والباكستان وبورما ، وذلك بعد نضال وطني طويل بدأ سلميا بالمقاومة السلبية المشهورة (الساتيا جراها Satia Graha) وانتهى عنيفا في أثناء الحرب . وفي ١٩٤٨ جاء دور سيلون في الاستقلال .

ثم كانت ١٩٤٩ سنة جنوب شرق آسيا حيث خرجت فرنسا مهزومة بعد حرب عصابات تحريرية مريرة ترمز لها وتلخصها ببلاغة بل مخلدها دين بين فو ، فنالت كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا (كمبوتشيا) استقلالها . وبالمثل خرجت هولندا من إندونيسيا بعد هزيمة قاسية في حرب عصابات وأدغال مماثلة في نفس التاريخ ، ولو أن تحرير إيربان الغربية تأخر إلى أوائل الستينات (١٩٦٢) . وبهذا لم تبقى إلا الملايو بغير استقلال

في هذه الموجة ، حتى انتزعت بعد حرب عصابات مطولة في أواخر الستينات . وكانت آخر القائمة هي جزر ملديف السديمية على أطراف الهند .

ولا ينبغي أن نتكلم عن التحرير في آسيا دون أن نذكر دورا ما غير مباشر وغير مقصود لليابان . فقد اكتسح الغزو الياباني جنوب شرق آسيا في أثناء الحرب الأخيرة اكتساحا خاطفا ، حطم نهائيا قداسة القوة الاستعمارية الغربية ، وكان له تأثير صاعق على أسطورة سيادة الرجل الأبيض الذي رآه كل الآسيويين مهزوما مدحورا على أيدي آسيويين مثلهم^(١) . وأيا كانت أهداف الدعاية اليابانية من شعار « آسيا للآسيويين » ، وأيا كانت قيمة الاستقلال الوطني الذي منحته لشعوب تلك المستعمرات إبان الغزو ، فقد أفسد هذا مرة واحدة وإلى الأبد التربة والنفسية القديمة الصالحة للاستعمار .

كذلك لجأ اليابانيون حين اضطروا إلى التسليم إلى إعطاء الأسلحة للوطنيين ، كما أن الحلفاء الاستعماريين من جانبهم سلحوا الوطنيين بقصد مقاومة اليابانيين . ولهذا حين عاد الاستعمار بعد الحرب وجد الوطنيين مسلحين ضده قويا وعسكريا . ومن هنا بدأ التحرير . وبعده ، في المعركة نفسها ، جاء عاملان آخران ليحاربا في صف الوطنيين ضد الاستعمار العائد .

قأما الأول فهو البيئة الطبيعية ، فإن بيئة آسيا الموسمية كانت حليفا طبيعيا لأبنائها : أدغال وأحراش وغابات كثيفة ، ثم أنهار ومستنقعات وجبال تمثل - لاسيا في الفصل المطير - مجالا مثاليا لحرب العصابات ، يدوخ الجيوش النظامية ميكانيكية وجوية على السواء . وعلى سبيل المثال فلقد كانت الهند الصينية في الحقيقة مصيدة طبيعية ضخمة لقوات الاستعمار ومقبرة سياسية لكل قواه ، ابتداء من بريطانيا في الملايو وانتهاء بأمريكا في فيتنام مرورا بفرنسا واليابان في كل مكان . أما العامل الثاني فهو أن الاستعمار هنا كان استعمارا استغلاليا لا استيطانيا ولا استراتيجيا ، ولهذا كان على ضراوته أضعف جذورا وأسهل استئصالا .

وإلى جانب هذا وذاك جميعا بقي عامل خارجي على جانب كبير من الأهمية ، ونعني به الموقع الجغرافي والسياسي . فمن ناحية كانت آسيا الموسمية أبعد قطاعات الاستعمار عن أوروبا ، ومن ثم أصعبها منالا وارتباطا . ومن ناحية أخرى فقد كانت تقع على خط

Ritchie Calder, Dawn over Asia, News Chronicle Publication, 1952, p. 18. 20.

(١)

الاستواء السياسى بين الكتلتين الشرقية والغربية وتكاد تستقر على ضلوع المعسكر الشيوعى وتحارب وظهرها يستند إلى أعماق الصين . بمعنى آخر كانت أبعد شىء عن فلك الغرب الجغرافى وأدخل شىء فى فلك الشرق ، ومن هنا تدفقت عليها المساعدات بالأسلحة والتأييد ضد الاستعمار .

الموجة العربية قافلة الحرية

أما الموجة الثانية من موجات التحرير فهى موجة العالم العربى فى الخمسينات ، ولو أن طلائعها ظهرت فى لبنان وسوريا فى الأربعينات وأواخرها تأخرت فى الكويت والجزائر إلى الستينات الباكورة وفى الجنوب اليمنى إلى الستينات المتأخرة . فى ١٩٥١ نالت ليبيا استقلالها بفضل المناورات الاستعمارية من أجل الوصاية على إرث الاستعمار الإيطالى . فقد حاولت كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أن تتولى الوصاية على ولاياتها برقة وفزان وطرابلس على الترتيب . ولكن اعتراض الاتحاد السوفيتى على عودة إيطاليا ومحاولته أن يحل محلها كان وحده كافيا لأن يدفع بالاستعمار إلى أن يقرر الاستقلال ، لا حبا فى ليبيا ولكن كرها فى الاتحاد السوفيتى وهلعا من أن « يتسلل » إلى الشرق الأوسط^(١) .

وفى ١٩٥٣ تحررت مصر نهائيا بعد حرب عصابات ومقاومات مسلحة فى منطقة القنال ، سبقتها سلسلة من الثورات والتحديات الشعبية من قبل ، إلى أن توجت فى النهاية بحرب حقيقية كاملة وحاسمة فى ١٩٥٦ . وهذه الحرب ستكون نقطة تحول عظمى فى التحرير لا فى العالم العربى ولكن فى أفريقيا وخارجها كذلك . والواقع منذ البداية أن مصر بحكم موقعها ووزنها كانت سباقة إلى النضال التحريرى وكانت دائما مركز الوعى ومنبع الوعى فى الكفاح ضد الاستعمار ، فكانت نموذجا للمغرب العربى ومثالا للمشرق ، وحجر الزاوية والقوة الركن موقعا ودورا . باختصار ، كانت مصر واحة العرب سياسيا . فنذ « ثورة » يوليو الأم ، رصع العالم العربى بنسل دافق من الثورات التحريرية ، تبدو كالأقمار حول الشمس أو كالنويات حول النواة ، وكان لكل منها بدورها صدها العميق الفاعل ، ابتداء من الجزائر وانتهاء باليمن .

P. Birot & J. Dresch, La Méditerranée et le Moyen-Orient, Paris, 1951.

(١)

ومرة أخرى كانت ١٩٥٦ عاما حاسما بالنسبة للعالم العربي الأفريقي ، إذ استقلت فيه ثلاث وحدات هي تونس والمغرب والسودان ، وبعدها بقليل استكمل العراق استقلاله الحقيقي . ففي السودان استطاعت مصر « الثورة » المستقلة أن توفر له الفرصة لتصفية الحكم الثنائي يمكنه من طرد الاستعمار البريطاني . وفي المغرب وتونس حدثت مصادمات عنيفة مع الاستعمار الفرنسي حتى اضطر إلى الخروج ، ولو أنه بقيت بعد ذلك في تونس بعض جيوب استعمارية متخلقة في بنزرت طهرت فيما بعد في ١٩٦٣ ، وفي المغرب في الأسافين الإسبانية إفنى التي استعادت بعد قليل ثم سبتة ومليلة وهي ما تزال حتى الآن .

وبعد ١٩٥٦ ، كانت ١٩٦٠ سنة حاسمة أخرى في تاريخ التحرير العربي الأفريقي ، حيث تم استقلال موريتانيا في أقصى غرب أفريقيا العربية والصومال في أقصى جنوب شرقها . وكلاهما - يلاحظ - لم تكن معروفة تقليديا كجزء من العالم العربي وإنما تعد من تخومه (حيث الصومالية على الأقل لغة غير عربية) ، وكلاهما لم تدخل الجامعة العربية إلا متأخرة بعد ذلك كثيرا . فأما موريتانيا فقد نالت استقلالها في ١٩٦٠ في موجة تحرير المستعمرات الفرنسية السابقة في وحدات أفريقيا الغربية الفرنسية .

أما في الصومال ، على النقيض تماما ، وعلى نحو يذكرك كثيرا بقصة ليبيا من قبل ، فقد جاءت القصة معقدة مفعمة للغاية . فلقد حاولت بريطانيا ، التي كانت قد احتلت الصومالين البريطاني والإيطالي أثناء الحرب الثانية ، أن تضع يدها عليه سياسيا بعد الحرب ، وذلك تحت قناع فكرة « الصومال الكبير » التي هي أمل الصومالين الأكبر . ولكن معارضة القوى الكبرى والصغرى ، للمعادية والحليفة ، الغربية والقرية ، على السواء ، والتي تراوحت بين اقتراح فرنسي بعودة الحكم الإيطالي إلى الصومال الإيطالي وبين اقتراح أمريكي بتدويل الوصاية عليه جميعا ، انتهت بالأمم المتحدة في ١٩٥٠ إلى إقرار وصاية إيطالية لمدة ١٠ سنوات تختتم بالاستقلال الكامل في ١٩٦٠ . وهكذا بالفعل ، وبدور مصري مشهود ، كان ، وتم تحرير الصومال . غير أن هذا ترك ولا يزال أجزاء سلبية من الصومال هي مثل الصومال الإثيوبي في الحوض وأوجادن ونطاق الصومال الكيني في أقصى الجنوب .

مهما يكن ، فهذا كله يكون العالم العربي الأفريقي قد تحرر في معظمه حتى سنة ١٩٦٠ ، فيما عدا الجزائر التي أتى دورها في ١٩٦٢ بعد حرب تحريرية سبعة كاملة - حرب السنوات السبع العربية - كلفت الجزائر مليوناً ونصف مليون من الشهداء ، ولعبت فيها المساعدة الحربية والسياسية المصرية دورا خطيرا . وبما له مغزاه أن ثورة

التحرير الجزائرية لم تشتعل إلا بعد عام من الثورة المصرية . وفضلا عن هذا فإن فرنسا لم تشارك في حرب السويس إلا « لتخضع الجزائر عن طريق القاهرة » .

هذا ، وقبل الجزائر وفي ١٩٦١ كانت الكويت قد تحررت على الخليج ، منتزعة استقلالها من بين برائن الاستعمار البترولي في صميمه . أما بعد الجزائر - وعلى نحو يكررها على تصغير شديد - فقد سجل الجنوب العربي آخر موجات المد القومي ، حيث أرغم الاستعمار البريطاني على الخروج في أواخر ١٩٦٧ من « عدن والمحميات » أو « اتحاد الجنوب العربي » كما سماها الاستعمار على التعاقب ، وحيث قامت جمهورية جديدة باسم جنوب اليمن بعد حرب تحريرية حقيقية بدأت منذ ١٩٦٤ ، تحت إحياء الثورة اليمنية الملاصقة وفي ظل المساعدة المصرية - تماما كما بدأت الثورة الجزائرية .

وسيالاحظ عند هذا الحد أنه بالعالم العربي قد بدأت أول عملية تحرير في أفريقيا على طول ضلعي ساحل البحر الأحمر والمتوسط . أما في آسيا العربية فن السهل أن نرى سهم الحركة يبدأ من الشمال عموما سواء في الشام أو العراق ثم يرسم قوسا عريضا عكس عقارب الساعة ليصل إلى الجنوب اليمنى . وكان من الواضح أنه سيمضي في نفس الاتجاه على طول بقية سواحل الجنوب العربي ثم إلى الخليج العربي في النهاية ، أى على نفس المحور الذى تمدد عليه الاستعمار في البداية . وبالفعل ، فلقد أرغمت بريطانيا تحت ضغط المد العربي على الانسحاب من الخليج العربي نهائيا قبل ١٩٧١ .

أخيرا ، وفي السبعينات الباكورة أيضا ، تم تصفية بعض الجيوب المتخلفة هنا وهناك على الجانب الآخر من البحر الأحمر . فعلى هامش أو جنب موريتانيا جاء دور منطقة الصحراء الإسبانية بشقيها وادى الذهب (زيودي أورو) والساقية الحمراء في أوائل العقد . فهذا الجيب الإسباني المزروع بين موريتانيا والمغرب تم اقتحامه سلميا « بمسيرة خضراء » من جانب المغرب ودون مقاومة من جانب إسبانيا عمليا . وبذلك تم تحريره ثم اقتسامه بين الجارتين العربيتين : الساقية في الشمال للمغرب والوادي في الجنوب لموريتانيا . بالمثل على الجانب الصومالى وفي نفس التاريخ تقريبا ، لحق الصومال الفرنسى بقافلة التحرير وأصبح دولة مستقلة باسم جيبوتي .

تلك إذن هي موجة التحرير العربية بجزئياتها وتفصيلها من البداية إلى النهاية . غير أن لنا قبل أن ننظر إليها نظرة كلية جامعة أن نذكر على هوامشها أو بين تضاعيفها بعض حالات متفرقة من التحرير هنا وهناك ، لا تتركب أو تدخل طبعا فيها ولكن قد لا تبعد أو تنفصل تماما عنها . فعلى ضلوع العالم العربي الشمالية وعلى حواشى الموجة العربية ، ثمة

كان تحرير قبرص في ١٩٦٠ ثم مالطه في السبعينات وذلك من استعمار بريطاني استراتيجي مقيم منذ أواخر القرن ١٩ في الأولى وأوائله في الثانية ، أو قل بالتحديد منذ الاحتلال البريطاني لمصر والحملة الفرنسية عليها على الترتيب . وقد تحقق استقلال قبرص بالذات بعد حرب عصابات مفضية قاسية ، ومن المحقق أن المثل العربي عامة والمصري خاصة لعب دورا ما في هذه الملحمة .

خلاصة المسيرة

لا يبقى لنا الآن ، إذا انتقلنا في الختام من التفصيل إلى التعميم ، إلا أن نلاحظ من ناحية المسار الجغرافي للمسيرة أن أفريقيا العربية وآسيا العربية كانتا تتبادلان خلالها التسابق وتناوبان الأولوية في سباق التحرير بصورة معبرة ، فرة تسبق هذه وتلك تتخلف ، ثم العكس ، وهكذا . لكن الغريب أن بقايا الاستعمار في أفريقيا العربية الآن إنما هي ، باستثناء الجيبين الإسبانيين في المغرب ، مما يمكن أن نسميه للأسف « بالاستعمار الأفريقي » ، حيث تحتل إثيوبيا كلاً من إرتريا في الشمال والصومال الإثيوبي في الجنوب ، وذلك في وجه حرب عصابات تحريرية لم تنقطع في الأولى وفي وجه حروب عسكرية عديدة ومجاهبات مسلحة متقطعة في الثاني ، هذا بالإضافة إلى الصومال الكيني الذي تحتله كينيا . ومعنى هذا أن بعض أفريقيا اليوم هو ، للغرابة والصدمة ، الذي يحتل بعض العالم العربي ، لا العكس ولا الأوربيين ...

أما في آسيا العربية ، التي كانت معقل القطاع الوحيد الذي نجح من الاستعمار أولا وموطن بدء عملية التحرير ثانيا ، فإن اللافت هنا أنها قد أصبحت المعقل الأخير لأخطر أنواع الاستعمار المتخلفة في العالم أجمع وهو الاستعمار الصهيوني الإسرائيلي في فلسطين المحتلة . وبهذا وذلك يكون العالم العربي بالدقة هو ، للدهشة والأسف ، من أكثر وحدات العالم تخلفا في التحرير وامتلاء ببقايا الاستعمار المتخلفة (سبنة ومليلة في المغرب ، إرتريا والصومالان الإثيوبي والكيني في القرن الأفريقي ، فلسطين العربية) .

ومن ناحية المدى الزمني لكل من المد الاستعماري والمد التحريري ، فالظاهرة اللافتة بوضوح هي شدة تضاعف الثاني بالقياس إلى الأول ، فما بناه الاستعمار في ٩٠ سنة - باستثناء فلسطين المحتلة - هدمه التحرير أو هدم معظمه في أقل من ٢٥ سنة . أما من حيث الترتيب التاريخي وتوقيت التحرير ، فنلاحظ نوعا عريضا وعاما - دون أن يكون مطردا مع ذلك بأي معنى - من العلاقة العكسية بين أولوية الاستعمار وأولوية

التحرير . فبصورة تقريبية كانت آخر الوحدات العربية التي سقطت للاستعمار (كسوريا ولبنان وليبيا من ضحايا الموجة الثالثة) هي من أ بكرها استقلالاً ، بينما كانت آخرها استقلالاً هي أولى ضحايا الاستعمار (الجزائر والجنوب اليمنى من ضحايا الموجة الأولى) . وباستثناء الشذوذ البحث في فلسطين المحتلة مرة أخرى ، فكل بقايا الاستعمار حتى السبعينات هي أيضا من ضحايا الموجة الأولى . ويترتب على هذا كله أن أولى الضحايا كانت سيئة الحظ مرتين ، وكان عمر الاستعمار فيها أطول مرتين .

من ضوابط التحرير

وإذا نحن توقفنا لنتمعن ضوابط التحرير في العالم العربي ، فلن نخطئ أثر الموقع الجغرافي ونوع الاستعمار بالاضافة إلى البيئة الطبيعية . فن بين كل مناطق الاستعمار في العالم القديم ، يقع العالم العربي أقرب ما يقع إلى أوروبا ، بل هو أدخل في فلكها الجغرافي . وبالتالي فقد كان من السهل على الاستعمار أن يشدد قبضته هنا دون أن يقابل مواجهة مباشرة من توازن قوى مع معسكر مضاد أو كتلة أخرى .

كذلك فقد كانت جذور الاستعمار هنا متغلغلة عميقة لأن نوعه السائد كان إما من الاستعمار الاستراتيجي كما في مصر بوجه خاص وإما من الاستعمار الاستيطاني كما في الجزائر بوجه خاص . كما جاء البترول في سواحل المشرق العربي ليدعم الجانب الاستراتيجي ويضيف الجانب الاستغلالي في طبيعة الاستعمار . ولهذا استمات الاستعمار بشراسة وقابل المقاومة الوطنية بمزيد من القوة الضارية . ففي مصر يرمز الكفاح المسلح وحربا القنال إلى مدى صعوبة استئصال الاستعمار الاستراتيجي . ولو أن الهند قد استقلت في وقت مبكر ، فلربما كان الراجح أن تنتزع مصر استقلالها منذ ذلك التاريخ .

أما في الجزائر حيث وصل الاستعمار الاستيطاني إلى أبشع درجاته وأشدّها ضراوة حتى اعتبرها جزءا لا يتجزأ من وطنه ، فقد أثبتت التجربة أن مشكلة التحرير مع الاستعمار الاستيطاني مشكلة مزدوجة ، فهو لا يكافح القوة المتروبوليتانية فقط بل والمستوطنين أيضا . فكلما أشرف على انتزاع تنازلات من الجانب الأول ، تحول الثاني إلى عصابة إرهابية داخلية « تأخذ القانون في يدها » وتفرض نوعا خاصا من حكم الملاك Landocracy هو حكم ملاك الاستعمار Plantocracy . وتعلن العصيان والتعمرد على الحكومة « الأم » مهددة « بحرب استقلال » (!) للانسلاخ عنها والانفراد بالمستعمرة .

ثم حاول إرهاب المتوطنين أن يفرض ، دون جدوى ، التقسيم إلى دولتين

مستقلتين ، أوربية على الساحل المعمور ووطنية في الداخـل الصحراوي ، إلى أن قذف به التحرير في البحر تماما . وفي جبهة المعركة أخذت الطبيعة ، كقلعة جبلية غابية وعرة ، صف الوطنيين ، تهيئ لهم حرب العصابات في الوقت الذي تضاد جيوش المستعمر الميكانيكية والجوية ، حتى أصبحت القبائل وأوراس رمزا وطنيا وموطنا للتحدي والنضال القومي .

ورغم أن الاستعمار في الجنوب اليمنى لم يكن سكنيا استيطانيا ، فقد استمات في تشبهه بالبقاء ، وذلك بسبب طبيعته الاستراتيجية - وبفضلها أيضا . فنذ ضياع السويس أصبحت عدن أضخم قاعدة بريطانية بحرية شرق السويس ، وذلك أساسا في منطقة مخلخلة السكان نسبيا . ولكن الأرض هنا - كما هي القاعدة دائما - حاربت مع أبنائها ، وتكررت تجربة الجزائر على مقياس مصغر . فلعبت جبال ردفان - كأوراس - دور المشعل والمقل في حرب العصابات ، بينما لعبت عدن بأحيائها الشعبية المكتنزة دور مدن الساحل الجزائري بقصباتها الوطنية الشهيرة . وكما ناور الاستعمار في الجزائر بخدعة التقسيم ، ناور في الجنوب العربي - دون جدوى أيضا - بمحاولة فصل الجزر الساحلية عن الأرض الأم ليتخذ منها قواعد أو حاملات طائرات لا تفرق تدخل في فلك استراتيجيته الجديدة العامة ، استراتيجية الجزر المحيطية في المحيط الهندي .

الموجة الأفريقية

تبقى الآن الموجة الثالثة والأخيرة للتحرير وهي الأفريقية - بمعنى أفريقيا المدارية - في الستينات^(١) . ولقد سبقتها في الواقع بعض حالات معزولة في أخريات الخمسينات تضم غانا في سنة ١٩٥٧ وغينيا في سنة ١٩٥٨ حيث كانتا أولى الدول الأفريقية المدارية استقلالا . وكذلك كان هناك من قبل دولتان أفريقيتان مستقلتان منذ القدم هما إثيوبيا وليبيريا - إثيوبيا لظروفها الطبيعية كقلعة جبلية منيعة لم تسقط للاستعمار إلا في الفترة الإيطالية ، وليبيريا لظروف إنشائها لتحرير الرقيق الأمريكي العائد . فكلاهما « استقلال سلمي » إن صح التعبير .

وإنما نتقل إلى قلب أوقة الموجة التحريرية الأفريقية في سنة ١٩٦٠ ، فهي علامة كبرى في تاريخ القارة وسنة القدر والقدر بالنسبة لها . فإلى ما قبل هذا التاريخ كان

(١) حمدان - إفريقيا الجديدة .

بالقارة كلها عشر دول مستقلة فقط لا تزيد مساحتها عن ٣,٤٧٠,٠٠٠ ميل مربع أو ٣٠٪ من مساحة القارة ، ولا يزيد سكانها عن ١٠٢,٣٤٠,٠٠٠ نسمة أو ٤١,٧٪ من سكان القارة . فإذا بسنة ١٩٦٠ - سنة أفريقيا كما وصفت - تضيف إلى قائمة التحرير ١٧ دولة جديدة بمجموع مساحة قدره ٤,٥٧٠,٠٠٠ ميل مربع أو ٤١٪ من القارة ، وبمجموع سكان قدره ٨١,٩٤٥,٠٠٠ نسمة أو ٢٣,٥٪ من القارة .

ومعنى هذا المعدل المذهل استقلال أكثر من دولة كل شهر من ذلك العام . وتشمل هذه المجموعة كل وحدات أفريقيا الاستوائية الفرنسية وأفريقيا الغربية الفرنسية السابقتين ، مضافا إليهما نيجيريا والكونجو (كينشاسا ، زائير فيما بعد) وملاچاش . وبهذه الموجة تم تحرير غرب أفريقيا كله تقريبا ، كما عبر التحرير خط الاستواء لأول مرة .

ومنذ سنة ١٩٦٠ حتى الوقت الحالى لم يتوقف زحف الحرية . ففي السنوات الخمس الأولى استكملت الثغرات المتخلفة في غرب إفريقيا استقلالها وذلك في سيراليون ثم في جامبيا ، ولكن مركز ثقل التحرير انتقل أساسا إلى شرق القارة ، فهنا نالت ٨ وحدات استقلالها ابتداء من أوغندا وكينيا حتى نياسالاند (ملاوى) وروديسيا الشمالية (زامبيا) بلا انقطاع ، مروراً بتنجانيقا وزنبار (تانزانيا) ورواندا وبوروندى . وبذلك تم تحرير كل حوض النيل من ناحية ، ووصلت طلائع الحرية إلى حوالى خط عرض ١٨ درجة جنوباً من ناحية أخرى حيث أرسلت سهماً في صميم كتلة الاستعمار المتخلفة في أفريقيا الجنوبية .

وعدا هذا فنذ سنة ١٩٦٥ حتى نهاية سنة ١٩٦٧ تم استقلال بتشوانالند (بوتسوانا) وباسوتولند (ليسوتو) ، كما استقلت جزيرة موريشس في العام التالى . وبهذا وصلت طلائع التحرير إلى خط عرض ٢٨° أو ٣٠° جنوباً ، أى أن التحرير قفز ٣٠ درجة عرضية في ٧ سنين في النصف الجنوبي من القارة وحده .

وعلى هذا كانت المحصلة العامة حتى ١٩٦٨ هى أن عدد الوحدات المستقلة في القارة الأفريقية قد وصل إلى ٣٩ وحدة ، مجموع مساحتها نحو ١٠,٣ ملايين ميل مربع أو نحو ٨٨,١٪ من مساحة القارة ، ومحتواها السكانى لا يقل عن ٢٣٤ مليون نسمة أو حوالى ٩٣,٥٪ من أبناء القارة . وبهذا لم يتبق أمام أفريقيا سوى بضع خطوات أو قفزات قصيرة لتستكمل تحريرها . وهذا ما تم فعلاً خلال السبعينات ، ولذا يأتي هذا العقد كملحق لعقد أفريقيا الستينات أو كالفصل الأخير في دراما التحرير .

في هذا العقد اقتلع مد التحرير بعض الوحدات الضخمة خاصة في مثلث الجنوب ، كما اكتسح عدبدا من الوحدات الضئيلة خاصة في مستطيل الشمال ، بالاضافة إلى معظم جزر القارة سواء في المحيط الأطلسي أو الهندي . فأما الأولى فتشمل ثلاثية أنجولا وموزمبيق البرتغاليتين بينها روديسيا (الجنوبية) البريطانية سابقا والمستقلة لاحقا (وزيمبابوى بعد التحرير) . ففي الأوليين قامت حرب عصابات حقيقية بين الوطنيين والحكم البرتغالى ، بينما قامت في الأخيرة بين الوطنيين والأقلية البيضاء الحاكمة . وفي الجميع استمرت الحروب بضع سنين ولعبت دورا خطيرا في السياسة الدولية بمساوماتها وصفقاتها ، إلى أن فرض التحرير نفسه في النهاية بقوة السلاح . أما عن الوحدات الضئيلة ، فلقد عرضنا من قبل للصومال الفرنسى في أقصى القرن الأفريقي وللصحراء الإسبانية في المغرب الأقصى . وفيما عدا هذا فقد تركزت البؤرة على دائرتين صغيرتين تقعان على أقصى طرفي غرب أفريقيا أو خليج غينيا ، تتألف كلتاها من جيب ساحلى أو أكثر على اليابس وجزيرة أو أكثر تواجهه في المحيط ، وكلتاها أيضا تتعلق بإسبانيا أو البرتغال .

ففي الدائرة الغربية عند نهايات الانبعاث الأفريقي الكبير تم تخليص غينيا البرتغالية (غينيا بيساو) على اليابس وجزر الرأس الأخضر (كيب فيرد) إزاءها بعد حرب عصابات محلية طويلة . وفي الدائرة الشرقية عند كوع أو زاوية أفريقيا في خليج غينيا أو بيفرا تم تصفية الوجود الإسباني من جيب ريومونى المحصور بين الكرون والجابون ومن مجموعة جزر فرناندو بو وأنويون لتقوم عليها دولة غينيا الاستوائية . وبالمثل طرد الاستعمار البرتغالى من جيب كابندا المهندس بين الكونجو برازا فيل والكونجو كينشاسا (زائير) وأنجولا ثم من مجموعة جزر برنسيب وساو تومى في الخليج .

هذا على جانب الأطلسي ، أما على جانب الهندي فقد تركزت الدائرة حول جزيرة مدغشقر . فكان الدور على جزر القمر (كومورو) ورينيون الفرنسية ، ثم جزر سيشل وموريشس البريطانية .

بهذا كله وبانتهاء السبعينات كانت أفريقيا جميعا قد تحررت تقريبا فيما عدا جمهورية جنوب أفريقيا (بما في ذلك ناميبيا أو جنوب غرب أفريقيا) ثم الجيوب القزمية المتخلفة بالاضافة إلى حالات « الاستعمار الأفريقي » الشاذة . وبهذا أيضا تكون أكبر حركة تحريرية في العصر الحديث قد تحققت في أفريقيا ، وذلك من حيث المساحة وإن لم يكن من حيث السكان . فكيف تبدو هذه الحركة في مجموعها ككل ؟

الخلاصة

إذا نظرنا إلى أفريقيا ككل فسرى أن التحرير بوجه عام بدأ أولا بساحلي البحر المتوسط والأحمر . ثم يلي زمنيا غرب أفريقيا بعامة ، يتبعه مباشرة تقريبا نطاق الصحراء الكبرى وحوض الكونغو . بعد ذلك عبرت قافلة الحرية خط الاستواء ، وزحفت من شرق أفريقيا إلى وسطها على طول العمود الفقري لخط المرتفعات والهضاب الشرقية ، تماما على عكس مسار الاستعمار الأبيض هنا في القرن الماضي . فسهم التحرير في القارة بعامة يرسم إذن اتجاهها محددًا واضحًا من الشمال إلى الجنوب .

وفي التحرير الأفريقي لا يمكن أن نغفل أثر نوع الاستعمار ودور الطبيعة . ففيما عدا جزرا جغرافية معينة من الاستعمار السكنى الاستيطاني ، كان الاستعمار الاستغلالي هو الذي يسود القارة المدارية . ففي ظل هذا الأخير لم يجد التحرير عقبات مستحيلة . فالجاليات الأوربية رشاش أو رذاذ بالغ الضآلة عددا وقوة بفضل المناخ الطارد ، ولا تملك المقاومة الجدية ، ويسهل على المد التحريرى اقتلاعها . ولقد قيل على سبيل المثال في غرب أفريقيا « إن بعوضة الملاريا هي المنقذ الحقيقي » .

أما في جزر الاستعمار السكنى الاستيطاني حيث يتضخم عدد وقوة الدخيل ، فكان لا بد من التحام دموى . ومن حسن الحظ أن الطبيعة الجبلية العالية التي كانت في البدء مغنطيس الاستعمار السكنى الاستيطاني ، كانت بعينها في النهاية عامل طرده ، وأن الطوبوغرافيا التي كانت عونًا له أصبحت عونًا عليه ، وذلك بحسبانها ميدانًا مواتيًا لحرب العصابات الوطنية . تلك تجربة متواترة عرفتتها إثيوبيا ضد الإيطاليين ، وخاضتها الكيكويو في كينيا ، وكررتها بعدها مرتفعات أنجولا . بل قبل هذا جميعا عرفتتها قبائل الزولو والمتايبلي (نديبلي) في مرتفعات جنوب أفريقيا حيث استمر الكفاح قرنا بأكمله على فترات متقطعة في « حرب الكافير » حتى سميت بجدارة حرب المائة عام الأفريقية (١) .

وإذا نحن الآن نظرنا نظرة مقارنة إلى حركة التحرير في كل من آسيا الموسمية والعالم العربي وأفريقيا المدارية ، فقد يمكن أن نقول إن الصراع في الأولى كان أقرب إلى الشكل العسكري وانتظم حروبا حقيقية عنيفة ومبررة ، منظمة أو بالعصابات . أما في

العالم العربي فإن الحروب المسلحة تتقاسم الصراع مع الكفاح الشعبي بنسب متقاربة ، غير أن حركة النضال به كانت أطول مدى وزمنا منها في آسيا . وأما التحرير في أفريقيا للدارية فهو وإن لم يخل من العنصر الحربي فقد كان أقرب إلى الكفاح السياسي الشعبي بعامه . وتحقق بسرعة وسهولة نسبية لا تقارن بأى من المنطقتين الأخريين ، ولا شك أن هذا يرجع جزئيا إلى أنها قد أفادت من ثمار نضالها العنيف أو الطويل .

موجة محيطية رابعة ؟

تلك إذن هي موجات التحرير الثلاث في العالم القديم . ولكن قبل أن نتقدم بعدها ينبغي أن نتذكر أن حركة التحرير لم تقتصر على العالم القديم ولا انحصرت في اليابس وحده ، وإن كان هذا وذاك هما المسرح الرئيسي لها بطبيعة الحال . ذلك أن الاستعمار كان كلما طورد وطرده من القارات تفهقر بانتظام ولكن بعناد إلى المحيطات بجزرها الساحلية والعميقة ليتمترس فيها كخط الدفاع الأخير أو ليتخذق بها كالملاجأ الأخير . ولكن بلا جدوى ، إذ سرعان ما كان المد التحريري يلاحقه إلى تلك الجزر حيث يقتلعه منها بدورها ، فيزداد هو بدوره إمعانا في التراجع إلى الأعماق وإلى أقصى أطراف المعمور والمعمورة ، وهكذا . أو كما صور بعض المراقبين ، كان الاستعمار المنحسر أشبه بالغريق الذي يتشبث بآخر قشة ، وكانت الجزر المحيطية هي القشة الأخيرة تلك . ولكن أيضا إلى حين ، حين يدفن نهائيا في البحر . أو كما علق مراقب آخر ، إذا كان الاستعمار الحديث قد ولد في الأعم الأغلب بحريا وعمد وراء البحار ، فإنه لمنطقي جدا - أليس كذلك ؟ - أن يدفن الآن في البحار .

من هنا ، على أية حال ، تبدو ظاهرة استقلال الجزر البحرية والمحيطية كخلفية مستمرة لحركة التحرير الرئيسية بمراحلها الثلاث عموما ، تبدأ خفيفة ولكنها غير خافية ثم تمضي وثيدة ولكنها متصاعدة متسارعة ، حيث بزغت في الأربعينات ولكنها لم تشتد إلا منذ الستينات خصوصا وفي السبعينات أساسا . ولهذا فلعلنا أن نعدها بمثابة موجة أو شبه موجة رابعة أو تكيلية في حركة التحرير التاريخية ، لا تتركز في فترة زمنية بالضرورة ولا تنحصر في منطقة اقليمية بعينها ، ولكن تغطي الكرة الأرضية عموما بنصفها الشمالي والجنوبي والغربي والشرقي ، وإن تبلورت أكثر في النصف الجنوبي والشرقي بالطبع . ولنفصل . في ١٩٤٤ انفصلت أيسلند عن الدنمرك كدولة مستقلة . وفي ١٩٦٠ استقلت قبرص ، بينما كانت جميعا وتواجو أول ما نالت استقلالها في جزر الأنتيل

الصغرى بالكاريبى فى ١٩٦٢ . وعلى ساحل أمريكا الجنوبية المقابل تم استقلال جيانا البريطانية (جويانا) منذ ١٩٦٦ . ثم لم تلبث الحركة أن انطلقت فى السبعينات متقافزة ما بين الجزر الساحلية والجيوب الساحلية وما بين الجزر المحيطية والأعماق .

فن مالطه فى المتوسط ، إلى الجزر الإفريقية فى الأطلسى كالرأس الأخضر ، ولكن خاصة فى الهندى كالعمر ورينيون وسيشل وموريشس ودييجو جارسيا ، ثم إلى بقية الجزر الفستونية أو القوسية بالأنثيل الصغرى والكبرى فى الكاريبى مثل بهاما وترينداد وبربادوس وأنتيجوا وويندوارد وجواديلوب والمارتينيك ، فضلا عن سورينام (جيانا الهولندية) وبليز (هندوراس البريطانية) على الساحل المواجه ، ثم أخيرا إلى الجزر الأرخيلية السديمية التى تفوق الحصر فى ميلانيزيا وبولينيزيا وميكرونيزيا فى الهادى مثل فيجى وتونجا وفانوتو وبابوا وجزر سولومون وكيريبانى وتونخالو... الخ .

فطوال السبعينات كان كثير من هذه الجزر هنا وهناك يحصل على استقلاله ليؤلف دولا بذاتها وإن كانت بالغة الضآلة mini-states إلى حد أن أحدا لا يكاد يحس بها سوى سجلات وأروقة الأمم المتحدة ولا يسمع عنها سوى الجغرافيين والساسة . وسنرى بعد قليل دور هذه الجزر وأشباه الجزر فى تضخيم عدد الوحدات السياسية بالعالم مع سيادة الأحجام الضئيلة والقزمية عليها .

مغزى الزحف

تتابع وتعاصر

السؤال الآن : هذا الزحف التحريرى بنمطه التاريخى الواضح ، ماذا يقول للجغرافى ؟ حقيقتين بارزتين : أولاها أن هناك فارقا زمنيا طفيفا ولكنه دال بما فيه الكفاية بين قطاعات العالم القديم فى توقيت التحرير . فسار الحركة يرسم قوسا عكس عقارب الساعة يدور مع سواحل المحيط الهندى أو موازيا له ، بادئا فى آسيا الموسمية ومارا بالعالم العربى ثم منتها بأفريقيا المدارية . ومعنى هذا بوجه عام أن التحرير العربى بدأ زمنيا حيث انتهى التحرير الآسيوى ، بينما حيث انتهى هو بدأ التحرير الأفريقى .

الحقيقة الثانية : هى أن هذه الفروق الزمنية لا تنفى أن زحف التحرير جميعا موجة واحدة متعاصرة ملتحمة أساسا وإن تعددت شعبا وتتابع خطوات . ولا ينبغى أن يخذلنا التفاوت الزمنى الدقيق عن ذلك . فالحركة كلها مركزة فى نحو عشرين عاما لا

تزيد ، وهي - إذا وسعنا البؤرة قليلا - مجرد لحظة في مقياس التاريخ السياسي وحياة الأمم . فأى معنى إذن لهاتين الظاهرتين ، وهل لهما مغزى نضالى خاص ؟ كثيرا ما تفسر المتتابعة الأولى على أن التحرير العربى رد فعل تابع وظيفيا تال تاريخيا للمد الأسيوى . ولكن هذا الترتيب إنما هو ترتيب تواريخ الاستقلال الرسمى . والتحرير العربى يمكن أن نقول إنه بدأ منذ بدأ الاستعمار . فكل الثورات والانتفاضات فى الجزائر والمغرب الكبير وفى مصر والشام والعراق التى ترصع كل عقود القرن الماضى والحاضر دليل واضح . هل نريد دليلا أوضح ؟

من المحقق تاريخيا أن ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر كان لها صدى هائل فى الهند خاصة وآسيا عامة ، وكانت وحيا لحركات تحريرية متلاحقة هناك . ومن ناحية أخرى فإنه إذا أخذنا الناحية الشكلية ، فإن مصر تعد دولة مستقلة ذات سيادة منذ سنة ١٩٢٢ ، وإلا فند سنة ١٩٣٦ . والعراق منذ سنة ١٩٣٤ . هذا عدا أن سوريا ولبنان قد تحررتا فعلا قبل أى وحدة فى آسيا الموسمية . ومعنى هذا أن التحرير وإن تأخر ظاهريا فى مجموعته فى العالم العربى عنه فى آسيا الموسمية ، فهو أسبق واقعا .

وهذا هو الترتيب المنطقى للأشياء ، لأن العالم العربى ليس أقرب إلى أوروبا فى الموقع الجغرافى فقط ولكن فى الموقع الحضارى كذلك . وكما أن القوة الحضارية النسبية للعالم العربى هى التى أخرجت دخول الاستعمار الغربى إليه طويلا عنه فى آسيا الموسمية ، فإنها هى نفسها التى تفسر سبب التحرير الفعلى العربى عن الأسيوى . أما لماذا تأخر النجاح القانونى للتحرير العربى رغم هذا السبق الحضارى والنضالى ، فيرجع أساسا إلى الموقع الاستراتيجى للعالم العربى كشرىان المواصلات الاستعمارية مما جعل الاستعمار أكثر ما يكون تشبثا به وضراوة فيه . لاسيا أن قرب هذا الموقع الشديد من أوروبا قد شدد من قبضتها عليه وكتبها له . فوقفه التحريرى إذن أدق وأصعب . قارن مثلا نضال الهند الصينية بنضال الجزائر إزاء فرنسا ، ونضال الهند بنضال مصر إزاء بريطانيا .

أما بالنسبة إلى أفريقيا المدارية فلا شك أن الحقيقة المقررة ، والمعترف بها من الجميع ، هى أن المثل العربى كان مباشرا وحاسما فى تفجير وتحريك الثورة التحريرية على تخومه الجنوبية ، بل تعدى التأثير إلى النطاق العملى بالمساعدة الإيجابية حتى كان العالم العربى فى مجموعته بحق « واحة أفريقيا » سياسيا . ومن المحقق على وجه التحديد أن حرب السويس الفاصلة فى سنة ١٩٥٦ كانت علامة تاريخية وإشارة بدء لأفريقيا المدارية بالانطلاق نحو التحرير .

والحقيقة أننا يمكن أن نؤرخ لبدء حركة التحرير الفعالة جنوب الصحراء بهذه المعركة - أرماجدون أفريقيا الجديدة . وليس من الصدفة أن أول نجاح تحققه في غانا وغينيا كان في سنة ١٩٥٨ ، أى بعد عامين من تلك المعركة . والواقع أن أثر معركة السويس في تحرير أفريقيا يشبه - إلى حد ما ومع الفارق - أثر اليابان غير المقصود في تحرير آسيا . ففيها شهدت أفريقيا مع العالم هزيمة الرجل الأبيض والجيوش الأوربية ، ومعها تحطمت أسطورة التفوق التقليدية ، وبها اقتنعت أفريقيا بأنها قادرة على أن تتحدى الاستعمار وتطارده .

وعلى هذا فالخلاصة أنه سواء بالنسبة للجنح الأسيوى أو الأفريقي من العالم المدارى ، يقف العالم العربى موقفا رياديا كقوة للتحرير ، وكان دائما كأقرب أجزاء العالم الثالث إلى أوروبا موقعا وقامة يمتاز بدينامية جيوبوليتيكية فياضة بالإشعاع السياسى فيما حولها . ولعل هذا هو التفسير الصحيح لتتابع مراحل التحرير الحقيقى داخل قطاعات العالم القديم زمنيا .

ويبقى الآن التعاصر الأسي والقاعدى بينها رغم ذلك . وهذا التعاصر هو الذى يفسر تفاوت عمر الاستعمار بشدة بين تلك القطاعات . إذ أن هناك بدايات مختلفة جدا تاريخيا ، ولكن تاريخ النهاية واحد عموما . فى آسيا الموسمية وصل الاستعمار إلى أرذل العمر بالتأكيد ، حيث عمر الاستعمار الهولندى وحده فى إندونيسيا ٣٥٠ سنة ، وحيث خضرم الاستعمار فى الهند قرنين ، وفى الهند الصينية نحو قرن . على النقيض من هذا أفريقيا المدارية حيث - باستثناء السواحل - لا يزيد عمر الاستعمار عن ٧٠ سنة فى المتوسط . أما فى العالم العربى فالحد الأقصى يزيد قليلا عن المتوسط الأفريقى ، ولا يزيد كثيرا عن الحد الأدنى الأسيوى ، أما الحد الأدنى فيقل كثيرا جدا عن أى منها .

روح العصر والميكانيزم

ثم يعود السؤال : لماذا تعاصرت ظاهرة التحرير فى العالم عموما ؟ والرد يمكن - فى كلمة واحدة - فى روح العصر Zeitgeist . لقد أصبح التحرير هو إيدولوجية الشعوب التى طال كبتها وروح العصر السارية السائدة . وإنه هو المناخ السياسى الذى جعل الثورة على الاستعمار ظاهرة كوكبية فى العالم كله لا علاقة لتوقيتها بعمر الاستعمار هنا أو هناك - دون أن يقلل هذا البتة من دور الكفاح الوطنى نفسه ، وإنما هو كان فرصة مواتية استفاد منها هذا الكفاح إفادة ذكية شجاعة .

ولكن لاشك أن وراء روح العصر هذه عوامل مادية وسياسية صلبة علينا أن نبحث عنها . وفي هذا يمكن أن نتعرف على عاملين رئيسيين . فهناك أولا ميكانيكية نمو المستعمرات . فالاستعمار سلاح ذو حدين . فحتى يستغل مستعمرته لمصلحته ، فإنه يضطر راغما إلى إدخال الوسائل الحضارية والتكنولوجية التي تساعد على ذلك . أى أنه يعجل بعملية الاحتكاك الحضارى والتحضير التي تنعكس على الوطنيين نمواً في القوة البشرية وفي الكفاءة الفنية ، فيشتد ساعدتهم وقدرتهم المادية على النضال السياسى .

وليس أقل أهمية من الناحية المادية النواحي النفسية . فالاحتكاك الحضارى مع بداية الاستعمار يصيب الوطنيين بانبهار حضارى وانتيار نفسى يسهل الانتصار للاستعمار . ولكن مع تشرهم وتمرسهم بالحضارة الجديدة - والإلف بورث الاحتقار - يدركون أسرارها بل ويدركون فضلهم التاريخى فيها ، مما يرفع روحهم المعنوية إزاء المستعمر ويحل مركب النقص الحضارى . وبمعنى آخر فإن كلا من ميكانيزم وسيكولوجية الاحتكاك الحضارى لا يلبث أن يقوى ساعد التحرير ماديا ومعنويا حتى ينجح فى طرد الاستعمار .

والخلاصة أن الاحتكاك الحضارى الذى يصاحب الاستعمار لا يلبث أن يضيق الهوة الحضارية - التى هى أساس التفوق العسكرى للاستعمار - بين القوة الدخيلة والداخلية . وهكذا يؤدى منطق الاستعمار من صميم نفسه وبطريقة دياكتيكية إلى نقيضه تماما . تلك متناقضة ساخرة فى فلسفة الاستعمار ، وهى وحدها تجعل نهايته محتومة بطبيعته ، فهو يهزم أغراضه ويستهلك نفسه بنفسه ويحمل فى كيانه جرثومة فثائه . هذا أول .

أما العامل الثانى فى تصفية الاستعمار وإذابته فهو انتهاء احتكار القوة العالمية فى يد قوى أوروبا الاستعمارية . فرغم أن الاستعمار كان يمثل نظاما واحدا فى النهاية ، فقد كان يفتح بالصراعات الداخلية والتوترات الكامنة التى لم تزل تصدعه وتمزقه . وبين هذا وذاك استطاعت بعض المستعمرات أن تتزع استقلالها . وعلى التتابع التاريخى يمكن أن نقول إن كلا من فرنسا وبريطانيا كانت تطارد كلا من إيطاليا وألمانيا وراء البحار ، وكانت بريطانيا تطارد الجميع ، إلى أن جاءت الولايات المتحدة محاولة أن توث الكل فى صورة جديدة . وتتمثل هذه المناورات والمطاردات ، كعامل فعال أو مساعد فى تحرير المستعمرات ، ابتداء من سوريا ولبنان ، إلى ليبيا والجزائر وفيتنام .. الخ .

ولكن لا يقل خطرا عن ذلك أن تضعف الاستعمار بالصراع الداخلى والحروب

المتواترة قد ساعد على إعطاء الفرصة لظهور قوى جديدة ضخمة معادية للاستعمار من حيث المبدأ . والإشارة هنا إلى الدول الاشتراكية الماركسية عامة والاتحاد السوفيتي خاصة . ومن هنا لم تعد المستعمرات تعيش في سوق سياسية احتكارية تماما تحت رحمة الاستعمار المطلقة ، وإنما في سوق حرة نوعا مما أعطاهما على الأقل حرية الحركة والمناورة والمضاربة بينها ، حتى تمكنت من انتزاع حريتها .

نتائج التحرير

متغيرات التحرير
الخروج الأبيض

ولا يتم تحليلنا لثورة التحرير إلا بإشارة إلى ظاهرتين عامتين صاحبتهما ولكل منهما مغزاها وخطرها . هاتان هما الخروج الأبيض والتفتيت السياسي . ولربما جاز لنا أن نضيف إليهما ، ولكن على مستوى ثانوي أو أدنى ، ظاهرة أو معركة تغيير أسماء الأماكن السياسية . فالخروج الأبيض ظاهرة عالمية واكبت التحرير وأخذت صورة عنيفة في بعض الحالات ، إذ أخذت الجاليات والمستعمرات الأوربية تغادر المستعمرات بعد إقامة طالته وأزمنت بدرجة أو بأخرى . وفي الغالب كانت بوادر الخروج تسبق تمام التحرير ، وفي الأعم الأغلب كانت موجة الخروج تتحول إلى عملية هروب عاجل . تصفى به الجالية أو المستعمرة نفسها بنفسها في غضون شهور من استكمال التحرير . فمثلا انتظم تيار الخروج من الجزائر وحدها نصف مليون في شهر واحد .

ولقد كانت المشكلة الخطيرة حقا هي مصير الاستعمار الاستيطاني السكني الكثيف ، لأن الخروج يأخذ هنا أبعادا مختلفة جدا كما في الجزائر وإلى حد ما كينيا . وعادة ما كان الموقف الوطني معتدلا واقعيا بلا تطرف . فكثيرا ما أعلن التحرير أنه لا ينبغي طرد الجاليات والمستعمرات الأجنبية إذا ما قبلت مواطنة عادية مخلصه بلا امتيازات ، أو إن شئت فلها أن تبقى كأجانب عاديين . ورغم هذا الموقف السمع ، فقد كان المرجح أن تصفى للمستعمرات والجاليات نفسها بنفسها بعد فرض المساواة ومنع الاستغلال ، وهكذا بالفعل كان .

وهذا لاشك أبلغ دليل على أن الوجود الاقتصادي للاستعمار كان رهنا بوجوده

السياسى ، وبغية كان لانجاح له ولائحل . وفي هذه الحالة كثيرا ما كانت العملية تأخذ طابعا انتقاميا تخريبيا بقصد شل جهاز الدولة الجديدة وتعجيزها تشويها للاستقلال والتحرير . وفي الوقت الحالى أصبحت الجاليات الأوربية فى الدول الآسيوية والأفريقية الجديدة لاوزن لها عدديا أو اقتصاديا بعد أن كانت عنصرا أساسيا فى مركب الاستعمار .

ومعنى هذا كله إن مصير الجزر الأوربية فى المحيط الاستعمارى القديم هو كمصير أى جسم غريب يدخل الكائن العضوى : لا يستطيع أن يمتصه ويمثله فيلفظه فى النهاية . وهكذا يسجل التاريخ النهاية العجيبة لمغامرة من أكبر المغامرات الملتهية المحمومة ولرحلة من أطول الرحلات العاتية بين القارات ، مما يوحى بأن الاستعمار بكل أنماطه هو مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ البشرية وظاهرة فى الجغرافيا السياسية عابرة مها طالت ، وهى عابرة لأنها غير طبيعية فى النهاية .

هل يترك الخروج الأبيض « فراغا » حضاريا أو اقتصاديا خطيرا فى المستعمرات المتحررة ؟ أترك كذلك فراغا سياسيا يهدد التوازن الدولى ؟ قضيتان متشابهتان آثارهما الاستعمار دائما وحاول أن يلقى بهما فى طريق تيار التحرير لعله يتقاعس . بل لقد تنبأ البعض بأن الاقتصاد الزراعى ، خاصة المشروعات الكبرى ، والاقتصاد التعدين والتصنيع النامى ، قد تضرب لسنوات بعد الخروج . وصحيح أن بعض الدول الجديدة لم ترحب كثيرا بهذه الهجرة الفجائية التى قد ترجع الاقتصاد القومى بما تسحبه معها من رأس المال والخبرة الفنية . على أن هذه المشكلة مؤقتة جدا بطبيعتها ، بل لم تكف تحقق فى أغلب الحالات - على الأقل بالاستعانة بخبراء أجانب غير استعماريين . أما أن يخشى البعض على المستوى الحضارى والاقتصادى للدول الجديدة أن يتكس بعد الخروج فأمر تكذبه الثورة الاقتصادية والطفرة الحضارية التى واكبت التحرير فى كل مكان لاسيما فى القواعد الطبيعية كمصر والعالم العربى والهند .. الخ .

التفتيت السياسى

هذا عن ظاهرة الخروج الأبيض . أما الظاهرة الثانية التى صاحبت التحرير فهى ظاهرة عكسية ومؤسفة . فقد لجأ الاستعمار عامدا متعمدا قبل خروجه إلى تفتيت مناطقه السابقة تفتيتا ميكروسكوبيا ، وفى أفريقيا بالذات تفتيتا ذريا ، حتى يضمن وراءه نسيجا سياسيا متبالكا أقرب إلى الأمثلة والأعجوبة منه إلى الكيان الجيوبولتيكى

الصحي السليم . وكم من مسخ سياسي برز في هذه التقسيمات الجديدة ، وكم من قبلة موقوتة تكن في حدوده العشوائية الشاذة .

والشيء الغريب والمخجل معا أن الاستعمار الذي كان مهندس هذه السياسة المكيفيلية هو نفسه الذي كان يتحايل إبان وجوده بكل الطرق ليفرض اتحادات مصطنعة وتجمعات إقليمية مفتعلة ضد إرادة الوطنيين . ويكفي أن نذكر أو نتذكر اتحاد وسط أفريقيا الدموي الفاشل ومشروع الهلال الخصيب الآثم ومشاريع اتحادات شرق أفريقيا وغرب أفريقيا .. ألخ . ويرى البعض في هذه البلقنة المخططة - وهم في ذلك على حق - أول مظهر من مظاهر « الاستعمار الجديد » . ويلاحظ أنه لم ينبج من هذه البلقنة السافرة لآسيا ولا العرب ولا أفريقيا ، لا الوحدات الضخمة ولا الوحدات الصغيرة .

الهند الصينية الفرنسية - مثلا - خلفت وراءها ثلاث دول جديدة ، وكل جنوب شرق آسيا أصبح الآن « بلقان الشرق الأقصى »^(١) ، بينما أن الهند التي ظلت تحت الاستعمار وحدة واحدة تركت أربع دول ثم صارت خمسا أو أكثر . والعالم العربي ، هذا الذي كان كلا واحدا حتى في ظل الاستعمار التركي ، أصبح متحفا سياسيا مرصعا بعدد من الدول التي يزيد عددها على العشرين ولكن لا يزيد بعضها عن دول جيب أو أسافين ، كما يبدو أنها تريد المزيد من التكاثر والازدياد بالانفصال والانشطار (تذكر فقط حركة البوليساريو ومحاولة جمهورية الصحراء الغربية في المغرب الأقصى على سبيل المثال) .

على أن أفريقيا هي بلا شك المثل بل الأمثلة الساخرة في باب البلقنة . فبها الآن نحو ٥٠ وحدة سياسية ، أي نحو ضعف عدد وحدات أوربا أكثر قارات العالم تجزئة فيما مضى ، أو أقل قليلا من نصف دول العالم أجمع حتى قريب ونحو ثلثها حاليا . أو بصيغة أخرى لاتقل دلالة إن لم تزد سخرية ، قل إن قارة أفريقيا تعادل في عدد دولها عدد ولايات دول قارة تقل مساحة هي الولايات المتحدة الأمريكية . ولا جدال أن هذا التفتيت يرقى أصلا إلى صنع الاستعمار المغادر . ولعل المثل الصارخ هو الاستعمار الفرنسي

(١) C.A. Fisher, "Southeast Asia: The Balkans of the Orient?", Geog., Nov. 1962, p. 374.

في أفريقيا الاستوائية والغربية حيث أعطت وحدتان اثنتان فقط نسلا سياسيا بلغ ١٦ وحدة .

فإذا أضفنا إلى هذا كله فيض أو دفع دول الجزر وأشباه الجزر المحيطية والساحلية الجديدة بالعشرات mini-states ، والتي لا حيلة للجغرافيا أو للسياسة فيها ، لبدت خريطة العالم السياسية الحالية أشبه بثوب أو نسيج يتألف من عديد الرقع المختلة في مساحتها المتناثرة في ألوانها . والواقع أن خريطة العالم السياسية ، خريطة الدول المستقلة أعنى والتي هي أعضاء في الأمم المتحدة اليوم ، قد تغيرت في العقود الأخيرة بقوة التحرير تغيرا جذريا .

فبعد أن كانت تدور تقليديا في حدود + ٥٠ دولة حوالى مابعد الحرب الثانية مباشرة ، تضاعفت إلى نحو + ١٠٠ دولة في السبعينات الباكرة أو أواسط السبعينات ، وهي اليوم تتجاوز ١٥٠ دولة (نحو ١٥٥ دولة) ، قابلة للزيادة ما تزال وإن كانت بإضافات محدودة الآن بالضرورة) . وفي مقابل أقلية معدودة من الأحجام أو الأحجار الضخمة العملاقة ، فبديهى أن الأغلبية الساحقة تتألف لامفر من ذرات مسحوقة أو حصى وفتات . وهكذا ازداد الهيكل السياسي للعالم اختلالا واضطرابا عنه في أى وقت مضى .

ذلك أن السواد الأعظم من هذه الدويلات المستحدثة وحدات هزيلة معتلة ومفتعلة قد لا تزيد عن المليون أو المليونين سكانا . فبحسب تقديرات منتصف ١٩٨٠ ، حين بلغ عدد دول العالم ١٥٥ دولة ، كانت ٢٧ دولة منها من فئة - مليون نسمة ، ١٣ دولة من فئة مليون إلى مليونين ، ٧ دول من فئة ٢ - ٣ ملايين ، ١٣ دولة من فئة ٣ - ٤ ملايين ، ٧ دول من فئة ٤ - ٥ ملايين - أى أن ٦٧ دولة بالعالم تقع دون علامة الخمسة الملايين ، بنسبة ٤٣٪ تقريبا من المجموع .

وإذا كان لهذه الكثرة العددية - وبغاث الطير أكثرها فراخا - قيمة شكلية ما في المحافل والمنظمات الدولية ، فهي تترك أصحابها بلا وزن حقيقى في مجال القوة السياسية . وإذا لم يكن لدول الجزر المحيطية النائية حيلة ولا جريرة في انفرادها أو ضآلتها ، فإن من أسف أن أغلب الدول الجديدة قبلت الحدود - الأقفاص الحديدية بالأحرى - التي فرضها الاستعمار ، وتمسكت بها كما لو كانت إرثا مقدسا ، الأمر الذى أعطى الأعداء

الفرصة لاتهم الوطنية فيها بأنها ليست أكثر من مجرد رد فعل للاستعمار لا ابتثاقا طبيعيا
حميا (١) .

معركة الأسماء

على هامش متغيرات التحرير تأتي ، أخيرا ، معركة الأسماء . أسماء الأماكن ، أو بالدقة معركة تغيير الأسماء . وقد لا تكون هذه القضية أكثر من شكلية رمزية . غير أنها تواترت بإلحاح كملمح حتى غدت قضية وطنية حقا . بحيث لا يجوز للباحث المراقب أن يتجاهلها ، مثلما هي أمر يومي لامفر منه على أية حال حتى لقارئ الصحيفة العادية .

فن ناحية ، كان الاستعمار في سعية العنيد لفرض بصمته ووصايته على تملكاته قد حَرَفَ أو شوه كثيرا من أسماء مواقعها الجغرافية ، أو استبدل بالأسماء الوطنية الأصلية أسماء دخيلة من عنده ، بل وأحيانا ابتدع هذه الأسماء لأول مرة في المناطق الخالية غير المأهولة أو المتخلفة حضاريا . ولئن كانت هذه الظاهرة محدودة ضئيلة في مناطق الحضارات التاريخية العريقة كالعالم العربي بالذات ، فإنها لم تنج منها تماما في حالات الاستعمار الاستيطاني بالتحديد . ولعل الجزائر هي المثل الأكبر ، حيث فرض المستعمر أسماء فرنسية على مئات من المواقع والأماكن ابتداء من أكبر المدن الرئيسية حتى أصغر القرى والنجوع النائية . وإلى حد ما لم يخل المغرب (مراكش) وليبيا (خاصة طرابلس) من هذه العدوى أو هذا العدوان . غير أن ظاهرة أسماء الأماكن الاستعمارية أو الأجنبية ألصق عادة بالمناطق الأقل عراققة في التاريخ والمقاومة الحضارية . فنجدها تستشري في آسيا الموسمية أو في المناطق البكر والمجاهل الجديدة مثل أمريكا الوسطى واللاتينية . غير أنها إنما تصل إلى ذروتها ومنتهى كثافتها في أفريقيا السوداء ، قاع العالم حضاريا وبشريا كما كانت تعد تقليديا وإلى وقت قريب .

هذا من ناحية الاستعمار . ومن جانبه ، فلقد كان خليقا بالتحرير أن يعد هذه البصمة بمثابة وصمة حقيقية في جبين الوطنية البازغة ، ولذا كان طبيعيا أن ينقض عليها ليمحوها ويطمس معالمها وينقش فوقها أسماء الوطنية الأصلية . ومن هنا توشك معركة تغيير أسماء الأماكن هذه أن تواكب ظاهرة أو مظاهرة الأعلام والأناشيد الوطنية في الدول الجديدة المتحررة ، وكادت مثلها أن تكون جزءا لا يتجزأ من معركة التحرير

R. Calder, p. 3.

(١)

ذاتها . لقد جاءت معركة التحرير عملية ميلاد سياسى وتعميد أو إعادة تعميم للدول
معا ، قديمها وجديدها على السواء .

وكما أن التغيير لم يقتصر على تصحيح الأسماء المحرفة أو المصحفة دون الأسماء الدخيلة
المفروضة ، فإنه كذلك يتجاوز أسماء الدول إلى أسماء العواصم السياسية نفسها بل والمدن
والمواضع العادية بعدها أحيانا . وعلى الجملة فإن العملية كلها تندرج تحت شعار واحد
وفى إطار واحد وإن اختلفت المسميات : هنا التعريب أو التهيد ، وهنا الأسيوة أو
الأفرقة ، وذلك بعد الأوربة والأمركة ، ولا نقول « الفبركة » ، فى الجميع .

فإذا بدأنا من الأقل إلى الأكثر ، فإن العالم العربى يكاد يقع خارج حدود
الظاهرة ، إلا المغرب عامة والجزائر خاصة حيث جاء التعريب أحيانا جزءا من التحرير
وشمل التعريب ضمنا أسماء الأماكن . هكذا ، كمجرد أمثلة وعينات من الجزائر ،
عادت بونه عنابه ، فيليبيل سكيكده ، أورليانفيل الأصنام ، جريفيل البيض ،
نيمور الغزوات ، بينا صححت بوجى إلى بجاية والجوليا إلى القليعة ... ألخ . وفى
المغرب عادت موجادور الصويرة ، مزغان الجديدة ، لوى جنتى كشكاظ ، بتي جان
سيدى قاسم ، بينا تم تصحيح لاراش إلى العرايش والأغوات إلى الأغواط ، فضلا
عن ترجمة كازابلانكا إلى الدار البيضاء . وبالمثل فى تونس صارت فيريفيل منزل
بورقبية ، بينا تحررت بيزرت من التصحيف فارتدت بترت ، وإنفيدافيل فعادت
النفيضة ، ولا سخيرا التى عادت الصخيرة ... الخ^(١) .

أما فى العالم الجديد ، إذا انتقلنا من التقيض إلى التقيض ، ففقط لأن معظم أسماء
الأماكن جديدة من وضع الاستعمار أو التعمير الأوربى أصلا وأساسا ، فقليلة هى
الأسماء التى تغيرت بعد التحرير مؤخرا فى منطقة مثل الكاريبى أو شمال أمريكا الجنوبية .
ولعل أبرز هذه القلة هى جويانا التى حلت محل جيانا البريطانية ، وسورينام بدل جيانا
الهولندية ، ثم بليز بدل هوندوراس البريطانية .

على أن معركة تغيير الأسماء إنما بدأت وبرزت فى آسيا الموسمية أو جنوب شرق آسيا
بالتحديد حيث تمت العملية فى الأربعينات فى معظمها . ولقد كان ميدانها الأكبر
إندونيسيا ، التى حلت هى نفسها كتسمية (وإن لم تكن أكثر أصالة ووطنية كما يتفق)

(١) جمال حمدان ، المدينة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٥٤ ، ١٠٦ وما بعدها .

محل تسمية الهند الشرقية الهولندية سابقا . فكما ورثت جاكرتا بتافيا (وهى اسم أو سعى هولندي أصلا) ، عادت بورنيو كاليمنتان ، ونيوجيني إيريان ، بينما صححت سلبس إلى سولاويزى . وعلى الأجناب ، فكما عادت فورموزا من قبل (وهى تسمية برتغالية أصلا منذ أيام ماجلان بمعنى الجميلة) فصارت تايوان ، تغيرت سايجون عاصمة فيتنام من بعد إلى هوشى منه ، مثلها تغيرت سيلون إلى سرى لانكا وتعطلت كمبوديا إلى كمبوتشيا ... الخ .

ولكنها أفريقيا يقينا ، القارة المظلمة أو المظلومة ، التى عرفت أكبر قدر من الابتزاز أو التشوية فى التسميات مثلما عرفت فى الوجود والحياة . وبالتالي كانت قطب الرعى فى معركة التعديل والتصحيح . فمن ساحل الذهب إلى غانا ، ومن داهومى إلى بنين ، ومن الكونجو إلى زائير ، ومن نياسالند إلى ملاوى ، ومن روديسيا الشمالية إلى زامبيا والجنوبية إلى زيمبابوى ، ومن بتشوانالند إلى بوتسوانا ، ومن باسوتولند إلى ليسوتو ، ومن جنوب غرب أفريقيا إلى ناميبيا ، ثم أخيرا من مدغشقر إلى ملاجاش .

هذا على مستوى أسماء الدول نفسها . ولكن هناك أيضا العواصم السياسية : فمن ليوبولدفيل إلى كينشاسا فى زائير ، ومن فورلامى إلى نجامينا فى تشاد ، ومن باثورست إلى بانجول فى جامبيا ، ومن لورنسو ماركيز إلى مابوتو فى موزمبيق ، وأخيرا جدا من سولسبرى إلى هريرى (هرارى) فى زيمبابوى . حتى المدن العادية والأقاليم الادارية بل والمعالم الطبيعية البحتة أعيد تعميدها مثلما حدث فى زائير خاصة ، حيث صارت مدينة الشرق الكبيرة ستانلى فيل كيبسينجانى ، وإقليم كاتنجا النحاسى الشهير شابا ، وبحيرات الأخدود وهضبة البحيرات بحيرة سيسى كو موبوتو وغير ذلك ... الخ . أو خذ ملاجاش ، حيث عادت قاعدة ديبجو سواريز البحرية الشهيرة أنتسيران ... الخ .

بقايا الاستعمار

يبقى لنا أخيرا ، حتى نستكمل مسح التحرير ، أن نحصر مخلفات الاستعمار وبقاياها وأن نقيم وزنها ونرصد مصيرها . وهنا نجد من المفيد أن نسجل لقطتين متتابعتين فى شريط انحسار الاستعمار لتكون كل منها بمثابة وقفة موحية فى توقيت ذى مغزى ، فواحدة تمثل ما قبل النهاية والأخرى تصور النهاية أو الصورة النهائية . ولعل سنة ١٩٧٠ تقريبا أى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات أن تكون خير توقيت للقطعة الأولى ، مقابل ١٩٨٠ للوقفة الأخيرة أى الصورة الراهنة اليوم بالتقريب .

فإذا ما بدأنا بصورة ١٩٧٠ ، رأينا فلول الاستعمار قد أخذت تنزوي على استحياء - أم بلا خجل ؟ - في أقصى أطراف الأرض وأركانها المتطوحة ، إما على هوامش القارات كجيبوب وأسافين قزمية متناثرة أو كأرخبيلات وجزر سديمية في البحار القارية ، وفي الأقل ككتل متخلفة relict في سبيلها إلى العزق والزوال ، والكل لا يزيد عن ٤٪ من مساحة العالم . ومعنى هذا أيضا أن السواحل التي كانت أول مواطني أقدم الاستعمار البحري هي اليوم آخر معاقله ، وهي من ثم أطول ما عانى من الاستعمار وخضع له زمنيا .

ويرسم النمط الجغرافي العام لفلول الاستعمار في ذلك اليوم صورة قلب وجناحين : جناح أيمن في الشرق الأقصى - وأيسر في الكاريبي ، أما القلب ففي أفريقيا والعالم العربي . فن الشرق نجد هونج كونج البريطانية ومكاو البرتغالية وكل منها جزرى أو شبه جزرى يبدو كالبثور على أطراف القارة ، وهي تحت رحمة القوة القارية - الصين - تماما ، وبقاؤها للآن ليس إلا جزءا من سياسة اقتصادية خاصة لتلك القوة ، ولو شاءت لاستردتها في ساعات (« بالتليفون » كما يقال أحيانا) . ثم هناك أرخبيل الأوقيانوسية بما في ذلك نيوجيني أو إيربان الشرقية إلى الشرق والشمال الشرقى من أستراليا حيث لازال الاستعمار البريطاني والفرنسي يتقاسم هذه الجزر الشتيتة القزمية .

وفي أقصى الغرب في الكاريبي تتناظر صورته بمائلة . فلا زالت كثير من جزر الأنتيل الصغرى موزعة بين الاستعماريين البريطانيين والفرنسي . بينما على ساحل القارة المقابل اثنتان من الجيانات الثلاث - الفرنسية والهولندية . وبين الطرفين يتوقع الاستعمار في عدة جزر محيطية غائرة سحيقة العمق في المحيطات كبعض جزر المحيط الهندي مثل سيشل وأرخبيل تشييجوس وكيكوس ثم جزر كومورو وموريشس وروينيون ، وبعض جزر المحيط الأطلسي (اسنشن ، سانت هيلانه) ، وإن كان قد تقرر أخيرا استقلال موريشس . ولكن يلاحظ في نفس الوقت أن الاستعمار بدأ يتحصن في هذه الجزر النائية ويسحب إليها قواعده من أواسط القارات وأطرافها كما حدث في بعض جزر ملديف وكومورو .

ولكن دائرة العالم العربي وأفريقيا هي بلا شك أكبر معاقل الاستعمار المتخلفة . فهناك مجموعتان من الأشكال الاستعمارية : أسافين وجيوب محلية ، وكتل جذعية

ضخمة . فن الأولى الاستعمار الصهيوني الآثم في فلسطين المحتلة ، وجيوب سبتة ومليلة وإفنى وريودي أورو حيث يعيش الاستعمار الإسباني ، ثم هناك في أفريقيا المدارية غينيا البرتغالية وريوموني وساوتومي الإسبانية وكابندا وكلها في دائرة غرب أفريقيا . وأخيرا الصومال الفرنسي على الساحل الشرقى . أما الكتل الرئيسية المتخلفة فهي أولا الجنوب العربى ابتداء من البحرين حتى ظفار حيث ظل يتشبث الاستعمار البريطانى فى استماتة يائسة يفسرها البترول بكل سهولة ، إلى أن أرغمه تقلصه وتدهوره الاقتصادى على إعلان عزمه على الانسحاب منه قبل ١٩٧١ .

ثمة ثانيا كتلة أفريقيا الجنوبية التى تجمع بين أنجولا وموزمبيق البرتغالية وبين روديسيا وسوازيلاند ، بالإضافة إلى جنوب أفريقيا البيضاء ومعها جنوب غرب أفريقيا التى اغتصبتها (ناميبيا) . والكتلة فى مجموعها ترسم رقم ٧ ، حيث يرسل التحرير فى قلبها سهمه مفتتا وممزقا . وواضح أن هذه ليست أكبر معقل متخلف متبقي للاستعمار ، وإنما هى أيضا أضخم كتلة متصلة تبقى له فى أى جزء من العالم .

ولم يكن شك فى أن مصير الجزر وأشباه الجزر والأسافين الساحلية مقدور . فهى - بحكم الجغرافيا على الأقل - إلى زوال وأيامها معدودة ، ولن تستطيع أى مقاومة إزاء المد التحريرى ، فإن بحر الاستقلال يطوقها تماما ولا يمكن أن تنجو من قوة تعريته . وإنما المشكلة فى الكتل الجذعية بخاصة ، فهناك يتراس الاستعمار ويناسك ويبدى « وحدة » جديدة فى وجه التحرير . ومع ذلك فصيرها أيضا محتوم ، وإن طال الأمد نوعا . وعلى التحرير أن يضغط بمزيد من القوة والعنف ، وقد لا ينقضى عقد وبعض عقد حتى يقتلعها ويكتسحها تماما . ولعل السبعينات أو الثمانينات على أكثر تقدير تشهد عملية دفن آخر فلول للاستعمار فى الأرض أو فى البحر . وسنرى إلى أى حد يتحقق هذا فى اللقطة الأخيرة ١٩٨٠ ، بعد أن نختتم لقطه ١٩٧٠ .

فإذا نحن أردنا أن نضع قوى الاستعمار حوالى ١٩٧٠ فى حساب الخسائر والأرباح ، فسنجد نتائج بل نقائص مثيرة بل غير منطقية ، لعل أغربها أن « أكبر » قوة استعمارية فى عالم ذلك اليوم هى البرتغال القزمية الحفرية ! أجل البرتغال ، فإن مستعمراتها يومئذ فى أفريقيا أكبر مساحة وسكانا من مستعمرات أى قوة أخرى فى العالم . ويلبها فى الوزن الاستعمار البريطانى ، بينما قد يزيد الاستعمار الإيبانى بدوره - وهو إمبراطورية جيوب وأسافين بحت - عن الاستعمار الفرنسى . فالإمبراطورية الفرنسية هى بلا شك التى من بين الاستعمار الكبير قد بادت تماما فى عصر التحرير ، وبقاياها فى ١٩٧٠ رمزية تذكارية

صرفة لاتزيد على الصومال في أفريقيا وجيانا في أمريكا الجنوبية وبعض جزر قليلة من الأوقيانوسية . ويشبهها في هذا هولندا ، بينما فقدت بلجيكا مستعمرتها الوحيدة .

وتقودنا هذه التطورات الانقلابية في مصائر الاستعمار إلى ظاهرة طريفة في ترتيب عملية تصفية القوى الاستعمارية . فبوجه عام يمكن أن نقول إن أقدم الإمبراطوريات (القوى العتيقة) هي آخرها زوالا اليوم ، وآخر من دخل ميدان الاستعمار (القوى الوليدة) هو أول من خرج منه . أى أن العلاقة - للغرابة - عكسية . فلقد كانت ألمانيا آخر من خرج إلى الاستعمار في السبعينات بعد وحدتها ، وكانت كذلك أول من خرج منه في الحرب الكبرى الأولى . وفي السبعينات أيضا دخلت إيطاليا دائرة الاستعمار ، ومع الحرب الكبرى الثانية كان خروجها . وعلى الطرف النقيض كانت البرتغال وإسبانيا أول من افتتح العمل الاستعماري ، وهما حتى ذلك اليوم أقل من خسر نسيبا . وبين الطرفين كانت تأتي فرنسا وهولندا وبريطانيا بدرجات متفاوتة أو مطردة .

١٩٨٠

إذا انتقلنا الآن إلى ١٩٨٠ ، فما أبعد المدى بين الصورتين . إن الاستعمار المحتضر قد لفظ أنفاسه أو كاد ، أو قل هو في الترع الأخير . معظم الجيوب والأسافين الساحلية السابقة ، إذا بدأنا بالأدنى ، بالاضافة أيضا إلى معظم الجزر الساحلية والبحرية والمحيطية ، قد تجمرت . وعلى سبيل المثال ، فلم يعد يتبقى من الإمبراطورية البريطانية القديمة ، التي بلغت في أوجها نحو ١٣٠٠ مليون نسمة ، سوى حفنة من الجزر وأشباه الجزر للبعثرة مجموع سكانها ٦ ملايين نسمة ، ٥ ملايين منهم في هونج كونج وحدها ! وبعمامة فإن البقايا الاستعمارية المتخلفة لاتعدو بالكاد شرق نيوجيني أو إيريان الشرقية في أستراليا شرقا ، مع بعض آخر معاقل القواعد البحرية المجددة والمكثفة في أعماق جزر الهندى مثل أرخبيل تشيجوس في القلب وكيكوس على الجنب . ثم هناك في أقصى الغرب عدد كبير نسيبا من الحالات في الأطلسى شمالا وجنوبا ولكن في الكاريبي خصوصا . فثمة ماتزال جزر برمودا ، ثم في الكاريبي توركوس ، كايكوس ، جراندا كايمان ، فرجين ، ليوارد ، بيتكيرن ، ثم في جنوب الأطلسى سانت هيلينا ، أستشن ، وترستان دا كونها ، فضلا عن جزر فوكلند (إيسلاس مالبيناس Islas Malvinas) في أقصى الجنوب حيث قام أخيرا صراع مسلح بين بريطانيا المستعمرة السابقة والأرجنتين المطالبة الحالية . وأخيرا ، وفيما بين الهندى والأطلسى ، ثمة في

الوسط جبل طارق بإسبانيا وسبتة ومليلة في المغرب . ولعل هذه الدائرة الأخيرة هي من أطرف متناقضات الاستعمار في نزع الأخير . ولذا تستحق نظرة جانبية خاصة .

فن المفارقات الساخرة لاشك أنه في الوقت الذي يتشبث الاستعمار الإسباني بآخر جيوبه في أفريقيا وفي كل الدنيا وهو سبتة ومليلة ، يتشبث الاستعمار البريطاني بآخر جيوبه ربما في كل الدنيا أيضا أو على أية حال في أوروبا نفسها وإسبانيا بالذات وهو جبل طارق . هذا آخر استعمار أوروبي في أفريقيا ، وهذا آخر استعمار أوروبي في أوروبا . والطريف أن الجيبيين القزميين المدنيين يتواجهان عبر المضيق على أقصى نهايتي أو طرفي القارتين . وكلاهما : بعد ، أو بالأحرى من قبل ، من أقدم حالات الاستعمار في قارته : هذا سابق للاسترداد الإسباني نفسه في القرن ١٥ ، وهذا سابق لأوترخت في القرن ١٨ . الفارق الأساسي فقط أن هذا استعمار استيطاني وهذا استراتيجي .

لكن أخطر من الجيوب المتخلفة ، الكتل الاستعمارية المتبقية ، أخطر بكثير وخارج كل حدود ، بل لعلها أخطر ما في تاريخ الاستعمار جميعا سواء في أوجه أو حضيضه . فرغم أن ما بقي منها الآن حالتان فقط ، فإن فيها تكن وتتركز كل ضراوة وشراسة ودموية الاستعمار الوحشي الكاسر المكسور . والحالتان هما بالطبع إسرائيل وجنوب أفريقيا . والاثنتان نظائر جيوبوليتيكية واستعمارية إلى أقصى حد : فجغرافيا ، هذه على أقصى ضلوع أفريقيا الشمالية وهذه على أقصى طرفها الجنوبي . وسياسيا ، كلتاها استعمار استيطاني عنصري دموي إبادة إحلالي كثيف ، يبدأ باغتصاب الوطن ويؤمن بالتفوق العنصري ويمارس العزل الجنسي وينتهي بالتصفية الجسدية والاحلال الإثني . وليس صدفة ولا اعتباطا بعد هذا أن يتحالف الاستعماران تحالفا غير مقدس ضد كل من العرب وأفريقيا على السواء .

ولئن كانت اليد العليا تبدو لها الآن على ضحاياهما ، وكان من الصعب أن يتنبأ أحد حاليا بمصيرهما على المدى القريب ، فإن من المسلم به علميا أن المصير محتوم ومختوم ومحكوم عليه تاريخيا وفي المدى البعيد . أما الوضع القانوني مها كان فزائل أو زائف ، والاعتراف - أي اعتراف - ليس نهاية المطاف . والوضع القانوني على أية حال ليس إلا تقينا لا تقييدا للقوة وللأمر الواقع ، لا يمنع من إمكانية تغييره متى استطاعت القوة وفرض الأمر الواقع الجديد نفسه .

التحرير ، العالم ، والاستعمار

ماذا تعنى ثورة التحرير بالنسبة للعالم ؟ الشيء الكثير بالتأكيد ، ولكنه باختصار إعادة توزيع الأثقال والقوى السياسية فوق هذا الكوكب . فبالنسبة للدول المتحررة تعنى ظهور قوة جديدة على مسرح السياسة العالمية هى العالم الثالث ومجموعة عدم الانحياز . ولكن لهذه حديثها فيما بعد . وإنما يعنينا هنا خسائر الجانب الاستعماري . وهذه تنقسم إلى قسمين : تغيير الوزن والقوة النسبية لغرب أوروبا ، ثم تغيير الأوزان والقوى النسبية بين الدول داخل غرب أوروبا .

فمن الأولى ، لاشك أن عصر أوروبا الغربية قد انتهى تماما ، وقد خرجت زعامة العالم منها إلى الأبد ، وتضاعل وزنها النسبي في العالم ككل ، وبدأت تأخذ حجمها الطبيعي بلا مبالغة أو تورم مصطنع في العالم . ولعلها - برمتها - لا ترقى إلى مستوى الصف الأول من القوى العالمية ، وبالتأكيد لا تطاول أيا من القوتين الماموث ، ولا تزيد بوضعها الراهن ، وقد جردت من مستعمراتها ، عن أن تكون منطقة حاجزية تصادمية بينهما ، بل هى الآن بالفعل ذيل للولايات المتحدة أو بمثابة برتغال كبرى جديدة بالنسبة إلى بريطانيا عظمى جديدة هى الولايات المتحدة ، بينما أصبحت بريطانيا القديمة نفسها رجل أوروبا المريض الجديد (١)

كذلك فإن تقلصها إلى قوتها الأصلية سلخ عنها موارد ومكاسب عبر البحار وألقي بها على موارد المحلية الضيقة وحدها . من هنا أزماتها المادية والاقتصادية الخائفة التي تتردى فيها تباعا كل دولة من دولها بلا استثناء منذ ما بعد التحرير ، وبقدر ما كانت نسبة المكاسب الاستعمارية في الدخل القومي بقدر ما كانت النكسة . ولاشك أن مكاسب الاستعمار التراكمية لازالت تخفى أو تخفف من حدة الأزمة ، كما أن التجارة العالمية لا تزال شبه استعمارية في هيكلها ، هذا عدا علاقات كومنولث واتحاد فرنسي .. الخ . ولكن إن آجلا أو عاجلا ستواجه هذه الدول المزيد من الصعوبات ، وقد يتجمد مستوى المعيشة فيها أو ينحدر ، أو تصدر الفائض من سكانها إلى المهاجر الأوربية . والمشاهد أن بعض هذه الدول لم تنفق بعد من آثار حمرة الاستعمار ولم تدرك تماما مواقعها المتواضعة الجديدة ، ومن ثم تبدو في ميدان السياسة العالمية أدنى إلى أقزام تنصرف

Hans. G. Morgenthau, Politics Among Nations, The Struggle for Power & Peace, 1954. (١)

كعاقبة ، مما أصبح بلا موارد إما موضع سخيرة أو ضيق حتى أصدقائها من القوى الماموث !

هذا التضاؤل النسبي في الوزن السياسي والموارد الاقتصادية هو وحده وأساسا الذي يفسر الحملات المحمومة لوحدة أوروبا حتى تستعيد بعض المكانة في عالم متغير. والواقع أنه دفاع عن النفس بقدر ما هو رد على حركة التحرير وتكتل ضدها بالذات ، أكثر مما هو رد على القوتين الماموث . وإذا كان الأوروبيون المتحمسون للوحدة يرونها ضرورة بقائية ، فلا ينبغي من جانبنا أن ننسى أن وراءها مسحة لونية عنصرية ، فما هي في النهاية إلا وحدة الجنس الأبيض . ولمشروع الوحدة كما يتصوره دعائه مراحل ثلاث : جمركية ، فاققتصادية ، ثم سياسية . ولكن التطبيق يتعثر حاليا بين كتل وتجمعات متضاربة داخل النطاق .

يبد أن المهم في المدى البعيد أن أوروبا اليوم أبعد عن الوحدة مما كانت منذ قرون ، وبالتحديد منذ ما قبل عصر الكشوف والاستعمار البحري^(١) . ذلك أن الاهتمامات الاستعمارية عبر البحار لم تترك أوروبا في حركة طاردة لا جاذبة مركزية فحسب ، بل في صراعات عميقة وسعارات شرسة باعدت بينها أكثر من أى وقت مضى . وليس من الصدفة بالتأكيد أنها لم تبدأ تتقارب فيما بينها إلا بعد أن فقدت تلك الأسلاب أسباب الصراع . وعلى كل ، فإذا كانت وحدة منطقة كالولايات المتحدة مثلا قد نجحت لأنها عمدا تناست كل التاريخ وأهملت كل الجغرافيا ، فإن وحدة أوروبا تتعثر لأنها - كما قيل - تتذكر التاريخ أكثر مما ينبغي وتتذكر الجغرافيا أقل مما ينبغي .

أما عن تغيير الأوزان والقوى النسبية للدول داخل أوروبا الغربية ، فلا شك أنها لا تتضح اليوم تماما بفعل القصور الذاتي والاندفاع التاريخي ، ولكنها جديرة بأن تطفو على السطح إن آجلا أو عاجلا ، ولو أن بعض إرهاباتها قد بدأت بالفعل . فمع عودة كل دولة إلى قاعدتها الأرضية الوطنية وتصفية واستهلاك الآثار التراكمية لمكاسب الاستعمار القديمة بالتدريج ، قد تقترب نوعا أوزانها ومواردها وقواها النسبية من نمط ما قبل الانقلاب الصناعي ، بمعنى أن يصبح لحجم الموضع المحلي وراثته دور أكبر في تحديد القوة العامة .

East, An historical geog., p.444-5.

(١)

وإذا صح هذا فألمانيا هي وريثة الصدارة الحتمية في أوروبا الغربية بدلا من بريطانيا ، كما أنه ليس من المستبعد أن تقترب فرنسا من بريطانيا جدا . ولعل الدور الذي تمارسه فرنسا ، ديمجول خاصة ، في تخضيد شوكة بريطانيا في القارة هو نذير أو دليل على هذا التطور التدريجي المحتمل . وسيكون على بريطانيا في النهاية أن تقف صاغرة في الصف الأوربي كلما تقلص الكومونولث . فدول الكومونولث غير البيضاء ستغادره على الأرجح بالتدريج ، بينما أن دوله البيضاء نفسها خاصة المتطوحة الموقع كأستراليا ونيوزيلند وكندا ليس من المستحيل أن تنفصل يوما ما^(١) . فهي لم تنفصل في الماضي - مثلا فعلت الولايات المتحدة قديما - إلا لضعفها وضآلتها وشدة اعتمادها الاقتصادي والدفاعي على بريطانيا . ولكنها قد تجد من نفسها القوة على الخروج يوما في المستقبل البعيد ، وإلا فإنها على الأقل ستكون أقل التصاقا بها وارتباطا .

الفصل الثاني عشر

الانقلاب النووي

العصر النووي

هو ثاني انقلابين تعاصرا منذ نهاية الحرب الثانية ، وربما كان أولهما في خطورته ورهبته . وقد أعلنت عن ميلاده مأساة هيروشيما ونجازاكي ، وكانت هذه البداية كافية لتضع نهاية لتلك الحرب . غير أن قنبلة هيروشيما على بشاعتها لم تكن إلا طفولة العصر النووي ، قنبلة « بدائية قزمية » كما توصف الآن ، « قنبلة صنعت للأطفال » وربما صنعها الأطفال الآن » كما تهكم أحدهم أخيرا في سخرية لا تخلو من جد ومبالغة لا ينقصها شيء من حق (إشارة إلى توصل بعض تلاميذ المدارس في أمريكا إلى تركيب هيكلها مؤخرا) .

ذلك أن السلاح النووي قد تطور منذ ذلك الوقت تطورا رهيبا ، فانتقل من القنبلة الذرية إلى الهيدروجينية إلى قنبلة النيوترون التي تقتل البشر دون العمران ، وربما انتقلنا بعد ذلك إلى الكوبالتية . وفي الوقت نفسه تحولت وسيلة نقل هذا السلاح من الطائرة القاذفة إلى الصواريخ الموجهة والصواريخ عابرة القارات ثم أخيرا إلى الغواصات النووية ، أي تحولت قاعدة انطلاقه من الجو إلى الأرض إلى البحر على الترتيب . أضف إلى هذا ما يقال عنه من صواريخ مدارية قادمة على الطريق ، فضلا عن الأقمار الصناعية التي تعددت طرزها وتعاقبت أجيالها وأصبحت « تعمر » الغلاف الغازي والفضاء بكثافة متزايدة وبصفة مستمرة .

أما من حيث الانتشار ، فلقد كانت الولايات المتحدة هي الأسبق إلى تدشين العصر النووي وذلك في نهاية الحرب الثانية (أواسط ١٩٤٥) ، بينما تخلف الاتحاد السوفيتي قليلا حتى لحق بها - بعد فترة دقيقة وحرجة - في أول الخمسينات (أواخر ١٩٤٩) . وبعد ذلك دخلت بريطانيا المجال ثم فرنسا ، الأولى بمساعدة أمريكية جزئية ربما ، إلا أنها على السواء ظلتا من مرتبة متواضعة نسبيا .

ثم أخيرا في الستينات اقتحمت الصين « النادى الذرى » لتكون خامسة الدول النووية وأولى الدول غير الأوروبية . وكان قد قدر أنها ستظل طويلا في المرحلة البدائية التي كانت عليها الولايات المتحدة منذ عشرين عاما ، إلا أنها طفرت بسرعة خارقة حتى سبقت فرنسا هيدروجينيا . ثم أخيرا جدا ولكن ليس آخرا جاءت الهند ، والمقول أيضا إسرائيل ، وربما معها جنوب إفريقيا . والمقدر أن هناك أكثر من عشر دول أخرى ستلحق بالنادى في غضون السنوات القليلة القادمة ، منها إسبانيا والبرازيل وباكستان وكندا والأرجنتين ... الخ .

ومعنى هذا أن السلاح النووى - ما لم يتفق على منعه جديا - قد ينتشر في يوم ما انتشار الحضارة الصناعية والتكنولوجيا الحديثة ذاتها . أما حاليا ، فإن هذا النادى يعد استراتيجيا أرستقراطية العالم الجديدة بلا نزاع ، هو وحده عالم القوة المعاصر حقا وصدقا . وليس صدفة ولا هو من قبيل محض الأخلاقيات السياسية المترهة أن يحرم النادى دخوله على غير الأعضاء ، حيث فرض مؤخرا اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية non-proliferation وهذا المنع ، الذى يكاد يقنن دوليا « نظام الكاست » في عالم القوة ، يعد في نظر « المنبوذين نوويا » مرادفا للاحتكار النووى ، أى محاولة لاحتكار القوة ، أى لاحتكار المستقبل .

ولهذا رفضته كثير من الدول الصغرى والكبرى وعلى رأسها الصين ، التي دعت العالم وخاصة العالم الثالث وعدم الانحياز إلى الكفاح من أجل نزع السلاح النووى برمته في العالم أجمع بدءا بالعملاقين ذاتها ثم تحريمه إلى الأبد مع تصفية كل القواعد العسكرية في العالم أيضا . أما سياسة المناطق المحيطة أو المتزوعة السلاح نوويا ، كالم توسط والهندي واللاتينية ، فهي ببساطة المرادف النووى لنظرية الفراغ العتيقة في رأى البعض . وأما محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية بين العملاقين فهي باعتراف أمريكا محاولة لصياغة قانون جديد فقط لسباق التسلح النووى بينهما ، وبالتالي « سجل لسباق الأسلحة الاستراتيجية مائة في المائة » كما تهمة الصين بحق ، بينما أن الاتفاقية نفسها « لا تمس ذرة واحدة في ترساناتها النووية » كما تكشف الصين أيضا .^(١)

(١) بحرى عزيز ، « التحرك الديبلوماسى والانفتاح الصينى الأخير » ، للسياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص

الاحتكار النووي

هذه الصورة ، مهما يكن الأمر ، لا تنفي من الوجهة العملية أن هناك حتى الآن احتكارا ثنائيا فعليا وحقيقيا للقوة النووية تتقاسمه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي اللتان تستأثران وحدهما بنحو ٩٠٪ من التجارب والتفجيرات النووية . وهذا الاحتكار ، أكثر من أى شىء آخر ، يجعل مصير العالم رهنا بهاتين القوتين المتصارعتين اللتين وصل الأمر إلى حد تشبيه كل منهما بإله بشري : قادر على أن يبتلى للعالم على حياته أو أن يحرمه كله إياها في لحظات : إنها قوة آلهة قمة الأولمب الجديدة ، قل مثل زيوس وفولكان أو غيرهما في أساطير الاغريق .

وبلغة السياسة الدولية الجديدة ، إنها وحدهما القوتان الأعظم super-powers . وتلك وحدها هي حالة أو صفة القوة الأعظم super-powerdom . حيث سائر النوويين من القوى الكبيرة أو القوى فقط great powers . ومعنى هذا أن أبسط وأوضح نتيجة للعصر النووي أنه زاد من عنف تركيز القوة واحتكارها في حدود الاستقطاب الثنائي الراهن ، وزاد بذلك من اختلال ميزان القوة في العالم ككل ، وضاعف من رهبة التصادم بين القطبين العملاقين .

فلقد تستطيع القوى النووية الصغرى أن تبدأ حربا نووية أو عالمية ، ولكنها تعجز عن أن تنهيا ، هذا إن تجاسرت على أن تبدأها أصلا ، وهى لن تفعل ، من فرط رهبة القوتين الأعظم لن تفعل ، كما تؤكد حرب السويس ١٩٥٦ وانسحاب العدوان الثلاثى في وجه الانذار الصاروخى السوفيتى والضغط الأمريكى . أما القوتان الأعظم فهما وحدهما اللتان تملكان أن تبدأ حربا نووية وأن تنهياها - ولكن فقط بعد أن تنهى نفسها والآخرين والعالم أجمع .

من هنا فإذا كانت علاقة القوة بين القوتين الأعظم وبين النوويين من القوى الكبيرة هي هكذا علاقة « صد ورد checkmate » (كش ملك) ، باثرة محسومة ولا مفر فيها من الانصياع والصدوع بالأمر والتراجع أو الانسحاب ، فإنها بينها هما نفسيهما علاقة شد وجذب stalemate (مضاربة) معقدة متناطحة متكافئة ، لا مفر فيها من المناورة والمداورة ، والمقايسة والمساومة ، والمد والجزر ، مع أقصى درجات ضبط النفس والتعقل رغم ضراوتها وهولها .

الخطر النووي

ومن الواضح بعد هذا على التو أن العصر النووي يمثل طفرة في تاريخ الاستراتيجية بل البشرية لم تخطر على قلب بشر ، نضع كل مراحل الاستراتيجية الماضية وكل أنواع الأسلحة « التقليدية » في متحف التاريخ ، ويمكن ببساطة أن نضع البشرية نفسها والنوع الانساني برمته في ذمة التاريخ كذلك ! فعلى سبيل المثال ، قدر أن عشر قنابل ذرية من أكبر ما كان معروفا في ١٩٥٤ تعادل في قوتها التدميرية كل ما ألقى جميع المتحاربين في الحرب العالمية الثانية من قنابل وألغام ومتفجرات .^(١) وفي منتصف الستينات فقط أعلن الاتحاد السوفيتي أن رأسا ذرية واحدا مما يستطيع أن يقذف يعادل نفس القوة برمتها ، بل قوة كل ما استخدم من متفجرات في جميع حروب البشرية ! أما بعد ذلك بستين فقط فقد كان المقول أن الولايات المتحدة تملك من الرصيد النووي ما يكفي لتدمير العالم بأسره ثلاث مرات أو أربعا (١) ؛ بينما كان الاتحاد السوفيتي - أكثر تقشفا أو تفاؤلا ! - بكتفي باحتياطي يكفي لتدميره مرة واحدة فقط^(٢) .

أما الآن فإن غواصة نووية واحدة تحمل من القوة التدميرية ما يعادل القوة التدميرية لجميع الأسلحة التي أطلقت خلال الحرب العالمية الثانية بأسرها . وآخر ما يقال في هذا المجال أن بالعالم معزونا من الأسلحة النووية يكفي لتدمير الأرض جميعا عشرات المرات .

وبالتحديد فإن المقدر حاليا (١٩٨٢) أن مجموع الترسانة النووية للقوتين الأعظم معا يعادل ٨ مليارات طن من مادة ت . ن . ت الشديدة الانفجار ، بينما أن ما تمتلكه الدول النووية الآن في العالم تعادل قوته قوة مليون قنبلة من نوع هيروشيا .

ومن العبث بعد هذا أن نحضي في حصر الاحصاءات والتقديرات اللاحقة أو الماثلة . غير أن النقطة المؤكدة هي أن العصر النووي ، لأول مرة في تاريخ الصراع البشري ، يضع العالم وجها لوجه مع الانتحار أو انقراض النوع . اختيار رهيب ، واختبار أشد رهبة . ومن الصعب ، حتى على الاستراتيجيين ، تصور شكل الحرب الذرية الشاملة ، وإن كان من المؤكد أنها إن وقعت الواقعة ستكون قصيرة الأمد إلى أبعد حد ، أشبه بومضة فجائية أو بصعقة كهربائية يعقبها احتراق بشع ثم رماد الموت .

(١) مورجنتاو ، المرجع المذكور .

M.H. Heikal, Sphinx and Commissar, Land., 1978, p. 12 q.

(٢)

إنها بكل بساطة وعلى أحسن الفروض « القيامة النووية nuclear doomsday » كما وصفها البعض .

الانتخاب النووى

وفيما عدا هذا ، فنحن نتقدم خطوة أخرى في سبيل تحديد نتائج الصدام النووى إذا عرفنا على من ستنصب تلك النتائج أساسا . وليس من الممكن بطبيعة الحال التكهن بمدى حدود الصدام جغرافيا وسياسيا وما إذا كان قد يبتلع العالم كله أو جله في أتونه ، ولكن المحقق أنه إذا اقتصر على المعسكرين المتصارعين فإن الانتحار المتبادل الذى أشرنا إليه سيكون على وجه التحديد انتحارا للجنس الأبيض بالذات والانسان الأوروبى أساسا : السلاف فى الشرق ، التوتون واللاتين فى الوسط ، والأجلو- ساكسون فى الغرب . فأوروبا بعامة ، وأوروبا الغربية بخاصة ، وألمانيا بشطريها بالأخص ، هى المرشح الرئيسى للحرب النووية فى كل التقديرات السياسية والعسكرية .

وبحسب آخر تقديرات اللمانينات التى توصل إليها علماء الذرة والطبيعة ، فإن أى حرب نووية محدودة تنشب داخل أوروبا ستبلغ قائمة ضحاياها كالاتى : نحو ١٠٠ مليون نسمة قتلى على الفور ، ٦٨ مليونا يموتون بعدهم بتأثير الاشعاع النووى ، بمجموع قدره نحو ١٦٨ مليونا ، يضاف إليهم ١٥٠ مليون مصاب إصابات خطيرة ، وبهذا يبلغ إجمالى مجموع ضحايا الحرب بشكل أو آخر نحو ٣١٨ مليون نسمة أو نحو نصف سكان القارة (مقابل ١٣٩ مليونا أو ثلثى السكان فى حالة الولايات المتحدة) . أضف إلى هذا أن الغلاف الجوى الأوروبى سوف يتشبع بالغازات والدخان إلى حد يحيل النهار ليلا بحيث يقضى على الزراعة وكل الكائنات الحية . ولهذا فإن من أفلت من الموت لن يفلت بعده من المجاعة أو الجوع والوباء أو المرض .

هذه صورة ، أما الصورة الثانية فتتسع لتشمل نصف الكرة الشمالى . فالمقدر أن اندلاع حرب نووية بين العملاقين سيعنى على الفور انطلاق أو تبادل قذف نحو ١٥ ألف قنبلة نووية (١٤٧٤٦ بالتحديد) ، سوف تنصب أساسا على نحو ١٤٥ مدينة أوروبية فئة + ٢٠٠ ألف نسمة . والمقدر بعد هذا أن عدد ضحايا هذه الحرب فى الأربع والعشرين ساعة الأولى سوف يبلغ نحو ٧٥٠ مليون نسمة من القتلى ونحو ٣٥٠ مليونا من الاصابات الخطيرة ، أى بمجموع نحو ١١٠٠ مليون نسمة أى نحو ربع البشرية ... والمعنى المباشر لهذه التقديرات وأمثالها هو ببساطة أنه إذا اتخذت الحرب النووية

أبعادا عالمية ، فلن تترك على ظهر الأرض من بقايا البشرية إلا « قليلا من الأفريقيين وكثيرا من الصينيين » كما عبر مرة خروتشوف . وحتى إن لم ينقرض الجنس الأوربي وأفلتت من الواقعة بذور له أو « خميرة » ، فلن يكون بعدها إلا أقلية مسحوقة عدديا وماديا في عالم ما بعد الحرب النووية ، بينما ستضيع سيطرته العالمية سياسيا إلى الأبد ، ويرث الأرض من بعده من كانوا « عباده المستضعفين » من « ملونين » ومستعمرات سابقة ... الخ . حتى القوات الأعظم نفسها لو دخلتا حربا نووية محدودة أو شاملة فإن المقدر أنها ستخرجان منها وقد انزلتتا على أفضل الأحوال إلى دول محطة محزنة من الدرجة الثانية أو الثالثة ، فاقتديت بذلك ليس فقط صدارتهما في العالم لدول ثانوية أصغر بل وربما كذلك مستقبلها ذاته .

بهذا وبذاك تبدأ للعالم جغرافيا جنسية وسياسة جديدة تماما ومختلفة جذريا عما ألف الأوربي : عالم قد تتبع فيه المعتدلات المداريات وتخضع فيه العروض العليا للعروض السفلى ، وقد يصبح فيه سادة الأمم توابع الغد وعبيد الأمم سادة الغد ، ويكون الجنس الأبيض هو الجنس المغلوب على أمره في العائلة البشرية ! ومعنى هذا كله أن التصادم النووي لا يأخذ مظهرها استراتيجيا فحسب ، ولكنه يكتسب قبله مغزى جنسيا أنثروبولوجيا مباشرا ويبدو لأطرافه انتحار الرجل الأبيض أكثر منه ، وقبل أن يكون ، انتحار الجنس البشرى ، بحيث يجعلها تعيد النظر في الجانب الاستراتيجي كله .

تلك إذن هي احتمالات المستقبل : صورة رهيبة للبشرية عامة وحلم مفزع كالكابوس الجاثم للأوربي خاصة . ومن هنا جاء رد الفعل العنيف . فلقد جعلت الاستراتيجية النووية الحرب مستحيلة ، وجعلت من « التعايش السلمى » ضرورة بقائية ، وهذا وذلك على الأقل بحكم « ميزان الرعب النووي » . ومن هنا أصبحت الترسانة النووية العالمية طاقة مشلولة أو رادعا ذاتيا كالبوميرانج الذى يرتد إلى صدر صاحبه .

وهذا الموقف ، كما يقول مورجتاو ، يحمل في طوابعه إما الشر المستطير الذى لم يسبق له مثيل ، وإما الخير الذى لا يكاد يصدق . وفي الأثناء ، فإن الخلافات الأيديولوجية والصراعية الأسية تظل قابضة في أحاديث غائرة تنفى السلام العالمى مثلما نفيت الحرب العالمية من قبل . وفي ظل هذا المناخ السياسى ، الذى يشبه الرهو الثقيل الممض ، لم يكن غريبا أن أخذت تتجرثم عدة خطوط جديدة في السياسة العالمية أو

تتجوه. غير أن تحليل هذه الخطوط يستدعى منا أولاً أن نحدد مراحل التوازن النووي المتعاقبة في تطورها واحدة بعد الأخرى ، نقطتنا التالية .

مراحل التوازن النووي

منذ بدأ العصر النووي في نهاية الحرب الثانية إلى اليوم في أوائل الثمانينات ، نستطيع أن نتعرف على أربع مراحل أو توازنات نووية تمثل في مجموعها اتجاهها تدريجياً من الاحتكار المطلق للقوة النووية لأحد الطرفين إلى تكافؤ مطلق بينهما ، رغم الذبذبات الثانوية المؤقتة والسبق المرحلي العابر لهذا الطرف أو ذاك . ولهذا كان لكل مرحلة مغزاها واستراتيجيتها - ورعبها أيضا . فالمرحلة الأولى تبدأ من منتصف الأربعينات حتى نهايتها ، فهي في معنى نصف مرحلة تقريبا ، بينما تغطي كل مرحلة من المراحل الثلاث التالية عقداً بأكمله تقريبا . فالمرحلة الثانية هي الخمسينات ، والثالثة الستينات ، والرابعة السبعينات . ولما كانت كل مرحلة تمثل في جوهرها توازناً نووياً معيناً ، فإنها بالتالي تحكم وترسم الأحداث السياسية داخلها بحيث يمكننا منهجياً أن نركب هذه الأحداث وندرسها في إطارها وظلها مرحلة بعد مرحلة تباعاً وعلى التتابع كشريط جيوسراتيجي - جيوبوليتيكي مركب ولكنه موحد .

الأربعينات : الاحتكار والاحتواء

فالمرحلة الأولى هي التي أعقبت الحرب الثانية حتى نهاية الأربعينات (٤٥ - ١٩٤٩) ، حين كانت الولايات المتحدة تنفرد وحدها بالسلح الذري ولا يملك الاتحاد السوفيتي إلا جهازاً ضخماً من الأسلحة التقليدية . تفوق نووي - يعني - مع تخلف في الأسلحة التقليدية في الغرب ، وتخلف نووي مع تفوق في الأسلحة التقليدية في الشرق . ولا جدال أنها كانت مرحلة حرجة للغاية بالنسبة للكتلة الشيوعية ، في وقت كانت الحرب الباردة والصراع المذهبي على أشدهما . وهي بالتالي المرحلة التي كان إغراء الهجوم على أشده كذلك بالنسبة للغرب ، حيث لم يكن ثمة رادع نووي مضاد .

ولقد كان في ظل هذا التوازن الكنتلي المختل بالدقة أن وضعت سياسة الاحتواء أو التطويق الأمريكية على يد مهندسها الأول جورج كينان تحت إدارة ترومان .^(١) فهذه

(١) George Kennan, "The source of Soviet conduct", Foreign affairs, July 1947, p. 12-27.

الاستراتيجية تقوم أساسا على مبدأ تدمير الاتحاد السوفيتي بالقاذفات النووية تدميرا تاما إذا هو بدأ بالمجوم المباشر على الولايات نفسها أو أوروبا الغربية ، وإن كانت الاستراتيجية نفسها تفترض أن الاتحاد لن يمرؤ على هذه المبادأة لعجزه أو ضعفه النووي المحقق . أما عن الهدف من هذه الاستراتيجية فهو تجميد توسع الكتلة الشرقية وعدم توغلها خارج الستار الحديدي كحد أدنى ، وربما محاصرتها « وتحريرها » في النهاية كحد أقصى .

فأما تجميد التوسع فيرجع إلى أن أوروبا الغربية بعامة كانت بعد دمار الحرب وانهار الحياة المادية فيها حقلًا خصبا للتيارات والتسللات والأحزاب الشيوعية التي برز دورها بشدة في فترة ما بعد الحرب وانتخاباتها العديدة ، كما حدث في فرنسا وإيطاليا خاصة وإلى حد ما في اليونان التي كاد الانقلاب الشيوعي ينتزعها من الغرب كساتر البلقان لولا التدخل الأمريكي بفضل الموقع البحري المفتوح . وأما هدف « تحرير » شرق أوروبا فلأن روح الصراع الإيديولوجي والعقائدي كان في أوجه ، خاصة في وهج الحرب الثانية وذكريات القتال ، حتى بلغ أحيانا حد الهوس أو الهيستيريا ، هيستيريا « الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية » .

ونحن نستطيع أن نكون فكرة عن المناخ السياسي والاستراتيجي في تلك المرحلة من دعوة مفكر مثل برتراند رسل ، وهو رجل سلام وداعية تقدمية أصلا ومن حيث المبدأ ، إلى شن الحرب الصليبية على الشيوعية بلا إبطاء على أساس أنها هي « إما الآن أو مطلقا ! now or never » .^(١) وتلك كانت في الحقيقة استراتيجية الحرب الوقائية المبكرة وضربة الاجهاض المسبقة أو الضربة الأولى والأخيرة معا . وهناك حتى الآن من يأسى في الغرب على أن هذه فرصة ذهبية ضاعت إلى الأبد ولن تعود أو تتكرر .

أما من حيث المعيار فلقد قامت استراتيجية الاحتواء أساسا على إقامة وفرض الأحلاف الاقليمية ، الدفاعية اسما الهجومية فعلا ، في كل مكان حول الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية . والواقع أن المرحلة شهدت أكبر حملة أمريكية محمومة في هذا السبيل ، حتى سميت الظاهرة « هيستيريا أو جنون الأحلاف pactomania » . وطوق سلسلة هذه الأحلاف نصف الدائري حول الكتلة الشرقية غنى عن الذكر فضلا عن التكرار ، وكل ما يمكن إضافته هنا هو أنه وليس أى شيء آخر هو الستار الحديدي

Cole, p. 252.

(١)

الحقيقى فى نظر البعض ، بمعنى أن فكرة الستار الحديدى وإن ابتدعها الغرب وألصقها مغالطة بالاتحاد من جهته فإن هى - فى الواقع وكأمر واقع - إلا من صنعه هو وفرضه .

الحرب الكورية

كانت الحرب الكورية ٥١ - ١٩٥٣ هى قمة استراتيجية الاحتواء - ونهايتها أيضا . فقد بدأت الحرب محلية محدودة نتيجة لتوغل الشيوعيين من شمال كوريا إلى جنوبها الموالى للغرب . ورغم أن الحرب الكورية تمت تحت علم الأمم المتحدة ، فقد كانت حربا أمريكية فى الدرجة الأولى ، كما يمكن أن نضيف بين قوسين أنها كانت حرب مالك آرثر فى الدرجة الثانية (بطل معركة اليابان والهادى أثناء الحرب الثانية) . كذلك فرغم أن الهدف الأساسى من الحرب كان تحرير الجنوب ، فقد كان توحيد الجنوب والشمال هدفا رئيسيا آخر ، أى ضمنا « تحرير » الشمال أيضا .

وقد كانت حسابات الولايات أنه لا الاتحاد ولا الصين سيتدخل جديا بسبب التفوق النووى الأمريكى المطلق والرادع . غير أن الحرب تحولت على الجانب الشيوعى إلى شركة مساهمة سوفيتية صينية : الأسلحة الحديثة والطيران من السوفيت ، والقوات البرية من الصين بحافله البشرية المعهودة (نصف مليون متطوع) .

وفى وجه الهزيمة العسكرية المحققة ، كان الخيار أمام الولايات هو إما ضرب الصين و/ أو الاتحاد بحرب شاملة وإما استعمال القنبلة الذرية . لكن غزو الصين قد يدخل حليفها الأكبر الاتحاد فى المعركة بكامل ثقله ، أو قد يستنزف بفضل حجمها واحتياطها البشرى الخفيف كل طاقة الولايات . وفى الحالين فإن هذا قد يترك جبهة أوروبا الغربية مكشوفة ومعرضة لهجوم سوفيتى شامل دون مقاومة مكافئة . وفى كل الأحوال فإن خطر التحول إلى حرب عالمية وارد .

أما استخدام القنبلة الذرية ، رغم إغراءته الشديدة لأول وهلة خاصة فى ضوء تجربة اليابان ، فقد اتضح أنه يمكن أن يتحول إلى فخ أو مصيدة لاستنزاف رصيد الولايات منها ، المحدود حتى ذلك الوقت المبكر ، وبذلك تتحول الحرب إلى خدعة سوفيتية لكسر الاحتكار أو التفوق النووى الأمريكى . وفى جميع الأحوال فإن هذا يعنى بالنسبة للولايات « الحرب الخطأ ، فى المكان الخطأ ، فى الوقت الخطأ ، ضد العدو

الخطأ» كما لخصها حينذاك في عبارة جامعة مانعة الجنرال الأمريكي برادلي. (١)
من هنا جميعا عادت الأهداف الأمريكية لتتقلص إلى مجرد العودة بالموقف إلى ما
كان عليه قبل الحرب *status qua ante bellum* ، لتنشطر كوريا على حد سيف خط
العرض الشهير ٣٨ درجة ، ولتنتهي الحرب من حيث بدأت . وبدلا من أن تأتي الحرب
الكورية معركة يابان ثانية ، جاءت بالعكس معركة يابان مقلوبة - بلا نصر وبلا
هيروشيما .

وهكذا في التتيحة أثبتت الملحمة الكورية بطريقة عملية ولكنها مأساوية خطأ سياسة
الاحتواء وفشلها ، وبالتالي عقم الاحتكار النووي أو التهديد النووي . ذلك أن قصاراها
المحافظة على الوضع الراهن بلا تغيير ولا تحرير ، وهي من ثم استراتيجية سلبية إلى حد
بعيد . أما إذا أريد لها أن تكون إيجابية بإصرار ، فانها تتحول إلى مأزق حقيقي من
الحروب المحدودة التي لا نهاية لها (٢) ، بحيث ترتد في النهاية إلى صدر صاحبها . ومن هنا
بدأ البحث عن بديل ، لا سيما مع تغير التوازن النووي جذريا ، وهو أيضا ما ينقلنا إلى
المرحلة الثانية من العصر النووي .

الخمسينات : استراتيجية الردع الشامل

هذه المرحلة تغطي الخمسينات بالتقريب منذ توصل السوفيت إلى القنبلة ١٩٤٩
حتى أزمة كوبا ١٩٦١ . ففيها أساسا توصل الاتحاد السوفيتي إلى السلاح النووي ووسائل
نقله من قاذفات وصواريخ . ورغم تقدم السوفيت السريع في هذا المجال ، فقد كانت
أمريكا بسبقها وتفوقها تطفر طفرا . ولذا ظلت الفجوة النووية قائمة ، وإن زال
الاحتكار النووي . والمهم على أية حال أن قد أصبح هناك توازن ذري رهيب بين
القطبين وأن الردع صار متبادلا عن طريق الصواريخ الموجهة .

غير أن هذا لم يكن يعني شل احتمالات الحرب أو تجميدها . فلقد كان المفهوم أن
الهجوم المفاجئ هو الاستراتيجية الوحيدة التي تبقت لأي من الطرفين . فلو عجل أحدهما
بمباغثة الآخر - غيلة في الظهر يعني - فقد دمره إلى الأبد في ساعات أو ربما دقائق ،

(١) Harry S. Truman, Memoirs, N.Y., 1956, vol. 2, p. 321 ff.

(٢) عاميل صبرى مقلد ، « الاستراتيجية الأمريكية في العصر النووي » ، السياسة الدولية ، يناير ١٩٦٦ ، ص
٥٦ - ٦٢ .

وتحدد بذلك مصير العالم نهائيا . وبتعبير آخر فقد كان شعار هذه المرحلة هي أن أتغدى بك قبل أن تتعشى بي .^(١) إنها ببساطة استراتيجية الغدر وأسلوب بيرل هاربر ولكن نوويا . والمهجوم ، لا الدفاع ، هو بالتالى مفتاح المرحلة .

من هنا ندرك التوتر والترقب الرهيب الذى كان يرين على المعسكرين . فالموقف الاستراتيجى العام أقرب الآن إلى التعادل النسبى ، ومن ثم كانت تلك قمة الرعب النووى . ولذلك كان الطرفان يعيشان فى حالة طوارئ دائمة تقريبا . فإلى جانب كل وسائل وطائرات التجسس وشبكة التصنت والمخابرات ... الخ ، كانت الطائرات الأمريكية مثلا تحلق فى الجو ٢٤ ساعة فى اليوم بلا انقطاع قط .

فى ظل هذا التوازن الحرج بالتحديد ظهرت على الجانب الأمريكى استراتيجية « الردع الشامل massive retaliation » كبديل عن استراتيجية الاحتواء الفاشلة من جهة وكرد على القدرة النووية الجديدة للسوفيت من الجهة الأخرى . وقد كان دلز هو صاحب ومهندس هذه الاستراتيجية الجديدة ، التى تعنى أن أى استفزاز من الجانب الآخر يقابل فوراً بحرب نووية شاملة . وعنده أن معرفة العدو مسبقاً بأنه سيدمر تدميراً كاملاً عند أدنى عدوان كفيلة بأن تردعه عن أى عدوان أصلاً . وكانت القمعة المنطقية لهذه الاستراتيجية هي سياسة « حافة الحرب brink-of-war » التى مارستها أمريكا دلز طوال الخمسينات تقريبا بكثير من التهور وقليل من الخوف ولكن بقدر لا بأس به من الفشل ، وذلك ابتداء من فيتنام إلى الشرق الأوسط بما فيه السويس ربما .

بين الشرق الأقصى والأوسط

ذلك أن حرب التحرير فى فيتنام ، التى لم تنقطع منذ نهاية الحرب الثانية ضد فرنسا وعلى أيدي الشيوعيين من الفيتمينه ، تحولت من مستنقع مزمن إلى كارثة حقيقية لفرنسا منذ انتهت الحرب الكورية سنة ١٩٥٣ . إذ نقلت الصين بعدها كل ثقلها البشرى الضاغط من حدودها الشمالية إلى الجنوبية ، مما انعكس مباشرة فى هزيمة ديين بين فو الساحقة سنة ١٩٥٤ . ورغم أن الحرب الفرنسية فى الهند الصينية كانت من قبل حرباً أمريكية إلى حد بعيد ، بمعنى أن المساعدات الأمريكية كانت هى الأساس فيها ، فقد أدى إخراج فرنسا من الصراع إلى أن ورثت أمريكا الحرب بكاملها - والفشل معها .

(١) مورجتاؤ .

فرغم حرص أمريكا على ألا تتورط في حرب كالحرب الكورية مرة أخرى ، فقد تكررت تجربة كوريا المريرة من حيث فشل الطيران إزاء البيئة الغاية والأدغال الكثيفة ، واستحالة استخدام الجيوش البرية الضخمة إزاء المحيط الصيني الكثيف ، ثم أخيرا استحالة استخدام السلاح النووي خشية التصعيد الشامل . وهكذا تحطمت استراتيجية الردع الشامل على صخرة فيتنام ، بينما تورطت أمريكا إلى ما لا نهاية في مستنقعها .

وتختلف تجربة السويس بطبيعة الحال في وضعها ، ونوعيتها ، وملاساتها ، ولكنها لا تخرج في النهاية عن إطار العصر النووي وتوازن المرحلة الجديد . فلقد كان في هذا الإطار بالدقة أن تطورت وجرت أحداث حرب السويس ١٩٥٦ . ففيها لأول مرة اتخذت القوتان الأعظم ، على تضادهما النووي ، موقفا واحدا تقريبا من الناحية العملية ضد القوتين النوويتين الكبيرتين رغم أنها حليفتان لإحدهما ، فكان انسحابها أمرا مقضيا ، وفشل العدوان الثلاثي في ظل وبفضل التعادل النووي الأعظم .

وثمة رأى ، لا يخلو من وجهة ، يذهب إلى أن الولايات تعمدت أن تدع حليفاتها تتورطان إلى النهاية في الأزمة حتى ينتهي الأمر بها إلى الفشل فترشها هي في المنطقة تلقائيا ونهايا . كذلك فسواء كان هذا الفشل قد تحقق بفضل الإنذار الروسى أو الضغط الأمريكى ، والأخير الأرجح^(١) ، فلقد كان معنى هذا ، ونتيجته أيضا ، أن قد تم إلى الأبد اختزال القوى العظمى في العالم إلى اثنتين لا ثالث لهما ، كما قد تم نهائيا وراثا الاستعمار القديم ، وهذا وذاك أساسا في ظل وبفضل العصر النووي .

التجربة والخطأ

هكذا أثبتت تجربة الخمسينات أن استراتيجية الردع الشامل ، بعيدا عن أن تكون مصححا لاستراتيجية الاحتواء بحروبها المحدودة ، هي أقل مرونة وأكثر جمودا وبالتالي أشد فشلا وخطأ . فهي إنما تترك الخيار بين اثنتين : إما حرب نووية شاملة وإما لا حرب على الإطلاق ، ومن ثم فلا مجال فيها للحرب المحدودة . ولما كان من المستحيل واقعا الالتجاء إلى الحرب النووية الشاملة عند أصغر نزاع محلي ، فقد كان الشلل أو العجز هو النتيجة الحتمية الوحيدة على الجانب الأمريكى ، فضلا عن الذعر المتواتر بين الحلفاء أنفسهم .

Heikal, op. cit., p. 72.

(١)

والواقع أن استراتيجية الردع الشامل سلاح نفسى وحرب أعصاب أكثر منها أى شىء آخر ، تعتمد أساسا على ابتلاع العدو للطعم . ولأن أحدا فى المعسكر الشرق لم يكن على استعداد لأن يقبل بأن الولايات على استعداد حقا لإقامة القيامة النووية من أجل أدنى أو أتفه نزاع هامشى ، فإن هذه الاستراتيجية فقدت مصداقيتها وفعاليتها وهدت نوعا من التهويش الاستراتيجى bluff أو الابتزاز النووى blackmail . ولعل من هنا جاء شعار الصين المشهور فى تلك المرحلة عن أمريكا « كنمر من ورق » حتى ولو كان ذا أنياب نووية .

والحقيقة أن الردع الشامل كان على أقل تقدير يمثل الاستراتيجية الخطأ فى الوقت الخطأ ، بمعنى أنه إنما يمت إلى الماضى ويتنمى إلى منطوق وعصر الاحتكار النووى ، أى كان أصلاح لمرحلة الأربعينات من الاحتواء ولكنه كان أسوأ منه لمرحلة الخمسينات . ومن هنا شهدت الخمسينات على امتدادها جدلا مستمرا فى الفكر الاستراتيجى حول الحرب المحدودة والعودة إليها بصورة معدلة تتلاءم مع العصر النووى وذلك كبديل عن الردع الشامل وكمخرج من مأزقه وشلله التام .

وقد شارك فى هذا الجدل كثيرون أمثال هنرى كيسينجر ، بول نيتزه ، روبرت أوسجود ، رالف لاپ ، برنارد برودى ، ادوارد تيللر ، ولیم كاوفمان ، روجر هيلزمان ، هانز بولدوين ... الخ .^(١) وبعضهم مثل كيسينجر عدل عن آرائه أو عدلها مرة أو أكثر من مرة .^(٢) والمهم فى هذا الجدل على أية حال أن الحرب النووية التكتيكية كانت هى الشكل الجديد المقترح والمفضل ، بمعنى استخدام الأسلحة النووية التكتيكية الصغيرة أو الميدانية كتمويض تكنولوجى عن تفوق الكتلة الشرقية التقليدى فى الأسلحة والقوات التقليدية . غير أن البعض أصر على استبعاد السلاح النووى كلية من الحرب المحدودة ، وعلى أن الحرب المحدودة لا تكون حربا محدودة إلا إذا كانت حربا تقليدية .

على أن مشكلة الحرب المحدودة ، التى لم تقبلها أمريكا قط بأكثر من نصف قلب ورفضها السوفيت تماما من حيث المبدأ باعتبارها مجرد تبرير للحروب الاستعمارية ومقاومة حروب التحرير الوطنية ، كانت دائما هى خطر التصعيد الكامن أبدا . فليس هناك ضمان على أى من الجانبين ، سواء فى حالة النصر أو الهزيمة ، سواء كانت الحرب

(١) إسماعيل صبرى مقلد . ص ٦٠ - ٦٩ .

Henry Kissinger, Nuclear weapons and foreign policy, N.Y., 1957.

المحدودة نووية أو تقليدية ، أن تظل الحرب محدودة وألا تتصاعد إلى حرب شاملة تقليدية أولاً ثم نووية بعد ذلك . فالمشكلة هي صعوبة وربما استحالة تجميد وحصر الحرب المحدودة متى بدأت . ومن هنا كانت النظرية السوفيتية ، التي شارك فيها كثير من الاستراتيجيين في الغرب ، من أنه ليس ثمة شيء كحرب محدودة ، فكل حرب محدودة إنما هي مقدمة لحرب شاملة ، والحرب الشاملة في ظل التوازن النووي الجديد إنما تعنى الانتحار المتبادل - أو نزع السلاح الشامل .

الستينات : استراتيجية الرد المرن

شهد هذا العقد تطورات وطفرات نووية جسيمة على كلا الجانبين أبرزها الغواصات النووية والصواريخ المضادة للصواريخ ، كما أصبح السباق بينها سجالاتاً تناوباً فيه التفوق أكثر من مرة وإن كانت اليد العليا غالباً أو في النهاية للولايات ، مما منحها دينامية نشطة إن لم نقل عدوانية عاتية جعلت العقد في مجمله عقدها بالتأكيد لا عقد الاتحاد في مجال السياسة العالمية .

على أن التوازن النووي بين القطبين ازداد في مجمله رهافة وخطورة وازداد الرهان رهبة وجسامة ، حتى اشتدت مخاطر الصدام في أكثر من أزمة دولية أهمها أزمة كوبا في بداية الستينات وحرب يونيو قرب منتصفها ثم حرب فيتنام في أواخرها . غير أن هذا من الناحية الأخرى حتم تغييرات جذرية وأدخل تطورات جديدة في الاستراتيجيات السياسية والعسكرية ، تلتخص على الجانب الأمريكي في استراتيجية الرد المرن بدل الردع الشامل ، وذلك في ظل فلسفة التعايش السلمي بدل الحرب الباردة على الجانب السوفيتي .

وقد كانت الولايات هي السبابة إلى إستراتيجية الرد المرن . ففي وجه الشلل أو الجمود النووي السابق nuclear stalemate وعقم استراتيجية الردع الشامل ، مع تعاظم حدة التوازن النووي بين الجانبين ، أخذ الفكر الأمريكي يرتاد استراتيجيات بديلة تسمح بمرونة وحرية الحركة في أزمات الصراع دون الوقوع في مأزق الحرب النووية المستحيلة . وفي مطلع الستينات كانت هذه الاستراتيجية قد تبلورت بصفة خاصة على يد الجنرال ماكسويل تيلور تحت اسم الرد المرن flexible response⁽¹⁾ ، وعلى يد هيرمان

Maxwell Taylor, The uncertain trumpet, N.Y., 1959, p. 30 ff.

(١)

كان تحت اسم الردع المتعدد multideterrence .^(١) وفي الوقت نفسه تبنتها الادارة الأمريكية (كيندى - ماكنارا) واعتمدها رسميا تحت اسم القوة المضادة الموجهة controlled counter-force .

مؤدى هذه الاستراتيجية أن الخيار المطروح أمام الولايات ليس كسابق الظن بين الانتحار المتبادل ونزع السلاح من جانب واحد ، أى بين الانتحار المتبادل والانتحار الذاتى تقريبا ، وإنما هناك بين النقيضين خيارات وبدائل عديدة ، تجمع بين مرونة الحرب المحدودة وحسم الحرب النووية فى توازن دقيق محسوب ، وتناسب فيها القوة الضاربة - على عكس الردع الشامل الغاشم الأصم - مع حجم الصراع أو الأزمة ، وذلك أيضا مع التصعيد escalation أو التهييئ de-escalation بحسب تطورات الموقف .

وعلى هذا فإن محور استراتيجية الرد المرن ينبغى أن يكون الجمع بين الحد الأقصى من القدرة النووية الكامنة الآمنة وبين الحد الأقصى من الأسلحة التقليدية القادرة سريعة الحركة والانتقال . وإنما ينبغى أن يكون السلاح النووى الحل الأخير لا الحل الأول ولا الأوحد . وبذلك يمكن التصدى بكل حرية ومرونة لأى صراع محلى أو دولى يطرأ وذلك بالقوة التقليدية ومحاولة حسمه بها وحدها دون التصعيد من حرب تقليدية محدودة إلى حرب نووية عالية . فإذا ما استحال الحسم بالأسلحة التقليدية أو تجميد الحرب المحدودة ، فلا مفر عندئذ من التصعيد النووى .

وبطبيعة الحال فإن هذه الاستراتيجية تستدعى استعدادات عسكرية خاصة تقليديا ونوويا . فتقليديا ، ينبغى أن تتوفر القوات الكافية القادرة على الانتقال الفورى إلى ميادين القتال والانتشار السريع فيها ، بكل ما يعنى هذا من قوة الطيران والبحرية ومشاة الأسطول ... الخ . أما نوويا فإن الأساس الشرطى والشرط الجوهرى هو امتلاك زمام المبادرة ، أى ضمان القدرة على « الضربة الأولى pre-emptive war » ، وإلا ف ضمان القدرة على الرد بعدها « بالضربة الثانية » . وكان هذا بداية المناظرة التاريخية الشهيرة فى أدب الاستراتيجية بين الضربة الأولى والثانية .

ذلك أن الصواريخ عابرة القارات قد خفضت الوقت اللازم لنقل الرؤوس النووية إلى دقائق معدودات ، بحيث أصبحت الضربة الأولى رغم كل وسائل الانذار المبكر

Hermann Kahn, On thermonuclear war, Princeton, 1960, p. 22-37.

(١)

تمثل مفاجأة أو مباغته تعطى للبادئ ميزة تدميرية هائلة قد تحسم المعركة وتنتهى الصراع إلى الأبد . ولهذا أصبحت الضربة الأولى بمثابة الحرب الوقائية preventive war ، وسميت كذلك أحيانا بالفعل . وهى على هذا الأساس تعد نوعا من الدفاع فى شكل الهجوم ، دفاعا مسبقا فى شكل هجوم مسبق .

فإذا ما ضاعت فرصة الضربة الأولى على الولايات ، فلا بد لها عندئذ أن تكون قادرة على امتصاصها ثم الرد عليها بالضربة الثانية . ولتحقيق هذا لا بد لها من تأمين مخزونها النووى بعيدا عن أى خطر على السطح ، وذلك بحفظه فى صوامع غائرة تحت الأرض تكون أيضا مشتتة التوزيع ، أو فى الغواصات النووية الدائبة الحركة تحت الأعماق ، أو فى الطائرات المحلقة أبدا فوق السحاب . ففى الضربة الثانية إذن يكمن ليس فقط تفادى الهزيمة النهائية ولكن أيضا ردع العدو عن الضربة الأولى نفسها أصلا لعلمه بأنه لن يفلت من العقاب المدمر مهما كان وفى كل الأحوال . إنها هجوم متأخر وإن أتت كدفاع لاحق .

وبهذا أيضا - لا بد أن نلاحظ - نلاحظ الفاصل الزمنى بين الهجوم والدفاع وشحبه الفارق الاستراتيجى بينهما كثيرا حتى نداخلنا وصارا جانبيين لشيء واحد تقريبا ، لا قيمة لأحدهما دون الآخر ، واجتماعهما معا ضرورة بقائية شرطية فى العصر النووى ، ولم يعد أهم من الدفاع سوى الهجوم ولا أهم من الهجوم سوى الدفاع .

فإذا ما انتقلنا الآن من النظرية إلى التطبيق ، فإن أول تطور هام كان دخول الغواصة إلى مسرح الصراع فى الستينات الباكورة . وقد كانت الولايات هى السباقة فى هذا المجال ، حيث دشنت الغواصة نوتيلس الشهيرة Nautilus العصر الجديد . وأصبحت الغواصات النووية التى تجوب أعماق البحار والمحيطات بلا انقطاع بمثابة « يابس » أو قارات ميكروسكوبية عائمة أو غاطسة لها مثل قوة التدمير والردع النووية التى للقاعدة الأرضية على اليابس الحقيقى تماما ، بمعنى أنها تستطيع أن تباغت العدو بالضربة الأولى الاجهاضية من حيث لا يحتسب ولا يستطيع أن يرد ، أو أن تعاجله بالضربة الثانية الانتقامية إذا ما سبق هو بالأولى ، بحيث لا يفلت من العقاب وربما الفناء قاتلا كان أو مقتولا ، مهاجما أو مدافعا ، بادئا أو مسبوقا .

وبهذا التوازن الجديد استردت أمريكا زمام التفوق الاستراتيجى الحقيقى ، واشتدت من جديد ميولها ونشاطاتها الصراعية . ومع ذلك فقد فرض التعايش السلمى نفسه

فرضا . وقد تبدى هذا في أوجه وأوضح صورته في أزمة كوبا في أوائل الستينات حيث انسحب الجانب السوفيتي من المجابهة النووية ونذر الحرب العالمية محتفظا بالحد الأدنى من ماء الوجه والحد الأقصى من السلامة .

كوبا : مطرقة التعايش

فند تحولت كوبا الثورة إلى اليسار ، أصبحت في نظر الولايات المتحدة بمثابة خلية شيوعية في قلب جسم العالم الجديد وفي صميم نسيجه . فهي بموقعها وسط الكاريبي - البحر المتوسط الأمريكي - تكاد تلامس جنوب الولايات على مرمى حجر ، وتكاد ترى أمريكا الوسطى على مرأى النظر . وهي من ثم في نظر الولايات بؤرة خطيرة لنشر « الوباء » الوافد من العالم القديم ولتصدير الثورة إلى العالم الجديد ... الخ . إنها « حصان طرواده » الشيوعي في عقر دار الرأسمالية . ولذا بات هم الولايات الأكبر هو محاصرة وعزل هذه البؤرة ، إن استحال استئصالها أو اجثاشها ، حتى لا تتحول أمريكا اللاتينية على المدى البعيد ، أو الوسطى على الأقل ، إلى كوبا كبرى .

ولكن حين تحول هذا المركز أو أوشك إلى قلعة للصواريخ السوفيتية يمكن أن تضرب رأسا ومباشرة في قلب الولايات نفسها ، لم يكن بد من المواجهة المباشرة مع السوفيت . والحقيقة أن هذه المواجهة لم تكن في حساب الجيوستراتيجية الواقعية سوى نسخة نووية من مبدأ مونرو ، أي أول تطبيق للمبدأ القاري القديم في العصر النووي .^(١) وعلى هذا الأساس ينبغي أن ننظر إليها جيوبوليتيكيا .

على أن كوبا ، من الناحية الاستراتيجية ، جاءت وهي « السويس معكوسة أو بالقلوب » كما شخص هيكل ببراعة وحصافة .^(٢) أما تاريخيا فبينما كانت الأخيرة نموذجا رائعا لسياسة الصد والرد checkmate بين كبار النوويين وصغارهم ، كانت الأولى نموذجا مروعا لسياسة الشد والجذب stalemate بين كبار النوويين أنفسهم . وفي كل الأحوال ، ففي أزمة كوبا وضعت بذرة التعايش السلمى ، وبها بدأ عقده الستينات تقريبا . غير أن الاتحاد السوفيتي لم ينس الدرس ولا أساء فهم معادلة التعايش الجديدة . فقد أخذ التحدى النووى جديا ، حتى انتزع قصب السبق أو التفوق النووى نوعا أو

Cf. "The East-West struggle", Economist, Dec. 26, 1981, p. 59.

(١)

Sphinx etc., p. 154.

(٢)

نوعيا ، آتيا أو مرحليا . فمن ناحية سرعان ما توصل الروس إلى الغواصة النووية ، وبذلك بات هناك لكلا الجانبين مجازا يابس خارج اليابس وقارات تحت القارات أو المحيطات ، وصارت لهما على السواء القدرة على كلتا الضرتين الأولى والثانية ، بحيث إذا ما باغت أحد الجانبين الجانب الآخر بهجوم نووي كاسح على أرضه فهو قد محاه حقا من الوجود ، ولكنه لن يفلت من العقاب فورا بهجوم ماحق مماثل من أسطول غواصاته النووية المنبث المتربص في أغوار المحيطات .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلقد توصل الاتحاد إلى سلاح جديد نسخ به الصواريخ النووية الأمريكية المتفردة ونسخ معه تفوقه الاستراتيجي . وذلك السلاح هو الصواريخ المضادة للصواريخ anti-ballistic missiles, anti-missile missiles ، وبها يمكن تدمير الصواريخ العدو سواء في صوامعها على الأرض قبل أن تنطلق ، أو في رحلتها في الجو إذا كانت قد انطلقت . وهكذا ، كما قيل ، لا يفل الصواريخ إلا الصواريخ . وقد نشر الاتحاد السوفيتي بالفعل خلال المرحلة شبكة كثيفة فعالة من الدفاع الصاروخي حول مدنه الكبرى خاصة موسكو ولننجراد ، عممت بعد ذلك وعمقت حتى شملت الاتحاد كله بالتدريج .

وبهذه التطورات جميعا كان الاتحاد هو الذي تفوق استراتيجيا في هذه المرة أو المرحلة ، وبذلك عوض - تاريخيا - عن فترة تخلفه الذرى عقب الحرب الثانية مباشرة . ولعل هذا كان من حسن حظ العالم ، إذ لم يكن للاتحاد مثل الميول العدوانية أو التهور الاندفاعي الاستفزازي الذي كان للولايات في تلك المرحلة . وليس من المستبعد في رأى البعض أنه لو كان هذا التفوق الجديد من قدر الولايات فرما اندفعت في طريق التحرش والصدام .

إعادة اكتشاف الحرب المحدودة

ذلك أن الولايات المتحدة ، في وجه هذا السباق النووى المفعم المتقلب ، جنبا إلى جنب مع الشلل النووى الشامل المقيم ، أدركت استحالة الحرب النووية ، وبالتالي خطأ سياسة الردع النووى الشامل كما رأينا . فالقضية لم تعد بالضبط قضية الضربة الأولى أو الثانية على التحديد ، وإنما القضية الآن أنه لا ضربة أولى ولا ثانية أصلا على الإطلاق ، إذ ليس هناك سوى معادلة وحيدة ومستحيلة وهي القيامة النووية ذاتها . ومن هنا كانت الولايات أسبق من الاتحاد إلى اكتشاف حل المعادلة الصعبة هذه وإلى

« اختراق الحاجز النووي » ، يدفعها إلى ذلك طبيعة الاستعمار الجديد العدوانية ، ويشجعها عليه استهتارها بأخطار التصعيد في الصراع ، وفي الوقت نفسه تمكن لها امتيازاتها العسكرية الجاهزة من قبل والتي تتمثل في قواعدها المنتشرة حول العالم .

فند أوائل الستينات حين تبنت الرد المرن والحرب المحدودة باعتبارها استراتيجية الاستعمار الجديد بالضرورة والامتياز في العصر النووي ، أخذت الولايات تبني وتنمي كل أسلحتها الطبيعية التي تعتمد أساسا على أقصى تكنولوجيات الكفاءة ولوجستيات السرعة ، والتي تتمثل في القوات الأمفيبية (مشاة الأسطول) وقوات المظليين (فرسان الجو) إلى جانب القواعد الثابتة (حاملات الطائرات التي لا تغرق) والقواعد العائمة (حاملات الطائرات والغواصات) .

و حين أعلن زعماء الاتحاد السوفيتي - خروتشوف أيضا - من بضع سنين خلت أنه لم يعد للطائرات والأساطيل البحرية ، في عصر الصواريخ النووية ، من مكان إلا المتاحف الحربية ، فإننا نستطيع الآن أن نرى أنه كان يتكلم من منطلق الردع الشامل ، دون أن يتنبأ بإمكانية الرد المرن . لقد ظن ، كما ظننا جميعا لبعض الوقت ، أن الاستراتيجية النووية قد نسخت إلى الأبد الاستراتيجية التقليدية ، فإذا بتوازن الرعب النووي يضع الأولى في التجميد العميق كما قيل ، وإذا بالثانية تعود ولو مؤقتا لتحتل الصدارة في العمل العسكري الجاري .

وبالفعل ، فلقد سجلت السنوات الأخيرة من الستينات زيادة هائلة في قوات الولايات المتحدة من تلك الطرز التقليدية المتخصصة ، في الوقت الذي كان الاتحاد السوفيتي لا يزال يعتمد أساسا - إلى جانب الترسانة النووية بالطبع - على أسلحة الحرب البرية التقليدية التي تلائم استراتيجيته الكلاسيكية الدفاعية الخاضعة كما نعرف لجغرافيته القارية الأوراسية المتصلة والحبيسة . وبهذا كانت تنقصه أساسا الأسلحة التقليدية غير النووية الصالحة لاستراتيجية حروب ما وراء البحار . وهذا وإن اتفق كثيرا مع ما يتصوره طبيعته غير- الاستعمارية ، فإنه لم يعد يتفق على أية حال مع صراعاته ضد- الاستعمارية . وتلك بالدقة كانت الفجوة التي استغلتها الولايات المتحدة لتضرب بحرية في العالم الثالث وقتئذ ولتحقق مد الاستعمار الجديد الذي بلغ أوجه في معركة الشرق الأوسط بالتحديد^(١) .

من الشرق الأوسط إلى الأقصى

فلقد كان في ظل هذه المعادلة الجديدة بالدقة أن تمت حرب يونيو بنكستها المعروفة التي بدا فيها الاتحاد السوفيتي عاجزا بوضوح عن مساندة أصدقائه العرب في مصر وسوريا إزاء العدوان الأمريكي السافر والمفضوح رغم القناع الإسرائيلي المباشر. ولم يقتصر هذا العجز على ميدان المعركة نفسه وحده ، ولكنه استمر بعده على المستوى السياسي إلى حد وأمد بعيدين . وهنا كانت المفارقة الصادمة : فرغم تفوق السوفيت نوويا في تلك المرحلة ، تفوقت أمريكا تقليديا ، ورغم التعايش السلمي فإنها انتزعت نصرا ساحقا في حرب محلية محدودة ، بينما افتقد أصدقاء الاتحاد السوفيتي فاعليته ولن يلبث هو أن يفقدهم بفضل هذا التعايش ذاته .

على التقيض من هذا تماما - للفرابة والدهشة - جاءت المواجهة في فيتنام . ففي نفس الاطار النووي والمناخ السياسي ، عجزت الولايات عن أن تسجل أى نصر بعد حرب عقدية وحشية ضارية ، بل وسجلت أول هزيمة لها منذ قرون ، معترفة لأخر مرة باستحالة تحقيقها هي أو غيرها من القوى الخارجية لنصر عسكري على اليابس الآسيوي . ولقد كان التنافس الحاد بين الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية في مساعدة فيتنام الشيوعية ، الملاصقة لها أيضا ، من عوامل الترجيح الحاسمة ، لكن للمقاومة الوطنية المصرة والفدائية كانت الفيصل .

وعلى أية حال ، فهكذا انتهت «أقدر حرب» في القرن العشرين في الشرق الأقصى بهزيمة العدوان ، فبا انتهت «أتمس حرب» في القرن العشرين في الشرق الأوسط بالهزيمة الوطنية . وبهذا كانت حرب فيتنام هي حرب يونيو بالمعكوس ، بمثل ما كانت حرب السويس من قبل هي معركة كوبا بالمعكوس .

الغريب ، مع ذلك ، أن المواجهة في كلتا الحربين المحليتين المحدودتين تمت في إطار التعايش السلمي الحرج . والأغرب أن العقد كله ، عقد الستينات ، عد كما بدأ عقد الولايات من حيث الدينامية والسيطرة والهيمنة العالمية رغم هزيمة فيتنام في نهايته . غير أن هذه الضربة للمهينة القاسية لأكبر قوة في التاريخ على يد دولة صغيرة متخلفة كانت نقطة تحول جذرية في كيان الولايات المتحدة . فقد كانت تلك «عقدة فيتنام» التي أدت مباشرة إلى «الانفراج» الشهير «بالوفاق» . وبهذا انتقلنا من عقد التعايش السلمي في الستينات إلى عقد الوفاق في السبعينات .

ولكن بينما كانت الستينات عقد أمريكا بالترفضيل ، ستكون السبعينات عقد روسيا بامتياز . إذ يمكن القول إن العقد بدأ في نصفه الأول أقرب إلى التعادل السياسي والاستراتيجي بين القوتين الأعظم ، ولكنه تحول في نصفه الثاني إلى تفوق روسي معترف به من قبل أمريكا نفسها .

السبعينات : الوفاق النووي

ذلك أن الطرفين خرجا من الستينات ودخلا السبعينات بحساب مسوي تقريبا على الجانب السياسي . ففي الصراعات المحلية أو الإقليمية سجلت أمريكا نقطة حاسمة في حرب يونيو ، فسجلت روسيا نقطة التعادل في فيتنام : دقة بدقة ، أو ضربة بضربة ، هذه مقابل تلك . ولقد كان من صميم منطق هذه الحسبة أن خرجت صفقة الوفاق - و صفقة هي بالتأكيد .

فن تجربة الأولى المريرة في فيتنام ، ومن تجربة الثانية الكسيرة في الشرق الأوسط ، مع استحالة الحسم النووي إلا انتحارا ، اتفق الغريمان اللدودان على إحلال « الوفاق الثاني » محل « الاستقطاب الثاني » كصيغة جديدة لا تنفي الصراع ولكن تحكمه وذلك بمعادلة تجمع بين متناقضتي التعايش والتنافس ولا تمنع الحروب المحلية ولكن تحكمها وتخضعها لضوابط الوفاق وحدوده .

ومن المفهوم بدهة أن كلا الطرفين كان يضمرو أو يقدر أن يستغل الصفقة لحسابه الخاص وأن يكسب منها أكثر مما يخسر أو على أية حال أكثر من الطرف الآخر . وهكذا كان بالفعل ، غير أن الذي استغل الوفاق أكثر على الجانب الاستراتيجي كان هو الاتحاد السوفيتي بينما كسبت الولايات المتحدة أكثر على الجانب السياسي .

ذلك أن الاتحاد ، على الجانب الاستراتيجي ، كان قد تعلم درس نكسته في الشرق الأوسط وصحح خطأه سريعا . فلقد اكتشف من التجربة المريرة في ١٩٦٧ للمصل المضاد لاستراتيجية الرد المرن : فلا يفل الحرب المحدودة إلا الحب المحدودة . ومن هنا اتجه بوضوح تام ومرونة وسرعة نادرين إلى الاستعداد للحروب الصغيرة عبر البحار ، بإعداد قوة بحرية للتدخل السريع في العمليات الخارجية ، تشكل قواعد عائمة عبر البحار كبديل عن القواعد الثابتة التي تميز الاستعمار .

وقد بدأت أولى إرهابات الخروج البحري في الحقيقة منذ نهاية الحرب الثانية حين

أخذ الاتحاد السوفيتي ينمى لنفسه قوة بحرية قياسية لم يعرفها من قبل ، حتى وصل اليوم إلى المرتبة الأولى في الأسطول التجارى ، والثانية في الأسطول الحربى ، وفى هذا الأخير وصل بأسطول الغواصات بالذات - ولهذا مغزاه الجغرافى الكبير- إلى ضعف قوة الولايات المتحدة أو مايربو على كل قوة حلف الأطنطى مجتمعة . وهكذا من قوة خفر سواحل صغيرة وأسطول غواصات متوسطة الحجم فى الستينات ، نما الاتحاد إلى ثانى أكبر وأقوى أسطول بحرى فى العالم ، بحيث أصبح يحتل الدور الذى كان الأسطول البريطانى يحتله فى الماضى والذى انتزعه الأسطول الأمريكى بعد ذلك .

وقد ظهرت أولى علامات التحول الاستراتيجى الدال الجديد فى أواخر الستينات وذلك ببناء حاملات الطائرات لأول مرة ، ثم فى تشكيل مشاة البحرية لأول مرة كذلك ، ثم فى تنمية فرسان الجو على أوسع نطاق ، مع كل ما يعنى هذا من تكنولوجية ولوجستية . ورغم أن معظم قوة الاتحاد النووية لا تزال تتركز فى صواريخها الأرضية القواعد ، فإن غواصات الأعماق الجديدة من طراز تيفون تعد طلائع قوة صواريخ بحرية القواعد . على أن أعظم نمو فى الأسطول السوفيتى تم فى الوحدات السطحية . ويعد تحديا مباشرا للأسطول الأمريكى . فالطرادات الحربية الجديدة من طراز كيروف مصممة خصيصا كقاتلات لحاملات الطائرات . هذا بالطبع فضلا عن القوة الأفضلية ممثلة فى حاملات الطائرات وحاملات المليكوبتر وسفن الانزال والعمود فى عرض البحر ... الخ .

وعلى الجملة فقد أصبح الأسطول السوفيتى قادرا على العمل بعيدا جدا عن الوطن . وأساطيله الرئيسية تنتشر الآن فى كل من الأطلسى والهادى ، كما امتدت إلى البحر المتوسط حيث أصبحت له نواة متنامية فى حوضه الشرقى تتعامد على ، وتقطع فى صميم ، نطاق أحلاف الغرب ، وتوازن الأسطول الأمريكى السادس وتلغى احتكاره وتنفى عنه صفة « البحرية الأمريكية » . كذلك بدأ السوفيت ينمون لأنفسهم شبكة من القواعد البحرية فى الهندى والبحار الجنوبية ابتداء من عدن فى اليمن الجنوبية إلى دانانج وكام رانه فى فيتنام ... الخ . وذلك كله بلا ريب أبعد ما يكون عن صورة روسيا القديمة القارية حبيسة أصقاع الشمال الباردة المتجمدة .

وأخيرا ، فإن الشىء الجدير بالملاحظة فى هذا الانقلاب أن هذه الاستراتيجية الجديدة تتجه بالاتحاد - كما تنبأ مكيندر من قبل - إلى أن يكون قوة برمائية أكثر من أى

وقت مضى . كذلك فإن هذا الاتجاه يتفق تماما مع ما وجدناه من أن العودة إلى الحرب المحلية المحدودة في ظل الشلل النووي ، يعود بالاستراتيجية العالمية بصورة ما إلى نمط ومنطق ماكيندر القديم والمتنحي أساسا .

معركة أكتوبر

المهم على أية حال أن هذه الاستراتيجية البحرية الجديدة ، جنباً إلى جنب مع سياسة الوفاق الوليدة ، وضعت موضع الاختبار والتنفيذ وبرزت بكامل هيئتها وثقلها في حرب أكتوبر ١٩٧٣ في الشرق الأوسط . فن ناحية كان الوفاق ، كضابط أخير يحكم الصراعات المحلية والاقليمية ، ينص حرفياً على « الاسترخاء الاستراتيجي » في الشرق الأوسط . وكان هذا يعني ضمناً وعملياً استمرار حالة « اللا حرب واللا سلم » السائدة في المنطقة منذ نكسة يونيو ، أي استمرار تفوق وتثبيت العدوان والاعتصاب من جهة واستمرار ضياع الحق على صاحبه المعتدى عليه من الجهة الأخرى .

من هنا كان على الجانب العربي ، في وجه هذا القرار الظالم المنحاز إلى المعتدى والذي يرقى إلى حد التواطؤ السافر ، أن ينتزع حقه من بين أسنان الوفاق ومن بين برائن « الأصدقاء » السوفيت أنفسهم كما من بين برائن الأعداء الأمريكيين سواء بسواء . ومن هنا كانت حرب أكتوبر تحدياً مباشراً ، أول تحد ، للوفاق وللقوتين الأعظم بصورة أو بأخرى .

من الناحية الأخرى ، أما وقد فرض التحدي كأمر واقع واندلعت الحرب وفشل الطرفان الأعظم في منعها أو إيقافها ، فإنها سرعان ما عادت كأمر طبيعي إلى مواقعها الانحيازية الأصلية كل في صف أصدقائه وإن بدرجات متفاوتة . وهنا ولأول مرة يستطيع الاتحاد السوفيتي أن يقيم جسراً جويًا وبحريًا لمساعدة أصدقائه العرب في وجه الجسر الأكبر الذي أقامته الولايات لمساعدة وحماية حليفها الصهيوني . ورغم فداحة الفارق في ثقل وكثافة وحجم الجسرين المتعامدين ، فقد كانا أشبه بمبارزة حادة بالسيف عبر البحر المتوسط لم يسبق لها مثيل في جولات الصراع العسكري السابقة في المنطقة . وكان هذا يرجع أساساً إلى تطور القوة البحرية السوفيتية الطارئ وتبني منطق الرد المرن ومغامرة الحرب المحدودة^(١) .

(١) جمال حمدان ، ٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٩ وما بعدها .

ورغم أن الولايات المتحدة ، حين وصلتها رسالة استغاثة إسرائيل S.O.S الشهيرة بعد أن واجهت خطر الهزيمة الكاملة لأول مرة ، افتعلت تأزيم الموقف الدولي بإعلان حالة الاستعداد والتأهب النووي في قواعدها حول العالم ، فإن الوفاق وضع حداً للأزمة بسرعة غريبة . ورغم أن الاتحاد عرض على الولايات فرض تسوية شاملة على الصراع المحلي في المنطقة بقوتيهما المشتركة وإلا فبقوته المنفردة داخل الوفاق ، فقد كان هذا وحده كفيلاً برفض الولايات على الفور وانفرادها بفرض التسوية الدبلوماسية وحدها وحسابها وبشروطها .

وهكذا ، في ظل الوفاق ، تم إخراج السوفيت من التسوية مثلاً تم إخراجهم من قبل من المنطقة . وهكذا أيضاً ، في ظل الوفاق أو من وراء ظهره ، تم تميع ، ولا نقول تضييع ، الموقف في المنطقة ، فجاءت نتائج المعركة السياسية دون مقياسها العسكري إلى أقصى حد ، فاترة فطيرة بقدرهيب الميدان وهول المعركة ، بحيث اتسمت الحرب على الجملة بعدم الحسم في دورها وأثرها التاريخي إن لم يكن بالسلب المطلق .

السبعينات المتأخرة : المد السوفيتي

قد تكون هذه ، أكثر من أى مرحلة سابقة ، هي مرحلة التفوق السوفيتي سياسياً وعسكرياً خارج كل جدال بل وباعتراف الغريم الأمريكى علناً وبالخاص . فلئن كان السوفيت قد خرجوا من المرحلة السابقة وقد فقدوا مواقعهم في أهم مراكز العالم العربي والشرق الأوسط ولم يبق لهم موطن قدم إلا في أقلها عدداً وقيمة ، بينا وضع الأمريكان أقدامهم في حذائهم الواسع القديم وأصبح معظم المنطقة في جيهم ، فإن السوفيت عوضوا بنجاحات محققة ونشاطات مؤثرة في المنطقة وما حولها ، إضافة أيضاً إلى أفريقيا والشرق الأوسط بل وكذلك الكاريبي وأمريكا الوسطى .

فن جهة بدأ الاتحاد بعملية تطويق للشرق الأوسط بنطاقات وأحزمة في أفريقيا تمتد من البحر المتوسط (ليبيا) إلى القرن الأفريقي (إثيوبيا) وجنوب الجزيرة العربية (اليمن الجنوبية) ، مع السنة وامتدادات هنا وهناك في أفريقيا الجنوبية (أنجولا وموزمبيق) ... الخ . ومن جهة أخرى وأخطر ، وفي الوقت الذي سقطت فيه إيران بكل ما تعنى من السلة الأمريكية تاركة « فراغاً » خطراً في منطقة الخليج البترولية ، سقطت أفغانستان في قبضة الاتحاد حيث تمدد فيها تمدداً أرضياً مباشراً يؤكد ويكرر قاعدة توسعه القارى التقليدى الملاصق contiguous . غير أنه هذه المرة يقترب بشدة من المياه الدافئة والهندي

والخليج الذي أصبح مهددا مباشرة لأول مرة أيضا . وهكذا فى مجمل الحساب إذا كان السوفيت قد فقدوا غرب الشرق الأوسط للأمريكيين ، فقد فقد هؤلاء شرقة لهم . والحساب إذن مصنى مسوى على الأقل ، هذه مقابل تلك .

هذا على الجانب السياسى ، أما على الجانب العسكرى فلأول مرة فى العصر النووى تعلن أمريكا بفزع شديد يكاد يكون هيستيريا تفوق السوفيت لا فى التسليح التقليدى فقط ولكن أيضا فى التسليح النووى . فلا يكاد يمضى يوم على امتداد السنوات الأخيرة وحتى اليوم إلا وتحذّر القيادة الأمريكية أو المختصون من هذا الاختلال النووى الاستراتيجى الجسم الذى يهدد الأمن القومى فى الصميم والأمن العالمى من بعده . وكان آخر ما أعلنه الرئيس الأمريكى بنفسه فى هذا الصدد (ريجان) هو أن السوفيت متفوقون على الولايات فى الصواريخ النووية ، بينما كان آخر ما أعلنه الكرملين أنه واثق من النصر فى أية حرب نووية تنشب مع أمريكا . وفيما عدا هذا فلا يمضى عام إلا وتزداد ميزانية الانفاق العسكرى الأمريكى زيادة رهيبه لإصلاح هذا الخلل وإعادةه إلى التوازن أو لقلبه لإعادة من جديد لصالح أمريكا .

وتفسر أمريكا هذا الانقلاب الخطر فى الميزان النووى بأن الاتحاد نجح فى استغلال الوفاق واتفاقيات الحد من التسليح النووى فى توسيع الفجوة النووية لصالحه . ولهذا عادت أمريكا تنظر إلى الوفاق على أنه « سياسة فاشلة » و « صفقة خاسرة » و « لعبة قدرة » تمت على حسابها ولصالح الاتحاد السوفيتى الذى بات « يمثل أكبر خطر عليها طوال تاريخها » . هذا بينما يصر الأخير على أنه لا بديل عن التعايش السلمى والوفاق ، وألا مكان للحرب الباردة وسباق التسليح فى المستقبل ، حيث أنه لا غالب ولا منتصر فى الحرب النووية .

وفى الأثناء ، ماتزال المساومات الحادة المعقدة والمفاوضات المتصلة المتقطعة بين القطبين مستمرة بشأن نشر ، أو إعادة نشر ، أو تجميد نشر ، شبكات الصواريخ على كلا الجانبين ، أو للخفض المتبادل للترسانات النووية وغير النووية كما وكيفيا لكلا الطرفين فى أوروبا الغربية والشرقية ، لكن دون جدوى فيما يبدو أو كمناورات دعائية أو خداعية على الأرجح . وما يزال السباق النووى مستمرا ، ولكن بصورة محمومة أكثر من أى وقت مضى .

السباق النووي

فأما عن الترسانة النووية نفسها ، فإن الصورة معقدة تكنولوجيا واستراتيجيا أكثر من أى وقت مضى . فإلى جانب تصاعد وتطور وتحديث الترسانة القائمة والمتعاظمة باستمرار ، طرأ قادمون أو ضيوف جدد لا يقلون خطرا وأبعادا . فعدا القاذفات النووية الجبارة ، ظهرت الصواريخ متعددة الرؤوس النووية (ميرف) ، كما تعاقبت أجيال الصواريخ النووية متعددة الأبعاد ، ابتداء من الصواريخ التكتيكية الميدانية ، إلى الصواريخ متوسطة المدى التى تغطى داخل القارة الواحدة ، إلى الصواريخ عابرة القارات التى تعبر من قارة إلى قارة عبر المحيط الواحد ... الخ . وكما أن الغواصات النووية لا تكف عن التجول والحركة السرية السريعة بين مكائنها تحت البحار والمحيطات كإجراء أمن مستمر ضد خطر الضربة الأولى ، فكذلك أصبحت لقواعد الصواريخ الأرضية شبكات صوامع عديدة عميقة تحت الأرض تنتقل بينها سرا وباستمرار كنوع من الخداع والتمويه وإرباكا للعدو وكذلك إحباطا جزئيا على الأقل لمباغتته .

كذلك فإلى جانب القنبلة الذرية والهيدروجينية ، استجذبت قنبلة النيوترون التى تبيد البشر ولكن لا تدمر المباني ، وبذلك تصلح تكتيكيا لميدان المعركة بعامة واستراتيجيا لمعركة أوربا بخاصة باعتبار أن هذه الأخيرة هى المجال الأساسى الختمى أو الافتتاحى على الأقل لأى حرب نووية بين العملاقين . وإذا كانت هذه القنبلة تأتى فى كشف الحساب فى خانة أمريكا ، فإن المقول إن السوفيت يملكونها أو على الأقل يملكون سرها هم الآخرون .

ثم هناك أخيرا وليس آخرا الأقمار الصناعية ، جواسيس الفضاء الجدد ، وربما أيضا قواعد الفضاء الدوارة أبدا . فمع أشعة الليزر ، تطور عن الأقمار الصناعية نقيضها الأقمار المضادة للأقمار الصناعية التى تقتلها فى الجو anti-satellite satellites (على غرار الصواريخ المضادة للصواريخ) . وهكذا انتقلت المعركة خطوة أخرى إلى أعلى : من الغلاف الجوى إلى الفضاء الخارجى ، من الغلاف الغازى الأتموسفير إلى الاستراتوسفير ، أو من atmostrategy إلى stratostrategy . لقد اكتملت بحق عناصر حرب الفضاء .

الميزانية النووية

أما إذا انتقلنا أخيرا من الكيف والنوع إلى الكم والحجم ، فإن لدينا من المعلومات

المتاحة المنشورة حديثا مايؤلف ميزانية نووية مقارنة للقوتين الأعظم كما تبدو سنة ١٩٨٢ ، (١) مع ملاحظة أنها تقديرية تقريبية أولا وغير قاطعة أو وثيقة لاعتبارات أمنية مفهومة ثانيا . والأحجى أن نعتبرها اجتهادية على الأفضل ، خداعية على الأرجح ، ولكن لعلها تظل مؤشرات ميسورة ودالة .

فالمقدر ابتداء أن الاتحاد يتفوق على الولايات في عدد كل من الصواريخ عابرة القارات (١٤٠٠ مقابل ١٠٥٠) وعدد رؤوسها النووية المحمولة (٥٥٥٠ مقابل ٢١٥٠) أى بنسبة الضعف تقريبا . لكن الولايات ، بالمقابل ، تتفوق على الاتحاد في عدد القاذفات النووية الاستراتيجية بنسبة الضعف ، وفي حمولتها من القنابل النووية بنسبة عشرة الأمثال . غير أنه يبقى أن نتذكر أن قدرة الصواريخ عابرة القارات على اختراق دفاعات العدو أكبر من قدرة القاذفات الاستراتيجية . هذا أول .

ثم إن هناك ، ثانيا ، فارقا جذريا في الموقع أو التوزيع الجغرافي بين كل من الصواريخ والقاذفات الأمريكية والسوفيتية . فنحورب القوة النووية الأمريكية فقط هو الذى يوجد في القواعد الصاروخية الأرضية ، أما الباقي أى ثلاثة الأرباع فموزع بين الغواصات النووية في الأعماق والقاذفات الاستراتيجية المحلقة في الجو . أما الاتحاد فإن الطابع الغالب عليه هو ، كالمعتاد ، الطابع الأرضي ، إذ أن ٧٠٪ من قوته النووية موجود في قواعد أرضية ، والباقي فقط هو الموزع بين البحر والجو . وهذا الفارق يعطى الميزة والمرونة المحققة للجانب الأمريكي بطبيعة الحال .

لكن أخشى ما تخشاه الولايات بعد ذلك هو الضربة الأولى ، إذ لو انتزع السوفيت المبادأة بها فإنها ستدمرنحو ٩٥٪ من قواعد الصواريخ الأرضية الأمريكية ، وإن شكك البعض في أن تصل دقة تصويب وإصابة الصواريخ النووية السوفيتية إلى هذا الحد فعلا . ولكن حتى لو صح ذلك التقدير ، فسيتبقى للأمريكيين ثلاثة أرباع قوتهم النووية للرد بالضربة الثانية .

أما إذا أراد السوفيت توجيه الضربة الأولى إلى جميع عناصر ومكونات القوة النووية الأمريكية ، فإن عليهم أن يستخدموا غواصاتهم النووية في ضرب القاذفات الاستراتيجية الأمريكية في نفس الوقت . غير أن هذه القاذفات الأخيرة قادرة على

تضادى الصواريخ السوفيتية رغم ضعف قدرتها على اختراق دفاعات السوفيت الجوية ،
وتمتثل لما ينبغي أن يكونها قاذوا على الرادار على استراتيجيات دفاعات السوفيت الجوية ،

وما ينجز منها قادرا على الرد ، التي هي أقل عددا من الغواصات السوفيتية ولكنها
تحمل عرشها على الأعباء من الرؤوس النووية ، فإن لكل صاروخ نووي يحملها قادر
على تدمير مدينة سوفييتية متوسطة الحجم ، إلا أنه غير قادر تهربا على إصابة مواقع
الصواريخ السوفيتية عابرة القارات ، ولهذا فإن المشكلة هي أنها إذا انقضت على قصف
المدن السوفيتية ، فإن المدن الأمريكية ستعرض هي الأخرى لقصف مصادا مماثل .
وهذا هي التحليل الأخير هو المازق الذي يواجهه طابع الفرار أو فرار الأمريكي .
وهذا في التحليل الأخير هو المازق الذي يواجهه طابع الفرار أو فرار الأمريكي .

فالمقدر أن ما قد ينجو ويتبقى لأمريكا من الضربة السوفيتية الأولى هو نحو ١٠٠ طائرة
قاذفة تحمل نحو ٢٠٠ رأس نووية كافية لتدمير كل ما سبق للسوفيت من صواريخ
عابرة على الأرض . غير أن هذه الطائرات تحتاج إلى ١٠ ساعات للوصول
إلى أهدافها في الاتحاد السوفيتي . وهذا يعطي فرصة طاعة للسوفيت ، في لحظة اليأس
الأخيرة ، لإطلاق ما تبقى من صواريخ عابرة للقارات على المدن الأمريكية ، حيث
سيكون قد تم تدمير معظم الأهداف العسكرية . وهكذا فإن خطر الاضطراب إلى ضرب
المدن والأهداف المدنية لكلا الجانبين ، أي قدرة الطرفين على تدمير المراكز السكانية
للطرف الآخر ، هي الضابط الأخير للخيار . وهذا في الواقع ، كما نعلم ، هو وحده
الذي يحفظ التوازن أو الجمود النووي بينها طوال العقد الأخير .

ولكن حتى هذا الضابط أصبح معرضا فيما يبدو للاهتزاز ولا نقول للانهار . ذلك
أن آخر ما توصل إليه الطرفان هو الدفاع المدني ، وعليه التركيز كله الآن . فالمقدر أن
خسائر أمريكا في حرب نووية مفاجئة قد تبلغ ١٣٩ مليون نسمة (من ٢٣١ مليونا بنسبة
شخصا في أمريكا) ، حرب نووية مفاجئة قد تبلغ ١٣٩ مليون نسمة (من ٢٣١ مليونا بنسبة
٤٩ / ٢١) ، تنخفض إلى ٤٩ مليون فقط (بنسبة ٢١ / ٢١) ، إذا توفرت مسبقا خطط
الدفاع المدني الكامل بما في ذلك التجهيز من المدن إلى الأرياف . وعلى الجانب السوفيتي
فإن المقول أنه يمتلك دفاعا مدنيا كاملا إلى حد يضمن معه البصر في جميع الأحوال .
وهكذا نرى أنه حتى الضابط الأخير الذي يكبح جاح الصدام النووي أصبح موضع
شك وسؤال .

وهذا يقودنا إلى ما يعد أخطر وأحرج مرحلة في تاريخ الصراع والتوازن النووي ،
وهي مرحلة الغائبات . فمن الواضح ابتداء أن هناك فجوة ، كوة أو هوة ، نووية بين
الطرفين في المرحلة الثانية . فمن الواضح ابتداء أن هناك فجوة ، كوة أو هوة ، نووية بين

الخ .^(١) إن الاغراء واضح جدا ، والاحتمال وارد أيضا ، والوضع كله يذكر ، ولكن بالمقلوب ، بتلك المرحلة الحرجة في أواخر الأربعينات حين كانت الولايات المتحدة تنفرد دون الاتحاد السوفيتي بالقنبلة الذرية بكل ما يعنى ذلك من اغراءات الهجوم الوقائي ، وذلك طبعا مع الفارق بل الفوارق الهائلة بين فجر العصر النووي وقته ، فضلا عن تعاظم الرهان وتصاعده خارج كل مقارنة . ويزداد التشابه والخطر ، رغم انقلاب التوازنات الأساسية ، إذا تذكرنا أعراض العودة الأمريكية في الثمانينات (ريجان) إلى سياسة التشدد والتحرش وحافة الحرب الباردة في الخمسينات (دلز) .

التنبؤ طبعا مستحيل ، ولكن في الأثناء فإن هذا الوضع بكل جوانبه واحتمالاته هو الذى يحدد موقف الغريمين في محادثات الحد من الأسلحة النووية ، من « سولت » إلى « ستارت » . فالاقتراح الأمريكى التقليدى هو خفض المتبادل لعدد الصواريخ العابرة الأرضية القواعد بمقدار الثلث لكلا الطرفين ، وبذلك يجرى الاتحاد من بعض تفوقه الأكثر خطورة ومباشرة . ولكن الاتحاد يرفض بالطبع ، على أساس أن هذا التفوق في الصواريخ الأرضية الفائقة التصويب هو الرد الوحيد على التفوق الأمريكى في القاذفات والغواصات ، والاقتراح الأمريكى يقرب ببساطة كفة التوازن لصالح الولايات . ولهذا كان الاقتراح السوفيتى المضاد هو تقليديا التجسيد الفورى للترسانة النووية لكلا الطرفين والابقاء عليها كما هي « as is » دون إضافة أو نشر المزيد من الصواريخ أو القاذفات ... الخ .

من هذا كله يبدو جليا كم تعقدت طبيعة العملية ، مثلما تعددت آفاق وأدوات المعركة إلى أقصى حد ، حتى بات التنبؤ بصورتها وشكلها أمرا بالغ الصعوبة ، وحتى بات حتما أن يترك التخطيط العسكرى هامشا معلوما أو غير معلوم لحتمية الارجمال والاجتهاد أثناء القتال نفسه وتبعاً لضروراته ومفاجآته . ولهذا فإن الآراء والأحكام والخطط ، والخطط البدائل ، والخطط المضادة ، والخطط المستقبلية ، أصبحت اليوم أكثر تعددا وتضاربا وكذلك اضطرابا وعدم تحديد منها في المراحل السابقة .

ولكننا نستطيع بصفة عامة أن نقول إن التركيز كله ، بعد أن انتقل في السابق من انتزاع واحتكار الضربة الأولى إلى ضمان وتأمين الضربة الثانية ، أصبح الآن على ضمان الضريتين معا . محور الاستراتيجية النووية اليوم وفي أعلى مراحلها هو ببساطة الجمع بين

‘East-West struggle’, Economist, op. cit., p. 44-5.

(١)

الضربتين واستقطابها في آن واحد ، كل طرف من وجهة نظره وفي جانبه بالطبع ، إن لم نقل والضرورة الثالثة من بعدهما أيضا . ذلك اليوم قبة الأمن النووي .

مغزى التطور النووي

ولكن ، حسنا ، هل هناك حقا أمن نووي أصلا ؟ للإجابة ، لنعد قراءة مراحل التوازن السابقة قراءة مقارنة تركيبية عريضة وصولا إلى الانتهاكات العامة والأحكام الكلية . وثمة على الأقل أربع تعميمات أو نتائج تنداعى منطقيا وتدعو إلى التفكير مليا ، ويمكن أن نحصرها ونعالجها تحت هذه العناوين : التوازن النووي ، التصاعد النووي ، الردع النووي ، السلام النووي .

التوازن النووي

فأولا ، مراحل التوازن النووي هي في آن واحد مراحل قوة عسكرية استراتيجية ومراحل سياسة دولية . فرغم أنها تمثل أساما توازنات القوة بين القطبين الأعظم والصراع بين الكتلتين السائلتين ، إلا أنها تغطي تلقائيا كل الصراعات المحلية والمشكلات الإقليمية . فما من حدث سياسى أو عسكري ، سلمى أو حربى ، يقع اليوم في أى منطقة من العالم بين أصغر الدول ، إلا ويقع داخل إطار الاستقطاب الثنائى إلى حد أو آخر ، يتأثر بدرجة ما بتوجيهه وضغوطه ، ويخضع كثيرا أو قليلا لأحكامه وحدوده وضوابطه ، ويكاد في النهاية يتقوّل بقالبه ويتحدد به مصيرا ونتائج .

ونحن نستطيع ، كما فعلنا في دراستنا السابقة في الواقع ، أن « نركّب » كل صراعات وتزايدات وأحداث العالم في منحى التوازن النووي بمراحله المختلفة ، وأن نجد مفتاحها الأخير في معادلتها السائدة . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وحدة السياسة الدولية شبه التامة في العصر النووي . لقد أصبحت السياسة والاستراتيجية فيه لا انفصال لها البتة ، وأصبح العالم كله وحدة صراعية واحدة أكثر مما كان في أى وقت مضى ، تماما مثلما أصبح وحدة حضارية حياتية واحدة أو ما يسميه البعض بظاهرة « globalisation of the world »^(١) .

Anouar Abdel-Malek, Nation & revolution, Lond., 1981, p. 181-2.

(١)

التصاعد النووي

ثانيا ، التصاعد والتصعيد المستمر هو التغمة الأساسية في الخط البياني لمراحل التوازن النووي . فن مرحلة إلى أخرى ، ومع تطور الأسلحة النووية الفائق - يزداد حجم الصراع والتحدى والخطر . وسباق الأسلحة والتسلح مباراة رهيبية متسارعة تنمو ككرة الثلج ، إلا أنها كرة نووية جهنمية يتقاذفها الطرفان فيما بينهما في لعبة خطيرة هي من ثم كلعبة الموت . فكما في كل التاريخ العسكى ، وليس العصر النووى باستثناء ، لكل سلاح نقيضه ومصله المضاد . لما من سلاح نووى يتوصل إليه أحد الطرفين اليوم إلا ويلحق به الطرف الآخر إن عاجلا أو آجلا .

وهكذا هي من ثم ، فيما يبدو ، الدورة الاستراتيجية في العصر النووى : سبق مؤقت هنا ينسخ التوازن ، لا يلبث أن يعقبه سبق هناك ينسخه بدوره ويعيد التوازن ولكن على مستوى أعلى وأشد خطرا ، أى كالحلقة المفرغة أو اللولب الزنبركى الصاعد أبدا spiral ، ثم تبدأ الدورة من جديد ... الخ . فكما رأينا ، بدأت المراحل الأربع باحتكار نووى مطلق لأحد الجانبين وانتهت بشبه تعادل أو تقارب بينهما أقل اختلالا ولكنه أشد هولاً ، وفيما بين البداية والنهاية تناوب الجانبان التفوق أو التخلف والسبق أو التأخر بدرجة أو بأخرى .

وفي هذا التصاعد المتسارع المتعاطم أبداً ، ثمة عامل أولى بسيط ولكنه مسيطر ، يضاعف العملية بمعدل الريح المركب في الاتجاهين بل في جميع الاتجاهات . هذا الضابط هو التعارض الأساسى الكامن في كلا المعسكرين بين القوة البشرية التقليدية وبين القدرة التكنولوجية المتطورة ، أو بصيغة أخرى بين الكم والكيف : الكم للشرق ، والكيف للغرب . فإذا نحن رسمنا قطاعا عرضيا عبر أوراسيا برمتها من أقصى الغرب في بريطانيا إلى أقصى الشرق في الصين ، فسنجد بصفة عامة وكقاعدة عريضة أن حجم وكثافة الجيوش البرية والأسلحة التقليدية تزداد نسبيا و/ أو حقيقيا كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق . وعلى سبيل المثال ، فإن للقدر حاليا أن إنتاج الاتحاد السوفيتى من الأسلحة التقليدية يعادل مجموع إنتاجها في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية معا .

ويرجع هذا ، من بين ما يرجع إليه ، إلى عامل السكان والكثافة . ويكفى في هذا أن تقارن على التوالي بين أوروبا الغربية والشرقية ، ثم بين أوروبا الشرقية والروسيا الأوربية ، ثم بين هذه الأخيرة والصين . وعلى العكس من هذا يزداد التركيز ويشند على

قوة السلاح وتفوقه التكنولوجي ، بالضرورة وللتعويض الحتمي ، كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب . ويرتبط هذا بدوره جزئيا بتفوق الغرب العلمي والتكنولوجي وسبقه المعروف منذ الانقلاب الصناعي على الأقل .

وجماع هذا كله ومحصلته ينعكس بوضوح تام في استراتيجية كل من حلف الأطلسي وحلف وارسو . فدول أوروبا الغربية أقل بكثير من دول شرق أوروبا خاصة الاتحاد السوفيتي في أعداد وأحجام جيوشها البرية ، وكذلك في تسليحها التقليدي بالتالي بما في ذلك المدرعات والدبابات والمدفعية ... الخ . ولئن بدا من الجدول المرفق أدناه أن حلف الأطلسي يتفوق عدديا على حلف وارسو في حجم القوات المسلحة ، فذلك لأنها تضم عنده قطاعا أكبر من القوات غير المحاربة ، كما أن حلف وارسو يتفوق في الدبابات بنسبة ١,٥ : ١ تقريبا .

أضف إلى ذلك أن تفوق حلف وارسو التقليدي يصل إلى قوته على جبهة الألمانيتين بالتحديد حيث سيتحدد مصير العالم في أية حرب شاملة قادمة . فهنا تتركز قوات حلف وارسو أكثر ، بحيث يصل تفوقه على حلف الأطلسي في أعداد القوات المسلحة إلى نسبة ١,٤ : ١ ، وفي أعداد الدبابات إلى نسبة ٢,٥ : ١ تقريبا . ورغم أن حلف وارسو لا يملك بالطبع التفوق العددي الذي يوفر النسبة المقررة لضمان النصر في أي معركة هجومية وهي نسبة ٣ : ١ ، فإنه يمكنه بالتخطيط الذكي أن يحقق هذه النسبة بالتركيز عند نقطة الهجوم نفسها .

كذلك فلأن الاتحاد السوفيتي في داخل أوروبا جغرافيا ، فإن التعزيزات يمكن أن تتدفق على قوات حلف وارسو مباشرة ، في حين يتعين على التعزيزات الأمريكية أن تعبر ٣٠٠٠ ميل عبر الأطلسي . ومحصلة هذا كله أن الاتحاد وحلفه قد يمكن أن يحقق الاختراق الكامل ويكسب الحرب في بضعة أيام أو أسابيع ، وذلك كما يقدر ويعترف وينذر ويحذر قادة حلف الأطلسي وجنرالاته أنفسهم بانتظام وإلحاح .

ورغم أن هذه النتيجة تتوقف كثيرا على السلاح الجوي ، فإن الموقف هنا معقد نوعا . فالشرق يتفوق في عدد الطائرات الدفاعية والاعتراضية ، ولكن الغرب متفوق في عدد الطائرات الهجومية . ومن الناحية الأخرى ، فإذا كان الشرق يتفوق في عدد طائرات الجبهة ، فإن حلف وارسو ما زال يتداول أنواعا متخلفة عتيقة من الطائرات ، في حين تتفوق طائرات الغرب الحديثة في النوعية تفوقا جسيما^(١) .

"East-West struggle", op. cit., p. 45-6.

(١)

وهكذا على الجملة يبدو أن حلف الأطلنطي قد لا يصمد طويلا في حرب تقليدية مع حلف وارسو . ورغم أن البعض في الغرب نفسه يتحفظ أو يتشكك في صحة هذه المقولة باعتبارها مبالغة غريبة مقصودة دعائيا ، فإن المفهوم الشائع هو أن التفوق التكنولوجي المطلق هو شرط الصمود والبقاء بالنسبة إلى حلف الأطلنطي ، والبديل الوحيد وأداة التعويض والتعادل الحتمية عن ضآلة جيوشه وقواته التقليدية النسبية . ولما كانت الأسلحة النووية هي قمة التفوق التكنولوجي خارج كل حدود ، فقد أصبحت استراتيجية الغرب نووية بالدرجة الأولى وأصبح التفوق النووي هو هدفه بأي ثمن . إلا أن هذا يدفع المعسكر الشرقى بالضرورة إلى التفوق النووي المضاد خشية الضياع التام ، فيضاعف من ثم من تسليحه النووي بل والتقليدي على السواء . فلا يجد الجانب الغربى بدوره مفرًا من الزيادة من جديد ، وهكذا تستمر الزيادة جيئة وذهابا إلى ما لا نهاية والتضاعف مطردا حتى السماء . إن الحجم - في المجال النووي كما في مجال الحياة - يولد الحجم ، والخطر النووي يضاعف الخطر النووي . إنه قانون السلم الصاعد الدوار .

.escalator

تقديرات القوات التقليدية

عدد القوات المسلحة بالآلاف	الناتو	وارسو	الصين
سنة ١٩٧١	٥٥٨٥	٤٢٠٢	٢٨٨٠
سنة ١٩٨١	٤٩٩٤	٤٧٨٨	٤٧٥٠
عدد الطائرات الهجومية	٢٣٠٠	١٨٠٠	؟
عدد الطائرات الدفاعية والاعتراضية	٨٠٠	٢١٠٠	؟
عدد طائرات الجبهة	٦٠٠٠	٧٠٠٠	؟

تقديرات القدرات النووية

السلح	الناتو	وارسو	الصين
عدد الرؤوس النووية	٧٢٢٤	٦٦٦٤	١١٩ - ١٣٩
القاذفات المقاتلة متوسطة المدى	١٠٥٠	٢٣٤٥	؟
عدد القاذفات بعيدة المدى	٣٧٦	١٥٠	٩٠

الردع النووي

ثالثا ، الردع النووي هو أساس التوازن النووي ، والتوازن النووي هو وحده الرادع الحقيقي عن العدوان . أما متى وكيف يمكن لهذا التوازن المروع أن ينجح بحيث يعطى أحد الطرفين ميزة الانقضااض بلا خوف من ردع ، فذلك في حالة واحدة ، ليست هي زيادة فاعلية أو رصيد السلاح النووي ، فإن هذا قد وصل من قبل إلى درجة ما فوق التشبع من حيث قوة التدمير . وإنما حين يصل أحد الطرفين إلى سلاح دفاعي محقق ضد خطر الهجوم النووي ، هي تلك الحالة . فتفوق أحد الطرفين على الآخر في الدفاعات النووية يهز التوازن الدقيق ويخلق إغراءات الهجوم أو إمكانيات الصدام .

أى أن التفوق اليوم ليس لمن يملك الهجوم وحده ، وإنما هو لمن يملك الهجوم والدفاع معا ، والاعراض بالمهجوم لن يتحدد بمن يضمن هجوما أقوى بل بمن يضمن دفاعا أكمل . وتلك بالدقة كانت سيكولوجية وميكانيزم كثير من مراحل التطور السابقة بكل أخطارها ومخاطرها الفادحة .

غير أنه في وسط ذلك السياق التكنولوجي العرم المفعم وصل التصاعد إلى حد السقف والتوازن إلى حد التشبع . فبعد أن امتلك كلا الطرفين قدرة الضربة الأولى والثانية أصبح الموقف كله في المرحلة الأخيرة والوقت الراهن أشبه بمبارزات الغدارات في الماضي حين كانت الطلقتان تتزمانان بالصدفة فتردى الطرفين معا ، إلا أنه لا صدفة هنا اليوم وإنما هو حساب مكتوب وقدر محتوم .

وفي كلمة واحدة : إن التوازن النووي الراهن هو حكم إعدام مع إيقاف التنفيذ ، أما إذا نفذ فهو انتحار متبادل للجانبين . وإذا صحح في الماضي أن « الويل للمغلوب » ، فالصحيح الآن في العصر النووي أنه ويل للغالب كالمغلوب ، بل الأصح أنه لا غالب ومغلوب ولا قاتل وقتيل وإنما قتيل ومقتول . وبعبارة أخرى ، إنه ليس ثمة شيء كنصر في الحرب النووية الشاملة .

وفي هذا المعنى ، ومن موقع المسئولية كوزير للدفاع الأمريكى يوما ما ، صرح روبرت ماكنارا بلا لبس أو موارد قاتلا « لست أعتقد أننا سنحز النصر بما تعنيه هذه الكلمة حقا ، إذ ستحدث الحرب في تقديري دمارا مروعا للولايات المتحدة ولطريقة حياتها التي قد تتغير في اتجاه غير مرغوب فيه بناتا . وذلك ما لا يمكننى أن أسميه بالنصر . أما إذا لم نلتزم بما تعنيه كلمة نصر ، فاستطيع إذن أن أقول إننا سننتصر ، إذ أن الدمار

الذى سيصيبهم والتغير الذى سيطرأ على حياتهم سيكون أشنع نسبيا من خسائرتنا . ولعلنا هذا ما قد تسمونه بالنصر» .

وقد أكد الجنرال ماكسويل تيلور المعنى نفسه قائلا إن الحديث عن النصر فى حرب نووية حديث غير مفهوم أصلا ، ذلك أن الخسائر الفادحة التى ستصيب كلا الطرفين على حد سواء ستضع نهاية لوجودهما كقوتين عالميتين وتبوى بهما إلى مصاف الدول ذات الأهمية الثانوية أو ذات النفوذ الاقليمى المحدود^(١) .

السلام النووى

رابعا ، التوازن النووى هو أساس السلام العالمى . فالرعب النووى هو وحده أساس السلام العالمى الراهن ، والسلام العالمى بدوره هو حالة شلل نووى فى جوهره . فلقد أدى الوعى بخطر السلاح النووى الماحق إلى حتمية الحرص على عدم استخدامه على الاطلاق ، وبالتالي إلى شل فاعليته عمليا وإلغاء وجوده وظيفيا . والواقع المشاهد عبر مراحل العصر النووى المتعاقبة أن هناك تناسبا عكسيا بين تطور الأسلحة النووية وبين امكانية استخدامها ، بمعنى أنه كلما زادت قوة وخطورة هذه الأسلحة التدميرية كلما زادت استحالة استعمالها أو قلت امكانية استعمالها .

والآن بعد أن أصبح التوازن والتكافؤ النووى بين العملاقين أكثر حدة ودقة من حد السيف والفارق بينهما أوهى من خيط العنكبوت ، فإن الجمود النووى nuclear stalemate قد وصل إلى حد الشلل المطلق لا أقل . وبذلك أصبح السلاح النووى سلاحا سياسيا أساسا أكثر منه سلاحا عسكريا ، أصبحت قوته تكمن - يعنى - فى مجرد امتلاكه لا فى استخدامه .

غير أن مثل هذا السلام الذى ينبع من الرعب النووى ويقوم على لعبة التعايش السلمى والتنافس السلمى والمباراة السلمية ... الخ إنما هو « السلام المراوغ » بعينه . فواقع الأمر أن السلام النووى يتألف كالبركان النائم من فترات متقطعة ومتعاقبة من الخطر الخامد المكبوت ثم من الخطر المنذر المائل . والعالم بهذا يعيش على ، أو يتعايش مع ، بركان نووى نائم .

(١) مقتبسة فى : إسماعيل صبرى مقلد ، ص ٧٤ .

وها هنا ينشعب الرأي إلى نظريتين متعارضتين تماما . فالنظرية الأولى تذهب إلى أن الحرب النووية مستحيلة ، أصبحت مستحيلة ، على أساس أنه لا دفاع حقيقي مطلق أو رادع تماما ضد الصواريخ النووية مهما تطورت مضاداتها على الجانبين ، وأن الخطر النووى سيظل هو الخطر النووى ، وأن الردع النووى سيبقى أقرب دائما إلى التوازن النسبي منه إلى الانقلاب الجذرى لمصلحة أحد الطرفين . فالردع الشامل إذن مستحيل ، والممكن الوحيد هو الرد المرن . وعلى هذا فلا متنفس للصراع سوى الحروب المحدودة والتقليدية . والواقع ، حتى الآن على الأقل ، يقف في جانب هذه النظرية .

أما النظرية المضادة فلا تستبعد الحرب النووية الشاملة ، إن لم تكن كحل انتحارى أخير للصراع عندما يلوح شبح الهزيمة أمام أحد الخصمين أو يستبد به اليأس القاتل أو حتى الخوف من أن يفقد ماء الوجه ، فبطريق الخطأ فى الحسابات أو فى التصرف أو التنفيذ ... الخ ، وهو ما يعرف بالحرب بطريق الصدفة أو الخطأ accidental war . وعلى هذا فإن السلام النووى إن هو فى حقيقته إلا هدنة نووية ، هدنة مسلحة نووية ، مهما طال . وتجربة التاريخ حتى الآن هى أن « كل سلاح وجد ليستعمل » ، وليس السلاح النووى باستثناء بالضرورة . وإذا كان أحد لا يريد أن يقيم القيامة النووية ، فإن البعض ما زال يؤمن بمبدأ « علىّ وعلى أعدائى » ... الخ . ولا مجال بالطبع للحكم هنا على هذه النظرية المتشائمة أو النظرة السوداوية المهلكة ، وكل ما يمكن أن يقال إن أحدا لا يتمنى إلا أن تكون خاطئة اليوم وغدا وإلى الأبد .

القوة فى العصر النووى

الآن فلنّ اختلفت الآراء والتكهنات فى الحرب النووية وأشكالها واحتمالاتها ... الخ ، فإن ثمة شيئا واحدا مؤكدا . فلا خلاف على أن العصر النووى قد قلب كل قوانين الاستراتيجية التقليدية وهزها حتى الصميم ، ولكن السؤال هو إلى أى حد ؟ هل هو ألغائها تماما ونهايا أم نحأها جانبا ودفع بها من المقدمة إلى الخلفية ؟ لتعرض لضوابط ومقومات الاستراتيجية التقليدية من موقع وموضع لئلا نرى انعكاسات الصراع النووى عليها ، وأى مغزى جديد يمكن أن تأخذ . ولنبدأ ذلك بالموقع .

الموقع الجغرافى

من المحقق أن الموقع الجغرافى هو أشد ما اهتز وارتج بالاستراتيجية النووية . وطالما

استشعار ذرية ، وخطوط محطات الصواريخ المتتابعة خطا بعد خط على امتداد تلك الجهات من الجانبين . والمغزى العام هو أن مركز الثقل الاستراتيجي انتقل إلى حد أو آخر من المحيط الأطلسي إلى المحيط المتجمد الشمالي .

ولكن الموقف لاشك قد تغير بدرجة أو بأخرى منذ الصواريخ الذرية وتطورها المتصل . فبالترديد اتسع مدى الصواريخ التي اخترقت سرعتها حاجز الصوت حتى بات من المفهوم اليوم أن ليس على سطح الكرة الأرضية مكان لا تصله الصواريخ عابرة القارات من أى من الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة . وبعد أن عدت بعض هوامش العالم النائية مثل أفريقيا الجنوبية أو أفريقيا جنوب الصحراء وأستراليا من المعازل الأخيرة ذات المناعة ضد الصواريخ^(١) ، زالت هذه الميزة وأصبح القرب والبعد الجغرافي سيان . وفي نفس الوقت فقدت القواعد العسكرية الغربية المطوقة للاتحاد السوفيتي أغلب قيمتها إن لم يكن كلها ، ونسخ الاتحاد بصواريخه الحلقة النارية المضروبة حوله ، وانكشفت أهميتها لتصبح مجرد قواعد لقمع وكبت الحركات الوطنية في بلادها .

والمعنى واضح للغاية : فإذا كان عصر الطيران التقليدي قد اختزل المسافة وضمّر العالم وجعله نظاما مغلقا واحدا إلى درجة أن أصبحت الكرة الأرضية كلها أصغر « مساحة زمنية » من ولايات أمريكا الثلاث عشرة^(٢) ، فإن الصواريخ قد ألغت للمسافة تماما وتضاغطت الكرة الأرضية من الوجهة العملية إلى مجرد « نقطة » تقاس كل أبعادها بالدقائق ليس إلا .

أبعد من هذا ، وبعد أن أصبحت الغواصات الذرية قواعد صاروخية برمائية أو تحت مائية رحالة أو بمثابة يابس متحرك أنى شاء أو « قارات » ميكروسكوبية طافية تجوب المحيط العالمي ، نكاد نقول إن الفارق بين الماء واليابس - من الوجهة الاستراتيجية بطبيعة الحال - قد عمّ ونحايد حتى درجة التلاشي تقريبا . كذلك فكما توطنت الغواصات النووية إلى الأبد في الغلاف المائي ، توطنت الأقمار الصناعية إلى ما لانهاية في الغلاف الجوي . فكلاهما إذن أصبح سلاحا يقع خارج حدود المكان والزمان الأرضي سياسيا وعسكريا ، أى خارج حدود الرقعة الإقليمية للدولة . ومعنى ذلك

(١) Liddell Hart, "Africa or Middle East?", World Review, July 1946; Church, op. cit., p. 143-5.

(٢) مورجنتاو .

جميعا أنه لم يكده هناك موقع متوسط وموقع متطرف ، ونوشك مجازيا أن نضيف : ولم يعد هناك يابس وماء .

استراتيجية لامكانية

ومحصلة هذا وذلك أننا اليوم بإزاء استراتيجية ثورية جديدة تنقل الصراع من البر والبحر إلى الجو ، من الاستراتيجية الأرضية geostrategy إلى الاستراتيجية الغازية atmosstrategy ، بل إلى الاستراتيجية الفضائية space strategy . وبالتالي تنقله من المرحلة الكوكبية global . إلى المرحلة الكوكبية Planetary لقد وصلنا إلى استراتيجية « لامكانية » معلقة في فراغ ، وحروب بلا « تراب » تمور عليه وتفور ، تماما مثلما وصلت الزراعة العلمية الحديثة ، أو أوشتك ، إلى زراعة هوائية بلا تربة .

وبديهى أن هذا كله يتخطى المواقع الجغرافية التقليدية ويتجاهل خطوط التضاريس والاندسكيب ويسقط عامل المسافة من الحساب . باختصار ، إن الاستراتيجية الذرية تبتعد كثيرا عن الجغرافيا وتقرب من الفلك ، وبذلك تتحرك في متصل فضا - زمنى time-space continuum بعد أن كان الوسط التقليدى هو المنقطع البرمائى . إنها كالنسبية فى الفيزياء تنقل الأهمية الاستراتيجية من المكان إلى الزمان أو على أقل تقدير تجعل من الزمان البعد الرابع للمكان الاستراتيجى .

ماذا يبقى إذن من فكرة الموقع الجغرافى ؟ القليل قطعاً وفى حدود معلومة . فالدول غير الذرية - وقد تضاعل وزنها كثيرا فى عالم القوة - هى وخدها التى سيكون عليها أن تفكر فى صيغة الاستراتيجية التقليدية القديمة . كما أن الحروب المحلية والصغيرة التى قد تمارسها الدول الاستعمارية ستظل تدور فى فلكها .

ولعل هذا وحده هو الذى يفسر تمسك الغرب بسياسة الأحلاف الدفاعية وسلسلة القواعد العسكرية التطويقية ، كما يفسر ، حتى قريب ، استماتة استعمار كالبريطانى ببقايا قواعد البحرية « شرق السويس » رغم أنها أصبحت بالية تماما فى عصر الذرة . ولكن هذا وذلك من الاعتبارات سيكون عنصرا متنجيا مرحليا باطراد حتى قد يصل يوما ما إلى نقطة الانقراض .

غير أنه يبقى للموقع الاستراتيجى بعد هذا قيمته على المستوى السلمى خارج الحروب ، أى فى المواصلات العادية اليومية والتجارة العالمية ، ولهذا فنحن حين

نتحدث عن نسخ العصر النووي للموقع الجغرافي فينبغي أن يكون مفهوما أننا نقصر هذا بوضوح على جانب الحرب والمعركة العسكرية - وهو الشذوذ ، بينما تظل فكرة الموقع سليمة لانهتمت في مجال السلم والتجارة والمواصلات العادية - وهو القاعدة .

الموضع

إذا كان هذا نصيب الموقع ، فماذا فعلت الثورة النووية بالموضع بما يعنى من حجم ومساحة وقوة بشرية ؟ لقد رأينا عبر التاريخ الحديث أن الأهمية انتقلت مع الصناعة من الموقع البارز الممتاز إلى الموضع الغني الضخم ، ولكن السلاح النووي يجيء اليوم بدوره لينسخ الكثير من قيمة الموضع وليجعل « العلم » هو وريثه الجديد . كيف ؟
بديهى أن نحو مساحة محدودة كبريطانيا بالحروب النووية أسر من مسح كتلة ضخمة كالصين مثلا^(١) . ولا يعنى هذا أن الدول المترامية الرقعة ستظل تتمتع بالدفاع بالعمق ، فقد ضاعت ميزة العمق الاستراتيجى ربما إلى الأبد ، ولكنه يعنى الحاجة إلى رصيد أكبر من القوة الذرية لتدميرها .

القوة البشرية

ومثل هذا يقال عن القوة البشرية . فالحرب النووية حرب إبادة رهية تحصد الملايين بنفس السهولة التى تحصد بها الحرب التقليدية الآلاف . وفى وقت مبكر مثل أواخر الستينات ، كان المقدر رسميا أن حربا نووية شاملة بين العملاقين النوويين قد يمكن أن تلتهم نحو من مائة مليون (كذا !) من كلا الجانبين فى الضربات الأولى وحدها . وفى النتيجة ، فإنه لم يعد للجيش البرية أو الميكانيكية الضخمة قيمة فعالة أو كبير خطر فى الاستراتيجية الجديدة ، إذ يمكن أن تسحق فى مكانها قبل أن تتحرك ، وإن تحركت قبل أن تسحق فهى ليست بمستطاعة أن تدخل ميدانا تلوث بالاشعاع الذرى القاتل ، ولو أنه لا بد فى النهاية بعد أن يتبدد الاشعاع من أن تتقدم القوات الأرضية لتضع يدها على الأرض الخراب كما فعلت أمريكا فى اليابان بعد قنبلة هيروشيما .
وترتيا على ذلك ، فإن البعض يتكهن بأن الدول الماموث سكانيا كالصين هى وحدها التى قد يمكن أن تأمل فى أن يتبقى لها بعد الحرب النووية بقية معقولة من

(١) المرجع السابق

السكان .. ومع ذلك فلا ننسى أن بالعالم رصيذا من السلاح النووي يكفى كما يقال لمحور العالم جميعا عدة مرات ! أى أن مساحة الدولة وحجم السكان مها كانت فلن تجدى فى النهاية .

ومعنى ذلك أن آلة الحرب الجديدة وعدتها لم تعد الجيوش المحيثة بحافلهما الحرارة الضخمة وترساناتها الثقيلة الهائلة ، وإنما هى جهاز صغير مكشف أشبه بالأزرار السحرية القتالة ، يحرك العالم دون أن يتحرك من موضعه وينقل الجيوش دون أن ينتقل مكانيا . وإنما لمفارقة من التكنولوجيا مذهلة أن تصبح العمليات الحربية موضعيه إلى أدنى حد حين أصبحت الاستراتيجية كوكبية إلى أقصى حد .. وإنما لمفارقة أكبر أن قد وصلت تكنولوجيا الحرب إلى مرحلة يمكن ألا تتلاقى فيها الجيوش وجها لوجه ومع ذلك تبيد المدنيين بالجملة بعد أن كان من الممكن للجيوش قديما أن تتلاقى وتتقاتل دون أن يتأثر بها المدنيين تقريبا !

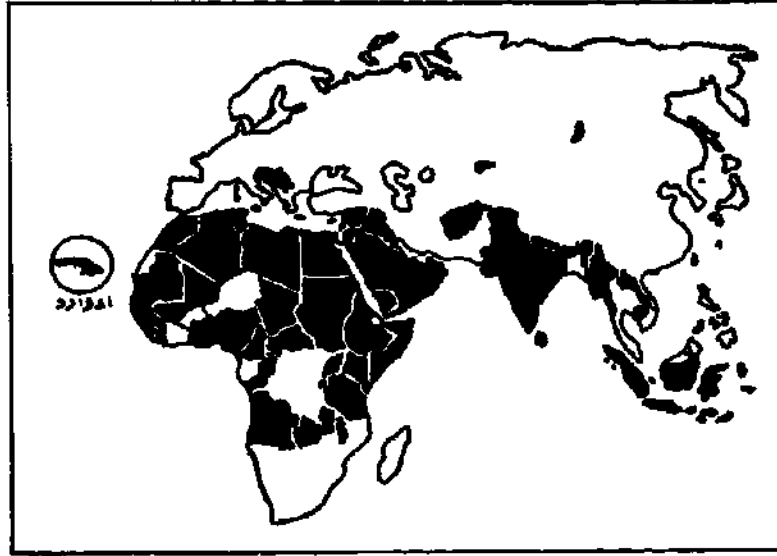
الموارد الطبيعية

أما من حيث الموارد والطاقات ، فلقد أصابها العصر النووى هى الأخرى . فإن دولة صغيرة تملك القوة الذرية تعد اليوم أقوى من دولة ضخمة غنية لا تملكها . ومع ذلك ينبغى أن نستدرك فنقول إن الموارد الغنية شرط لازم لدخول العصر الذرى وتحقيق القدرة النووية ، ومن الملاحظ أن أغنى دولتين فى العالم هما أقدر دولتين ذريا ، كما أن أعضاء النادي الذرى حاليا هم من أغنى دول العالم بوجه عام . وهذا ما ينقلنا إلى الدرس الهام الذى تعلمه هذه التطورات الثورية .

فناط القوة الحديثة اليوم لم يعد يكمن فى الامتداد المساحى أو القوة العددية أو الموارد الاقتصادية الخام ، ولكن فى تحويل هذه العوامل جميعا إلى قوة العلم الحديث وأعنى بها تكنولوجيا الذرة والنواة . إن أركان الاستراتيجية الحديثة ومقوماتها لم تعد بعد الجغرافيا وحدها أو الاقتصاد من بعدها ، وإنما هى التكنولوجيا فى أعلى مراحلها . وبعبارة أخرى ، لقد انتقلنا من الاستراتيجية الجغرافية المألوفة أو الجيوستراتيجى إلى ما يمكن أن نسميه بالاستراتيجية التكنولوجية أو التكنوستراتيجى technostrategy .

فالعلم - والعلم القمى المطلق - هو الشكل الجديد للقوة . ومن يملك العلم النووى - أكثر من الأرض والسكان والموارد - يملك القوة الاستراتيجية ، وإن كانت الأرض والسكان والموارد هى بيقين من مقومات أو خامات ذلك العلم النووى الفيصل . فإذا

ماملكت دولتان قوة العلم النووية المتكافئة ، فقد يمكن حينئذ للفروق الطبيعية في المساحة والسكان والموارد أن ترجح الميزان في هذه الكفة أو تلك .



شكل (٣١) مجموعة دول عدم الانحياز ، ١٩٦٥ ، ٤٦ دولة اشتركت في مؤتمر القاهرة ١٩٦٤ ، عدا ١١ دولة مراقبة . كل المشتركين العاملين دول نامية أفرو آسيوية عدا يوغوسلافيا وكوريا

ماكيندر والعصر النووي

وعند هذا الحد من المناقشة ، لا بد أن يثور أو قد ثار في الذهن سؤال : أين ماكيندر ونظرية الهارتلاند من كل هذا الانقلاب النووي الرهيب؟ أمن الممكن أن نركب الاستراتيجية الجديدة في معادلته الثلاثية الخالدة قوة البر وقوة البحر ومنطقة الارتطام ؟ هل يجوز بعد اليوم أن نتنبأ مع ميهان وسييكان بأن النصر في الصراع سيكون للقوى البحرية والسواحل ، أو مع راتزل وماكيندر بأنه سيكون للقوى البرية والقارية ؟ لا ، بل هل هناك اليوم قوى بر وبحر على الاطلاق تتباين تباين الأبيض والأسود ؟ من الصعب حقا أن نتفادى الانتهاء إلى أن الاستراتيجية النووية قد نسخت جوهر النظرية وقوضت أركانها . فقد « استقلت » الحرب أخيرا وفي النهاية عن سطح الأرض إلى حد بعيد ، « وارتقت » المعركة من مستوى الأرض لتحلق في الفضاء ، ولم يعد

الصراع بين الحوت والفيل بينهما تمساح ، وإنما - لنقابل التشبيه بتشبيه ممانل - أصبح هو صراعا بين « النسر والصقر » ، بين جوارح مجنحة ليس بينها وسيط أو ضحية إلا أن يكون « حمامة » سلام .

فما دام لم يعد هناك يابس أو ماء نوويا ، فإنه لم يعد هناك قوة بر ولا بحر أو ارتطام . ثمة فقط قوة نووية أو تقليدية . لا ولم يعد المارتلانند بالضرورة « أقوى قلعة دفاعية طبيعية » على الأرض ، فهو إذا كان لا يزال غير مفتوح من خلف أو قدام فقد أصبح مفتوحا من فوق . ومثله صارت الولايات المتحدة : لا عزلة ولا ابتعاد بعد أن استدار الخطر فترك طريقه عبر البحر ليأتي من السماء^(١) . كذلك فلم يعد هناك محل للتكهن : لمن ستكون الغلبة والفوز في الصراع ، قوى البر أم قوى البحر ؟ أولا لأن هذه التفرقة لم تعد سؤالا واردا بعد أن أصبح الجميع قوى فضاء ، ثانيا لأنه لن تكون هناك غلبة وتفوق بل اندحار متبادل إن لم يكن انتحارا للطرفين . وهكذا وهكذا .

وربما كان من الممكن لنظرية ماكيندر أن تتعايش - جزئيا فحسب - مع استراتيجية الطيران وقوة الجو ، ولكن مقدم الاستراتيجية الصاروخية وقوة الفضاء space power لم يترك لها شيئا . إن الصواريخ بكل أشكالها وأنواعها ومهما اختلفت قواعد إطلاقها ، حرب جوية أساسا ، وهي بهذا امتداد بشكل آخر ، امتداد قى إلى أبعد حد ، للطائرات . فإذا كانت الطائرة قد سلبت النظرية الجزء الأكبر من محتواها ومغزاها ، فإن الصواريخ تنسخها كلية بلا جدال .

عود على بدء

وهي بذلك تتحول من الجغرافيا السياسية الحية لتستقر - مكرمة - في متحف الجغرافيا التاريخية . ونقول مكرمة ، لأن هذا التحول لا يقلل من قيمتها الأكاديمية ، فحسبها أنها تفسر بدقة مثيرة أغلب كليات وجزئيات التاريخ ، ابتداء من القرن العشرين قبل الميلاد حتى القرن العشرين بعد الميلاد . وفوق هذا فإن العالم إذا اتفق على نزع السلاح النووي ومنع الحرب النووية ، فإنه يعود ببساطة وآليا إلى استراتيجية ماكيندر ما في ذلك شك ، ويعود للموقع الجغرافي وزنه الأثير ودوره المأثور .

بل وبغير اتفاق أو منع ، وفعلا لا بالقوة ، وحالا لا مستقبلا ! ذلك أن العصر

(١) بوين ، ص ٥ .

النوى كما رأينا قد حمل معه جرثومة شلله ، فلقد حيد ميزان الرعب النووي بطريقة ديالكتيكية ولكنها منطقية جدا كل فاعليته ، ووضع الترسانة النووية العالمية برمتها « في القتالين » أو « في التجميد العميق » كما قيل ، حتى تحولت إلى مجرد « بركان خامد » نائم أو خامل . من ثم عادت الاستراتيجية الكلاسيكية ، بعناصرها التقليدية القديمة من مواقع جغرافية وقواعد عسكرية وممرات مائية .. الخ ، عادت تحتل الصدارة الفعلية من جديد وكأمر واقع .

كذلك فإذا كان الردع النووي الشامل قد نحى جانبا ليحل الرد المرن والحرب المحدودة محله في الواقع العملي ، فليس لهذا من معنى سوى أننا قد عدنا فعلا وفي صميم العصر النووي إلى منطلق ماكيندر وعصر قوة البر والبحر . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الاستراتيجية المنحبة القديمة لم تزال تتعايش وتتعاصر مع الاستراتيجية الجديدة السائدة . ونحن على أقل تقدير نعيش حاليا ورغم كل شيء في ظل استراتيجية مختلطة تجمع بين رواجع الماضي وطلائع المستقبل بدرجة أو بأخرى ، بين قطاع تقليدى وقطاع نووى ، أى ما بين ماكيندر وما بعد ماكيندر .

وكمجرد نقطة في الموضوع أو حالة في القضية ، خذ ما رأيناه من تطور الاتحاد السوفيتى استراتيجيا في العقود الأخيرة . فإن تتجه هذه القوة القارية الداخلية الحبيسة تقليديا إلى الأساطيل البحرية ومشاة الأسطول وفرسان الجو والاستراتيجية الأمفيبية والخروج إلى البحار وما وراء البحار ... الخ ، لا يحقق نبوءة ماكيندر عن تحوله إلى قوة برمائية أكثر من أى وقت مضى فحسب ، ولكنه أيضا يتفق تماما مع ما وجدناه من أن العودة إلى الحرب المحلية المحدودة في ظل الشلل النووي تعود بالاستراتيجية العالمية بصورة ما إلى نمط ومنطق ماكيندر القديم المنحى أساسا .

وأخيرا ، وتأسيسا على ما سبق ، فإن الاقتراح الذى نود أن نطرحه إضافة وختاماً للمناقشة هو أن هناك من الأدلة ما يشير ، في هذه المرحلة الراهنة التى تتعايش وتتعاصر فيها الاستراتيجية التقليدية جنبا الى جنب مع الاستراتيجية النووية ، إلى أن أبعاد نظرية ماكيندر لم تتسخ بعد كلية ، ولكنها بدأت تأخذ شكلا ومغزى جديدا . إن جغرافيا مثل بوين بحث أخيرا عن نمط سياسى واضح للعالم ككل يحل محل نمط ماكيندر بعد أن تحررت المستعمرات ، ولكنه يعلن أنه عبثا لم يجد أى نمط ، فليس ثمة إلا حزمة من الدول المستقلة تغطى وجه القارات ولا تعطى نمطا إلا مجرد نمط وجودها هى كرقع

الشرننج ، ومن العبث أن ندخل عليها نظرية شاملة في توزيع القوة السياسية حاليا كتلك التي قدمها ماكيندر منذ نحو نصف قرن .

ولكن أحقا ليس هناك نمط عالمي للجغرافيا السياسية المعاصرة ؟ في تقديرنا أنه ثمة نمط ، ونمط مستمد من تصور ماكيندر ، إلا أنه يتحول حينئذ من مفهوم جغرافي إلى مفهوم حضاري ، من فكرة عسكرية إلى فكرة مذهبية . كذلك فإذا كان بوين ينتهي إلى أن عصر الجو والفضاء قد « جعل من نمط ماكيندر العالمي هراء ، ولكن قط هراء من إدراكه أن القوة في المستقبل تكن مع الإمبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها »^(١) ، فإننا نحسب أن كل الحقائق تجعل الصحيح هو العكس تماما : تفوق الإمبراطوريات القارية لم يعد قائما بالضرورة أما النمط العالمي فهو الذي مازال قائما ! أما كيف ، فهذا أدخل في باب الاستراتيجية السياسية منه في دائرة السياسة الاستراتيجية ، وهو ما نتقدم الآن إلى دراسته في تتبعنا لرحلة العالم الحافلة من الحرب الباردة إلى الوافق .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣ ، ٥ .

الفصل الثالث عشر

من الحرب الباردة إلى الوفاق

من بين ثورة التحرير والانقلاب النووي ، وكرد فعل ومواجهة لها ، أى بالترتيب كرد على الاستعمار والاستقطاب الثنائي ، انبثقت في الخمسينات أول أحدث ظاهرة سياسية معاصرة وهى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز . ومن بين الاستقطاب الثنائي وعدم الانحياز بدورها ، أى بالترتيب كرد على هيمنة القوتين الأعظم وضياح المستعمرات السابقة وتصفية الإمبراطورية ، جاءت حركة الوحدة الأوربية ثم الانشقاق الصيني في الستينات كتعبير عن تفتت الكتل نوعا والتحرر النسبي من سيطرة القوتين الأعظم . وأخيرا ، فن بين عدم الانحياز وتفتت الكتل ، وردا على تحديها معا في آن واحد . جاء الانفراج أو الوفاق بين القوتين الأعظم في السبعينات .

عدم الانحياز ، الوحدة الأوربية ، الوفاق - إلى هذا إذن جاء تطور الاستراتيجية السياسية المعاصرة في خطوطها العريضة ومحاورها الأساسية كثنائية تكاد تناظر ثلاثية العالم الأول والثاني والثالث نفسها وربما ترمز إليها . وهى مثلها تمثل قوى متضادة وأقطابا متنافرة ومحاور متعامدة بدرجات متفاوتات . وتلك إذن سلسلة متداعية عضوية ووظيفية من الأفعال وردود الأفعال المضادة ، تؤكد أن لكل فعل فى السياسة - كما فى الطبيعة - رد فعل مماثل له فى القوة ومضاد فى الاتجاه .

وبالفعل ، فعلى هذه المحاور الثلاثة الحاكمة تدور معظم الأحداث السياسية الجارية فى العقود الثلاثة الأخيرة حتى لتكاد تكون كالأضلاع التى تغلق مثلث السياسة العالمية اليوم وتحوى داخله كل صراعاتها وتفاعلاتها وجزئياتها . فكيف بالتحديد ؟

الخمسينات عقد الحرب الباردة ، الستينات عقد التعايش السلمى ، والسبعينات عقد الوفاق - تلك إلى حد بعيد أو بالتقريب هى الخطوط العريضة والأرضية العميقة

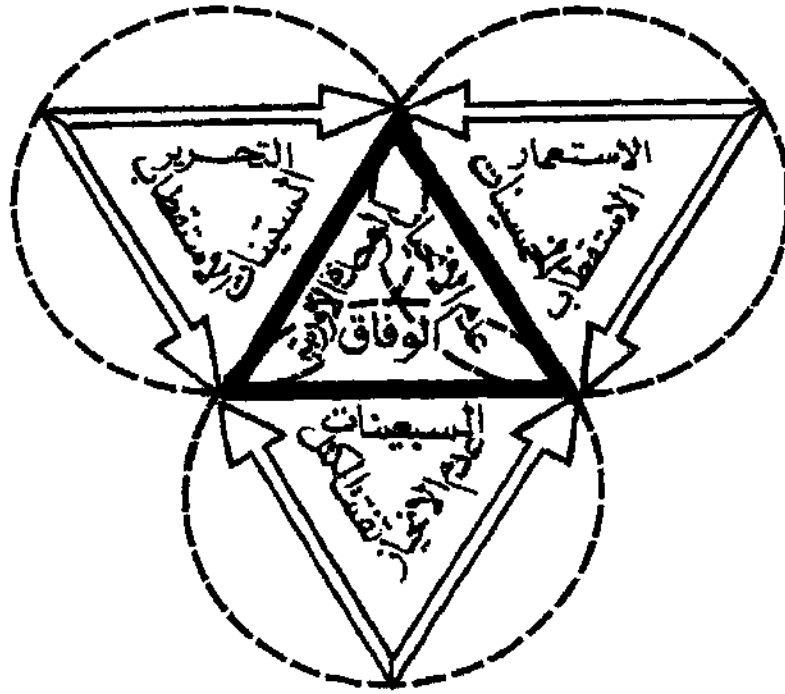
لفترة ما بعد الحرب الثانية وحتى اليوم ، وإلى هذا بالفعل أتى تطور مورفولوجية السياسة العالمية في العصر النووي في مجمله وتفصيله . وقد لا تكون خطوط التقسيم بين المراحل أو العقود الثلاثة حادة وصارمة ، ولكنها بصفة عامة أو نسبية مقنعة بما فيه الكفاية .

وبديهي بعد هذا ، دعنا نكرر أو لا داعي لأن نكرر ، أن هذه الثلاثية العقدية التطورية تتواكب مع ، وتكاد تتركب في ، ثلاثية المحاور السياسية الأساسية التي دارت حولها الاستراتيجية العالمية خلال المرحلة وهي ثلاثية عدم الانحياز فتفتت الكتل فالوفاق . بل إن هذا الترابط ليأتي كعلاقة سبب ونتيجة مباشرة . فالخمسينات عقد الحرب الباردة مثلما هي ، ولأنها هي ، عقد بداية الاستقطاب الثنائي الحاد والصراع بين رواجع الاستعمار وطوالع التحرير . والستينات هي عقد التعايش السلمى حيث ظهر عدم الانحياز من جهة وتفتت الكتل من جهة أخرى . وأخيرا فإن السبعينات ليست عقد الوفاق إلا لأنها الرد المباشر على تحديات التعايش السلمى بنفس عناصرها تلك من تفتت كتل وعدم انحياز .

وبهذا الشكل فلن كانت هذه المتتالية المركبة بشقيها أو جانبيها تمثل سلسلة من الحلقات المتباينة ، فإنها تظل أساسا حلقات مترابطة ، لأنها جميعا تجمع بين مجموعة من الثوابت والمتغيرات في آن واحد . بمعنى أن كل حلقة منها تشترك في عناصر وخصائص معينة مع سابقتها وإن أضافت إليها أخرى جديدة ، بحيث تؤدي كل منها إلى تاليها بصفة تلقائية و/أو انتقالية .

ولهذا السبب نفسه نستطيع أن نلخص فترة ما بعد الحرب الثانية إلى الآن في مرحلتين متتابعتين : الأولى من الحرب الباردة إلى التعايش السلمى ، والثانية من التعايش السلمى إلى الوفاق . وفيها يمكن فعلا أن نركب كل الأحداث السياسية الجارية والتطورات السارية والمشاكل الزمنية بكل جزئياتها وتفصيلها . وعلى هذا الأساس بالفعل سندير مناقشتنا في هذا الفصل . والجدول الآتى يلخص بصورة اختزالية أهم ملامح وخصائص مراحل الفترة عقدا عقدا من حيث كلا جانبيها الاستراتيجى والسياسى مع الجانب العسكرى المباشر أيضا .

الاستراتيجية السياسية		الاستراتيجية		الاستراتيجية النووية		المرحلة
النقطة المرجحة	النقط الأساسي	المسكوكية	ميراثية البنود	الميزان الصافي		
حافة الحرب	الحرب الباردة	الاحواء	للقنبلة الذرية والفضية الأولى والأخيرة	احتكار أمريكي مطلق	الأربعينات	
حرب كوريا ، السويس	الحرب الباردة	الردع التامل	في القنبلة والصواريخ والفضات والفضية الأولى	تفوق أمريكي حقق	الخمسينات	
كوبا ، يونيو	التعايش السلمي	الرد اللين	في الرؤوس والصواريخ والمضادة والضميرين	تبادل نسبي	الستينات	
فيتنام ، أكتوبر	الوقف	الوقف	في الكل عدا القاذفات والنوصات	تفوق سوفيتي نسبي	السبعينات	



شكل (٣٢)

الخمسينات : عقد الحرب الباردة

من أتون الحرب الثانية مباشرة ، ولا نقول من رحمتها ، خرجت الحرب الباردة لتشكّل مناخ الخمسينات وتسيطر على جو المرحلة . ولذا فإنها تحمل بصمتها بكل غلظة وثقل وسفور . إذ أن أخص خصائص هذه المرحلة ليس مجرد ظهور أو ابتداء الاستقطاب الثنائي وإنما استحكامه واحتداده إلى حد الاستقطاب المطلق المحكم . ذلك أن الفرقاء قد خرجوا من الحرب وكل منهم يمثل حجرا واحدا شديدا التماسك والتجانس ومن ثم الضخامة من جهة ، والتنافر والتضاد الإيديولوجي من الجهة الأخرى في مرحلة تعد بحق عصر الإيديولوجيا وعقد العقائديات والعصر الذهبي للمذهبية .

أو في كلمتين على الترتيب ، كان الموقف يتلخص في ضخامة الكتل كما ، والروح الصليبية كيفاً . وفي النتيجة ، لم يكن بأى من المعسكرين سوى الحد الأدنى من التحديات أو الخلافات الداخلية أى عمليا لا تحديات ثانوية لأى من العملاقين داخل البيت ، بينما على العكس كان التحدى الأكبر أو الأوحده هو المعسكر المضاد ولا سواه .

لذا كانت المرحلة عصبية بقدر ما كانت عصبية ، متهورة بقدر ما كانت هيستيرية ،

ومن ثم مفعمة باحتمالات التصادم بلا مصالحة ، وأقرب إلى الصرع منها إلى الصراع أو تكاد . ولما كانت الاستراتيجية السائدة في المرحلة هي استراتيجية الردع الشامل ، فقد كان الرهان النووي رهيب يعنى الحياة أو الموت لا أقل . ولعل أبرز إشارة ومؤشر إلى هذا الخطر كانت الحرب الكورية التي كادت كما رأينا تشعل نار الحرب العالمية الثالثة .

الولاءات الكتلية

فأولا ، كان الولاء والتماسك الكتلي شبه تام أو مطلق ، بمعنى أن كلا المعسكرين كانت صفوفه تقف خلف قيادته في اتباعية أو تبعية كاملة بلا تدمير أو تمرد (أو إمكانية أو قدرة عليها على أية حال) ، إن لم نقل إن الصفوف الخلفية كانت أميل إلى الزيادة في العداء والتحريض على الاستقطاب من القيادة . وإن كانت هذه تلتقائيا أبعد شيء عن المناقصة على أحسن الفروض . باختصار ، كان كلا المعسكرين يقف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، أو كالحجر الواحد الهائل monolith يريد أن ينقض على نقيضه ، هذا يمتد شرقا من وسط أوروبا حتى الهادي بلا انقطاع ، وهذا يمتد غربا من وسط أوروبا عبر الأطلسي إلى أمريكا الشمالية حتى الهادي أيضا .

والحقيقة أن كلا المعسكرين كان يقع عمليا تحت الوصاية الكاملة لقيادته ، يعيش في كنفها اقتصاديا وعلى معونته ماديا وتحت مظلة النووية عسكريا وأمنيا ، هذا فضلا بالطبع عن الانتماءات القومية والأصول العرقية في الحالين . فكما أن أوروبا الغربية هي أم الولايات المتحدة بيولوجيا وتاريخيا وحضاريا وثقافيا ، فإن روسيا هي الأخت الكبرى لشرق أوروبا السلافي وحاميته التقليدية تاريخيا ... الخ . وهكذا من كل ناحية كانت كلتا الكتلتين تكمن تحت جناح زعامتها في استكانة وتدور في فلكها في هدوء .

أوروبا الغربية

فأما أوروبا الغربية فقد خرجت من الحرب حطاما وأنقاضا وركاما بالمعنى الحرفي ، وجسمها المحرب مستترف تماما يعانى من فقر الدم الحاد . ولولا المساعدة الهائلة المكثفة التي حققتها بها الولايات المتحدة في شكل مشروع مارشال الشهير لما قامت على قدميها ثانية إلى أمد بعيد . كذلك فإلى جانب هذا الفقر والتآكل الداخلي ، أضف فقد الموارد الخارجية وانقطاعها . فلقد خرجت أوروبا الغربية من الحرب وقد جردت أيضا من إمبراطوريتها أو أوشتكت ، خاسرة بذلك كل مواردها ومكاسبها الهائلة .

ذلك أن ثورة التحرير كانت قد بدأت وبلغت مرحلة متقدمة للغاية ، وكادت عملية تصفية الاستعمار القديم أن تكتمل ، مثلما اكتملت الإدالة النهائية من الاستعمار القديم إلى الجديد أو من بريطانيا وفرنسا إلى الولايات المتحدة التي ورثت دورهما ولا نقول إمبراطوريتها ووضعت قدمها في حداثتها . وقد انعكست كل هذه الانقلابات والتبعية بصورة حادة ودرامية في ملحمة العدوان الثلاثي على مصر حين أدركت بريطانيا وفرنسا مدى خضوعها الحقيقي لأمريكا . وعلى الجملة ، وفي النتيجة ، ففي هذه المرحلة من الخطر والعجز العسكري البالغ أمام القوة السوفيتية الفاتكة ، كانت أوروبا الغربية أشد عدا للشيوعية واستعداد عليها وأطلب بالتالي للحماية الأمريكية من رغبة الولايات المتحدة نفسها ربما .

أوروبا الشرقية

أما عن شرق أوروبا فيكفي أنها كانت تدين بتحريرها من نير الاحتلال النازي لجيوش الاتحاد لكي يشدد هذا قبضته عليها إلى حد التسلط التام والكبت المطلق . والواقع أن اتفاقيات انتهاء الحرب من بوتسدام إلى يالطا إنما كانت عملية تقسيم ثنائي لأوروبا إلى منطقتي نفوذ : أوروبا الغربية للولايات ، والشرقية للاتحاد . وكلتاها ، بعد ، منطقة نفوذ مغلقة غير مسموح للطرف الآخر بالتدخل فيها ، كأنما هما بغير الاسم « نصفا مبدأ مونرو » متقابلان ولكن مد هذا إلى أوروبا ، أو كأنما قد مددت الولايات مبدأها الشهير عبر الأطلسي ليضم غرب أوروبا ، بينما استحدثت الاتحاد لنفسه - كأمر واقع - مبدأ مناظرا يطوى شرق أوروبا .

غير أن الاتحاد ، بحكم الموقع الجغرافي الملاصق وفارق الحجم والقوة الرهيب إلى جانب العوامل الإثنية التاريخية وأخيرا الإيديولوجية الجديدة ، جاءت قبضته على منطقة نفوذه أشد من قبضة الولايات على منطقتها خارج كل حدود أو مقارنة بالطبع . فلا وجه هنا لأي شيء كندية أو تحالف لبق كما في المعسكر الغربي ولا مفر من قدر من التبعية الفظة أو الغليظة بصورة أو بأخرى . ولهذا فإن شرق أوروبا بالنسبة للاتحاد حاليا يكاد يكون كأمريكا اللاتينية بالنسبة للولايات تقليديا ، حديقة خاصة أو فناء خصوصا ، إلا أن يكون هذا أو ذلك أماميا أو خلفيا بحكم الموقع الجغرافي فقط أو المحور العرضي هنا والطولي هناك .

وكما أعطت الولايات نفسها حق العصا الغليظة في اللاتينية ، فرض الاتحاد لنفسه

مثله في شرق أوروبا كما تشير عملية سحق تمرد المجر بالحديد والنار في منتصف المرحلة . أما سابقة يوجوسلافيا فليس لها أن تتكرر وإنما هي فقط الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، ولا مكان « للتيتوية » بين الرفاق . (١) والواقع أن البعض وصف الكتلة الشرقية في ضوء هذه التبعية و/أو التسلط بأنها « الكومونولث الاشتراكي » ، (٢) بينما عبرت الكتلة نفسها عن تلك العلاقة فيما بعد - مبدأ برجنيف مؤخرا - بمبدأ « السيادة المحدودة المتبادلة للدول الاشتراكية » .

على الجانب الآسيوي

تلك جميعا صورة العلاقات الداخلية الكتلية على الجانب الأوربي ، غير أن هناك أيضا الجانب الآسيوي على ضلوع الكتلة الشرقية . فعدا معظم جنوب شرق آسيا في الهند الصينية إلى جانب قطاعات أخرى في شرق آسيا حتى كوريا الشمالية ، كانت الصين الشعبية بكل جرمها وثقلها إضافة هائلة إلى الكتلة . فبعد ثورتها التاريخية كانت الصين بالضرورة في أحضان الاتحاد مثلما كانت أوروبا الغربية تحت أحضان الولايات . ورغم أن الصين ، في وهج الإيديولوجيا والحاس العقائدي المفرط ، كانت أميل إلى الزيادة على الاتحاد السوفيتي ، تدعو إلى صيغة منتهى الشيوعية وتطالب بفرض الثورة العالمية فورا ويسحق الرأسمالية حسب تعاليم الماركسية - اللينينية ، فقد كانت المرحلة هي شهر العسل السياسي بينها بخاصة ، وسادها وفاق الرفاق بعامه .

من الحرب الباردة إلى التعايش

تلك في عمومياتها وجزئياتها هي خريطة الخمسينات . والصورة بهذا لا تخرج في جوهرها عن أن الحرب الباردة هي مجرد هدنة مسلحة بعد الحرب الثانية أو الساخنة ، هي نوع مبكر من حالة اللا حرب واللا سلم ، الذي يهدد بالتناطح بالرؤوس والضرب في الرؤوس وذلك أيضا بالرؤوس النووية أ - ومن ثم ينطوي على نذر الكارثة التي لا تقل عن القيامة النووية . وفي ظل هذا الخطر الماحق كان لابد للجميع عند نقطة معينة من ضبط النفس والمراجعة والتراجع قليلا أو كثيرا . وقد كانت أزمة الصواريخ السوفيتية

Zbigniew K. Brzezinski, The Soviet bloc, N.Y., 1961, p.81 ff. (١)

Kazimierz Grzybowski, The socialist commonwealth of nations, New Haven, 1964, p. 21. (٢)

الذرية في كوبا هي العامل الكشاف واختبار الأحاض الذي أثبت للعالم أنه يتزلق بسرعة بحيفة على طريق الهاوية ، فكان التعايش السلمى .

الستينات : عقد التعايش السلمى

من قلب هذه التوازنات الاستراتيجية الرهيفة ومن صميم معطياتها السياسة الرهيفة التي سادت عقد الحرب الباردة ، انبثقت إذن بذور التغيير واشتقت خميرة التطور . فبطريقة دياكتيكية متناقضة تقريبا ولكنها مفهومة تماما ، أدت عناصر تلك المرحلة ومكوناتها إلى تفاعلات داخلية مؤثرة ، وتخميرات ذاتية بطيئة ، مهدت للمرحلة التالية ، بحيث تم الانتقال في النهاية من عصر الحرب الباردة في الخمسينات إلى عصر التعايش السلمى في الستينات . وكما قلنا ، كانت أزمة كوبا - بكل محاذيرها ونذرها ، هي عامل الاختزال في العملية ونقطة الانكسار في المنحنى .

وللتوضيح ، يمكن أن نحلل عوامل التغيير ودوافعه الأساسية في اثنين : بدء نفتت الكتل نسبيا ، وظهور عدم الانحياز تدريجيا . وكلا العاملين جاء بدوره رد فعل للضابطين الحاكمين السابقين وهما الاستقطاب الثنائى الضاغظ وثورة التحرير المتعاضمة . فمن ناحية أدى ثقل الاستقطاب الثنائى الضاغظ على كلتا الكتلتين إلى الرغبة في التحرر تدريجيا من وطأته والتخفيف من أخطار تصادمه . وقد اتخذ هذا في حالة أوروبا الغربية شكل الانجاء إلى الوحدة الأوربية ، ردا على السيطرة الأمريكية الساحقة في جانب ، وعلى فقدان الإمبراطورية وتصفية الاستعمار والمستعمرات وانتصار حركة التحرير في العالم الثالث في جانب آخر . أما في المعسكر الشرق فقد اتخذ هذا شكل الانشقاق الصينى الخطير ردا على « الهيمنة » السوفيتية إلى جانب اعتبارات أخرى عديدة ومعقدة . ومن ناحية أخرى ، ورداً على أخطار الاستقطاب الثنائى على السلام العالمى في جانب ، وعلى تحدى الوحدة الأوربية في الجانب الآخر ، بدأ ظهور ثم صعود عدم الانحياز بين دول العالم الثالث كقوة ثالثة .

تفتت الكتل

ولنبداً ، للتفصيل ، بتفتت الكتل أو ما يعبر عنه بظاهرة تفكك التوابع الكتلية desatellisation . فعلى الجانبين كليهما أخذت أحجار كل من الكتلتين تتفكك وتتباعد قليلا أو كثيرا ، إما ثورة على تبعية الكتل وإما مغالاة في رسالة الكتل ، أى إما

بالمناقصة وإما بالمزايدة . وكان السؤال الحرج والملح منذ البداية هو : إلى أى حد يمكن أن تذهب حركة التفكك هذه ، وهل يمكن حقا أن تصل إلى حد الإذابة أو الذوبان في المدى البعيد أو إلى حد تحول الاستقطاب الثنائي السائد إلى استقطاب متعدد الأطراف ؟

أوروبا الغربية

فأما في أوروبا الغربية ، حيث كانت بداية التلملل فالتمرد ، فلم يكن الهدف قط هدم المعبد على الجميع ولا كان الخروج على المعسكر أو حتى على زعامته الأمريكية . وإنما كان الهدف هو إعادة ترتيب البيت من الداخل وتأمينه وتحصينه ضد أخطار العدو والصديق على السواء ، وذلك بإدخال قدر من التوازن المعقول بين القيادة والصفوف أى بين أمريكا وأوروبا .

فن ناحية كانت أوروبا الغربية قد نهضت من وسط أنقاض الحرب والحزب وقطعت شوطا طيبا في إعادة البناء والاقتصاد والتسلح وامتلاك القدرة النووية ، وبدأت تطلعاتها وطموحاتها تتجاوز مجرد استعادة الحياة إلى استعادة مكانتها في الحياة . وهنا وجدت نفسها محاصرة بين أكثر من قوسين أو واقعة بين أكثر من مقعدين : الماضي والحاضر ، السيادة والصدارة العالمية سابقا وشبهة التبعية أو شبه الحماية الأمريكية حاليا ، الخطر الشيوعي والتحدى الأمريكى ، ضياع الإمبراطوريات وموارد وأبجد الاستعمار وفي الوقت نفسه اتجاه حركة التحرير إلى وحدة عدم الانحياز .

فأما عن الخطر الشيوعي في ظل الاستقطاب الثنائي وتحت المظلة النووية الأمريكية ، فإنه لا يعنى سوى أن أوروبا الغربية هي ميدان أى معركة قادمة سواء كانت هذه هي الحرب العالمية الثالثة أو الحرب النووية الأولى ، أى سواء بالسلاح التقليدى أو النووى . وفي كل الأحوال فليس هناك أدنى ضمان بالدفاع الأمريكى الختمى ، إذ أن من الوارد دائما أن تضطر أمريكا إلى التخلي عن الدفاع عنها أى عن أوروبا الغربية حين تتعرض هي ذاتيا للخطر النووى . ولهذا بدأت أوروبا تعمل على الحصول على القدرة النووية المستقلة الخاصة بها ، مثلما غدت الآن أقل من أمريكا صليبية وعدوانية واندفاعا ضد المعسكر الشرقى .

أما عن « التحدى الأمريكى » - وهذا هو التعبير الشهير الذى صكّه وقتئذ أو بعدئذ بقليل جان جاك سيرفان شرابر ليجسد الهوة السحيقة والخيفة والمتزايدة أبدا في التقدم والتطور العلمى والانجاز التكنولوجى والثراء المادى والاقتصادى وضخامة الانتاج

ومستوى الدخل والاستهلاك والمعيشة... الخ - هذا التحدى كان يؤذن ويهدد بأن يضع أوروبا بالنسبة إلى أمريكا في نفس موضع العالم الثالث بالنسبة إلى أوروبا^(١). فبعد إنجازات الولايات التكنولوجية الحارقة أو الخرافية ، الفائقة أو المنححة ، فى الأوتومية والإلكترونيات والكمبيوتر والليزر... الخ ، أصبحت أوروبا مهددة بالتخلف بكل المعنى الحضارى والتكنيكى والتاريخى المعهود .

ولكى تضيف الالهانة إلى الجرح كما يقولون ، جاءت ثالثة الأثافي وهى طفرة عدم الانحياز وبروزه على الساحة العالمية بعد أن أضحى التحرير الوطنى حقيقة واقعة وواقعا شبه تام . فى الوقت الذى ارتدت أوروبا على أعقابها إلى بيتها الصغير وانكفأت على مواردنا البدائية وحدها بعد فقدان كل سيل ودفق أرباح ومكاسب المستعمرات السابقة وأصبحت مهددة بالضمور التاريخى والجغرافى والمادى والأدبى وبالتالي بالمزيد من الانحدار السياسى والاقتصادى عالميا ، أخذت توابعها السابقة تكسب نسيبا مزيدا من الأرض والقامة والقيمة والقوة والحجم فى السياسة العالمية والنشاطات الدولية .

ورغم أن انحدار أوروبا النسبى لم يكن جديدا ولا طارئا تماما أو ابن الحرب الثانية فقط ، وإنما بدأت أعراضه ونذره تلوح حتى عشية الحرب العالمية الأولى ذاتها وهى فى أوج السيادة العالمية كما شخص الجغرافى الفرنسى الكبير ديمانجون فى كتابه الشهير الذى يقرأ من عنوانه^(٢) ، نقول رغم ذلك فإنها الآن فقط شعرت لأول مرة بفداحة الصدمة وضخامة التحدى ، ولأول مرة أيضا وجدت الرد الوحيد فى الاتجاه إلى التكتل والوحدة تأكيدا لوجودها بين العملاقين وتضييقا للفجوة بينها وبين الولايات ووضعها للقادمين الجدد فى مكانهم المناسب ... الخ .

فإلى جانب « السوق الأوروبية المشتركة » كقاعدة صلبة للوحدة الاقتصادية وكخطوة أولية تمهيدية نحو الوحدة السياسية ، طالبت فرنسا ديجول بالذات بوحدة أوروبا « من الأطلسى إلى الأورال » قاطعة بذلك عبر الاستقطاب الثنائى حتى يشحب نوعا ويغلف بالضباب نسيبا ، أى حتى تقل حدته وخطورته . ومن هذه المنطلقات بدأت أوروبا الغربية تتخذ مواقف أكثر استقلالية أحيانا ، بل وأحيانا تختلف تكتيكيا مع الولايات . وعلى سبيل المثال فلقد انسحبت فرنسا من الجناح العسكرى لحلف الأطلسى وإن ظلت

J.-J. Servant Schreiber, Le défi américain, Paris, 1969. (١)

Albert Demangeon, Le déclin de l'Europe, Paris, 1920. (٢)

به سياسيا ، كما اتخذت سياسة مخالفة غير منحازة كلية في الصراع العربي الإسرائيلي ... الخ . ومن المسلم به أن الموقف الأوربي عموما ، بما في ذلك الفرنسي بالتحديد ، لم يكن هدفة انتزاع زعامة المعسكر الغربي من الولايات بالتأكيد بقدر ما كان تأكيد اعتبار القومية في الحلف ، وهذا على العكس - كما سنرى توا - من حالة الصين .

الانشقاق الصينى

ففي الكتلة الشرقية لم تعدم جبهة شرق أوروبا بعض اتجاهات كظيمة مكبوتة أو فطيرة نحو قدر من الاستقلال الاقتصادى وغير الاقتصادى عن المعسكر الأب . ذلك أن سابقة يوجوسلافيا قبل الخمسينات ، ومن خلفها وإن على النقيض منها ألبانيا ، لم تكن كما قلنا لتتكرر . ولهذا فكما سحقت حركة الجمر بعد منتصف الخمسينات ، وثدت حركة تشيكوسلوفاكيا في أواخر الستينات . ومع ذلك فقد بدت أعراض القلاقل ودلائل العملل في بولندا وألمانيا الشرقية ، بينما نجحت رومانيا نسبيا في اتخاذ خط حذر شبه مستقل نوعا . غير أن هذا وذاك جميعا لم يعد انتفاضات أو انتفاضات ثانوية أو حتى أقل من تكتيكية تتم داخل الأسوار ولا تخترق الستار الحديدي بحال .

وإنما بعيدا هناك ، على الجبهة الشرقية القصبوى للمعسكر في أقصى شرق آسيا ، تم الانشقاق الذى شق الكتلة بالتنصيف تقريبا وأحاطها من حجر واحد إلى حجرين . وسرعان ما تحول الأخدود الغائر والمتوسع بينها أبدا إلى نوع سياسى أسطورى من « زحزحة القارات » ، تحول بدوره إلى نوع خرافى مخيف من صراع القارات . ورغم أن للصراع جذورا إيديولوجية غائرة بلا جدال ، فإن الجذور القومية واردة بنفس القوة ، وربما كذلك إرهابات عامل القوى أو عامل الدولة الكبرى في حد ذاتها .

وعلى هذا يبدو النزاع ثلاثى الأبعاد : إيديولوجى في الفلسفة العقائدية ، وقومى حول ادعاءات ومطالب اقليمية واسعة المدى ، ثم صراع قوى عظمى بحت وبمجرد . وبصيغة أخرى فإن التحدى الصينى للاتحاد السوفيتى جاء تحديا على زعامة العالم الشيوعى ، وعلى صداقة العالم الثالث ، وأخيرا في الدور الآسيوى نفسه حيث تعد الصين الاتحاد السوفيتى دولة أوربية وتكاد تنكر عليه آسيويته .

فمن الأيديولوجيا . كانت الصين قد سعدت دعوتها المتطرفة إلى صيغة منتهى الشيوعية والتشف من أجل العقيدة (« better red than fed ») ، وباتت بإلحاح لا يخلو من استفزاز تحرض الاتحاد السوفيتى على المواجهة الشاملة والنهائية مع الرأسمالية

وتضغط عليه أدبيا ومعنويا وعقائديا - إلى حد الإحراج بين الرفاق - وذلك تحقيقا للالتزام بالمبادئ الماركسية - اللينينية في حتمية الصراع الطبقي والأهمية البرولتارية والحرب مع الرأسمالية ، وعلى أساس عدم الخوف من الحرب ونظرية أن القنبلة الذرية « نمر من ورق » ... الخ .

لكن الاتحاد ، لأنه وحدة أو أساسا أداة الحرب وميدانها وأتونها وضحيتها الرئيسية ، كان أقل اندفاعا وأكثر مسئولية بالضرورة ، بل واتجه على العكس إلى التعايش السلمى ، الأمر الذى عدته الصين مراجعة وتحريفية ونكوصا عن الماركسية - اللينينية ... الخ .

فالتعايش السلمى مع الغرب الرأسمالى طريق انتهازى بحث فى رأى الصين ، لأنه إنما يعنى التعايش السلمى بين الأنظمة الاجتماعية المتباينة والمتناقضة تناقض المستغل والمستغل . وحتى إن أمكن قبوله جوازا فى مجال العلاقات بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، فلا محل له بالتأكيد فى مجال العلاقات بين الشعوب المضطهدة ومضطهديها . ولهذا فإن التعايش السلمى لا يمكن ولا يجب أن يكون بديلا عن النضال والكفاح الثورى للشعوب . وفى الحالين ، تقول الصين ، فإن هذا التعايش يستبعد حتمية الحرب مع الرأسمالية وضرورة الثورة العالمية .

هذا كله ، تمضى الصين ، إن دل على شىء فإنما يدل على أن الاتحاد قد فقد ثورته وحجاسه الثورى وأصبح قوة محافظة خاملة . وفى هذا الصدد انتقدت الصين بشدة توجه الاتحاد الغالب فى علاقاته واهتماماته الخارجية نحو الدول الغربية الغنية المتقدمة أساسا على حساب الدول النامية الفقيرة ، التى لا تخلو علاقته معها هى الأخرى من انتهازية واضحة وبراجماتية صريحة ، وذلك على العكس من الصين نفسها التى تعتبر أنها هى زعيمة الثورة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بحق ، أى زعيمة العالم الثالث باختصار .

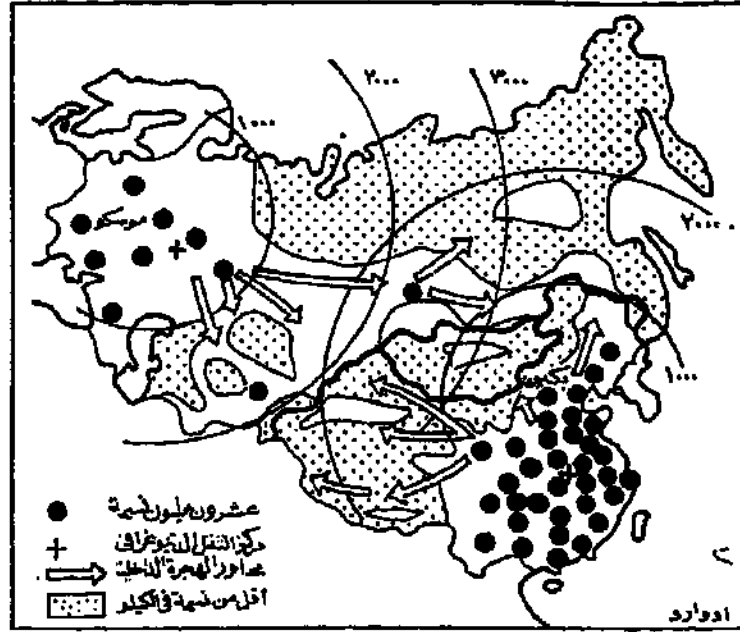
وكان الأسوأ من هذا نظرية الاتحاد السوفيتى الجديدة فى إمكانية الانتقال السلمى إلى الاشتراكية دون صراع طبقي أو ثورة دموية . بالمثل القبول بمبدأ تعدد طرق وأشكال الاشتراكية بحسب الظروف المحلية أو المحلية الموضوعية . فكل هذا كان فى نظر الصين أكثر من مجرد انحراف نحو الانتهازية والبراجماتية والمحافظة والرجعية على حساب الأيديولوجية ، وإنما هو تحريف وتجديف مباشر ضد جوهر الشيوعية الماركسية -

اللبنينية . وبالمقابل فقد رأَت الصين أنها اكتشفت على يد ماو نوعا جديدا من الشيوعية
الأسوية لا الأوربية التي تتفوق على الماركسية بقدر ما تستلهمها^(١) .

وهكذا بين التطرف والمراجعة (والتراجع) وبين الراديكالية والتحريرية (والتحريرية
الجديدة) ، تحول الشق إلى أهدود ، ثم لم يلبث الأهدود أن تحول إلى مشكلة أراض
سلبية وحدود . فلقد طالبت الصين الاتحاد بإعادة مساحات شاسعة من رقعة على
الأساس التاريخي والقومي ، بمقولة أن روسيا القيصرية اغتصبها منها أثناء توسعها
الاستعماري في آسيا . وبعدها تعددت الصراعات المسلحة وحروب الحدود على امتدادها
من سينكيانج والبامير حتى الأوسوري والآمور . كذلك تكدست القوات الكثيفة المتأهبة
على جانبي الحدود . وبعد أن كان الانشقاق الصيني لا يبدو محاولة معلنة لتأكيد القومية
(وإن كانت مضمرة ضمنا) داخل المعسكر الذي لا يعترف بالقومية . بقدر ما بدأ محاولة
غير معلنة لإحراج القيادة فيه وانتزاع الزعامة منها ، انشطر المعسكر برمته إلى معسكرين
متضادين تماما . الصراع والتناقض بينهم لا يقل بتاتا عما بين أيهما والمعسكر الغربي ،
حيث رفعت الصين منذئذ شعار الكفاح ضد « الهيمنة » السوفيتية و « الإمبريالية
الاشتراكية » أو الروسية ... الخ . لقد انتهى وفاق الرفاق بالطلاق ، الطلاق البائن
بلا رجعة في تقدير البعض ، بينما تحول الاستقطاب الثنائي تلقائيا إلى ثلاثي كأمر واقع
وكتحصيل حاصل .

ومنذ ذلك الوقت لم يكف الصراع عن التصاعد ، وتبادل الطرفان الاتهامات
بالرجعية والهيمنة والخيانة ، فضلا عن مطاردة بعضها البعض بإلحاح وقسوة في المحافل
والمؤتمرات الدولية ... الخ . فالصين تتهم الاتحاد بأنه يريد طرد أمريكا من أوربا لينفرد
هو بالهيمنة عليها ، بينما يتهم الاتحاد بدوره الصين بأنها تريد طرده من آسيا لتنفرد هي
بالهيمنة عليها . كذلك فحيثما وجد الاتحاد في دول العالم الثالث ، ابتداء من الشرق
الأوسط وأفريقيا إلى آسيا والأوقيانوسية . وجد الصين على أعقابها تناوئه وتطارده
بإصرار وتصميم في صورة مساعدات ومعونات ودعاية مضادة لتلك الدول ... الخ .
وبالمثل داخل المعسكر الشيوعي نفسه حدثت تغيرات عديدة في المواقع والمواقف
والتكتلات الرفاقية . فمثلا بعد أن كانت الصين ويوجوسلافيا على طرفي نقيض ،

(١) محمد فتح الله الخطيب - « الحزب الشيوعي الصيني والسياسة الدولية » ، السياسة الدولية ، يناير ١٩٦٦ .
ص ١٢٠ - ١٢٦ .



شكل (٣٣) الحجران الضخمان في الكتلة الشرقية رغم الحدود المشتركة يفصل بينهما خط الاستواء الصحراوي في العالم القديم . الاتحاد أكثر من ضعف الصين مساحة ، وأغنى في الموارد الطبيعية وأبعد تقدماً . ولكن الصين أكثر من ثلاثة أمثاله سكاناً .

وكذلك الحال مع رومانيا إلى حد أقل ، حدث تقارب مطرد على حساب الاتحاد ، وهكذا .

وعند هذا الحد ، يبدو ثمة فارق جغرافي هام بين تكوين أو كيان المعسكرين الأبرين ، أعني قبل الانفصال السوفيتي - الصيني . فالغرب ، رغم كل عظمة وتراث أوروبا الغربية ، يكاد تتألف عملياً أو نسبياً من حجر واحد ضخيم طاغ - الولايات بالطبع - يتجاذب حوله العديد من الأحجار المتوسطة والصغيرة . فلا مجال حقيقي للتنافس على الزعامة فيه . أما الشرق فقوامه الأساسي حجران ضخمان ندان صنوان أو شبه صنوان تلتصق بهما وحولها بضعة من الأحجار الضئيلة ، ومن ثم فإن التطلعات التنافسية ممكنة أو واردة .

وليس من شك أن الحجر الأكبر مساحة وموارد طبيعية وإنتاجاً اقتصادياً وثروة مادية وتقدماً تكنولوجياً وقوة عسكرية هو الآن الاتحاد السوفيتي ، ومن الأرجح في تقدير الجغرافيا أن يظل كذلك في المستقبل على الدوام . ولكن الصين هي الأخرى أو من .

الناحية الأخرى تتطور - تطفر في الواقع - بسرعة فائقة . وأهم من ذلك وأخطر أنها ، عدا حضارة أعرق وربما أمتن . ترى في عامل سكانها - وهي التي تعادل الاتحاد سكانا أكثر من أربعة الأمثال وتعادل ربع البشرية جميعا - ترى في ذلك مبررا غالبا لكي تكون فيما يبدو مركز العالم أجمع لا المعسكر الشيوعي فحسب !^(١)

ولاننسى في النهاية البعد النووي والعسكري . فنذ دخلت الصين النادي الذرى ، بدون مساعدة الاتحاد بل برغمه ، أصبحت خطرا استراتيجيا لا يستهان به . فالإتحاد يحتفظ بنحو ربع قواته المسلحة - حوالى مليون جندي - وكذلك بربع قوته الجوية التكتيكية على طول الحدود الصينية . كذلك فإنه يحتفظ بنحو ١٨٠ صاروخا من صواريخه إس إس - ٢٠ في مدى الصين : نصفها في الشرق الأقصى السوفيتي ، ونصفها الآخر في « منطقة القصف التبادلي swing launching area » الواقعة شمال القوقاز والتي يمكن منها القذف إما إلى أوروبا أو إلى الصين . هذا بالإضافة إلى الصواريخ الأقصر مدى والصواريخ عابرة القارات الموجهة إلى الأهداف الصينية . أما عن القوة النووية الصينية فإنها يمكن ، إذا ما بادرت بالضربة الأولى ، أن تدمر موسكو ولتنجراد تدميرا تاما بالإضافة إلى كل مدينة سوفيتية شرق الأورال فئة + ١٠٠,٠٠٠ نسمة . غير أن الإتحاد . حتى بعد هذه الضربة ، قادر على تحطيم ما يتبقى من قدرة الصين النووية المحدودة بالإضافة إلى كل مدينة صينية فئة + ٥٠,٠٠٠ نسمة بلا استثناء^(٢) .

هذا عن القدرات والتوازنات النووية . أما عن القوات التقليدية ، فرغم أن الحشود السوفيتية في الشرق الأقصى أقل بكثير جدا بالطبع من القوات الصينية المواجهة ، إلا أنها أفضل تدريبا وإعدادا ، خاصة بتعزيز الطيران ، بحيث يصعب تصور انتصار الصينيين عليها في حرب محدودة . ولعل صدامات نهر الأوسور في نهاية الستينات مؤشر إلى التفوق السوفيتي ، حيث تلقت الصين خسائر فادحة . على أن العقيدة القتالية الصينية لا تكاد تبالى بالخسائر البشرية . ولهذا فإن موقف أن السوفيت لا يمكنهم أن يأملوا في احتلال كل الصين أو معظمها في أية حرب شاملة ، إلا أنهم يستطيعون على الأرجح كسب معركة حدود حاسمة تصد الخطر الصيني وتلجمه^(٣) .

Cole, p. 251, 309.

"East-West struggle", op. cit., p. 44,47.

Ibid., p. 47.

(١)

(٢)

(٣)

وعموما ، مها يكن الأمر ، فليس من شك أنه إذا كان للعملاقين الحاليين الولايات والاتحاد من ثالث يلحق بهما في المستقبل فهذا الثالث هو الصين وحدها ، فهي وحدها التي تملك من الموارد والمقومات والحجم والضخامة ما يؤهلها لأن تكون قوة دينوصورية عظمى على مستوى العملاقين . ولعلها كانت نبوة عراف حين تكهن فوست ، ذلك الجغرافي العظيم ، في وقت مبكر مثل ١٩٥١ بإمكان حدوث صدع بين الاتحاد والصين واستقطاب العالم الشيوعي بدوره ثانياً^(١) .

عدم الانحياز

لا يبقى الآن من دوافع وحوافز التعايش السلمى بين العملاقين سوى عامل ظهور ثم صعود عدم الانحياز . وليس هذا موضع دراسة هذه الظاهرة السياسية الكبرى التي سنعود إليها بالتفصيل في فصل مستقل ، وإنما نقتصر هنا على علاقتها بالتعايش السلمى كسبب ونتيجة . وفي هذه الحدود فلقد جاء الاتجاه إلى عدم الانحياز بين الدول المتحررة حديثة الاستقلال نتيجة طبيعية وتوتيجا منطقيا لنجاح حركة التحرير الوطنى وانعتاق المستعمرات السابقة . ولكنه بالدرجة نفسها أتى ردا على اتجاه أساطين الاستعمار السابقين في غرب أوروبا نحو الوحدة الأوربية من أجل استعادة سطورهم ومكانتهم في العالم المتغير الجديد . فكأن عدم الانحياز ، في هذه الحدود ، رد على رد كما قد نقول .

غير أنه كذلك انبثق كضرورة بقائية واستراتيجية إزاء الاستقطاب الثنائى وصراع العملاقين بكل مايعنى هذا من أخطار للعالم أجمع وللعالم النامى ، الوليد ، الضعيف ، الفقير ، بالأخص . فهذه الاستراتيجية يستطيع عدم الانحياز أن يتخذ موقف الحياد بين القطبين والكتلتين وينأى عن الانغماس أو التورط في صراعاتها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يؤمن نفسه ضد خطر ابتلاع أو اجتياح الكبار له سواء من القوتين الأعظم أو قدامى الكبار في الغرب .

وبالتعريف حرفيا ، وكدعوة سلامية صرف ، يبدو عدم الانحياز منطقيا للغاية منسجا استراتيجيا مع دعوة التعايش « السلمى » دون أدنى تعارض . ومن ثم كان من المفروض أن يتواكبا ويتجاوبا على الصعيد الدولى كخطين متوازيين بل متقابلين في النهاية . ولكن الغريب والمؤسف أن عدم الانحياز وجد أخطر تحد له في التعايش السلمى

Geography and empire, loc. cit., p. 431.

(١)

بالدقة ، مناخا وأطرافا وسياسات . فن ناحية عدّه كل من الغرب والشرق تجديفا أو مروقا أو على الأقل نشوزا أو نشازا بدرجة أو بأخرى ، تماما على نحو ما يعد المستقلون أحيانا في مجال السياسات الحزبية والبرلمانية ... الخ . ولعل البعض على الجانبين اعتبره أيضا بمثابة لقيط الأسرة الدولية ، شريدها ، طريدها ، أو على الأقل الابن العاق الضال . وعلى هذا الأساس انبرى ليقومة ويثقف اعوجاجه ويعيده إلى الصف السوي السليم وجادة الطريق المستقيم .

ومن ناحية أخرى ، وأخطر ، فنذ أن تراجعت الحرب النووية الشاملة واكتشفت الولايات المتحدة قبل الاتحاد السوفيتي تكتيك الرد المرن كمبرج من المأزق النووي ، انفتح الباب على مصراعية للحروب الصغيرة والمحلية . وهنا نشطت الكتلة الغربية إلى ممارسة سياسة القوة معرودة هنا وهناك بلا رداغ وهي على يقين من استحالة تحولها إلى الحرب الشاملة . وقد جاء هذا التطور على حساب الدول الناشئة وحديثة الاستقلال أساسا ، والتي أصبح عليها أن تدرك أن عليها من الآن فصاعد أن تعتمد على أنفسها في الدفاع وحماية مكاسب التحرير . ومعنى هذا أن هدنة الرعب النووي لم تساعد قوى التحرير والدول النامية كما قد يظن أو يدعى البعض ، بل أتت على حسابها وتركبتها وحدها تواجه قوى الاستعمار من جديد في لقاء يعيد إلى الأذهان شيئا من مناخ القرن التاسع عشر .

حقيقة التعايش

وهذا بالدقة ماينقلنا إلى حقيقة وطبيعة التعايش السلمي في النظرية والتطبيق . فالتعايش السلمي بين العملاقين إنما نشأ أصلا كرد على المتغيرات السياسية والاستراتيجية داخل معسكرهما وخارجهما على حد سواء . ففي وجه تلك التطورات الخطيرة والتحديات الجديدة لم يكن مفر أمام العملاقين من التقارب قليلا ، أو فلنقل التحفظ نوعا في الصراع والاندفاع نحو الصدام ، إن لم يكن حفظا للذات وضمان الأمن والبقاء فحفاظا على سيطرتها على كتلتيهما وللإبقاء على مكانتهما المطلقة على قمة العالم . من هنا أخذت دعوة الثورة العالمية الشيوعية تخفت إلى حد ما ، مثلما تلطفت دعوة الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية . كذلك بدأت محاولات الاتفاق على نزع السلاح ، والسلاح النووي بالذات ، أو إيقاف سباق التسلح وتحويل المنافسة من النواحي العسكرية إلى النواحي السلمية البناءة . وواكب هذا كله تزايد التبادل التجاري بين العملاقين والكتلتين ... الخ .

بعبارة أخرى فلقد وضعت صيغة التعايش السلمى كبديل عن الحرب الباردة على أساس أن يكون التقدم الصناعى والتكنولوجى والتنافس السلمى فى الحضارة ومستوى المعيشة هو التعبير البليغ عن الأيديولوجية والصراع المذهبي ، وذلك فى عصر أصبحت التكنولوجيا ندا وتحديا حقيقيا للأيديولوجية . وبالاختصار ، فإن أساس التعايش أن تحل الحرب الصناعية محل الحرب النووية . ورغم أن الحصاد العام ظل قليلا وغير مشجع ووضع السلام غير مشرق ، فقد سلمت الحرب الباردة نفسها نهائيا إلى التعايش السلمى بالفعل .

غير أن هذا - دعنا نستدرك - لايعنى سيادة السلام والاستقرار العالمى . فالتعايش السلمى وسيلة لا غاية ، وهو باعتراف أقطابه لم يكن إلغاء للصراع ، وإنما تهذيب له وتقنين وتلجيم ، أى تحويله إلى صراع محكوم منضبط غير مفلوت أو منفلت . أو إذا استأنفنا تشبيه الملاكمة السابق ، كان التعايش يستبعد « الضرب فى الرأس » ولكنه لا يمنع « الضرب تحت الحزام » . أما إذا اقتبسنا معلقا ساخرا معاصرا ، فلعله لم يكن يعدو استبدال حالة جديدة من الاحرب واللاسلم بحالة اللاسلم واللاحرب السابقة قبلا ! وعلى الجملة ، يمكن القول إن صراع القوة فى ظل التعايش السلمى كان أقرب إلى الجمود الخطر منه إلى التوازن الدقيق . إنه « سلام سلاح » ...

المد الاستعمارى

وليس من شك تاريخيا وموضوعيا بعد هذا أن الولايات المتحدة تحولت فى الستينات بالتحديد إلى قوة عدوانية سافرة ، عينت من نفسها رجل بوليس العالم ، وجعلت هدفها أن تفرض سلامها ، السلام الأمريكى ، على العالم حتى أصبحت السياسة الأمريكية عامل التوتر والاضطراب الجذرى فى ذلك العقد . وليس من شك كذلك أن الولايات خلال الستينات كانت على الهجوم بانتظام وإصرار بينما كان الاتحاد على الدفاع وربما فى تراجع . وفى المحصلة كان العقد عقد أمريكا بلا نزاع حيث كانت لها اليد العليا خارج كل مقارنة ، بل وإلى حد أثار الشكوك قليلا أو كثيرا فى صحة مقولة ثنائية القوة بين العملاقين من حيث المبدأ ذاته .

فلقد شهدت الستينات ، خاصة أواخرها ، مدا استعمارى متصلا وكاسحا على طول الجبهة الأفريقية والآسيوية وعرضها ابتداء من غانا وغينيا حتى فيتنام وإندونيسيا ، ومن مصر حتى الهند ، ترتب عليه جزر حقيقى فى حركة التحرير الوطنى لأمفر من الاعتراف

به . ومن المسلم به أن انفجار العدوانية الأمريكية وقتئذ بهذا العنف والشراسة إنما يرجع أساسا إلى ما أحست به من تعاظم المد التحريري والثورة العالمية في العالم الثالث وانحسار نفوذها فيه انحسارا هدد بأن يكون كاملا . غير أن النتيجة تظل واحدة : فتحت مظلة التعايش السلمى المقول ، واستغلالا لتوازن الرعب النووي ، انطلقت الولايات المتحدة معربة كالعاصفة ، هنا في أضعف حلقات العالم ، لتصفي سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد .

وكما تراوحت إمبريالية اليانكى في أمريكا اللاتينية بين سياسة العصا الغليظة وحسن الجوار ، تراوحت في العالم الآسيوى الأفريقي بين سياسة ذهب اليانكى وسيفه ، أعنى بين سياسة المساعدات والقروض والمنح وبين مؤامرات الخابرات والانقلابات والغزو من الداخل . وقد نجحت سياسة الاغراء والمعونات بالفعل في اقتطاع بعض دول القارتين المتخلفتين المهشتين من فلك عدم الانحياز ، ولكن هذه الدول لم تكن متمية حقيقة وباخلاص إلى الخط التحررى الاستقلالى إلا كشعار انتهازى ميسور .

على أن الضربة الحقيقية التى نالت عدم الانحياز إنما جاءت عن طريق العمل التخريبي والسرى تحت الأرض ، حتى باتت الانقلابات الرجعية ، وبالتحديد العسكرية ، أبرز ملامح الفترة ، وكانت أفريقيا خاصة هى موطنها الأساسى حيث شهدت سنة ١٩٦٦ وحدها مثلا ١٢ انقلابا ، معظمها يتركز فى غرب القارة ويقبل فى وسطها ثم يزداد قلة فى شرقها . حتى ليصح فى معنى أن يقال إن ١٩٦٦ هى سنة نكسة أفريقيا ، حيث كانت ١٩٦٠ هى « سنة أفريقيا » . الأولى ، بلغة الفلك ، كانت فصل الانقلاب ، حيث كانت الثانية فصل الاعتدال . المهم بذلك أن الولايات المتحدة نجحت فى أن تصدر الثورة المضادة بالجملة ، وأن تجعل من أفريقيا فى هذا الصدد أمريكا اللاتينية الأخرى تقريبا .

أما حيث لم تجدد سياسة المعونات أو الانقلابات ، فقد التجأت الولايات إلى أسلحة الضغط الاقتصادى والتجويع أو الحرب النفسية والحملات الدعائية دائما ، وإلى العدوان المسلح المقنع أحيانا . وكان تحديد استعمال هذه الأسلحة يتناسب تناسبا طرديا مع ضراوة الكراهية الأمريكية والمقاومة الوطنية . فقد وقفت عند حد الضغط الاقتصادى فى حالة الهند مثلا ، بينما وصلت إلى حد العدوان العسكرى فى الشرق العربى حيث تحففت النجمة الخاسية (الولايات) وراء النجمة السداسية (إسرائيل) كما قيل .

وهنا نلاحظ أن من يتتبع خطط الولايات المتحدة للسيطرة على العالم الآسيوي الأفريقي آتشد يكاد لا يملك إلا أن يرى مبدأ مونرو يتوسع ويزحف ليشمل العالم غير الشيوعي جميعا . فلقد بدأت الولايات مبدأ مونرو محليا ثم أخذت توسعه تدريجيا حتى طوق العالم الجديد ، وحين بدأت تتغلغل في العالم القديم وتطوق الشيوعية لم تكن خطواتها أكثر من توسيع مستتر لنفس المبدأ . فلم يكن حلف الأطلنطي أو مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط أو سلسلة أحلاف آسيا ، ولم يكن مبدأ ترومان ومن بعده مبدأ أيزنهاور وأخيرا خطة جونسون الآسيوية . لم تكن هذه جميعا - نكاد نقول - إلا حلقات مكشوفة في سلسلة خفية هي عالمية مبدأ مونرو في الواقع .

أو على الأقل فإنه يكاد يلوح أن الولايات تعتبر كل العالم خارج المعسكر الشرقى « فراغا » ضحفا بالفعل والقوة ، وأن « عبء الرجل الأمريكى » هو ملء هذا الفراغ . ومهما يكن رأى ، فالأمر المؤكد أن الولايات باتت خلال المرحلة نقمة العالم الثالث ، وأن المواجهة بينها صارت مبارزة مباشرة بين الاستعمار الجديد وعدم الانحياز على وجه التحديد ، وهى مواجهة أبعد ما تكون عن التكافؤ أو العدالة .

و حين وصل المد الاستعمارى إلى ذروته بضرب طبيعة عدم الانحياز فى مصر والوطن العربى ، بلغت صدمة العالم المتحرر أقصى مداها ، مما وضع على الفور كل فلسفة عدم الانحياز فى أزمة مصير بل وطرح للمناقشة والتساؤل كل أساسيات ومسلّمات التوازن العالمى السائدة . فغزى ما حدث كان أكبر بكثير من مجرد سلسلة من الانتكاسات أصابت حركة التحرير الوطنى . فجوهر الموقف أن الولايات المتحدة كانت قد استغلت التوازن النووى لصالحها إلى أبعد حد ، إذ بينما كف الاتحاد السوفيتى يده ، لا ندرى تعقلا وانضباطا أو خوفا وعجزا ، أطلقت الولايات المتحدة يدها بلا رادع أو خوف ، لكى تبتز الجنس البشرى نوويا ولكى تحول السلام الذرى إلى السلام الأمريكى .

وواقع الأمر خلال الستينات بعامة أن الإمبريالية الأمريكية كانت تزحف بالتدريج ولكن بالتأكيد على العالم الثالث ، وكان هناك من يرى أنها بحروبها الاقليمية المحدودة هنا وهناك إنما كانت تمارس فى الحقيقة حربا عالمية « بالقطاعى » ، بل كان هناك من يخشى أن تكون الحرب الثالثة قد بدأت دون أن نشعر (؟) ، وأن الصراعات والغزوات الاستعمارية الجارية لم تكن إلا مدخلها ، مثلما كانت الحرب الإسبانية مدخلا إلى الحرب الثانية .

ولئن كان من الواضح حينئذ أن العالم الثالث هو الهدف المباشر لضربات العالم

الأول ، فإنما كان مجرد جسر ومرحلة على الطريق إلى الهدف الأكبر والأخير وهو العالم الثاني . وهنا نجد من يعود إلى التشبيه بمقدمات الحرب الثانية ، حيث كان يخشى أن الإمبريالية الأمريكية إنما كانت تستغل التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتى كهدنة مسلحة وكخدعة سياسية مثلما نظرت ألمانيا النازية إلى ميثاق عدم الاعتداء معه هو نفسه من قبل . بل كان هناك من يمتنى ، أبعد من ذلك ، ألا تكون قصة المواجهة ابتداء من كوبا إلى فيتنام إلى الشرق الأوسط تذكرة بمأساة ميونيخ من قريب أو بعيد .

مغزى المد

وأيا ما كان فلقد كان لهذا كله عدة معان ومدلولات مباشرة وبالغة الخطورة ، أولها أن العالم الثالث أصبح يواجه عدوانية الإمبريالية الأمريكية المسلحة وحيدا شبه أعزل ، وذلك رغم مساعدة ومساندة الدول الاشتراكية سياسيا واقتصاديا ، أيا كان مداها وإخلاصها . وبهذا عدنا أو كدنا بدرجة أو بأخرى إلى منطلق وواقع القرن التاسع عشر واستراتيجية عصر الاستعمار التقليدى القديم . وفى هذه المواجهة بدأت علامات تحول هام ، وإن لم تكن ملحوظة بما فيه الكفاية ، وهى أن الاستعمار الجديد بدأ يأخذ بعض ملامح الاستعمار القديم رغم أنه ما قام أصلا إلا ليدور حولها ، ونعنى بذلك استخدام القوة والاحتلال والجيوش والحروب السافرة كما فى فيتنام والشرق الأوسط .

وهذا يؤدى بنا إلى نتيجة أخرى مثيرة وخطيرة . وهى أن أكبر المتفاعلين بالاستعمار الجديد ذلك اليوم كانت هى بقايا الاستعمار القديم المتخلفة . والتي كان أغلبها يقع فى حلقة الاستعمار العنصرى ، ابتداء من جنوب أفريقيا إلى المستعمرات البرتغالية إلى إسرائيل . بل لقد كانت إسرائيل بمخاصة وبالذات هى أكبر منتفع فى العالم بتلك المواجهة بين الاستعمار الجديد والعالم الثالث . لقد أصبحت تلك البقايا المتخلفة من الاستعمار القديم بمثابة النويات الصلبة أو العقد البارزة فى النسيج الغامر الخفيف للاستعمار الجديد وقتل .

معنى آخر وأخير أن مدّ الستينات الاستعماري كان يمكن أن ينطلق إلى مالا نهاية إلى أن يتلع العالم الثالث كله دون أن يصطدم بما يوقفه عند حد . وبهذا كان العالم الثالث هو أول ضحايا العصر النووى . وهذا يقينا أبعد شئ عن الفكرة المبسطة التى توهمت - هكذا على الاطلاق ودون تحفظ - أنه كسب من عصر الصراع الكتلئ استقلاله وكيانه . وعلى أية حال ، فلم يكن هناك شك فى أن من سوء حظ العالم الثالث أن العصر

النوى لم يتأخر بضعة عقود عما حدث بالفعل ريثما يكون قد استكمل قواه الذاتية قبل أن يحاصر بين شقي الشلل النووي من ناحية والابتزاز النووي من الناحية الأخرى . فن المؤسف بالتأكيد أن عصر التحرير الوطني لم يكد يبدأ بعد انتهاء عصر احتكار القوة في العالم حتى كان العصر النووي - بمصادفة تاريخية بحتة - قد بدأ ، فما لبث أن ألقى بظلاله وأخطاره على حركة التحرير الوطني فأصابها بالجمود والاضطراب ولا نقول الشلل .

بين التعايش وعدم الانحياز

وعند هذا الحد من السياق يثور سؤال مبدئي وحاسم عن العلاقة بين التعايش السلمى وعدم الانحياز . فالتعايش السلمى نشأ كصيغة حياة *modus vivendi* بين نظامين أيديولوجيين متناقضين في معسكرين سياسيين جبارين ، وذلك منعا للتصادم القاتل بينهما . أما عدم الانحياز فنشأ كصيغة عمل *modus operandi* لتنسيق التعامل معها من جانب طرف ثالث صغير يعتبر نفسه محايدا بينها حياذا إيجابيا لا انتائيا .

ومن حيث التوزيع الجغرافى فلقد يمكن أن تميز بينهما - تبسيطا - فنقول إن التعايش السلمى يتوطن العروض المعتدلة ويكاد يتقاسمها مناصفة ، أما عدم الانحياز فظاهرة مدارية أساسا ويكاد يغطي المداريات عموما . أما تاريخيا فقد نشأ عدم الانحياز فى ، وبفضل ، مناخ اشتدت فيه الحرب الباردة . وفى هذا المناخ وبفضله أيضا استطاع أن يلعب دورا هاما فى مخاض التعايش السلمى ودفعه وتنميته . هذا هو الأصل فى كل من التعايش السلمى وعدم الانحياز تاريخيا ومبدئيا .

ولكن الذى حدث فى الستينات أننا وصلنا فيما يرى البعض إلى صورة معكوسة كثيرا أو قليلا ، ظاهريا أو مؤقتا . فبدلا من التناقض بين طرفى التعايش السلمى ، بدا التناقض كما لو كان بين التعايش السلمى وعدم الانحياز ، حتى ظن أن التعايش إنما كان يعيش على حساب عدم الانحياز أو أن التضحية بعدم الانحياز كانت اللحن الوحيد لبقاء التعايش السلمى . وبدلا من العكس ، عوقب عدم الانحياز من جانب التعايش السلمى على دفعه له ، وأصبح وسيط السلام هو جبهة الصدام وضحية العدوان . وبدل أن يوجه نطاق الأحلاف العسكرية الغربية المضروب حول المعسكر الشرقى إلى هدفه المفروض ، أصبح باستثناء وحيد فى جنوب شرق آسيا (فيتنام) يوجه إلى ضرب دول عدم الانحياز (الشرق الأوسط خاصة) .

أكثر من هذا ، وبعد أن كان العالم الثالث يأخذ موقف عدم الانحياز بين طرفى

التعايش السلمى ، بدا كما لو كان أحد هذين الطرفين يأخذ - من وجهة النتائج العملية على الأقل - موقف عدم الانحياز بينه وبين الطرف الآخر ، بمثل ما أن الطرف الآخر قد نقل بالفعل حربه الباردة بل الساخنة من نظيره المقابل إلى العالم الثالث وعدم الانحياز . وبهذا وذاك بدا كما لو أن تعايش الكبار إنما يتم على حساب الصغار . بل ذهب البعض إلى حد القول بأنه لولا عدم التكافؤ المطلق فى الحجم والوزن ، ولولا أن العالم الثالث جسم غير متجانس متفكك ومبعثر ، لجاز اعتبار الاستقطاب الثنائى السائد وقتئذ استقطابا بين الإمبريالية أو بالدقة الإمبريالية الأمريكية وبين عدم الانحياز ، بين « العالم الحر » وبين العالم الثالث .

ولقد يؤول هذا على أنه لم يكن للعالم الثالث أمل فى مساندة الكتلة الشرقية له مساندة كاملة فى وجه الأخطار التصادية إلا بإلقاء نفسه فى أحضانها ، وبذلك يتخلى عن عدم انحيازه أصلا وأساسا . وهذا المنطق كله وإن اعترف ابتداء بعدوانية الغرب وصداقة الشرق ، بصور الموقف فى الحقيقة على أن الخيار أمام عالم عدم الانحياز كان إما بين عدو قادر وصديق عاجز فى الحالة الأولى ، وإما بين عدو قادر وصديق طامع فى الحالة الثانية .

مهما كان الأمر ، فلقد كان الشيء البديهي أن التعايش السلمى لا يمكن أن يكون من طرف واحد ، كما أنه إذا كان مفهوما بين الاشتراكية والرأسمالية فإنه لا يمكن أن يكون بين الاشتراكية والاستعمار . وأهم من ذلك لا ريب أن التعايش السلمى كان لا يمكن ولا يجب أن يتحول إلى تعايش استسلامى . على أن الأمر الواقع لم يلبث كالمعتاد أن حسم الجدل النظرى بطريقته الحادة القاطعة ، فنقل الصراع كله بغتة من مستوى إلى مستوى جديد ومن أفق إلى آخر : من التعايش إلى الوفاق .

السبعينات : عقد الوفاق

قد يكون الوفاق نقيض التعايش فى معنى أو شبيهه فى معنى آخر ، تصحيحا لمساره من وجهة نظر أو تحريفا من وجهة مضادة ، ارتدادا عنه فى نواح أو امتدادا له فى أخرى ، تصعيدا فى جوانب أو استمرارا فى غيرها ، إلا أنه - فى كل الأحوال - استمرار للصراع ولكن بطريقة أخرى . فلقد يكون الوفاق - بالتعريف - انتقالا « من المواجهة إلى المفاوضة from confrontation to negotiation » ، وبالتالي نقلة فى النغمة أو الطبقة أو النبرة الأساسية modulation من أصابع البيانو السوداء إلى البيضاء أو من الديوان الكبير

major إلى الديوان الصغير minor كما قد نقول ، أو قد يعد تغييرا في التكيك أو في الاستراتيجية ، ولا نقول اتجاهها من الحل العسكري إلى الحل السياسي ، غير أنه يبقى في النهاية عملية تقنين للصراع لا إلغاء ، وتقنين لا إنهاء .

وعلى الجملة ، ففيا كان التعايش السلمى صورة مقننة من الصراع ، جاء الوفاق صورة مقننة من التعايش . وما الوفاق في جوهره إلا « جراحة تجميل » للتعايش كما وضعها أحدهم ، أو « إخراج تليفزيونى » له كما عبر آخر . وكلاهما على أية حال لا يبنى الصراع ولكن يحكمه ويضبطه بطريقة الخاصة على أساس مبدأ « التنافس مع التعايش » . ولئن كان الجانبان قد اتفقا على المفاوضة بدل المواجهة ، فإن كليهما إنما يريد « المفاوضة من مركز القوة » . ولهذا مضى سباق التسليح على أشده ربما أكثر من أى وقت مضى ، ولكن في أقصى حدود السرية والتمويه ولا نقول الخداع للتبادل .

دور فيتنام

ولنفصل . كما ولد التعايش على مطرقة أزمة كوبا في أوائل الستينات ، ولد الوفاق على صخرة كارثة فيتنام في أوائل السبعينات . أى أن كليهما ولد في أتون الحرب الباردة ، في ظل مواجهة عسكرية أو شبه عسكرية رهيبية ، مباشرة أو غير مباشرة ، ناجزة أو مطولة ، بين العملاقين أساسا ولكن خلال طرف تابع لأحدهما من دول العالم الثالث المدارية الصغيرة .

والغريب اللافت بالصدفة أو بالمناسبة هو التناظر المثير في الموقع الجغرافى والاستراتيجى والسياسى بين كوبا وفيتنام . فكلتاهما تكاد تقع تحت مدار السرطان حوالى الطرف الجنوبى الشرقى الأقصى من قارته قرب « بطن » الكتلة أو العملاق المرابط ولكن المضاد لا القائد ، وبالتالي تبدو كجسم جزرى غريب دخيل ومعاكس وسط المحيط السياسى والأمنى السائد ، أو كمنسوب ووكيل تابع Surrogate أو كشظية متطوحة أو متطائرة من الكتلة المعادية ضلت طريقها إلى أن غرست كشوكة في جنب العملاق المضاد .

ولكن ما أشد الاختلاف بين المواجهتين الدمويتين بعد ذلك . فبينما كانت كوبا هزيمة استراتيجية سافرة للاتحاد السوفيتى ونصرا تاريخيا محققا للولايات المتحدة ، كانت فيتنام النقيض المطلق : هزيمة تاريخية قاصمة للولايات ونصرا استراتيجيا رنانا للاتحاد . كانت كوبا في الحقيقة أول نسخة نووية من مبدأ مونرو كما أسلفنا ، أى أول تطبيق للمبدأ

القارى القديم فى العصر النووى ، أما فيتنام فكانت بالمقابل آخر تطبيق أو طبعة من القانون الجيوستراتيجى القارى القديم القائل بأنه لا بقاء لقوة أجنبية غازية على اليابس الأسيوى .

وكما تمخضت مصادمة كوبا عن التعايش السلمى ، فإن كارثة فيتنام جاءت مخاض الوفاق وقابله . وأخيرا وليس آخرا فكما جاء التعايش تعبيرا عن انزلاق الاتحاد فى الصراع وتفوق الولايات وتسيدها المطلق طوال عقد التعايش ، فكذلك جاء الوفاق تعبيرا عن تراجع الولايات وانتقال التفوق النسبى فيه على الأقل إلى الاتحاد ، الذى كسب بذلك أول جولة له فى الصراع ، سواء عد ذلك الكسب بالنقط أو بالضربة القاضية ، بحيث جاء العقد لصالحه تماما أو غالبا على المسرح العالمى . إن السبعينات - إن شئت فقل - هى عقد الاتحاد السوفيتى بالتقريب إن لم يكن بالتأكيد .

من الكارثة إلى العقدة

وليس من شك بعد هذا أن فيتنام كانت كارثة حقيقية وهزيمة ساحقة ومخزية لأمرىكا débâcle ، رجت كل فكرها الاستراتيجى ووجودها وكيانها رجا ، وهزت مكانتها السياسية العالمية حتى النخاع ، وذلك فضلا عن حياتها الداخلية التى أصيبت بتقلصات حادة إلى حد التشنجات فرضت عليها أن تعيد النظر فى كل كيانها وذاتها ومعطياتها ، ومن ثم مسارها ومسيرتها ومصيرها .

فالدولة النووية العظمى الأولى فى العالم والتاريخ ، التى خرجت عاتية عادية لتدخل دولة صغيرة متخلفة ولكنها مناضلة تحت سيطرتها ، بل و « لتعيدها إلى العصر الحجرى » (كذا !) بجهوتها التكنولوجى الفائق ، عادت هى مهزومة عاجزة منسحبة بعد حرب شبه عقديّة استنزافية خاسرة مثلما هى ظالمة ، لتخرج بعدها من المنطقة إلى الأبد ولتدخل التاريخ بأول هزيمة لها فى تاريخها وكذلك بأول هزيمة تقليدية لقوة نووية فى التاريخ .

وكجولياث وداود ، أدركت الولايات لأول مرة ربما أن للقوة حدودا ، حتى القوة النووية ، وأن حدود القوة تفرض عليها التراجع عن دور شرطى العالم وعن مغامرة الصدام النووى بين القطبين . وتعبيرا عن هذا تحولت سياسة أمرىكا إلى أن تتولى الدول الصديقة والخليفة حروبها وصراعاتها المحلية بنفسها بدل أن تنوب هى عنهم فيها ، بحيث لا تتورط أو تقدم إلا التأييد المعنوى وبعض المادى لا أكثر . فالحروب الأسيوية يقوم بها الأسيويون ، والحروب المحلية تترك لأصحابها ، وهكذا - « مبدأ نيكسون » . ومجمل

القول فإن سياسة الوفاق جاءت ، كما عبر جيمز ريبستون بدقة ، ملازمة للانحسار الأمريكي وإخراجا لبقا للتفوق الأمريكي نتيجة عقدة فيتنام .

دور المتغيرات الدولية

وإذا كان الوفاق بهذا الشكل هو النتيجة المباشرة لمعطيات الاستقطاب النووي من مخاطر ومحاذير ، فإنه يعد بدرجة مقاربة النتج الجانبى للمتغيرات الدولية المواكبة وغير الموازية . فتماما كما وجد كبار أوروبا في الستينات أنهم ، حتى بعد أن خلعوا عن عرش العالم ذاته ، قد أصبحوا محاصرين استراتيجيا بين المعالقة من أعلى (القوتين الأعظم) والأقزام من أسفل (الدول النامية المتحررة) ، وجد العملاقان بدورهما في السبعينات أنها رغم احتكار القمة المطلقة محاصران تكتيكيا بين الكبار من ناحية والصغار من الناحية الأخرى . فن الكبار ، هناك على الجانب الغربى استقلالية الوحدة الأوربية المتزايدة وثورتها البادية على الوصاية الأمريكية ، وهناك على الجانب الشرقى الانشقاق الصينى القاصم . ومن الصغار ، هناك قوة عدم الانحياز والحياد الإيجابي الطالعة التى تعمل على تجميد القوتين الأعظم نوعا والحد نسبيا من سيطرتها المطلقة .

من هنا جاء الوفاق بلا جدال ردا مشتركا من القطبين على تفتت أو تخلخل الكتل وعلى عدم الانحياز فى آن واحد . ذلك أنه لم يعد خافيا على العملاقين أن كل خسائر يحققونها فى صراعها إنما تتحول بالتوازن وبصورة ما إلى مكاسب لتلك الأطراف الأخرى ، بينما أن كل مكاسب تحققها هذه الأخيرة إنما تأتى محصومة منها ومحسوبة عليها . من هنا أيضا ، وليس من هناك ، طرأت مظاهر كثيرة جديدة ومثيرة على العلاقات بين القطبين فى مجال التعامل والتعاون السلمى ، خاصة التجارة الخارجية والتبادل التكنولوجى .

من أبرز الأمثلة صفقات القمح والحبوب المليارية الضخمة من الولايات المتحدة إلى الاتحاد ، حيث مازالت الزراعة السوفيتية مشكلة عويصة تعانى من التقلب والعجز كل بضعة أعوام نتيجة المناخ وربما نظم الانتاج . وبالمثل فى الاتجاه نفسه صادرات التكنولوجيا الفائقة التقدم ولكن غير الاستراتيجية ، فضلا عن القروض الضخمة . وبالمقابل ، تأتى صادرات الغاز الطبيعى والذهب لتحويل تلك الصفقات ... الخ . وعلى الجانب السياسى كثرت الزيارات المتبادلة والوفود والمؤتمرات المستمرة ، ابتداء من مؤتمر هلسنكى لحقوق الانسان إلى مؤتمرات جنيف للحد من السلاح ... الخ .

ومن الطريف هنا أن العملاقين فيما يبدو يجرمان تقريبا على حلفائهما وأتباعهما ما يجعلانه لتفسيرها في معظم تلك المجالات . فالعلاقات والاتصالات السياسية والاقتصادية المسموح بها من قبل العملاقين تتم بجدد وبقدر . ومع ذلك فقد حقق بعضها مستويات عالية نسبيا ، بما في ذلك القروض والعقود من دول أوروبا الغربية الغنية لبعض دول أوروبا الشرقية التي تحاول أن تنتزع هامشا من الاستقلالية وحرية الحركة خارج التبعية مثل رومانيا خاصة ... الخ .

ثم أخيرا وليس آخرا جاء مشروع أنبوب الغاز الطبيعي السيبيري الهائل من أعماق الاتحاد عبر شرق أوروبا إلى غربها ، حيث يرسم خطا محوريا عرضيا أساسيا متعدد الفروع والنهايات ، يقطع عبر الكتلتين ويتعامد على الستار الحديدي ، ويكاد يتحدى الاستقطاب الثنائي أو يجعل منه سخريه سياسية استراتيجيه بمعنى ما إلى حد أو آخر . ويكفي دليلا أو مؤشرا في هذا المعنى أن أمريكا تعارض المشروع بشدة على أساس أنه يضع إمدادات الطاقة الأوربية تحت رحمة التهديد السوفيتي لعشرات السنين في المستقبل ، بينما أصرت دول أوروبا الغربية على أنه لا يهدد أمنها وإنما يؤمن مصالحها ، ثم مضت في تنفيذ المشروع في وجه المقاومة الأمريكية أو غير عابثة بها .

الوفاق في الميزان

وعند هذا الحد تتكشف لنا طبيعة الوفاق على حقيقته ، كما نفهم رد فعل كل الأطراف الأخرى إزاءه . فالوفاق ، الذي هو - بالمناسبة - ليس وفاقا entente بالمعنى الدبلوماسي الفني الصارم بل مجرد انفراج détente ، الوفاق لا يعنى التقارب rapprochement بين القطبين المتضادين بقدر ما يعنى التفاهم understanding بينها على ألا يدعا للصراع أن يؤدي إلى الصدام بينها . ويعنى هذا أساسا وبالتحديد ألا يدعا لصراعات الآخرين وللعلاقات بين الصغار أو الكبار أن يحكم وتوجه صراعها الذاتي أو العلاقات المباشرة بينها ، وإنما على العكس أن يحكم صراعها وعلاقاتها الخاصة تلك الصراعات والعلاقات وتوجهها . وبذلك تظل القبضة لها على مقدرات العالم دون أن تنفلت في وجهه أو فك أى منها .

أما من الناحية السياسية أو الدبلوماسية فإن الوفاق بشكله هذا ينتقل بالصراع عمليا من مبدأ « تناطح القوى » إلى مبدأ « توازن القوى » ، ذلك الذى ساد في القرن ١٩ على يد بريطانيا أساسا كدولة وعلى يد مترنيخ بالذات كسياسي . أو أخيرا ، إذا استكملنا تشبيهه

الملاكمة السالف الذكر ، فإن الوفاق يستبعد الآن « الضرب تحت الحزام » مثلما استبعد التعايش من قبل « الضرب في الرأس » . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الصراع قد اقترب بالعملاقين من حالة من الاعياء والجمود والمضاربة . إلا أن الوفاق لا يوقف الصراع ، وإنما فقط يضع حدا للمغالاة في إرهاب المتصارعين لحساب ولصالح المتفرجين .

ولم يكن غريبا لذلك أن يأتي رد فعل الآخرين سواء داخل الكتل أو خارجها مضادا للوفاق رغم اختلاف مواقعهم الأساسية . فالكل تقريبا رأى فيه قطعة من « انتهازية الأقوياء » وصيغة ملفقة لإخضاع علاقات وصراعات الصغار لضبط علاقات وصراعات الكبار ، بينما تحدث بعض الساخرين الساجعين عن « نفاق الوفاق » و « انبعاث الانفراج » . وفي العالم الثالث ، خاصة في الصين ، ذهب كثيرون إلى اعتباره « تواطؤا collusion » سافرا بين القطبين « وبالتالي ثانية » ، « يالتا الحرب الباردة »^(١) تستهدف تقسيم العالم الثالث إلى مناطق نفوذ جديدة مثلما استهدفت يالتا الأولى بعد الحرب الساخنة اقتسام أوروبا .

الموقف الصيني

وعن موقف الصين بالذات ، فإنها ترى أن القوتين الأعظم ، على عكسها هي كقوة ثورية ديناميكية ، أقرب الآن في طبيعتها إلى أن تكونا قوتين محافظتين على حد سواء ، لأن هدفها ليس تغيير الوضع الراهن في العالم وإنما الإبقاء عليه ، وذلك لصالحها أساسا . وهذا هو جوهر الوفاق . كل ما هناك أن إحدى القوتين تريد التوسع ، والأخرى تريد حماية مصالحها المكتسبة . واستمرار هذا التنافس سوف يؤدي بها إلى الحرب يوما ما . ومن هنا فإنها تمارسان « تكتيكا مزدوجا » بصدد التسليح ، إذ بينما تدعوان إلى الحد من التسليح تمارسان التوسع فيه على أوسع نطاق . وحتى دعوتها إلى الحد من التسليح تنصب فقط على الكم دون الكيف ، وهذا إنما يعني « التوازن نحو الأعلى » باستمرار ،^(٢) مما يضاعف خطر الصدام . ولهذا كله فإن الوفاق محكوم عليه سلفا .

Helkal, Sphinx, p. 169, 181.

(١)

(٢) خيرى عزيز ، « التحرك الدبلوماسي والانفتاح الصيني الأخير » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص

١٣٠ .

ليس هذا فحسب . فلقد توصلت الصين إلى نظرية جديدة في تقسيم ، أو بالأصح إعادة تقسيم ، العالم إلى عوامله أو عوالمه الثلاثة المكونة ، إن اتسقت في الاطار العام لفلسفتها الايديولوجية والصراعية ، فإن الوفاق يأتي موضوعيا ليبرهن على صحة تلك النظرية كما تصرهى وتلح . فبدلا من التقسيم الكلاسيكى أو التقليدى للعالم المعاصر إلى أول هو الغرب الرأسمالى المتقدم ، وثان هو الشرق الاشتراكى التقدمى ، وثالث هو الدول النامية أو المتخلفة المتحررة ، قدمت الصين تصنيفا ثوريا ومختلفا تماما . فالعالم الأول إنما يضم القوتين الأعظم وحدهما ، الولايات والاتحاد ، وذلك بحسبانها قوتين محافظتين من حيث الثورية ومتواطئتين في الوفاق . أما العالم الثانى فهو الدول الصناعية المتقدمة وعلى رأسها أوروبا الغربية . وأخيرا فإن العالم الثالث هو الدول النامية الفقيرة ولكن التقدمية ، ومنها أو على رأسها الصين نفسها^(١) . وفى الخلاصة تنتهى الصين إلى حث العالمين الثانى والثالث على التضامن لمواجهة العالم الأول وإحياء وفاقه الانتهازى ... الخ .

الموقف الأوروبى

أما فى الغرب فإن الحلفاء الأوربيين ازدادت شكوكهم فى النوايا الأمريكية وتوجههم من تخليها عن الدفاع عنهم نوويا أو حتى تقليديا . وكما حاولت الصين أن تستثمر الوفاق لتحذير العالم الثالث من الاتحاد السوفيتى وإبعاده عنه ، فإن الاتحاد بدوره حاول أن يستغل مخاوف الأوربيين ليدس إسفيناً بين الحلفاء الغربيين وداخل حلف الأطلنطى . ولعل الطريف هنا حقا أن الأوربيين ، الذين كانوا فى المراحل والعقود السابقة أميل إلى المزايدة على أمريكا فى معاداة الشيوعية والسوفيت واستعدادها عليهم ، قد تذبذبت مواقفهم من الوفاق أكثر من مرة وفى أكثر من اتجاه وذلك بحسب تذبذب مساره وبوصلته .

فغداة الوفاق عادوا إلى المزايدة أكثر من أى وقت مضى مطالبين أمريكا بالعودة إلى المواجهة والروح العسكرية الصلبه أو الصليبية ... الخ . ولكن فى السنوات الأخيرة ، أى فى الثمانينات بخاصة ، حين اتجهت أمريكا ريجان من جديد إلى روح المواجهة مع السوفيت بعد أن قدرت أنهم قد حولوا الوفاق لصالحهم عالميا . عاد الأوربيون يطالبونها بضبط النفس والتعقل وتخفيف نغمة التهديد ... الخ .

(١) عادل حسين ، الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ج ١ ص ٣٠٠ .

بل لقد أخذت الحركات السلامية ، شعبية وحكومية ، تتسع في أوروبا الغربية منذ بداية الثمانينات بالتقريب ، وأصبحت المظاهر والمظاهرات العدائية للولايات أمراً مألوفاً عادياً في دولها ، كما اشتد تيار المطالبة بالحد من التسليح عامة والنوى منه خاصة بل وبتجريد أوروبا الغربية (والشرقية بالمثل والموازاة) من الأسلحة النووية ، وإلا فبتجميد أو عدم تحديث أو تعظيم الترسانة النووية الأمريكية المنشورة على أراضيها .. الخ .

أضف إلى هذا اشتداد بل استثناء التزعة الأوربية إلى اتخاذ مواقف مستقلة إلى حد أو آخر في المشاكل والقضايا الدولية الكبرى مثل الشرق الأوسط وأمن البحر المتوسط . وقد لا تكون هذه المواقف وتلك الخلافات أكثر من تكتيكية إن لم نقل أحياناً انتهازية ، إلا أنها مؤثرة نسبياً مع ذلك . ففي حالة أزمة الشرق الأوسط ، على سبيل المثال ، يمكن القول بمنتهى الاختصار - والصراحة أيضاً - إن الفارق هو أن أوروبا تريد أن تمسك العصا من الوسط ، فيما تريد أمريكا أن تمسكها من الطرفين .

كذلك فلقد نشأت في السنوات الأخيرة بضعة محاور أو أشباه محاور استقطاب ثابته متقاطعة أو متعامدة داخل المعسكر الغربي ككل ، نعبّر بوضوح عن قدر من اختلاف المصالح الذاتية الخاصة والسياسات التكتيكية الإقليمية . ويلاحظ أن فرنسا غالباً طرف في هذه المحاور الصغرى ، في حين أن الولايات المتحدة هي الطرف الثابت الآخر . فداخل أوروبا الغربية نفسها ثمة شبه محور الولايات المتحدة - بريطانيا التقليدي الخاص ، في مقابل شبه محور فرنسا - ألمانيا الناشئ أو الواشي . وفي المغرب العربي نستطيع أن نميز مؤخراً شبه محور فرنسا - الجزائر/ليبيا (باعتبار أن الأولى اشتراكية الحكم حالياً وذات ميول تقدمية) ، وذلك في مقابل شبه محور الولايات المتحدة - المغرب/تونس (باعتبار أن الأخيرتين نظم تقليدية محافظة) . وفي عقر أمريكا اللاتينية نجد محور الولايات المتحدة - الدول المحافظة الأساسي ، في مقابل شبه محور فرنسا - الدول « الثورية » . حتى في آسيا نستطيع أن نلمح شبه محور فرنسي - هندي بازغ ، في مقابل شبه المحور الأمريكي - الباكستاني الراجع . وهكذا وهكذا إلى آخره .

وعلى أية حال فقد أصبح من الواضح عموماً أن هامشاً ما من الاختلاف الحقيقي أو النسبي في المصالح الاستراتيجية والسياسة والاقتصادية بين أوروبا والولايات المتحدة قد بزغ في ظل الوفاق . إلى حد أن ارتفعت هنا وهناك في أوروبا بعض صيحات الحياد ، كما عادت إلى السطح الدعوة القديمة إلى حل حلق الأطلس ووارسو على السواء ، ودعك

من الدعوة الطوباوية المعاصرة إلى دمجها في حلف واحد مشترك^(١) . بل لقد وصل الأمر مؤخرا إلى حد أن تكهن بعض المراقبين السياسيين بأن عدم الانحياز نفسه قد يغزو أوروبا يوما ما (كذا) .

بالمقابل ، ففي وجه هذه التهديدات أو التلميحات الأوربية الداعية إلى الانسحاب أو النكوص في صراع العملاقين ، أيا كانت قيمتها الحقيقية ، برزت على الجانب الأمريكي نفسه بغضب نغمة العودة إلى العزلة والتهديد بالخروج من أوروبا وتركها لشأنها ، يعنى تاركة « أوروبا للأوربيين » مثلما تركت من قبل « آسيا للأسيويين » . وهذا كله ما يهدد بأن تتحول الفجوة إلى جفوة ، والصُّدَاع إلى صدع .

سيناريو الوفاق حرب أكتوبر ثانية

كان أول اختبار قوة فعال للوفاق الجديد أو الوليد هو حرب أكتوبر ، التي إن لم تعد صراعا مباشرا أو غير مباشر بين العملاقين أو الكتلتين فإنها كانت على الأقل محكومة ومضبوطة بمحدود وفاقها الوافد ، شأنها في ذلك شأن كل الصراعات الاقليمية اللاحقة والتي ستنتفط العقد كله وإلى اليوم (بما في ذلك حتى أزمة جزر فوكلند النائية والواقعة في عقر دار المعسكر الغربي نفسه) . هذا رغم أن أحد طرفي تلك الحرب كان قد تباعد بدرجة معلومة عن القوة العظمى الصديقة له تقليديا .

وابتداء ، فلقد كان من أول بنود الوفاق إحباط إمكانيات العودة إلى الحرب في الصراع العربي - الإسرائيلي ، وذلك عن طريق إعلانه الشهير عن « الاسترخاء العسكري والاستراتيجي » في الشرق الأوسط . ولأن هذا كان يعنى بكل بساطة ومباشرة وسفور تثبيت الأمر الواقع لصالح الطرف المحلي المنتصر من قبل وهو العدو الإسرائيلي ، فإن هذا التقاهم إن لم يعتبر « ميونيخ » سوفيتية للولايات المتحدة من جهة ، و « خيانة » سوفيتية للعرب من الجهة الأخرى ، فقد عده البعض على أقل تقدير « تواطؤا » سوفيتيا - أمريكيا .

وسواء كانت الحرب قد قامت « برغم » الوفاق كما يذهب البعض أو « بفضل »

(١) محمد عزيز شكري ، « التكتلات والأحلاف الدولية في عصر الوفاق » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ٨١ .

الوفاق كما يذهب البعض الآخر^(١) ، فإنها كانت أساسا مبارزة بين السلاح الأمريكي في جانب والسوفيتي في الجانب الآخر. ولأن الولايات ، كما أعلنت ، لم تكن على استعداد لأن ترى السلاح الأمريكي يضرب ويهزم بالسلاح السوفيتي ، فقد حدثت التدخلات والمداخلات الوفاقية في الميدان وخارجه ، بحيث أتت المعركة على جسامتها أقرب إلى الجمود المتوازن stalemate ونتيجتها أقرب إلى التعادل أو التحييد بلا نصر استراتيجي حاسم وإنما مجرد نصر تكتيكي متواضع على الأكثر ، في حين أتت نتائجها ومعقباتها السياسية في النهاية أقرب وأقرب إلى التميع وأشد شحوبا وضياعا على الأقل ، إن لم تكن حقا قد انتهت إلى قلب جذري تام وغير مسبوق للموقف العربي الأساسي برمته . لقد دمغ الوفاق المعركة بخاتمه الباهت وطابعه التميع بقوة ، بينما دمغ الصراع كله بقوة وعنف أكثر مما ينبغي .

ليس هذا فحسب ، وإنما جاءت نتائج الحرب عكسية و/أو معاكسة أو انقلابية انعكاسية للعملاقين مثلا جاءت للطرفين المحليين . فلقد ترتب عليها مباشرة إخراج الاتحاد السوفيتي نهائيا من قلب المنطقة وقلب الصراع واستبعاد من الحل السياسي كلية ، بينما وضعت الولايات قدمها في حذائه وورثت دورة كاملا بل مضاعفا . وفي النتيجة عادت منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي أقرب في معظمها إلى الارتباط الأمريكي بعد أن كانت منصفة بالتقريب بينه وبين الارتباط السوفيتي .

وفي المحصلة النهائية ، وهاهنا المفارقة المذهلة ، فإن عقدة فيتنام التي قادت إلى الوفاق والجزر الأمريكي السياسي عالميا لم يكن لها من استثناء سوى العالم العربي وحده والشرق الأوسط فقط . فبينما أطلقت عقدة فيتنام ثم صفقة الوفاق يد روسيا عمليا في العالم كله تقريبا إلا العالم العربي وحده بالدقة والتحديد (فلسطين - إسرائيل) ، كفت يد أمريكا تقريبا في العالم كله إلا العالم العربي وحده للتعاسة والسخرية !

على امتداد الساحة الاقليمية

فإذا نحن انتقلنا إلى سائر الصراعات الاقليمية الأخرى التي تورط أو شارك فيها العملاقان خلال العقد وإلى اليوم ، لوجدنا أن الاتحاد هو الذي يحرز زمام المبادرة ويسجل نقطة الفوز دائما أو غالبا . يصدق هذا ابتداء من حرب الهند - باكستان في

Heikal, op. cit. p. 191.

(١)

بداية السبعينات وانتصرت فيها الهند ، إلى ظلال حرب فيتنام في كمبوتشيا ولاوس في آسيا ، ومن أنجولا إلى موزمبيق في أفريقيا الجنوبية . وفي القرن الأفريقي فإن الاتحاد وإن خسر الصومال للولايات بعد ارتباط طويل ، فإنه انتزع منها بعد ارتباط أطول إثيوبيا التي تفوق الصومال وزنا وأهمية بكثير .

غير أنه هو الشرق الأوسط بالذات الذي سجل فيه الاتحاد أخطر نقطة . فعدا الوجود السوفيتي السابق في بعض دوله العربية كتحالقات أو علاقات صداقة وثيقة أو قواعد بحرية ، خاصة في ليبيا وعدن وسوريا والعراق ، فإنه وصل في عملية أفغانستان إلى حد الغزو الكامل ، وذلك أيضا في الوقت نفسه الذي أخرجت الولايات من إيران المجاورة .

وفي المحصلة ، بالمناسبة ، حدث نوع من تبادل المواقع أو الأدوار بين العملاقين في هذا الجزء الكبير والخطير من العالم . فقبل حرب أكتوبر كان السوفيت في العالم العربي أساسا ، والغرب في أفريقيا خصوصا . ولكن بعد الحرب حدث العكس : خرج السوفيت من العالم العربي كثيرا ، ودخلوا أفريقيا أكثر . ولا يعني هذا بالطبع استقطاب أفريقيا بين شمال غربي (أعني أمريكي) وجنوب شرقي (أي سوفيتي) ، ولكنه قد يوحى بانطباع جزئي طفيف وربما بمؤشرات مستقبلية محدودة في ذلك الاتجاه .

سر الانقلاب

ذلك في خطوط العريضة هو سجل الصراع وحصاد الوفاق . والسؤال الكبير هو : كيف ولماذا حدث هذا الانقلاب الاستراتيجي الجسم بين العملاقين ، وما مداه ومغزاه ؟ حسنا ، في الوقت نفسه الذي نشأت فيه للولايات المتحدة عقدة فيتنام وتضخمت حتى شلت حركتها كثيرا ، تحرر الاتحاد السوفيتي من عقدة الحرب المحدودة التي شلت حركته من قبل في ظل التعايش السلمي ، وذلك حين تبني استراتيجية الرد المرن والحرب التقليدية بعد أن استكمل استعداداته لها استراتيجيا بالأساطيل البحرية وفرسان الجو... الخ . وتلك في ذاتها مصادفة تاريخية خارقة ، ولكنها بحد ذاتها أحد أخطر ضوابط الوفاق ومحددات مساره .

فلأول مرة منذ ربع قرن ينحسر المد الأمريكي حول العالم ويتحول إلى جزر حقيقي خشية التورط في فيتنام أخرى ، في حين يعلو المد السوفيتي هنا وهناك خاصة في أفريقيا وآسيا والكاروبي... الخ . ولأول مرة اختل توازن القوى العالمية عسكريا وسياسيا لصالح

السوفيت منذ انتهاء الحرب الثانية . ولأول مرة وباعتراف الجميع أصبح الاتحاد على جانب الهجوم على امتداد الساحة الدولية سياسيا وغير سياسي ، والولايات على الدفاع .
ولأول مرة منذ ظهور الثنائية القطبية لم تعد صحيحة بالضرورة نظرية « من مع أمريكا يكسب » أو « من مع أمريكا يكسب » ولا النظرية المقابلة « من مع السوفيت يخسر » أو « من مع السوفيت يخسر » . ولأول مرة ، وبالأخص منذ الثمانينات ، تصبح « أزمة القوة الأمريكية » قضية شبه يومية مطروحة في الصحافة ووسائل الاعلام والمعاهد العلمية والاستراتيجية الأمريكية ، بينما تعترف الادارة نفسها على كل مستوياتها وتردد بلا انقطاع ولا موارد تراجع القوة الأمريكية النووية والتقليدية وتفوق القوة السوفيتية المحقق .

ولأول مرة ، أخيرا وليس آخرا ، يصبح كل هم الاستراتيجية العظمى لأمريكا هو استعادة التوازن الاستراتيجي والتصدى للتفوق والخطر والزحف السوفيتي أو الشيوعي عالميا واقليميا ومحليا ، حتى باتت تخضع كل اهتماماتها وموقفها في الصراعات الاقليمية لهذا الضابط الحاكم وحده ، بصورة تنذر بالعودة بالعالم إلى سياسة المواجهة والمجاهبة والتطويق والتصادم وتكاد تذكر بالستينات أو السبعينات ، بل وذلك إلى الحد الذي عاد معه حلفاؤها الأوروبيون كما رأينا يشدون في الاتجاه المضاد وينشدون السلام ويضغطون عليها بقوة من أجله - ولكن بلا جدوى فيما يبدو .

وهنا ، عند هذه النقطة ، لا يمكن لأحد التنبؤ علميا بما سيكون عليه شكل أو مسار الثمانينات الاستراتيجية : أياكون امتدادا للسبعينات أي للوفاق ، أم انقلابا عليه وارتدادا إلى الستينات ، أم صيغة أخرى في ضمير الاستراتيجية لم تنزل . لنرجئ القضية ريثما نطل إطلالة فاحصة على رحلة الصغار بعد أن تابعنا رحلة الكبار .

الفصل الرابع عشر

استراتيجية عدم الانحياز

كأول نيت للمناخ السياسي الجديد في عالم مابعد التحرير والذرة ، كان لعدم الانحياز بالضرورة والامتياز فعل الزناد أو الشرارة بما أطلق بعده من انعكاسات تتابعت من الوحدة الأوربية إلى الوفاق . غير أن عدم الانحياز منذ النشأة إلى اليوم مر في مرحلتين مختلفتين جذريا من الصعود والارتقاء والارتفاع ثم من الانحدار والانضاع وربما الضياع . ولهذا يرسم خطه البياني منحنى قوسيا جرسيا bell-shaped ، له سفح صاعد وآخر هابط ، الفرق بينهما سياسيا كالفرق بين الشباب والشيخوخة تماما أو كالفرق بين عصر وعصر تقريبا . فالجانب الصاعد ، بما في ذلك عصره الذهبي أو « العصر البطولي beroic age » ، يمتد نحو عقد من أواخر الخمسينات إلى أواخر الستينات ، بينما يمتد الجانب الآخر من التل من أواخر الستينات مغطيا السبعينات ثم واصلا حتى اليوم ، وفيه تلقى عدم الانحياز أقصى اختباراته وأشدّها مرارة .

وبقدر ما طغت قوته المعنوية على الصورة النظرية في المرحلة الأولى ، مما فتح الباب لكثير من الحساس المسرف المفرط والعاطفية غير الموضوعية ، بقدر ما انقلبت الصورة في المرحلة الثانية حتى طغت عليها جوانب ضعفه من الناحية التطبيقية ، بل وإلى حد فتح الباب للاغراق والاستفراق في الانهزامية اليائسة والمراجعة البائسة بل والتراجع المضطرب أحيانا . من ثم فنحن هنا ، أكثر من أى شيء آخر ، بحاجة إلى النظرة العلمية السوية التي تميز بين النظرية والتطبيق ، بين التحليل الأكاديمي المتفائل والتجربة الواقعية بعنفوانها .

مرحلة الصعود

فإذا بدأنا من البداية ، فلقد أعطت ثورة التحرير نسلا ضخما من الدول الجديدة

الصغيرة النامية التي تفتتح على خضم السياسة العالمية ودوامته كوحدات مستقلة لأول مرة منذ عقود وأحيانا منذ قرون . بل إن كثيرا منها لم يعرف شكل الدولة الوطنية الحديثة قبل الاستعمار إطلاقا ، وأكثرها لم يكن يعرف العالم الخارجى إلا عن طريق طاقة ضيقة احتكارية محكمة هي دولة المتروبول الاستعمارية . ولما كانت الدول الاستعمارية ترسم لهذه المستعمرات - كتابع صماء - توجيهها الخارجى وتقنله فى تيارات بعينها ، فلقد كان هذا التوجيه السياسى يرسم فى النهاية نمطا طاردا مركزيا centrifugal تتباعد به المستعمرات ، وتعطى ظهرها لبعضها البعض فى الوقت الذى تقرب قسرا من المتروبول .

ولهذا فإن مرحلة ما بعد التحرير كانت بالضرورة مرحلة صناعة السياسة الخارجية الجديدة ، تحاول فيها أن تتلمس طريقها بحدس وأن تتحرك بأمان فى غاب السياسة العالمية وأدغالها ، معسكراتها وكتلها . ومنذ البداية وجدت الدول المتحررة نفسها تخضع لضغوط عنيفة فجأة أحيانا أو انسيابية ولكنها خطيرة أحيانا أخرى تحاول أن تتجاوزها أو أن تأسرها فى فلكتها . ولم تكن هذه الضغوط لتخرج فى جملتها وفى التحليل الأخير عن مناورات الحرب الباردة ومغناطيسية الاستقطاب الثنائى .

ومنذ البداية أيضا وجدت هذه الدول الصاعدة الرد فى « الحياد الإيجابى وعدم الانحياز » ، وأخذت تتجاذب وتستقطب فى طريقه حتى أصبح هذا نمطا جاذبا مركزيا centripetal يجمع بينها بعد أن كانت فى ظل الاستعماريات شعثا ونمطا طاردا مركزيا ، وحتى أصبحت جبهة عدم الانحياز تمثل عالما قائما بذاته هو العالم الثالث .

ضغوط الغرب

وبديهى أن تأتى الضغوط الخطيرة حقا على الدول الوليدة النامية من جانب القوى الاستعمارية السابقة : أولا بحكم القصور الدائى للاستعمار والتقليد الإمبريالى ، وثانيا لضمها أو ابتلاعها فى صفها فى الحرب الباردة وحرب الكتل المذهبية . فأما عن العامل الأول ، فإن القوى الاستعمارية القديمة إذا كانت قد أرغمت على الخروج فهى لم تغير بعد من عقليتها الاستغلالية وعقدة السيطرة والتحكم .

والواقع أنها لم تخرج أصلا إلا لتعود ، وإنما عودة المحتال الذكى لا اللص الغبى هذه المرة ، ولم تنحن لموجة التحرير إلا لتركبها ، وبذلك تدور حول روح العصر دون أن تصطدم به . والشعارات التكتيكية التى رفعها الاستعمار فى تلك المرحلة هى وحدها دليل يكشف كل استراتيجيتها : ارحل لتبقى Quit to stay ، الاستقلال داخل الترابط

Independence within interdependence ، حلب البقرة دون ملكيتها .. الخ .

وجماع هذا ومحصلته هو ما أصبح يعرف بجدارة « بالاستعمار الجديد » . ومحور ارتكازه أن يغير الشكل دون الموضوع ، والاطار لا الصورة . فهو أولا استعمار نخبيء غير سافر ولا مباشر ، اقتصادى لا سياسى ، يعتمد على تفتيت الدول المتحررة لا تبعيتها ، وامتصاصها لا امتلاكها ، وأدواته الشركات والاحتكارات لا الجيوش والغزوات . وإذا كان الاستعمار القديم « يعطى الإنجيل ويأخذ الأرض » ، فإن هذا الجديد يعطى الاستقلال ويأخذ المحصول . وهو بذلك يستبدل بالاستعمار السياسى الاستعمار الاقتصادى ، ويتبنى النمط اليانكى فى أمريكا اللاتينية بدلا من النمط الإنجليزى فى أفريقيا . إنه باختصار أذكى - بعد أعلى - مراحل الإمبريالية .

أما عن مناورات الدول الاستعمارية لاستدراج الدول المتحررة إلى جانبها فى الحرب الباردة والصراع الكئلى ، فقد أخذت شكلا عنيفا مكشوبا . فلم يكن كسب العالم الثالث أوثلث العالم فى هذا الجانب أو ذلك بالأمر الذى يمكن التقليل من خطورته فى تحديد نتيجة الصراع العالمى^(١) . ولهذا استأنت الكتلة الاستعمارية الغربية فى محاولة ضم العالم الثالث ، عالم الدول النامية الفقيرة حديثة الاستقلال ، إلى صفها وابتلاعه فى فلكها السياسى والمذهبى ، حتى وإن وصل الضغط والاكراه إلى حد العنف والقهر . وفى هذا السبيل استهدف الغرب هدفين : الاستراتيجية والأيدولوجية ، واتخذ أداتين : الأحلاف العسكرية والنموذج الرأسمالى .

الاستراتيجية والأحلاف

فأما الاستراتيجية والأحلاف فقد مرت منذ نهاية الحرب الثانية وفى الخمسينات بفترة محومة - أكاد أقول مسعورة - حشد المعسكر الغربى فيها كل ضغوطه أولا على العالم العربى ، وثانيا على آسيا الموسمية ، ثم فى النهاية على أفريقيا المدارية ، لكى يربطها بسلسلة من الأحلاف التى يصفها « بالدفاعية » موجهة ضد المعسكر الشرقى وما نعته « بالخطر الشيوعى » على « العالم الحر » .

وكان منطلق الغرب فى هذه الحملة هو أنه مع التحرير قد أصبحت هذه المناطق بلا قوة حرية تواجه ذلك الخطر ، أصبحت يعنى « فراغا » من وجهة نظره ، وادعى

(١) مورجنتاؤ .

أن ملأه من واجبه . تلك كانت - في الشرق الأوسط مثلا - « نظرية أيزنهاور » نظرية الفراغ ، أما تطبيقها فكان مشروع حلف الشرق الأوسط (الميدو Medo) ثم حلف بغداد أو الحلف المركزي فيما بعد (الستو Cento) فضلا عن الحلف الإسلامي الفضفاض ، وهكذا بقية السلسلة حتى الشرق الأقصى وحلف جنوب شرق آسيا (السيتو Ceato) . ولقد وصلت الضغوط من أجل هذه السياسة إلى أقصاها في منطقة العالم العربي بالذات بحكم خطورة موقعها الاستراتيجي ومواردها البترولية بينما كانت أقلها نسبيا في أفريقيا المدارية لتطرفها .

ومن نقطة الضغط الأقصى هذه ، وبالذات من نواتها النووية مصر ، تفجر رد الفعل البكر أصيلا وبتارا . فقد عدت للمنطقة أحلاف الغرب « استعمارا جماعيا أو دوليا مقنعا » لجأ إليه كبديل للاستعمار الفردي القديم في آخر مرحلة من مراحل شيخوخته وعجزه وانهياره ، وأعلنت رفضها للتبعية الجديدة التي تضعها في مناطق النفوذ وتربطها بعجلة الاستعمار وبكتلة رجعية عدوانية . ورفضت المنطقة مبدأ الفراغ فإن قوتها الذاتية هي جديرة بأن تملأه . كما نبذت التلويح بالخطر الشيوعي البعيد الموهوم ، في حين يمحى خطر الاستعمار - بما في ذلك الإسرائيلي أساسا - على أنفاسها أو تطاردها أشباحه .

وفي وجه هذه المقاومة النضالية الثورية ، سقطت سياسة الأحلاف الغربية في المنطقة وأصبح العالم العربي يمثل الحلقة المفقودة في استراتيجية التطويق والاحتواء . لقد رسمت مؤشرات المستقبل وتحددت بوصلة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز .. وإن هي إلا سلسلة من الأفعال وردود الأفعال حتى كان هذا النموذج الحيادي ينتشر في أرجاء العالم الثالث ويصبح دستور التوجيه السياسي للدول للتحركة حديثة الاستقلال . ومن هنا أتى الحياد الإيجابي وعدم الانحياز الابن الشرعي لثورة التحرير والعدو الطبيعي للاستعمار والإمبريالية .

الايديولوجية والنموذج

ومثل هذا عن الايديولوجية والنظم الاجتماعية يقال . فقد انطلق المعسكر الغربي الرأسمالي ليعرض نموذجه المذهبي على العالم الثالث للتححر الذي عاش عمره الاستعماري في ظل اقتصاد رأسمالي أو إقطاعي . وفي هذا السبيل حاول أن يستغل وجوده السابق ، وعلاقاته الاقتصادية الاحتكارية مع دوله الجديدة ، وكان منطوقا أن تفشل خطته

ودعايته ، لأن هذه الدول وجدت أن نكبتها الاستعمارية المزمرة إنما بدأت أصلاً كجزء من النظام الرأسمالي ، وأن الرأسمالية الاستعمارية هي وحدها التي نزحت مواردها واستنزفت إنتاجها وثروتها .

ومن ناحية أخرى فلقد وجدت هذه الدول في تخلفها الرهيب أن عليها أن تقطع شوطاً شاقاً لتعوض به الماضي ، وأن عشوائية وانتهازية الاقتصاد الحر وأناركية المذهب الليبرالي الفردي لا يمكن إلا أن تكون معوقاً خطيراً في هذا السبيل ، وبغير الاقتصاد الموجه والتخطيط الرشيد ستزداد تخلفاً على تخلف . وفي نفس الوقت كان أمامها نموذج دول الكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد والصين التي ثورت اقتصادها وكيانها بمعدل العاصفة وإلى مدى يكاد يتعدى حدود الخيال إذا قيس بمدى التجربة .

ثم هي كانت تتلفت حولها فتجد ، على سبيل المثال ، معدل نمو الاقتصاد في الاتحاد السوفيتي ضعف معدل الولايات المتحدة ، وأن معدل نمو الإنتاج الصناعي في الكتلة الشيوعية ثلاثة أضعافه في الكتلة الرأسمالية . كذلك كانت تنظر إلى الخلف قليلاً فتري أن ظروفها تشبه بدرجة أو بأخرى ظروف روسيا ١٩١٧ أو الصين ١٩٤٩ أو كوريا ١٩٥٩^(١) . ومن هنا كانت حتمية الحل الاشتراكي بالنسبة للدول المتحررة النامية . وإذا كان بعض الاقتصاديين مثل هايلبرونر يرى أن أخطر حقيقة في عصرنا هي اتجاه العالم المتزايد نحو جماعية الاقتصاد collectivization أو تشريكه socialisation ، فإن الدول المتحررة تؤكد هذا الاتجاه بكل قوة^(٢) .

بيد أنها إذا كانت قد نبذت الطريق الرأسمالي أساساً ، فهي في الأعم الأغلب لم تكن على استعداد لأن تحتل النمذج الشرقى في صورته الشيوعية ، بل آثرت طريقاً اشتراكياً وسطاً معتدلاً لا ينجح إلى أقصى اليسار . وفي رأى البعض أن هذا الطريق الوسط يتمثل في الجمع بين قطاع عام قائد وسائد وقطاع خاص ثانوى ، وأن هذه الوصفة الاقتصادية هي بمعنى ما التعبير الاجتماعي عن عدم الانحياز كمبدأ وكفكرة . وأياً كانت صحة هذا التأويل ، فليس من الصدفة بالتأكيد أن السواد الأعظم من دول العالم الثالث تبنت الفلسفة الاشتراكية المتزنة ، ولا تكاد دولة جديدة تتحرر حتى تعلن الأخذ بهذه الأيديولوجية . وهكذا ازدوجت الثورة الوطنية بثورة اجتماعية ، وارتبطت

R. Heilbroner, The Future as History, N.Y., 1960, p. 88.

(١)

(٢) للرجع السابق ، ص ٩٣ .

تحرير الوطن بتحرير المواطن ، وأصبحت الثورة الثنائية قانون البلاد المتحررة تقريبا .
خذ مثلا نمو الحركة وتوسعها على المستوى العددي والجغرافي كما تمثلت في مؤتمراتها
العديدة عبر العقود الأخيرة . ففي مؤتمرات باندونج وبلغراد حوالى منتصف الخمسينات
بلغ عدد الدول المشتركة حوالى ٢٥ دولة . وحوالى مطلع السبعينات كان العدد قد
تضاعف أو أكثر من تضاعف حيث تراوح حول ٥٠ - ٦٠ دولة . ولم تأت مطالع
المانينات حتى كان العدد قد قفز إلى علامة ال ٧٥ دولة . أى أن عدد المشتركين قد
تضاعف ثلاثة الأمثال في نحو ربع قرن من ١٩٥٥ إلى ١٩٨٠ . وفي آخر المؤتمرات ارتفع
عدد المشتركين إلى ٨٦ دولة . وهذا الرقم القياسى الأخير الذى سجلته الحركة يضم على
الأقل نحو ١٠٠٠ - ١٥٠٠ مليون نسمة تمثل ثلث سكان العالم تقريبا وتغطي القارات
الجنوبية الثلاث مع قطاع أوربي كالماس . لقد أصبح العالم الثالث ثلث العالم إلى نصفه
ربما^(١) .

هكذا فى الاستراتيجية السياسية وفى الأيديولوجية الاقتصادية ، تبلورت للدول
المتحررة خطوط جديدة أصيلة ترفض أحلاف الغرب ونظمه مثلما ترفض حدافير نموذج
الشرق ، وترسم لنفسها طريقا جديدة - الطريق الثالثة - لا غربية ولا شرقية ، وإنما
تنبع من طبيعة ظروفها ومرحلة تطورها وتتواءم مع مفهومها ومثلها فى التحرر وعدم
التبعية . وهكذا تحددت معالم الحياد الإيجابي وعدم الانحياز كخط يضمن للدول النامية
استقلالها وسلامتها فى عالم الكتل ويؤمن تنميتها وتطورها خارج عالم التخلف .

ولسنا بحاجة أن نقرر أن مثل هذا الاختيار لم يكن بالأمر اليسير لا داخليا
ولا خارجيا ، لا غربيا ولا شرقيا . فقد حاربه المعسكر الرأسمالى علنا وبكل عنف
وضراوة ، فلسفيا واقتصاديا بل وعسكريا ، بينما لم يتقبله الشرق إلا بنصف قلب على
الأكثر ، ثم فيما بعد حاول كلاهما أن يستدرجه ويستميله إلى صفه أو أن يستغله ويخترقه
لحسابه .

فأما الموقف الأمريكى فغنى عن التذكير : « من ليس معنا فهو ضدنا » ، ومن ثم
فإن عدم الانحياز - إيجاب أو لا إيجاب - « لا أخلاقى » كما وصمه دلز ، الذى خرج
بكل جبروته وعتوه « ليقصص حجمه » . ولم يكن هذا الموقف ليخرج فى حقيقة عن

(١) عزيز شكرى ، ص ٨٩ .

نظرية أن عدم الانحياز إنما هو « حلف الضعفاء » إن لم يكن حقا « حلف الرقيق المحرر » (كذا ١) .

أما اقتصاديا فقد استعمل كل أسلحته ، الحصار والخنق والضغط والتجويع ، حتى إذا ما استنفدت هذه أغراضها وصل بالفعل إلى مرحلة العدوان المسلح كما حدث في مصر حيث بدأ التحدى الجديد ورفع النموذج الثورى ، فحاول الاستعمار الغربى أن يجهض الأم ويتد الوليد ويجعل من المثل أمثلة تردع بقية الدول الجديدة .

ولهذا فإن هذه المعركة نقطة تحول خطيرة جدا فى تاريخ العالم الثالث ، وهى فى تقديرنا تحدد ميلاد عدم الانحياز نهائيا وبنجاح ، وبعدها فتح الباب على مصراعيه ليصبح عدم الانحياز والعالم الثالث مرادفين أو شبه مرادفين . وفى المدى التدريجى ، فرض الخط الجديد نفسه فرضا على الغرب الذى لم يملك فى النهاية إلا أن يعترف به ويتعامل معه كحقيقة صلبة وأمر واقع ليس له من دافع .

موقف الشرق

أما من جانب المعسكر الشرقى فهو لا شك قد بدأ علاقته مع العالم الثالث برصيد لا بأس به من الحياء المبدئى أو على الأقل من انعدام الروح العدائية . فرغم كل ما فعلته دعابة الغرب ليجعل منه خطرا محيفا فى أذهان الدول النامية والمتخلفة ، فمن الواضح أنه كان يرجح عندها الغرب فى نقطتين : أنه لا تاريخ استعمارى له معها ، وأنه بلا تجربة عنصرية ولا عقدة لونية بينها .

غير أن الاستعمار الغربى يعود فيحاول فى هذا الصدد أن يدس إسفينا بين الشرق والعالم الثالث ، فيرد على النقطة الأولى بأن الاتحاد السوفييتى مارس الاستعمار الأرضى المتصل وإن منعه جغرافيته من ممارسة الاستعمار المدارى عبر البحار . ويرد على النقطة الثانية بأنه يدعى مثل المساواة العنصرية ولا يمارس التفرقة العنصرية لا لشيء سوى أن تجربته اقتصرت على الاحتكاك بالعناصر الصفراء وخلت من الاحتكاك بالجنس الأسود الذى هو المحك الحقيقى للتفرقة^(١) . ولكن العالم الثالث لم يكن ليخضع ، وعرف كيف يختار مواقعه الطبيعية من حيث المبدأ من الأعداء وغير الأعداء .

(١) فترجالد ، ص ١٨٥ .

فى النظرية

وفى هذه العلاقة ينبغى أن نقرر موضوعيا أن موقف المعسكر الشرقى من طريق العالم الثالث تأرجح مرحليا بين انجهاين تغلب أحدهما فى النهاية ليصبح هو السياسة الرسمية له . فن الناحية النظرية كانت الشيوعية تفترض وتتوقع أن الثورة العالمية ستم على أيدى بروليتارية الدول الاستعمارية فى غرب أوروبا ، ولم تكن تنتظر للمستعمرات دورا مرموقا أو غير مرموق فيها . وبالمقابل ، فلقد تنبأ لينين باستقلال المستعمرات ونحوها إلى قوة عالمية فى مصائر العالم ، وأضاف أنها ستعتمد فى ذلك على الروس والشرق . أما ما حدث بالفعل فهو أن النبوءة الأخيرة هى - للغرابة أو الصدفة - التى تحققت ، بينما حدث العكس فى حالة النظرية الأولى . فلقد أصبح الغرب زقاقا شبه مسدود للاشتراكىة ، بينما لم تسجل الاشتراكىة أعظم وأخطر توسع كاسح لها فى النصف الثانى من القرن العشرين إلا فى المستعمرات السابقة ، المتحررة الآن .

وتلك لا شك كانت وثبة طافرة مطلوبة وطفرة ترحب بها الكتلة الشيوعية باعتبارها على أقل تقدير ابتعادا عن الطريق الرأسمالى الغربى وحرمانا حقيقيا للمعسكر المضاد من أرض سابقة . ومن هذه الزاوية تقدم الشرق سريعا لمساندة قوى التحرر الجديدة فى وجه التربصات الاستعمارية الغربية ، وكانت قمة التعاون هى استجابته لكسر احتكار السلاح بصفقة الأسلحة المصرية الشهيرة التى لا جدال كانت المحك الفاصل فى اختبار القوة بين التحرر والحياد من جهة وبين الاستعمار والتبعية من جهة أخرى .

إلا أن هذا الانفجار الاشتراكى فى نفس الوقت لم يكن فى نظر الماركسية اللينينية هو كل الطريق ولا نهاية المطاف . بل لعله إلى حد بعيد يقطع الطريق على الشكل الراديكالى للشيوعية ويسلبه إمكانياته ويقطع عليه خط الثورة اليسارية المطلقة . غير أن الكتلة عادت - ليس قبل مساجلات حادة واختبارات قوة مع قيادة الخط الجديد - فاتخذت موقفا واقعيا واعترفت به بغير مزايدات أو مساومات . وعلى أية حال فإن الكتلة الشرقية حتى الآن لا تقبل تسمية نظم دول العالم الثالث الجديدة بالاشتراكىة ، بل تسميها أحيانا بالطريق غير الرأسمالى ، أو تعتبرها على الأكثر مرحلة انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكىة ، وتفضل دائما أن تشير إلى أصحابها كثورة التحرير الوطنى .

فى التطبيق

هكذا ، وعلى خلاف الموقف الراديكالى الغربى أو الصليبي الأمريكى ، تبنى الاتحاد

السوفيتي على الجانب المضاد موقفا متصفا على الجملة يتراوح بين الريبة والعداء وبين محاولة الصداقة والاحتواء مع توجيهه وفلسفته ماركسيا^(١). فن جهة « من ليس ضدنا فهو معنا » ، ولكن في الوقت نفسه فإن « من يقف وسط الطريق تدهمه العربات » ، وعدم الانحياز إن لم يكن « خرافة وهراء »^(٢) فإنه « كالسير على حبل مشدود »^(٣) ، ومن ثم « لا فقري » . وفيما عدا هذا فإن من المعروف أن الصين تنهم الاتحاد باستمرار بأنه يعمل على تقويض عدم الانحياز « والمهيمنة » عليه .

ولما كان عدم الانحياز في الأصل والأساس حركة ضد استعمار الغرب القديم أو بعيدا عنه ، فقد قدم الشرق الذي لا تاريخ استعماري له خارج حدوده نظرية سهلة براءة مؤداها أنه هو الأقرب تلقائيا إلى عدم الانحياز وأنه الحليف الطبيعي له . وبالمقابل ، ود الغرب بأن في عدم الانحياز إذن « انحيازاً » طبيعياً ومسبقاً إلى الشرق وضد الغرب . بل واتهمه بعد ذلك بأنه « مخلب قط للشوعية أو للشرق »^(٤) . هذا في حين لم يكف عدم الانحياز من جانبه عن تأكيد استقلاله إيديولوجيا عن المعسكرين كليهما والإصرار على أنه يقف على الحياد وسط بينهما ، لا مع ولا ضد أي من الكتلتين على حدة أو كليهما معا^(٥) . والحقيقة ، كما أثبتنا الواقع ، هي أنه إذا كان لا بد من المفاضلة والتمييز بين الكتلتين على أساس الصداقة والعداء ، فلعلنا من أسف أن نقول إن الشرق كان الصديق - العدو والغرب العدو - الصديق ...

وعلى الجملة ، فإذا نحن رمزنا إلى العالم الأول والثاني والثالث بالأرقام ١ ، ٢ ، ٣ على التوالي ، فإن عدم الانحياز يتمثل مثاليا في المعادلة ١ - ٣ - ٢ ، بمعنى أن العالم الثالث يقع أو يقف على بعد متساو من كل من العالمين الأول والثاني . غير أنه في الواقع كان متبها من قبل الغرب في الستينات بأنه يتبع المعادلة $2 + 3$ ، بمعنى أن العالم الثالث كان منضمها إلى الثاني ضد الأول . وبالمقابل فإن عدم الانحياز أصبح متبها من قبل الشرق في السبعينات بأنه ارتد إلى المعادلة $1 + 3$. أي أنه انتقل إلى جوار العالم الأول ضد الثاني .

(١) أحمد صدق الدجاني ، عبد الناصر والثورة العربية ، ١٩٧٣ ، ص ١٧٨ ، ١٩٧ .

(٢) Heikal, p. 81.

(٣) الدجاني ، ص ٢٠٢ .

(٤) Heikal, p. 69.

(٥) الدجاني ، ص ١٩٢ .

ومها يكن الأمر ، فهكذا نجد في الخلاصة أن رحلة الحياض الإيجابي وعدم الانحياز لم تكن نزهة سياسية ، بل جاءت على جسر رهيف كالصراط من الصراع ، وبقدر ما لقيت من معوقات داخلية ، بقدر ما تعرضت للشد والجذب والوعد والوعيد خارجيا ، وكما عبرت ثورات داخلية متعددة خاضت معارك خارجية ضارية من اليمين واليسار على السواء ، ولم تشق طريقها إلا بعد أن فرضت نفسها فرضا على العالم ، عالم الكتل . ولكنها في هذا أفادت إلى أقصى حد من مساعدة ومساندة المعسكر الشرقي وأديا وماديا لتقف في وجه أخطار المعسكر الغربي وتهديداته ، دون أن تقدم أى تنازلات أو مساومات للأول مع ذلك .

وبمعنى آخر فقد أفادت استراتيجية عدم الانحياز بالقطع من الحرب الباردة ، ولكنها نجحت في ألا تصبح جزءا من تلك الحرب . بل لقد بدا للبعض في حين ما أن مجموعة عدم الانحياز ، بقدرتها على الحركة الحرة الإيجابية وسط الشلل الذي فرضه التوازن الثرى على الكتلتين ، كانت هي ، بمفارقة عجيبة ولكنها مفهومة ، تكاد توجه سياسة العالم وتحركها أو تتحكم فيها إلى حد بعيد ، وذلك - كما يشبهون - على غرار ما يفعل حزب صغير مثلا كالأحرار في بريطانيا (أو على مستوى محلي أصغر الماورى في نيوزيلندا) حين تتعادل كفتا الحزبين الكبيرين العمال والمحافظين .

النمط الجديد

التطور التاريخي

آن لنا الآن أن نتساءل : ما مغزى ظهور عدم الانحياز في عالمنا المعاصر ، وكيف يعدل من نمط القوى السياسية الكبرى ؟ وما هي خريطة الاستراتيجية العالمية اليوم في نظرة كلية كوكبية ؟ لعل أعمق وأخطر معنى يبرزه عدم الانحياز هو أنه قد أضاف بعدا ثالثا إلى الكتلتين الكبيرتين المعروفتين ، وبذلك حول ويحول أبعاد العالم من ثنائية إلى ثلاثية واضحة المعالم ، وهذه حقيقة كبرى من حقائق العصر تتضح بجلاء إذا نحن حللنا أصول كل من هذه الأبعاد الثلاثة على الترتيب .

مرحلة احتكار القوة

فحتى نهاية القرن التاسع عشر كان الاستعمار الأوربي يسيطر ، كما رأينا ، على أغلب أجزاء العالم ويفرض عليه بالقهر نظاما سياسيا واحدا مغلقا من صنعه ، وكان ذلك إلى

أبعد مدى عصر « احتكار القوة » . ورغم الصراعات الدموية بين قوى الاستعمار من أجل هذه السيطرة والاحتكار ، كان الغرب المستعمر يستشعر في النهاية نوعا من الوحدة في مواجهة بقية العالم المستعمر ، وفي ظل هذه الدائرة المغلقة كان الاستعمار طليقا يعربد في العالم دون رادع أو قوة مكافئة تعمل على توازن القوى فيه .

وإلى حد كبير ، كانت الثورة الفرنسية ترمز إلى ، وتحديد بداية ، هذا النظام الاستعماري العالمي . فهي كثورة قومية ، لم تكن تستهدف « الحرية والإخاء والمساواة » إلا للوطن القومي أولا والوطن الأوربي ثانيا ، وذلك رغم أن أوروبا الرجعية تكالبت عليها في البداية لتثدها ، بيد أن المهم أنها لم تكن تقصد أن تصدر هذه المبادئ إلى خارج الدائرة الأوربية وإنما العكس هو الصحيح : ثورة بورجوازية تشرع الاستعمار في الخارج ونسعى إليه . وعلى هذا فإن الغرب الأوربي الرأسمالي البورجوازي يستعمر في الخارج باسم الثورة القومية في الداخل ، وهو استعمار سياسي اقتصادي سافر ، وهو استعمار القراصنة بلا موارد ، وهو مهندس الإمبراطوريات الإمبريالية ، والهدف في النهاية أن يصل إلى احتكار القوة في العالم ويجعل منه نظاما سياسيا كوكبيا واحدا .

مرحلة الاحتكار الثنائي

ومع الثورة الشيوعية في روسيا تبدأ المرحلة الثانية لتكسر احتكار القوة العالمي وتنصفه إلى احتكار ثنائي . وقد جاءت هذه ثورة على البورجوازية الرأسمالية أي ثورة على الثورة الفرنسية إن صح التعبير ، فهي ليست ثورة قومية ولكنها أساسا تنشد أن تكون عالمية وتعمل ما وسعها ، بعكس الثورة الفرنسية ، على تصديرها إلى الخارج . وهي بعكس الثورة الفرنسية لا ترى القومية ولكن الطبقة ، فتنكر القومية وتستنكر القوميات ولا تعترف بوحدة إلا وحدة الطبقة ، والطبقة العاملة البروليتارية .

وكما تعرضت الثورة الفرنسية مؤقتا لتألب أوروبا الاقطاعية ، فقد تعرضت هذه الثورة لعداء الغرب الرأسمالي ولكن إلى أعنى حد وإلى آخر المدى لأنها تنقض وجوده وكيانه من صميمه . وسواء صح الاتهام أو لم يصح ، فإن الغرب يتهم الشرق بأنه باسم الثورة اللاقومية يستعمر : ليس كاستعماره السياسي السافر ولكن - هكذا يقول - استعمارا أيديولوجيا مقنعا ، ليس كاستعماره القراصنة ولكن « استعمار الرفاق » ، ولا يبنى الإمبراطوريات الإمبريالية ولكن « الإمبراطوريات الطبقة » أو « الإمبراطوريات البروليتارية » .

وأيا ما كان ، فليس يعنينا هنا هذا الاتهام ، ولكن الذى يهمنى هو أن هذه الثورة النقيضة قد خلقت لنفسها مجالا ضخما وكتلة عظمى . وهى قد استطاعت أن تظهر وتثبت - بجانب قوتها الذاتية المتعاضمة - بفضل الاستفادة المنظمة من المتناقضات العميقة بين دول الغرب ، سواء فى ذلك تناقضاتها الداخلية الطبقية فى كل دولة ، أو تناقضاتها الخارجية الاستعمارية فيما بينها أى توازن القوى داخل دائرة الغرب . وأبسط مظهر ودليل فى هذا الصدد أن الاتحاد السوفييتى تحالف مع الغرب ضد ألمانيا النازية حتى هزمت ، وحتى خرج الغرب نفسه مضعضعا وبرزت قوة الاتحاد إلى الصدارة .

وفى النتيجة خرجت الثورة الشيوعية من الحرب وقد أصبحت كتلة عظمى تناظر وتناطح كتلة الغرب الاستعماري . وبهذا انكسر احتكار القوة فى العالم ككل لأول مرة وورثه الاحتكار الثنائى ، وأصبح العالم يتنازع سياسيا قطبان متنافران ، أصبح العالم كما قد نقول « نصفى كرة » سياسيا بعد أن كان الكوكب كله كرة واحدة مضغوطة مكبوتة .

مرحلة القوة الثلاثية

ثم نصل إلى المرحلة الثالثة والأخيرة مع عدم الانحياز لنشهد الاستقطاب الثنائى يتحول بدوره إلى ثلاثية عريضة ، وليحل محل نصفى الكرة السياسيين مثلث ، لانقول متساوى الأضلاع ولكنه على أية حال ذو أضلاع ثلاثة ورؤوس . وكما بدأت كل من القوتين السابقتين بثورة تاريخية ، فكذلك بدأت القوة الثالثة بثورة عارمة هى ثورة التحرير التى تفتتحها وترمز لها وتلخصها « ثورة » ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وكما كان للثورة الروسية نسل كبير من الثورات الأقل قدرا ، فكذلك كان للثورة المصرية سلسلة من ردود الأفعال والثورات فى العالم الثالث وعالم المستعمرات كأنها الموجات الحلقية للتدرجة حول حجر ألقيت به فى بركة آسنة .

وتماما كما تعرضت الثورتان الأوليان للمحاصرة والضرب من الخارج ، فقد تعرضت الثورة المصرية للانقضاض المسلح عليها من الغرب الاستعماري الذى كانت هى انتقاضة مباشرة عليه وتحديا لوجوده وكيانه عبر البحار . ولذلك فإن حرب السويس كانت بمثابة حرب التدخل بالنسبة لروسيا السوفييتية ، ومعركة بور سعيد كموقعة فالى بالنسبة لفرنسا الثورة . وكما خرجت الثورتان الأوليان مظفرتين ، خرجت الثورة المصرية بدورها مظفرة لترسم سابقة التحرير فى كل المستعمرات ولتضع علامة بدء عدم الانحياز ولتصك شهادة

ميلاد العالم الثالث كقوة جديدة تضاف إلى القوتين القطبيتين القائميتين وتثبت أن أبعاد العالم الجديد ثلاثة لا اثنين .

وتعالم كما استفادت الثورة السوفيتية في البداية ، والكتلة الشيوعية في النهاية ، من التناقضات الدانخية والصراعات المزمدة داخل الكتلة الغربية الرأسمالية ، فكذلك - عدا تفجرها وقواها الذاتية - أفادت الثورة المصرية في البداية ، و ثورة التحرير في العالم الثالث في النهاية ، من التناقضات الجذرية بين قوتي الغرب والشرق ، سواء في ذلك من مجرد توازن القوى الحرج وانهيار احتكار القوة العالمى القديم ، أو من المناخ المعادى للاستعمار الذى خلقه وجود الكتلة الشرقية ، أو بالمساعدة المباشرة عسكريا بالسلاح وسياسيا بالتأييد أو اقتصاديا بالمعونات والقروض .

غير أنه يبقى في النهاية أن الثورة المصرية و ثورة العالم الثالث تختلف عن أى من الثورة السوفيتية و ثورة العالم الشيوعى ، وال الثورة الفرنسية و ثورة العالم الرأسمالى . فالأخيرة - ثورة الغرب - ثورة قومية طبقية ، و ثورة الشرق ثورة لاقومية لاطبقية ، و ثورة العالم الثالث ثورة قومية لاطبقية . ولهذا فإذا كانت ثورة الغرب باسم القومية والطبقية نستعمر ، وكانت ثورة الشرق باسم اللاقومية واللاطبقية تتكتل ، فإن ثورة العالم الثالث بحكم القومية واللاطبقية لاستعمر ولا تتكتل ولكن تتحرر . ومن هنا حرص العالم الثالث وعالم عدم الانحياز على أن يكون قوة - قوة ثالثة - دون أن يتحول إلى كتلة ثالثة لأنه بالتعريف لا ينحاز ، وتكتله في معسكر ينقض جوهر عدم الانحياز .

والناظر في هذه المتتابعه التطورية لاشك بروعه تماثل ميكانيكيها المتواترة . فثمة ثورات عالمية كبرى ثلاث هى معا نقط الارتفاع والانقطاع في التاريخ السياسى الحديث كله ، و ثمة كتل أو قوى ثلاث خلقتها في النهايه تلك الثورات على التوالى . وكل ثورة وكل قوة منها لا تستقر ولا تندعم إلا بعد نجمة نضالية مريرة مع القوى الخارجيه . ولكن كلا من القوتين الأخيرتين الشرق والعالم الثالث لم تظهر إلا على حساب الأولى الغرب واقتطعت منها بالتدريج جزءا من مجالها ونفوذها ووزنها حتى انكشفت هذه كثيرا وكادت أن تكون اليوم مجرد إسفين في جسم العالم⁽¹⁾ .

من ثم فإن القوتين الأخيرتين أقرب إلى بعضهما موقفا وذلك من حيث إنها تفتان

Keith Buchanan, op. cit. p. 335.

(1)

بالضرورة على حذر من أخطار الكتلة الأولى ، ومن حيث إن مصالحها هي مبادئها بينما أن مبادئ الغرب هي مصالحه . غير أنه بعد هذا تختلف مبادئ كل من الشرق والعالم الثالث ، ومن هذا الاختلاف يستمد الأخير أصالته . وأخيرا فيمكننا أن نرى أن الثورات الثلاث تمثل تاريخيا وأيديولوجيا متتالية هيكلية ديالكتيكية شديدة الوضوح : فإذا كانت الثورة الفرنسية هي « التقرير » اليميني المتطرف . فإن الثورة السوفيتية هي « النقيض » اليساري المطلق ، بينما تأتي الثورة المصرية « كالتركيب » المعتدل الأوسط :
thesis, antithesis, synthesis

الصورة الجغرافية

هذا عن الناحية التطورية ، أما من حيث الصورة النهائية الناتجة فلن يكون من الصعب على الناظر إلى نمط مورفولوجية القوة الراهنة في العالم أن يرى فيها امتدادا - وإن يكن معدلا تعديلا جوهريا - لثلاثية ماكيندر الكلاسيكية . أما الذين لا يرون نمطا على الإطلاق في عالم اليوم فإنما هم الذين لا يريدون أن يروا أو يعترفوا بعدم الانحياز وبالعالم الثالث . فهناك - لا يزال - الكتلتان النوويتان الغربية والشرقية اللتان ورثتا قوة البحر والبر القديمة ، بينما منطقة الارتطام والالتحام البينية قد ورثتها اليوم قوة عدم الانحياز أو العالم الثالث . ويمكننا أن نقول إن هذا تطور من مفهوم جغرافي بحث للاستراتيجية العالمية إلى مفهوم فني أو حضاري ، وهو تطور منطقي وطبيعي إذا ما تذكرنا أن التكنوستراتيجية قد حلت محل الجيوستراتيجية .

الهيئة والشكل

ولا شك أن قوة عدم الانحياز تعد بين الكتلتين قوة « بينية » بكل وضوح ، وذلك موقعا ودورا ووظيفة ، مثلما كان سلفها منطقة الارتطام . فأولا ، ليس من محض الصدفة بالتأكيد أن جرثومة الحياد الإيجابي ودعوة عدم الانحياز إنما تنشأ في صميم منطقة الارتطام ومنها تنتشر . بل ليس من الصدفة مطلقا أن أقطاب عدم الانحياز هي ثلاثة من أكثر أجزاء منطقة الارتطام التاريخية حساسية وخطرا : بوغوسلافيا : مصر : الهند ! وكان من الطبيعي جدا أن تنبثق مثل هذه السياسة الأصيلة الجديدة من صميم منطق استراتيجيتها الكامنه بحساباتها قد عاشت مهصورة محصورة بين شقي رحى البر والبحر . لقد تحول الموقع الجغرافي إلى موقف سياسي .

ثم إن هذه القوة الثالثة الجديدة « بينية » في فلسفتها ومثلها ومنظورها

الأبيدولوجى ، حيث لا تتطرف يمينا أو يسارا ، وتعترف بالقومية وتحارب الاستعمار . كذلك هى إلى حد ما وفى معنى جديد « بينية » بموقعها الجغرافى بين الكتلتين . فرغم أن دول الحياض الإيجابى وعدم الانحياز تمتد على جبهة عريضة مترامية فى القارات الجنوبية مساحة فى نصف الكرة الجنوبى ، وتعدت بذلك كثيرا جدا الحدود الجغرافية لجبهة الارتطام الأمفيبية القديمة ، فإنها فى ظل استراتيجية الفضاء النووية تظل مفتوحة لكل من الكتلتين وفى تناول مداها . وإذا كان توزيعها الجغرافى اليوم قد انساح ولم يعد أمفيبيا ارتطاميا تماما بالمعنى الجيوستراتيجى ، فهى تظل بينية بالمعنى التكنوستراتيجى . إلى هذا الحد ، لاشك أن قوة الحياض الإيجابى وعدم الانحياز هى الترجمة الحديثة والتطوير المعدل فى عصر التحرير والفضاء لقوة الارتطام القديمة . فكما كانت منطقتها أصلا منطقة نفوذ الاستعمار ومستعمراته سابقا ، فإنها الآن الشكل الجغرافى الجديد والوريث الجيوبوليتيكي لمنطقة الارتطام القديمة بين قوى البر والبحر . ولكن هذا الاطار الجديد بعينه هو الذى يكسبها دورا جديدا فى العالم ويمنحها وظيفتها ورسالتها الأصلية التى تختلف جوهريا عما ألفت منطقة الارتطام . فكقطب موجب للقوة فى العالم متحرر ونام ، لم يعد هم هذه المنطقة مجرد أن تحافظ على كيانها واستقلالها من أخطار القوى الأخرى كما كان شأن منطقة الارتطام فى الماضى ، ولم يعد من شأنها أن تضاربا ببعضها البعض من موضع الضعف وفى قوقعة العزلة لتضمن بقاءها أو تحصل على مكاسب منها .

الدور والوظيفة

لقد كانت منطقة الارتطام خط خمود سياسى ومنطقة رهو ، ولكن قوة عدم الانحياز اليوم خط استواء سياسى ينشد ويمكن أن يكون غالبا يحل السلام القائم على العدل محل سلام الرعب الذرى . وبهذا فإن مجموعة عدم الانحياز أصبح دورها الإيجابى أن تكون « جيروسكوب » سياسيا يحفظ توازن سفينة العالم وتوازن القوى الكوكبية ويمنع مصير الكرة الأرضية من أن تتقاذفه وتعصف به الكتلتان الدينوصوريتان .

وينبغى أن يكون واضحا أن هذا الدور يختلف عن دور « المرجح » الذى كانت تلعبه بعض القوى الاستعمارية فى توازنات القوى العالمية قديما ، بمعنى أن تنحاز إلى أحد الجانبين المتصارعين^(١) . فهذا بالتحديد ما يقوم عدم الانحياز ضده . وإذا كان ثمة من

(١) مورجتاو .

انحياز وحيد متاح ومفتوح أمام عدم الانحياز ، فهو إلى عدم الانحياز وحده ا فإنما الأصل فيه سياسيا أنه تجمع لامعسكر ، وتجمع من أجل السلام لا معسكر من أجل الصراع . إنه ليس كتلة بل قوة ، ليس كتلة ثالثة ولا يستطيع ولا يقدر ، وإنما قوة ثالثة ، بالتحديد قوة سلام لا حرب .

بل إنه ليس قوة بقدر ما هو قدوة ، وإنما هو تحالف فقراء العالم وضعفائه ، أى تجمع « الأقارب الفقراء » الذى يمثل عقله لاعضله . إنه ، باختصار وكما عبر أقطابه : « ضمير العالم » ، لسان حاله ، وصمام أمنه : طلق حرم من قيود التحيز والتحزب ، غير مفرض وغير ملتزم إلا بالأخلاقيات السياسية ومبادئ التعايش السلمى ، فيه تتعايش المصالح والمبادئ لأول مرة بلا تصادم ولا تعارض ، وبه تتحقق الصيغة الوحيدة للزواج الشرعى السعيد بينها .

من هنا جميعا فإن وظيفة عدم الانحياز اليوم أن يكون همزة وصل لا حاجز فصل بين الكتلتين ، وأن يمد جسرا عبر الأخطود الغائر بينهما . ودوره إذن هو دور المر لا دور الخندق ، أو بتشبيه جغرافى دور البرزخ لا دور المضيق . باختصار إن استراتيجية عدم الانحياز الجديد لا تتلخص فى منطقة « ارتطام والتحام » وإنما فى « منطقة التثام ووثام » بين الكتلتين تحيل الستار الحديدى إلى ستار حريرى .

مرحلة الانحدار

العوامل الخارجية

دور يونيو

إذا عدت حرب السويس سنة ١٩٥٦ مولد عدم الانحياز ، فإن حرب الأيام الستة ١٩٦٧ كانت الضربة القاصمة الأولى التى تلقاها ، بينما جاء الوفاق فى سنة ١٩٧١ بمثابة الضربة القاضية والأخيرة coup de grâce . بل إن البعض ليذهب إلى حد القول بأن نكسة يونيو لم تكن فقط نكسة لعدم الانحياز ككل ، وإنما كانت مقتله مثلما كانت مقتل ثورة يوليو نفسها . وعلى هذا ينتهون إلى أن عدم الانحياز كما ولد على يد أو فى حجر ثورة يوليو سنة ١٩٥٦ ، فإنه مات على يدها أو على جثتها فى يونيو ١٩٦٧ . وإذا صح هذا المنطق فرضا أو جدلا ، جزئيا أو كليا ، لكان معناه أن ارتفاع وانحدار عدم الانحياز إنما يتعاصر ويتواكب مع ارتفاع وانحدار مصر (والعرب معها) .

وأيا كانت التحفظات أو الاعتراضات الخاصة أو الجانبية ، التي لا تعيننا هنا في كثير أو قليل ، فإن هذا المنطق يبدو موضوعيا إلى حد بعيد ، لأن مصر كانت من مهندسي عدم الانحياز المؤسسين وفي طبيعة عمدته وزعمائه . فسواء عدت القاهرة كما ذهب البعض أو الأمم المتحدة كما ذهب البعض الآخر « عاصمة العالم الثالث »^(١) . فلن ينكر منصف أن مصر خلال الستينات كانت من داخل عدم الانحياز تلعب دورا عالميا شبه قيادي شبه محوري ، أكبر من كل تصور تقليدي ، وأكبر على الأرجح من جرمها المحلي الذاتي ، وأكبر بالتأكيد من كثير من قوى أوربية هامة أبعد نحضرا وتطورا .

وعلى أية حال ، ودون مبالغة شوفينية في دور مصر في حركة عدم الانحياز ، فليس من سبيل إلى الشك في أن نكسة عدم الانحياز بدأت بنكسة يونيو مباشرة وأساسا ، حيث كان لسقوط مصر وقع الصاعقة على العالم الثالث بأسره ، وحيث تطامن الدفع أو الزخم الثوري في العالم وانحسر المد الوطني إلى جزر لا محل للإنكاره عالميا .

والواقع أن عدم الانحياز ، والأصل فيه تاريخيا أنه ابن ونبت الاستقطاب الثنائي والحرب الباردة جزئيا ، الواقع أن قوته كانت دائما تتناسب تناسباً طرديا مع درجة حرارة الحرب الباردة أى مع حدة الصراع بين القطبين والكتلتين ، مثلما سنرى على الفور أنها تتناسب عكسيا مع درجة الوفاق أو زاوية الانفراج^(٢) . فكما رأينا ، ففي غمرة الشلل النووي بين الأقوياء لم يجد عدم الانحياز فرصة الظهور فحسب ، بل وبرز إلى المقدمة ليلعب دورا عالميا أكبر بكثير مما يتناسب مع قوته الذاتية الداخلية ووزنه الطبيعي الحقيقي ، ونعني بذلك دور الحكم أو المرجح بين الكتلتين وبين القطبين ، ومن ثم دور الند لها تقريبا والقوة الثالثة بجانبها نسبيا .

ولعل هذا كان مما أعطى عدم الانحياز نفسه شعورا وهميا نوعا بتضخم الذات والأهمية منذ البداية . ولقد تكشف هذا كله بصورة مأساوية مفرجة في حرب يونيو ١٩٦٧ القاتلة ، التي لم تكن في جوهرها كما رأينا إلا جزءا لا يتجزأ من مناخ الحرب الباردة ولعبة أو خدعة التعايش السلمى بين الكبار .

Heikal, p. 122.

(١)

ibid., p. 11, 193-4.

(٢)

الوفاق

على أن الضرورة الكبرى لعدم الانحياز إنما جاءت مع الوفاق أو الانفراج بين القطبيين . فكما جاءت الوحدة الأوربية ردا جزئيا على حركة التحرير الوطني في الستينات ، لم يلبث الوفاق أن جاء ردا جزئيا على عدم الانحياز في السبعينات . إذ لما كانت قوة عدم الانحياز مستمدة إلى حد بعيد من حدة الاستقطاب الثنائي ، فقد جاء الوفاق الثنائي تلقائيا ليسحب الأرض أو البساط من تحت أقدامه إلى حد أو آخر . محاولا بذلك أن يسلبه قوته المكتسبة إن لم يكن مبرر وجوده ذاته . ولا غرابة بعد هذا أن بدا الوفاق للعالم الثالث كما رأينا نوعا من التواطؤ السافر بين القطبيين ، وكانفاية بالثا ثانية تستهدف تقسيم العالم الثالث بالتحديد إلى مناطق نفوذ جديدة حيث استهدفت بالثا الأولى اقتسام أوروبا وحدها فقط .

ومن الناحية العملية ، على أية حال ، فلقد جاء الوفاق الثنائي بين القوتين الأعظم في أخرينات القرن وعلى المستوى العالمى أشبه شيء بالوفاق الثنائي القديم بين قوتي الاستعمار القديم في أوائل القرن على المستوى الاقليمي . فكما أطلق الأخير يد فرنسا في المغرب مقابل إطلاق يد بريطانيا في مصر ، أطلق الوفاق كأمر واقع يد الاتحاد السوفيتي في أفريقيا والعالم الثالث مقابل إطلاق يد الولايات المتحدة في الشرق الأوسط والعالم العربي لاسيا بعد طرد الروس من الجزء الأكبر والأخطر منه^(١) .

وهكذا من كلا الموقفين على تناقضهما لم يتورع القطبان عن سياسة استقطاب أو اختراق مجموعة عدم الانحياز ومحاولة تفتيتها إلى عناصرها الأولية أو وحداتها الاقليمية أو القومية ثم تخاطف أو اقتطاع أكبر قطعة أو قطاع منها لحسابه أو إلى صفوفه . والواقع أن كلا القطبيين حاول استقطاب عدم الانحياز وجذبه إلى فلكه حتى يعود من جديد منطقة نفوذ ولكن بصورة جديدة وفي منافسة حرة مفتوحة . وفي هذه المعركة الشرسة لا يتورع الجانبان عن الالتجاء إلى أى سلاح ، بما في ذلك سلاح المتناقضات ومتناقضات السلاح .

فعن الأخير مثلا ، فإن الغرب يتهم الشرق عند عدم الانحياز بأنه مجرد « تاجر سلاح » ، مورد أسلحة لا يملك أن يقدم إليه سوى السلاح ، بينما يقدم نفسه إليه على أنه

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ج ٢ ، ص ٨٢٨ - ٧٣١ .

وحده الذى يمكن أن يعطيه السلام ، كما وضعها كيسينجر مرارا بصدد العالم العربى خاصة . غير أن الحقيقة الموضوعية تختلف . فالشرق لا يعطى عدم الانحياز السلاح إلا بشروط سياسية أولا ، ثم بمعدلات تتناسب تناسباً طردياً مع درجة حرارة الحرب الباردة أو زاوية الانفراج بين القطبين ، ثم أخيراً بكليات ونوعيات تكاد تضمن له الهزيمة عادة أو غالباً . والغرب من جانبه يفتح كل ترسانته الفتاكة لأعداء عدم الانحياز بلا حساب ، بل بكل تخطيط محسوب لفرض الهزيمة عليه . ولهذا كله فليس صحيحاً بالضبط أن الشرق لا يملك إلا أن يعطى السلاح بينما يملك الغرب أن يعطى السلام ، وإنما الصحيح أن الشرق لا يملك إلا أن يقدم الهزيمة والغرب إنما يملك أن يقدم الاستسلام .

هذا عن متناقضات السلاح ، أما عن سلاح المتناقضات فلعل قصة القطبين مع العالم الإسلامى كجزء من العالم الثالث وعدم الانحياز بالغة الدلالة وأبلغ من كل مقالة . فكلاهما يحاولان الغواية والاعراء أو بالاحتياك والاحتواء أن يستدرج العالم الإسلامى إلى صفه فى صراعه غير المقدس مع الآخر . فبينما اعتبر الشرق والسوفيت من جانبهم أن العالم الثالث رصيد احتياطى وصيد طبيعى بحكم عداوته الموروثة لمستعمره السابق وهو الغرب ، فإن الغرب والأمريكىين بدورهم اعتبروا العالم الإسلامى رديفاً أو حليفاً جاهزاً ضد الروس والشرق والشيوعية الملحدة ، وذلك باعتباره من الأديان السماوية مثلهم . وعلى هذا الأساس حاولوا مراراً تجنيده ليكون قفازهم أو مغلب القط فى حرب « صليبية إسلامية » ! « لاناقة لهم فيها ولا جمل » .

غير أن الغرب نسى فى هذا أن أكبر عدوان تعرض له العالم الإسلامى مادياً ومعنوياً كان على يديه منذ القرن ١٩ وحتى مأساة فلسطين . ولم تكن موجات الحركات الإسلامية العديدة التى نَقَطَت القرن الأخير وحاربها هو أو وأدناها سوى الرد الوحيد على التحدى الاستعمارى والقهر الإمبريالى ، بينما أن المد الإسلامى المعاصر ليس بدوره إلا جزءاً من دينامية عدم الانحياز فى وجه الاستقطاب الثنائى ، وثورة على تبعية الغرب وهيمنة الشرق على حد سواء^(١) .

وعلى أية حال ، فلعل المفارقة المثيرة على مستوى الواقع العملى هى أن سياسة كل

(١) جمال حمدان ، العالم الإسلامى للعاصر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٣١ - ١٣٨ .

من الغرب والشرق لاستقطاب العالم الثالث واستدراج العالم الإسلامي تكاد تحقق عكس أهدافها تقريبا في الحالين . فبينما تحول عدم الانحياز في كثير من دوله إلى انحياز مقنع لأمريكا والغرب مؤخرا ، انقلب العالم الإسلامي على أمريكا وأوروبا في كثير من دوله خاصة إيران وبعض وحدات العالم العربي .

معادلة القوة والمقاومة

تلك إذن هي العوامل الخارجية الرئيسية التي ساهمت في تدهور عدم الانحياز وانحداره . والسؤال الآن هو كيف يمكن له أن يتصدى لها بفاعلية ونجاح ؟ والرد ببساطة أن القضية إنما هي في النهاية قضية القوة والمقاومة ، الفعل ورد الفعل ، أو الصمود والتصدي . فالدفاع عن عدم الانحياز هو مسئولية دول العالم الثالث أساسا ، بالاشتراك مع حلفائها الطبيعيين حيثما وجدوا . وعليها هنا أن تعمل أساسا لكي لا تفلت قضاياها التحريرية من قبضتها وسيطرتها هي لتصبح موضع تسويات القوى الكبرى أو كجزء من كشف حساب الحرب الباردة عامة . وتقسيم العمل في هذا النضال واضح بما فيه الكفاية : الحد الأقصى من السلاح الوطني ، في يد الحد الأقصى من القوات الوطنية .

فن الواضح أن أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية في العالم الثالث هي في الحقيقة أخطر مناطق التسليح الغربي كما أثبتت مثلا حروب الشرق الأوسط ، حيث ظهرت إسرائيل كترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان . وفي هذا الصدد يمكن بغير مبالغة أن نضع معادلة عالمية تتألف من عدة متغيرات إقليمية تحتل أساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربي .
- مصير العالم العربي يتوقف على مصير فلسطين/إسرائيل .

وتفصيل هذا أو تفسيره أن العالم الثالث يمثل اليوم نقطة الارتكاز fulcrum بين ذراعي القوة والمقاومة في الصراع العالمي بين الغرب والشرق ، فإذا أمكن صد المد الإمبريالي في العالم الثالث وانحسر عنه إلى جزر نهالي ، فإن الميزان سيتأرجح وينقلب نهائيا ضده أو في غير صالحه . ولكن العالم العربي هو الجبهة الأمامية والطليلة الحرجة في العالم الثالث ، ونتائج الصراع فيه تنعكس عليه مباشرة إن سلبا أو إيجابا . وأخيرا فإن محور الصراع وبؤرة الحرب ومعقل الإمبريالية في العالم العربي بدوره إنما هي القاعدة الاستعمارية الصهيونية . وقد كانت نكسة يونيو ١٩٦٧ وما بعدها هي بلاشك قمة

الزحف الاستعماري في العالم الثالث كله ، سعى إليها بالتدرج من أطرافه حتى وصل إلى قلبه . وانكسار هذه القاعدة الاستعمارية يمكن بالمقابل أن يكون نقطة الانكسار في كل مسار الزحف الإمبريالي في العالم الثالث . ونفس انكسار تلك القاعدة هو وحده الذي سيفتح الطريق إلى الوحدة العربية التي - وحدها أيضا - ستثبت قيادة العالم العربي في العالم الثالث .

ولذلك كله فلا شك أن مصير إسرائيل الصهيونية سيحدد في نهاية المطاف مصير الإمبريالية العالمية . فما دامت إسرائيل باقية فإن الإمبريالية ستظل مقيمة لا ترم في العالم الثالث ، ولكن يوم تذهب إسرائيل فسوف تكون تلك بداية النهاية المطلقة للإمبريالية . وما نظن ذلك من المبالغة في شيء ، بل لعله أن يفسر وحدة المصالح والمصير المطلقة بين إسرائيل والولايات المتحدة ، بل لعل شيئا لا يؤكد كما تؤكد تصريحات زعماء الولايات المتحدة نفسها من أن ضمان بقاء إسرائيل يمثل مصلحة بقائية للولايات نفسها ، وهو ما يؤكد كذلك ما قلناه من قبل من أن الصهيونية أعلى مراحل الإمبريالية والاستعمار ، وهو ما يتفق أخيرا مع الحقيقة المسلم بها وهي أن مشكلة فلسطين هي أعقد وأخطر مشكلات عصرنا جميعا .

ومن المنطقي بعد هذا كله أن نقول إنه لما كان مصير الصراع العربي - الإسرائيلي سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة من بين العرب ، بمثل ما أن مصير الإمبريالية العالمية سيتوقف على مصير إسرائيل ، فإن مصير عدم الانحياز والعالم الثالث سيتوقف في التحليل الأخير على مصير مصر بالدقة . وليس في هذا غرابة ولا جديد ، إذ من المسلم به أن مصر كانت منذ البداية القوة الركن في هذا العالم والقطب الرائد في ذلك الخط - دون أن يقلل هذا ، مع ذلك ، من الدور النضالي الذي يمكن ويجب أن تلعبه كل وحداته ومناطقه . ويوم تنجح مصر والعرب في تصفية الاستعمار الإسرائيلي ، فسيكون ذلك شهادة ضمان نهائية للعالم الثالث وعدم الانحياز ، وفي نفس الوقت صك زعامتهم فيها . ويترتب على هذا أيضا أن القطبين النهائيين في الصراع بين الإمبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب الولايات المتحدة ومصر . ولا جديد أيضا ولا غرابة في هذا ، فكل منهما يلخص زعامة مجموعته ، إلى جانب أنه يفسر ما شاهدناه من تركيز العدوانية الأمريكية على مصر بالذات . وهذا العداء الضاري ، إذ يقوم بين أقدم دولة هامة في التاريخ وبين أحدث دولة هامة في التاريخ ، كان من الممكن أن يعد مؤسفا وغير مفهوم مثلا هو غير متكافئ ، لولا أن قد فرضته الأخيرة فرضا غير مفهوم وغير عادل . ولكن

هذا التحدى ومثله يؤكد لنا ويعود بنا إلى ما سبق أن أشرنا إليه عن مسئولية العالم الثالث كله نحو نفسه ، وأن الضمان الحقيقي والأخير لاستقلاله وبقاء عدم الانحياز ، في وجه أى خطر حقيقى أو مزعوم غربا كان أو شرقا ، هو القوة الذاتية القادرة بمستويات العصر ومقاييسه .

ثم سؤال هام يثور هنا : هل يؤدي هذا الصدام والعداء ، كما روج وتخوف الكثيرون منذ حرب الشرق الأوسط خاصة ، إلى قطيعة نهائية وعداء أبدى بين العالم الثالث والغرب أو بين العالم العربى والولايات المتحدة ، وإلى تكريس للحقد والانتقام الأمريكى بخاصة ، بما يعنى ذلك من احتمال فقدانهم مستقبلا كمصادر للمعونة في عصر يحكمه العلم والتكنولوجيا كما لم يحدث من قبل ، ويحكمون هم ناصيته كما لم يحدث أيضا من قبل ؟ التساؤل في ذاته وجيه بعيد النظر ، وجدير بكل اهتمام ، ولكن الاستغراق في مثل هذا المنطق وتغليب في مرحلة مصيرية تحدد وتهدد الوجود ذاته يمكن أن يكون مدمرا ، كما أن مثل هذه المخاوف تجهل أو تتجاهل طبيعة العلاقات الدولية الحاكمة .

ولتوضيح هذا نقول إن الاستسلام للعدوان لا يزيد المعتدى إلا طغيانا وانتقاما ، بينما أن المواجهة الصلبة إلى أن تنكسر موجته ترغمه في النهاية على التعقل وإعادة العلاقات على أساس الاحترام المتبادل والأخذ والعطاء ، لا سيما مع وجود منافسين - من الغرب نفسه - على استعداد دائما للماء الفراع . وتطور علاقة الاستعمار البريطانى والفرنسى في العالم مثلا بعد خروجها منه ورغم تاريخها المغم فيه ، دليل قاطع في هذا الصدد .

إن القلق من طغيان الولايات المتحدة ومن سياسة القوة التي تفرضها على العالم قد بدأ يمتد إلى حلفائها في غرب أوروبا أنفسهم ، وبدأت تستشعر باطراد نوعا ما من العزلة الباردة في سياستها العالمية ، ولا يستبعد بعض المفكرين أن يكون رد فعل الولايات إذا تفاقمت موجة الكراهية والرفض ضدها أن تنسحب إلى قدر ما من العزلة ، ليست كهزلتها التاريخية بالتأكيد ، ولكن بما يتسق مع العصر النووى . والواقع أن العالم القديم لم يكن أحوج منه اليوم إلى مبدأ مونرو عكسى يبعد العالم الجديد عن التدخل في شئونه !

والخلاصة باختصار أن احتمالات المستقبل في العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الثالث ، وبينها بين العالم العربى خاصة ، لا يمكن التنبؤ بها بدقة وقطع في المدى البعيد ، ولكنها في جميع الحالات لا يمكن أن تورق الثورة على الإمبريالية اليوم ، ولا

ينبغي لها أن تدفع بها إلى أن تبسج واقع الثورة التحريرية من أجل وهم الثورة التكنولوجية . فمثل هذه المساومة أو الصفقة لن تعنى فى الظروف الراهنة سوى الاستسلام وبالتالى فقدان التحرر والتكنولوجيا معا وإلى الأبد ، بينما أن الصمود والمقاومة الآن جديرة بكسبها معا وإلى الأبد .

فى السياسة كما فى الحياة ، وفى الحاضر كما فى الماضى ، الحق هو القوة والقوة هى الحق . فكل حق إنما بدأ قوة ، ثم أضيف إليها الأمر الواقع مضروبا فى عامل الزمن فأصبحت حقا مكتسبا ، بينما أصبح الحق مجرد تقنين للقوة . لكن ، بنفس المنطق ، فإن كل قوة قائمة تعد قابلة للنسخ بفعل قوة مضادة لها فى الاتجاه ومماثلة فى القوة . وما الحق لهذا إلا الاسم الرومانسى للقوة ، بينما أن القوة هى الاسم العلمى للحق ، تماما بمثل ما أن المبادئ هى الاسم الرومانسى للمصالح والمصالح هى الاسم العلمى للمبادئ . وفى ذلك فليتنافس الأحرار ، لا العبيد .

العوامل الداخلية

حسبنا هذا إذن عن العوامل والعلامات الخارجية الموجهة ضد عدم الانحياز وعمما ينبغى له من وسائل التصدى والمقاومة . غير أننا نخطئ خطأ جسيما إذا نحن رددنا انحذار عدم الانحياز إلى العوامل والقوى والضغوط الخارجية المضادة وحدها . وحتى إن فعلنا فإن هذا ليس مما يشرف عدم الانحياز أو يزيكه ذاتيا . وإنما الصحيح أن هناك ، بالإضافة ، مجموعة من العوامل الداخلية منبثقة من صميم عدم الانحياز نفسه وهو وحده المسئول عنها مسئولية كاملة .

فن جانبه هو ذاته فإن مجموعة عدم الانحياز توسعت توسعا أفقيا خطيرا فى العقدين الأخيرين دون أن يصاحب ذلك توسع رأسى يمنحها عمقا كقوة عالمية ، بحيث كادت كثافته وقوته تتناسب باطراد تناسبا عكسيا مع مساحته ودعايته . لقد كان عدم الانحياز منذ البداية كماً أكثر منه كيفاً ، ومساحة أكثر مما هو كثافة ، أى له مسطح أكثر مما له عمق . فلقد كانت رقعته السياسية تغطى دولا عديدة للغاية ، بينما كانت كثافته السياسية واهية هشة نسبيا ، فجاء وزنه الجيوبوليتيكي الكلى من ثم محدودا نوعا .

كذلك فإنه كان دائما أقل التجمعات السياسية الدولية تجانسا وأشدّها تنافرا فى عناصر تركيبه وحتى فى تركيبته السياسية ذاتها ، مثلما كان أقلها تماسكا وأكثرها تخلخلا . ومع ذلك فإنه ما برح يتوسع وينساح أفقيا ، دون أن يتوسع أو يتعمق رأسيا ، إن لم

يزداد حقا ضحولة وسطحية . وفي النتيجة تحول عدم الانحياز نسبيا إلى وعاء هلامي وعباءة فضفاضة للغاية ، ربما تطوى من التناقضات الداخلية قدر ما تحوى من المبادئ الأساسية ، بل وقد تحنى من الانحياز مثل ما تبدى من عدم الانحياز^(١) .

ولعلنا هنا نلاحظ أن العوامل أو الخصائص التي كانت في البداية عوامل قوة وجذب في عدم الانحياز قد تحولت في النهاية إلى عوامل ضعف وتشتت . من ذلك مثلا ما يذكره كاتب محاميد من « عمومية الفكرة ، وعدم تحديدها بوجه دقيق ... وعدم وجود التزامات محددة ترتبها . فلا عجب ، والحالة هذه ، أن نرى ضمن الكتلة دولا يصعب اعتبارها غير منحازة ، لو أخذنا عدم الانحياز بمعناه الحقيقي ، وهو عدم الارتباط بحال من الأحوال بأحد المعسكرات الدولية الكبرى المتصارعة » . وهذه « الלהلة » ، كما يعبر نفس الكاتب موضوعيا ، تفسر لماذا « في الوقت الذي لا يمكن أن نقول فيه إن كتلة عدم الانحياز كتلة عديمة الأثر في العلاقات الدولية ، فإننا لا ينبغي أن نبالغ في قيمتها الفعلية » .^(٢) هذا بينما يلخص باحث متخصص آخر الموقف كله في حسم وحصافة بقوله إن من « بين ٨٧ دولة تشترك في المجموعة (بمعنى مجموعة عدم الانحياز) ما يقرب من ٦٠ دولة منجازه ، والباقي يتأرجح موشكا على السقوط »^(٣) .

أما على امتداد المسيرة ، فلقد كان من أبرز نقاط ضعف حركة عدم الانحياز المتزايدة تفاقم الخلافات والصراعات بل والواجهات العسكرية الدامية بين كثير من أعضائها بسبب النزاعات الإقليمية ومشاكل الحدود خاصة في أفريقيا ثم آسيا ، فضلا عن التلون السياسي والانتماءات المنحازة مع تغيير هذه الألوان والمواقع مرارا بحيث تعرض عدم الانحياز بانتظام لظاهرة فك الانتماء de-alignment ثم إعادة الانتماء re-alignment^(٤) ، إلى حد أن أصبحت الدول الأعضاء تتبادل الاتهامات علنا بالتذبذب والتأرجح بل ويطالب بعضها بطرد البعض الآخر من المجموعة بتهمة انحيازها أي خروجه ومروقه ... الخ .

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج ٢ ، ص ٧٣٢ .

(٢) محمد عزيز شكري ، « التكتلات والأحلاف الدولية في عصر الوفاق » ، مجلة السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٣) سامي منصور ، « عدم الانحياز على حافة الهاوية » ، الأهرام ، ١٤ أغسطس ١٩٧٩ .

(٤) D.V. Edwards, International political analysis, N.Y., 1964, p. 230.

ولا غرابة في النهاية أن « وصلت الحركة إلى منعطف خطير للغاية » ، وبات كل همها كما عبر مراقب محايد « مجرد تحقيق استمرارية الوجود ... بعد أن تعرضت في الفترة الأخيرة لاضمحلال واقعي » و « كادت تتفكك أو اصرها تحت وطأة المنازعات الداخلية وصراعات القوى الكبرى » .^(١) ومره أخرى بشخص لنا سامي منصور الموقف بطريقة جامعة نفاذة حين يرى عدم الانحياز « على حافة الهاوية » و « أن ساعة الصفر لتقرير مصير حركة عدم الانحياز قد اقتربت »^(٢) .

وواقع الأمر الذي حدث بالفعل هو أن كثرة من دول عدم الانحياز اضطرت واقعا إلى الانحياز تحت ضغط عاملين أساسيين : إما السلاح وإما الغذاء أو المعونات الاقتصادية . فأغلب هذه الدول يعاني من الفقر الشديد ، وبعضها لا يكفي نفسه بنفسه غذائيا . وكلها بالطبع يستورد السلاح الذي يصبح مسألة حياة أو موت حين تكون الدولة في صراع عسكري مع دولة أخرى ، وهو الوضع الغالب للأسف بين كثير من دول العالم الثالث حاليا . ولما كان السلاح سلعة سياسية صرفة ، والمساعدات الاقتصادية هي الأخرى سلاحا سياسيا إلى حد معين يخضع للتوجيهات والضغوط السياسية ، فقد أصبح الخمن الحتمي في الحالين سياسيا لا اقتصاديا ، وبالتالي على حساب عدم الانحياز بالتحديد . ومن هنا تحتم على معظم دول عدم الانحياز أن ترتبط بطريقة أو بأخرى بإحدى القوتين الأعظم القادرتين وحدهما على تقديم هذه الامدادات والمساعدات .

والمؤسف هنا أن التجربة قد أثبتت أن عدم الانحياز عملية مكلفة إن لم تكن خاسرة أحيانا ، إذ تحرم صاحبها من هذه المعونات . وفي الوقت نفسه فإنها أثبتت أن الانحياز هو الآخر عملية مكلفة وخاسرة أكثر ، إذ تكسبه عداء القوة العظمى الأخرى على الأقل . إنه لا قوة مع الفقر ، ولا حياد مع الضعف ، وتلك معضلة عدم الانحياز في جوهرها .

التحولات والتحويلات

ولنفصل قليلا . نخذ مثلا تلك المجموعة العديدة من دول العالم الثالث (ومن بينها

(١) نازلي معوض أحمد ، « اللامحيزية في مؤتمر بلجراد الوزاري » ، مجلة السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص

١٥١ - ١٥٤ .

(٢) للكان السابق .

بعض من كانوا من أوائل رواد عدم الانحياز ومن أبرز أقطابه) التي انتقلت في السنوات الأخيرة خفية أو خلسة أو بغتة وفجأة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أو العكس ، في حركة « بندولية » أو « مكوكية » لاشك واسعة المدى للغاية تكاد ذبذبتها تغطي ١٨٠ درجة كاملة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق أو العكس ، وتكاد بلا موارد تذهب من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض دون تخرج أو تحفظ .

وعلى سبيل المثال ، هناك تلك الدولة التي تزعمت العالم الثالث طويلا « وناطحت » الولايات المتحدة عقدا وبعض عقد وأقامت الدنيا وأقعدتها ضد عدوها الاقليمي الغاصب وريبب الولايات ، ثم فجأة وما بين عشية وضحاها أصبحت في أو مع المعسكر الغربي بنسبة ١٠٠٪ بعد أن كانت في أو مع المعسكر الشرق بنسبة ٥٠٪ . ثم بغتة وعلى حين غرة (أو غفلة) كذلك قبلت عدوها الاقليمي اللدود « قبة الموت » ، وبعدها أوشكت تنافسه على مركز الولاية الحادية والخمسين بين الولايات المتحدة الأمريكية . قليل من العجب ، بل لالعجب على الاطلاق ، أن قد هوت تلك الدولة في نظر الكثيرين من قمة العالم الثالث إلى قاعه وسقطت من دائرة عدم الانحياز إلى مستنقع التبعية والنفوذ فضلا عن خطيئة الركوع .

ذلك مجرد مثال واحد ، وللي هذا فقس هذه الدولة أو تلك في آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية ... الخ . والمهم أن هذا المد والجزر السياسي العنيف البعيد المدى ، سواء كان جزءا من استراتيجية المضاربة المفروضة على الصغار في عالم الكبار أو كان ثمنا لها ، تم جميعا أو غالبا من موقع عدم الانحياز وباسم الحياد الإيجابي ، نعم ، عدم الانحياز والحياد الإيجابي . وهنا - موضوعيا - وجه الغرابة وموضع التساؤل^(١) .

على أن الأدعى للدهشة أن من دول العالم الثالث من يعتقد بكل بساطة أن ارتباطه الحميم بإحدى الكتلتين أو بأحد القطبين ، سواء بالأحلاف أو القواعد أو التسهيلات العسكرية أو المساعدات الاقتصادية الغامرة ، أمر لا يمس عدم انحيازه فضلا عن أن يجبه من أساسه . إنه ليس من « نواقض الوضوء » السياسية في ملته واعتقاده حتى كحد أدنى . وعلى سبيل المثال فإن أحد حكام العالم الثالث وأقطاب عدم الانحياز لم يتورع عن أن يعلن أنه « شخصا لا يخشى الانضمام إلى حلف الأطلسي »^(٢) ، بينما عرف آخر

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج ٢ ، ص ٧٣٤ .

(٢) مجلة أكتوبر ، ١٩٨١ / ٤ / ٢٦ ، الأهرام ، ١٩٨١ / ٤ / ٢٨ ، ص ١ ، ٣ .

موقفه بأنه دولة من دول عدم الانحياز لها «علاقة خاصة» مع الولايات المتحدة . وهكذا وهكذا إلى آخره . ولا غرابة بعد هذا أن بدأ العملاء والمبررون يقولون علنا وبلا موارد ولكن بكل رياء إن طبيعة ووظيفة عدم الانحياز قد تغيرت بسبب المتغيرات الدولية بما يسمح الآن بالارتباط بالقوى الكبرى دون أن يتناقض هذا مع المبدأ نفسه .

التذبذب والاهتزاز

يمثل هذا وذلك - لا بد لنا أن نعترف - فإن الموقف الأساسي أو الاستراتيجية العظمى لعدم الانحياز نفسه كمبدأ قد اهتزت اهتزازا مؤثرا في الفترة الأخيرة ، وتعرضت لكثير من الذبذبات والضغوط ولا نقول الانحرافات والتحريفات . بل في تقدير البعض أن معادلة «عدم الانحياز والحياد الإيجابي» أوشكت أن تنقلب في أيدي بعض أصحابها جزئيا أو آليا إلى نوع من «الانحياز الإيجابي وعدم الحياد» . فبدلا من الحياد الإيجابي بين المعسكرين وعدم الانحياز إلى أيهما ضد الآخر ، نجدنا أحيانا - ولا أوهام في هذا ولا لجاج - إزاء مفهوم غريب وصيغة شاذة من الحياد السلبي بين العدو والشقيق مثلا والانحياز الإيجابي إلى العدو - الصديق ضد الصديق - العدو كما قد نقول .

ثمة اليوم مثلا من دول عدم الانحياز من يطارد السوفيت ووجودهم في منطقته علنا ، وتماثما مثلما كان يطارد الاستعمار القديم البريطاني أو غيره منها منذ عقد أو عقدين لا أكثر ، بل وبروح انتقامية أو صليبية أشد مرارة وضراوة وأقل تعقلا وانضباطا ، في حين يرتضى في أحضان الأمريكان ارتداء لا مكابرة أو مهاترة فيه وإن هو أنكر إصرارا واستكبارا أو غباء وإسفافا . أما واقع الأمر فلا يعدو بكل بساطة استبدال قوة عظمى بأخرى أو سيطرة هيمنة أو نفوذا بتبعية ... الخ .

ثم هناك نقطة أخرى هامة . فإذا ما نحن افترضنا استمرار مثل هذه السياسة البندولية أو المكوكية ، ولا نقول الحرباوية ، جيئة وذهابا ما بين الشرق والغرب - وليس هناك منطقيا ولا واقعا ما يجب أو يستبعد هذا الفرض حتما - ثم أسقطناه على المستقبل ، أفليس لنا أن نتنبأ بالعكس ، بمعنى أنه ما الذي يمنع مندثيا وعمليا أن نرتد يوما ما إلى الشرق مرة أخرى ، وهكذا دواليك بعدها إلى الغرب فالشرق ... الخ ؟ وهكذا تظل الدولة تتأرجح ما بين الغرب والشرق ، أو ما بين الانحراف والانحراف المضاد ، أو ما بين الانحياز وعدم الانحياز ، أو أخيرا وبالأحرى تمارس الانحياز باسم عدم الانحياز .

كلا : . ما هكذا عدم الانحياز ، ولا هو بالحياد الإيجابي . وإنما المطلوب هو « تطبيع » العلاقات مع كلا المعسكرين أو القطبين عالميا والانحياز إلى الشقيق ضد العدو إقليميا . بذلك فقط ، وبه وحده ، يستقيم ميزان عدم الانحياز في يد أصحابه ويستقر الحياد الإيجابي على تمام الزاوية القائمة . ذلك مؤشر للمستقبل مثلما هو مصحح للحاضر ، وهو على أية حال سوف يفرض نفسه على المستقبل إن عجز في الحاضر أو عجز الحاضر .

عدم الانحياز فى الميزان

من الواضح الآن أن عدم الانحياز قد تعرض منذ بدايته للضغوط والهجمات الشرسة ، مثلما تعرض فى النهاية للتحلل والتآكل . وفيما بين البداية والنهاية كان هو نفسه قلقا حائرا أو هزيبا حائرا لا يعرف ماذا يريد بالضبط ولا هو قادر على تحقيقه أو حياة نفسه من قوى الانحياز المضادة . حتى قال من قال إنه استراتيجية حائرة مثلما هى محيرة ، عالقة كما هى معلقة . ولعلنا من جانبنا أن نضيف أن العالم الثالث بدوره يبدو وكأنه العالم الحائر بين « العالم الحر » و « العالم المر » ، ولا نقول كما يقول البعض إنه سياسيا « كالجنس الثالث » المقول بيولوجيا .

وعلى أية حال ، ورغم المحاولات التى تبذل حاليا لتنشيط عدم الانحياز وتجديد شبابه ، فإن العالم الثالث ، كما شخص شوين لاي بنفاذية وعمق ، ضائع ما يزال بين القوتين الأعظم اللتين تحاولان اقتسامه كمناطق نفوذ . ثم ، كما تنبأ ببصيرة ناقبة ، « فإننى أرى كثيرا من الانقلابات قادمة ، تحالفات قديمة تنهار وأخرى جديدة تحل محلها ... إننى أرى الفوضى فى كل مكان » (١) .

عن الواقع العملى

إذا كان ذلك كذلك ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو منطقيًا : ما المآخذ والانتقادات أو الأخطاء التى يأخذها النقاد على عدم الانحياز سواء فى النظرية أو التطبيق وسواء كانت موضوعية أو غير ذلك ؟ ثم ما مدى نصيبها من الصحة ؟ وماذا ينبغى عليه هو أن يفعل إزاءها ؟ تصنيفيا ، يمكن القول كمقاعدة عامة إن الاتهامات المعادية التى ما

M.H. Heikal, "Egyptian foreign policy", Foreign affairs, July 1978, p. 727.

(١)

فتت توجه إلى عدم الانحياز منذ بدايته إلى النهاية لا تشجبه كأمر واقع فحسب ولكن من حيث المبدأ ذاته أصلا .

استراتيجية أم تكتيك ؟

فعلى مستوى الواقع أو على الجانب الاستراتيجي ، فإن أعداء عدم الانحياز وصموه باستخفاف بأنه تكتيك لا استراتيجية ، وإلا فبأنه « استراتيجية من لا استراتيجية له » . وآخرون كانوا أكثر تواضعا ولكن واقعية (أو خبثا ، لا ندرى) فاعتبروه أساسا استراتيجية مضاربة ليس إلا stalemate ، مضاربة الكتلتين والقطبين ببعضها البعض والافادة من تناقضها . بعبارة أخرى ، إن يكن الانحياز هو استراتيجية مضاربة الأقوياء (للضعفاء) ، فإن عدم الانحياز بالمقابل ليس إلا استراتيجية مضاربة الضعفاء (للأقوياء) . ولكن الرد ، كما ورد على لسان عبد الناصر في حينه ، أن عدم الانحياز « ليس تجارة في الصراع بين الكتلتين » « ولا تجارة حرب باردة » ، وتغير الأوضاع الدولية لا يؤثر فيه ولا يسلبه مبرر وجوده (١) .

مرحلي أم دائم ؟

كذلك فعلى المستوى العلمى يتساءل البعض - البعض الآخر يتهم ا - عما إذا كان عدم الانحياز قد استنفد أغراضه ووصل إلى طريق مسدود بانتهاء الحرب الباردة وحلول الوفاق ، عما إذا كان هو بطبيعته مرحلة عابرة أو عبارة مرحلية وأن عليه أن يختار في النهاية بين إحدى الكتلتين . وبينما أصرفريق على أن عدم الانحياز طريق مفتوح وأنه قادر دائما على التلاؤم مع تغير توازن القوى بين الكتلتين والقطبين ، اتخذ فريق آخر نظرة أقل تفاؤلا (٢) .

على أنه أيا كان الرد أو الأمر ، فإن شيئا واحدا على الأقل مؤكد . لولا عدم الانحياز في الستينات ، أكان العالم اليوم ما هو اليوم أم شيئا مختلفا جدا وإن كنا بالطبع لا نستطيع تصويره تماما ؟ نريد أن نقول ، لولا دور عدم الانحياز كجيروسكوب سياسى منع العالم من أن تتقاذفه أمواج الصراع الكتلى إبان ذروة الحرب الباردة لساء مصير البشرية بالتأكيد . فكّر فقط كم كانت تتضاعف احتمالات وإغراءات الصدام بين العسكريين في مرحلة حبلى بالتوتر والعداوات وذلك لولا كوسيط سلام وكوسيط حيا .

(١) الدجاني ، ص ٢١٢ .

(٢) السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٤ .

ولربما تكون الأجيال القادمة أقدر منا على أن تدرك أن مدرسة الحياض الإيجابي وعدم الانحياز قد أنقذت العالم من قبل من حربه العالمية الثالثة والنووية الأولى . ولو صح هذا لكفاه دورا في التاريخ ووظيفة في السياسة^(١) .

عن المبدأ الفلسفي

هذا في نقد عدم الانحياز كواقع واستراتيجية . أما على مستوى المبدأ أو على الجانب الفلسفي ، فإن عدم الانحياز بدا للبعض من نقاده قطعة من التصوف السياسي الغامض . ولا نقول اللغو السياسي الأجوف . ولعل منهم من عده قمة في المثالية السياسية التي يعوزها الكثير من الواقعية والجدية ولا ينقصها الكثير من المبالغة والادعاء الذي يكذبه واقع يتراوح إما بين التبعية والانحياز أو الانتهازية والابتزاز .

فمن ناحية أولى ، اتهم عدم الانحياز بأنه قطعة من الانتهازية السياسية أو السياسة الانتهازية . ولكن الرد هو : أيهما حقا الانتهاز : الانحياز أم عدم الانحياز ؟ بل لقد تجاوز الاتهام الانتهاز إلى حد الابتزاز ، فقليل إن عدم الانحياز هو ابتزاز الضعفاء ، إن عد الوفاق ابتزاز الأقوياء . كذلك فإن عد الأخير نفاق الكبار كما أشيع ، لوجب أن يعد الأول نفاق الصغار . وآخرون ، على أية حال ، رأوا أن عدم الانحياز إنما هو سلبية الضعيف ، بينما الانحياز إيجابيته . غير أن الرد مرة أخرى هو أن عدم الانحياز ، على العكس ، إنما هو إيجابية الضعيف ، فيما الانحياز هو بحق سلبيته^(٢) .

نظرية النسبية

وعلى أحسن الفروض وفي أفضل الأحوال يحتج النقاد بأن الانحياز أو عدم الانحياز مسألة نسبية بحتة ابتداء ومن حيث المبدأ . وإلا فهل كانت يوجوسلافيا مثلا ، وهي من المؤسسين الأول ، غير منحازة منذ بدأ عدم الانحياز ؟ كيف بالدقة وهي شيوعية وفي معسكر الشرق رغم كل شيء ؟ حتى الهند ، المؤسسة الأخرى ، تساءل البعض عما إذا كانت معاهدة الصداقة الهندية - السوفيتية لم تجعلها « تنحاز من غير إعلان »^(٣) . دع عنك كوبا بعد ذلك بالطبع ، تلك التي وصفتها الصين تحديدا بأنها « حصان طرواده

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ .

(٢) الدجاني ، ص ١٨٨ .

(٣) محمد عزيز شكري ، ص ٩١ .

سوفيتي « مدسوس في صفوف عدم الانحياز^(١) . وغيرها وغيرها . وعلى النقيض من هذا تماما ، ألا يضم عدم الانحياز اليوم دولا تكاد تقع في فلك الغرب وتعيش في كنفه أو تحت وصايته أو « على المعاش الأمريكي American pensioner » ... الخ ؟

إن عدم الانحياز بهذا وبمثله إن لم يكن تكتيكا باسم الاستراتيجية أو استراتيجية جوهرها التكتيك . فإنه يكاد يجمع بين طرفي النقيض في وحدة زائفة تمثل الحد الأدنى من التجانس والأقصى من التنافر . من ثم فالفكر نفسه ضبابي رمادي أو ملون كقوس قزح أو كلون الطيف ، والتجمع بدوره إن هو إلا جسم خلاسي مهجن إن لم نقل مع البعض هلامي خثوي ، وذلك أيضا بقدر ما هو متضخم مترهل . ألا يؤكد هذا كثرة الخلافات والاختلافات الداخلية التي ظهرت فيه مؤخرا وسمت أعضائه ؟ ... إلى آخره . إلى آخره .

نظرية المستحيل

على أن أخطر من نظرية النسبية هذه وأكثر راديكالية ، نظرية تذهب إلى أن عدم الانحياز مستحيل ، مستحيل أصلا . ذلك أن عدم الانحياز المطلق ، كالحياة المطلق ، كالعزلة المطلقة - تقول النظرية - لا وجود له لا بالفعل ولا بالقوة . أما إضافة « الإيجابي » كصفة إلى « الحيات » كاسم في مقولة الحيات الإيجابي ، فمجرد رخصة بعدم الحيات . أي بالانحياز . وبالتالي فإن عدم الانحياز هو في باطنه انحياز سلبي أو خبيء ، تقديري لا تفريري ، شخصي لا موضوعي ، وما هو من ثم في النهاية والواقع إلا قناع تنكري براق ولكنه زائف في كرنفال السياسة الدولية .

والواقع - تمضي النظرية - يثبت أن كل خطوة من جانب عدم الانحياز نحو الشرق تبعده خطوة عن الغرب وخطوتين عن عدم الانحياز نفسه ، والعكس بالعكس . والنتيجة أنك إما أن تنحاز هنا أو هناك أو تنعزل كلية عن الاثنين . ومعنى هذا أن عدم الانحياز المطلق حقا إنما يرادف الانعزال والعزلة المطلقة حقا ، وهذا هو المستحيل المطلق في القرن العشرين . وبعبارة أخرى فإن عدم الانحياز مستحيل في عالم الاستقطاب الثنائي ، بينما أن الممكن الوحيد هو الانحياز تحت اسم وبدعوى وادعاء عدم الانحياز . وهذا - ينتهي أصحاب النظرية بجدة - ما يفعله بعض أعضاء عدم الانحياز بانتظام وبرود أعصاب يحسدون عليه .

(١) نازلي معوض ، ص ١٥٣ .

مستقبل عدم الانحياز

هذه الانتقادات والانتقادات بل والتخريجات والتجريحات التي قذف ويقذف بها الاستعماريون عدم الانحياز ، أيا كان نصيبها من الصحة والصدق أو الحقيقة والحق ، أما من درس يمكن أن يخرج هو به منها ويفيد؟ حسنا ، واضح ابتداء أن نقط ضعف عدم الانحياز إنما هي أساسا فقط ضعف العالم الثالث . ذلك أن هناك تداخلا بعيد المدى بين المفهومين أشبه بتداخل العضو والوظيفة ، لكن دون أن يصل التداخل إلى حد التطابق أو التلبس . ولذا يحسن بنا كتمهيد أن نحدد المضمون العلمي لكلا المفهومين كما يسبق التشریح التشخيص والتشخيص العلاج .

عدم الانحياز والعالم الثالث

فأما عدم الانحياز فتعبير سياسي صك كتحريف لحالة الحياد الإيجابي بين الكتلتين أو القوتين الأعظم . أما العالم الثالث ففكرة مركبة وأشد تعقيدا . فهي فكرة حضارية تنطوي ضمنا على مدلول جنسي إلى جانب بعد جغرافي معين^(١) . فالعالم الثالث ليس تعبيرا جغرافيا فقط أو بالضبط ، ولكنه بالدرجة نفسها تعبیر حضارى ، وإلى درجة أقل تعبیر عنصري . ومن هنا فلقد يكون عدم الانحياز أوسع نطاقا ورقعة من العالم الثالث في معنى ، حين يتجاوز هوامش الأخير إلى هوامش العالم الأول أو الثاني مثل أجزاء من أوروبا . ولكن العالم الثالث يمكن أيضا أن يكون أوسع من عدم الانحياز في معنى آخر ، حيث أن بعض أجزاء منه لا تتبع سياسة عدم الانحياز بصرامة أو بصراحة .

وإذا كان التعبير قد دخل قاموس السياسة الدولية المعاصرة حديثا فقط وفي وقت واحد تقريبا ، فلعل عدم الانحياز أن يكون تعبيرا أكثر مباشرة عن مفهوم أو مفهوم الاستقلال والتحرر بعد التبعية والاستعمار ، بينما أن العالم الثالث أقرب إلى مفهوم وراثته الماضي القديم على المستويات الجغرافية والحضارية والجنسية جميعا .

المعادلة الجديدة

فالواقع أن العالم الثالث اليوم هو محصلة فكرة الشرق القديمة باستثناء اليابان وفكرة الجنوب الجديدة . غير أن من الضروري هنا أن نوضح أن فكرة الشرق هذه تختلف عن

Anouar Abdel-Malek, Civilisations & social theories, Lond., 1981, p. 130-137.

(١)

فكرة الشرق بمعنى الكتلة الشرقية ، اختلافها أيضا عن الشرق بالمعنى الجغرافي البحث^(١) . فإلى جانب الشرق (والغرب) الجغرافي الأبدى فلنكيا ، والشرق (والغرب) السياسي الأيديولوجي الحالي كتليا ، هناك فكرة الشرق (والغرب) الحضارى تاريخيا بمعنى المواجهة أو المقاتلة بين أوروبا المسيحية فى جانب وأفريقيا شمال الصحراء مع آسيا فى الجانب الآخر. هذا ، ومع المواجهة المتصاعدة مع الغرب خلال القرن الأخير ، فإن فكرة الشرق تلك تطورت أيضا نحو الضيق من الشرق عامة إلى الشرق الإسلامى خاصة إلى الشرق العربى فقط .

على أن فكرة الشرق فى كل الأحوال لم تضم أفريقيا جنوب الصحراء قط ، أولا لأنها كسائر القارات الجنوبية والعالم الجديد كانت فى الماضى القديم وحتى العصور الحديثة خارج دائرة المعمورة المعروف ، وثانيا لأنها بعد ذلك صارت جزءا من مفهوم « الجنوب » بقاراته الجنوبية الثلاث . أما الآن فلأول مرة ينضم الجنوب الجديد إلى الشرق القديم (عدا اليابان) فى وحدة حضارية أو نضالية جامعة هى ما ندعوه اليوم العالم الثالث .

وعلى هذا فإذا كان العالم الأول هو الغرب ، والثانى هو الشرق ، وهذا وذاك بالمعنى السياسى الأيديولوجى الحديث ، فإن العالم الثالث هو مجموع الشرق بمعناه التاريخى القديم والجنوب بمعناه الجغرافى الحديث . وبهذا وبذلك جميعا انتقل أساس تقسيم العالم من المحور الطولى بين شرق وغرب إلى المحور العرضى بين شمال وجنوب ، كما أضيف العالم الجديد إلى القديم فى التقسيم لأول مرة . (وهو تقسيم ينكره ويكرهه الاتحاد السوفيتى بالذات ، على أساس أنه لا علاقة له بفقر الجنوب وتخلفه ، اللذين يسأل عنها الاستعمار والإمبريالية الغربيين وحدهما) . وعلى أية حال ، يمكننا فى المحصلة النهائية أن نلخص خريطة التشكيلات السياسية الأساسية العريضة فى عالم اليوم فى المعادلات الموجزة الآتية :

العالم الثالث = (الشرق التاريخى - اليابان) + [(الجنوب الجغرافى) - (أستراليا + جنوب أفريقيا)]

$$\frac{\text{العالم الأول} + \text{العالم الثانى}}{\text{العالم الثالث}} = \frac{\text{الشمال}}{\text{الجنوب}}$$

(١) إبراهيم صفر ، « مضمون الشرق والغرب » ، المحاضرات العامة ، الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٥٩ ، ص ٨١ وما بعدها . Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 89-94.

مشكلة القوة

حسنا إذن ، بهذا المعنى ما الذى ينقص العالم الثالث ؟ والرد على الفور هو القوة ، القوة بمعناها الشامل . فالعالم الثالث ليس الثالث فقط من حيث ترتيب الظهور الزمنى على مسرح السياسة الدولية بعد الأول (الغرب) والثانى (الشرق) ، ولكن أيضا من حيث ترتيب المكانة الحضارية الشاملة فى العالم أجمع . فإتما هو حرفيا « العالم الترسو » أى عالم الدرجة الثالثة كما تحمل التسمية الإيطالية أو الفرنسية بلا مؤاربة ولا مجاملة : *Le Tiers Monde, Il Mondo Terzo* . وبهذه الصفة فإن العالم الثالث هو عالم التخلف ومهد الفقر . إنه « بروليتارية العالم » . وإذا كان الذوق الدولى ، لياقة أو لباقة ولا نقول منافقة ، قد استبدل كلمة الدول النامية *developing* بكلمة الدول المتخلفة *underdeveloped* ، فإن هذا لا يغير من الحقيقة المرة وهى أن العالم الثالث هو بلا تردد قاع العالم .

فن البديهى أن العالم الثالث هو أضعف أركان المثلث الاستراتيجى المعاصر خارج كل حدود وكل مقارنة . يكفى أن نذكر أن توزيع الثروة فى العالم اليوم يعطى لنحو ٢٥٪ من سكان الأرض نحو ٧٥٪ من ثروتها ودخلها ، تاركا الربع الباقى لثلاثة أرباعهم ، ومنهم كل أبناء العالم الثالث . وعلى الجملة ، فإذا كان الشمال هو عالم القوة والغنى والتقدم والصناعة ، فإن الجنوب هو عالم الضعف والفقر والتخلف والزراعة ، أو كما قيل فى كلمة واحدة الشمال « مدينة » العالم والجنوب « ريفه » . لذا فلا مفر لهذا العالم من تثوير نفسه حتى النخاع كى يرقى إلى متطلبات دوره الحاسم فى عصر أصبح للقوة فيه أضلاع ثلاثة : السياسة ، والاقتصاد ، والعلم .

القوة السياسية

فأما من جهة القوة السياسية فإن أولى وسائلها استكمال تصفية الجيوب الاستعمارية المتخلفة فى العالم ، بما فى ذلك فصم علاقات الارتباط بالكومونولث وأمثاله . أما كتلتنا الاستعمارية الاستيطانية العنصرى العدوانى الغاصب على ضلعى أفريقيا فى أقصى الطرف الجنوبى وأقصى الطرف الشمالى الشرقى ، فلن تقوم للعالم الثالث قائمة حقا ولن يكون له وزن سياسى مذكور فى العالم ، إلا وإلى أن يتم اقتلاعها كلية من جذورها الشيطانية الشريرة وإفائها ، لا « فى » البحر كما يرجف خيثا وختلا محامو الشيطان ، ولكن « عبر » البحر : هذا إلى قارة خالية بيضاء مثل أستراليا إن استحال عودته إلى أوروبا

الأم ، وهذا إلى وطنه الأصلي أوروبا الأم من حيث أتى أو إلى وطنه الأب الحامى
الولايات المتحدة والعالم الجديد

هذه واحدة . أما ثانية هذه الوسائل فضرورة ترابط دول عدم الانحياز ترابطا وثيقا
فى نسيج ضام غير منفذ لتسربات الاستعمار . والوحدة الأفريقية والتضامن الأسوى
الأفريقى وتفاعل القارات الثلاث ، مراحل على هذا الطريق . ولكن الخلافات الثنائية
على الحدود والأقليات - ومعظمها من إرث الاستعمار - يجب أن تصفى بعد أن أصبحت
خطرا حقيقيا على جبهة عدم الانحياز سواء فى آسيا أو فى أفريقيا . وإلا فهل يجوز مثاليا
أن تخضع قوة عدم الانحياز لنفس ظاهرة التفكك والتفسخ التى أصابت الكتلتين
المسكرين ؟ لا يستقيم . كذلك فإن هناك عددا من دول الجبهة اسما ولكنها فعلا ترتبط
وثيقا بالقوة الاستعمارية القديمة .

وعدا هذا فإن الوحدة الدستورية بين المجموعات الاقليمية المتجانسة - وفى أبعاد
واقعية معقولة - كالعالم العربى أو شرق أفريقيا أو غربها .. الخ ، ضرورة ملحة لتصحيح
الكيان السياسى للمجموعة . فالعالم الثالث اليوم هو بلقان العالم ، ويضم وحده السواد
الأعظم من دوله ، بينما لا تزيد الكتلتان عن عدد محدود من مجموع الوحدات السياسية
فيه . ومن هنا يتنافر نصفا الكرة الشمالى والجنوبى فى درجة التمزق أو التماسك السياسى كما
يتنافران فى سائر مظاهر الحياة والنمو . هذا فى الوقت الذى لم يعد فيه مكان للدول
الضئيلة والصغيرة ، وفى عصر يتجه إلى الدول - الكتل والاتحادات والتكتلات
الاقليمية Grossräume .

أما وحدة الجميع مع الجميع فهى وحدة لا أحد مع لا أحد ، هى حد أدنى من
الوحدة ، أما الحد الأقصى العملى فهو القومية الرشيدة . فثلا وحدة عدم الانحياز أو
القارات الثلاث Tricontinental أو الوحدة الأفريقية هى مجرد وحدة موقف سياسى
وليست بديلا عن الوحدات السياسية الاقليمية الدستورية الحقيقية . بالمثل الوحدة
الإسلامية ، حتى وإن اعتبر البعض الحلف أو التحالف الإسلامى نوعا من
« الكومونولث الإسلامى » على غرار الكومونولث البريطانى مع الفارق (١) .

بشئ أكثر من التفصيل ، نخذ مثلا منطقة كالعالم العربى . من المحقق أنها - ولها كل

(١) الأهرام ، ١١/٢/١٩٧٢ ، ص ٧ .

مقومات الوحدة القومية - لن تقتحم حضارة العصر ، ولن تدخل القرن العشرين حقاً ، ولن تعيش عصر العلم والتكنولوجيا ، إلا كوحدة واحدة أو كدولة موحدة . ولكن بالمقابل قارن ، على سبيل المثال ، أوروبا الغربية التي تسعى اليوم بوعي وتخطيط كاملين إلى الوحدة رغم أنها ممزقة لغويا وقوميا وإن كانت موحدة جغرافيا ، ولو أن من الصحيح أيضا أن العالم العربي وإن كان موحدًا لغويا وقوميا فإنه على العكس ممزق بالصحراء جغرافيا .

فما معنى هذا ؟ معناه أن في أوروبا انقطاعاً لغويا ولكن اتصالاً عمرانياً ، بينما أن في العالم العربي انقطاعاً عمرانياً ولكن اتصالاً لغوياً . فالعامل المضاد أو المعرقل للوحدة في الأخير هو الصحراء ، وفي الأولى اللغة . غير أن الفاصل الطبيعي هنا لا يعادل الفاصل اللغوي هناك بحال ، كما أنه لم يعد شيئاً في عصر الطيران . وهكذا يظل العالم العربي أغنى بمقومات القومية الأساسية من أوروبا الغربية خارج كل مقارنة ، إلا أنه مع ذلك يظل للأسف أبعد منها عن الوحدة السياسية خارج كل حدود أيضاً . لا يستقيم : أليس كذلك ؟

على أن نقطة الضعف القاتل في النسيج السياسي للعالم الثالث إنما تكمن ، أخيراً وليس آخراً بالتأكيد ، في صميم كيانه الذاتي من الداخل ، ونعني بذلك النظام السياسي أي نظام الحكم . ومن هذه الزاوية ، فلا مفر للأسف من الاعتراف بقدر كبير من الصحة على الأقل في اتهام البعض للعالم الثالث كمجموعة من الدول بأنه مريض جيوبوليتيكياً ، كل دولة من دولة تقريباً مريضة جيوبوليتيكياً بدرجة أو بأخرى ولسبب أو لآخر .

فالعالم الثالث هو أكبر متحف عالمي للحفريات السياسية ومخلفات الطغيان والاستبداد الشرقي القديم والرجعيات البدوية البدائية العتيقة المتحجرة ، فضلاً عن أنه غداً أبشع معقل للديكتاتوريات العسكرية^(١) والفاشية اللاشعورية الاغتصابية الفاسدة نصف المتعلمة أو نصف الجاهلة . وكأنما قد حكم عليه بأن يستبدل بالاحتلال العسكري الأجنبي القديم أيام الاستعمار ، الاحتلال العسكري الداخلي الجديد تحت الاستقلال ، هذا استعمار خارجي وهذا « استعمار داخلي » والواقع موضوعياً أن العالم الثالث كما هو

Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 41 ff.

(١)

اليوم إنما ينتمى سياسيا إلى الماضى السحيق ، يعيش فى القرن ٢٠ الميلادى بالهيكل السياسى للقرن ٢٠ قبل الميلادى .

المؤسف ، بعد ، أن أغلب هذه الديكتاتوريات العسكرية أو الرجعية يتم أو يقع تحت ادعاء ولافتة الديمقراطية ، بل ويباهى بها أعرق الديمقراطيات الغربية بلا حياء ولا خجل . ولا عجب أن صك البعض لهذا كله تعبير « ديمقراطية العالم الثالث » ، « الديمقراطيات » كنوع من السخرية السياسية .^(١) وعلى الجملة ، فلا نقاش فى أن العالم الثالث هو أكبر سجن دولى ومعتقل مفتوح للمواطن النامى . ومن نافلة القول كذلك أنه لا أمل البتة فى تحرير هذا المواطن من التخلف السياسى والحضارى إلا بتحريره من هذه العبودية السياسية .

وكتفصيلة على الهامش ، فلقد أصبح العالم الثالث منذ تصفية الاستعمار مهد الحكم العسكرى الفاشى الباطش والانقلابات العسكرية الدورية . ولا يكاد يمضى شهر تقريبا إلا ويقع انقلاب عسكرى فى دولة ما من دوله ، كأنما قد سرى فى جسمه السياسى الميكروب اللاتينى والتمط اللاتينى حيث سجلت دول أمريكا الجنوبية وحدها أكثر من ٢٠٠ انقلاب عسكرى منذ الاستقلال فى أوائل القرن الماضى . أو كما عبر البعض ، لقد أصبح الحكم العسكرى وباء العالم الثالث ولعنة المدرجات وجذام الجنوب ، وأصبح العالم الثالث دستوريا عالم الانقلابات العسكرية بالتفضيل والامتياز .

ومن المحزن أو المضحك أن كثيرا من أصحاب وصانعى هذه الانقلابات العسكرية الطفيلية أو الطفولية يصر إصرارا واستكبارا (أو غفلة واستهتارا ؟) على أن ينعتها بالثورة ، الثورة الشعبية وإلا فلا . كل انقلاب عند أصحابه هو ثورة ، إما وطنية أو اجتماعية أو ثورة لتحرير ... الخ ، بينما هو عند الشعب من الغاصبين . وفى النتيجة ، وعلى هامش الهامش ، بل فى الصميم ، فإن معظم العالم الثالث لا يحكمه خيرة أبنائه ، إن لم يحكمه أحيانا شرهم حقا ، الأمر الذى يضاعف من أزمتة العالمية ويزيده تخلفا على تخلف ووهنا على وهن .

القوة الاقتصادية

هذا عن القوة السياسية ، أما عن القوة الاقتصادية ، وهى الأساس المادى الصلب

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج ١ ، ص ٤١ .

للقوة السياسية ، بينما أن هذه ليست إلا فيضها وفائضها والتعبير الخارجى عنها ، القوة الاقتصادية بالنسبة إلى العالم الثالث ليست فقط ضرورة قوة بل ضرورة بقاء بكل معنى الكلمة الحام ، لاسيا بعد التزيف الرهيب والنزح المقتن للموارد والثروات الذى تعرض له فى ظل الاستعمار قرونا وأجيالا . وحتى عند ذلك ، فالغريب والمؤسف أن قصارى ما يمكن أن يطمح إليه العالم الثالث فى مجال التطور والتقدم الحضارى ، بالقياس إلى مستويات وطفرات الدول المتقدمة المذهلة ، لا يعدو أن يكون تخفيفا للتخلف أو تحدينا للفقر ليس إلا .

وحتى لا يكون شك أو وهم ، فإن العالم الثالث هو ببساطة عالم الفقر والفقراء ، وسيظل كذلك إلى أمد غير قريب كما هو غير معروف . فتوسط دخل المواطن العادى فى معظم دوله يسجل أدنى الأرقام فى السلم العالمى ، واقعا غالبا تحت خط الفقر الدولى ، أى فى حدود ٣٠٠ - ٥٠٠ دولار فى السنة ، مقابل عشرة الأمثال على الأقل للدول الغنية المتقدمة . أى أن دخل الفرد العادى فى الدول الأخيرة يعادل دخل ١٠ أفراد فى الأولى ، أى أكثر من دخل أسرة نامية كبيرة ، بكل ما يعنى هذا من مستوى معيشة ورفاهية واستهلاك وتطلعات وكذلك من إمكانيات وقدرات على المزيد من النمو والتقدم والتطور ... الخ . بل إن العالم الثالث لم يعد حتى الثالث مؤخرا . فلقد تدنى فى السنوات الأخيرة بعد طفرة دول البترول فانزلت برمته إلى مرتبة جديدة دنيا أفرادها له الاقتصاديون حديثا فأصبح « العالم الرابع » .

وواقع الأمر أن متوسط الدخل الحقيقى ومستوى المعيشة الفعلى فى معظم دول العالم الثالث قد انخفض فى الفترة الأخيرة نتيجة التضخم العالمى الجسم ، المرتبط جزئيا بثورة أسعار البترول . ولهذا فإن العالم الثالث ازداد فقرا على فقر مرتين ، واتسعت الهوة الاقتصادية بينه وبين العوالم الأخرى بدل أن تضيق . إن قانون النمو الاقتصادى السائد على أرض عوالمنا الثلاثة أو الأربعة هو قانون السمك فى البحر : الكبير منه يأكل الصغير ، وهو قانون التوراة القديم : « لمن عنده سوف يعطى » ، وهو قانون الربح المركب الألوومترى الجديد allometric : الكبير يزداد كبرا والصغير يزداد صغرا .

من هنا جميعا فإن التحدى الجسم الذى يواجهه العالم الثالث هو بأخف تشبيه كيف لشخص غارق فى الطين أن يرفع نفسه بنفسه من رباط حذائه . وكلمة السر من ثم هى التنمية ، التنمية الذاتية ، والتنمية المكثفة السريعة . فلا بد من حشد وتجنيد كل الموارد

الطبيعية والطاقات البشرية لتحرر من التخلف وللانطلاق في مدارج التقدم والرفاهية .
ورأس الحربة في هذا كله هو التصنيع .

وهنا نلاحظ أن العالم اليوم يكاد ينقسم إلى ثلاثة أنماط عريضة من الاقتصاد القومي : دول منتجة للمصنوعات ، ودول منتجة للخامات ، ودول منتجة للغذاء . وقد تجمع دولة بين أكثر من واحد من هذه الأنماط ، لكن المهم أن الدول المتحررة النامية يقع معظمها في النمط الثاني وذلك بعد أن حرمتها الاستعمار السابق من الصناعات في الوقت الذي حرمتها أيضا من الكفاية الغذائية بتوجيهها غير المترن إلى الخامات . فأغلب الدول النامية تعيش بمقاييس العصر في عصر ما قبل الصناعة pre-industrial ، وأفضلها حظا لا يعدو مرحلة شبه الصناعة semi-industrial . وهي من ثم تكاد عمليا تكون محاصرة اقتصاديا بين دول النمطين الآخرين ، ولا نقول بين قوسين من الجوع والفقير .

فالتجارة العالمية - ولا زالت يهيكلها الاستعماري - تتحيز تحيزاً صارخا ومتزايدا للمصنوعات إزاء الخامات . وتعمل الدول النامية الآن على تصحيح هذا الميزان المختل ولكن دون جدوى فيما يبدو ، إذ تشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أن نصيب الدول النامية من صادرات العالم في تناقص مستمر نسبيا ، حيث هبطت النسبة من ٣٠٪ في ١٩٥٠ إلى ٢٥,٣٪ في ١٩٦٠ إلى ١٩,١٪ في ١٩٦٦ .

ومن ناحية أخرى أصبح من الجلي تماما أن الغذاء قد صار سلاحا سياسيا تعسا للضغط وحرب التجويع . وبين هذا وذاك ، فقد تحتم على هذه الدول النامية أن تعيد تركيب إنتاجها بما يكفل استقلالها الاقتصادي ، إذ مما لاشك فيه أن اقتصاديات الدول النامية هي اقتصاديات تابعة *économies dominées* ، خاضعة أساسا لاقتصاديات الدول المتقدمة ، تماما مثلما كانت أيام الاستعمار ، بل ولأنها أصلا إرث الاستعمار . ومن هنا فإن عليها أن تتجه إلى مزيد من التفاعل والتبادل التجاري فيما بينها للحد من سيطرة الكتلة الاستعمارية على تجارتها الخارجية .

أما حوار الشمال - الجنوب الزيتي المزمع المخطوط فما عاد يجدي ، وإنما بات كما وصف حوار الصم - البكم : إنه حوار بلا « جدوى اقتصادية » ! والمعنى أن ليس للدول النامية عمليا وواقعا أن تأمل الكثير من معونة الدول المتقدمة ، وأن عليها أن تعتمد على أنفسها في الدرجة الأولى . أما القروض الأجنبية فقد تكون « رافعة » مساعدة

إلى نقطة معينة ، ولكنها أيضا يمكن بعدها أن تستحيل « رافعة خافضة » ، إذ تتراكم فوائدها بميكانيكية الريح المركب إلى الحد الذي يكاد ينسخ فاعليتها ويجعلها عقبة لاعتبة إلى التنمية .

وعلى وجه العموم ، فنحن هنا لانستطيع أن نغادر قضية القوة الاقتصادية في العالم الثالث دون نبرة ختام حادة ولكنها مستحقة . فواقع الأمر المختل المخجل أن التجارة الدولية اليوم قد باتت هي الشكل الجديد للاستعمار - أو تكاد . ذلك أنه بعد تصفية الاستعمار القديم ، بمعنى الاحتلال والاستيطان ، أصبح الفارق الرهيب والانحدار العمودي العائد في أسعار السلع بين الخامات والمصنوعات هو الأداة الجديدة التي اصطنعها وشرعها الغرب والدول الصناعية المتفوقة لاستبقاء التفرقة بينهم وبين العالم « الترسو » كسادة وتوابع وإنما في نظام معيشى وتعايش نوعى جديدين .

وإذا كان البتروليون وحدهم هم الذين نجحوا مؤخرا في اختراق حاجز الأسعار هذا ، فذلك بمحض صدفة سعيدة فقط (أو غير سعيدة تماما ، حيث جاءت قفرتهم على حساب ورقاب سائر الدول النامية ضمنا ، فضخمت من أزمتهم وتخلفهم بالتضخم المضاعف) . وفيما عدا هذا على أية حال ، فإن المرء يكاد ، كلما أمعن التفكير في نظام الأسعار العالمى الراهن ، أن ينتهى إلى أن السرقة الاستعمارية اليوم لم تعد الملكية السياسية ، وإنما باتت هي التجارة الدولية بالدقة والتحديد ، أو فلنقل بالتقريب .

قوة العلم

أما قوة العلم ، أخيرا ، فهي اليوم بلا جدال المحور الأسى للقوة المادية والمعنوية . فلئن كانت القوة الاقتصادية هي نواة القوة السياسية ، فإن قوة العلم بدورها هي النواة النووية . وتختلف العالم الثالث تاريخيا لم يكن في جوهره إلا تخلفا علميا ، والاستعمار نفسه لم يكن إلا تفوقا حضاريا . وإذا كان القرن التاسع عشر هو قرن الذين يملكون والذين لا يملكون ، فإن القرن العشرين - أكثر من أى وقت مضى - هو قرن الذين يعلمون والذين لا يعلمون . والعلم إذن هو حضارة المستقبل ، ومستقبل العالم الثالث رهن بتطوره العلمى . ومن هنا أضحي « نقل التكنولوجيا » ضرورة حيوية لا بديل لها ولا غنى عنها . والتكنولوجيا اليوم ملك لمن يملك ثمنها ، وليس بالضرورة لمن يملك سرها .

وفي هذا الاطار يمكن أن ندرك بعمق قيعة الدعوة التي أطلقها « الميثاق » المصرى

حينما ما للحاق بعصر الذرة والفضاء بعد أن فاتنا عصر الفحم والكهرباء . وليس ثمة ما يمنع من أن يصبح العالم الثالث من أقطاب الحضارة والقوة إذا خاض الثورة العلمية ، بل ربما أصبح القرن الحادى والعشرون قرن العالم الثالث كما يأمل البعض . ومع ذلك فلا ينبغي الاسراف فى التفاؤل بغير عمل شاق ورهيب ، لأن العقود الأخيرة شهدت اتساعا مخيّفا فى الهوة التكنولوجية التى تفصل بين الدول المتقدمة والنامية .

ولقد رأينا فيما مضى كيف أن الحضارة والقوة قد هاجرت بانتظام واطراد من عروض دون مدارية إلى العروض الشمالية ، من الدفء إلى البرد ، ومن مدار السرطان صوب القطب ، وذلك مع قهر حضارة الانسان المتزايد للمناخ البارد . وهناك من يعتقدون ان هذه الحضارة قد وصلت الآن إلى حد القدرة على قهر المناخ الحار ، وأن ليس هناك بالثالى ما يمنع من أن يعود البندول فيتأرجح فى اتجاه عكسى من المناطق الباردة إلى المناطق الحارة ، ومن العروض الشمالية إلى العروض المدارية وصوب خط الاستواء . بل إن هناك من يعتقد أن التطورات السياسية والاقتصادية والثقافية التى لحقت بالمداريات إنما هى من إرهاصات هذه الحركة الجديدة ، كما أنه ثبت أن تكييف المناخ الحار أسهل وأرخص من تدفئة المناخ البارد^(١) .

ومعنى كل هذا أن المستقبل للمداريات - للعالم الثالث - لقوى عدم الانحياز (أو كما وضعها فى حالة أفريقيا كاتب ساخر من أبنائها : إن « المستقبل أسود ») . والحقيقة أن العالم الثالث إذا كان اليوم فقيرا ضعيفا متخلفا ، فإنما هو كذلك بالواقع لا بالامكانيات ، بالفعل لا بالقوة . فإمكانياته الطبيعية ضخمة ورصيده المادى شبه بكر ، وبينما اقترب العالم الشمالى من نقطة التشبع فى ميدان الاستغلال والتنمية ، لا يزال أمام العالم الثالث مجال فسيح . ويكفى أن نأخذ من إمكانيات التحميل بالسكان مؤشرا على ذلك .

يقدر ماكيندر مثلا أن أفريقيا المدارية وحدها يمكن أن تستوعب فى يوم ما ألف مليون نسمة ، ومثل هذا الرقم يعطيه لأمرىكا الجنوبية^(٢) . فإذا أضفنا إلى ذلك آسيا الموسمية بكتلتها البشرية العارمة ، فقد يمكن أن تحمل المداريات أو العالم الثالث يوما ما مقدار ما يحمل هذا الكوكب اليوم من سكان (+ ٤,٦٠٠ مليون) . ومهما يكن من

Stamp, Applied Geog., p. 149.

(١)

"The Round World & the Winning of Peace", p. 605.

(٢)

أمر ، فلا شك أن الثقل النسبي للعالم الثالث ديموغرافيا سيرتفع بشدة في المستقبل ، وسيكون هذا جزءا من ، وعلامة على ، عملية إعادة توزيع الأثقال والأوزان بين القوى العالمية التي بدأت من قبل .

فى الختام

وبعد ؟ والخلاصة ؟ حسنا ، قد يكون عدم الانحياز حدثا سياسيا بالغ الأهمية ، ولكن العالم الثالث مازال جيوبوليتيكيا حدثا صغير السن لم يبلغ سن الرشد إلا بالكاد ، ولا بلغ مرحلة النضج بعد بالتأكيد . غير أنه بحكم بزوغه ونزوعه التاريخي قد « وقع بين مقعدين » هما العالم الأول والثاني ، كل يشد في اتجاه وكل يدفعه ضد الآخر على أساس المبدأ الأيديولوجي ، ولكنه يرفض على أساس قضية التكنولوجيا . وتلك بالدقة مشكلته الشائكة . فهو منذ البداية موزع بين التقدم والتقدمية ، أى بين التكنولوجيا والأيديولوجيا على الترتيب . فإذا كانت مشكلة الغرب في نظر البعض أنه متقدم ولكنه غير تقدمي ، بينما يدعى الشرق أنه متقدم وتقدمي معا ، فإن مشكلة العالم الثالث باعتراف (أو ادعاء ؟) بعض قاداته أنه تقدمي ولكنه غير متقدم .

من هنا فإنه يجد نفسه ممزقا بين ثورة الآمال والتطلعات والطموحات العالمية اللامحدودة وبين إمكانياته الفقيرة المحدودة ، بين حمى الاستهلاك المعدي وقفص التخلف الحديدى ، بين الغوايات والاعراضات الرأسمالية والضعف والتحديات الاشتراكية . وبعبارة أخرى فإن تاريخه الحديث على قصره جاء كله صراعا بين الانفتاح ضد الانغلاق ، والسلاح ضد السلام ، والأمن ضد الطعام والتنمية ، والرأسمالية ضد الاشتراكية ، وأمريكا ضد روسيا ، والغرب ضد الشرق ، والأصالة ضد المعاصرة - فكل هذه جوانب شتى لشيء واحد ولا انفصال لها عن بعضها البعض .

أما فى التحليل الأخير فلعله بحاجة إلى قدر أقل من القوة المعنوية وأكثر من القوة المادية ، قدر أقل من الأيديولوجيا وأكثر من التكنولوجيا . لكنه أيضا بحاجة إلى قدر أكبر من الانتاج وأقل من الاستهلاك . وقبل هذا وذاك فإنه بحاجة إلى قدر أكبر من الاعتماد على الذات ، وأقل من الاعتماد على الغير . وفى جميع الأحوال فإنه بحاجة إلى قدر أكبر من الثقة بالنفس ، وأقل من مركب النقص . وبغير هذا فلا مستقبل له تقريبا ، ولكن المستقبل له يقينا به وبمثله . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

الفصل الخامس عشر

ما بعد الوفاق وعدم الانحياز

آفاق مستقبلية

من معطيات العصر التي لا تحتل التزايد أو الاجترار وإن تحملته دائما ، أن على قبة هذا العالم تتربع منذ نهاية الحرب الثانية قوتان شبه متكافئتين ولكنها شبه متنافرتين هما القوتان الأعظم . ورغم أن إحداهما قد تعد متفوقة على الأخرى دائما أو مرحليا ، بحيث قد يصبح أن نميز فيها كقاعدة أو أحيانا بين القوة الأولى والثانية ، فإنها أدنى إلى التكافؤ والندية والتقارب عموما . ومن بديهيات العصر بعد ذلك ، وهذا هو الأهم ، أن العالم كله يحكم بصورة أو بأخرى بهذه الثنائية والاستقطاب والتوازن ، إلى حد قد يجاوز معه تجاوزا أو مجازا أن نتحدث عن « حكم ثنائي condominium » عالمي بطريقة ما ، بكثافة ما ، وبدرجة ما .

ولقد يكون هذا الوضع أو النمط الثنائي التنافسي الاحتكاري جديدا من حيث المبدأ ، أو قد لا يكون . فإلى ما قبل الحرب الثانية كان على قبة العالم بالمثل قوتان عظيمتان هما الإمبراطورية البريطانية والفرنسية ، متقاربتان إلى حد أو آخر في القوة ، متنافستان على احتكارها ، وفيها بينها تحكمان أو تتحكمان في العالم أو الجزء الأكبر منه بدرجة أو بأخرى . كل ما في الأمر ، وهذا فارق التطور والعصر والمقياس والإيقاع بين الاستعمار القديم والجديد ، أن قد حلت محل هاتين الإمبراطوريتين إمبراطورتان جديدتان غير إقليميتين non-territorial ، عالميتان أو كوكبيتان أكثر ولكنها مكانيتان أقل . بل أليست هذه الثنائية والصراع الثنائي هي كما رأينا جماع وخلاصة تجربة القوة السياسية طوال العصور الحديثة منذ الكشوف الجغرافية على الأقل ؟

أيا ما كان ، فإن علينا الآن في نهاية رحلتنا الطويلة المفعمة حول العالم والعصر أن نتقدم لنقترب اقترابا مباشرا أكثر من هاتين القوتين الأعظم ، نتفحصهما من الداخل

أكثر ونحلل تركيبها في صميمه الهيكلي وفي تطوره الذاتي الذي هو وحده يمكنه أن يفسر كل سلوكها السياسي بكل دقائقه وتفصيله وبكل ذبذباته ومتغيراته طوال ربع أو ثلث القرن الأخير. بل إنه هو وحده الذي يمكن كذلك أن يحدد مصيرها في المستقبل القريب أو البعيد ، وبذلك يعطينا مفتاح التنبؤ المستقبلي : أنتم بينهما عملية اختزال من ثنائية تنافسية إلى أحادية احتكارية مطلقة ، أو تحل محلها ثنائية أخرى تماما ، أو على الأقل تلحق بهما قوى عظمى أخرى لتتحول الثنائية إلى ثلاثية أو رباعية أو خماسية أو أكثر... الخ ؟ ولكن لنبدأ بالحاضر أولا وتحليل الصورة الراهنة ، مرجئين التنبؤ إلى النهاية ، كذلك فلتكن الولايات المتحدة هي نقطة البدء .

الدورة والدور الأمريكي

ليس من العسير على طالب الجغرافيا السياسية أن يرى أهم مفتاح للتطورات العالمية الأخيرة يكمن - موضوعيا - في تحركات ونشاطات ودينامية الولايات المتحدة بصفة أساسية ، وهي نشاطات وتحركات ودينامية عدوانية أحيانا بصفة قاطعة . وليس من العسير عليه أيضا أن يرى مفتاح الدينامية أو العدوانية الأمريكية هذه يكمن في مرحلة تطورها الجيوبوليتكى ، أى في موقعها على منحني تطور الدولة عبر التاريخ ككائن عضوى أو شبه عضوى .

وبالنسبة للولايات ، يمكن أن نميز من مراحل التطور الأربع الأساسية ثلاث مراحل حتى الآن هي : مرحلة الطفولة حتى أواخر القرن ١٩ ، ثم مرحلة الشباب حتى حرب فيتنام ، ثم أخيرا مرحلة النضج منذ الوفاق في السبعينات الأخيرة فقط . وواضح أن المرحلة الأولى هي كأمر طبيعى أطولها ، إلا أن أهميتها تاريخية نوعا . أما الثانية فهي أخطرها خارج كل حدود ، لأنها التى تفسر كل عناصر الاضطراب والخطر والتوتر في عالمنا المعاصر حتى قريب جدا ، ولهذا فإنها ستشغل الحيز الأكبر من دراستنا التفصيلية التالية . أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتطور طارئ حديث للغاية ، ولكنه مفتاح المستقبل جميعا .

دور النشأة والطفولة

الذى يحلل تاريخ الولايات المتحدة سيجد القرن التاسع عشر في أغلبه يمثل طفولتها كدولة ، فقد كانت تبنى كل ملامح وأعراض دور النشأة حيث ظلت منهمكة - بعد

حروب الاستقلال - في صراعاتها الداخلية البحتة وحروبها الأهلية وعمليات الضم الإقليمية أو تعميم الاتحاد محليا ، باختصار كانت مستغرقة تماما في عملية ترتيب البيت من الداخل . من هنا كانت « العزلة » بوصلتها وقبلتها السياسية التي يمكنها وحدها أن تتيح لها الحماية من أخطار الخارج ريثما تتكون لها درقة أو صدفة صلبة تغلف قوتها الهلامية الناشئة . وقد كان مبدأ مونرو هو أول صيغة للعزلة في الواقع ، بل من الثابت أنه لم يبدأ إلا برعاية وموافقة بريطانيا ولم يتحقق إلا في ظل أسطولها وسيادتها البحرية العالمية .

غير أن ظروف الولايات المتحدة الخاصة جدا ، من عزلة طبيعية جغرافية وضخامة فجائية غير مألوفة ، ساعدتها حتى منذ دور النشأة على الاتجاه نحو السيطرة الخارجية . وهذه وجدت مجالها شبه البكر في أمريكا اللاتينية ، وذلك بطبيعة عزلة العالم الجديد جغرافيا وبدرية مبدأ مونرو سياسيا . ومن المفارقات اللافتة الساخرة والتي سترسم سابقة دالة للمستقبل ، أن سيطرة الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية إنما تمت على حساب النفوذ البريطاني بالذات ، وذلك بعد عملية صراع وإزاحة حلت بها الإمبريالية الأمريكية محل البريطانية .

والخلاصة من هذا كله أن الولايات في عزلة مرحلة نشأتها لم تكن تمارس الصوفية أو المثالية السياسية ، وإنما كانت منغمسة منذ وقت مبكر في تجربة جديدة في فن الاستعمار اتخذت من أمريكا اللاتينية حقلها ومشتلا ومعملا . وهذا ما استخراج به إلى العالم حين تدخل دور الشباب ليكون « هدية » العالم الجديد إلى العالم القديم ...

دور الشباب

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر كانت الولايات قد عبرت مرحلة الانتقال من دور النشأة إلى دور الشباب واقتحمت دور الشباب والفتوة الذي تكون الدولة قد استكملت فيه بناء كيائها الداخلي وقوتها الذاتية ماديا ، وأمنت حدودها نهائيا ، وبدأت طاقتها تفيض عبر حدودها فتتطلع إلى الخارج في حذر أولا ثم في اندفاع منقضة لا تلوى على شيء في النهاية . إنه دور التوسع ، أي الاستعمار بالضرورة ، الدور الذي تمثل فيه الدولة مشكلة خطيرة للسلام العالمي وتحديا للقوى الأقدم والأحدث على السواء .

من الاستعمار القديم إلى الجديد

ويتمثل هذا في حالة الولايات في توسعاتها الاستعمارية بالمعنى المباشر - معنى

الاستعمار القديم - في الكاريبي والمهادى ، ثم في انغماساتها في حروب العالم القديم الإمبريالية التي كانت تتأرجح فيها بين تقليد عزلة دور النشأة وبين إغراءات توسع دور الشباب . فبعد أن شاركت إثر تردد طويل في الحرب العظمى الأولى ، تذبذبت نحو العزلة نوعا فيما بين الحربين ، إلى أن مجاذبتها من جديد الحرب العظمى الثانية التي وضعتها تماما في قلب دوامة السياسة العالمية بل وعلى رأس صراع القوى الكوكبية جميعا .

وإذا كانت الحرب الثانية قد قامت أصلا كصراع استعماري بين دولة فتية في دور الشباب (ألمانيا) تبغى التوسع على حساب دولة أقدم في دور النضج (بريطانيا) لم تعد تتشد إلا الاستقرار وكل همها المحافظة على الوضع الراهن بما لها فيه من مكاسب استعمارية عظيمة حققتها من قبل في دور شبابها ، فإن الجائزة الكبرى قد سقطت في النهاية في يد الولايات المتحدة . فلقد خرجت بريطانيا ، وأكثر منها فرنسا ، مضعفتين من الصراع ، مما مكن لثورة التحرير أن تنطلق في المستعمرات ، وللولايات المتحدة أن تشارك في مطاردتها منها حتى تستطيع أن تحمل محلها ، إلى أن انتهت فترة ما بعد الحرب بانتقال بريطانيا وفرنسا كدول من دور النضج إلى دور الشيخوخة والانكماش .

وفي النتيجة ، فإن الإمبريالية الأمريكية الجديدة لم ترث الإمبريالية البريطانية والفرنسية القديمة فحسب كما هو شائع ، وإنما ورثت في الحقيقة كل الرأسماليات للتنحية البريطانية وفرنسية وألمانية وإيطالية ويابانية ... الخ ، أي كل الرأسماليات الديمقراطية والدكتاتورية ، الليبرالية والفاشية ، وقوى دور النضج ودور الشباب على حد سواء . أما بالنسبة إلى دول التحرير الوطني التي قامت في المستعمرات القديمة ، والتي تقف على درجات متفاوتة من دور النشأة والطفولة بكل معالمه ومشاكله التطورية العادية فضلا عن التخلف الحضاري والضعف الجذري الخطير ، فقد ظهرت الولايات المتحدة أمامها في ازدواجية خبيثة لم تلبث أن صارت سافرة . فقد خدعت بعض هذه الدول في دورها السياسي تحت أوهام عزلتها القديمة ومثل مرحلة نشأتها للدعاة ، وكذلك تحت تأثير مطاردتها الظاهرية للاستعمار القديم حتى توهمت الأولى فيها أملا حقيقيا للتحرير والتعمير . فإذا الحقيقة تتكشف عن قوة جديدة تأتي من وراء البحار لتصدر تجربتها الحاصية والأصيلة في الاستغلال بدل الاختلال ، والسيطرة والنفوذ بدل الامتلاك والوجود ، أو بالتعبير الدقيق لتمارس الإمبريالية بدل الكولونيالية أي الاستعمار . وهذا هو « الاستعمار الجديد » في مقابل « الاستعمار القديم » ، وتلك كانت بداية خيبة أمل العالم

الثالث في الولايات ، ولكن الأسوأ منه كانت النهاية ، إذ أصبحت الولايات لعنة العالم الثالث بالتحديد كما رأينا ونرى أحيانا .

عناصر القوة

وعند هذا الحد يمكن تشخيص خطر الولايات في أنها أول دولة في التاريخ اجتمعت فيها ولها كل عناصر القوة ومقوماتها ، ولكن أيضا كل أعراضها وأمراضها ، وذلك على أكبر مقياس في التاريخ كذلك ، فهي في كل ذلك « أول أكبر » أو « أكبر أول » كما قيل . فهي كقارة أو شبه قارة تعد أول دولة تقف على قمة دور الشباب في مثل هذا الحجم والضحامة والثراء . ويكفي في هذا الصدد تفوقها العلمي والتكنولوجي المنح الذي خلق بينها وبين أوروبا الغربية نفسها هوة كالهوة التي بين أوروبا الغربية والعالم الثالث ! وإذا كان أهم ما يميز الدولة في دور الشباب أن نضج قوتها المادية يسبق نضج خبرتها وحنكها السياسية إلى درجة مقلقة ، فإن هذا يصدق على الولايات كما لا يصدق على دولة أخرى ، بل إلى الحد الذي يضع العضل فوق العقل تماما في السياسة العالمية .

وهي بعد ذلك أول دولة رأسمالية تتعدى حدود الرأسمالية التقليدية وآفاق الرأسماليات القديمة إلى مرحلة يمكن أن توصف حقا بمرحلة مافوق الرأسمالية super-capitalism . فهي اليوم أكبر قلعة للاحتكارات والاستثمارات العالمية والشركات متعددة الجنسية . وهي كذلك ولذلك أول دولة تتبنى الديمقراطية وتمارسها شكلا وتعلن نفسها حامية « العالم الحر » والمدافعة عنه ، ولكنها مع ذلك التي أخذت تنمي لنفسها ملامح فاشية بقدر أو آخر ، أكثر من جنيني على أية حال ، وذلك بتضخم آلة الحرب تضخما رهيبا جعل الحكم فيها أدنى إلى شركة مساهمة بين الاحتكارية والعسكرية أو بين تجار الأسلحة وتجار الحروب . وهي بهذا - موضوعيا - أول دولة تعرف لونا جديدا من الفاشية هي الفاشية المقنعة ، تميزها عن الفاشيات السافرة السابقة . ويكفينا شاهدا في هذا المجال تصريحات بعض الساسة الأمريكيين أنفسهم . من أولها ما قاله الرئيس الأسبق أيزنهاور عن التلاحم الوثيق بين رجال الصناعة والعسكرية وتحذيره من « حصول هذا المركب الصناعي - العسكري على نفوذ لامبرر له » . ومن آخرها ما أعلنه مرشح للرياسة الأمريكية من أن الولايات « لم تعد قلعة للديمقراطية ، وإنما أصبحت مقلدا للديكتاتوريات » ، وأن « ما يحدث في أمريكا الآن ... يشبه إلى حد كبير ألمانيا هتلرية عام ١٩٣٩ » .

والولايات بعد كل هذا وقبله وفوقه أول وأكبر قوة نووية في التاريخ ، وهذا عنصر لا يقبل المزيد من التعليق ، إلا أن نلاحظ فقط مغزاه في ضوء اجتماع الخصائص السابقة ، وهو أن هاهنا أول حالة لدولة عظمى في دور الشباب ، فوق رأسمالية ، شبه فاشية ، وفي نفس الوقت ذات قدرات - أو أنياب - نووية .

وإنه لمنطقي جدا بعد هذا - فيما يبدو للولايات - أن تتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة وألا تفنح بأقل من دور الوصاية الكاملة على هذا الكوكب . وهناك من يخشى أن تكون الولايات ساعية في معنى حقيقي جدا إلى إنشاء أول إمبراطورية كوكبية في التاريخ الإمبريالي وإن يكن في شكل غير مباشر هو الاستعمار الجديد ، أو قل الإمبريالية العليا أو العظمى super-imperialism⁽¹⁾ . لقد كانت أعظم إمبراطوريات الاستعمار القديم مها تعاطمت تغطي جزءا فقط من هذا الكوكب ، ولكن يبدو الآن أن الاستعمار الأمريكي الجديد يود أن يعوض عن الكثافة بالمساحة . وهناك من يرى - مثل توينبي - أن الولايات المتحدة هي روما العصر ، بينما يسجل أحد قادة الولايات نفسها « أننا أصبحنا نقوم بالدور الذي كانت تقوم به الإمبراطورية البريطانية القديمة » .

غُرور القوة

والولايات تكاد تتصور هذا رساله قدرها إن لم تتوهمه حقا إلهيا مقدسا . غير أنه بغض النظر عما قد تتخيله هي أو تدعيه عن مثالياته وفروسيات قوتها ، وبغض النظر كذلك عما إذا كانت تعتقد أن « الله أمريكي » أو أنها ظل الله على الأرض كما يسخر منها البعض مثلا سخروا من بريطانيا القرن الماضي ، فإن الواقع الموضوعي هو أن عناصر القوة قد تحولت أحيانا في يد الولايات إلى أعلى مراحل غرور القوة ، إن لم يكن حقا إلى نوع من جنون القوة .

ففي رأي الكثيرين أنها إذ جعلت من نفسها رجل إطفاء العالم ، تحولت بالفعل إلى مفجر حرب العالم ، وأن تصورها لدورها كرجل بوليس عالمي انتهى بها إلى أن تصبح في الواقع دولة بوليسية إرهابية عظمى وقرصانا أو قاطع طريق دولي خطير . كما أنها ، وقد جعلت من نفسها وريثة كل الاستعمار ، قد صارت تلقائيا قلعة الرجعية العالمية وزعيمة الثورة المضادة في العالم أجمع . وهذا مادعا البعض في وقت ما إلى أن ينتهي إلى

A. Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 121.

(1)

أن الولايات أصبحت نقمة وكارثة حقيقية على العالم ومأساة العصر الكبرى . بل هناك من شبهها « بسرطان العالم » من حيث أن السرطان ليس أكثر ولا أقل من نمو شاذ غير متوازن يظل يتضخم في جسم عضوى حتى يدمر خلاياه . وإذا كان العالم قد تحدث في مراحل متعاقبة عن الخطر الأصفر والخطر السلافى والخطر الشيوعى ... الخ ، فإن البعض يرى أننا اليوم نعيش في عصر « الخطر الأمريكى » (إقرأ : السلام الأمريكى) .

وأيا كانت النظرة العلمية إلى هذه الآراء ، التى قد تكون عاطفية أكثر مما هى خاطئة ، فلا جدال على الأقل أن هناك كثيرا من الموضوعية في نظرة دييجول فرنسا مثلا الذى أعلن كرجل دولة مسئول أن أخطر ما يواجهه العالم في القرن العشرين هو تضخم قوة أمريكا خارج كل حدود ... ومن الناحية العلمية البحتة يمكن أن نلخص جوهر مشكلة الولايات في العالم في أنها بحكم ظروف خاصة جدا جغرافية وتاريخية وصلت إلى الصدارة العالمية قبل الأوان ، وقبل أن تكون مؤهلة لها بالتاريخ والتجربة والنضج . ولعل هذا هو السبب الذى حدا بمؤرخ مثل توينبى إلى أن يتوقع أمد حياة قصيرة للصدارة الأمريكية في العالم ، فلا يتنبأ لها بأكثر من ٥٠ سنة على الأكثر من البداية إلى النهاية ، وهو مدى قصير للغاية إذا قورن بالصدارة البريطانية أو الفرنسية في الماضى ... الخ .

أما من الناحية العملية ، فإن عناصر القوة الأمريكية لم تعد مفتاحا أساسيا من مفاتيح السياسة العالمية فقط ، بل وأخطر عناصر الصراع والصدام الدولى المحتمل . فههدف السيادة العالمية كان حريا منذ البداية بأن يصطدم مع الاتحاد السوفيتى ومن خلفه الكتلة الشرقية ، كما استدعى ابتلاع العالم الثالث . ولقد رأينا من قبل كيف كاد العالم غير الشيوعى في الستينات يبدو فراغا في نظر أمريكا ، وكيف كاد ملؤه يبدو عبء الرجل الأمريكى .

ونضيف هنا أن الذى يساعد الولايات على ذلك وجودها العسكرى من قواعد وأساطيل منبثة حول العالم كله تقريبا ، حتى كادت بذلك تصبح جغرافيا وسياسيا « جارا » - غير مرغوب فيه - تشترك حدوده مع حدود كل دولة تقريبا ، مثلما قد صارت « شريكا » - طقيليا - لها في وجودها وذلك بمخبراتها السرية وعملائها وتكنولوجيات التجسس والأقمار الصناعية ... الخ ، حتى قال البعض - ياسا أو سخرية - أينما تكونوا تدرككم الولايات المتحدة !

ومن البديهي بعد هذا كله أن تكون الولايات على جانب الهجوم دائما . فبينما لا يملك الاتحاد السوفيتي أن يغامر بالردع النووي الشامل ، وجدت الولايات فرصتها الذهبية وسلاحها الفعال في استراتيجية الرد المرن والحروب المحدودة الصغيرة المحلية أو الاقليمية . وقد ساعد الولايات على ذلك وجودها العسكري الذي ذكرنا توا متشرا في عشرات القواعد والتسهيلات بالاضافة إلى أساطيلها العديدة في محيطات العالم ، تلك الجزر الأمريكية العائمة أو الثابتة التي وصفت بحق أنها « الأرمادا الأمريكية » أو انكشارية العصر الحديث .

احتكار القوة

وأخيرا ، فلعل خير ختام لمرحلة الشباب العارمة هذه من حياة الولايات هو هذه المفارقة التي أوشكت أن توصل العالم إليها . ففي العصر الذي ظننا فيه أن استراتيجية السياسة العالمية أصبحت ثلاثية الأبعاد والأركان لأول مرة في التاريخ بحيث زال احتكار القوة المطلق الذي عرفته كل المراحل السابقة على القرن الحالى ، في هذا الوقت أصبح أحد هذه الأركان ، وبالتحديد قطبه الأمريكى ، يتمتع بسيادة عالمية أحادية شبه مطلقة ترجح كثيرا كل ما عرفته بريطانيا مثلا في أوج عصر احتكار القوة ، فإذا به بالفعل أو بالقوة يحكم من العالم أقله ويتحكم تقريبا في أغلبه .

ولابد للباحث الموضوعى أن يعترف ، مؤقتا أو ظاهريا على الأقل ، أننا بمنطق غريب بل معكوس نعيش أو نكاد نعيش منذ الحرب الثانية قرن الولايات المتحدة ، وأننا نكاد نشهد الآن عصر « أمركة » العالم - سياسيا كما هو حضاريا - بعد أن عشنا عصر « الأوربة » في القرن الماضى . وإذا كان ٤٪ من مساحة العالم في غرب أوروبا قد نجحت حتى القرن الماضى فى السيطرة على ٩٦٪ من مساحة العالم ، فإن ٦٪ من سكان العالم هم سكان الولايات المتحدة يهدفون فى هذا القرن كما يبدو إلى السيطرة على ٩٤٪ من سكان هذا الكوكب .

ولقد كان الخطر الكامن فى هذه الاتجاهات الانزلاقية والنكوصية السائدة إذا هى استمرت أن يصبح عصر السيادة العالمية المطلقة للإمبريالية الأمريكية على مرأى النظر أو مرمى حجر كما أئذر البعض . غير أن هذا لحسن حظ العالم أو لسوء حظ الولايات لم يحدث ، إذ جاءت السبعينات لتضع نهاية لمرحلة شبابها وتفتتح مرحلة النضج .

دور النضج والاستقرار

من المؤكد أن عقدة فيتنام وصدمة الوفاق تمثل تغيرا كينيا أكثر منه كيميا فقط ، وبالتالي نقلة جذرية في حياة أمريكا السياسية . ففي أتون فيتنام انصهر غرور القوة والغطرسة الأمريكية ، ثم أنضجتها نارها من أوهام الشباب والفتوة العاتية . وبالوفاق ، أفادت الولايات على الحقيقة القاسية وهي أنها إزاء تحديات عالمية لم تعرفها من قبل ، وأنها كما عبر الرئيس الأمريكي بنفسه وقتها (نيكسون) لم تعد وحدها مع الاتحاد السوفيتي على قمة العالم ، وأن هناك قادمين جددا على الطريق ومنافسين أقوياء على الصدارة العالمية . وبصيغة مراحل التطور الجيوبوليتيكي ، فإن معنى هذا مباشرة وبيقين هو أن الولايات قد انتقلت أخيرا على صخرة فيتنام وعبر بوابة الوفاق من مرحلة الشباب إلى مرحلة النضج .

أزمة القوة

لقد أخذ ثقل أمريكا يتضاءل - نسبيا - في ميزان القوة العالمية وذلك بعد أن وصل إلى الذروة ولم يعد يستطيع أن يتجاوز « سقف » القوة إلى أعلى . ولم يكن هذا لتناقص في مواردها أو قدراتها - هذه لا تكف عن النمو بشدة - وإنما ببساطة لأن عالم القوى قد اتسع كثيرا عما كان عليه حتى قريب ، وذلك بظهور تعدد المراكز . إن أمريكا ، بعبارة أخرى ، تنمو أكثر من أى وقت مضى ، ولكن العالم من حولها بات ينمو بسرعة أكبر .

من هنا فقد أدركت رازمة أن هناك « انكماش » نسبيا في حجمها ، وبالتالي فلا بد من تقليص نسبي لدورها . ومن هنا ، وليس من هناك ، انجهدت إلى المزيد من التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتي (الوفاق) والتقارب مع الصين (زيارة نيكسون) إلى آخر ذلك الانقلاب الكوكبي للثبر الذى شهدته السبعينات الباكورة .

إن الولايات المتحدة ، كدولة ، تمر تحت ناظرينا وبصورة غير ملحوظة ولكنها درامية حقا من مرحلة الشباب أى التوسع إلى مرحلة النضج أى الاستقرار ، وهى المرحلة التى تكون الدولة فيها قد بلغت قمة القوة ولا تملك بعدها إلا أن تخسر ، ولذا تجد كل مصطلحتها فى المحافظة على مواقعها المكتسبة ومكاسبها المتراكمة وعلى الوضع الراهن ، ساعية بذلك إلى الاحتفاظ « بسلامها » الذى سبق أن فرضته بالقوة ، وذلك دون اللجوء ما استطاعت إلى المزيد من الحروب والصدامات . أى أن الدولة ، باختصار ، تقبل بالوضع الراهن Statis quo ، لتفرض منه الأمر الواقع

fait accompli ، وتستبدل بالعنف المباشر الخداع العنيف . وتلك هي حقيقة الحقائق في كل الموقف الأمريكى الراهن ، مثلما هي الحقيقة المفتاح في سياستها المقبلة .

فأما أن الولايات اليوم في أزمة فنعم ، أما أن حلها هو العزلة فلا . وهنا بالتحديد تكمن - علميا - مشكلة الولايات الراهنه مباشرة . إنها أزمة الانتقال من مرحلة في الدورة الجيوبوليتيكية إلى مرحلة أخرى في عالم متغير حتى النخاع . والارتداد إلى العزلة في وجه هذا التحدى ليس إلا من قبيل أوهام الماضى ، لأن العزلة كانت وظيفة طبيعية ملائمة لمرحلة بعينها ، ولكن لا مكان لها الآن ، لا في مرحلة تطور الولايات المتحدة نفسها ولا في عالم الصواريخ عابرة القارات وثورة المواصلات والنواة... الخ التى هي بالدقة أكبر صانعها أيضا .

من احتكار القوة إلى توازن القوى

وإنما الاستراتيجية التى فرضت وستفرض نفسها على الولايات ، والتى خططت لها بالفعل فى أوائل السبعينات على يد مهندسها كيسنجر ، هى العودة إلى النموذج البريطانى العتيد ، سياسة توازن القوى بدلا من سياسة مجابهة أو تناطح أو تناحر القوى ، وذلك لتلعب فيها دور « المرجح » الفيصل - كما يسمى تقليديا - بعد أن انتهى دور « المحتكر » المطلق . وهذا التحول يقترب ، إن لم ينتقل ، بنا إلى جوهر استراتيجية الصراع فى القرن ١٩ ، وإنما على نطاق جغرافى أوسع كثيرا وعلى مستوى تكنولوجى أعلى جدا ، حتى لكأن معادلة اليوم هى تكبير لمعادلة الأمس .

فن الواضح منذ الوفاق فى أوائل السبعينات أن الولايات إنما اتجهت عمدا إلى التعايش السلمى والانفراج مع الاتحاد السوفيتى وإلى التقارب مع الصين لا لينتهى صراع القوى ولكن لكى تدق على المدى الطويل فيما تأمل إسفيننا نهائيا بين القوتين الشيوعيتين . كذلك فإنها لا تعترف بالاستقطاب المتعدد أيا كان عدد أطرافه لكى يؤلف « صفا أفقيا » يتساوى فيه الجميع أو تتساوى فيه مع الجميع ، وإنما ليؤلف « طاورا رأسيا » تقف على قته ، تضارب فيه من موقع المرجح ومن عزلتها بين المحيطين بين بقيتهم ، تمنع اجتماعهم ضدها أو استثناء قوة أو خطر أى منهم ، وتخلق فيهم المحاور الاستقطابية المتناقضة والمتحاربة التى قد يجيد أو يحطم بعضها البعض ، دون أن تتدخل هى أو تخسر من مكانتها أو تحرق أصابعها بقدر الامكان ، وإنما تقف من بعيد توجج الصراع وتجمع الأرباح .

وفي ظل هذه الاستراتيجية سيكون علينا أن نتظر من أمريكا الكثير من مفاجآت المناورات التكتيكية ، وتغير المواقف الخداعية اللامبدئية ، التي لا تعرف حتى الولاء للأيديولوجية ، ولا تعترف إلا بقوة المصلحة ومصلحة القوة . ولعل التقارب مع الصين هو أول هذه المفاجآت . وسوف يكون على الدول الصغرى التي تتحدد مصائرهما بصراع العاقبة أن تأخذ في حسابها محاذير هذه السياسة اللاأخلاقية التي أكسبت النموذج البريطاني . القديم من قبل صفة الغدر والغادر .

كذلك فعلى كل من تخامره أوهام عزلة أمريكية قادمة ، مها لّوحت أو هددت هي بها ، أن يتخلوا عن هذا الوهم العريض بل المريض . وفي حالة الشرق الأوسط بالذات ، وحيث يعنى الأمر إسرائيل بالتحديد ، فلسوف يظل الخطر الأمريكي قائما ومقيا ، وإن يكن في تركيبة جديدة . والمهم في كل الأحوال أن صراع الأقطاب يحمل الكثير من المفاجآت والاحتمالات ، ويمكن أن يتبع أكثر من معادلة من معادلات القوة .

الولايات بريطانيا القرن ٢٠

وعند هذا الحد من السياق تفتز إلى الدهن ، لامفر ، دورة حياة الإمبراطورية البريطانية بالذات . فهي في الحقيقة تمثل « مسودة » مصفرة ، أسبق وعلى مستوى أقل ، من دورة الإمبراطورية الأمريكية . أما الفارق فهو فارق المقياس بين « جزيرة » بريطانيا « وشبه قارة » الولايات ، وفارق العصر بين الثورة الصناعية والثورة التكنولوجية ، أى بين العصر الآلى والعصر النووي ، وهو أخيرا فارق الشكل بين الاستعمار القديم والجديد ، الفارق باختصار بين القرنين التاسع عشر والعشرين . وفيما عدا هذا فإن الولايات تكاد تكرر هذه الدورة في مجملها وإن لم يكن بحذافيرها بالطبع .

فهي جزيرة عظمى بإزاء كتلة العالم القديم ، منها وليست فيها ، تتمتع بالعزلة والحماية وراء المحيط بكل اتساعه . وهي كبريطانيا لم يطأها غاز ، ولم تدر على أرضها حرب لقرون . وكبريطانيا كذلك ، لم تكن تفرص على العزلة وتمارسها إلا ضمنا لحمايتها في دور النشأة والتكوين ، فقط ريثما يشتد عودها لتنتقل ، لتطلقها بعد ذلك إلى الأبد . وهي إلى أمس القريب جدا كانت في أوج القوة وعلى قمة مرحلة الشباب ، غير أنها في وجه تعدد المراكز الصاعدة وتساعد المنافسة دلفت أخيرا جدا وبالتدرج الوئيد

إلى مرحلة النضج تنشُد مضطرة الاستقرار والحفاظة على مكاسبها ومصالحها المكتسبة في ظل الوضع الراهن .

وكما كانت الحرب العالمية الثانية بداية نهاية الإمبراطورية البريطانية ، وعبدان (مصدق) والملايو والسويس (ناصر) نهاية النهاية في الخمسينات ، جاءت حرب فيتنام (هوتشى مينه) بداية نهاية السيادة العالمية الأمريكية وإيران (خومينى) نهاية النهاية في أواخر السبعينات . الفارق الوحيد ، وهو أساسى للمستقبل ، أن الحرب الثانية كانت جيوبوليتيكية نهاية مرحلة النضج والاستقرار وبداية مرحلة الشيخوخة والانحدار ، وبالتالي نهاية دورة القوة برمتها ، في حالة بريطانيا ، أما فيتنام فنهاية مرحلة الشباب وبداية مرحلة النضج في حالة الولايات . ولذا فإن أمامها ما تزال أشواط مديدة من دورة القوة تمارسها وتقطعها .

ماذا بعد أمريكا ؟

ولكن يبقى مع ذلك أن إقامة أمريكا - بكل جرمها وجبروتها غير المسبوق أو الملحق - على قمة السيادة العالمية المطلقة جاءت أقصر فعلا من كل تصور وأن نهايتها أنت أسرع من كل تقدير (راجع رأى توينبى) . فمن كان يظن أن تاريخ حياة أمريكا على ذروة السيادة العالمية يمكن أن يكون قصيرا جدا إلى هذا الحد ، أقصر قطعا مما عمرت روما وبريطانيا ؟ ثم السؤال الأكثر غرابة وإثارة : ومن وماذا بعد أمريكا ؟ روسيا ؟ حسنا ، إن حدث فلن يكون ذلك إلا مصداقا لميكانيزم قوة البحر تليها قوة البر في السيادة العالمية ، وتكرارا لتاريخ القوة العالمية خلال العصور الحديثة على الأقل . ثم من بعد روسيا ؟ الصين ؟ ... الخ ... الخ .

ومع ذلك فيكاد يكون من الصعب على المفكر السياسى المعاصر أن يتصور عالم الغد بلا أمريكا على القمة أو أن يتصور لها ورثا عليها فضلا عن غالب لها . وعلى ذكر الغالب ، مها يكن الأمر ، فإن النبوءة الوحيدة التى قد يمكن الجزم أو التكهّن بها ، إذا ماهزمت الولايات هزيمة استسلام شامل جدلا ، أنها قد لاتعود غالبا بنفس حدودها وحجمها وكيانها الجبار الراهن ، وإنما قد تمزق أوربيا أو تفتت لاثينيا على الأرجح ، على صعوبة التصورين الفرضيين أصلا ، هذا كذلك .

ثم ماذا ؟ حسنا ، لقد اتسع المسرح جدا وكبرت البانوراما للغاية عما كانا عليه في القرن الماضى ، وتبادلت القوى أدوار الشخصيات المختلفة ، لكن الدراما واحدة ،

دون أن يعنى هذا بالضرورة أن التاريخ يعيد نفسه . وإنما صراع القوى بين الأقطاب المتعددة سيتم من الآن على أساس أنه لم يبق للولايات المتحدة كما تحتفظ بالسيادة العالمية إلا أن تمارس من جزيرتها الكبرى في العالم الجديد لعبة توازن القوى بين منافسيها في العالم القديم ودور المرجح بينهم ، تماما مثلما فعلت بريطانيا من جزيرتها الصغرى إزاء منافسيها على القارة في الماضي .

دور الاتحاد السوفيتي

ميزان القوة

إن تكن الولايات المتحدة بطبيعتها قوة هجومية أساسا وبالضرورة ، فإن الاتحاد السوفيتي قوة دفاعية بالفضل والامتياز . ذلك ، بحكم كل شيء ، فارق استراتيجي محوري وجوهري لاسيما إلى تجاهله أو التقليل منه . فلا هو فقط بحكم الأيديولوجيا وعبادة القوة ، ولا هو بقوة الثراء وتقدم العلم والتكنولوجيا ، ولكن أيضا بحكم التاريخ والجغرافيا ذاتها . فضلا عن طبيعة الرأسمالية التنافسية ونزعتها التسلطية ، إضافة إلى إمكاناتها الفائقة وتفوقها التكنولوجي الباهر ، فإن الولايات لم تذق طعم الحرب على أرضها منذ ١٨١٢ . ولذا فإن استراتيجيتها المفضلة كانت هي دائما أن تدافع بالهجوم ، وأن خير الدفاع الهجوم ، وأن الهجوم للأقوى ، وهو نصف النصر ، بينما على الأضعف الدفاع والأضعف على الدفاع .

أما الاتحاد السوفيتي فكاد يكون النقيض تماما . فلايديولوجيته السلامية المعلنة ، ولتخلف مستواه الحضاري والمادي المعلن أيضا وانصرافه إلى رفعه وتحسينه ، ولكن أيضا وأساسا لأنه أكبر من خسر في الحروب العالمية وكان أشجع مسارحها ، فإن استراتيجيته الموروثة والمكتسبة هي بالضرورة الدفاع ، حتى الهجوم هو بالدفاع ، أي يتم عن طريق الدفاع . حتى الأسلحة السائدة عند كلا الطرفين ، للدهشة ولكن لا غرابة ، يصدق عليها نفس المقابلة . فأخطر أسلحة أمريكا المفضلة هي الصواريخ متعددة المدى والرؤوس والطائرات القاذفة للمقاتلة الجبارة ، بينما أن أشهر الأسلحة الروسية عنده وحتى عند أصدقائه هي الصواريخ الدفاعية أمثال سام وغيرها .

هذا عن الخلفية العسكرية أو العقيدة القتالية ، أما إذا نقلنا إلى ميزان القوة ، فليس من السهل أن نحدد بدقة قاطعة من القوة الأولى داخل القطبية الثنائية . من ناحية

لتذبذب كفتى الميزان من مرحلة إلى أخرى ، ومن ناحية ثانية لأنه ليس بالقوة العسكرية البحت وحدها يكون قياس القوة بمعناها الشامل . وعموما فلقد كانت كفة الولايات هي الراجحة غالبا في القوة العسكرية معظم مراحل الفترة الحديثة من الصراع ، وإن جنحت مؤخرا لصالح الاتحاد كما يقال أو كما يقول الطرفان على حد سواء .

على أن الذى لاشك فيه أن الاتحاد كان دائما ولا يزال متخلقا عن الولايات بالمعنى الحضارى الشامل . فضلا عن مستوى المعيشة قطعاً ، فإنه يقصر دونها كثيرا في معظم خطوط الانتاج القومى والاقتصادى والزراعى والصناعى ، خاصة منها التكنولوجيا الحديثة فائقة التطور ، إلى حد أنه يعتمد اعتمادا خطرا على القليل الذى تسمح به منها ، بل وحتى كذلك على دول أوروبا الغربية الكبرى المتقدمة .

مثلا في ١٩٦٨ بلغ حجم الانتاج القومى في الاتحاد نحو ٣٥٠ بليون دولار ، مقابل ٧٤٣ بليوناً للولايات . ورغم أن هدف الاتحاد المعلن لا يعدو حتى الآن أن يلحق بمستويات الولايات في القريب ، فإن معدلات نموه أسرع قليلا أو كثيرا من الولايات ، والفجوة الكلية بيننا تضيق باستمرار ، وإن انعكس الوضع في السنوات الأخيرة على ما يبدو .

دولة في مرحلة النضج

وإذا نحن أخذنا بما يقوله الاتحاد السوفيتى ، فإنه ملتزم بالسلام ويتبع سياسة سلامية أساسا ، ويعمل على إثبات تفوق نظامه عن طريق المنافسة في الحياة لا في الموت ، ويضع لنفسه هدفا محددًا في المستقبل القريب هو الوصول إلى مستوى معيشة وإنتاج الولايات ثم تحطيمها . ومن الناحية الأخرى فهو لم يعد يتهم من أعدائه بتصدير الثورة إلى الخارج ، وهو يكتفى فيما يبدو بالحيط الجغرافى الهائل الذى وصل إليه العالم الاشتراكي وبالمثل والنموذج القائم الفاعل في صمت . وحتى في أوروبا الغربية يسود الاعتقاد بأن خطر الغزو الشيوعى العسكرى لم يعد مسلطا ، أو كما قال سياسى بريطانى في أوج الستينات العاصفة « إننا مستسلمون لوهم الخطر الروسى إلى حد العجز عن ملاحظة الاتجاهات الأشد خطرا في السياسة الأمريكية ... » .

وهناك أسباب عدة لهذا الموقف الجوهري من جانب الاتحاد السوفيتى ، منها مبادئه الأساسية نفسها فالسلام مطلب اشتراكي أساسا ، ومنها بلاشك الانقسام الخطير الذى أصاب الكتلة الشرقية بالتزاع السوفيتى الصينى فأصابها بضعف دولى ملموس ، ومنها

كذلك أنه بعد ٦٥ سنة من الثورة والنضال الداخلى والخارجى المرير قد وصل إلى بناء مادی عمرانى ضخم يسعى للمحافظة عليه من خطر التدمير . وهنا نصل إلى نقطة قد تكون هامة في تشخيص مرحلة النمو السياسى التى بلغها الاتحاد .

فع التفرقة الواجبة بين طبيعة الدولة الرأسمالية والدولة الاشتراكية وبين أهدافها ، فإن مراحل النمو السياسى والتطور الجيوبوليتيكي العام للدولة ككائن عضوى ليس ثمة ما يدعو إلى التفرقة فيها . ومن هذه الزاوية فإن الاتحاد السوفيتى كدولة يمكن أن يقال إنه تعدى مرحلة الشباب منذ حين ودخل مرحلة النضج . فرغم أن مرحلة الشباب في الدولة الاشتراكية لا يمكن أصلاً أن تستهدف أو تتميز بالتوسع الاستعمارى - وقد أنفقها الاتحاد بالفعل في البناء الداخلى وضد العدوان الخارجى كما حدث حوالى الحرب الثانية - ورغم أن هذه الملامح لا زالت أهم معالم العمل السوفيتى ، فإن الأرجح أن الاتحاد قد بلغ الآن مرحلة النضج .

ولعل ما أعلنه في الستينات بمناسبة مرور نصف قرن على الثورة من أنه الآن بدأت مرحلة الانتقال من الدولة الاشتراكية إلى الدولة الشيوعية بالمعنى الدقيق ، أن يشير إلى مرحلة النضج هذه ، وهى المرحلة التى يحرص صاحبها - رأسمالى أو غير ذلك لا يهم - على المحافظة على مكاسبه وإنجازاته ، ولذا يحرص على السلام بنفس الدرجة . بل لعل موقف الاتحاد من الصلح الذى وقع في الكتلة الشيوعية بينه وبين الصين الشعبية ، والذى يتسم بالحرص على عدم توسيعه مها كانت الاستفزازات ، أن يؤكد هذا التشخيص التطورى . وعلى أية حال ، فإن دولة الاتحاد السوفيتى أسبق وأقرب بالتأكيد من دولة الولايات المتحدة إلى مرحلة النضج ، سواء ذلك باعتبار تاريخه منذ الثورة أو قبلها .

وهنا يبدو على الفور فارق آخر ، فارق مرحلى يضاف إلى الفارق الأسى ، بين موقف الاتحاد والولايات من التعايش السلمى . ففضلاً عن طبيعة النزعة المسلحة والإمبريالية الكامنة في النظام الرأسمالى ، فإن الولايات المتحدة حتى وقت قريب جدا كانت دولة في مرحلة الشباب بكل ما يعنى هذا من غرائز توسعية ونوازع عدوانية .. الخ . ومن الواضح من كل ما تفعله وتقول (وما لا تقوله) الولايات ، أنها تنظر إلى التعايش السلمى كهتدنة مسلحة مؤقتة تكسب بها وقتاً أولاً وأرضاً ثانياً ، دون أن تتخلى عن خططها العليا للسيطرة والسيادة الكوكبية ، بما في ذلك أساساً وأخيراً السيطرة على الكتلة الاشتراكية المضادة .

أخطار المرحلة

ومن الصعب عند هذا الحد ألا تقفز إلى المقارنة صراعات وتوازنات ما قبل الحرب الثانية . فما يفرض نفسه على الباحث الجيوبولتيكى ، ذلك التشابه الكبير بين مواجهات ١٩٣٩ ومواجهات يومنا هذا ، رغم عناصر الاختلاف التي لاشبهة فيها كذلك . فواجهة الحرب الثانية بدأت بصدام دولة في مرحلة الشباب ، متحرشة مستفزة تريد التوسع وتمجد القوة (ألمانيا) ، ودولة في مرحلة النضج حريصة أشد الحرص على مزاياها المكتسبة ولم تدخل الحرب إلا مترددة مرغمة في النهاية وبعد وصمة استسلام ميونيخ الشهيرة (بريطانيا) .

فبغض النظر عن الفروق الجدرية في النظم الاجتماعية ما بين فاشية ألمانيا ورأسمالية بريطانيا ، وكل استعمار ، وما بين رأسمالية الولايات المتحدة الإمبريالية واشتراكية الاتحاد السوفيتي ضد الاستعمارية ، فان تحرش الولايات واستفزازها وعدواتيتها المسلحة أحيانا من ناحية ، وحرص الاتحاد بأقصى درجات ضبط النفس على عدم التورط في الصدام من ناحية أخرى ، يكرر أساسيات الموقف القديم . ومن أبرز استفزازات الولايات في صميم المعسكر الشرقي حرب فيتنام ، وحلم الحرب الخاطفة - على نحو ما فعلت إسرائيل في الشرق الأوسط - على ألمانيا الشرقية كجزء من حلم « تحرير ما وراء الستار الحديدي » .

أبعد من هذا ، فإن محاولة ألمانيا النازية المساومة مع بريطانيا (أو العكس ربما) على حساب الاتحاد السوفيتي بمشروع هتلر بالانقضاض على الشيوعية ، هذه المحاولة تكرر في معنى ما محاولة الولايات المتحدة في أكثر من مناسبة في الستينات الأخيرة التلويح للاتحاد السوفيتي بالمساومة على اقتسام العالم وتفادى الصدام بين العملاقين ، وذلك على حساب العالم الثالث ، كبش الغداء الأساسي في حالة مثل هذه الصفقة . وسواء عد الوفاق فيما بعد أو لم يعد تحقيقا لمثل هذه الصفقة الاستعمارية المشبوهة ، فإن هذا لا يغير من عناصر المقارنة ، كما أن فشل العرض النازي لم يمنع من وقوع الصدام .

وإذا كانت النازية بعد ذلك قد عادت فعقدت ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفيتي ، فلم يكن هذا إلا مناورة لكسب الوقت ريثما تنتهي من بريطانيا ، وبذا تتغذى ببريطانيا وبعدها تتعشى بالاتحاد . وهذا أو شيء من هذا يكاد على الأرجح أن يكون خط الولايات المتحدة في وقت ما . فع استحال الصدام مع الاتحاد بكل ما

يحمل من أخطار نووية ، ومع استحالة التواطؤ معه على مصير العالم واقتسامه مناطق نفوذ ، تجمدت المواجهة بينهما في إطار تكتيكي مؤقت ، وانعطفت هي لتتغدى أولا بالعالم الثالث ، وبعده يمكن للتوازن العالمي الكتلي أن يتقلب تمهيدا للعشاء الأخير والأكبر .

التحدى الصينى

ثمة تصور آخر مختلف فى الأسلوب وإن اشترك فى الهدف . فنذ بدأ التفكك ثم التصدع بين العملاقين الشيوعيين فى الستينات ، والمعسكر الغربى وعلى رأسه الولايات يحاول بحذق لكن بحذر أن يعمق الهوة بين الحجرين ويجذب إليه الحجر الأكبر بالتدريج ، مستغلا فى ذلك الانتخاب الجنسى المعين للحرب النووية والذى يربط بينهما نهائيا فى المصير الذرى . وهم فى هذا يشيرون إلى أن مركز العداة والصراع السياسى فى أوربا تحرك دائما نحو الشرق تاركا عدو الأمس حليف اليوم : ففرنسا كانت عدوة بريطانيا ثم أصبحت حليفها ، ثم صارت ألمانيا عدوة الاثنتين فأضحت حليفتهما ، وقد أصبح الاتحاد السوفيتى عدو الجميع اليوم ، فما الذى يمنع بهذا المنطق - هكذا يتساءلون - من أن يتحول إلى حليفهم ؟ وبهذا تعود نظرية المحور الشمالى الأبيض ضد المحور الجنوبى الملون فتطفو على السطح فى نهاية المطاف . وبهذا أيضا يتحول الصراع المذهبى بين الكتل البيضاء إلى نوع من الصراع العنصرى بين الأجناس البيضاء وغير البيضاء ، أى يحل صراع أصدقاء جديد محل القديم .

أيا كان الأمر ، فإن الغريب مع ذلك أن الولايات المتحدة رفضت ، كما جاء على لسان كيسنجر فى مذكراته مؤخرا ، اقتراحا قال إن الاتحاد السوفيتى عرضه عليها يقضى بأن يقوم بضرية إجهاض نووية للصين قبل أن تستكمل تطوير برنامجها ويستفحل خطرها النووى بحيث يهدد كلا منه ومن الولايات على حد سواء . وسواء صحت هذه الراوية أم لم تصح ، فإن المغزى هو بلا شك خطورة وفداحة اللعبة برمتها أصلا . على أن هذا لم يمنعها من الاستمرار فى التصعيد بلا وجل أو كلل .

فنذ وصل الانشقاق الشيوعى إلى نقطة اللاعودة وأصبح العداة الصينى - السوفيتى أكبر من العداة الصينى - الأمريكى فى تقدير الكثيرين وفى تحديد الصينيين أنفسهم ، تسللت الولايات من ثغرة أو كوة الوفاق لتعميق الأخطار وتحويل التناقض إلى مجابهة نهائية ، وذلك عن طريق التقارب مع الصين بحيث تصبح مسافة الخلف بين الصين

والاتحاد السوفيتي أكبر من مسافة البعد بين الصين والولايات المتحدة . ورغم أن من المستبعد تماما أن تتحول العلاقة بين الأخيرتين إلى محور كمحور اليابان - الولايات المتحدة أو إلى امتداد له ، فإن هذا التقارب خطر حقيقي على الاتحاد السوفيتي ويمكن أن يفجر الموقف برمته في النهاية .

ذلك أن أى تقارب أو تحالف بين أى قوتين في الشرق والغرب من بين الأقطاب الكبار يضع الاتحاد السوفيتي فورا في حصار برى كامل أو بحرى شبه كامل . وأى حصار للاتحاد يعده أكبر تهديد وتحد له ، لأنه يفرض عليه أن يحارب في جبهتين في وقت واحد . وقد كانت الاستراتيجية التاريخية للاتحاد السوفيتي (وللقيصرية من قبل) هي أن يتحاشى بكل وسيلة أن تفرض عليه الحرب في أوروبا وآسيا في وقت واحد^(١) .

على أن مثل هذه اللعبة الأمريكية تكتنفها العقبات بقدر ما تحف بها الأخطار . ولعل هذا أن يفسر الجدر الشديد من جانب الولايات في ممارستها ، فضلا عن التناقضات الصارخة في أصولها وقواعدها . فالولايات من ناحية قطعت شوطا بعيدا ، وإن في حدود الأمن الاستراتيجي الغربي العام بالطبع ، في تسليح الصين بالأسلحة الحديثة المتطورة . ولكنها من الناحية الأخرى تخشى أيضا صعود القوة الصينية الماردة و « الخطر الأصفر - الأحمر » الخيف على المدى البعيد ، بحيث قد تنقلب اللعبة عليها في النهاية ويرتد السهم إلى صدرها هي . لمشكلة الولايات وحيرة الغرب هي ، كما وضعها البعض ، أن عليهم أن يختاروا بين « النار أو الجحيم » ، بين « الخطر الأحمر - الأبيض » و « الخطر الأحمر - الأصفر » . وصميم المشكلة هو أى الشرين أهون .

فلئن كانت أمريكا ، فرضا أو جدلا ، تستدرج الصين إلى معسكرها أو صفها ضد السوفيت حتى تتحالف معها في حرب ماحقة لهم ، مثلما استدرجت أوروبا فيما مضى أمريكا والروسيا إلى حرب ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية ، فإذا بعد ؟ لن انتصر الحلفاء على الروس ، فستكون الحرب العالمية الرابعة مع الصين على الأرجح - أليس كذلك ؟ مسألة وقت فقط ، وعدو أمس صديق اليوم - والعكس بالعكس ، ومركز العداة كان يتنقل باستمرار نحو الشرق - أليس صحيحا ؟

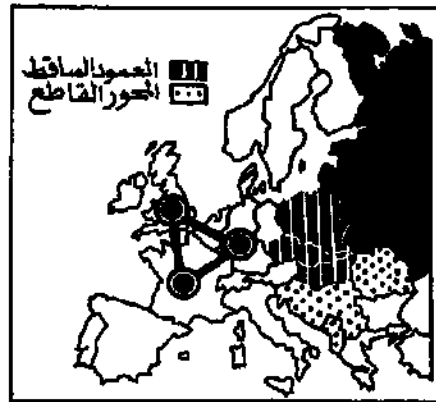
Fitzgerald, The new Europe, p. 195; Cressey, Asia's lands & people, p. 245.

(١)

الخطر الداخلي

حسنا إذن ، هل يمكن - كبديل - أن يتحلل الاتحاد السوفيتي أو يتآكل وينهار من الداخل فرضا أو جدلا ؟ تصور آخر وأخير ، إن استعبده الكثيرون في الغرب فإنه مع ذلك يخامر عقول البعض في الأعماق أو في الوعي الباطن أو على الأقل من قبيل أحلام اليقظة . فالكتلة الشرقية - يشير أصحاب هذا الرأي - موحدة فقط بالقوة والقهر وحدهما ، وهي تطفح بالتذمر والغليان والرفض المكبوت ، والانتفاضات أو الانتفاضات على « أخوة » المعسكر تنقط مسيرته منذ بدايته ، بل وتكاد ترسم سلسلة متصلة الحلقات تقريبا على أقصى تخومه الغربية بالذات ، أي في أبعد مدى عن قبضة الاتحاد السوفيتي ، ابتداء من يوجوسلافيا الأربعينات وألبانيا في الظل خلفها إلى مجر الستينات وتشيكوسلوفاكيا السبعينات ثم أخيرا بولندا الألمانية ، دون أن نذكر نزعة رومانيا الاستقلالية الراضية على أجناب الاتحاد نفسه مباشرة... الخ .

والواقع أن هذه المجموعة تقع جيوبوليتيكيا في نطاقين شبه متعامدين واحد رأسي وآخر قاطع ، وكل منهما يضم ثلاث دول متصلة الحدود . فالأول يشمل المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، وفيه قامت الثورة على المعسكر ولكنها سحقت حتى سقطت ، فهذا هو « العمود الساقط » كما قد نسميه . أما الثاني فيشمل ألبانيا ويوجوسلافيا ورومانيا ، وفيه المنشقون أو المرتدون أو الخوارج الذين أفلتوا من العقاب ولكن ظلوا « كقاطع الطريق » داخل المعسكر .



شكل (٣٤) خطوط الانتفاض أو الانتفاض في أوروبا الشرقية ، ومثلت القوة في أوروبا الغربية .

وعلى الجملة ، فإذا كان معظم هذه التقلصات والتشنجات قد سحقت أو أحبطت من الخارج أو من الداخل ، فإن هذا لا يبنى خطورة مغزاها ، وسقوط حجر واحد منها جدير بأن يؤدي إلى تفكك الجدار كله وانفراط العقد جميعا - « نظرية الدومينو » . ولعل هذا هو أساس محاولات الغرب الدائمة والدائبة ، سرا وعلانية ، لا اختراق الكتلة بالدعاية الأيديولوجية والنموذج الغربي والعمل التحتي ... الخ . غير أن الاتحاد السوفيتي ، على الجانب الآخر ، لم يدع مجالاً للشك في أن اختراق أو سقوط إمبراطوريته الرفاقية شرق أوروبا إنما يعنى الحرب بل ويعد بمثابة إعلان للحرب النووية .

على أن الاتحاد نفسه - يمضي مع ذلك أصحاب الدعوة - ليس أكثر من شرق أوروبا نجاسا أو تماسكا أو تمسكا بنظامه القهري المفروض . فحتى بغض النظر عن الجدل الأيديولوجي ومبدأ الشيوعية والطبقة والبروليتارية ... الخ ، أى النظام نفسه كنظام ، فما الاتحاد في رأيهم إلا عصبه أم خلاسية متنافرة لا رابط بينها من جنس أو قومية أو لغة أو دين أو تاريخ مشترك : إنه متحف سياسي هائل ، مجمع موحد وقائم فقط بالضم والغزو وبقوة القهر والجيش الأحمر ... الخ . إنه بسهولة تامة « إمبراطورية النمسا - المجر » الجديدة في القرن العشرين ، فقط إلى الشرق أكثر وعلى نطاق هائل أكبر وأكبر ، ولكن مصيره في النهاية مصيرها . فمثل هذا الهيكل المختلط المخلوط لا يبقى سياسيا إلا ما بقي قادرا على البقاء بالقوة فقط ، ولكنه ينهار حالما يفقدها .

وأيا كان الأمر والرأي ، فالذى لا شك فيه موضوعيا أن كثيرا من أقليات الاتحاد وأقاليته على استعداد تام ، إن لم نقل تواقفة ، لأن تغادره فورا وتخرج من الاتحاد إذا ما سمح لها بذلك ، كما ينص دستوره على هذا الحق نظريا وإن جبه تماما من الناحية العملية . يصدق هذا يقينا على دويلات البلطيق السابقة في الغرب ، ولكن أكثر منها على الدويلات والخانات الإسلامية القديمة في آسيا الوسطى ، حيث يخشى الاتحاد بالذات من تأثير الدعوات والحركات أو الثورات الإسلامية على التخوم المباشرة ، كالثورة الإيرانية الإسلامية خاصة في الفترة الأخيرة ، وحيث يجاهد الغرب بكل قواه الدعائية لحشد وتجنيد العالم الإسلامي كما رأينا في حرب « صليبية إسلامية » ضد الشيوعية والاتحاد وتمهيدا للانفصال عن الاتحاد أو الوقوف ضده ... الخ .

ماذا بعد الاتحاد

شيء واحد ، على أية حال ، مؤكد أو يكاد . لو هزم الاتحاد السوفيتي - فرضا - في

حرب عالمية تقليدية أو نووية دون أن يدمر من الوجود ، فأغلب الظن أنه سيفقد بعدها كيانه الإمبراطوري وإمبراطوريته الراهنة . فإن لم يمزق تمزيقا مثل إمبراطورية النمسا - المجر أو الإمبراطورية العثمانية في السابق ، فإنه على الأقل سيقسم كألمانيا حاليا . فإن كانت الأولى - فدونك لاشك عدة دول مستقلة على البلطيق وربما في أوكرانيا ، فضلا عن دولة إسلامية أو أكثر في آسيا الوسطى والتركستان ، هذا عدا تنصيب سيبيريا إلى دولتين أو أكثر ربما ، إن لم يكن سلخها منه كلية أو اقتطاع شرائح ضخمة منها للصين وربما اليابان ، بحيث لا يتبقى من الاتحاد سوى نواته النووية الروسية الأوربية الأم .

المهم والمؤكد أن المنتصر لن يسمح له غالبا بأن يعود كما كان بكيانه العملاق الحالي . وليس هذا على هوله وخرافته بالشىء المستبعد تماما في عالم السياسة والقوة . فهو احتمال وارد وإن بدرجة أقل كما رأينا على الولايات المتحدة نفسها إن هي هزمت الهزيمة الكاملة . وفي كلتا الحالتين ، فيبدو أن عصر زوال الإمبراطوريات غير الاستعمارية أو شبه الاستعمارية أو الكتلية المندمجة (الاتحاد والولايات) يتواكب ويتناسب مع أبعاد العصر النووى ، مثلما تواكب وتناسب زوال الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة (بريطانيا وفرنسا) مع أبعاد العصر الصناعى .

خطورة مثل هذا التطور أو التصور ، مع ذلك ، أنه يترك الدول الوطنية الماثمة بطبيعتها ، أى غير الإمبراطورية ، كالمند ولكن الصين خاصة ، يتركها فادحة الحجم شائعة وحدها على خريطة العالم السياسية مما يدخل عنصر اختلال جسيم وخطر على التوازن العالمى والدولى بأسره ، فضلا عن أنه يقحم على الصورة عنصرا جديدا تماما ليس كميا فحسب ولكن كينى أو نوعى أيضا ، بل ربما أخطر وأدهى ، وهو عنصر العنصرية . فهذه العالقة المتبقية والوارثة فرضا هي ، كما يتفق ، أسوية من العناصر « الصفراء والملونة » بالتصانيف الأوربية السائدة تقليديا ، فضلا عن أنها مهد للتخلف ووعاء للفقر... الخ .

فإن حدث هذا (جدلا ، نكرر) لكان معناه انتقال السيادة العالمية يوما ما من أوروبا (أو امتدادها أمريكا) إلى آسيا ، عودة - يعنى - إلى نمط العصور القديمة الغابرة... الخ . غير أن مثل هذه النتيجة بحد ذاتها جديرة بأن تكون داعيا لدى المنتصرين في حرب العملاقين التى افترضناها نظريا إلى إعادة النظر في مبدأ تحطيم أو تمزيق أو تصفية الدول شبه الإمبراطورية شبه الاستعمارية السابقة ، والاكتفاء بتقليمها تقليا مؤثرا فعالا .

على أن كل هذه النبوءات المستقبلية المتطوِّحة جدا وتلك النبوءات المضادة وغيرها ، دعنا لا ننس في النهاية ، إنما هي فروض أكاديمية شرطية صرف وشروطها فاسخة بالفرض ، ويبقى لذلك أن نتتظر لنرى حتى سنة ٢٠٠٠ أو ٢١٠٠ الخ... الخ . على أن الذى يمكن أن نجزم به على الفور هو أن مركز ثقل الصراع العالمى ، تمييزا له عن مركز ثقل السيادة العالمية ، بات ينتقل ويبدأ بل بجدة نحو الشرق إلى آسيا ، وهو ما ينقلنا بالفعل إلى موضوعنا التالى .

صراع القارات :

بين أوروبا وآسيا

ما زلنا نميل إلى أن نفكر فى آسيا ، كعالم بشرى وكمحيط سياسى ، فى صيغة متخلفة نوعا ، صيغة من بقايا الماضى الاستعمارى أو ما بعد الاستعمارى القريب . فصورة آسيا فى أذهاننا لا تخرج فى مجموعها عن أن تكون كبرى قارات العالم الثالث (مثلا هى كبرى قارات الدنيا ابتداء) ، فهى إذن قارة التخلف ، وسيادة الزراعة ، وضغوط السكان الساحقة ، ومستويات الدخل والمعيشة الحدية أو دون الحدية... الخ .

المتغيرات الجديدة

ولا شك أن هناك قدرا كبيرا من الصحة فى هذا التصور ، لكن الأصح منه أن آسيا تطفر اليوم بمعدلات فريدة ، اقتصاديا وصناعيا وتكنولوجيا وعسكريا . وإذا كانت قطاعات محدودة منها - كاليابان - هى وحدها التى تقارن بالعالم الغربى ، إن لم تفقه ، فإنها فى مجموعها تعد على أقل تقدير أكثر قارات العالم الثالث تطورا وتقدما ، كما لا شك فى أنها ثالث قارات العالم كله بعد أمريكا الشمالية وأوروبا من حيث الوزن والأهمية ومقاييس القدرة العصرية .

وتنعكس طفرة آسيا المادية والحضارية هذه فى المجالين السياسى والاستراتيجى بصورة درامية . فبند الحرب العالمية الثانية ، وآسيا طرف أساسى فى لعبة السياسة الدولية ، لا يمكن تجاهله ، ويشغل حيزا ضخما ومتزايدا من اهتمامات وهوم القوى العظمى . وعلى سبيل المثال ، فلقد كانت الولايات المتحدة منذ الحرب موزعة اهتماماتها ومصالحها بين أوروبا وآسيا وبين الأطلسى والهادى . وكثيرا ما كانت أوروبا الغربية تصاب بالقلق حين تستشعر أن حليفها الكبرى تمنح آسيا قدرا أكبر مما ينبغى من الاهتمام . بل

بدا في وقت ما - أيام تفاقم الموقف في فيتنام - أن مركز ثقل اهتمام الولايات المتحدة يكاد يتذبذب من أوروبا إلى آسيا . بل لقد وصل الأمر اليوم إلى حد أن كثافة وحجم ومعدلات التجارة الأمريكية عبر الهادى أصبحت تزيد على مثيلاتها عبر الأطلسى . مما يعكس مدى خطورة المصالح الأمريكية في آسيا .

وفي كل الأحوال فإن دول أوروبا الغربية لم ترض قط عن انغماس الولايات المتحدة وتورطها أكثر من اللازم في الحروب والصراعات والمشاكل الآسيوية ابتداء من الحرب الكورية حتى الفيتنامية ، ولا قبلت أبدا أن تبدد طاقتها وتنفق جهدها في آسيا . على الأقل حتى لا تترك الجبهة الأوربية الأساسية مكشوفة مفتوحة أمام الخطر السوفيتى . والواقع ، تماما كما كان الروس والسوفيت يجدون دائما تعارضا كامنا بين اهتماماتهم الأوربية والآسيوية المترامية الأنحاء ، وجدت الولايات منذ خروجها إلى قيادة العالم وربما قبله شيئا من التعارض بين اهتماماتها الأوربية والآسيوية وبين الأطلسى والهادى .

غير أن الأمريكى العادى ، الذى لا تزال تؤرق مخيلته أشباح دعايات الماضى عن «الخطر الأصفر» الزاحف ، أصبح الآن يهتم بأحداث آسيا ربما أكثر منه بأخبار القارة الأم أوروبا . ويكفى أن نرى رئيس الولايات المتحدة «يبحج» بالأمس القريب ساعيا إلى آسيا وقلبا الصين بطرق باجها ويعترف بها بعد تجاهل وإنكار واستنكار واستنفار طويل مرير . وليس معنى هذا كله أن أهمية أوروبا أو أخطارها ومشاكلها قد تضاءلت . ولكن إلى جانبها أضيفت أهمية وأخطار قارة طافرة هي آسيا .

عودة آسيا

والآن ، ومنذ انطلاقة اليابان الصناعية والاقتصادية العارمة « وقفزة الصين الكبرى إلى الأمام » ثم صراعات القوة المتعددة الأطراف داخل القارة وآخرها مجابهة الهند - الباكستان ثم العراق - إيران ، فإن آسيا تلفت أنظار العالم بعنف ، ليس فقط إلى وجودها المؤثر وجرمها العظيم ولكن أيضا إلى دورها المستقبل ، لا كمجرد مجموعة قوى محلية أو اقليمية فعالة ، ولكن كقوى دولية عظمى دخلت بالفعل دائرة القوة العالمية التى كانت حكرا على أوروبا وأمريكا ، تسهم بحق في تشكيل مصير العالم ، وتعد طرفا موجبا في معادلة القوة . وسواء عد القرن الحادى والعشرون قرن آسيا أو عدت آسيا قارة القرن الحادى والعشرين كما يتنبأ البعض ، فإنها من قبل تمثل ركنا جوهريا من أركانه ومركزا من مراكز الثقل الجيوبوليتيكي فيه .

والواقع أن آسيا - نصف البشرية تقليديا - مركز طبيعي من مراكز القوة العالمية (بلغ عدد سكان آسيا سنة ١٩٨٠ نحو ٢٦٠٥ ملايين من مجموع سكان العالم البالغ ٤٤٧١ مليونا ، أى بنسبة ٥٨,٣٪) . فعدا الكثافة السكانية الثرى ، هناك الوراة الحضارى العريق والتاريخ الطويل المفعم . ولنذكر أنه لفترة طويلة جدا فى العصور القديمة والوسطى ، كانت آسيا مركز القوة الأعظم فى الدنيا ، تسيطر على العالم القديم تقريبا ، وتتحكم بموجات رعاتها الكاسحة فى مصير أوروبا وتكاد تتفوق عليها دائما . ويكفى أن ماكيندر أخضع كل تاريخ أوروبا السياسى وغير السياسى ، القديم والوسيط ، لتاريخ آسيا ، وليس العكس^(١) . ثم لا ننسى بعد ذلك دور اليابان الحديثة فى القرن العشرين وأثناء الحرب العالمية الثانية كقوة عظمى بكل المقاييس . وعلى هذا فإن « ظهور » آسيا البارز اليوم إنما هو عود على بدء فى الحقيقة ، والأحرى أن نقول « عودة » آسيا . ولكل هذا المغزى فإن آسيا المستقبل تستحق نظرة جادة وجديدة .

آسيا الجديدة :

أوروبا القرن الجديد ؟

التناظر الجيوبوليتيكي

ومها حاولنا ، فلن نستطيع للبالغة فى تقدير مغزى بروز آسيا على مسرح القوة العالمية . وفى هذا الصدد يكفى أن نسجل الحقائق الآتية . أولا ، آسيا هى التى افتتحت ثورة التحرير وتصفية الاستعمار وتبلور القوميات الناهضة فى العالم الثالث الذى أعطته بذلك المثل والدفعة .

ثانيا ، فجرت أعظم الثورات الشعبية الأيديولوجية (الصين) ، والتطورات السياسية والاقتصادية (الهند) منذ الحرب العالمية الثانية ، ثم أخيرا أخطر الثورات الإسلامية الحديثة رغم كل شىء (إيران) .

ثالثا ، شهدت أهم خطط التنمية والتطور الحضارى والأخذ المتصاعد بالتكنولوجيا العصرية بين الدول النامية ، ودعك من اليابان التى تنافس على صدارة العالم صناعيا واقتصاديا .

On the scope & methods etc., p. 2,22.

(١)

رابعا ، كانت مسرح أكبر عدد من الحروب منذ الحرب العالمية الثانية ، سواء من حروب التحرير الوطنية ضد الغزو الإمبريالي أو صراعات القوميات الآسيوية محليا (الحرب الكورية ، حرب فيتنام والهند الصينية ولاوس وكمبوتشيا ، حرب الحدود بين الصين والهند ثم بين الصين والاتحاد السوفيتي ، حروب الهند - باكستان الثلاثة ، ثم أخيرا حرب العراق - إيران) .

والمواقع أن هذه النقطة الأخيرة نقلنا إلى ملاحظة بالغة الأهمية . فنذ انتهت الحرب العالمية الثانية لم تكف آسيا عن القتال وكانت دائما في حرب مستمرة هنا أو هناك ، وذلك في الوقت الذي وضعت أوروبا السلاح رغم كل توترات الحرب الباردة وسباق التسليح وأخطار الصدام ومحاذيره . هذا فضلا عن الثورات الشعبية والانقلابات العسكرية التي تمور بها آسيا وتفور ، دون أوروبا بالطبع . شديدة الاستقرار بالغة النضج والهدوء . لقد أصبحت آسيا ، وليس أوروبا . هي مسرح الحرب الجديد وأرض المعركة وحلبة الصراع في العالم . إنها بكل وضوح ترث دور أوروبا التقليدي في هذا المجال ، رغم الفارق الأساسي أو النسبي بين عدوانية حروب أوروبا القديمة غالبا وتحريرية حروب آسيا المعاصرة عادة .

والملاحظ بالفعل أن أوروبا ، بعد أن فقدت إمبراطوريتها الاستعمارية وراء البحار ، وبعد عودتها إلى القارة الأم ، تدخل الآن مرحلة من الاستقرار السياسي النادر ، وتتجه تحت ضغوط العالم المتغير وحماية للنفس إلى تصفية إرث الماضي ونتائج الحرب العالمية الثانية ثم إلى التكامل والوحدة الأوروبية ، أي إلى مرحلة ما بعد القومية أو ما فوق القومية supra-national (الفوقية كما صك البعض)^(١) .

أما آسيا فتدخل الآن بعد يقظتها مرحلة الكيانات القومية الجديدة ، وتحتاجها كل آلام النمو والثورات والانقلابات الداخلية وتقلصات الصراعات الوطنية والضغوط الخارجية التي عرفتها أوروبا خلال القرن التاسع عشر وما حوالية . وهنا أيضا تتكرر الدورة بدرجة أو بأخرى ، وتبدو آسيا وكأنها أوروبا القرن الجديد ، وذلك بالطبع فيما عدا فارق العصر وعنصر النسبية وإيقاع الأوضاع العالمية .

أكثر من هذا ، يرى بعض المراقبين أن مركز ثقل الصراع العالمي يتحول بالتدريج إلى

(١) نور الدين حاطوم ، تاريخ عصرنا ، ١٩٧١ ، ص ٥ .

آسيا . والعلامات والمؤشرات كثيرة في هذا الاتجاه فعلاً . فالمحيط الأطلسي ، كبحيرة حلف الاطلنطي الخاصة ، قد أصبح نسيباً « بحر السكون » ، بينما انتقل الخطر إلى المحيط الهادى ، « بحر العواصف » منذ الحروب الأمريكية العديدة في الشرق الأقصى . ولعل من المنطقى بعد هذا ، وقد عد البعض آسيا قارة القرن الحادى والعشرين ، أن يعدوا المحيط الهادى ، محيط آسيا أساساً ، محيط القرن الحادى والعشرين .

والبحر الأبيض المتوسط ، الذى كان خندقاً عسكرياً لأوروبا ، فقد هو الآخر بعضاً من أهميته الاستراتيجية القديمة ، وكثيراً من صراعاته البحرية التقليدية ، ولو أن المواجهة بين الأسطولين الأمريكى والسوفيتى أعادت إليه مؤخراً الكثير من خطورته . وبالمقابل ، فلقد بدأ المحيط الهندى يكتسب أهمية استراتيجية متزايدة ، وبدأت القوى البحرية العظمى عملية من « التكالب » على القواعد العسكرية فيه ، بينما أخذت دول جنوب آسيا حوله تشعر بخطورته تحولاً إلى بحيرة صراع عالمى وتدعو إلى تحييده . وتكاد الهند بالذات تشعر أنها حبيسة الهندى ، مثلما كانت إيطاليا تشكو من أنها حبيسة البحر المتوسط .

التناظر الجيوسراتيجى

إلى هذا المدى إذن يذهب التناظر التاريخى بين آسيا وأوروبا . غير أن هذا بدوره يؤدي بنا إلى قدر مماثل على الأقل من التناظر الجغرافى العريض بين القارتين . والحقيقة أن التناظر الأول إنما هو انعكاس للثانى إلى حد بعيد ، لأن الواقع أن القارتين أشباه نظائر جغرافية فريدة geographical parallels ، إذ تكاد الواحدة تكون صورة مرآوية مقلوبة أو معكوسة ولكنها مصغرة أو مكبرة من الأخرى enantiomorph ، mirror-image .

فن الواضح مثلاً أن القارتين تنهيان في الجنوب كل بثلاثة أشباه جزر جبلية متقابلة ، بينما يتناظر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى في الشكل العام والهيئة الطبيعية إلى حد بعيد . وعلى الجانبين تأتى اليابان وهى بحق « بريطانيا الشرق الأقصى » في أكثر من معنى ، في حين تتناظر الصين وفرنسا بسهولة . وفى الوسط على جبهة الالتحام بين القارتين تتناظر هضبتا إيران والأناضول المتقابلتان إلى مدى بعيد للغاية ، مثلاً يفعل حوض سهول طوران أو التركستان في آسيا الوسطى مع حوض سهل البحر في وسط أوروبا . ومن الممكن للباحث أن يمضى هكذا بعيداً في استقصاء أوجه التناظر

والتشابه بين وحدات القارتين في جغرافيتهما الطبيعية والبشرية ، ولكن حسبنا هنا بالطبع الجانب السياسى وحده (١) .

وها هنا تبدو لنا شبه جزيرة الهند الصينية في أقصى جنوب شرق آسيا كالنظير المباشر لشبه جزيرة البلقان في جنوب شرق أوروبا ، بل إنها لتسمى أحيانا « بلقان الشرق الأقصى » . فهنا وهناك بيئة جبلية غابية وعرة ، تحتطها الأنهار محتوية أحواضا وأودية متقطعة تتعدد فيها الأقليات والجيوب والأسافين الجنسية والقومية والدينية ، وتتعد الحدود السياسية ، وبالتالي تثار مشكلات الأقليات والحدود المزممة ، فتتفاقم الحروب وتتعاقب بلا حصر. وكما كانت البلقان « برميل ديناميت أوروبا » barrel of dynamite of Europe في الحرب العالمية الأولى ، كانت الهند الصينية بؤرة الحرب في آسيا منذ الحرب الثانية بلا انقطاع (٢) .

أما شبه جزيرة الهند فتناظر تواسه الجزيرة الإيطالية في الموقع والشكل ، ولكل منها كدول وزنه وحجمه الكبير ودوره التاريخى العريق في قارته ، كما أن له مشاكله السياسية الحادة كحبيس بحره أو محيطه كما أشرنا منذ قليل . وعلى الجملة ، فكما تعد إيطاليا بصفة تقليدية الدولة الرابعة الكبرى في أوروبا حاليا بعد بريطانيا وفرنسا وألمانيا . فإن الهند هى رابعة الدول الكبرى في آسيا بعد اليابان والصين والاتحاد السوفيتى . وهكذا وهكذا إلى آخره .

ولانتقل أوجه التناظر بين آسيا وأوروبا إذا نحن انتقلنا شمالا إلى مراكز القوة والثقل الحقيقية . فإذا كانت أقطاب القوة في غرب أوروبا تتركز كما رأينا في « مثلث القوة » الشهير بريطانيا - فرنسا - ألمانيا ، فإنها في شرق آسيا تتركز في مثلث اليابان - الصين - الاتحاد السوفيتى (القطاع الآسيوى) . بل وكما كانت هولندا وبلجيكا داخل المثلث الأول تمثل أرض المعركة بين رؤوسه أو منطقة الخمود والتحييد بين أضلاعه ، فكذلك كانت كوريا ومنشوريا حتى وقت قريب داخل المثلث الثانى . بل وكما سميت المنطقة الأولى « حلبة صراع أوروبا » ، سميت الثانية « مهد الصراع فى آسيا » .

كذلك فلو قدر لآسيا أو عليها أن تشهد صراعا على القوة فى المستقبل ، فلن يخرج هذا الصراع عن أطراف ذلك المثلث ، التى تدخل ثلاثتها بالفعل فى هيكل الاستقطاب

(١) جمال حمدان ، بين أوروبا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

(٢) C.A. Fisher, "South-east Asia: Balkans of the Orient?", Geography, 1964.

الخماسى الذى يتصوره البعض للنظام العالمى المستقبلى كما سنرى . والمهم هنا على أية حال أنه بينما بدأت أقطاب مثلث القوة الأوربى تتقارب وتتجه إلى الوحدة بعد صراعات دامية استمرت قرونا ، فإن أقطاب المثلث الآسيوى تتباعد كل يوم أيدىولوجيا وقوميا وتتجه على ما يبدو إلى صراع لاندرى طبيعته ولامداه بعد .

استراتيجية الصراع ومحاور الاستقطاب

ما ندرى ، على أية حال ، هو أن نمط الصراع الراهن يؤكد مرة أخرى أن آسيا المعاصرة هى إلى أبعد حد معقول أوربا القرن العشرين ، وأن آسيا النصف الثانى من القرن العشرين تكاد تكرر أو ترث دور أوربا ودورها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ليس ذلك فقط كأكبر مسرح للحروب المحلية والمحدودة فى العالم سواء أكانت حروبا وطنية أو معادية للإمبريالية ، ولكن أيضا كأكبر مجال للضغوط الخارجية ومواجهات القوى الأجنبية العظمى .

فمن الأولى ، تكاثرت محاور الاستقطاب والصراع الداخلى فى القارة حتى اكتسبت أنماطا محددة واضحة . وعن الثانية ، فكما تعرضت أوربا القارة فى القرن التاسع عشر لضغوط بريطانيا القوة العالمية السائدة ، فكذلك تتعرض آسيا اليوم لضغوط الولايات المتحدة القوة العالمية السائدة الجديدة . وبطبيعة الحال فلامفر من أن تتركز هذه المواجهة الرئيسية مع القوى الآسيوية الكبرى خاصة مثلث القوة التقليدى ، كما لا مفر كذلك من أن تتأثر الصراعات المحلية الداخلى وتشكل بهذه الضغوط الخارجية الغالبة حتى لتكاد أحيانا ألا تعدو امتدادا أو صدى لها إلى حد أو آخر .

استراتيجية الصراع

فإذا ما بدأنا بالضغوط والصراعات الكبرى ، فلعل اليابان هى أضعف رؤوس مثلث القوة الآسيوى حاليا ، وذلك باعتبارها قزما سياسيا وإن كانت عملاقا اقتصاديا . فهى بلا أنياب نووية حتى الآن ، تقع تحت المظلة النووية الأمريكية ، وتمثل عمليا قاعدة ارتكاز الولايات المتحدة على حافة القارة . والواقع أنها فى محور الاستقطاب الأمريكى - اليابانى تكاد الآن تكون مجرد رأس جسر لإسفين يمكن أن تدقه الولايات المتحدة بين ضلوع العالم الشيوعى . بل قد لا نبالغ إذا قلنا إن اليابان حاليا منطقة خمود أو شبه فراغ سياسى تملؤه أمريكا بين رؤوس مثلث القوة العالمى (الولايات - الاتحاد - الصين) أكثر منها رأسا من رؤوس مثلث القوة الآسيوى التقليدى (الاتحاد - الصين - اليابان) .

هكذا إذن يختزل صراع القوى العظمى الفعال على القارة إلى ثلاثية الولايات - الاتحاد - الصين . وبطبيعة الحال فلقد تعرضت استراتيجية هذا الصراع لانقلاب جذري كامل منذ الانشقاق السوفيتي - الصيني . فتغيرت المواقع وتبدلت الأدوار تماما بصورة درامية حقا . فابتداء ، بينما كانت أمريكا هي التي تحاول حصر الصين واحتواءها بحلف جنوب شرق آسيا (السيتو) ، أصبح الاتحاد بمشروع برجنيف للأمن الآسيوي هو الذي يحاول . وبعد أن كانت الولايات المتحدة هي العدو الأول للصين ، أصبح الاتحاد السوفيتي هو هذا العدو . ومن ثم فقبل الانشقاق كانت معادلة الصراع كالتالي : الاتحاد + الصين ضد أمريكا لإخراجها من القارة . أما بعد الانشقاق فقد أصبحت المعادلة كالتالي : أمريكا + الصين ضد الاتحاد لمنع توسعه في القارة . فن الحالة الأولى الحرب الكورية ثم حرب فيتنام ، ومن الحالة الثانية حرب كمبوتشيا ثم حرب أفغانستان .

وإذا كانت الاستراتيجية العظمى للولايات أصلا هي تطويق الاتحاد السوفيتي سواء في أوروبا أو آسيا ، فإنها قد خسرت باستمرار حروبها على اليابس الآسيوي حتى خرجت منه تقريبا واقتصر وجودها على هوامشه الجزرية أساسا كما في اليابان وتايوان والفلبين . ولم يكن مبدأ نيكسون من ترك آسيا للآسيويين سوى اعتراف بالقانون الاستراتيجي القديم عن عجز قوى البحر الخارجية عن تحقيق نصر عسكري أرضي أو الاحتفاظ بموطئ قدم على اليابس الآسيوي . وعلى العكس من هذا تقريبا ، تحقق للاتحاد السوفيتي توسع مطرد متصل على اليابس الآسيوي . ولم يكن هذا بدوره إلا مصداقا لنظرية ماكيندر عن خطر توسع المارتلاندا كقوة بر في آسيا أرضيا نحو الخارج والهوامش البحرية . لقد خرجت أمريكا تقريبا من يابس القارة ، وخرج الاتحاد تقريبا من الحصار القاري .

محاور الاستقطاب

تلك هي الخلفية العريضة للخريطة الاستراتيجية لصراع الكبار على المسرح الآسيوي . ولا يتبقى لنا الآن سوى أن « نركب » عليها محاور الصراع المحلي بين القوى الأصغر ، تلك التي ظهرت عليها بوادر وأعراض استقطاب محوري حاد وعنيف في أكثر من حالة . وهي كما يلاحظ محاور تتقاطع غالبا ، وتقطع القارة من أقصاها إلى أقصاها أحيانا ، ولكن من أطرافها الاتحاد والصين دائما .

ولاشك أن أبرز وأخطر هذه المحاور الثانوية محور الاتحاد - الهند ضد محور الصين -

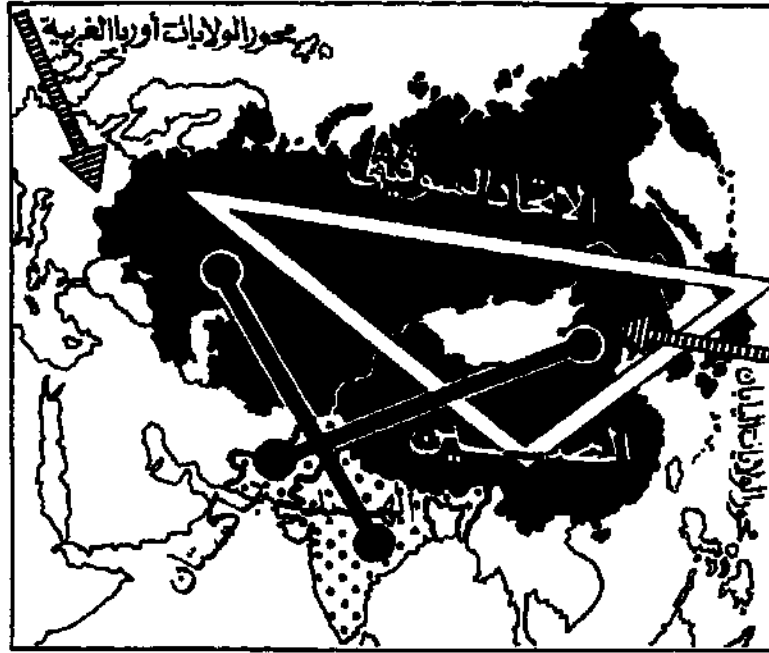
الباكستان . فلقد كشفت آخر حروب الهند - الباكستان في مطلع السبعينات ، وبصورة
درامية ناجزة ، عن انبثاق محورين متصارعين ، متقاطعين متعامدين كأنهما سيفان
مبارزان عبر القارة : محور عمودي قطباه الاتحاد في الشمال والهند في الجنوب ، ومحور
عرضي قطباه الصين في الشرق والباكستان في الغرب . وإذا كان هذا الاستقطاب
المحوري الخطير ، الذي يكاد يتعامد بدوره على كل منطلق الانتماءات والولاءات
الأيديولوجية ، قد ختم إلى حد بعيد على مصير الباكستان ، فقد حسم أكثر من جولة
فاصلة من الصراع بين العملاقين الاتحاد والولايات وكذلك بين الاتحاد والصين .

أخيرا كذلك فلقد كشفت حرب فيتنام بعد انتهائها عن محورين ثانويين متقاطعين برزا
نسبيا في السنوات الأخيرة : محور الاتحاد - فيتنام ضد محور الصين - كمبوتشيا ، حيث
شبه التدخل الفيتنامي في كمبوتشيا بتدخل هتلر في النمسا قبيل الحرب الثانية
(Anschluss) ⁽¹⁾ . وما زال الصراع سجالا حولها ، هذين المحورين ، على شكل حروب
أهلية ومحلية محدودة ولكنها ممطوطة ومرهقة .

الطريف ، أخيرا ، أن هذه الصراعات والمجاور المحلية الثانوية لها أثرها الذي
ينعكس على أطراف الصراعات الكبرى في القارة ، خاصة الولايات المتحدة . فعظم
حلفاء الولايات اليوم في آسيا ابتداء من جنوب كوريا إلى جنوب شرق آسيا يرون أن
الولايات قد مالت إلى الصين أكثر مما ينبغي وضد الاتحاد السوفيتي أكثر مما ينبغي ، وهم
لذلك يطالبونها بقدر من الانضباط والتوازن بين القطبين الآسيويين الشيوعيين خشية على
أنفسهم من استفزاز أخطار أي منها . فشلا تريد دول جنوب شرق آسيا خروج فيتنام من
كمبوتشيا ، ولكنها لا تريد أن يصل عداء الولايات لفيتنام إلى حد إرغامها على الاعتماد
الكامل والارتباط المطلق بالاتحاد السوفيتي . وهذا بقدر ما يعبر عن تعقيد اللعبة ، يعبر
عن مشكلة الولايات المتحدة في دقة وصعوبة تحقيق التوازن بين الأعداء من ناحية ومع
الأصدقاء من الناحية الأخرى ، وذلك مع الحلفاء الآسيويين هنا كما هي الحال مع
الحلفاء الأوروبيين في غرب أوروبا .

"East-West Struggle", Economist, loc. cit., p. 43.

(1)



شكل (٣٥) صراع القوى ومحاور الاستقطاب في آسيا .

أنماط الصراعات الاقليمية المتغيرة

نستطيع الآن أن ننظر إلى التطورات أو الانقلابات التي طرأت على مواقع وأدوار القوى واستراتيجيات الصراع العالمي نظرة شاملة تنسج في رقعة واحدة خيوط الجغرافيا والتاريخ بالسياسة والاستراتيجية ، وذلك أيضا داخل الاطار الاقليمي والعالمي في آن واحد . والواقع أن مثل هذه النظرة يمكن أن تطرح نظرية جديدة كلية شاملة تقدم مفتاحا عاما للماضي والحاضر والمستقبل وتسمح بأن « نركب » فيها كل الأحداث الجارية والتطورات السارية ابتداء من الثوابت والمتغيرات الكبرى إلى أصغر التفاصيل والجزئيات الدقيقة (١) .

ذبذبات مركز الثقل

وابتداء ، وكما أتبع لنا أن نرى مرارا ، فلقد كانت هناك دائما ذبذبات تاريخية

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج٢ ، ص ٨١١ - ٨٢٠ .

ملحوظة في مركز ثقل السيادة العالمية أو الصراع العالمي ، أحيانا من الشرق إلى الغرب وأحيانا أخرى من الغرب إلى الشرق ، إما على مقياس العالم القديم وحده أو بإضافة العالم الجديد إليه . وفي القديم ، في العصور القديمة وربما إلى العصور الوسطى ، كانت اليد العليا لآسيا على أوروبا (راجع أطروحة ماكيندر) .

لكن مركز الثقل انتقل بكامل وزنه إلى أوروبا في العصور الحديثة ، وفي داخلها تنقل كذلك بالتدرج من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ومن البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى . وفي قفزة كبرى في الاتجاه الأساسى نفسه تذبذب البندول ذبذبه الأخيرة من أوروبا إلى أمريكا الولايات المتحدة ، وربما معها وأخيرا أو مؤخرا من الأطلسى إلى الهادى بل وحتى المحيط القطبى الشمالى في عصرنا النووى في رأى البعض .

والمعنى الجغرافى - التاريخى واضح تماما : لقد انتقل مركز الثقل في القوة العالمية عبر التاريخ عموما من الشرق إلى الغرب باطراد وإصرار ، قل - مجرد المقابلة وسواء بالصدفة أو بالاتفاق - مع حركة الهجرات البشرية حول الأرض أو مع حركة الشمس الظاهرية أو عكس دوران الأرض حول نفسها !

الآن ، على هذه الفرشة القاعدية الأساسية ودانخل هذا الاطار المحكم الحاكم ، ولا نقول على عكسها وخارجه ، ظهر في الفترة الأخيرة اتجاه عكسى راجع وانقلبت ذبذبة البندول من الغرب إلى الشرق ، على الأقل في مركز ثقل الصراع العالمى تميزا له عن مركز ثقل القوة والسيادة العالمية نفسها . ولهذا يجوز أن نعد هذه الذبذبة ثانوية بالمقياس إلى الذبذبة الأولية المحورية ، لانتعاض معها بالضرورة وإن عدلتها بقدر ماكملتها . فن أوروبا والأطلسى انتقلت الصراعات العالمية والاقليمية المعاصرة إلى آسيا والهادى على الترتيب ، ومن المتوسط وقناة السويس انتقل الخطر والخطورة إلى الهندى والخليج العربى . ومع هذا الاتجاه الطارئ أو الراجع تغيرت أنماط الصراعات والاستراتيجيات الاقليمية والمحلية قليلا أو كثيرا .

نحو الغرب

تلك هى النظرة أو النظرية العامة وصورة الخريطة في خطوطها الرئيسية العريضة ، تتأكد معالمها وتبرز تضاريسها أكثر حين تزيدا تفصيلا وتحليلا . فإذا بدأنا من البداية ، فلقد كانت مصر والعراق كما نعلم مراكز القوة السياسية العالمية السائدة في العصور القديمة ، وبينها تذبذب مركز الثقل عدة مرات جيئة وذهابا . وفي العصور

الوسطى كان العراق العباسى هو بلا ريب مركز الثقل الأساسى نتيجة للتطورات الجديدة والعديدة المحلية والاقليمية والقارية . ولكن لم يلبث المركز بعد الطوفان المغولى أن انتقل من العراق إلى مصر بصفة حاسمة ونهائية .

غير أن كشف طريق الرأس لم يلبث بدوره أن نقل المركز من مصر إلى البرتغال ، وانتهى بذلك عصر البحر المتوسط وبدأ عصر المحيط الأطلسى ، حيث ظل المركز ينتقل على طول ساحل غرب أوروبا من الجنوب إلى الشمال متحركا على التعاقب من البرتغال إلى هولندا إلى فرنسا ثم أخيرا إلى بريطانيا حيث استقر بصفة نهائية طوال الفترة الحديثة . وسيلاحظ أن البندول طوال هذه المراحل المديدة كان يتذبذب بانتظام واستمرار من الشرق إلى الغرب .

ثم جاءت قناة السويس فى قمة المرحلة الأخيرة فأعادت الأهمية إلى البحر المتوسط ومصر وطريق السويس بصفة مؤكدة ، إلا أن المحيط الأطلسى ظل هو البحر المتوسط الجديد على المستوى العالمى كما ظل غرب أوروبا مركز ثقل القوة فى العالم بلا منازع . ولقد كان هذا أيضا هو عصر الاستعمار العالمى والإمبراطوريات العظمى بالضرورة والامتياز وعلى رأسها الإمبراطورية الفرنسية ولكن البريطانية أساسا . وكان محور القوة والسيطرة العالمية هو الأراضى الهامشية الغنية فى العالم القديم وخاصة القاطع التقليدى الكثيف غرب أوروبا - للمتوسط - الموسميات .

وقد وصل هذا النمط الاستراتيجى إلى أوجه فى القرن ١٩ وعلى يد بريطانيا - « عصر بريطانيا » . وكان عصر بريطانيا هذا كمركب سياسى - تكنولوجى وبصيغة اختزالية جدا هو عصر الفحم - السكة الحديدية - الباخرة - قناة السويس - مصر - الاستعمار القديم وصراع الإمبراطوريات . وفى هذا المركب أو النمط لم يكن الخليج العربى - شأنه فى ذلك شأن عدن وباب المندب - سوى نقطة مرحلة وموطئ قدم على طريق السويس الشريانى بخط حياة الإمبراطورية وعنق الهند ... الخ . ويمكن اعتبار فترة الحرب العالمية الثانية إلى منتصف القرن قمة هذا النمط الاستراتيجى التقليدى - ونهايته أيضا .

ذلك أن فى هذه الفترة نفسها بدأ يبرز نمط استراتيجى عكسى جديد يستند إلى مركب سياسى - تكنولوجى جديد أكثر تعقيدا من نظيره القديم ، وأخذ كلاهما يزيغ سابقه ويحل محله بالتدرج إلى حد أو آخر بل وأحيانا بصورة انقلابية فجائية وحادة .

فعلى جانب التكنولوجيا انتقل العالم بصورة حاسمة ونهائية من عصر الفحم إلى عصر البترول ، وبالتالي من السكة الحديدية والباخرة إلى السيارة والناقلات . وعلى الجانب السياسى انتقلت السيادة العالمية من بريطانيا جزيرة القارة إلى أمريكا القارة الجزيرة : لقد حل « عصر أمريكا » محل « عصر بريطانيا » . وقد اكتمل الانتقال بصورة مطلقة بعد ثورة التحرير الوطنية فى العالم الثالث وتصفية الإمبراطوريات ، وبذلك أيضا حل الاستعمار الجديد محل الاستعمار القديم . غير أن العصر النووى والاستقطاب الثنائى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لم يلبث أن بدأ ، فحل صراع الكتلتين محل صراع الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة .

وأثناء ذلك كله ، وقبل وبعد ذلك كله ، فلقد ظهر البترول فى الشرق الأوسط وبخاصة فى حوض الخليج العربى الذى سرعان ما أصبح المستودع الأول لمخزونه فى العالم . وبذلك أصبح الخليج على الفور أهم منطقة استراتيجية لأهم مادة استراتيجية فى العالم المعاصر ، وبالتالي محور وبؤرة كل السياسات والاستراتيجيات والصراعات العالمية للغرب والشرق جميعا بلا تحفظ ولا استثناء .

نحو الشرق

من هنا فبعد أن كانت المعادلة أو المتالية التكنولوجية - الاستراتيجية - الجيوبوليتيكية فى عصر بريطانيا هى الفحم - السكة الحديدية - الباخرة - قناة السويس - مصر - الاستعمار القديم وصراع الإمبراطوريات ، أصبحت تقرأ فى عصر أمريكا : البترول - السيارة - الناقلات - الخليج العربى - الاستعمار الجديد وصراع الكتلتين . لقد عاد البندول على عكس الماضى فتذبذب من الغرب إلى الشرق ، من قناة السويس إلى الخليج العربى . وهكذا بعد أن كان الخليج محطة على طريق السويس إلى الهند ، انزلقت ولا نقول انزوت القناة إلى ممر على طريق البترول إلى الخليج . لقد تبادلت السويس والخليج المواقع والأدوار والأهميات النسبية . وبعد أن كانت السويس كبيرة والخليج صغيرا من الوجهة الاستراتيجية ، انقلبت الموازين واحتلت خارج كل حدود ، سواء ذلك على النسبة أو الاطلاق ، فأصبح الخليج كبيرا جدا والسويس صغيرة نسبيا . وبهذا الشكل عاد من جديد نمط العصر العباسى فى العلاقة بين البرزخ والخليج ، حيث انتقل مركز الثقل الاستراتيجى فى العالم اليوم من القناة إلى الخليج ، وورث الخليج ومضيقه دور وموقع مصر وقناتها إلى حد بعيد جغرافيا واستراتيجيا .

لقد أفقد البترول مصر زعامتها الاستراتيجية في المنطقة كموقع كما كاد يفقد زعامتها السياسية بها كدولة بعض الشيء ، سلبها موقعها الجغرافي الجيوستراتيجي جزئيا بعد أن أوشك أن يهز أيضا موقعها القيادي الجيو بوليتيكي إلى حد أقل . بل إنه لا انفصال بين اهتزاز هاتين الزعامتين وهاتين القيادتين ، ولا بينهما جميعا وبين البترول رأسا ومباشرة . انقلاب جغرافي تاريخي ، سياسي اقتصادي ، واستراتيجي و عمراني ، كامل وشبه مطلق .

الانقلاب الاستراتيجي

كيف ، بالدقة والتفصيل ، حدث هذا الانقلاب ولماذا ؟ ماهي العوامل الكامنة خلفه والضوابط المحركة له ؟ ثمة مجموعتان مترابطتان متداخلتان من الأسباب والمتغيرات ، واحدة جعلت الخليج كبيرا بعد أن كان صغيرا ، وواحدة جعلت السويس صغيرة بعد أن كانت كبيرة . وفي قلب وعلى رأس الأولى تأتي بالطبع ثورة البترول نفسه في الخليج . ثم إلى جانب البترول تأتي انقلابات ومتغيرات السياسة والاستراتيجية العالمية سواء على مستوى الصراع بين الكتلتين والقوتين الأعظم أو على مستوى الصراع المحلي بين القوى الثابتة . وسواء أكانت هذه المتغيرات مترتبة على ثورة بترول الخليج نفسه أو منفصلة عنه ، فإنها تأتي مؤكدة لنتائج ومضاعفاته من انتقال مركز الثقل الاستراتيجي العالمي إليه ، ومشيرة بذلك بدرجات متفاوتة إلى تذبذب البندول من الغرب إلى الشرق بعامة . أما المجموعة الثانية من المتغيرات فتشمل الاستراتيجية النووية والخطر الإسرائيلي ثم خطر الناقلات العملاقة وطريق الرأس .

بترول الخليج

هذا بالتأكيد أكبر وأخطر ثورة في بابها وفي نتائجها في العالم المعاصر . فإذا كانت ثورة البترول عموما هي أكبر ثورة اقتصادية وتكنولوجية في العالم ، فإن ثورته في الخليج هي بدورها أكبر ثورة جغرافية وسياسية على المستوى الاقليمي . ففي غضون ربع قرن تقريبا تحول الشرق الأوسط وحوض الخليج العربي إلى أكبر مستودع للطاقة في العالم ويمكن الجزء الأكبر من احتياطيه ومخزونه للمستقبل حتى سنة ٢٠٠٠ على الأقل . وبصفة تقريبية يبلغ هذا الرصيد نحو ثلثي مجمل العالم غير الشيوعي ، بنا لا يقل الانتاج عن ثلث الانتاج العالمي جميعا ، في حين يمثل المصادر السواد الأعظم من تجارته الدولية . ومن الاجترار وحده بعد هذا أن نقرر أن الخليج قد أضحي قلعة البترول في العالم ، أو قل عاصمة العالم بتوليا .

وفي الوقت نفسه ساعدت التطورات الدولية ، خاصة ثورة التحرير الوطني في العالم الثالث ثم بالأخص حرب أكتوبر في العالم العربي ، على أن يتحول الخليج وبارقام فلكية خرافية تماما إلى أغنى منطقة في العالم بالعائدات ورؤوس الأموال ، فصار معا وفي آن واحد أعظم بنك بترول ومال في العالم . لقد بدأت « إمبراطورية البترول » في الشرق الأوسط والعالم العربي . وبينما بدأ الخليج وهو تابع للإمبراطوريات الاستعمارية القديمة ، أصبح آخر وأحدث الإمبراطوريات في التاريخ الحديث . وبعد أن ظل طويلا مجرد خطوة على طريق السويس إلى الهند ، أصبح فجأة بمثابة « إمبراطورية الهند الجديدة » إلا أنها أدخلت في ، وأقرب إلى ، الاستعمار الجديد منها إلى الاستعمار القديم مثلما كانت إمبراطورية الهند السابقة .

وبينما كانت الهند في الماضي جوهرة التاج والإمبراطورية البريطانية ، فإن إمبراطورية الهند الجديدة ليست فقط جوهرة بل حرفيا حياة ، ليس فقط لإمبراطورية غربية ولكن للغرب بأسره . ذلك - وبغير إفراط في الأرقام - أن الغرب كله ، كل غرب أوروبا بما فيه بريطانيا بالإضافة إلى اليابان بل والولايات المتحدة الآن ، فضلا عن العالم الثالث ، يعتمد اعتمادا مطلقا أو شبه مطلق وإن بدرجات متفاوتة على بترول الخليج . فن مضيق هرمز ، وبمعدل ناقلة كل ٨ دقائق ، كان يمر يوميا ١٩ مليون برميل ، تمثل أكثر من ثلثي إنتاج الخليج البالغ نحو ٢٨ مليون برميل يوميا ، وتشكل ٩٠٪ من حاجات اليابان وأكثر من نصف حاجات أوروبا الغربية وربع واردات الولايات المتحدة .

من القناة إلى الخليج

قارن هذا الآن بقناة السويس . لقد كانت القناة على الأكثر خط حياة إمبراطورية فقط ، أما الخليج فخط حياة الغرب كله بل والعالم كله . أكثر من هذا ، فعلى أحسن الفروض والأحوال فإن القناة كما سبق طريق حيث الخليج حياة . أو بالمقابل وبعبارة أصح وأصرح وأفدح : الخليج « مقتل » حيث القناة مجرد « مخرج » . باختصار ، الأول لا يبدل له ، أما الثاني فله . لاعجب أن يصبح مضيق هرمز ، عنق الخليج وبوابته ، هو بمثابة قناة السويس الحقيقية الجديدة ، فإنما هو مباشرة المخرج والمر الحقيقي لبترول الخليج نفسه . وبصيغة أخرى فلقد أصبح الخليج ومضيقه ذاته ، أكثر من الخليج والسويس تقريبا ، هما مقر البترول وممره معا ، الحياة والطريق في آن واحد .

والنتيجة ؟ النتيجة الحتمية بدهة وواقعا ، شئنا أو أيننا ، أن الخليج أصبح اليوم

عين إعصار السياسة الدولية وقطب الصراع في الاستراتيجية العالمية وخاصة بين القطبين الأعظم والكتلتين الغربية والشرقية . كل التنافس حوله ، والأطباع فيه ، والأضواء عليه ، والحسابات له ، والاهتمام به - والأهمية أيضا . فالخليج بالنسبة للغرب ليس حياة فقط بل ومقتل أيضا بالقوة كما رأينا ، أى مسألة أو منطقة حياة أو موت ، بمعنى أن أى تهديد أو حرمان لإمداداته منه يعنى استسلامه بلا قتال في أى حرب عالمية تقليدية . وبالمثل ، ولكن بالمعنى السالب ، فإن بتترول الخليج كوسيلة حرمان هو نصف المعركة ونصف النصر بالنسبة للشرق .

ومعنى هذا أن الخليج هدف أول حتما في أى مواجهة حربية بين القطبين في المستقبل ، الأول لضمان حمايته وتأمينه والثاني لانتزاعه أو تدميره^(١) . وبدون موارد ، وإعلان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كليهما ، فإن الخليج أكثر من أى منطقة أخرى في العالم هو مفجر الحرب الثالثة المحتمل ، وبوابته هرمز بوابتها . فكل برمبل بتترول يخرج من الخليج يساوى برمبل بارود ، والخليج ككل أصبح بحق «برمبل ديناميت العالم» الجديد ، مثلما كان البلقان في الحرب الأولى والسويس والشرق الأوسط في الحرب الثانية . ومن السهل أن نلاحظ كيف تقع مراكز الخطر الثلاثة على محور واحد قاطع ، وكيف تحرك مركز الثقل بينها تباعا وباطراد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، إشارة إلى تأرجع البندول الاستراتيجي العام من الغرب إلى الشرق .

من المتوسط إلى الهندي

ومن البحر المتوسط إلى المحيط الهندي أيضا وأساسا ! إذ لما كان الخليج يتوج رأس المحيط الهندي ، فقد انتقل مسرح الصراع المباشر أوتوماتيكيا إلى هذا الأخير الذي ورث بذلك دور البحر المتوسط سابقا بل وربما المحيط الأطلسي مؤخرا . وإذا كان البعض يعد المحيط القطبي الشمالي لا الأطلسي بحر العالم المتوسط الجديد في العصر النووي والاستراتيجية الذرية ، فإن المحيط الهندي هو بلا تردد بحر العالم المتوسط الجديد في عصر البترول والاستراتيجية التقليدية . لقد أصبح المحيط الهندي ، الذي هو نصف محيط نسيبا والذي يشبه في شكله وتركيبه العام البحر الأبيض المتوسط إلا أنه مفتوح على الجنوب بلا سواحل أو حدود ، أصبح هو البحر المتوسط الجديد في السياسة الاستراتيجية ، مثلما أصبح مضيق هرمز قناة السويس الجديدة مجازا .

Economist, op. cit., p. 43.

(١)

اعتبر فقط ، في هذا الصدد ، احتشاد وتواجه الأساطيل الحربية الكثيفة لكلا القطبين لأول مرة فيه ، وتكالبها على المحيطات والقواعد البحرية سواء على سواحل أو جزره . لاحظ كذلك كيف انساب أو تصرف دور البحر الأبيض المتوسط الاستراتيجي التقليدي جزئيا إلى الهندي عبر البحر الأحمر وعن طريقه حيث بدأ هذا الأخير يكتسب على الطريق قيمة ودورا جديدين : كما ابتدأ جنوبه في عدن وباب المندب واليمن الجنوبية وإثيوبيا ينافس نسيبا شماله العريق السويس ومصر كأهداف للتحالفات السياسية ومواطن للقواعد العسكرية ... الخ .

الأنماط الجديدة

نمط الصراع الاستراتيجي العالمي

على أن البحر الأبيض المتوسط لم يفقد من دوره للمحيط الهندي بسبب البترول أو الخليج وحده ، وإنما هناك بالإضافة عامل الاستراتيجية العالمية والسياسة الدولية بعامة . فليشد ما تغيرت أنماط ومحاور الصراع الاستراتيجي العالمي ، مثلما توسعت للغاية أبعاده وأخطاره وأنظاره اليوم بالقياس إلى الأمس . فحتى الحرب العالمية الثانية وصراع الإمبراطوريات الاستعمارية كان الصراع أساسا بين بريطانيا وألمانيا ، وبذلك كان البحر الأبيض المتوسط مركزيا ومحوريا في النمط الاستراتيجي السائد ، مثلما كان دور قناة السويس شريانيا ومصبيريا . أما الآن فإن الصراع بين الكتلتين والعملاقين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قد نقل المسرح والخطر إلى الشرق أكثر ، إلى الشرق من القناة والمتوسط بل وأوروبا نفسها أكثر وأكثر .

بل لقد نشأ في الحقيقة نمط استراتيجي جديد في نصف الكرة الشرقي يكاد يكون نقبض نمطه القديم في العصر الاستعماري وخاصة عصر بريطانيا . فبينما كانت الأراضي الهامشية في العالم القديم هي مركز القوة في السياسة العالمية ، وكان محور السيطرة العالمية هو قاطع غرب أوروبا - المتوسط - الموسميات ، أصبح المارتلاندي الآسيوي أو الأوراسي هو محور الارتكاز والقوة pivot area بظهور الاتحاد السوفيتي كإحدى القوتين الأعظم في العالم . وبرز من هذا المركز محور سيطرة وتوسع أو نفوذ وأطاع جديد يمتد على قاطع عكسي متقاطع يشمل الخليج العربي - الشرق الأوسط - المحيط الهندي - القرن الأفريقي - وسط أفريقيا . وبهذا انتقلت القوة الطامعة أو الأخطار الاستعمارية من الغرب وبريطانيا البحرية وذلك في مصر والسويس خاصة ، إلى الشرق والاتحاد السوفيتي البري وذلك في الخليج والشرق الأوسط عامة .

فمن الخليج ، وبالإضافة إلى بترولها الحاكم كموضع ، فإنه كموقع وباعتباره أقرب منطقة إلى بطن الاتحاد السوفيتي كان يعد دائما ومنذ القيصرية المر الجنوبي إلى المياه الدافئة ، أي كان يعتبر «قناة سويس الروسية» (١) . مثلما كان المحيط الهندي هو تلقائيا بحرهما المتوسط . وهنا لا بد أن نلاحظ أنه ما من مسرح قتال محتمل على وجه الأرض أبعد عن الولايات المتحدة وأقرب إلى الاتحاد السوفيتي من الخليج ، لاسيما بعد تمركز السوفيت في أفغانستان مؤخرا حيث أصبح الخليج في مدى القاذفات المقاتلة من مطاراتها وعلى بعد ساعة طيران واحدة .

لهذا يستطيع الاتحاد في وثبة واحدة عبر صحراء بلوخستان ، على قسوتها ، أن يحتل الخليج دون أن تتمكن الولايات من صدده أو منعه ، إلا إذا أعدت القواعد والتسهيلات والأسلحة سابقة التشوين في الموقع pre-positioned ، بالإضافة إلى إعداد القوات سريعة الانتشار R.D.F التي كانت بالفعل وليدة غزو السوفيت لأفغانستان . ولعل بارقة الأمل الشاحبة الوحيدة ، من وجهة نظر الغرب طبعاً ، أن هجوما سوفيتيا شاملا على الخليج يستدعي تجنيد بعض احتياطيه أو سحب بعض قواته من الجبهة الأوربية أو جبهة الشرق الأقصى ، والأولى تعرض خطة أو نية الغزو للكشف كما تمنح الغرب الوقت اللازم لنقل قواته من بعيد ، بينما أن الثانية تعرض الاتحاد نفسه للهجوم المضاد الوقائي (٢) .

هذا عن الخليج نفسه . أما عن الشرق الأوسط فإن الوجود السوفيتي الذي ظهر في كثير من دوله كتحالقات أو قواعد أو علاقات صداقة وثيقة قد أخذ في النهاية شكل الغزو الكامل في أفغانستان . وهذه العملية الأخيرة لا تعني فقط أن الاتحاد السوفيتي يتوسع كالعادة والقاعدة قاريا إلى الخارج باطراد والتصاق contiguously نحو الهلال الخارجي والأراضي الهامشية من القارة ، ولكن أيضا كخطوة حتمية إلى المياه الدافئة والبحار الجنوبية وتطويقا للخليج العربي وبترولها جميعا وأساسا ، تمهيدا لليوم الذي قد يفرض فيه شروطه أو مساومته على الغرب والولايات المتحدة إما بالوجود به أو المشاركة أو المناصفة فيه ... الخ .

أما في المحيط الهندي نفسه فلأول مرة يصبح للاتحاد السوفيتي - الذي تحول حديثا

Reader Bullard, Britain & the Middle East, Lond., 1952, p. 170.

(١)

"East-West struggle", Economist, op. cit., p. 47.

(٢)

فقط إلى قوة بحر لأول مرة في تاريخه البرى القارى الطويل - أصبح له وجود دائم وحاسم فيه ، ممثلا في أسطول حرنى قوى نووى وسلسلة من القواعد البحرية في بعض المواقع الاستراتيجية على سواحل خاصة في منطقة القرن الأفريقى على رأسها عدن وإلى جانبها بربرة سابقا ومصوع حاليا .

وهذه القواعد نفسها كانت خشبة القفز التى وثب منها الاتحاد إلى القارة الإفريقية ذاتها ، حيث نجح بالاضافة إلى اليمن الجنوبية في التغلغل والتواجد السياسى في أكثر من دولة في القرن الأفريقى ووسط أفريقيا ، ابتداء أولا من الصومال الذى استبدل به بعد أن فقدته إثيوبيا كبديل أكبر وأخطر ، وانتهاء بأنجولا على الجانب الأطلسى من أفريقيا الجنوبية .

نمط الصراعات المحلية

بالاضافة إلى نمط صراع القوتين الأعظم وتمدده نحو الشرق تجاه آسيا ، هناك أيضا تحرك ملحوظ في مراكز الصراع الثانوية والمحلية في نفس الاتجاه . ورغم أن هذا النمط لا يفصل إلى حد معين عن صراع العملاقين والكتلتين ، فإنه يرتبط بتطورات السياسة الدولية والأحداث الجارية عامة ، لا سيما بتصفية الاستعمار القديم وإمبراطوريات غرب أوروبا في جانب و بروز قوى جديدة صاعدة في آسيا خاصة . فبينما تحولت أوروبا الغربية في العقود الأخيرة إلى منطقة استقرار نسبي ، انتقلت معظم المواجهات العسكرية والصدمات الاستراتيجية الساخنة شرقا إلى آسيا بالذات .

فعلى حين أصبحت أوروبا الغربية ، منذ انتهاء الحرب الثانية ثم الباردة ثم ابتداء الانفراج خاصة ، أميل نسبيا إلى التعايش السلمى والوفاق وخفت قبضة أمريكا عليها نوعا ، أصبحت آسيا هى مسرح أكبر وأخطر الحروب المحلية والثورات الوطنية في العالم تقريبا ابتداء من الحرب الكورية ثم حرب فيتنام وحرب الصين - الهند ثم سلسلة حروب الهند - باكستان إلى انفصال بالجلاديش والثورة الإيرانية ثم الحرب الإيرانية - العراقية وأخيرا غزو أفغانستان ... الخ ، كل ذلك بالاضافة طبعا إلى الحروب العربية - الإسرائيلية في غرب القارة ، فضلا عن الصراع السوفيتى - الصينى في شرقها .

وفي هذا كله ، فعلى حين خرجت الولايات المتحدة تقريبا من آسيا ، ازداد النفوذ السوفيتى فيها توسعا وانتشارا . و صفوة القول أن مركز ثقل الصراع الساخن في العالم انتقل

من أوروبا تقليديا إلى آسيا تقريبا ، حيث أصبحت الأولى سياسيا أشبه ببركان نائم فيما تحولت الثانية بحق إلى بركان نائر .

وكان منطقيا فقط بعد هذا أن يتحول الاهتمام والخطر مرة أخرى من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي . بل إن البعض ليتنبأ بأن المحيط الهادى - بكل قوى الصين واليابان والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة حوله - سيصبح البحر المتوسط العالمى الجديد فى القرن ٢١ . فإذا صح هذا فسيكون بحر العالم المتوسط ، بعد أن غادر البحر الأبيض منذ مدة ، قد انتقل تباعا من المحيط الأطلسى فى أقصى الغرب إلى الهادى فى أقصى الشرق مروراً بالهندي . وهذا كله يذهب على أنه حال ليؤكد تحرك البندول المطرد فى الاستراتيجية العالمية عبر العصر الحديث من الغرب إلى الشرق بعد أن كانت حركته فى العصور السابقة هى على العكس من الشرق إلى الغرب .

مصر والسويس

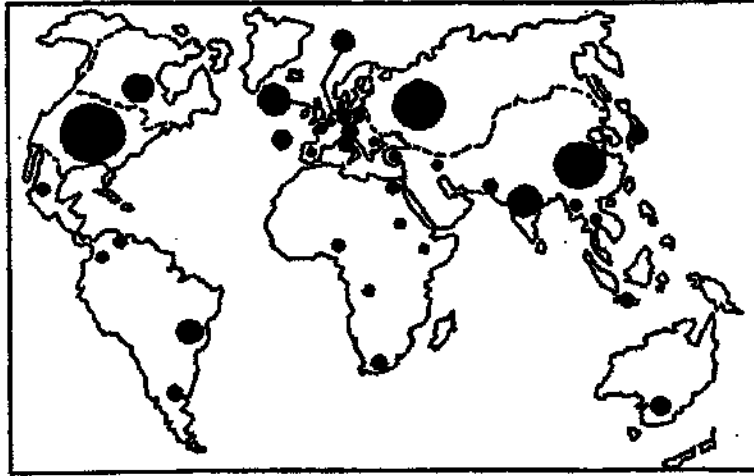
تلك جميعا هى مجموعة المتغيرات العالمية التى أضافت إلى القيمة والأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربى وما شرقه على حساب منطقة السويس والقناة . ولكن على الجانب الأخير ، فإن هناك بالاضافة مجموعة أخرى من المتغيرات نالت بصورة مباشرة من قيمته ووزنه الحقيقى والنسبى مما ضاعف وإلى حد الخطر الاختلال الاستراتيجى بين كفتى الميزان . وكما رأينا فإن أهم هذه العوامل ثلاثة هى الاستراتيجية النووية والخطر الإسرائيلى ثم الناقلات العملاقة وطريق الرأس . فكل منها قد هدد أو أخذ بقدر أو آخر من قيمة الموقع الجغرافى ودور القناة الاحتكارى القديم . ولئن كان من الممكن ، وأمكن بالفعل ، مواجهة هذه الأخطار واستعادة قدر من أهمية القناة ، فلا سبيل إلى الشك فى أن وزنها قد خف فعليا ونسبيا فى الاستراتيجية والمواصلات العالمية سواء عما كان عليه فى الماضى تقليديا أو عما آل إلى الخليج العربى مؤخرا .

وفى النتيجة الصافية ومجمل القول انتقل مركز الثقل الجيوبوليتيكي والجادية الاستراتيجية والصراع السياسى من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي ، ومن قناة السويس إلى الخليج العربى ، ومن مصر والشام إلى شرق الجزيرة العربية والشرق العربى ، ومن شمال البحر الأحمر إلى جنوبه ، بالاختصار من وسط الشرق الأوسط إلى شرقه ، أو إن شئت فقل بالتقريب من الشرق الأدنى إلى الشرق الأوسط . ولعل من أبرز مظاهر وأعراض هذا الاختلال أو الانتقال شرقا تحول بؤرة الحروب المحلية فى المنطقة

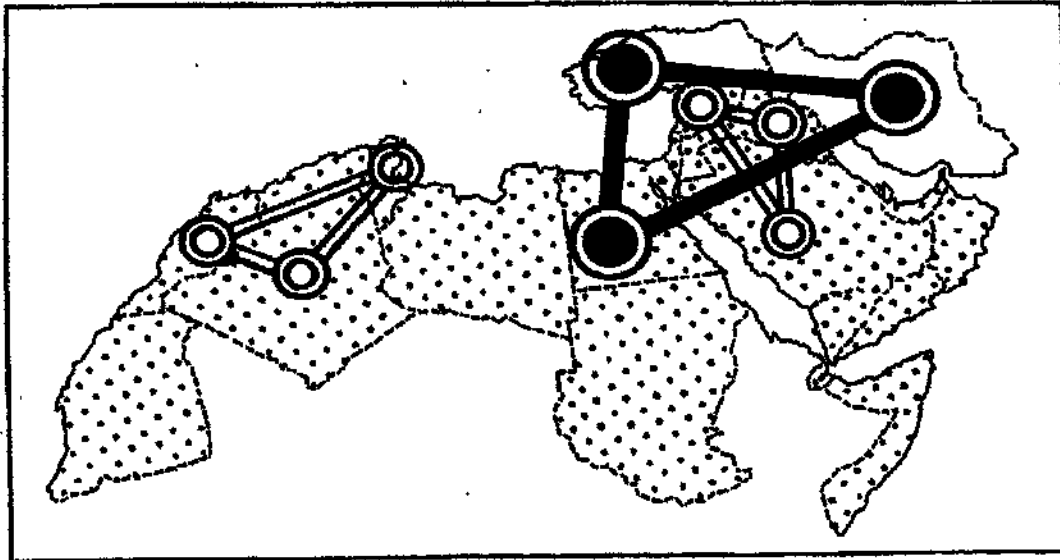
مؤخرا ، لاسيا بعد ذلك الصلح المصرائيل ، من ركن مصر- إسرائيل - سوريا إلى ركن العراق - إيران - أفغانستان .

خذ مثلا حرب العراق - إيران . هذه الحرب لا مفر دليل جزئي على تحرك مركز النقل الاستراتيجي والجيوبوليتيكي والاقليمي من السويس إلى الخليج ومن مصر إلى المشرق . أليست تضع الخليج الآن موضع قناة السويس في القرن الماضي أو الأخير ، وتكاد تكرر إلى حد ما حرب السويس ؟ أو صدفة أنهم كانوا يتحدثون بقلق عن خطر إغلاق مضيق هرمز مثلا كانوا يتحدثون في الماضي عن خطر إغلاق قناة السويس ؟ بل الطريف أو الغريب أنهم في الغرب تحدثوا أثناء هذه الحرب عن « الفراغ » الذي سببه خروج بريطانيا ثم تخلى أمريكا عن الخليج مما فجر الحرب المحلية ، تماما مثلما تحدثوا عن « الفراغ » بعد خروج بريطانيا من مصر وقاعدة السويس . الأكثر إثارة أنهم تحدثوا عن قوة بحرية مشتركة من دول الغرب لضمان المرور في هرمز وتدفع البترول . تماما « كهيتة المتفعين » بقناة السويس وشروطها ... الخ .

على الجانب الآخر ، وكمثل ودليل ثان ، فلئن كانت مصر اليوم قد منحت ما يسمى « تسهيلات » أو قواعد مؤقتة لأمريكا في قاعدة غرب القاهرة الجوية وقاعدة رأس بناس البحرية لتكون ممرا لقوات الانتشار السريع الأمريكية Rapid deployment force (R.D.F.) إلى الخليج ضمانا لحايته وأمنه ضد ما بعد أخطار الاتحاد السوفيتي ، ودونما تعليق على هذه المعطيات أو الفرضيات أو تعرض لها ، فإن هذا إنما يذهب ليؤكد أن مصر قد تحولت إلى مجرد طريق وخطوة هامشية إلى المركز المحوري الجديد وهو الخليج ، شأنها في ذلك شأن عمان ومصيبره أو الصومال أو حتى إسرائيل ، أو شأن قبرص بالنسبة إلى مصر نفسها في السابق . المعنى باختصار أن مصر استراتيجيا قد تحولت كقناتها إلى موقع هامشي خادم على هامش الخليج الحيوي الحاكم المتحكم في كل شيء ، لا يغير من ذلك إعلان مصر استعدادها لإرسال قواتها إلى الخليج للمساهمة في حمايته .



شكل (٣٦) أوزان القوى السياسية في العالم حوالي ١٩٦٠ . مساحة الدائرة تتناسب مع الوزن ، وأساس تقدير الوزن هو مجموع نسب المساحة والسكان واستهلاك الطاقة من المجموع العالمي ، مع احتساب نصف الوزن لاستهلاك الطاقة وحده . [عن كول] .



شكل (٣٧) مراكز القوة الطبيعية في العالم العربي والشرق الأوسط . لاحظ مثلث القوة المحلي في كل من المشرق والمغرب العربي : العراق - سوريا - السعودية في المشرق ، المغرب - الجزائر - تونس في المغرب ، ثم بين الاثنين مصر كقطب القوة الاقليمي الاساسي في العالم العربي . لاحظ أيضاً كيف أن مصر بدورها تمثل أحد رؤوس مثلث القوة الاقليمي في الشرق الأوسط : مثلث مصر - تركيا - إيران .

آفاق المستقبل

من الاستقطاب الثنائي إلى الخماسي ؟

باعتراف مهندسيه ، كان الوفاق الثنائي اعترافا تاريخيا باهتزاز الاستقطاب الثنائي أو القطبية الثنائية ، أى باهتزاز مكانة القطبين وقوتها النسبية على قبة العالم ، وبالتالي كان إعلانا ببزوغ عالم قوة جديد يشاركها فيه قرب القمة أو حوالها قادمون جدد وقوى صاعدة أو طالعة . ولا يكاد أحد يشك اليوم أن عالمنا السياسى يتغير ويثدا ولكن أكيدا عن نمط ما بعد الحرب الثانية مباشرة ، وأننا نعيش حاليا مرحلة انتقال حرجة ودقيقة ولكنها حاسمة من حقبة استراتيجية إلى حقبة أخرى بكل ما تنطوى عليه الكلمة من توازنات وتوزيعات وأنماط وأدوار... الخ .

ومنذ أبرم الوفاق تحول كثير من الجامعات ومعاهد العلوم السياسية ومراكز الدراسات الاستراتيجية فى العالم إلى مراصد حية للمتغيرات الدولية وخلايا مستقبلية عارمة بالنشاط التحليلى ومعامل مدججة بالحاسبات الإلكترونية للتنبؤ المستقبلى المنهج المبرمج بهؤلاء القادمين الجدد ، وأين وكيف سيتم « تركيبهم » فى معادلة القوة الجديدة ، مع تحليل التوازنات الداخلية والتبادلية بين « الحرس القديم والجديد » ، ثم أثر النظام الجديد كله على العالم ككل... الخ .

وفى هذا « الموروسكوب السياسى horoscope » أو المنظار المستقبلى الفريد ، بدا للكثرة من الباحثين فى قراءة يد المستقبل ، وعلى رأسهم هيرمان كان ، أن هناك على الطريق ثلاثا كبارا مرشحين للحاق بالقوتين الأعظم الخضرمتين ليؤلف خمستهم الصف الأول أو الصدر الأعظم فى خريطة السياسة العالمية حوالى سنة ٢٠٠٠ . أولئك هم أوروبا الغربية . اليابان . الصين .

ولعل من الطريف هنا أن نورد ، على سبيل المقارنة أو لمجرد السجل (ولا نقول الذكرى ١) بعض التنبؤات الجيوبوليتيكية فى أخريات الحرب العالمية الثانية عن مصائر وأقدار القوى العظمى المتوقعة بعدها . فإلى جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالطبع ، كان يأتى صف ثان من القوى العظمى يضم الإمبراطورية البريطانية « التى يتوقف مستقبل البريطانيين فيها على تعاونهم الوثيق مع الأمريكين » ، ثم من الجائز بعدها فرنسا ولكن فقط إن هى استعادت إمبراطوريتها .

وكان للصين بعد هذا فرصة قوية فى مكانة بارزة كالزعيمة المحتملة فى الشرق

الأقصى ، ولو أن من المشكوك فيه أن تصل إلى مرتبة الدول العظمى . وبالمثل البرازيل في أمريكا اللاتينية ، فهي الوحيدة هناك التي تذكر أكثر من غيرها كمرشح لمرتبة الدول الكبرى ، إلا أن ذلك من المشكوك فيه أيضا . أما ألمانيا وإيطاليا واليابان فقد كتب على ثلاثتها أن تفقد مكانتها كدول عظمى . تلك كانت النبوءة المطروحة في مجملها ، ومن الواضح الآن أن اليابان والصين على الأقل قد خيبت بعض حساباتها . بينما يبدو مجرد ذكر البرازيل اليوم مثيرا للدهشة أكثر مما كان وقتئذ أو أى وقت مضى في الحقيقة^(١) .

ومهما يكن ، فإذا نحن عدنا إلى واقعنا الحاضر فإن الفرضية الأساسية السائدة أو الراجحة إذن هي تحول الاستقطاب الثنائي الضيق الراهن إلى استقطاب خماسي أعرض وأرحب ، ليس الآن فورا ولكن حوالى دورة القرن أو حتى بعدها بقليل أو كثير . ومعنى هذا أننا لا ينبغي أن نفهم من حديثنا التالى عن الاستقطاب الخماسي كخاتمة الكتاب أننا نتعامل معه فعلا في واقعنا المعاصر ، فليس ثمة حتى الآن سوى قوتين أعظم لا شريك لهما . وسوف تظان كذلك ربما لنحو نصف قرن آخر يضاف إلى النصف الماضى ، بحيث يمكن القول إنها احتكرا وسوف يحتكران السيادة العالمية المشتركة زهاء القرن منذ منتصف القرن العشرين إلى حوالى منتصف القرن الحادى والعشرين .

الخريطة الجديدة

فإذا صحت هذه الصيغة المطروحة لجاز لنا أن نتوقع خريطة جديدة تماما للقوى العظمى ترسم على أساس التشكيلة البازغة نمطا اقليميا معقدا يختلف جذريا عن النمط الثنائى البسيط السائد حاليا و / أو المتنحى مستقبلا . ولعل أهم ملامح هذا التغيير ثلاثة .

فأولا ، كان الاستقطاب الثنائى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يتلخص فى انقسام رأسى بين غرب وشرق ، بين معسكر رأسمالى وآخر اشتراكى ، وأخيرا بين العالم الجديد والعالم القديم . أما من الآن فإن نطاق الاستقطاب الجديد يتسع ليلف حول النصف الشمالى من الكرة الأرضية شاملا قلب أمريكا الشمالية وكل أوروبا تقريبا والجزء الأكبر من شمال ووسط وشرق آسيا . ويلاحظ أن النطاق الأول كان يمثل كتلتين منفصلتين أرضيا ، أما الثانى فالجزء الأكبر منه أرض متصلة بلا انقطاع من الأطلسى حتى الهادى .

(١) فابيلد وبيرسى ، الجيوبولتيكا ، ج ٢ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

ثانيا ، نطاق الاستقطاب الخاسي يظل ، كالاستقطاب الثنائي ، مقصورا على النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، مؤكدا بذلك الفارق الكامن بين القارات الشمالية والقارات الجنوبية والتناقض الجذرى بين الشمال القوى الغنى والجنوب الضعيف الفقير . ومع ذلك فإن هناك داخل النصف الشمالى تحركا حاسما فى مراكز القوة نحو الجنوب وتوسعا تجاه خط الاستواء وبالذات فى آسيا الموسمية حيث يصل الآن مع حدود الصين الجنوبية إلى مدار السرطان . فإذا ما تذكرنا أن الهند ، خاصة مع تعاظم قوتها بعد حربها المنتصرة على الباكستان ، تؤذن أو تشبه أن تكون قوة جديدة كبيرة أو نحو ذلك ، فإن زحف القوة نحو الجنوب يتأكد أكثر ويقترّب من خط الاستواء نفسه أكثر وأكثر .

ثالثا ، على أن أبرز تطور على الخريطة ليس هو الزحف نحو الجنوب بقدر ما هو الزحف نحو الشرق ، وبالتحديد نحو آسيا . فعمل أخطر حقيقة انبثقت عن تعدد المراكز هى طفرة آسيا إلى حلبة الصراع ، ودخولها دائرة القوة العالمية . فى مقابل مركز قوة واحد فى أمريكا الشمالية وآخر فى أوروبا الغربية وثالث أوراسى موزع بين أوروبا وآسيا (الاتحاد السوفيتى) ، هناك مركزان اثنان فى آسيا وحدها (الصين واليابان) . أى أن آسيا ، حاسيا ، نصف مجموع القوى العظمى المنتظرة بالعالم .

قواعد اللعبة الجديدة

وكما أسلفنا فلا مفر من أن يكون أساس التعايش والتفاعل والتعامل بين الخمسة الكبار هؤلاء هو لعبة توازن القوى ، أى عود بصورة ما ، مختلفة ومجددة بالطبع ، إلى نمط القرن التاسع عشر ، أو النمط البريطاني الأثير . ولن يكون معنى هذا أن يقف الجميع على قدم المساواة تماما أو أن يتعادلوا بالضبط فى ميزان القوة ، وإنما سيكون هناك دائما الأول بين أنداد أو أكفاء *primus inter pares* يلعب دور المرجح . وإلى أمد بعيد ، وربما إلى الأبد ، ستكون الولايات المتحدة صاحبة هذا الدور الحاسم والخرج . كذلك فلبعض الوقت سيظل القطبان الأعظم الحاليان هما المدار المحورى للعبة الجديدة .

وفى رأى البعض ، مثل ريكر ، أن عصر التوازن سيتحول ويتقل إلى عصر من المناورة . وعلى أية حال فقد يرى البعض الآخر أن التوازن بحد ذاته مرادف للمناورة ، وأن عصر التوازن هو بالضرورة وبالطبع عصر للمناورة . فكل طرف فى اللعبة هو إلى حد أو آخر ضد الطرف الآخر ، وكل طرف يريد أن يستغل الطرف الآخر سياسيا

وسيكولوجيا لمصلحته ، والكل بهذا يضارب الكل بالكل ، غير أن أكثر من طرف ستجتمع مصالحه مرحليا أكثر ضد طرف آخر ، ولهذا ستألف بينهم محاور متعددة مؤقتة أو متعاقبة أكثر أو أقل وضوحا وصلابة وبقاء يغير فيها الجميع مواقعه بلا حرج ولا حذر ، بسرعة أو ببطء ، وذلك على أساس مساومات حادة دائمة ودائمة . أى أن المبدأ الحاكم لن يكون المبادئ الأيديولوجية بقدر ماسيكون المكاسب الواقعية والمصالح العملية والمواقف البرجماتية . واللعبة كلها أشبه بلعبة الكراسى الموسيقية ولا نقول كما يقول البعض « لعبة الثلاث ورقات » .

ويرى ريكير أنه فى وسط مثل هذه اللعبة سوف ترتفع القيمة الحدية للقادمين الجدد أو أصحاب المواقف المحايدة أو الهامشية ، إذ سيرتفع المن المطلوب لانحيازهم إلى هذا الجانب أو ذاك . وفى الوقت نفسه فإن كل تحرك لأحد الجانبين الأعظم سيؤثر آليا على مواقف ومواقف الآخرين بحدة وبدرجة مؤثرة على مستقبلهم . وهذا فى رأى الكاتب نفسه سيضعف من خطر الحرب الشاملة ، كما أن القطبين الأعظم الحاليين سيكونان الخاسرين فى جميع الأحوال بعد أن يستنفد كل منهما كل إمكانيات تدعيم تحالفاته ومحاوره (١) .

غير أن البعض مثل بيرتون يذهب ، على العكس من ذلك تماما ، إلى أن التوازن سيفرض الاتجاه السلمى على أطراف اللعبة ويسقط المحاور كما أسقط الأتحلاف بحيث يغزوها عدم الانحياز ، نعم عدم الانحياز ، فى النهاية (٢) . ولعل هذه أمنية أكثر منها نبوءة ، وربما عدها البعض أدخل فى باب الميتافيزيقا منها فى علم المستقبلية .

ومها يكن الأمر ، فإذا عدنا إلى ميكانيزم اللعبة الجديدة ، فلنلاحظ أولا أنها ، أيديولوجيا ، مباراة أو مناورة بين ثلاثة أطراف رأسمالية وطرفين شيوعيين ، الصراع بين الأخيرين منهم لا يقل ضراوة وعداء حتى الآن على الأقل عما بينها وبين الأطراف الثلاثة الأولى . وهذا مما يزيد اللعبة كلها تعقيدا والوجوه والأقنعة تعددا . فبين الجميع تناقضات عديدة مختلفة النوع والدرجة ، أى أنهم جميعا ضد بعضهم البعض ولكن بدرجات متفاوتة . غير أنهم جميعا فى الوقت نفسه ضد الاتحاد السوفيتى أساسا وفى الدرجة الأولى ، بينما يريد هذا بدوره إفساد اللعبة عليهم جميعا . وعلى هذه الأسس المعقدة

Edwin Rieker, Theory of political coalitions, New Haven, 1962, p. 230-1.

(١)

A. Burton, International relations, 1967, p. 186.

(٢)

المربكة تمت وستتم تنازلات ومساومات متبادلة بين الأطراف جميعا .
أما من حيث التوزيع الجغرافى ، فلأن أربعة من الأقطاب الجديدة تقع فى أوراسيا
أو العالم القديم ، فإن الولايات المتحدة تأتى من العالم الجديد كالرافعة lever ومركز الثقل
القصى . ولأن ثلاثة من تلك الأقطاب تقع كليا أو جزئيا فى آسيا ، فإن الولايات مرة
أخرى تأتى كالبعد الرابع جنب مثلث الصراع . ولهذا فإن آسيا ، بعد أن فشلت الولايات
فى إخضاعها أو احتوائها بالقوة وخرجت من يابسها القارى mainland . هى أكثر من
أى قارة أو منطقة أخرى المرشحة لتكون ميدان اللعبة الجديدة ، وإليها بالفعل تتجه كل
مؤشرات الصراع ، وفيها نجد أولى إرهاباته ، بحيث قد تحمل آسيا محل أوربا كميدان
المعركة غير المباشر بين الأقطاب الخمسة المفترضين مثلا حلت محلها كميدان المعركة بين
القطبين الأعظم الراهنين .

أطراف اللعبة أمريكا وأوربا

لأن الولايات المتحدة وأوربا الغربية هما أقرب الجميع إلى بعضها البعض بحسبانها
نواه الغرب الحقيقية والحلفاء التقليديين ، فعمل من المستحسن أن نبدأ بها . ولا شك
ابتداء أن أهدافها واحدة أو موحدة إلى حد بعيد ، ومواقفها من الآخرين متقاربة للغاية
بالتالى ، لكن دون أن تكون متماثلة أو متطابقة بالطبع . فهناك فجوة ما أو هامش من
اختلاف وأحيانا من خلاف فى الأهداف والمواقف يملها اختلاف المصالح والعلاقات
الخاصة . فاهتمامات أوربا فى المرحلة الحالية هى المصالح الاقتصادية أكثر منها
السياسية ، بينما أن اهتمامات أمريكا سياسية واستراتيجية أكثر . الأولى أهدافها وحساباتها
اقليمية أكثر ، والثانية عالمية أكثر . والسبب بالطبع أن الأخيرة قوة أعظم ، أما الأولى
فليست كذلك بعد .

وبعامة يمكن القول إن هدف أمريكا فى اللعبة ، إذا سمح لنا بهذا التشبيه الموسيقى ،
أن تكون هى « قائد الأوركسترا » وأوربا « ضابط الإيقاع » ، أو إذا كانت هى « عازف
الكمان الأول » أن تكون أوربا « عازف الكمان الثانى » . ولذا فإن المطلوب هو نوع من
« تطبيع » العلاقات بينهما من حين إلى آخر . وعلى الجملة فلعلنا أن نلخص أو بالأحرى
نشخص العلاقة بين أوربا الغربية والولايات المتحدة فى المستقبل إذا قلنا إنها قد تتجه
تدرجيا وعلى المدى البعيد إلى أن تستقر على شىء أشبه بالعلاقة بين إسبانيا أو البرتغال
وبين أمريكا اللاتينية ، وإنما على مقياس أكبر ومستوى أعلى .

فكلاهما يريد مضاربة القوى الثلاث المضادة ببعضها البعض ، ليحتفظا هما بتوازن القوى لصالحهما وليحتفظا بالصدارة العالمية . وبطبيعة الحال سيظل الاتحاد السوفيتي هو الخطر الرئيسي ، وكل المناورة والتكتيك والمضاربة موجهة إليه ومركزة عليه أساسا ، وكل المحاولة هي لتحجيمه وعزله عن الآخرين وحصاره صراعيا ، دون أن يصل الأمر مع ذلك إلى حد الصدام معه تحت أية ظروف ، فتلك هي الفرضية أو الشرطية الأولى في الوفاق كله أصلا . وبهذا ولهذا أيضا تهدف أمريكا وأوربا إلى دفع الاتحاد إلى الاعتدال أيديولوجيا أو الابتعاد عن التطرف في طريق الشيوعية والمزيد من الاتجاهات البراجماتية العملية بدل الأيديولوجية البحتة .

غير أن أوربا بعد هذا تريد أن تستغل تعدد المراكز الجديدة في الاستقلال نوعا عن السيطرة الأمريكية اقتصاديا وسياسيا واستراتيجيا . ومن جانبها فإن أمريكا لاتمانع في أن تقوى أوربا وتتسلح لتكون حليفا أقوى إلى جانبها ، ولكن دون أن تستقل بإرادتها عنها تماما أو تهدد زعامتها . ثم تريد أوربا ، ثانيا ، تحجيم كل من العملاقين الأعظم بحيث تتضاءل نوعا الهوة الساحقة والسحيقة بينها وبينها في القوة . ثم ثالثا تريد أوربا منع الصدام بينها وأن تعمل كعامل اتصال وتقارب بينها ، وهو دور ترحب به أمريكا على ألا يكون هذا على حساب العلاقة الخاصة بينها .

الاتحاد السوفيتي

إذا كانت عقدة روسيا الجغرافية - التاريخية الكبرى والتقليدية هي الشعور بالحصار المحكم الخائق بين محيطات متجمدة في الشمال وجيران غير أصدقاء من سائر الجهات ، وكان حجم الرقعة الهائل وأبعاد الامتداد القارية هي الحماية المعوضة التي حلت تلك العقدة ، فإن العصر النووي قد جاء أخيرا وعلى النقيض ليعقدها من جديد بل ويضعفها أضعافا . فبعد أن كانت روسيا فيما مضى تملك الدفاع بالعمق وتستطيع أن تشتري الزمان بالمكان وتستدرج العدو الغازي إلى العمق وإلى مقتل محقق ، فإن عصر الصواريخ النووية قد حيد عامل الحجم والضخامة وسلب المكان عمقه دون أن يوفر بالمقابل عامل الأمن والأمان على امتداد الحدود المترامية .

ليس هذا فحسب . بل إن الاتحاد ليجد نفسه اليوم محاصرا نوويا من كل الجهات تقريبا : الصين شرقا وأوربا الغربية والولايات المتحدة غربا ، بما في ذلك الأساطيل النووية على جانبيه في الأطلسي والهادي والهندي ، هذا بالإضافة إلى تحالف أو تقارب هؤلاء جميعا ضده . وهكذا يات على الاتحاد أن يحقق التفوق والردع النووي ليس فقط

ضد الولايات وحدها ولكن أيضا ضد سائر الأطراف ، كما صار عليه ابتداء أن يكسر حلقة الحصار تلك بأي ثمن أو وسيلة . من هنا تتحدد أهداف الاتحاد في لعبة توازن القوى الجديدة في تفجير اللعبة عليهم جميعا في الأساس وقلب المائدة على رؤوسهم بلا استثناء .

نقطة البداية الحتمية هي تحجيم العملاق الأعظم المضاد أمريكا بعزله ما أمكن عن سائر حلفائه أو بإبعاده عن التقارب مع سائر أعدائه . وفي هذا السبيل فليس أمام الاتحاد أولا سوى العمل على توحيد أوروبا وإبعادها بقدر المستطاع عن أمريكا ، مستغلا في ذلك خشية أوروبا من أن تتحول إلى ميدان المعركة المباشر ورغبتها لذلك في السلام ، بالإضافة إلى رغبتها في التحرر من النفوذ الأمريكي المفرط والاستقلال كقوة عظمى .

ثم لا يقل عن ذلك أهمية أن الاتحاد يريد ، ثانيا ، توحيد أمريكا (ومعها أوروبا الغربية بصفة تكملية) في صراعها المرير مع الصين . والنقطة أو العقدة الأساسية في ذلك عند الاتحاد هي كما رأينا ألا يواجهه أي تحالف متزامن على جانبيه غربا وشرقا في أوروبا وآسيا أي بين أمريكا (وأوروبا) والصين - هذا كما سبق رعبه الدائم وربما مقتله الكامن . ولذلك فإن كل خطوة تقارب بين أمريكا وأوروبا تجاه الصين يقابلها الاتحاد الآن بخطوة أو خطوتين تجاهها . وهذا يفسر المرونة الملحوظة في علاقات الاتحاد مؤخرا مع أمريكا وأوروبا .

وأخيرا ولنفس السبب فإن الاتحاد يريد ، ثالثا ، عرقلة أي تقارب بين الصين واليابان . ورغم أنه ليس من المحتمل كثيرا اجتماع هذين الأخيرين في حلف غير مقدس أو في تكتل موحد نظرا للتناقضات العميقة التاريخية والمبدئية بينهما ، إلا أن خطر اتحادهما في عمل أو موقف مشترك ضد الاتحاد على جبهة الشرقية يبقى مع ذلك قائما وبشير دائما مخاوف « الخطر الأصفر » . ويحاول الاتحاد بطبيعة الحال أن يوسع مسافة الخلف بين العملاقين الآسيويين مستغلا في ذلك التناقض الآسي بينهما . وفي هذا فليس أمامه سوى أن يسعى إلى التقارب مع اليابان بالطبع ، ملوحا لها بالاستثمارات والمشروعات المغربية التي لا حد لها في سيبيريا الشرقية خاصة . وإذا كانت مشكلة جزر الكوريل الأربع التي احتلها الاتحاد بعد الحرب الثانية وتطالب اليابان باستعادتها ماتزال معلقة وممانعة لتطبيع العلاقات بينهما ، فلعل الاتحاد يحتفظ بها للمستقبل البعيد كورقة رابحة في لعبة التوازن ، لاسيما أن أحد أسباب إصراره على عدم التنازل عنها خشيته فيما يبدو من أن يضع بذلك سابقة لمطالب اقليمية مماثلة من قبل الصين ورومانيا ... الخ .

على أن احتمالات الخطر والصدام التي قد يتعرض لها الاتحاد على الجبهة الآسيوية ليست بسيطة بل مركبة من مرحلتين على الأقل ، وخلفها بالاضافة والطبع تقف الولايات المتحدة دائما . فن ناحية فإن الهدف الأمريكي من محور أمريكي - صيني إنما هو - كما يرى البعض - ضرب الاتحاد السوفيتي أولا ، ثم بعد ذلك ضرب الصين نفسها لتصفية المعسكر الشيوعي على مرحلتين . أى أن اللعبة الأمريكية هي أن تتحد الولايات والصين لتتغديا معا بالسوفيت ، ثم لتتعضى هي بعد ذلك بالصين . غير أن البعض الآخر يتجه إلى قلب المتتالية . فهناك في أمريكا خاصة من يتصور ، ربما من قبيل أفكار التمنى أو الأفكار الثابتة ، التصادم أولا بين الصين واليابان على أساس أنها أقطاب متنافرة أيديولوجيا ، متعادية تقليديا ، ومتنافسة على زعامة القارة تاريخيا .

ومثل هذا الصدام إن لم يكن مرحلة على الطريق إلى التصفية العظمى ، فهو بديل مؤقت عن الصدام بين القطبين الأعظم ، ولمصلحتها على السواء أيضا : الولايات تتخلص من خطر اليابان « الصديق اللدود » الذي لا يعد أمريكا إلا « عدوا ما من صداقته بد » ، والاتحاد يتخلص من خطر التحدى الصيني . وبهذا وذلك يصنى الآسيويون بعضهم بعضا ، بحيث تتحول سياسة أمريكا الجديدة « آسيا للآسيويين » لترادف في الحقيقة « الآسيويين ضد الآسيويين » .

على أنه حتى إن صح هذا الفرض أو التصور ، فلسوف يأتي الدور بعده لكى يصنى الأوروبيون الآسيويين . وفي كل الأحوال ، فإن معنى هذا أن على الاتحاد أن يتوقع على مدى المستقبل القريب أو البعيد سباق قوة أشبه على الأرجح بسباق الحواجز Steeple chase ، إلا أن ترتيب هذه الحواجز هو الذى لا يمكن التنبؤ به .

الصين

لاشك أن أكبر مفاجآت لعبة التوازن ، مثلها هي أول افتتاح لها بعد الوفاق ، كان دخول الصين فيها بعد خروجها من عزلتها ، أو بالأحرى إدخال الصين فيها بعد إخراجها من عزلها . فلقد كانت زيارة الصين حين « طرق نيكسون بابها يستأذن فى الدخول » هي الحجر الذى ألقى فى بركة السياسة الدولية الرتيبة فرجها وملأها بالموجات والدوامات العنيفة ، كما كانت إشارة البدء بتدافع حقيقي ولانقول بتكالب على الصين بين كل من أمريكا وأوروبا واليابان ، كل لدوافعه وأسبابه وحساباته الخاصة . وبالمقابل ، لم تكن الصين من جانبها أقل رغبة إن لم نقل تلهفا ، رغم الحذر والتمنع ، فى الخروج إلى العالم

والانفتاح عليه ، إن لم يكن ردا لاعتبارها بعد ربع قرن من عدم الاعتراف بها ومعاداتها ، فلكى تلعب دورها الطبيعي والطيبي في هذا العالم والخروج من العزلة .

ونستطيع أن نحدد أهداف أمريكا في تقاربها مع الصين في أربعة أساسية ، اثنين منها أهداف سياسية استراتيجية واثنين اقتصادية تجارية . فهناك أولا ضمان فصل الصين عن السوفيت إلى الأبد حتى تبقى نقطة اللاعودة نهائية وحتى يستحكم الصراع بينهما أكثر وأكثر . ويتم هذا بإشعار الصين أنها لا تتقف وحدها وأن أمريكا تسند ظهرها في وجه العملاق الأعظم الذي يفوقها قوة بلاشك ويهددها تهديدا حقيقيا ومباشرا ، خاصة نوويا . وبطبيعة الحال فإن الخطر السوفيتي كان أول دوافع الصين إلى الاستجابة إلى التقارب الأمريكي والغربي . ونحن نعلم من قبل كيف تغيرت أولوية الأعداء والعداوات في حساب الصين حيث أصبح السوفيت على رأس القائمة بينما تأتي أمريكا بعد ذلك فقط . ولقد عبرت الصين نفسها عن ذلك مرارا بقولها إن العدوان المنتظر من الشمال أخطر من العدوان المتوقع من الجنوب^(١) .

أما كيف يمكن لأمريكا أن تقف استراتيجيا بجانب الصين ضد السوفيت ، فذلك أساسا عن طريق مساعدتها تكنولوجيا بالتصنيع والتحديث والتسليح الذي فتح بابه أيضا في دول أوروبا الغربية الكبرى كفرنسا وبريطانيا خاصة . وبالتصنيع الحديث بالذات يمكن للغرب مضاربة كل من الصين والاتحاد السوفيتي ببعضها البعض مضاربة فعالة ومؤثرة في مجال الصناعة ذاته كما في مجال السياسة عموما .

وقد ساعدت العروض والقروض الغربية هذه الصين على حسم جدلها الداخلي القديم حول الاعتماد على الذات والوسائل والطاقة البشرية أو على الغير والوسائل والتكنولوجيا الحديثة ، وذلك لصالح الاتجاه الأخير بالطبع أي الانفتاح . ولئن كانت الصين حريصة على ألا يصل هذا الاعتماد إلى حد أن تقع تحت رحمة الغرب ، فإن هذا من جانب لم يكن أقل حرصا على ألا يسمح للصين أن تتجاوز قوتها حدود الأمان والتوازن ، سواء اقتصاديا وسياسيا أو استراتيجيا وعسكريا .

وفي هذا المجال الأخير فإن الجانب النووي بالذات يعد الهدف الثاني من السياسة الأمريكية والغربية ومن أشد أهدافها حساسية وخطورة . ليس فقط كرادع وكدرع

(١) محي الدين خطاب ، « الصين والمحور الياباني الأمريكي » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ١١٣ .

صينى ضد القوة النووية السوفيتية الهائلة ، ولكن أيضا كإناع لانفجار الصين ذاتها نوبيا على العالم أو على أمريكا فى المستقبل وذلك إذا ماظلت فى عزلتها أو ظلت هى تعمل على عزلها . ليس فقط كتحجيم مضاد للخطر النووى السوفيتى يعنى ، ولكن أيضا كتلجيم مباشر للقدرة النووية الصينية ذاتها .

ذلك أن أمريكا كانت تستشعر بشدة خطر نمو القدرة النووية الصينية ، بما فى ذلك إمكانيات نقلها بالصواريخ إلى القارة الأمريكية ، إلى حد أنها أقامت شبكة دفاعات مضادة للصواريخ الصينية خصيصا . وقد أعلن نيكسون بصراحة أن إخراج الصين من عزلتها هو إخراج للهارد من ققمه سلميا قبل أن يخرج هو منه نوبيا على شكل حرب نووية عالمية فى غضون ١٥ - ٢٠ سنة (١) . ومن هنا جميعا فإن الموقف الغربى من الصين فى مجال التوازن النووى بالذات ينحضع لأدق الحسابات والاعتبارات القريبة والبعيدة المدى .

غير أن الهدفين السياسيين والاستراتيجيين السابقين ، على أهميتها الفائقة ، لا يزيدان إن لم يقل أهمية فى نظر البعض عن الهدفين الخاصين بالمجال الاقتصادى المادى . فالمقول والمرجح بشدة أن الحافز المباشر والأساسى فى آن واحد لطرق الولايات المتحدة باب الصين إنما كان العامل الاقتصادى والتجارة الخارجية . فبالنسبة للولايات كراسمالية عظمى ، كانت السوق الصينية الهائلة التى حرمت منها طويلا أكثر من مغرية ، كانت مسألة حياة أو موت تقريبا لتوسيع الاقتصاد الأمريكى المتأزم وإنقاذ الدولار ، وكذلك لانتزاعها من اليابان المنفردة بها تقريبا ووضع حد للمنافسة اليابانية الاقتصادية المخيفة للاقتصاد الأمريكى والغربى .

ومن المسلم به أن الرأسمالية الأمريكية كانت من أقوى قوى الضغط على الإدارة والسياسة الأمريكية من أجل الانفتاح على الصين . ولم تكن هذه بدورها أقل رغبة فى الانفتاح على التكنولوجيا الحديثة من جهة وموازنة النفوذ اليابانى الفائق على سوقها واقتصادها من الجهة الأخرى (٢) . وهذا ما ينقلنا إلى الهدف الأمريكى الرابع والأخير وهو تحجيم اليابان .

فإنذ تحولت اليابان ، تحت مظلة الوصاية السياسية والحماية الاستراتيجية الأمريكية ،

(١) السابق . ص ١٠٤ .

(٢) السابق . ص ١٠٤-١٠٦ .

إلى عملاق اقتصادى وإلى القوة الثالثة بعد العملاقين فى هذا المجال ، فإنها أصبحت تهدد بمنافسة ضارية ومنافستها تهدد بالتفوق الساحق على أمريكا ذاتها ، بينما وصلت المنافسة التجارية فى عقد دار أمريكا نفسها إلى حد الغزو الحقيقى حيث بلغت نسبة ما يذهب إلى أمريكا من مجموع الصادرات اليابانية نحو ٣٠٪ حاليا . وعلى الجملة أصبحت العلاقات الأمريكية اليابانية أقرب إلى الحرب الاقتصادية غير المعلنة . ومن هنا كانت السوق الصينية هى المخرج والمنفذ الوحيد أمام أمريكا كمتصر توازن وبديل وأداة لتحجيم اليابان والخطر اليابانى ، وهو ما ينقلنا أخيرا إلى موقف اليابان فى اللعبة الخفاسية الجديدة برمتها .

اليابان

كانت اليابان بالتحديد أشد من تأثر ، بل وروع ، من التقارب الأمريكى - الصينى . وكانت زيارة الصين والاعتراف بها ، لاسيما أنها تمت من وراء ظهرها ، صدمة هائلة بالنسبة لليابان تجمع بين الجرح والاهانة ، واعتبرتها هى بالفعل نوعا من « الخيانة الأمريكية » . أنهت شهر العسل العقدى الطويل بين الحليفتين اللدودتين ، بينما عدها البعض فى مغزاها الكلى بمثابة القنبلة الدرية الأمريكية الثالثة على اليابان ، وإن اكتفى البعض بأن شبهها بميثاق عدم الاعتداء الألمانى - السوفيتى بين هتلر وستالين قبيل الحرب العالمية الثانية . وفى كل الأحوال فقد اتفق الجميع على أن تلك الزيارة زلزلت وغيّرت إلى الأبد كل البناء السياسى والعسكرى الذى وضعه دلتز للعلاقات الأمريكية - اليابانية بعد الحرب الثانية ، أى تلك العلاقة الخاصة بينها .

والواقع أن السياسة اليابانية فى آسيا وخارجها أصبحت منذ ذلك الحدث ولأول مرة تتحرك حركة مستقلة إلى حد أو آخر عن الحركة الأمريكية ، ولم تعد تمثل معها جبهة موحدة الإيقاع والخطى والخطة مثلما كانت فى السابق . وكان أول مظهر من مظاهر هذا الاستقلال أو الانفصال السياسى أن اليابان ردت على المصالحة والتقارب الأمريكى - الصينى بمصالحة وتقارب سياسى مضاد يابانى - صينى . فإلى جانب العلاقات الوثيقة الاقتصادية ، سارعت اليابان إلى الاعتراف سياسيا ودبلوماسيا بصين واحدة لاصينين ، ساحة بذلك اعترافها بالصين الوطنية فى تايوان ، وهو الشرط الأساسى الأدنى لأى علاقة مع الصين (الشعبية الأم) .

وبطبيعة الحال فإن القرار الأمريكى لم يكن يستهدف بحال استبدال الصين باليابان

سياسيا أو استراتيجيا أو اقتصاديا ، أو حتى أن تعادل العلاقة بالصين العلاقة باليابان ، فضلا عن أن تتم على حسابها . إذ لاشك أن اليابان وليس الصين تظل وسوف تظل إلى أمد بعيد قاعدة الارتكاز الصلبة والركيزة الأساسية وقاعدة الأساس الأولى وعنصر التوازن الثابت في كل الوجود الأمريكي في آسيا والمهادى . لاسم أن العلاقات مع الصين ماتزال في البداية ، محدودة ، مترددة ، وتنتمى إلى المستقبل أكثر مما تمت إلى الحاضر فعلا ، في حين أن العلاقات مع اليابان واقع فعلى ، مائل وهائل إلى أقصى حد^(١) . ولكن لهذا السبب نفسه فإن مشكلة الولايات ستبقى دائما التوفيق بين العلاقتين وفض التناقض أو الاشتباك بين التقاربين ، أو هي كما وضعها البعض كيف تنجح في ممارسة « تعدد الزوجات » مع الغريمتين اليابان والصين .

ولعل اليابان عادت ، مع ذلك ، فرجت بالوضع والتوازن الجديد كوسيلة للاستقلال نوعا عن أمريكا والتحلل أو التخفف من رحمة التبعية الأمريكية الثقيلة الوطأة ، فتحل بذلك شيئا من متناقضة العملاق الاقتصادي والقزم السياسى التى تعانى منها وتوصم بها . وبالفعل فلقد استغلت اليابان الوضع الجديد ، حيث سحبت أمريكا قواتها من جزر أوكتيناوا وأعادتها إلى اليابان بعد أن ظلت قاعدتها العسكرية والبحرية والنووية الرئيسية في شرق آسيا .

كذلك فلعل الصين من جانبها رجبت بانجاء اليابان إلى التخفف من الارتباط السياسى العسكرى المفرط مع أمريكا ، لأنه في النهاية إنما محور موجه إليها وتهديد لها ، وإن لم تكن على استعداد في الوقت نفسه للقبول بفك ذلك الارتباط تماما ، حيث إن فيه على الأقل تقييدا ضمنيا لعودة العسكرية اليابانية التى تمثل خطرا تاريخيا وأبديا على الصين . ولهذا حاولت الصين استغلال رغبة اليابان العارمة في سوقها للعمل بدكاء على استدراجها بعيدا عن الولايات بقدر الامكان وعلى وجه العموم .

أما أمريكا فلا بأس لديها من تقارب يابانى - صينى يجذب الصين أكثر وأكثر بعيدا عن الاتحاد السوفيتى ويزيد الهوة بينها ، لكن أهم مايعنيها هو ألا يتم هذا التقارب على حسابها هي أو على حساب علاقاتها باليابان ، بحيث تصل إلى حد أن تستغنى الأخيرة عن حمايتها إذا ما أحست بزوال الخطر الصينى^(٢) . هذا أولا ، وثانيا ألا يصل التقارب

Edwin Reischauer, Japan, past & present, N.Y., 1965, p. 117 ff. (١)

Zbigniew Brzezinski, "Japan's global engagement", Foreign affairs, Jan. 1972, p. 270-6. (٢)

الياباني - الصيني إلى حد التكتل أو المحور أو الجبهة الموحدة ضدها هي نفسها ، وإلا لكان هذا هو « الخطر الأصفر » بعينه . وفي الحالين فواضح تماما أن المضاربة بين الصين واليابان هي محور اللعبة الأمريكية جميعا .

على أن اليابان ، كعملاق اقتصادى وقزم سياسى يفصل عمدا بين السياسة والاقتصاد ، أى باختصار « كحيوان اقتصادى » أساسا فى المرحلة الراهنة ، إنما يعنىها فى الصين سوقها الماردة فى الدرجة الأولى ، ومن هنا يبرز الخطر الأمريكى القادم والمنافسة الأمريكية فى تلك السوق . فثلا قبل الحرب العالمية الثانية كان ٤٠٪ من صادرات اليابان بذهب إلى السوق الصينية . وفى ١٩٧٠ كانت اليابان أيضا هى الدولة الأولى فى العالم فى تجارة الصين الخارجية . على أن المرجح أن خطر التنافس اليابانى الأمريكى على السوق الصينية مرجأ إلى المستقبل البعيد نسبيا ، حيث تكتفى الولايات المتحدة حاليا أو مرحليا بدور « عازف الكمان الثانى » تاركة لليابان دور العازف الأول كما وضعها البعض .

أما مع الاتحاد السوفيتى فعمل علاقة اليابان لاتقل تعقيدا وتضاربا - ومضاربة أيضا . فالتناقض الأيديولوجى معه لا يقل عنه مع الصين ، بينما يفوق الخطر السوفيتى الخطر الصينى أضعافا بحكم فارق القوة الهائلة ، مثلا تفوق الامكانيات السوفيتية الاقتصادية والمادية الامكانيات الصينية بمراحل بحكم فارق التقدم الشاسع . والخيار اليابانى ، إن كان ثمة خيار ، بين العملاقين الشيوعيين صعب شائك . على أن اليابان لعبت لعبة المضاربة بذكاء . فن ناحية كان تقاربها مع الصين ضغطا ضمينا على الاتحاد السوفيتى يواجه نفوذه ويحمده إلى حدما ، ولعله على المدى الطويل أن يدفعه إلى إعادة جزر الكوريل الأربع السلية . ومن الناحية الأخرى ففى وجه التقارب الأمريكى - الصينى افتعلت اليابان تقاربا مع الاتحاد السوفيتى كثقل مضاد وكضغط على الصين من أجل التقارب معها . ونقول افتعلت ، لأن اليابان بعد أن تحققت لها هدف التقارب مع الصين عادت فتباعدت عن الاتحاد السوفيتى إلى مواقعها الأصلية تقريبا كما أثبت باحث موضوعى مجيد^(١) .

على أن مشكلة اليابان الباقية سوف تظل دائما هى الجانب الاستراتيجى المتمثل فى وجود العملاقين الشيوعيين فى وجهها إلى جانب الوجود الأمريكى فى ظهرها . فبين

(١) محي الدين خطاب ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

مظلة الحماية النووية الأمريكية من جهة والخطر النووي السوفيتي والصيني المزدوج من الجهة الأخرى ، ليس أمام اليابان التي تكاد تكون حالياً شبه مجردة من السلاح نسبياً . سوى أن تتجه إلى التسليح الكامل المطلق والتسلح النووي بالتحديد ، أو أن تتجه إلى الحياد المطلق .

ورغم أن الولايات المتحدة هي أضلا التي تحثها الآن حثاً بل وتضغط عليها بشدة لترفع من نسبة إنفاقها على التسليح والاستعداد العسكري ، ورغم أن اليابان تعارض الاندفاع نحو التسليح حيث حققت كل طفرتها الاقتصادية المذهلة بفضل استبعاد تكاليفه الباهظة غير المنتجة ، فإنها قد تجد نفسها في المستقبل القريب أو البعيد مرغمة على التسليح الكامل دفاعاً عن نفسها إزاء الخطر المزدوج على القارة والاحتال أو التهديد الأمريكي بالانسحاب العسكري من قواعدها يوماً ما . وعندئذ ستجد نفسها مرة أخرى « واقعة بين مقعدين » .

ومن المؤكد أن اليابان ، القوة الوحيدة غير النووية بين كل الأقطاب ، قادرة تكنولوجيا على دخول النادي الذري متى شاءت أو اتيح لها ذلك سياسياً ، كما أن من المحقق أنها بكل ثقلها الاقتصادي الغلاب ستأخذ مكانتها السياسية الكاملة إن آجلاً أو عاجلاً . ومع ذلك فسيكون هناك فارق زمني كبير نسبياً بين اليابان وبقية أطراف السباق في مجال القوة السياسية والعسكرية . ولهذا فلا ندية ، وبالتالي فلا منافسة ، حالاً أو مستقبلاً مع أي من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . ومن هنا ورغم التناقض الأيديولوجي الحاد وتلك الخلافات الإقليمية مع الاتحاد السوفيتي ، فإن احتمالات الصدام ضئيلة للغاية . كذلك فرغم التنافس الرأسمالي مع الولايات المتحدة ، خاصة على السوق الآسيوية حيث تهدد اليابان بوراثة الدور الأمريكي ، فإن صدام القوة غير وارد تماماً حتى كمجرد احتمال أو فرضية .

أما الخطر الحقيقي فهو مع الصين . فهنا العدوتان التقليديتان في القارة والمنافسان الآسيويان الحقيقيان على الزعامة فيها . ولهذا فإن التناقض بينهما الآن مثلث الأبعاد ، أيديولوجي وقومي وصراع قوى . ولا تخشى الصين اليوم كما تخشى انبعاث العسكرية اليابانية ، بمثل ما أن اليابان لا تخشى كما تخشى بروز الصين النووية وخروجها من العزلة إلى الصدارة العالمية .

وإذا كان البعض مثل هيرمان كان يتنبأ بأن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن

اليابان ، فالغالب أن هذا قد يصح فقط اقتصاديا وإنتاجيا . أما ميزان القوة الاستراتيجية السياسية والعسكرية فالأرجح أنه معقود للصين في نهاية المطاف ، لأن عوامل الطبيعة والجغرافيا والموارد والسكان في صفها خارج كل مقارنة . نعم هي قد تلحق بالصين في المدى القصير بفضل سبقها التكنولوجي والصناعي الخارق ، وربما تسبقها كذلك في المدى المتوسط ، ولكنها ستتخلف غالبا في المدى البعيد . على أنه في تلك المراحل الأولى بالتحديد يمكن خطر الصدام . الذي قد تغذيه مضاربات توازن القوى من الخارج .

حرب نووية أم سلام عالمي ؟

حسنا ، لقد انتهت رحلتنا للمقعة المتعبة بعد أن طالت عبر الزمان والمكان وطافت حول العالم أجمع ، مطوفة من أعماق الماضي السحيقة إلى أطراف المستقبل الشاحبة . ولقد آن لنا بحق أن نساءل في نهاية المطاف : ثم ماذا بعد ؟ مااحتمالات المستقبل ، وإلى أين يتجه العالم ، هذا الذي لايتعلم قط درس التاريخ فيما يبدو ؟ وأية نبوءة أو بصيرة يمكن أن تهديها إياه الجغرافيا ، أو أية توصية ولا نقول وصية يمكن أن يقدمها له الجغرافي ؟ أهى الحرب العالمية الثالثة أو النووية الأولى والأخيرة ، أم هو السلام العالمي أخيرا ؟ أهى نهاية العالم أم نهاية العداة ؟

متغيرات التكتل

والأيديولوجية

لعل أبرز وأخطر ماتشى به المتغيرات السياسية المعاصرة ظاهرتان رئيسيتان هما أصلا وثيقنا الارتباط عضويا ولاانفصال لها عمليا ، وفيها على السواء يبدو واضحا دور الرعب النووي وعنصر الدولة - القوة البحث الكامن وتأكيد عودة عامل القومية والقيم البراجماتية والضرورات الواقعية ... الخ . هاتان في إيجاز هما تخلخل التكتل وتلطف الأيديولوجية .

فأما تخلخل التكتل ، ولعله تعبير وسط يجمع بين التفكك والتحلل أو التفتت والتآكل ، فظاهرة عالمية معدية وسارية لاقتصر على الكتلتين المتناقضتين الغربية والشرقية فقط بل تتعداهما أيضا إلى تجمع عدم الانحياز في العالم الثالث نفسه ، وإن اختلفت درجات التخلخل هنا وهناك كثيرا أو قليلا بطبيعة الحال . بل ليس تحول العالم المتوقع من استقطاب ثنائي إلى استقطاب خماسي في المستقبل إلا تعبيرا مباشرا مثلما هو بليغ

عن ظاهرة تخلخل الكتل تلك ، فإنما ستولد تلك الخاسية من رحم الكتلتين الحاليتين وعلى حسابهما .

وعلى المستوى التفصيلي ، فإن الانشطار الشيوعي « النوى » أغنى ما يكون عن الذكر ولا يحتمل التأكيد أو التعليق ، كما أن من المستبعد كثيرا أن يعود إليه الالتئام كما يسعى أو يأمل البعض . غير أن التمزق التدريجي داخل الكتلة الغربية لا يقل مغزى وإن قل أبعادا وأعماقا بالتأكيد . فالغرب سائر فيما يرى الكثيرون إلى تثنية نسبية أو انشطار خفيف على جانبي الأطلسي ، دون تناقض جذري بالطبع فضلا بالتأكيد عن أى صراع غير سلمى . أما العالم الثالث ، المفكك الأوصال أصلا ، فإن تيار عدم الانحياز واضح ضياعه وتشتته بما فيه الكفاية .

وفي الوقت نفسه فإن الفرقاء بدأوا بدرجات متفاوتة ولأسباب مختلفة يتقاربون بعض الشيء نسبيًا ، بمعنى أن الأصدقاء السابقين أخذوا يتحفظون نوعا في الصداقة المشبوبة ، فما أخذ الأعداء السابقون يتحفظون أكثر في العداوة المحمومة . من الحالة الأولى أوروبا وأمريكا ، ومن الحالة الثانية على الترتيب أوروبا والروسيا ثم أمريكا والروسيا ثم الصين والغرب وربما بعد ذلك الصين نفسها والروسيا . وبينما خفت أو خفت صيحات الحرب بين الجميع تقريبا ، اشتدت العلاقات والمعاملات السلمية ومبادلة التكنولوجيا بين أغلبهم . في حين تسلت دعوات السلام بين البعض منهم ... الخ .

هذا عن تخلخل الكتل . أما تطف الأيديولوجية ، وهذا أيضا تعبير يجمع بين التخفف من التطرف والميل نحو الاعتدال وبين التراجع والانحسار ، أو بين الشحوب والعمى وبين المرونة والتلاؤم ، فإن أحدا لا يشك اليوم في أن الروح الصليبية المتعصبة والتصلب العقائدى الهيستيري ، تلك التى وصلت يوما إلى الذروة ، قد تراجعت وتراخت وخفت أو حتى اختفت على كلا الجانبين على السواء ، كل أيضا بأحزابه وشيعه وفرقه وطوائفه . فحتى في أعنى معاقل الرجعية وأعلى قلاع الرأسمالية في أمريكا ماتت ودفنت تقريبا دعوة الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية ، في حين لم يعد أحد يدعو كثيرا فيما يبدو إلى الثورة العالمية الشيوعية حتى في صين ماو أو ما بعد ماو .

تغيرات هيكلية ؟

أكثر من هذا فإن هناك من يرى - إن خطأ أو صوابا - في بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى ترحف على كلا الجانبين ، كالأخذ بلون من التخطيط

والتدخل في الغرب الرأسمالي وإعادة الاعتبار لعوامل الريح والحافز المادى في الشرق الشيوعى ، مؤشرات أولية نحو تغييرات هيكلية في النظم والأيدولوجيات المتناقضة ذاتها . وبصيغة أخرى ، فإن الرأسمالية الذكية تطعم نفسها بوعى أو عن غير وعى بعناصر أو جرعات اشتراكية ما ، والشيوعية الواقعية هي الأخرى تخفف نوعا عن عمد أو غير عمد من درجة تركيز محلوها الأيدولوجى أو من درجة حموضة المذهبية . وبصيغة أخيرة ، فإن الشرق بات يكتب أيدولوجيا من اليسار إلى اليمين ، والغرب من اليمين إلى اليسار ، وعند نقطة الوسط أو قرب نقطة ما في الوسط سيلتقيان .

ليس هذا فحسب . بل إن البعض ليتفاهل حقا إلى حد تصور أنه تحت ضغط الرعب النووى وتحت تهديد انزلاق العنصر الأوربى في مجال القوة العالمية ، سيرغم كل من القطبين المتنافرين على أن يخفف بالتدريج من تطرفه نحو اليمين أو اليسار حتى ، وإلى أن : تلتقى الرأسمالية المطلقة والشيوعية الكاملة على أرض اشتراكية مشتركة . ومن هذا الالتقاء ينتهى البعض إلى تصور محور أوربى أبيض يستقطب العملاقين وينهى انقسام العالم إلى غرب وشرق ليبرز مكانه انقسامه إلى شمال وجنوب . ويعزز هذا التصور - الحالم - ما يحدث الآن داخل معسكرى الشرق والغرب ، وهو ما تنتقل إليه مباشرة .

فعلى الجانب الشرقى ، لا يملك الباحث الموضوعى إلا أن يلاحظ ، بدهشة نوعا ، أن الخلافات الأيدولوجية والمعارك الفكرية الرهيبة التى لا حصر لها داخل المعسكر وبين الرفاق ، وما يترتب عليها من صراعات دموية وغير دامية فرقتهم ومزقته فرقا وشيعا ، هي جمعيا أو غالبا مرحلية عابرة في نهاية المطاف وأيا كانت الأسباب أو المبررات . بمعنى أن ماتفعله روسيا اليوم مثلا وترفضه الصين بشدة وبخزم بل وتقاومه بحملة حرب ، تفعله الصين نفسها غدا بلا حرج ولا تحفظ . كالاتجاه ، مثلا ، إلى التصالح مع أمريكا والتعايش مع الغرب والانفتاح على أوربا وأمريكا ... الخ . كالتحول ، مثلا آخر ، إلى التكنولوجيا الحديثة كبديل عن القوة البشرية ... الخ . وما كان ، من ثم ، هرطقة وزندقة عقائدية بات اليوم مقبولا أو مسموحا به ، وخوراج الأمس عادوا رفقاء اليوم وربما رفاق الغد من جديد . إنها دورة ، دورة تطويرية أيدولوجية سياسية كاملة أو تكاد ، يخضع لها ويقع على منحناها في مواقع متعاقبة كل الرفاق .

فيوجوسلاويا والتيتوية ، بكل ما تعنى من تسيير ذاتى وحافز الريح والملكية الصغيرة والاحتكاك الوثيق بالغرب ... الخ ، لم تعد الحرافا وخروجها في نظر روسيا ولا إلحادا ومروقا في نظر الصين نفسها . وكذلك حال التجربة أو الابتعاد الرومانية إلى حد آخر .

وبعد أن كان الاتحاد السوفيتي - بعد الصين وحدها - هو العدو الأول ليوجوسلافيا
أيدولوجيا ، أصبحت الصين - بعد ألبانيا وحدها - هي عدوها الأول ، والآن لم يعد لها
من عدو سوى ألبانيا وحدها !

غير أن ألبانيا ، التي كانت العدو الأول « لانحراف » الروس العقائدي نحو التعايش
السلمي ، فضلا بالطبع عن « انحراف » يوجوسلافيا ورومانيا ، والتي كانت الصديق
الأوحد للصين داخل المعسكر في صراعها ضد الروس ، لم تلبث أن أصبحت العدو
الأول للصين بعد أن تحولت بدورها إلى التصالح مع أمريكا والتعايش والتعامل مع
الغرب كالروس من قبل . وكما كانت ، أو إذا كانت ، الصين هي التي تولت توجيه
اللائم إلى السوفيت بالانحراف والتواطؤ مع الغرب الرأسمالي ، فإن ألبانيا هي التي تولت
فيما بعد توجيه اللائم نفسه إلى الصين ذاتها وبدورها .^(١) وهكذا في التصنيفية الأخيرة
أصبحت ألبانيا وحدها وبالتحديد مركز الرفض العقائدي الراديكالي اليوم داخل المعسكر
جميعا ، مركز التطرف والنقاوة الأيدولوجية المطلقة يعني ، أي بالتعريف والاستنتاج
معقل الشيوعية النقية الحقة ، آخر معاقلها بالطبع !

مفارقة مذهلة ومتناقضة فذة بقدر ما تبدو ساخرة . لكنها ، في الواقع ، إنما تضع
أيدينا على القانون الكامن خلف كل هذه التناقضات ، والميكانيزم الحاكم لهذه
التطورات أو التحورات . إذ يبدو أنها قاعدة أصولية عامة أن التطرف والتصلب
العقائدي الذي يصل إلى حد الجمود الفكري يتناسب تناسبا طرديا مع درجة التخلف
والفقر المادي والرجعية الأصلية ، وعكسيا مع درجة التطور والتقدم نحو الرخاء المادي
والانفتاح الحضاري العام .

فألبانيا ، الجبلية المنعزلة الفقيرة الرعوية القبلية التي كانت تعيش في العصور الوسطى
إلى ما قبل ثورتها ، ألبانيا هي بلاشك أشد دول أوروبا تحلفا وفقرا ورجعية بصفة تقليدية ،
وهي بالتعويض وحده يقينا قمة التطرف الأيدولوجي داخل المعسكر وقمة الرفض
للسوفيت على رأسه . وعلى العكس تماما ، الاتحاد بالطبع أصبح قمة تطور وتقدم
المعسكر الشيوعي كله ماديا وحضاريا وثراء وإنتاجا ومستوى معيشة ، وبقدر هذا التطور

(١) أحمد فارس عبد النعم ، « أبعاد الخلاف الصيني الألباني » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص

١٧٤ - ١٧٦ . نخري عزيز ، ص ١٣٢ - ١٣٩ .

خف تصلبه الفكرى وكان أسبق الرفاق إلى « التبرجز والارتداد أو الانحراف والمهرطقة » كما اتهم من قبل بعضهم ... الخ .

اليوروشيوعية

انتقل الآن إلى المعسكر الغربى ، مركزين عدستنا مؤقتنا على ذلك القطاع أو العنصر المنتهى من الاشتراكية وحده وسط محيط الرأسمالية السائد . ولنلاحظ أولاً أن هذا العنصر يقل وزنه ودوره بشدة وبسرعة كلما اتجهنا غربا حتى يصل إلى أدناه ولانقول إلى نقطة التلاشى أو الصفر فى الولايات المتحدة ، بينما يحقق ذورته فى أقصى الشرق فى فرنسا وإيطاليا حيث توجد تقليديا أقوى أحزاب شيوعية فى أوروبا الغربية منذ الحرب الثانية ، فضلا بالطبع عن الأحزاب الاشتراكية الأكثر قوة والتي تولت الحكم والسلطة مرارا بالمشاركة أو منفردة .

الآن ، عن هذه الجزر الاشتراكية المنعزلة الواقعة خارج المعسكر الاشتراكي الأب ، انبثقت وتولدت مؤخرا طبعة أو ترجمة أوربية غربية جديدة للشيوعية الأم هى الشيوعية الأوربية أو اليوروشيوعية كما تعرف أحيانا Euro-communism . والخط المحورى المعلن فى هذه الفلسفة الجديدة هو التراجع عن حتمية الثورة الدموية الوطنية أو العالمية وعن صراع الطبقات الاجتماعية ، والقبول بالحل السلمى للصراع الاجتماعى ، وتعدد المراكز فى العالم الشيوعى polycentrism ، ثم أخيرا الاتجاه إلى التعايش السلمى مع سائر الأنظمة الاجتماعية فى الشرق كانت أو فى الغرب . وسواء قبلت أم لم تقبل الشيوعية المركزية الأم بهذه الابتعاد ، التى تكاد فيما يلوح تفرغ العقيدة الأصلية من معظم مضمونها الراديكالى ، فإنها على ما يبدو قد جاءت لتبقى .

وهى بهذا ، أو بغيره ، تمثل مزيجا أو مزاجية أو حتى زواج مصلحة marriage de convenience⁽¹⁾ بين راديكالية الشرق الاشتراكي وديموقراطية الغرب الرأسمالى ، وحلا وسطا بين الشيوعية الماركسية المتطرفة فى طرف واشتراكية الإصلاح والغايبية والعمال والتأمين والمعاشات والخدمات وأشباهها فى أمثال بريطانيا وسكندنافيا فى الطرف الآخر . ثم هى تمثل بالدرجة نفسها محاولة من جانب أوروبا الغربية للاستقلال أيديولوجيا عن الشرق وبابويته أو أبوته الكرملينية أو عن مركزيته ووصايته المسكوفية . ومن هذه

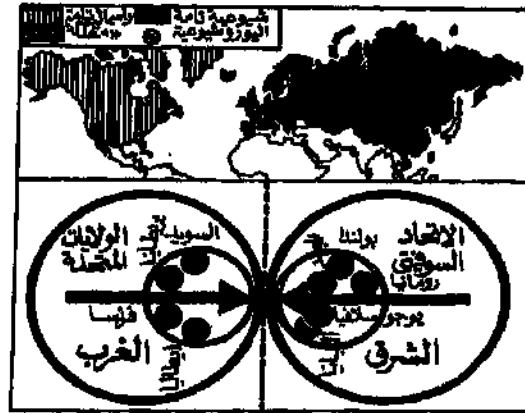
Anouar Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 177.

(1)

الزاوية ، فإنها بلاشك تعد محاولة لإخضاع الشيوعية للقومية بدل الأممية ، إذ من الصعب أن نعرف ما إذا كانت اليوروشيووعية أوربية أكثر أم شيوعية أكثر ، بمعنى هل فيها من الشيوعية أكثر أم أقل مما فيها من الأوربية ، ولا نقول هل هي شيوعية بالاسم فقط أوربية بالفعل أساسا ؟

أيا ما كان ، فلعل هذه البذرة أو البادرة الجينية أن تشكل طلائع مرحلة انتقال بين النقيضين وترسى رأس جسر للعبور بين العالمين ، رأسه الآخر ترسخه التجارب الاشتراكية أو الشيوعية غير التقليدية على الجانب الآخر من النهر في يوجوسلافيا ورومانيا وأمثالها . وفي هذا السياق ، فلعل تجربة بولندا بنقابتها « تضامن » ، وإن أجهضت ، أن تعد محاولة تراجع ونكوص عن الشيوعية بصورتها الكاملة القائمة إلى اشتراكية مخففة « ممقرطة » .

وعلى أية حال فإن مجموع هذه الحالات والمحاولات يؤلف معا نطاقا انتقاليا بوضوح بين الأوربيتين ونظاميهما ، ويفتح عملية تقارب نسبي من الغرب وديموقراطيته . والملاحظ ، بعد ، أن هذه التطورات إنما بدأت على التخوم الهامشية لكلا المعسكرين ، أى في نطاق الوسط المتجاور والمتلاصق بينهما . فلو استمر هذا التطور والتقارب بنجاح من الجانبين نحو حل وسط أو نمط أوسط ، ثم توسع بالتدريج وتعمق في كلا الاتجاهين شرقا وغربا إلى أن يصل إلى النواتين النوويتين في أقصى الطرفين ، فلربما كان هذا هو « الحل التاريخي الوسط historic compromise » المقول أو المقبول بين النظامين .



شكل (٣٨) خريطة الايديولوجيا المعاصرة في نصف العالم الشمالي . لاحظ منطقة الانتقال في شرق وغرب أوروبا . هل تصبح أوروبا هي جسر التقارب في المستقبل بين الغرب والشرق ؟

وعلى أية حال فإن الملاحظ حالياً أن التوزيع الجغرافي للأيديولوجيات في نصف الكرة الشمالي يبدى قدراً من التدرج النسبي ما بين قطبيه النقيضين في أقصى الشرق وأقصى الغرب ، أى بين الشيوعية الكاملة في الأول والرأسمالية الكاملة في الثانى . نبعث الشيوعية الكاملة في أقصى الشرق في الاتحاد السوفيتى (ومن قبله موقعا في الصين) ، تأتى الشيوعية غير التقليدية في أجزاء من شرق أوروبا (رومانيا ويوجوسلافيا) ، فالبيوروشيوغية البازغة في دول من غرب أوروبا وسط محيط تختلط فيه الرأسمالية وتتطم بألوان من اشتراكية الإصلاح والعمال والخدمات الاجتماعية خاصة في سكندينايفيا وبريطانيا ، وبعدها فقط نصل إلى الرأسمالية الكاملة غير المنقوصة في الولايات المتحدة نفسها . تلك هى خريطة الأيديولوجيا الجغرافية أو جغرافية الأيديولوجيات (ideogeography الأيديوغرافيا أو geo-ideology الجيودايولوجيا كما قد نسميها) .

الحل الوسط التاريخى ؟

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشرق والاتحاد هو قطب وقمة الأيديولوجيا ، بينما أن الغرب وأمريكا هو قطب وقمة التكنولوجيا ، وأوروبا الغربية هى الوسط الذى يأخذ بينهما من كلا العنصرين الأيديولوجيا والتكنولوجيا بطرف وبنسبة أو بأخرى ، لتأكدت لنا الخطة برمتها كجزء من عملية تقارب تاريخى تدريجى وثيد للغاية بين طرفى النقيض ، قد تنتهى على المدى البعيد إلى مايتصوره ويتنبأ به أو يتمناه البعض من أرض مشتركة يندغم فيها الجميع في نظام أيديولوجى واحد تقريبا هو وسط بين الشيوعية الفاقعة والرأسمالية الكالحة ، لعله أن يكون الاشتراكية المعتدلة أو المعدلة أو العادلة أو العادية (؟) ... ولو تحقق هذا أو شىء منه عاجلا أو آجلا ، فإن أوروبا ، وأوروبا الغربية خاصة ، المرشحة حالياً لأن تكون ميدان المعركة وأرض الصدام في أى حرب عالمية قادمة ، قد تصبح على العكس أرض التقارب وميدان الانصهار والتصاهرين الفرقاء والأضداد . ومثل هذا لن يكون بالأمر الغريب تماما ، حيث كانت أوروبا الحديثة هى مهد كل التجديدات والمذاهب السياسية والاجتماعية الجديدة وموطن كل التخمرات والتفجرات والتجارب المذهبية سواء السلمية أو العنيفة ، سواء المعتدلة أو المتطرفة .

وإذا كانت نبوءة لينين عن أوروبا الغربية كالموطن المرجح للثورة الشيوعية الدائمة قد أثبتت عدم صحتها ، فلعل هذه بالمقابل أو كبديل أن تصبح موطننا للثورة الاشتراكية الهادئة للمعتدلة المتدرجة . فإن صح هذا أو حدث - من يدري ؟ - فلعله بدوره أن يكون دور أوروبا الذى احتفظ لها به التاريخ للقرن القادم أو للقرن الحادى والعشرين ، وهى

التي باتت تبحث لنفسها عن دور جديد بعد أن فقدت دورها القديم أو التقليدي الذي بلغ ذروته في القرن الماضي أو حتى منتصف القرن الحالي .

وعدا هذا على أية حال ، أفلا تتلخص قصة الصراع بين العملاقين والمعسكرين في التحليل الأخير في أنها بدأت صراعا أيديولوجيا أي بين الاشتراكية والرأسمالية ، فنحوت في ظل وتمت ضغط العصر النووي إلى صراع بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا أي على الترتيب بين المذاهب السياسية والأسلحة النووية ، فانتته أخيرا بتغلب الأخيرة على الأولى بحشية الانتحار النووي المتبادل ؟ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن التكنولوجيا (التكنولوجيا النووية) قد أثبتت أنها أقوى عمليا من الأيديولوجيا (الأيديولوجيا المذهبية) ، فأرغمتها أو هي سترغمها على التقارب والاتجاه نحو الحل الوسط التاريخي .

ثم أخيرا وليس آخرا ، فلعل الدعوات السلامية التي انتشرت مؤخرا بين الفرقاء ، والآراء المطروحة أحيانا عن الحل للتبادل والمتزامن لحلتي الأطلنطي ووارسو ، بالإضافة إلى ما يتنبأ به البعض من غزو مبدأ عدم الانحياز لأوروبا الغربية ثم من سيادته عالميا «كذا» ، لعل هذه التطورات وأمثالها أن تكون مؤشرات في الاتجاه نفسه (٩) .

وبعد ، فلقد يكون هذا التصور كله رجما بالغيب أو من قبيل أحلام التعويض وأفكار العنى والأمانى الطيبة الطوباوية التي تنفصل أكثر مما ينبغى عن الواقع للثبط ، وقد يسخر منها المستقبل بلارحمة . وما من شك أن التنبؤ السياسي بالمستقبل ليس فقط أمرا بالغ الصعوبة والعسر ، ولكنه قبل ذلك أمر خطر محفوف بالمزالق العلمية والشكوك . كذلك فليس في العلم بطبيعة الحال مكان للتفاؤل أو التشاؤم ، ولكن إن كان ولا بد فليس من مصلحة أحد أن يرجح إحدى الكفتين على الأخرى . ولعل هذا هو الموقف الموضوعي ، حتى علميا ، وهو لذلك الذي يمكن أن يكون بوصلة المستقبل .

فصحيح أن الدرس الذي يعلمه لنا تاريخ الصراعات البشرية والسياسية هو أن أعداء أمس هم أصدقاء الغد ، وأن أصدقاء اليوم قد يصبحون أعداء الغد ، وأن التشكيلات السياسية في العالم نمط متغير أبدا بالتدرج أو بالطفرة ، غير أن من الصحيح أيضا أن الدرس الأكبر والذي لا ينبغى قط أن ننساه هو أنه ليس هناك ما يمنع في نهاية المطاف من أن يكون كل أعداء أمس أصدقاء الغد جميعا ، وأن يصبح التشكيل السياسي الوحيد في العالم كله هو استراتيجية السلام لا الصراع وحلف البشرية لا حلف الفضول . دعنا - على أية حال - نأمل ، ولنتنظر لنرى ...

مطابع الشروحات

شؤوننا : ص ٨٩٤ - كتاب : ٣١٥٤٥٩ - ٣١٥٤٥٩ - ريتا ، وشريف - الطبعة : ٢٠١٠
القائمة : ١٧ مطابع كوكب - كتاب : ٧٧٤٧٨ - ٧٧٤٧٨ - ريتا ، وشريف - الطبعة : ٢٠١٠

To: www.al-mostafa.com